مرتفعات الجزيرة العربية

الجزء الثاني

تأليف

هاري سانت جون فيلبي

تعريب

د. حسن مصطفى حسن

تقديم ومراجعة وتعليق

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

أستاذ التاريخ بجامعة الملك خالد

السعودية . أبها



ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
فيلبي، هاري سانت جون
مرتفعات الجزيرة العربية، ترجمة حسن مصطفى حسن، تقديم
ومراجعة: غيثان بن علي بن جريس - الرياض
٢ج، ٢٤سم
ردمك: ٣-١٦٩-٤٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٥-١٧١-٤٠-٩٩٦٠ (ج٢)
١- الجزيرة العربية - رحلات
أ- حسن، حسن مصطفى (مترجم) ب- العنوان
ديوي: ٩١٥,٣٠٠١٠٤ ٢٣/١١٢٧

ردمك: ٣-١٦٩-٤٠-٩٩٦٠ (مجموعة) رقم الإيداع: ٢٣/١١٢٧
٥-١٧١-٤٠-٩٩٦٠ (ج٢)

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

الناشر



الرياض. العليا. تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة
ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥
هاتف: ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩





الباب الرابع

النجد المرتفع

الرابع من نوفمبر إلى الرابع من ديسمبر ١٩٣٦م



الفصل السابع عشر

الطريق إلى حبونا

ينطلق وادي الإثايبة عند الزاوية الشمالية الشرقية لسهل سعيد، إلى خارج التلال المحيطة، ليدخل إلى مجرى حصوي واسع يجري بدوره أسفل السلسلة التي تسد السهل من ناحية الشرق إلى أن ينقسم إلى مسارين متوازيين، ليعبر بعد ذلك طريق السيارات الرئيس الذي يقع قليلاً ناحية الشرق من آل منجم ويتصل آخر الأمر مع وادي نجران قليلاً فوق فجوة الدريب، والتي عن طريقها يعبر وادي نجران إلى الصحراء.

تقف هضبة صغيرة من البازلت بالقرب من منفذ الوادي من عند التلال، ويبلغ ارتفاعها حوالي (٥٠) قدماً، ويوجد عند قاعدتها مقبرة، ربما كانت مقبرة تضم رفات الحجاج الذين سقطوا أثناء الطريق، ذلك لأن هذا هو الطريق المسلوك العادي -درب الجمال- المؤدي إلى مكة ذلك قبل افتتاح طريق السيارات الجديد الذي يقع قليلاً ناحية الشرق.

يتملكني العجب إن لم يكن هذا هو درب الفيل القديم مرة أخرى، غير أن هذا التفكير لم يكن صحيحاً، إذ أن درب الفيل يقع بعيداً ناحية الغرب، برغم أن مرشدي الجديد، واسمه مسفر، لم يسمع به قط. كان مسفر على كل حال، مرشداً محلياً جيداً وكان يعترف فقط بأنه ملم بالطريق إلى حبونا، كان كل ما استطعت رؤيته عن نجران من عند قمة عان بريم هو نخيل المخلاف الذي يمتد من عند آل منجم إلى طعزه، وبعض القمم على الجانب الآخر من الوادي حتى عرير.

توجهنا إلى أعلى مجرى الإثايبة، الذي بدأ يضيق تدريجياً بين رعني سلسلة السوادة التي تقع على يسارنا وسلسلة شريم قليلاً إلى الوراء على جانب الوادي الأيسر. كانت هنالك أشجار طلح على جانبي بطن السيل، غير أننا كنا نسير مدة تقل عن نصف الساعة -أي أكثر قليلاً من الميل الواحد، ويعزى ذلك لأن سرعتنا لم تزد عن ميلين ونصف الميل في الساعة- إلى أن وصلنا إلى الفم العريض لرافد يسمى شعيب سيلة الذي التففنا من حوله تجاه الشمال الغربي. يمكننا من هذا الموقع رؤية رأس وادي الإثايبة على مسافة ميلين داخل التلال المنخفضة التي ينبع منها وهو شعيب غير مهم. كان سلية رافداً أكثر منه مجرى، وكان بطنه متعرجاً وتنمو في بعض أجزائه أشجار الطلح وبينما تكون أجزاء أخرى منه عارية من النبات. تلتقي معه هنا وهناك روافد صغيرة أخرى، ويضيق سيلة سريعاً بين صخور غريبة شديدة الانحدار حتى يصبح على بعد ميلين ونصف الميل من فمه وقد صار عرضه (٥٠) ياردة فقط، وكان عبوره صعباً جداً.

اتفق آل جابر على إمدادنا بالرجال الذين يشرفون على أمر جمالنا، وهم من آل فاطمة، وكانوا كلهم يسيرون على الأقدام، يغنون طيلة الوقت ويرقصون أثناء سيرهم. كانوا يبدون وهم سعداء جداً أثناء سيرهم. وصل رافد سيلة إلى رأسه، بعد مسافة ميل آخر وقد كان يتلوى ويدور وهو يصعد، عند جلاميد منتثرة على خلفية لصخور سوداء شديدة الانحدار. نزلنا عن ظهور دوابنا لنسير على أقدامنا ونقود الجمال عبر الممر الشديد الانحدار الشديد الخطر والذي تم قطعه بين الصخور والصاعد إلى العقبة على ارتفاع (٢٥٠) قدماً فوق رأس الرافد حيث اكتشفت أننا قد بلغنا ارتفاعاً يقارب (٦٠٠) قدم فوق مستوى سهل سعيد. كنا نصعد، بالطبع، طيلة الوقت دون أن نحس بذلك.

توقفنا قليلاً عند قمة الممر لنسمح لكل حيواناتنا أن تصل ولتحديد القافلة وقد انتهزت هذه الفرصة لأتسلق إلى بقعة على السلسلة عند ارتفاع (١٥٠) قدماً من هذا الموقع، وحوالي (١٠٠٠) قدم فوق نجران، التي كنت آمل أن أراها. يبدو أن هذه السلسلة متوضعة إلى الخلف وأنها أقل ارتفاعاً من التلال التي تشاهد حول سهل سعيد، وكان عليَّ أن أكتفي بإلقاء النظرة الأخيرة على تنصاب التي تقع إلى البعيد ناحية الشرق وعلى بعض من مجموعة بني كلب[١] في رمال الصحراء. يقع رأس شعيب الرغام على مسافة ميل واحد ناحية الشمال الغربي من موقعنا الذي سيهبط إليه طريقنا من الممر، الذي نسير فيه بعض المسافة إلى الخلف وحتى مجرى الرغام لا توجد أي علامة لطبقة الغطاء من الحجر الرملي فوق الجرانيت غير أنه فيما يلي أرغم فإن كل قمم السلاسل تحمل هذا الغطاء العادي بدرجة من الكثافة تقل أو تكثر.

أمضى رفاقي وقتهم في إعداد القهوة التي رحبنا بها كثيراً قبل مواصلة المسيرة. كما حلق صقر عالياً فوق العقبة أثناء تناولنا للقهوة لعله يتجسس لمعرفة ما نقوم به. وذكر أناس من آل فاطمة أن هذه الصقور[٢] كثيراً ما تلتقط حملانهم، وتفترس عادة الأرانب البرية والغزلان الصغيرة. تقع مقبرة صغيرة على جانب شعيب الرغام، مكونة من قبور بدائية (لحجاج أو بدو)، وشعيب الرغام مجرى رملي تنمو عليه بعض أشجار العلب (السدر) الصغيرة وبعض الطلح ويجري من جهة الشمال الشرقي بين منحدرات سهلة. تتبعناه مسافة ربع ساعة وتحولنا عنه

---

(١) يذكر البلادي أن (أكلب) هي جبل بني أكلب، انظر: **بين مكة وحضرموت**، ص ١٩٥ . (ابن جريس).

(٢) لعلها من جنس (Lammergeirs) ويسمونه عيذة عند عرب منطقة الطائف. (المؤلف).

ناحية الشمال فوق الدلتا العريضة لشعيب جرثم، الذي تركناه سريعاً باتخاذنا لرافد آخر لنصل إلى ممر على ارتفاع (٥٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، وعلى مستوى الارتفاع نفسه لممر سيلة. هبطنا من هذا الموقع ناحية الشمال الغربي على منحدر صعب إلى حوض تلي تجاه مجرى جار الطويلة، كنا خلال ذلك نميل إلى الالتقاء مع طريقنا من عند التلال التي على يسارنا (على مسافة ميلين). كان هذا الشعيب جافاً وعارياً من الغطاء النباتي عدا قليل من شجيرات العوسج وشجيرات الطلح، وهو يمتد حتى شعب عرقان الذي يرفد وادي حبونا.

قمنا بمقابلة مجموعة من القحطانيين برئاسة محمد الجرب من مجموعة ظهرة سنحان، وقد جاؤوا بأغنامهم لبيعها في سوق نجران، لقد قدموا من عند الأمواه[١] عبر البلاد، وقد وصلوا إلى هنا خلال ثلاثة أيام. اتجه المجري سريعاً ناحية الشمال الغربي والغربي ليدور حول سلسلة معترضة، صعدنا عليها سالكين الدرب حتى وصلنا إلى مضيق من قمتين يسمى المنقطع، يرتفع حوالي (١٠٠) قدم فوق آخر مضيق ويطل من فوقه منزل قديم من بلكات مشذبة ذات لون أصفر من حجارة رملية، كانت مساحة البناء كله عشرة أقدام مربعة، غير أنه يبدو قديماً بسبب تآكله بعوامل الطقس وبسبب وجود نقوش حميرية من حروف قليلة عليه. كان ارتفاعه أربعة أقدام فقط، غير أن الجزء الأعلى ربما يكون قد سقط عنه. نستطيع من هنا رؤية ثلاثة من العلامات الأرضية لنجران وهي: أم خرق، العبلاء، وعرير. تقع إلى البعيد ناحية الغرب القمم البعيدة لغثمة ولعلها تطل على

(١) منطقة الأمواه، تقع إلى الشمال مباشرة من حوض وادي حبونا، أي من شمال منطقة نجران، ويحتل المجرى الأعلى لوادي تثليث بعد انتهائه من سراة قحطان. للمزيد انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢، ص ٤١٨ ــ ٤١٩ . (ابن جريس).

قرية بالاسم نفسه على طريق نجران - ظهران[١]، وتقع سلسلة الضحي الحجرية الرملية العالية في وادي حبونا ناحية اليمين.

انطلقت الجمال أمامنا هابطة الطريق المنحدر لتنتظر أسفل وقد وصلنا إليها في حوض جار الطويلة الذي برز الآن من حول السلسلة إلى الطريق. تتبعنا المجرى عبر التلال البازلتية الصعبة والتي شمخت إلى الأعلى من فوقنا وعلى الجانبين كأنها واد ضيق منحدر الجنبات ينساب في أدناه جدول. اتسع هذا الجدول فيما يلي مدخل رافد آخر يسمى نعو وبدأنا نشاهد نقوشاً ثمودية على الصخور تمثل العرض العادي لصور البشر مرتجلين أو ممتطين ولصور الأحصنة والجمال والكلاب ولتمثيل غير عادي، لكنه جذاب لرجل وذراعاه ممتدان وأصابعه مفرودة (دون تناسق في النسب) ولعله قصد به أن يكون راقصاً. كان هنالك رسم للدلو العادي (وعاء الماء) مما يدل على وجود الماء، بالإضافة إلى نقوش حجرية أخرى باهتة، تبلغ في مجموعها (٣٧) نقشاً موزعة على تسعة توقيعات من الصخور. كما وجدت صورة واضحة جداً لجمل باللون الأصفر الضارب للحمرة على مسافة قصيرة على إحدى الحجارة، أيضاً وجدت كتابات هامة أخرى مكونة من عشرة مجموعات (أو حروف كتابية) لشكل غير مألوف وملفت للانتباه، بينما حملت صخور أخرى نقوشاً كان عدد حروفها (١٧) حرفاً، يبدو أننا قد وصلنا إلى ما يمكن وصفه بأنه مصيف مرغوب للقدماء وسرعان ما وصلنا إلى ملتقى جار الطويلة مع شعيب عرقان[٢].

---

(١) ظهران: يقصد بها ظهران الجنوب إحدى محافظات منطقة عسير الجنوبية. (ابن جريس).

(٢) عرقان: ــ ربما أطلق عليه أيضاً اسم (عرجان). (ابن جريس).

رأينا أن نعسكر هنا، تلك الليلة، ذلك لأنه يوجد وعلى بعد قليل من شعيب عرجان موقع الشرب يدعى دحنة عبارة عن ثقبين مائيين في الرمال من النوع الذي يسمى مشاش. إذ يوجد الماء عند عمق أربعة أقدام أسفل سطح الرمال ولذلك يسهل الحصول عليه. ينحدر هذا المجرى، فيما يبدو، من عند تلال ضحى التي كنا قد رأيناها من عند ممر المنقطع. وقد انحصر هذا المجرى في مضيق صخري فوق المتلقى.

يبدو أن الصخور هنا كانت مثالية بما حوته من النقوش القديمة، ولكن، باستثناء رسومات بدائية جداً لبعض الحيوانات وبعض الفرسان، فلم يكن هنالك ما يثير الاهتمام بينها عدا علامة واحدة دائرية وفي مركزها نقطة (ربما تعني بئراً أو موقع شرب) وبجوارها عمود بدائي كانت إحدى صفحاته تحمل (٢٨) نقطة متتابعة من أعلاه إلى أسفله. تشير هذه النقاط إلى المسافة بالخطوات إلى حيث موقع الماء (عادة تكون خطوات مزدوجة)، وقد وجدت أن موقع الشرب الأسفل كان على بعد (٢٩) خطوة من خطواتي من عند العمود. تفصل مسافة تقدر بـ (٢٠٠) ياردة بين البئرين وقد كانت البئر السفلى منهما -بالمناسبة- جافة في هذا الوقت علماً بأنه وبمجهود بسيط يمكن الوصول إلى مائها.

استمعت في هذا المكان عن طريق جهاز اللاسلكي إلى خبر انتخاب الرئيس الأمريكي روزفلت لدورة حكم ثانية واستمعت كذلك إلى إنذار الحكومة البريطانية إلى الحكومة العراقية الجديدة لاحترام بنود اتفاقية التعاون بينهما. لم يتوقع لنظام بكر صدقي أن يعيش طويلاً، وذلك لأن اغتيال جعفر قد هز الرأي العام ولم يتضح بعد إن كان الجيش يقف صفاً واحداً خلف الدكتاتور الجديد[1]. كما

(١) لمزيد من التفاصيل عن أوضاع العراق السياسية في منتصف القرن الهجري الماضي، وبخاصة في الفترة التي قام فيلبي بها في رحلته إلى جنوبي البلاد السعودية، انظر: صلاح العقاد. **المشرق العربي المعاصر** (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩م) ص ١٩٠ ــ ١٩٧ . (ابن جريس).

استمعت في التاسع والعشرين من أكتوبر للرجاء الذي أذاعه المندوب السامي لفلسطين بعدم مقاطعة اللجنة الملكية. وهكذا، حتى في العراء البري، يقدم الشكر لجهاز اللاسلكي، الذي يمكن المرء من أن يظل على اتصال مع الأخبار السائدة لهذا العالم العظيم.

كانت إذاعة القدس أسهل الإذاعات التي يمكن التقاطها، كما كانت إذاعة القاهرة جيدة، وقد كنت أستطيع الحصول على إذاعة لندن أيضاً. كانت أدنى درجة للحرارة أثناء الليل في سهل سعيد متدنية إلى حدود (٣٧,٤) درجة وكانت (٤٣) فقط عند الساعة السابعة صباحاً، بينما هنا، في شعيب عرقان، كانت درجة الحرارة هي (٣٨) و (٣٩,٥) درجة بالتتالي. يرتدي الكثير من أتباع قبيلة آل فاطمة مقاطف من صوف الأغنام، وقد رأيتهم يلتفون في الصباح حول النار، وهم واقفين وقد رفعوا أُزرهم ليسمحوا للدفء أن يصل إلى أرجلهم وتفرعاتهم. لقد تمكنت من النوم بارتياح تحت بطانيتين وعباءة من فوق المعطف الكاكي ومنشفة الحمام فوقها كلها لأجل امتصاص الندى، وقد لففت كوفيتي حول رأسي للوقاية من الندى أيضاً.

أصابت ساعات الصباح الباردة رفاقي بالكسل إذ لم نبدأ بعمل شيء إلاَّ عند الساعة التاسعة صباحاً. أعتقد أننا الآن على ارتفاع (٤٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، أي أعلى قليلاً من نجران. تتكون مجموعتنا مني ومن محمد بن خليف أحد أتباع النشمي وهو الرئيس الإسمي للمجموعة، ومحمد بن هذيل، الذي يصفه الأمير على أنه طباخ عام، وفرج بن قرقح مرشدي الرئيس والصياد الرئيس، وسعد بن عثمان، فني تصبير الطيور، ومعد أسرة النوم، وهو رجل يستخدم لأداء ضروب مختلفة من العمل. ومسفر وهو من أبناء آل فاطمة، وهو

مرشد ذو أهمية قليلة، وغريب من نفس الطبقة أيضاً ويعمل كمرشد، وأخيراً عدد ثمانية رجال -يعتبر خمسة منهم أكثر من الحاجة- وذلك لـلعناية بالجمال كان قد فرضهم علـيَّ جابر أبو ساق ليمكنهم من اكـتساب بعض المال لأنفسـهم. وأخيراً وليس آخراً، فقد كان معنا (١١) جمـلاً، وكان الجمل الذي خصص لي وحشاً ذا خطوات ناعمـة بدرجة مدهشـة. بدأنا، على أية حال، رحلتنا. غطـينا في اليوم الأول مسافة سـبع ساعات ونصف الساعة بما في ذلك التوقف المـتكرر وكان السير الفعلي أكثر من (٤,٥) أربع ساعات ونصف الساعة، أو ما يعادل (١٢) ميلاً. لم أكن في عجلة من أمري ويبدو أن كل شيء كان يسير على ما يرام.

تحركنا أسفل شعيب عـرقان تجاه الشمال، مارين بمجموعة قبـور كبيرة بدائية البناء وليست ببعيد من موقع معسـكرنا. سرعان ما مررنا بمدخل شعيب مرع على يسارنا ووصلنا إلى الدلتا العريضة لشعـيب شبرك الذي يقع أيضاً إلى اليسار، ينبع كلاهما من سلسلة تقع إلى الجنوب الغربي من موقعنا وهـي ليست ببعيدة. يتباين عرض شعيب عرقان نفـسه ما بين (٣٠٠) إلى (٥٠٠) ياردة، وتوجد على جانبه الأيمن جلاميـد مرتفعة إلى (٨٠٠) أو (٩٠٠) قدم، غيـر أنها تنحدر إلى الخلف في لطف تجاه السلسلة على الجانب الآخر. لقد سرت راجلاً على قدمي حتى هذا الموقع، غير أنني الآن قد امتطيت جملي لمـواصلة المسيرة، وقد غطيت فقط ميلين ونصف الميل حتى الآن. قابلتنا في الطريق امرأة ومعـها ثلاثة أطفال صغار وجمل يحمل أغراضها المنزلية وهي في طريقهـا إلى أعلى، سرعان ما وصلنا إلى ما يفيد بوجود المياه ووجـدنا بعض النقوش القصيرة (مكوِّنة من ١٣ حرفـاً) على الصخور إلى يسارنا. ضـاق الوادي فجاة وأصبح عـرضه (٥٠) ياردة بين جلاميـد عمودية سوداء، ثم انبعج فجأة إلى مجرى عريض كثيف الأشجار. يوجد هنا بعض الرعاة

من قبيلة آل سليم (آل فاطمة) ومعهم ماعزهم الأسود اللون ذي اللحية البنية اللون على الخدين. كانوا يقودون قطعانهم في هذه الأنحاء للشرب من عند دحنة وتوقفت تتابع العلامات الدالة على وجود ماء عن قرب إذ لا فائدة منها، إلاَّ إذا قصد بها أن تكون علامات تقود إلى دحنة.

مررنا بالعديد من علامات الماء هذه، كان أحدها مصحوباً بتسع نقاط وكان على آخر صفين كل منهما من ثماني نقاط (إجمالي ١٦ نقطة). لا بد أن تكون هذه قد أعدت أصلاً للإشارة إلى مياه قريبة، غير أن الوادي، الذي يجري الآن بين جلاميد عالية، بدا وكأنه قد جف. كانت توجد نقوش على هذه الصخور، ثلاثة منها ذات (٣٩) حرفاً في جملتها، كما مررنا بعلامة للمياه ذات ست أو سبع نقاط. كما كان هنالك رسم بدائي لجمل ومعه نقش من ثلاثة حروف.

دَخلَت إلى الوادي عدة شعيبات صغيرة، على مراحل، حتى وصلنا آخر الأمر إلى ملتقى ثلاثتها مع ثلاثة شعيبات أكبر منها هي، كلبة ونطاطة من اليسار واليمين بالتتالي، وأجضة من الأمام. كون اتحاد هذه المجاري سهلاً كبيراً حيث أشار مرشدي إلى بقايا معسكر نزل به الجيش السعودي عام ١٩٣٤م مكث فيه أياماً قليلة في طريقه إلى نجران سالكين طريقنا الذي جئنا به. كانت هنالك تلك العلامات العادية لنيران المعسكر وحجارة مرتبة في ثلاثات لتجلس عليها قدور الطبيخ، غير أن النموذج الأكثر وضوحاً كان المصلى. الذي حددت أضلاعه بالحجارة، مع موقع محراب القبلة كاملاً. كان بجوار هذا صخرة عليها نقوش صغيرة ومجموعة من الجمال. توقفنا هنا لتناول القهوة في ظلال الأجمات الوافرة لنبات المرخ والذي كانت أفرعه الشبيهة بالرتم مملوءة بالآفات الزراعية، ونبات العبل (الأرطى) منقطة الفرجات العشبية بنبت الضاع.

يتجه شعيب عرقان الآن ناحية الشمال الشرقي وقد كان عرض الوادي نفسه حوالي نصف الميل. قابلتنا الكثير من الرسومات والنقوش خاصة ذلك الرسم الذي اشتمل على فارس رافعاً رمحاً فوق رأسه. اتصل شعيب سهي، بعد مسافة إلى أسفل، وهو شعيب ذو مجرى عريض وضحل، مع عرجان من عند سلسلة منخفضة تقع إلى يسارنا، وقد قمنا بمتابعة سهي، تاركين المجرى الآخر ليعبر بقية مساره تجاه الجنوب الشرقي إلى وادي حبونا، والذي يتصل بسلوى إلى الأسفل، ومررنا بمقبرة ثانية ويبدو لنا، بالمناسبة، أننا لم نعد سائرين على طريق الحج الذي يتجه من عند عقبة سيلة في اتجاه غربي إلى ظهران ليتصل هناك مع درب الفيل. تكون هذه المقابر الأخيرة، على هذا الأساس، مقابر البدو.

استطعنا من هنا رؤية مجرى حبونا، وهو ليس بالبعيد ويقع عند نهاية شعيب عرجان، غير أن طريقنا مضى بنا عبر رافد إلى ممر صعب منخفض يسمى نجد سهي، إلى السلسلة، والتي إلى ما ورائها، تتبعنا مسيلاً صغيراً يسمى شعيب مرزا لندخل وادي حبونا نفسه ويقع قليلاً قبل سلوى. كانت هنالك نقوش كثيرة ورسومات في مجرى وممر سياح، كما كانت توجد في مجرى سهي أيضاً مجموعة حلقات من حجارة، وأساس قاعدي لجدار، وهذا يوحي بموقع لمستوطنة قديمة غير أنها بلا شك صغيرة. مررنا بالقرب من هذه بكتلة دائرية ملساء جرانيتية، كأن كل منها قنبلة وكانت أبعادها (١٨ x ١٢ x ٩) بوصات. كانت عليها علامات يصعب فك كنهها، أو نقش، والغريب في الأمر، أن هذا الجسم كان معروفاً للبدو باسمه إذ كان اسمه مشك على (Mishak ‘Alye)، ويعود أمره في الروايات المحلية إلى أبي زيد (من قبيلة بني هلال)، والذي يقال إنه كان دوماً يحمله معه أينما ذهب. ربما كان هذا الجسم صنماً قديماً، برغم أن شكله في

وضعه الحالي لا يبدو مثيراً للانتباه، كما كان ثقيلاً جداً وكبير الحجم مما جعل إضافته لمجموعتي أمراً صعباً، فتركته. لقد رأيت عدداً من هذه الكرات الجرانيتية في ممر نجد سهي غير أن سرها ظل مجهولاً.

كان شعيب مرزا مجرد مسيل ينحدر من عند سلسلة سياح ويصب في وادي حبونا، الذي برزت لنا منه أشجار الطرفاء الكثيفة وأشجار الطلح وشجيرات نموذجية أخرى إلى جانب قصر ونخيل سلوى. دخلنا الوادي من خلال مجموعة من أشجار الأثل ووصلنا إلى المعسكر بالقرب من البئر الرئيس بعد ربع الساعة. كان سطح الوادي رملياً ومكسواً بغابات كثيفة من أشجار وشجيرات خفيضة. وقد عبرنا بطن سيل الوادي قبل أن نصل إلى البئر. وكان سيل الوادي حوالي (٢٠٠) ياردة. يقع القصر بالقرب من البئر وقد أنشئ على السفح الحصوي للجانب الأيسر لمجرى السيل على ارتفاع (٤١٠٠) قدم فوق سطح البحر. كان قطر فم البئر عشرة أقدام وكان صهريجها جيد التبطين بصخور جرانيتيه حمراء إلى مستوى سطح الماء عند عمق (١٣) قامة. كانت طبقات القصر السفلى من بلوكات من جرانيت أحمر مع طبقات طينية لصفها مع بعضها البعض ويقف فوقها كلها جدار من الطين ارتفاعه (٢١) قدماً. كان القصر دائري الشكل إلاَّ أنه مدمر جزئياً، وقد دمرته قوات الإخوان التابعة لابن قرملة[1] (قحطانيين)، أثناء تقدمهم نحو نجران.

يبرز مخرج وادي حبونا من بين التلال، من هذا الموقع، على مسافة ثلاثة أميال ناحية الغرب. يعتبر وادي ثار سيلاً جبلياً مهماً وقد كان مخرجه من عند التلال واضحاً لنا على مسافة عدة أميال ناحية الشمال الغربي على خلفية من قمم

(١) ابن قرملة:ــ أحد مشائخ قحطان نجد المشاهير، وأسرة آل قرملة مشهورة ولها تاريخ مجيد. (ابن جريس).

مدهشة، ثم يشق طريقه عبر السهل الحصوي شـمال حبونا، ليتصل معه على بعد ميل واحد مع اتجـاه النهر من سلوى في طريقه شـرقاً تجاه الحصينيـة على الجانب القريب من الفجوة التي عن طريقها ينساب الوادي إلى الخارج عبر مضيق للحاجز التلي على الجانبين الذي يرى على مسافة ثلاثة أو أربعة أميال إلى أسفل.

تفصل كتلة تلال مع سلسلة نبعة إلى البعيد تجاه السهل، بين هذين الواديين، ويجري شعـيبها إلى قاعـدة حبونا في جبل ديمة. يقع القصـر، وهو البناء الثابت الوحيد في سلوى، قريباً من البئر ويطل عليـها، بينما تقع على جانب منها مقبرة صغـيرة، لم يكن هنالك بدو حـول هذه البئـر في هذا الوقت غير أننا لمحـنا كلباً ضالاً. كانت أنثى سلوقـية جميلة تحمل وسم قبـيلة آل العرجاء[1]، من قبيلة آل رزق[2]. قررنا أن نضـيفها إلى فـريقنا وأطلقت عليها اسم سلوى. كـانت شديدة العطش حين وصـولها إلينا فقـد كانت تلعق بقناعـة رطوبة الطين المتعـفن الأسود المتجمع حول فم البئر. قدمنا إليها لحم ماعز نيئ، وقد كنا اشترينا هذا الماعز أثناء النهار في شعيب عـرقان لأجل وجبة العشاء، ولكنها برغم جوعـها، فقد فضلت الانتظار برفضها اللحم النيئ هذا، إلى حين تقديمنا لها لحماً مطبوخاً والذي التهمته في الوقت المناسب بشـراهة. تدرب هذه الكلاب بعنف على ألاَّ تمس لحم الأرانب والطرائد الأخرى التي تقوم باصطيادها لأسيادها.

---

(١) كل قبيلة من قبـائل الجزيرة العربية، وبخاصة التي تملك الإبل وتربيها، كـان لها وسم خاص بها يوضع على الإبل التي تخـصها، للمـزيد انظر: هندي بن حمـود الحيـسوني. **وسوم الإبل عند قبـيلة حرب** (الرياض: دار البدراني للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ) ص ٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) آل العرجاء يعـودون إلى بطن آل فاطمة الذي كبـيرهم جابر أبو ساق، وآل رزق يعـودون للمواجد الذي كبيرهم ابن نصيب، انظر: فؤاد حمزة، المرجع السابق، ص ١٧٧ ــ ١٧٨ . (ابن جريس).

ظهر سرب من طيور القطا فوق البئر وبعد نصف ساعة من بعد غروب الشمس غير أننا كنا قد سبقناه إلى هناك، إلاَّ أن طيور القطا كانت ملحاحة، إذ ظلت محلقة في دوائر أو هابطة قريباً منا أو تحاول القرب منا ماشية على أرجلها، حتى أصبت واحدة منها بالرصاص فطارت كلها بلا عودة، وقد كنا خذلناها في شربتها المسائية. عادت طيور القطا صباح اليوم التالي قبل شروق الشمس بنصف ساعة، بينما أقبل نوع منقط منها وبأعداد كبيرة، وقد ارتفعت الشمس فوق الأفق وأصبح الجو دافئاً. سجل مقياس الحرارة نصف درجة مئوية تحت الصفر أثناء الليل وكان ذلك أول تجربتنا مع الصقيع، وكانت درجة الحرارة في الظل عند الساعة السابعة صباحاً حوالي (٣٨) درجة فقط. كان الصباح بارداً وقد تجمع زملائي حول النار. وقمت برصد درجة الحرارة عند الساعة الثامنة صباحاً تحت وهج الشمس مباشرة وبلغت (٧٧) درجة فقط. تناولنا عشاءً ممتازاً في المساء من لحم الماعز مع عصيدة الجرش -المصنوعة من القمح- لهضمه وسرني أن أرى رفاقي اليامبين وهم يأكلون بنهم كأنهم لم يروا لحماً من قبل لعدة أسابيع.

أصاب الضَلَع أحد جمالنا، للأسف، أثناء النهار وكان علينا إرجاعه وانخفض بذلك عدد الجمال إلى عشرة.

أخبرني محمد النشمي وآخرون أن وادي ثار يستحق الزيارة لكثرة ما به من نقوش ورسوم على الصخور، وعليه فقد تقرر القيام بزيارة لهذه المنطقة قبل التوجه إلى واحات حبونا. لقد قمت باختيار وتحديد مضيق بارز يقع ناحية النهاية الغربية لسلسلة فحقة فيما يلي وادي ثار لعلي أطل من عنده على منظر جيد، ولما كان الطقس بارداً ولطيفاً عند الساعة التاسعة صباحاً، فقد رأيت أن أسير على قدمي إلى هناك عبر السهل الحصوي العاري العريض الذي يحيط به واديان. وصلت بعد

مسافة أربعة أميال إلى الجانب الأيمن لوادي ثار، وقد كنت أسير في خط مستقيم ما استطعت وأقيس المسافة بالخطوات، وقد هبطت بثمانية أقدام داخل المجرى الرملي. كان هنالك ثلاثة مجارٍ من هذه الشاكلة، ويبعد التل الذي أقصده مسافة الميل الواحد فيما وراء آخر هذه المجاري الثلاثة، وتبلغ المسافة الإجمالية من المعسكر في سلوى حوالي خمسة أميال.

كان السهل الحصوي مكسواً بأشجار الطلح، وكانت مجاري الأودية مغطاة بغطاء بزخم من الغطاء النباتي، منها: أشجار الطلح المتناثرة وشجيرات الخروع والكثير من الحرمل والمرخ وحشائش الضعة الخشنة. كانت هنالك أربع مجموعات من النقوش والرسوم على الصخور عند قاعدة المضيق، وليست ذات أهمية تذكر، إلاَّ من صورة لرجل يحمل في إحدى يديه قرصاً ربما قصد به آلة الرق (دف صغير) أو سنج كانت هنالك صورة لأرنب بري وأخرى لكلب، وخربشة ما.

يقود نتوء جبلي صغير حاد إلى قمة المضيق الذي من عنده تمتد سلسلة فحقه مسافة ميلين في اتجاه الجنوب الشرقي بينما تضم من جهة الغرب سهلاً صغيراً كثيف الشجيرات تحده من جهة الشمال سلسلة الحبشية. ويكون مجرى ثار متعارضاً عند قاعدة هذا المثلث. كانت هنالك تلال جبلية تقع بعيداً إلى الخلف وهي من جرانيت يعلوه حجر رملي قد تآكل وتمزق إلى أشكال غريبة مكوناً قمماً منها قمة الحرشف وقمة قثمة، والسلسلة الصخرية الرملية العالية المسماه قهرة العبل، خلف قثمة، وحبيجان وغيرها. توجد قمة عالية من جرانيت محطم على النتوء الحاد لفحقة عند منتصف المسافة إلى أعلى، والتي تبدو وكأنها على وشك السقوط في أية لحظة، كما كانت هنالك هضبات منخفضة عند قاعدة المضيق من حجارة خشنة، والتي ربما كانت قبوراً أو أطلالاً لمساكن صغيرة، وبعض الحلقات

المحددة بالحجارة، ولعل هذه تكون موقع معسكر لبدو. حلقت فوقنا بتكاسل ثلاثة من الصقور المصرية وغراب عندما كنا نتأمل المنظر العام بإعجاب.

امتطينا الجمال وقد حان وقت مواصلة المسيرة صاعدين وادي ثار، الذي كان عرضه في موقع خروجه من عند التلال نصف الميل بين سلاسل صخرية، وكان وادياً كثيف الأشجار. ساعد كل من شعيب رح من جهة اليسار، وشعيب صناخة من جهة اليمن على تكوين وادٍ دائري واسع يقع بين التلال. يضيق وادي ثار فيما يلي هذا السهل إلى عرض ٥٠٠ ياردة بين سلسلة قشمة إلى اليسار وسلسلة حبيجان على الجانب الآخر، توجهنا سريعاً بعد ذلك ناحية الشمال الغربي نحو مضيق مهيب محاط من الجانبين بجلاميد عالية من جرانيت وبازلت. توقفنا هنا عند منظر غريب لقط بري، ربما ظن القط أننا لم نره، فاختبأ بدلاً من أن يهرب. وسرعان ما قفز فرج من فوق ظهر جمله ليطارده وقد تمكن من إصابة الحيوان المتوحش الذي حاول يائساً التسلق المتكرر فوق الجلمود الشديد الانحدار غير أنه سقط وقد انكسر نخاعه الشوكي. يوجد الكثير من القطط البرية تسمى «اتفع»[١] في المرتفعات الصحراوية هذه غير أنه يصعب جداً العثور عليها ولقد سعدت تماماً بحصولي على هذه الجائزة الثمينة. كان القط البري في حجم القط المستأنس الكبير وكان شرساً جداً أثناء ما كنا نحاول وضع حد لآلامه.

وصلنا إلى وادي عريض -لا يزال هو وادي ثار- عند النهاية البعيدة لهذا المضيق والتي يبلغ طوله أقل من نصف الميل، ويوجد بئر يقع قريباً من الجانب الأقرب ويسمى عرق[٢]. كانت هنالك مجموعة من البدو معسكرين في جواره

---

(١) يوجد الكثير من القطط البرية في منطقة نجران وما حولها تسمى (أتفع). (ابن جريس).

(٢) يوجد مواقع عديدة في منطقة نجران باسم:ـ (عرق كذا. . .) أو (عروق كذا. . .). (ابن جريس).

وكان بعض أطفالهم ونسائهم عند البئر يسحبون الماء من البئر التي لم تكن مبطنة والتي يصل عمق صهريجها إلى أربع قامات وهو مدفون في أرض الوادي الحصوية. كان هؤلاء البدو من فخذ آل مخلص من قبيلة آل فاطمة[1]. تركز اهتمامي بهذا الموقع في مجموعة نقوشه الرائعة المسجلة على الصخور السوداء عند النهاية الشمالية للمضيق، وكان رفاقي في هذه الأثناء سعيدين جداً بتناول القهوة والمنعشات الأخرى بينما صرفت ساعتين أنقل نقوش القدماء إلى دفتر مذكراتي. كانت هنالك رسومات قليلة من النوع المألوف، وكانت أيضاً علامات الآبار التي لا مفر منها، غير أن معظم المادة التي تحصلت عليها كانت تتكون من نقوش ثمودية. لقد كان لبئر عرق، بلا شك، موقعاً مهماً في اقتصاد العرب القدماء. كوّنت الجلاميد العالية لوادي حرشف وفروعه، على الجانب البعيد والتي يبلغ سمكها حوالي (٥٠٠) قدم وهي مكوّنة من حجارة رملية تعلو طبقة الجرانيت - جداراً رائعاً من الصخور معترضاً الجهة الشمالية بينما أمكننا رؤية شعيب صناخة وهو يبرز خارجاً ماراً بحافة الوادي الشرقي.

يجري وادي ثار من عند هذا الموقع غرباً، كان الوقت الثالثة مساءً حينما واصلنا المسيرة إلى أعلى واديه كثيف الأشجار بين حواجز من سلاسل جرانيتية كانت قد سقطت إلى الأمام من عند التلال العالية وعلى الجانبين. يتباين عرض الوادي، بصفة عامة، من (٣٠٠) إلى (٥٠٠) ياردة، ومررنا فيه على فترات برسومات أكثر، وفي إحدى المرات كانت هنالك صور للأبقار، والضأن عريض

(١) بدو آل مخلص فرع من الوعلة وجميعهم من آل فاطمة الذين شيخهم أبو ساق. (ابن جريس).

الذيل، والجمال. كان كل هذا قد شوهد بجوار موقع لمعسكر قديم، تدل عليه حلقات الحجارة إلى جانب وجود بعض المقابر وبعض أكوام من الحجارة. وصلنا إلى بئر أخرى تبعد مسافة ميلين ونصف الميل من عرق، يسمى جعلة، ويوجد الماء فيها عند عمق ثلاث قامات في صهريج غير مبطن ولكنه مدعم حول الفم بجذوع الأشجار والأغصان المقطوعة وقطع قليلة من الصخور. كانت غابة الطلح كثيفة أثناء هبوطنا عبرها، ونظراً لأنه لم يكن هنالك درب مطروق، فقد كان علينا أن نشق طريقنا بحذر من خلالها بكل ما أمكننا من يقظة لنصل إلى بئر أخرى في الوادي المتسع الذي تكوَّن بالتقاء ثلاثة مسايل نابعة كلها من عند التلال الجرانيتية ذات الجلاميد التي كان ظلها ساقطاً على البئر الآن. كان موقع بئر خرمة بالفعل في قلب المجرى الحصوي لأحد هذه المسايل الثلاث، واسمه شعيب حقب على ارتفاع (٤٤٠٠) قدم فوق سطح البحر. مررنا ونحن نشق طريقنا عبر الوادي الكثيف الشجر، بطفلتين صغيرتين جداً، ويبدو أنهما تشرفان على قطيع من الماعز. ظننت أن هؤلاء الناس لا يرعون الضأن- وقد قامتا بإبعاده عن الطريق إفساحاً لنا مع صرخات: «الريبة» حضرت امرأتان إلى البئر في الصباح ومعهما حماران لسحب المياه لذويهما المعسكرين في الوادي.

تسد البئر الأخيرة أعلى خرمة بسلسلة جرانيتية تسمى شعبة والتي تقوم قاعدتها بدفع وادي ثار ليجري ناحية شمال الشمال الغربي مسافة ميلين ثم إلى ناحية الشمال الشرقي مسافة قصيرة، وبعدها يواصل انسيابه غرباً على الجانب البعيد (الشمالي) من شعبة.

لقد وصلنا إلى البرك الصخرية لمريفك، عند منحنى الوادي من ناحية الشرق، وكانت البرك ممتلئة بمياه السيول وقد غطاها طحلب أخضر. كانت حواف

المجرى مكسوة بنبات الحلفاء، بينما احتلت مستعمرة كبيرة من حيوان الوبر بعض الصخور الجرانيتية الكئيبة التي تشاهد على يميننا. كنت راجلاً معظم الطريق أعلى الوادي، ذلك لأن السفر عليها من على ظهور الجمال كان صعباً جداً، كما أن كل محاولاتي لمطاردة الوبر باءت بالفشل، ذلك لأنه وفي اللحظة الحرجة التي كنت أهيئ نفسي للتصويب، انطلق الرصاص عن طريق الخطأ من فوهة بندقيتي مقاس (٠,٤١٠)، فهربت الوحوش الصغيرة إلى جحورها ولم تظهر ثانية طالما كنا لا نزال موجودين هناك. وصلنا إلى جدول من مياه جارية، على مسافة (١٠٠) ياردة أعلى هذه البرك الصخرية، كان عرضه (٢٠) قدماً وكان طوله (٣٠٠) ياردة، إلى حيث ينبع من بطن السيل الجاف، الذي أصبح الآن أكثر عظمة وهو يضيق بين الصخور شديدة الإنحدار في المرتفعات الجبلية. يتسع الوادي بعد ذلك مرة أخرى في أرض طموية ذات صخور متساقطة، توجد فيها مقبرة أخرى كبيرة مكونة من قبور بدائية البناء والتي من عندها يسلك الطريق جانباً مختصراً لتحاشي انحناءة المجرى الذي كنا نسير فيه حتى الآن.

وجدنا لوحاً من صخور الشست موضوعاً فوق أحد القبور، عند النهاية أعلى الوادي للمقبرة، يحمل اللوح نقشاً من (١٥) حرفاً ثمودياً، كما وجدنا لوحاً آخر مشابهاً، ولعله شاهد لقبر، ويحمل صورة رجل يمسك بعصاة متشعبة، ورسماً ثالثاً يوضح المارية تقفز من فوق رجل تبدو عليه الدهشة وقد رفع يديه إلى أعلى تجاه جسم مجهول الهوية يبدو أنه يقع أمامه.

وجدت إلى جانب هذه الصخرة سبعة ألواح أخرى من الصخرة نفسها وعليها رسوم دقيقة لبعض بني البشر وهم في أوضاع حركية تدل على النشاط، معظمهم

يحمل خناجر في وضعها الأفقي المثالي عند الخصر، كما كان هنالك أيضاً، نقش أو نقشان. كان شكل معظم القبور على هيئة بيضاوية، ويصل طول القبر إلى عشرة أقدام وعرضه إلى ثلاثة أقدام وارتفاعه حوالي (٣٠) بوصة وقد وضعت ألواح كبيرة مسطحة على محيطه وملئ الجزء الداخلي بحجارة صغيرة بالدبش. لا يوجد غطاء بالحجارة الصغيرة والدبش داخل الشكل البيضاوي في بعض القبور، ويمكن القول بأنه في كل الحالات فإن الجثمان قد تم دفنه تحت مستوى السطح. كانت الألواح المصورة ملساء مخضرة اللون، وتشبه الاردواز، أما البناء الخشن الملحق فقد كان من جرانيت أو بازلت. أعتقد أنه يوجد في المقبرة حوالي (١٠٠-١٥٠) قبراً. وأنها ربما كانت موقعاً لمعركة قبلية قديمة، ولا يزال العرب يطلقون عليها اسم مجنة كما يصعب الابتعاد من الاستنتاج بأن تاريخ هذه المقبرة يعود إلى الوراء كثيراً، بعيداً عن أزماننا الحالية، وإثبات هذا يتأتى عن طريق النقوش والرسوم التي حسمت هذا الأمر بما فيه الكفاية.

كان هنالك الكثير من الكوارتز الأبيض المبعثر بين هذه القبور والذي قام البدو المعاصرون بنقله لعمل الأعمدة، التي يصل ارتفاعها إلى قدم واحد ولا يزيد تركيبها عن ثلاث بلكات منفصة ربما كان هذا، كما هي العادة في هذه الأنحاء من البلاد، ضرباً من الاحتفال بمقتل بعض الأعداء. لا يمكن أن تكون هذه العلامات البيضاء هي أعمدة الإشارة إلى الطريق، وذلك لأنه توجد فرصة ضيقة جداً أن يتشكك المرء في وجود الطريق.

وصلنا فوق هذه النقطة إلى شعيب آخر جارٍ، ويكسوه الطحلب، ويقع بين جلمودين عاليين من الشست. كان موقعاً جذاباً ولما كانت جمالنا المحملة بالعفش لم تصل إلى هنا بعد، فقد قررت ومعي فرج أن نتباطأ هنا بحثاً عن الطيور.

بادرتني بالحديث، أثناء تجوالي، شابتان جميلتان جداً، كانت إحداهما مميزة تماماً في هذا المضمار وتحمل رضيعاً على كتفها، وبدتا كأنهما تعرفاني تماماً، فقد سألتني إحداهما بمكر إذا كنت قد قدمت لأصير أميراً لنجران مكان النشمي! أخبرتاني أنهما بحكم العادة يقومان بإحضار قطيع ماعزهما يومياً للشرب من هذا الموقع، إلاّ أنهما قد أقبلتا من معسكرين مختلفين، يقع أحد المعسكرين باتجاه أعلى الوادي، وكان الآخر بعيداً إلى أسفل.

شمخت صخور الشست على جانبي طبقتها العمودية، غير أن صخور الجانب الأيمن كانت ناعمة وصلدة، بينما بدت تلك التي على الجانب الآخر طرية وهشة -ربما يعزى هذا لتأثير الرياح السائدة- تتبعنا انحناءآت المجرى عندما واصلنا المسيرة في اتجاه غربي بصفة عامة إلى حيث انبعاج عريض حيث أقبل مسيلان صغيران من كلا الجانبين ليكونا جزيرة ثرية بالغطاء النباتي الذي يسوده نبات واحد فقط يسمى ضند. يشق الوادي طريقه بين جلاميد جرانيتية ترتفع إلى (٤٠٠) أو (٥٠٠) قدم إلى أن يصل إلى رأسه في مساحة واسعة مكشوفة مكونة من التقاء العديد من المسايل لتكون وادي ثار. كانت هذه المسايل، من اليسار إلى اليمين منتظمة في شبه دائرة هي: السليمة، وعيان، والحزمة، وملحق، وربح، وكتنة، وكلها تنبع من شقوق في الهضبة العالية من فوقنا والتي تمتد إلى الخلف ناحية الغرب إلى السلسلة العالية التي تقع على جانب تهامة. لم نعد بالطبع نر شيئاً عن الهضبة من عند هذا الموقع عدا الأطراف المكسرة المكونة لرؤوس هذه المسايل على مسافة ميل واحد تقريباً إلى الخلف. كان ارتفاع وادي ثار في هذه الأرض المنكشفة حوالي (٤٨٥٠) قدماً فوق سطح البحر، وترتفع حافة الهضبة بما يزيد على ذلك بـ (٤٠٠) أو (٥٠٠) قدم.

عبرنا هذا الملتقى للمسايل وكذلك مسيل الحزمة، حيث سنعسكر لقضاء الليلة عند حافة الوادي، في بقعة جميلة ذات صخور شديدة الانحدار وكثافة من نبات الحلفاء وغطاء نباتي آخر ومياه جارية، نظيفة في وادٍ لا يزيد عرضه عن (١٠٠) ياردة. يضيق هذا المسيل على مسافة نصف الميل أعلى معسكرنا عند الأخدود به العديد من البرك العميقة التي يغذيها الوادي الجاري، وتنمو حولها بكثافة نباتات الحلفاء والرين والطرف. يضيق المسيل إلى أعلى ويتلوى ويلتف حول حافة الهضبة المرتفعة وحتى مجمع الماء الذي يقع من خلفها، وليس بالبعيد منها، ومن عنده يجري شعيب قيرى، بناءً على قول مسفر، الذي يجري بدوره إلى ناحية شعيب الخانق ومنه إلى الحرجة ومن ثم إلى المرتفعات العليا لوادي تثليث. كانت البرك مملوءة بالضفادع وكائنات أخرى، وكانت دافئة بدرجة مدهشة في هذا الوادي المطوق بالصخور. حيث كانت درجة الحرارة الدنيا خلال الليل (٤٥) درجة فهرنهايت. يتحاشى البدو قضاء الليالي بجوار هذه البرك خوفاً من الحمى - يقولون عنها إنها تحم- أي أنها تسبب الحمى.

استغرق ارتفاع قرص الشمس صباح اليوم التالي (الثامن من نوفمبر) زمناً لتظهر من فوق رؤوس الجلاميد، التي اكتسبت لوناً وردياً، لتطل على بطن الوادي. تحركنا قبل الساعة التاسعة صباحاً، مرتجلين ومتجهين ناحية فم مسيل سليمة وقد توجهنا إليه عبر طريقنا الداني الذي سلكناه بالأمس. يوجد في العديد من هذه المسايل ترسب للملح في التربة الصخرية التحت سطحية وحيث يقوم البدو بكشطه لاستعمالهم الخاص. يوجد هنا إثباتات واسعة، تدل على عملية تنجم بسيطة.

عبرنا مضيقاً منخفضاً من عند رأس هذا المسيل إلى شعيب مروة، وهو رافد آخر لثار، ويتحرك تدريجياً بعيداً عنه ليدخل أرضاً ذات تلال، والتي هبطنا منها

قليلاً لنعبر شعيب يسن -وهو رافد آخر لثار- لندخل في بهو مكون من مسيل مشد وسط مجموعة من تلال غير منتظمة من الشست. وصلنا عند قمة هذا الطريق إلى ممر عقبة مشد، التي ترتفع حوالي (٥٠٠٠) قدم فوق سطح البحر وكانت صخوره تلمع بالنقوش الثمودية القصيرة والتي نسخت منها ما لا يقل عن (٤٢) نقشاً كان من بينها رسماً جيداً لثور وقرناه ممتدان إلى الأمام ورمز الرسم الثاني إلى ثعبان وفيما عدا جانب مخططات يصعب تفسيرها، فإن بقية الأشياء كانت نقوشاً واضحة وكلها قصيرة.

انطلقنا إلى الأمام من عند هذا الموقع، فوق أرض مرتفعة تقع منفرجة في وادي حبونا على الجانب القريب، كان أبرز سماتها الكتلة الرملية الذي يطلق عليه اسم ملحه وهو يصعد على فترات ليكون دستة من النقاط إلى ما يلي وادي شعيب سليم الذي ينساب عبر سلسلة جرانيتية مكسرة تقع أسفل ممر مشد. يمكن رؤية واحدة أو اثنتين من هذه النقاط العالية لهذه التلال الواقعة إلى ما وراء حبونا، غير أن المنظر العام لم يكن مثيراً للانتباه.

دخلنا مضيق شعيب ملحة، بعد أن عبرنا شعيب سليم ومضيق آخر إلى مسيل يسمى أنم، ويبلغ عرض شعيب ملحة ٥٠ ياردة ويتكون مجراه من الحصى وتوجد على جانبه الأيمن جلاميد شديدة الانحدار، وترتبط التلال المنخفضة على الجانب الآخر مع سد وشست والذي يفيض الماء من فوقه أبان موسم السيول. يتحد أنم وسليم بعد فترة، وقد كنا قد عبرناهما، مع ملحة عبر مضيق صخري كانت جدرانه ملونة بالكوارتز القرمزي الناعم والكوارتز الوردي. شاهدت رسماً لرجل يبدو وكأنه يقف فوق ثعبان متلوٍ، وخطر بذهني أن هذه الرموز التي تتكرر فيها الشعابين قد تفيد وجود مياه جارية. ارتفعت جدران الجلاميد إلى علو

(١٥٠٠) قـدم على الأقل وبهـا العـديد من الأخـاديد التي تهـبط من عندها إلى مجرى ملحة، والذي كان، على أي حال، جافاً حتى وصلنا إلى الموقع الذي اتحد فيه شعيب حلقوم، الذي ينساب من التلال التي تقع أمامنا، مع شعيب ملحة، ثم يدور المجرى المتحد فجأة ناحية الشرق، شاقاً طريقه عبر الجدار الجبلي الأسود إلى حيث يقع ممر ضيق. يبدو أنه يجري نحو مـسيل حقف ويتصل مع وادي ثار فيما يلي بئر خرمة.

كان هنالك الكثير من حشائش الحلفاء في هذا الموقع عند رأس المضيق ويمكن الحصول على المياه السطحيـة بسهولة من عند ثميلة[1] التي يرتادها الرعاة المحليون لأنه يقال أن ميـاهها ممتازة. تعرف الثميلة بأنهـا ثقب مائي يجب أن يكشط الرمل عنه للوصول إلى الماء، الذي ينساب على مدار العام على شكل نهر تحت الأرض، والذي لا تبدو منه عـلامة سطحية تدل عليـه غير الغطاء النبـاتي، حتى يصل إلى حلقوم، حيث كانت بعض قطعان الماعـز تشرب من عند جدول ضحل عليه نبات القصب. تشـرف على قطعان الماعز فتـاة جميلة ذات عيـون حلوة لامعة، ومـعها طفل عار. اتسع الوادي في اتجاه أعلى الـوادي بين أجمات كثيفـة لنبات الطرفاء، الذي يقولون عنه إن جمالهم ترعـاه إن لم تجد غيره في المرعى. يتسع الوادي الآن إلى حوض حصوي منخفض كثيراً وعلى جانبيه جلاميد أقل انحداراً وذلك أثناء ما كنا نشق طريقنا تجـاه القمـة، مارين بثمـيلة ثانية، تقـع عند منبع مسـيل ضحل. يتصل في هذا الموقـع شعيب حلقـوم الذي ينحدر من عند سلسلة تسـمى الخربان على الجنوب الغـربي، مع مجـرى ضحل يـسمى أخلة ينحـدر من جهـة الجنوب

(١) ثميلة:ـ هناك من ينطقها (ثميلة) وقد تنطق أيضاً (ثميلا)، وكلا النطقين مقبول. (ابن جريس).

الشرقي. وهو مسيل بلا سمات مميزة له، إلا أنه حجري، وذو غطاء نباتي شحيح وقد تتبعناه إلى قمة الممر المرتفع.

واجهتنا عند القمة سلسلة ملحة وشققنا طريقنا عبر متاهة من مجاري الصرف الضحلة على كلا جانبي ملحة حتى وصلنا إلى موقع عند طرفها الشرقي يرتفع حوالي (٥٥٠٠) قدم فوق سطح البحر. كانت الصخور هنا، معظمها من حجر رملي، علماً بأن الجرانيت لا يزال يتكرر ظهوره فوق السطح، وكلها ممتلئة بالنقش والرسم من بينها رسم مؤكد لثعبان، ورسم مجموعة من الأشياء كأنها خنافس. هبطنا الآن إلى الوادي اللطيف المعشب وهو شعيب عرفطة الذي ينحدر من النهاية الغربية لسلسلة ملحة ويميل تدريجياً عبرها، ليرتقي مرة أخرى ناحية القمة، لسلسلة تسمى عقبة قفلة، والذي كانت صخوره الرملية مغطاة بكثافة بالنقوش الثمودية.

أسرعت بقدر استطاعتي في نسخ ما أمكن من نقوش حيث أن الوقت قد تجاوز فترة العصر ويتجه نحو الغروب، وقد تمكنت من نسخ (٢٠) نقشاً واضحاً، كان العديد من الرسوم والنقوش متآكلاً بفعل عوامل الطقس، وقد تم نحتها بروعة على صخر رملي بلون الطوب الأحمر أو باللون الوردي. أطلنا النظر من عند الممر إلى سلسلة رهيبة وجبال منتشرة أمامنا صفوفاً متتابعة الواحد تلو الآخر، كل منها كان أعلى من الذي يقع أمامه.

أسرعنا هابطين أسفل الطريق الضيق الشديد الانحدار -وقد أكملت ما كنت أقوم به من عمل- الذي يقود من عند الممر إلى شعيب قفلة الذي يشاهد من أسفلنا على ارتفاع (٤٠٠) قدم. ثم تتبعنا قفلة متجهين ناحية الجنوب الغربي،

زاحفين بين جلاميد بطنة المنتشرة، وكنا نجدّ السير للوصول إلى المعسكر قبل حلول الظلام. وصلنا إلى المعسكر مباشرة بعد غروب الشمس. يهبط الجزء الأسفل من مسيل قفلة، قبل وصوله إلى البطن العريض لوادي تريمة، إلى ممر ضيق كثير الرفوف. ويتوقع أن يكون منظر المياه الساقطه فوق هذه الأرفف خلال موسم السيول، بلا شك، مدهشاً ورائعاً، أدركنا جمالنا التي تحمل العفش في هذا الموقع الأسفل والصعب من قفلة، وكانت جمالنا هذه قد سارت طيلة النهار تسع ساعات دون توقف، تعادل ما لا يزيد عن (٢٠) ميلاً في بلاد صعبة قد عبرناها.

سعدنا جداً أن نعود إلى الراحة مرة أخرى على أمل مسيرة قصيرة إلى حبونا في الغد. كان عرض وادي تريمة الذي يدخل إلى هذا الموقع من ناحية الغرب ثم يدور هنا إلى ناحية الجنوب الشرقي، حوالي (٣٠٠) ياردة وبه الكثير من نبات الطرفاء وغطاء نباتي آخر على بطن حصوية يتلوى خلاله مجرى سيل ضيق رملي، من جانب إلى آخر. يشتهر المكان بكثرة الثعابين، غير أننا لم نر أياً منها خلال إقامتنا. يقع في أعلى معسكرنا ثقب (فضية) المائي في وسط مجموعة من شجيرات الطرفاء، ولم نشاهد كائنات حية كثيرة هنا غير البراغيث التي خلفها قطيع الماعز الزائر والبدو. يقال إن هذا الثقب المائي لا يمكن الاعتماد عليه وذلك لأنه يستمد ماءه من السيول في أي سنة حدثت، ولكن يوجد هناك أعلى الوادي، نهر تحت أرضي، يقع رأس تريمة على الهضبة الرئيسة شمال أو شمال شرق بدر، وينساب في النهاية السفلى إلى وادي حبونا نفسه، قريباً من الواحة الرئيسة. كان هنالك القليل من العلامات الدالة على وجود الماء والتي يشار إليها بالنقاط المألوفة، على الصخور بالقرب من الثقب المائي، كما كانت توجد نقوش ولكن لا يوجد بينها ما هو مهم فيعطلنا هنا بعض الوقت، وقد شارفت الساعة على الثامنة صباحاً، وأشرقت الشمس بشعاعها لتدفئ الوادي الذي قد أبرده الليل.

هبطت درجة الحرارة إلى (٣٦) درجة أثناء الليل، وحتى في الشمس عند الساعة (٨,٥) صباحاً كانت (٧٠) درجة. تحركت جمال الحمولة سريعاً بعد الساعة التاسعة صباحاً بينما تراخيت أنا لنسخ بعض النقوش وللبحث عن الطيور ولكن بلا جدوى. لم نر كائناً حياً، غير أنه كانت هنالك كمية من الحشرات حول مصباحي أثناء الليل. قارب الوقت الساعة العاشرة صباحاً عندما بدأنا بالفعل التحرك، ممتطين دوابنا إلى أسفل الوادي مارين بفضية أخرى جافة، وبفم لرافد قادم. انبعج المجرى على مسافة ميلين إلى فرجة واسعة بين التلال، وكان ملتصقاً بعدها إلى قاعدة السلسلة الشرقية، بينما ابتعدنا نحن عنه جنوباً فوق السهل العريض. وصلنا عند طرفه البعيد إلى سلسلة مقاطعة له منخفضة، عبرها الطريق من فوق ممر ضيق، حيث جلست لأفحص عتبة حبونا قبل دخوله وقد كنت أول رجل أوروبي يفعل ذلك.

يمتد أمامي وإلى أسفل شعيب الحبابة الذي يندفع من عند الهضبة المرتفعة، على مسافة ميلين ناحية الجنوب الغربي ويتصل مع وادي حبونا على البعد نفسه ناحية الجنوب الشرقي. يتصل شعيب حبابة مع شعيب الفيض على يميننا، في منتصف المسافة، أثناء خروجه من بين التلال. يلتقي جهة الجنوب أكثر شعيب نبع، الذي ورد ذكره، مع وادي حبونا، الذي اتصل به على الجانب القريب وادي تريمة الذي يشق طريقه عبر التلال وقد غطاه صخر حجري بني اللون ويسمى أم خرق، والذي أعطى هذا الاسم إلى الممر الذي جلسنا فيه عقبة أم خرق.

شمخت من حول كل هذه الأودية التلال العظيمة: بني جنفور، وعنب، وعان النعامة، ومن خلفها كتلة الضحى العالية وسلسلة ملحه خلفنا ناحية الشمال

الغربي. لم نر واحة حبونا لوجود سلسلة معارضة غير أننا وصلنا إلى طريق وادي ثار، وقد رأينا بلاداً جـميلة ولقد تمكنت من أن أمـلأ صفحات مـفكرتي بالنقوش والرسوم التي تركها العرب القـدماء الذين عاشوا في هذه الأودية، التي ربما كانت أكثر ازدهاراً في زمانها القديم مما هي عليه الآن وإلى تاريخ ضارب في القدم.



الفصل الثامن عشر

وادي حبونا[1]

هبطنا سائرين على الأقدام من عند الممـر إلى حيث تنتظرنا الجمال عند رأس شعيب شكمان، الذي تتبـعناه إلى مسافة قبل أن نضرب عبر دلتا الحـبابة متجهين إلى صخرة منعزلة على جانبه الأيسـر تكسوها نقوش لا حصر لها ورسوم، والتي توقفت فـترة لنسخـها، بينما واصل فـرج ومعظم الباقين المسـيرة لكي يكونوا في استقبالنا عند الوصول. رأينا أثناء ذلك ثعلـباً كبيراً وهو يدقق النظر إلينا من فوهة كهف في التل.

انكشفت أمـامنا الآن واحة حبونا على هيـئة كتلة كثـيفة من أشجـار النخيل بامتداد متوسط إلى جانب ما يقدر بستٍ من القرى الصغيرة المنتشرة بين المزارع.

اتخذت من النقوش سبباً لأتأخر أكثر إذ لا يزال اليوم في منتصفه، ولأستغل الفرصة لألقي نظرة فـاحصة على المكان ومحيطه قـبل أن أعبر بطن الوادي لألحق بزملائي في المعسكر الذي يقع تحت برج للماء يقوم على الـسلسلة الشستية لجانب الوادي الأيمن عند الطرف الشمالي الغربي للقرية الرئيسة والتي تعرف شمولياً باسم شط الخضـرة والتي تتكون من ثلاث قرى صغـيرة هي: طليل، والأعلى، وسند. كانت القصور متـجمعة مع بعضها البعض، في شكل قـرى صغيرة على عكس ما

---

(١) للمزيد عن وادي حبونا وفروعه وقراه وسكانه انظر: عاتق البلادي. **بين مكة وحضرموت**. ص ٢٠٤ ـ ٢٠٩، عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢، ص ٤٠٧ ـ ٤١٠ . (ابن جريس).

هو مألوف في نجران، مما يدل على أن المجتمع هنا أكثر تجانساً. تغطي قرية شط الخضرة مساحة أبعادها (٨٠٠) ياردة طولاً على واحة الوادي، و(٣٠٠) ياردة عرضاً عبر الخليج ويحيط بها تل مرتفع بارز تحتوي إلى جانب سكانها، على حقول دخن مزدهرة وعلى العديد من أشجار النخيل المنتشرة أو المتجمعة. تقع هذه المنطقة إلى الشمال الشرقي وإلى الشرق من عند موقع على جانب التل بالقرب من برج المراقبة الذي كنت قد اخترته لإجراء مسح عام للقرية ويقع على جانب الوادي الأيمن. تقع قريتان صغيرتان على مسافة ميل واحد عبر الوادي في اتجاه جنوب الجنوب الشرقي ويتبعان قبيلة بني هميم، وهما أعلا وأسفل تفصل بينهما صخرة، وتحتضنهما التلال.

تقع مزارع قابل منيف ذات النخيل الكثيفة، أيضاً على الجانب الأيسر للوادي وعلى الكتف الأيسر لقرية شط الخضرة، وكانت قريتها الرئيسة الصغيرة عند مركز الدائرة خلف أشجار النخيل ووسط حقول كبيرة للذرة. يكتمل النظر بقلعة تسمى قشيعة تقع على رأس صخرة صغيرة في وسط الوادي مع بعض أشجار النخيل القائمة على لسان أرضي يتجه إلى الوراء. يوجد غطاء جيد للطرفاء والأثل في بطن الوادي، والذي يبلغ عرضه حوالي (٤٠٠) قدم ويخترقه مجرى سيول ضيق متلوٍ. وتفتح قناة ذات جوانب عالية من عند جانب الوادي لتحمل مياه السيول إلى داخل المكان المرتفع الذي يقف عليه برج المراقبة، ومنه إلى الحوض الذي يحتوي على حقول الدخن، وحكماً بالأصوات المنبعثة من عند الآبار العديدة فإنه يتضح لنا أن الناس كانوا مشغولين هذه اللحظة بري محاصيلهم.

وقفت قمة أم خرق بارزة من فوق سلسلتها ناحية الشمال من موقعنا، كما أمكننا رؤية مجرى الوادي، وذلك على مسافة خمسة أميال أعلى أسفل الواحة.

كانت واحة جـذابة بصفة عامة، برغم أنها على مـستوى قياس أصغـر مقارنة مع واحة نجران، وقـد أكسبتها الجـبال التي تشمخ، من فوقهـا وعلى الجانبين، وتحيط بها، لمسة رومانتيكية.

أقيم مـعسكرنا على سـفح بالقرب من القـرية الصغيـرة الرئيسة الـتي تسمى الأعلى أو الحصـن الأعلى، حيث يقيـم أمير القـرية، والذي حضـر لتحيـتنا عند وصولنا ودعانا إلى قصره لتناول القهوة والمرطبات.

يتم تعيين هؤلاء الأمراء المحليين بواسطة أمير المنطقة، تمـاشياً مع العادة المتبعة في إدارات الجزيرة العربية. اتضح أن أمير قرية حبونا الصغيرة نسبياً هو في النسب خال لصـديقي النشمي بنجران، واسـمه محمـد بن ناصر، ولم يكن مقـصراً في صداقته وفي كرمه. جاء محمد أصلا إلى نجران مع السلف السابق للنشمي واسمه محمد العساف ومكث لكي يساعـد خاله، الذي منحه هذه الوظيفة. وقد كنت قد قابلتـه منذ فترة مبكرة، عـام ١٩٢٧م، لما كان حينهـا موظفاً تحت رئاسة عـبدالله الجفالي في مراقبة إنشاء الطريق المسفلت الذي يربط بين جدة ومكة -كان عربياً من الطراز الممتاز، ينتـمي للمدرسة القديمة، وكان شديد الجاذبـية، وشديد التواضع. وقد سكن بحكم الظروف في أحد القصـور المحلية، الأقل هيبة من تلك التي في نجران. وقد قام بإعادة بناء جزء منه ليحصل على غـرفة استقبال جذابة ذات نوافذ أكثر إضاءة مما كان قد أعده المهندس المعمـاري الذي قام بتصميم القصر والذي قد ارتكز همه على جانب الأمن بدلاً من الراحة. يطلق على القرية شط الخضرة، أو الشطين أو الخضرة -قسم يتبع الأسلوم-[١]، أو حتى قابل الطليل في مقابلة قابل

(١) الأسلوم يتكونون من خمـسة أفخاذ هي:ـ آل صليع، وآل عـامر، والخضرة، وآل قـريع، وبني هميم، وشيخهم الآن عبدالرحمن بن قعوان. مقابلة مع عبدالله بن هويج السلوم اليامي. (ابن جريس).

منيف المواجه. ينتمي السكان إلى فخذ الخضرة فرع الأسلوم التابع لقبيلة يام. ويطلق على السلسلة الجرانيتية العالية التي تحيط بخليج الخضرة وتطل عليه اسم شرقان.

تسلقت صباح اليوم التالي، وبعد أن تناولت إفطاراً ممتازاً من لحم ضأن وأرز قدمه لنا الأمير، السفوح شديدة الانحدار لشرقان التي تحتوي على ألواح عمودية تشبه الأردواز، متجهاً إلى القمة يصحبني مهدي بن قعوان، الرجل الرئيس في القرية. كانت القمة على ارتفاع (٨٠٠) قدم فوق خضراء والتي ترتفع إلى (٤٣٠٠) قدم فوق سطح البحر.

كانت أعلى نقطة تقع عند نهاية الطرف الغربي لسلسلة حادة الأطراف تتوضع في اتجاه محور شمال - جنوب وتهبط في عدد من التعرجات الحادة تجاه الغرب لقرية قابل منيف -التي نراها لأول مرة- وتسمى أيضاً آل قطران -قسم آخر من الأسلوم-. تسمى القرية المركزية التي أشرت إليها، باسم آل حمرى[١] -أيضاً من الأسلوم- بينما توجد على النهاية الشرقية قرية صغيرة ثالثة تسمى آل عوّاد -الأسلوم-. تنتمي أشجار نخيل وقلعة جزيرة قشيعة إلى آل قريع -الأسلوم- كما يوجد برج مراقبة آخر يسمى قلعة العان -آل عواد- على سلسلة منخفضة تجري أسفل الجانب الأيسر للوادي، من خلف قابل[٢]، وبها بئر يسمى بئر زبيدة.

يمكن رؤية امتداد الوادي باتجاه الشمال الشرقي إلى ما يلي قمة قلعة العان. تقع سلوى[٣]، حسب ما رواه مهدي، والتي لا نراها هذه اللحظة، في ذلك

---

(١) آل حمري: يعودون لفخذ آل قريع من الأسلوم. (ابن جريس).

(٢) قابل:ــ أي قابل منيف (ابن جريس).

(٣) سلوى: ربما تكتب وتنطق أيضاً (سلوة). (ابن جريس).

الاتجاه، بينما أمكننا رؤية المعلم الأرضي وهو عمود ثار. هبطت مجموعة من المسايل على سفح شرقان ناحية الوادي، والذي كان اتصاله مع تريمة مشاهداً على بعد أربعة أو خمسة أميال. يوجد بئران، فوق القرية في بطن الوادي من ناحية الشمال الغربي، يسميان مسرباً، بينما كان أمامنا منظر جزئي لنجرا (بئر وأطلال) ووسيعة (ثلاث آبار قديمة مدفونة) وكلاهما على الجانب الأيسر باتجاه أعلى الوادي لمسرب. اكتملت صورة حبونا بمجموعة من أطلال «بني هلال» تسمى خراب شريم مباشرة بعد الطرف الغربي لقابل منيف، ولبعض مزارع النخيل باتجاه أعلى الوادي التي تنتمي إلى الواحة الرئيسة غير أنها ستذكر عندما نقوم بزيارتها في مسيرتنا أعلى الوادي. كان كل ما تبقى هو سلسلة لا نهاية لها من الجبال.

هبطنا سفح شرقان عن طريق آخر غير مسيل جحير الذي كنا قد سلكناه صعوداً، وعدنا آخر الأمر إلى المعسكر عن طريق مسيل خال ومن حول برج المراقبة الذي في واجهته كنت قد رأيت نقوشاً على صخرة، وقد قمت بنسخها. لقد سُرَّ مهدي بهديته التي قدمتها له عندما افترقنا وكانت جنيهاً استرلينياً ذهبياً كاملاً (وكان مندهشاً قليلاً). لقد فعل مهدي الكثير بل أكثر مما أتوقع حينما أراني الصخرة الثانية التي تحمل النقوش، وبما قدمه لي من معلومات جغرافية محلية. أحضر لنا مهدي خروفاً غير أنني علمت بهذا الأمر في وقت لاحق.

لقد انتهينا من واحة حبونا، أو من الجزء الرئيس فيها، ولم يعد هنالك مبرر لبقائنا أكثر. كان الأمير قد قدم لنا زاداً للطريق، وجبة غداء بسيطة من عصيدة قمح جيدة الطبخ مملوءة بالسمن الذي تجمع في فوهة عند وسط العصيدة. كنا نضرب الطريق عند الساعة الثانية مساءً مرة أخرى لكي نرى المزيد من وادي حبونا في مجراه المحاط بالصخور وهو يجري في الجبال.

دخلنا مرة أخرى لمجرى الوادي، بعد أن عبر مضيق العرجاء (وبرج المراقبة من فوقه) من خلال ممر ضيق إلى فم خال وعبر مسافة تقل عن الميل الواحد، إلى مزرعة نخيل مسعودة الصغيرة، على جانب الوادي الأيسر، ومنها مباشرة إلى المروة التي تقع إلى الخلف على بعد مسافة من المجرى بأشجار نخيلها ومزارع دخنها وحصونها (قصور) القليلة القائمة في صدع السلسلة.

كان رأس التل الصغير الذي يقع بجوار جانب الوادي ويفصل بين هاتين القريتين الصغيرتين متوجاً ببناء مربع شبيه بالقلعة، كان جزؤه الأعلى مبنياً من الطين وكان الأسفل من حجارة جرانيتية. وتقع بالقرب من هنا مجموعة أخرى من حقول ومزارع نخيل وكلها معاً تكون قرية بني هميم الذي ورد ذكرها. توجد هنا قناة جانباها من الرمل تقود من عند الوادي إلى المزارع في قرية حويد.

واصلنا مسيرتنا ونحن في الحضن الجانب الأيمن للوادي، الذي كان عرضه نصف ميل وعليه كثافة من أشجار الطرفاء حتى وصلنا إلى الدلتا العريضة، لشعيب كتنة الذي ينحدر من عند فتحه في التلال تقع إلى الشمال من موقعنا، وعبرناه لنستريح قليلاً بجوار برج طويل نحيل يقع في وسط أشجار نخيل النقعاء على الجانب الأيسر. كانت هذه هي القرية الثالثة باتجاه أعلى الوادي التي تمكنت من رؤيتها من عند قمة شرقان وكانت هي آخر ضواحي الواحة الرئيسة. ألقت شجرة علب (سدر) ضخمة ظلها على بئر القرية التي تقع على حافة المجرى وكان قطرها حوالي (٢٠) قدماً وصهريجها مبطن بمواد البناء إلى مستوى الماء على عمق عشر قامات إلى أسفل -مقارنة بعمق ثماني قامات فقط في شط الخضرة-. كان البناء الفوقي للبئر يحمل ست بكرات، ثلاث منها تجاه الشمال والأخريات تجاه الجنوب والتي كانت تجري من فوقها حبال الدلاء التي تجرها مجموعة من الثيران،

تنتمي هذه القرية الصغيـرة، على عكس غيرها من القرى في هذه الواحة، إلى آل بحري، من الأحسن من قبيلة لمواجد[١].

واصلنا مسيرتنا أعلى الوادي بعد أن أدينا صلاة الظهر وقد تقلص عرض الوادي إلى (٢٥٠) ياردة بين جدران صخرية ارتفاعها (٢٠٠) قدم. اتسع هذا الممر بعد فترة إلى انبعاج دائري وقد نمت غابة من الطرفاء عند موقع تدفق شعيب ذات حمد الذي يهبط من عند سلسلة عويج قليلاً إلى الوراء من ناحية الجانب الأيسر. اخترقنا هذا وتتبعنا المجرى المتسع، وسرعان ما دَخَلَت في مجال الرؤية الواحة الثانية في حبونا واسمها الحصن وكذلك مزارع نخيل المجمع على بعد ثلاثة أميال من النقعاء. استقر بنا المقام هنا لنعسكر الليلة بجوار مزارع نخيل قريتي الحصن الصغيرتين التابعتين لغنيمة، بينما قمت أنا بتسلق الصخرة التي تطل على كل الواحة من عند الجانب الأيمن للوادي. تحتل مجمع مساحة بيضاوية طولها ميل وصف الميل من جهة الشرق إلى الغرب، وكان عرضها نصف هذه المسافة بين مجريي شعيب حلال (جنوب) وشعيب صيحان (شمال) اللذين يلتقيان في موقع دخولنا ليكوّنا رأس وادي حبونا، الذي يرتفع إلى (٤٤٠٠) قدم فوق سطح البحر. تتكون الواحة من قرية بائسة على جانبي سلسلة منخفضة تفصل بين المجريين من عند موقع ظهورهما في التلال إلى القرب من موقع التقائهما لتكوين حبونا، وكان آهلوها مثلهم مثل آل النقعاء من قبيلة آل بحري ومن لمواجد.

ستوصلنا مسيرة الغد إلى شعيب صيحان، وبناءً على هذا، فقد ركزت على جمع المعلومات عن المجرى الآخر وعلى المجموعة التي تكوِّن الواحة نفسها.

---

(١) للمزيد انظر: فؤاد حمزة، المرجع السابق، ص ١٧٨ . (ابن جريس).

لنأخذ شـعيب حلال أولاً، الذي نستطيع رؤية مـا يصل إلى طول الميل الواحد من مجـراه إلى الموقع الذي ينبعج فـيه من عند التـلال، وقد برزت إلى الخلف قـمة انثاري الواضـحة، التي تشاهد أمـام قرية نخـيل الحرشف، كمـا قيل لي، داخل المجرى، قيل لي كذلك إنها تبعـد مسافة رحلة نصف يوم من غنيمة، لنقل (١٢) ميلاً باتجاه أعلى الوادي. توجد قرية أخرى أعلى، باتجاه أعلى الوادي، وعلى بعد ميـل أو ميلين، تسـمى هدادة، والتي يكون الوادي فيـما يليـها عـارياً من الغطاء النباتي غـير المأهول حـتى حافة الهـضبة في اتجـاه ظهران أو مـا يعادل رحلة يوم ونصف اليوم (حـوالي ٣٠ ميلاً) فوق هدادة. تنتـمي هذه القرية ومعهـا الحرشف إلى قسم آل الحرشف تحت رئاسة صالح بن ربوع من قبـيلة آل فاطمة. كما توجد خمس قـرى أخرى على بعد مـسافة مـيل بين كل قرية وأخرى، تنتـمي كلها إلى قبيلة آل أبا الطحين قسم لمواجد، تقع بين الحرشف والموقع الذي يدخل فيه شعيب حلحلة إلى حـلال عن طريق جانبـه الأيمن، تسمى هذه الخـمس قرى كمـا يلي: حزقة، ودوَّح، والسليمة، والعزم، والنقعاء في هذا الترتيب مع اتجاه أسفل الوادي وتكون الأخيـرة منها فوق مدخل شـعيب حلحلة. يهبط الطريق القـادم من نجران عبر شـعيب بران إلى أسفل هذا المجرى ليـخترق حلال في طريقـه إلى الجفة التي تقع في شعيب صيحان ومنه إلى بدر(١).

كان القـسم من شعيب حـلال الملامس للمجمع علـى جانبها الجـنوبي ممتلئاً بأشجار الـطرفاء والأراك وبغطاء نباتي آخر. ويقـال إن هنالك العديد من الأطلال عند عـدة نقـاط على امـتـداد هذا الوادي، ويرجع تاريخـهـا ليس إلى بني هلال

---

(١) بدر: يطلق عليها بدر الجنوب تمييزاً لها عن أرض بدر التي تقع بين مكة والمدينة، وهي إحدى محافظات منطقة نجران اليوم. (ابن جريس).

بواسطة الروايات، كما كان المرء يتوقع من اسمها، ولكن من اسم بطل يسمى داكنيوس عاش حوالي (٣٠٠) سنة قبل ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وسلم).

تتكون واحة المجمع مما يلي:

١- غنيمة ويوجد بها حصنان وعدد من أشجار النخيل وبعض حقول الدخن كلها داخل المساحة البيضاوية، وقليلاً ناحية النهاية الشرقية.

٢- ربيعة وتقع على الجانب الأيسر لحلال على مسافة نصف الميل إلى أعلى.

٣- القرن وتقع بين غنيمة وربيعة.

٤- بئر البرصاء وتقع على الجانب الأيمن لصيحان على مسافة (٣٠٠) ياردة إلى أعلى.

٥- وتن وهي أكبر القرى وتقع في منفرج صيحان، على مسافة نصف الميل إلى أعلى وبها مجموعتان منفصلتان من أراضٍ زراعية ذات بئر هما أم الغرين ووشيجة.

٦- وحل وهي أرض ممتدة متعرجة ذات عدد من أشجار النخيل مع بعض الحصون القائمة على الجانب الأيمن لصيحان عند مدخله إلى المساحة البيضاوية. كما توجد، أخيراً قلعة صغيرة منعزلة على الجانب الأيسر لصيحان على مسافة (٣٠٠) أو (٤٠٠) ياردة أعلى موقع لقائه مع حلال. يهبط مسيل رح إلى صيحان في مقابل وحل وقليلاً إلى أعلى منه من عند جلمود مرتفع من حجر رملي، كان يقف شامخاً بين التلال ناحية الشمال الغربي، بينما تسيطر سلسلة فت على الجزء الأعلى لصيحان من ناحية الغرب في اتجاه بدر.

زارني أحد المكارمة عندما رجعت إلى المعسكر واسمه حسن وكان قد اشترى مزرعة نخيل في غنيمة منذ حوالي (١٦) سنة وهو يعيش الآن هناك - وهو ذو شخصية ورجل لطيف المعاشرة. تجمع كذلك حشد من الأهالي حول نيران معسكرنا لتذوق شراب القهوة وقد أحضروا لنا معهم حزماً من أعواد الدخن علفاً للجمال التي بدا عليها الارتياح لهذا العلف الجديد، غير المثير للشهية وقد أكلته بقناعة.

دعوت كل من حسن وشيخ القرية لتناول العشاء معنا، وجلسا يتحادثان معنا على فناجين القهوة حتى وقت متأخر - بالنسبة لهم. ادعى حسن أن هنالك علاقة بعيدة تعود إلى الجيل السابع والتي تربطه، إلى فرع رئيس قطاع المكارمة واسمه حسين بن أحمد الداعي، والذي تم نقله منذ المشاكل اليمنية عام ١٩٣٤م، إلى مكة. حيث ظل يعيش هناك حيناً وفي الطائف حيناً آخر حسب الموسم، وينزل ضيفاً على الملك، وله وكيل يسمى أحسان بن هاشم يقوم بأمور أسرته وممتلكاته في بدر. أخبرني حسن بأنه قد مضت فترة زمنية تقدر بـ (٣٠٠) سنة منذ أن استقر المكارمة الأصليون في بدر وفي نجران جاؤوا مهاجرين إليهما من بلاد همدان -يبدو أنها تعني اليمن-. غير أنني أبديت اعتراضي لما قاله حسن، ذلك بأنني لم أر أحداً من جماعته هذه في نجران. أجابني حسن بدهاء بأنهم قوم مبعثرون في الشتات وأنهم منعزلون لأنفسهم ولا يزورون أحداً. استمتع معنا جمهور غفير بجلسة مع الراديو ذلك المساء غير أنها لم تكن سهرة ناجحة بسبب الظواهر الجوية الكهربائية.

كان اليوم التالي هو الحادي عشر من نوفمبر. سرت مرتجلاً عبر المساحة البيضاوية، عند مواصلة مسيرتنا، وذلك لأفحص وتن، التي وجدت فيها أطلال

بئر قديمة كما لاحظت قلعة أخرى صغيرة قائمة على هضبة منخفضة بالقرب من بئر البرصاء. لاحظت كذلك أن الصخور الشستية على هذا الجانب مخططة بكمية كبيرة من الكوارتز.

لم يكن هنالك شيء ذو أهمية قصوى هنا، ثم سرت إلى الجانب الأيسر لصيحان إلى ناحية منفذه من عند حاجز التلال. كانت هنالك ألواح كبيرة من الشست مرتبة طرفاً بطرف في صفين لتكون بذلك قناة توجه مياه السيول إلى مزارع وتن. كانت توجد كذلك قناة أخرى في تلك المنطقة، قريباً من المنفذ، عند النهاية الغربية القصوى لوحل وعلى جانبه الأيمن، وكانت جدرانها الطينية عالية. وقد وقفت عند مدخله صخرة كبيرة وعليها عدد من النقوش الثمودية وبعض الرسومات الجيدة للجمال وإلى جانب خربشة ثعبانية مزدوجة بتفرعات، ربما قصد بها مخطط بدائي كروكي لمساحة الواحة ذات الواديين والعديد من القنوات. أينما وجدت مياه صالحة للاستخدام في هذه الأودية الجافة العارية، فإن القدماء وإلى حد ما الحاليين، قد استغلوها لكسب العيش فوق تراب أرضهم. كان عليهم، في الأزمان السابقة، الاعتماد على جهدهم الذاتي في الكفاح لأجل البقاء.

يحكى لنا حبشوش، في الكتاب الذي ورد ذكره، بأنه في المناطق الأكثر خصوبة في جنوب اليمن، فإن المجاعات التي كانت تقع على فترات، كانت تنتج عن انحباس الأمطار الموسمية وشح السيول لذلك كانت تؤدي إلى هلاك الجزء الأعظم من السكان، حتى جاء الأتراك المقدامون عام ١٨٧٢م. استطاع الأتراك أن يلطفوا آثار المجاعة في إحدى المناطق بإدخال وسائل كفء لنقل الحبوب من منطقة إلى أخرى كما حدث في هذا العام (١٩٣٤م) فقد تمت مواجهة شبح المجاعة في حضرموت بقرار الحكومة البريطانية بإرسال كميات من الدخن من اليمن ومن

تهامة ومن السودان إلى تلك المنطقة. يقدم لنا حبشوش المعلومات المثيرة للاهتمام بأن الرز كان قد استورد لأول مرة إلى اليمن من مصادر من وراء البحار وذلك لتلطيف آثار المجاعة التي حدثت عام ١٨٨٥م. كان الأتراك، بالطبع، هم الذين نظموا الاستيراد والتوزيع، وقد احتل الرز موقعه وإلى الأبد، كمادة عادية في الغذاء بين أوساط الطبقات المنعمة. ويقول الملك ابن سعود: إنه كان أول من أدخل الرز إلى وسط الجزيرة العربية وذلك إضافة إلى جانب الأطعمة الأخرى وليحل مكان البرغل والجريش والتي وجدها في نظره مهيجة إلى درجة بعيدة.

أدرنا ظهورنا ناحية واحة المجمع البائسة وواصلنا المسيرة فوق الوادي، وقد مررنا بقلعة مدمرة تطل على غابة من أراك وطرفاء ووصلنا بعدها في أقل من نصف الساعة إلى شعيب جاري اسمه الضيقة، ينساب لمسافة (٤٠٠) ياردة في مضيق صخري ضيق قد وجدت على جداره نقشاً بجوار رسم لفارس. كان الشعيب الجذاب هذا مبطناً بالقصب والطرفاء وقد اتسعت نهايته العليا إلى انبعاج عظيم مع تدفق شعيبين هما أم العصب على يميننا ونفر على يسارنا. تقع الواحة الثالثة لمجموعة حبونا في الانبعاج قليلاً إلى أعلى من مجرى صيحان وتسمى الجفة ويمتلكها جماعة آل فاطمة. تقع الجفة في ثلاث مجموعات من النخيل وحقول الدخن وعدد من المساكن معظمها كأبراج.

وصلنا إلى أولى هذه وتسمى المذنب وهي قرية بائسة بمعنى الكلمة ذات عدد من أشجار النخيل المبعثرة وحوالي ستة من الأبراج المدمرة ومساحة متوسطة لزراعة الذرة وبعض حقول البرسيم. تقع هذه القرية على بعد قليل عن الجانب الأيسر لصيحان الذي يجري أسفل منتصف الانبعاج وقد تتبعناه مسافة (٥٠٠) ياردة لأول الأبراج وأول الحقول للقرية الصغيرة التالية وتسمى المثناة. كانت المثناة عبارة عن

مجموعة صغيرة من الحصون مبعثرة في المزارع وتتجمع مواقع السكن فيها، وهي عبارة عن ستة من الأبراج عند منتصفها.

كانت معظم حقول الدخن قد تم حصادها وتم نقل المحصول إلى موقع مركزي لأجل غربلته، حيث كانت هنالك مجموعة عاملة فقيرة، ولكنها مرحة، تتكون من الرجال وبعض النسوة تقوم بغربلة الدخن من قشوره بالأسلوب الذي عفا عليه الزمن وهو صبها خلال مجرى الهواء. وكانت الحبوب قد فصلت من قبل عن السنابل بوطئها بواسطة الدواب[1]. تقع بئر البصرة على الجانب البعيد لصيحان غير أنها تعد داخل حدود المثناة. تنتهي القرية بمجموعة ختامية من الأبراج عند موقع دخول المجرى وهو قادم إليها من عند التلال، وعموماً فإنها تبدو أكثر ازدهاراً من المذنب حيث أن بها بعض المساحات الصغيرة المزروعة التي تحيط بالآبار بمحصول القمح والذي كان مزهراً بالفعل. يحلق سرب كبير من طيور السوادية ويلتقط كل ما يسقط من حبوب أثناء عملية نقل الدخن من الحقل إلى موقع غربلته.

يقع القسم الثالث من الواحة ويسمى أم الحوض أعلى الانبعاج داخل المجرى الصخري، قليلاً فيما يلي المسيل الصغير الذي يدخله على الجانب الأيمن، مقابل قلعة من الطين، مدمرة، تحيط بها مقبرة تم بناء بعض قبورها بألواح من الصخر إلى ارتفاع أربعة أقدام. تمتد أم الحوض، بنخيلها الشحيح المبعثر، وحقول الدخن الشبه مدككة، إلى حوالي (١٠٠) ياردة أعلى الوادي، وتضم البرج المنعزل وبئر

---

(١) لمزيد من المعلومات عن حصد الزروع ودرسها ثم فصل الحبوب عن التبن والأعلاف، انظر: غيثان بن جريس. **عسير ١١٠٠ - ١٤٠٠هـ**، ص ١٢٩ - ١٤٧ . (ابن جريس).

نزقة في الرقعة من الأرض التي تحتوي على حوالي (٢٠) شجرة من أشجار النخيل ومن حقول صغيرة على بعد (٤٠٠) ياردة عند تدفق مسيل مهرة من مرتفعاته الصخرية الرملية على يميننا.

هكذا انتهت الجفة وواصلت أشجار الطرفاء الخفيضة وجودها في الوادي غير المثير وقد أطبقت سلسلة الدهو مما حجب عنا المنظر الذي يقع على لسانها على بعد الميلين. دخلت مسايل عديدة إلى الوادي، وتدفق شعيب فت عند قاعدة سلسلته المنبعجة التي شمخت فوقنا إلى ارتفاع (١٥٠٠ - ٢٠٠٠) قدم. تسمى هذه السلسلة مبنى البيت وهو شعيب يدخل صيحان من على الجانب البعيد، وقد أصبح الوادي دافئاً وعديم الهواء بسبب انطباق كتلتي دحو ومبنى العاليتين عليه. اجتهدنا لنتوقف هنيهة عند النهاية السفلى لنهر جارٍ آخر يسمى غيل صيحان عند مدخل شعيب راك كان عرض الوادي هنا حوالي (٣٠٠) ياردة مع غزارة لنبات الحلفاء والطرفاء التي لا مفر من وجودها على النهر.

ارتفعت الصخور الجرانيتية الداكنة إلى حوالي (٥٠٠) قدم، وأكسبت المكان إحساساً غامضاً، وأجواء ميتة. كان هنالك عدد قليل جداً، حقيقة، من الطيور في هذا المكان، كان الطائر المخوض يلتهم أسماك المنوة الوافرة وقد أطلقت عليه الرصاص، وكانت الذعرة تقوم بصيد الأسماك على حلقة الماء، وكان طير البلاكستارتس يرفرف بجناحيه حول الصخور، وكان هنالك صقر صغير يحلق فوقنا حينما كنا نتناول الشاي تحت ظل إحدى الأشجار، ونحن نراقب الجمال وهي تمضغ أعواد الدخن. كان مرشدنا، زائد، مجنداً في الخضرة وكان يعرف الوادي جيداً ولكن ليس لأبعد من حدود هذا الوادي الضيق. تعزز فقره الزائد للذكاء إعاقة واضحة في حديثه.

لقد كان النهر منقطعاً، يظهر في أجزاء من البرك، وقد نما القصب في بعضها إلى ارتفاع (١٥) قدماً. وكانت غابة الطرفاء كثيفة حينما كنا نشق طريقنا فيها عبر العديد من المسايل الهابطة من جوانب شثّي وهي سلسلة عالية ذات قلنسوة من الحجر الرملي، تقع على مسافة ميل واحد ناحية الخلف تجاه الجنوب. كانت هذه السلسلة فعلياً استمراراً لسلسلة الدحو وهي نفسها تتواصل غرباً بسلسلة دخفة التي تطل على آخر واحات حبونا التي تقع أمامنا.

وصلنا عند قمم أحد هذه المسايل إلى أطلال قلعة قديمة من الطين تقع بالقرب من بئر عجمان المحطمة التي امتدت من عندها قناة جر للمياه تنقلها إلى داخل البناء، كان هنالك اتساع في الوادي قليلاً إلى أعلى، وقد سببه دخول وادي قاب من جهة الشمال، عبر مضيق مدهش، حقيقة، في الطرف الأدنى لوادي بدر بالنسبة للهضبة، غير أنه هنا يسمى محلياً باسمٍ لأطلال قديمة ليست بذات أهمية ولعلها كانت موقع قلعة لحراسة الوادي ضد أية تدخل من ناحية الهضبة. يقال إن هذا الممر لا يصلح لسير أي نوع من الحيوانات المستأنسة عدا الإنسان. يبدو أن اتجاهه العام، مع اتساعه، هو ناحية الشمال الغربي. وصلنا إلى حاجز معتبر من أكوام للطمي في موقع اتساع آخر للوادي وعلى مسافة أعلى عند مدخل فرع آخر لشعيب راك الذي يقع على يسارنا. كان يوجد عند النهاية العليا له بئر تسمى الخثيمي، كانت مياهها تسحب بواسطة ثلاثة جمال وذلك لري الحقول أسفلها. يسكن مالكو البئر في منزلين صغيرين من اللبن، كما توجد أكواخ محطمة، تدل على أنه كانت هنالك محاولة لزراعة كل الحوض الطموي، الذي ظل جزء كبير منه دون زراعة، بينما أقيمت على جانبي الممر جدران من حجارة.

كانت هنـالك رقعة لأرض طينيـة تقع إلى أعلى، ذات أطلال لمبانـي بدائية، وقد وصلنا إلى ما يليها لنفاجـأ بمنظر زاهر يدل على نشاط الإنسان وهو عبارة عن حقول الذرة الواسـعة نسبياً في قرية آل فـايد ذات المنازل الأربعة اللبنية التي تأوى سكانها قليلي العدد، والذين ينتمون إلى قبيلة آل فاطمة.

تتبعنا شريطاً لقـناة بدائية عبر هذه المزرعة - موقع جذاب جـداً وقد تباعدت الجدران الداكنة لمضـيقه كاشـفة وادياً عريضـاً يمتد أمامنا ومن ثم عبـرنا من حول قاعدة هضبـة صغيرة تقف فوقهـا قلعة محطمة مبنية من اللبن قـائمة على أساس حجـري. كان اسـمها أم عـرقين وهي منظر تذكاري لتلك الأيام التـي كانت هذه القلعة تقف فيهـا لحراسة المحاصيل التي تنمو أسفلها ضد رجـال القبائل الغزاة من القبائل المعادية. كـانت هذه الأرض الطينية امتداداً لهجمـة أعلاه، بنخيله الطويل التزيني وأبراجـه المبنية من اللبن مـتوضعـة على جانب نهـر صغيـر جارٍ في بطن الوادي. ينتمي الناس هنا إلى فرع آخر من قبيلة آل فـاطمة ويدعون آل جثيمة[١]. وصلنا إلى الجـزء الواسع من الوادي، فيـما يـلي ذلك، عند موقع البـئر وحـقل الدخن الوحيد والمحاط بجدار والذي يتبع آل مرقب وإلى برج تربة عوفه الصغيرة، وإلى مزرعة نخيل صغيرة وحقول أكثر.

وصلنا الآن إلى القرية الـرابعة في حبـونا وتعرف باسم الخضـيرة وتضم كل المزارع أسفل الوادي حتى بئر خثيمـة. ينتمي هذا الجزء المكشوف الأعلى إلى قبيلة وعلة التابعة لآل فـاطمة، مع عناصر من آل قنة وآل دواخ وتشتـمل على عدد من

(١) آل جثيمة: ربما يطلق عليهم أيضاً اسم (آل قثيمة). (ابن جريس).

القرى الصغيرة والآبار وعلى مزارع نخيـل وحقول مجاورة لها. كانت هنالك من ناحية الغرب وإلى أعلى، مجموعة من الآبار وأشجار النخيل وحقول، كلها تكون سليحة عند القمة، وأم الركب في الوسط، وتقع بئر زيتة إلى يمنيها، وتقع كل من زهرة وسلوى على الجانب القريب منها. كما تقع بئر عبلة بالقرب منا بينما وقفت القرية الرئيسـة ذات الأبراج، وتسمى حويرة، على الجانب الجنـوبي للمجرى، ثم اكتـمل المنظر بقلعـة تسمى الرهوة تقف على صـخرة منعـزلة عند مركـز القرية، وبعض مزارع نـخيل مصـفيـة على الجانب الأيمن والذي بجـواره، وفي مسـاحة مكشـوفة، قـررنا أن نعسكر لقـضاء تلـك الليلة. كوَّن بئـران أخريان همـا بروك ووسيطه جزءاً من مـصفية وعوفـة بالتتالي. شمخت من فـوقنا سلسلة دخفة ذات الجبال الصـخرية الرملية المسننة والمنقرة بالعديد من الـكهوف. كنا هنا على ارتفاع (٥٢٠٠) قدم فوق سطح البحـر، وعندما قمت بتسلقها في اليـوم التالي إلى قمة دخفة، كان الارتفاع حوالي (٦٩٠٠) قدم.

مـررنا بمجمـوعة من الـبدو أعلى الوادي ينفطر لـمنظرهم القلب وهم من آل فايد. كانوا رجالاً ونساءً يندبون بصوت مرتفع جملاً مـيتاً ويصرخون بقوة متهمين القرويين المحليين بـارتكاب الجريمة. كانت مـثل هذه الحوادث في الأزمان السـابقة تنتـهي بسفك للدمـاء، غير أن كـلا الفريقـين كان عاقـلاً وتابعاً لأسـاليب النظام السعودي ولم يحدث شيء بعد المناظرة الضرورية الشاملة. كان القرويون –حسب رأيي– بريئين تمامـاً من الحادثة التي دفعت بالجـمل من فوق الصـخرة حينمـا كان يتجول هناك بلا هدف عـبر مزارع الدخن فسقط وكـسرت رجله. أقل ما يمكن أن يفعله هـذا الجمل الآن هو أن يكون وليمـة لكل من يهمـهم الأمر، غـير أنني لا أدري بالفعل ماذا حـدث فقد واصلنا مسـيرتنا لنكتشف عند وصولنا الخـضيرة أن

ليس بها لحوم وتعـشينا بالعصيـدة فقط. كنا جائعين وكان الوقت متـأخراً جداً لا يمكننا إرسال أحد لذوي القطعان للحصول على جدي.

كانت بعض المسـاكن البرجية شـديدة الجاذبية في هذه الواحة وسـاحرة المنظر ومن حقها علينا أن نصف نموذجاً مثالياً لها بشيء من التفاصيل. يبدو أن الأساس الفعلي فقط للمنزل هو الذي استخدمت فيه الصخور، وفوق هذه الصخور يتكون البناء من اللبن ويرتفع إلـى حوالي (٣٠) قـدماً. كـان جزؤه الأسـفل مكوّناً من طبـقات من طين إلى ارتـفاع سـتة أقـدام وتمثل هذه الطبـقـات حجـرة في الدور الأرضي، وهو بلا منفذ إلا من عند البـاب. برزت بعد هذه كثـافة من الطين إلى ارتفاع (١٢) قدماً ولم تكن من طبقات ولكنها كانت كتلة مصمته، وكان جزء من هذه، ارتفاعه حوالي تسعة أقدام وتمـثل غرفة المنزل الرئيسة التي يسكنها رب المنزل وتقع في الطابق الأول.

يوجد في هذه الغـرفة صفان مزدوجـان من شقوق النوافذ الشـبيهة بفـتحات الرمي وقد حـصرت ثمانيـة منها على جانب واحـد - وعلى مستـوى أعلى منها يوجد صفـاً من خمس فتحـات مربعة (للضوء ولـلتهوية). كمـا يبدو أن الأقدام الثلاثة المتبقية لهذا القسم هي التي تكون الجزء الأسفل لغرفة الطابق الثاني، والتي تحيط بهـا طبقات من الطين ولارتـفاع يصل إلى سـتـة أقدام وهي مخـرمة بانتظام بنوافذ صغيرة مربعة. يحتمل أن تكون هذه الغرفة مقسمة بدورها إلى غرف لأفراد الأسرة (نساء وأطفال) في طابقين. كانت الأقدام السـتـة الأخيرة من جدار مصمتة من الطين وبلا طبقات، ومزخرفـة بسذاجة بصفين من النقط وصف من حرف T بينهما. يمثل هذا القسم جزئياً غرفة عليـا بدون منفذ -ربما لتخزين المقتنيات القيمة مثل الأسلحة والذخيرة- ويمثل جزئياً قسماً ذا جدار يكون حاجز سقفه محاطاً من

كل الجهات بصف من الأبراج تبدو كرأس النخلة. يبدو أن الصعود من غرفة إلى أخرى في هذا البناء يتم بواسطة درج خشبي، يقود إلى فتحة مربعة في أرضية كل غرفة. يبدو المنزل بسيطاً جداً، ولكنه من غير المحتمل أن يكون مريحاً لأن يعيش المرء فيه[١].

شاركنا بعض القرويين وجبة المساء البسيطة إلا أن أحدهم ويدعى أحمد بن عايض كان مرشداً ملماً بالكثير من المعلومات حين صعودي معه إلى دخفة في الصباح. كان من عادته المضطربة أن يهرش رأسه وجسمه، واللذين يبدوان وقد ملأهما القمل، غير أنني غفرت له هذا الإحساس بسبب معلوماته الموسوعية عن المنطقة حول موطنه البائس. لقد ابتدأنا من عند المعسكر وتوجهنا ناحية الجنوب الشرقي عبر المسيل الشديد الانحدار والمستقيم تماماً، ويسمى البوال والذي يميل أسفل جانب دخفة من عند قمته الصخرية الرملية وعبر سفحه الجرانيتي الصعب. وصلنا على مسافة (٤٠٠) قدم إلى أعلى، إلى نبع ضئيل جداً يسمى وشل وهو يقطر من شق في الجرانيت المصمت. ثم وصلنا إلى تماس الصخر الرملي عند ارتفاع (٦٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، وهذا يشير إلى أن قلنسوة الجبل ذات سُمك يصل إلى (٤٠٠) قدماً. وصلنا إلى قمة السلسلة عند موقع لعرن بالقرب من نهايتها الغربية وهو أقل ارتفاعاً من القمة الفعلية وعن طريقه سرنا إلى قمة السلسلة. كانت تقع إلى ما يليه وعلى بعد مسافة قليلة قمة أخرى على نفس مستوى تلك التي نقف عليها، ويبدو أن السلسلة كلها من الشرق إلى الغرب لا يزيد امتدادها على ميلين. تنحدر السلسلة من الجانب الخلفي تدريجياً إلى مستوى

(١) هذا النوع من المنازل كانت متواجدة للسكن والاستخدام في المنطقة الممتدة من نجران حتى الطائف، ولا زال بعضها على هيئة أطلال في هذه البلاد حتى اليوم. (ابن جريس).

الهضبة المرتفعة والتي نكاد أن نكون قد وصلنا إلى حافاتها الممزقة. كان المنظر من قمة دخفة عظيماً بحق، وكانت الرؤية ممتازة وواضحة التفاصيل. شمخت القمتان والنموات الأخرى من أرض مسطحة خشنة أعلى كثيراً من المستوى العام للمحيط المجاور، ويوجد على القمة التي نقف عليها صندوق للصيد بدائي البناء وبلا سقف، أنشئ لمن يرغب في صيد الوعول التي يقال إنها ترتاد هذه التلال.

امتدت الأرض الخلفية الغربية في وتر طويل ضحل من فوهات بركانية -سأراها فيما بعد عن قرب- مكونه من سلسلة تسمى قهر القعم التي تطل على أودية تهامة تجاه البحر الأحمر من الجانب البعيد. يجري عند قاعدة هذه السلسلة الطويلة وفعلياً داخل حدود مشتركة معها، من الشمال إلى الجنوب، شريط مدهش وبارز لصخر أصفر تسمى القعم الأبيض الذي يكون عرقاً يفصل القمة البركانية من الصخر الرملي للهضبة المرتفعة. ترتفع قمة صخرية رملية منعزلة ومدهشة، ناحية الغرب من موقعنا هذا، وقريبة جداً من الخلفية الصخرية الملونة بالأسود والأصفر التي ورد وصفها، شكلها يشبه شكل خبزنا القديم، وتكون معلماً أرضياً ممتازاً لعدة أميال ومن كل الجهات.

تسمى هذه القمة شثاثا، وهي تسيطر على المركز الإداري المهم لظهران، عاصمة الهضبة المرتفعة، والتي تقع خارج مدى الرؤيا وداخل واديها على مسافة ميلين ناحية الجنوب. يأتي هذا الوادي واسمه شعيب كهلان، كما يقول مرشدي، منحدراً ماراً بالمدينة من عند الطرف الغربي عبر أرض مضطربة مكسرة إلى مسافة ثلاثة أو أربعة أميال من دخفة وتقريباً ناحية الغرب منها، حيث يتصل بوادي مشابه هو وادي أمترة[١]، الذي يصرف الهضبة العالية إلى الشمال من شثاث من عند

(١) وادي أمتره، ربما ينطق أيضاً باسم (وادي الترة). (ابن جريس).

رأس الخانق وهي الاستمرار الغربي لشعيب صيحان وأيضاً حبونة نفسه. يشير الاسم الخانق (المضيق) بالتحديد أيضاً إلى مجرى يجري إلى واحة الخضرة ويضيق فيما يليها إلى موقع ملتقى شعيب قاب الذي ورد ذكره، حيث يكون اتحادهما عند رأس غيل صيحان ليكون القسم التالي للوادي في اتجاه الشرق إلى المجمع وهو اسم شعيب صيحان. تقوم السلسلة الرائعة لمبنى البيت والدهو على الجانبين ويملأان كل الربعية للبوصلة من الشمال إلى الشرق، بدور المَعْلم لموقع ابتعاد قسم صيحان من الوادي والذي يمكن رؤية منبعية الرئيسين في السلسلة العليا للجبال الغربية، كاملين، كما قد رأينا نهايته مع اتجاه أسفل الوادي من عند الحصينية وهي تتلاشى في الصحراء العظيمة ماراً بمعلم عن حبونا الأرضي. سأرى هذه الأجزاء العليا لهذا الوعاء العظيم عن قرب، غير أنني رأيت الآن لفائدتي الخاصة أهم سماته.

لا أحتاج للحديث هنا عن قرى وادي أمتره أو مجرى ظهران والتي تتبع الهضبة المرتفعة أكثر مما تتبع الوادي. يكفي هنا أن أذكر القرى الصغيرة للواحة الخامسة والأخيرة لحبونا في ذلك الجزء من خنق الذي يقع في الوادي الضيق أعلى قرى الخضرة. كانت كلها مرئية لنا من عند الطرف الغربي لدخفة، برغم أن هذا لم يكن من عند القمة. كانت أقربهم لنا هي أم الركب وكانت أعلى القرى الصغيرة لخضرة هي حفول على بعد نصف الميل باتجاه أعلى الوادي مع وجود شريط من متاجر مهجورة تسمى سوق بني حرب متوضّعة على السفح من عندها وحتى الوادي، وقلعة أم الجبل على الهضبة أعلى منها، كل هذه كانت تقع أعلى تدفق مسيل خيرة على الجانب المقابل أو اليسار. يتبع بني حرب قسماً من آل فاطمة. تأتي بعد هذا وفي ترتيب من أسفل إلى أعلى: آل دوكر، واللقطة، ورضية، والحقي، كلها تشتمل على قرى صغيرة بروجية متوضعة في مزارع نخيل

صغـيرة الحـجم وبعض حقول الدخن. يـصعب عليَّ جداً تكويـن فكرة عن عدد السكان في مثل هذه القرى المبعثرة كما هي الحال في حبونا، غير أن تقديري لعدد السكان في كل المـناطق المأهولة لوادي حـبـونا لا يزيد عن (٢٠٠٠) نسـمـة مع استبعاد الناس الرحَّل الذين يعيشـون في الصحراء. يكون عدد هؤلاء الرحَّل كبيراً أيضاً وقـد يصل إلى (٢٠٠٠) نسـمة أيضـاً، وعليه يكون العـدد الكلي للسكان لمقـاطعـة حبـونا حـوالي (٤٠٠٠) نسـمـة، لا يمكن الاعتـمـاد على مـثل هذه التقـديرات. يمكنني رؤية تل أم خرق، بعـيداً إلى أسفل، ومـطلاً على واحة شط الخضرة، بينما يبدو فيما يليه وقليلاً ناحية الشرق، شريط أبيض طويل لعله مجرى حبونا فيما يلي تدفق وادي ثار.

كان المنظر كـئيبـاً من عند الكتف الأيمن لمبنى البيت ناحـية الشمـال الشرقي وحول جنوب قمـة شثاث ناحية الغـرب، ويتكون من أرض متقلبة مـرتفعة يصل ارتفاعها إلى (٦٠٠٠) قدم فوق سطح البحر وبها القليل من المواقع البارزة فوقها. أستطيع أن أرى انـثري الذي يقع بين الدهو وضـحا القريبين مني، وهـو يقع تجاه الجنوب الشرقي ويحجب قرية الحرشف الصغيرة في شعيب حلال، بينما يدل على موقع هدادة -قليـلاً- إلى أعلى المجرى نفسه، شـريط على سلسلة مضرع ناحـية الجنوب الغربـي. ارتفعت بين هذه ونقطة الجنوب، سـلاسل مماثلة حادة لنصـرانية وحرث وكل هذه السـلاسل الثلاثة تقع في الأراضي جنوب ظهران. توجد كـتلتا كفر وكـتان إلى البعيـد ناحية الشرق، ويكونان شـريطاً متصلاً مع انخـفاض قليل بينهمـا والذي من عنده يمكن رؤية قمـة بعيدة تجـاه الجنوب الشرقي والتي عرفـها مرشـدي بأنها إحدى النقاط التي تطـل على مضايق الموفجـة. اعتقد مـرشدي أن سلسلة أخـرى بعيدة واسـمها منـاضر تطل على المخلاف من عـند الجانب الأيمن

لوادي نجران غير أنني تشككت في هذا التعريف. يقع ناحية الجنوب الغربي السلسلة العالية والطويلة التي تسمى قهر آل حمد حاجبة حدود اليمن والتي كان يرى فيها تل هضاض الواقع أمام النقعاء، كما ذكر أحمد -مرشدي- أن منخفضاً يقع في ذلك الاتجاه، بأن اسمه وادي فرع الجبل -وذلك لتميزه عن فرع جنوب نجران-، مضيفاً بأنه رافد من روافد شعيب حلال، وعليه يكون هذا أقصى رافد جهة الجنوب لوادي حبونا. أشار مرشدي إلى وادي يسمى وادي الحصن، والذي سنتحدث عنه في وقت لاحق.

تصب تلال صروم وسحمان في الشمال الغربي، فيما تبقى من ربع المنظر الذي تسيطر عليه قمة دخفة من شثاث إلى النقطة الشمالية، مياهها في المرتفعات العليا لتثليث حول الحرجة، بينما يطل رابية قرن سبط البركانية البارزة الواقعة على شفه هضبة بدر العالية، في الاتجاه نفسه فوق المجمع الواقعة في أحد الأودية التي ليست بالبعيدة منها. يمكن رؤية بدر نفسها قليلاً ناحية اليمين من هذا الشريط، أو تجاه شمال الشمال الشرقي، وإلى مسافة بالقرب من قرن سبط، وهي محتضنة في واديها الضحل وتحت قلعتها البارزة على التل. يصل الطريق من هنا إلى حبونا إلى قمة الجانب الأيسر على رأس مسيل يسمى خيرة، والذي أسفله يتلوى الممر وبخطورة تجاه قرى الخانق الصغيرة. يعلم تل أبيض بارز يسمى قرة الطريق إلى بدر إلي البعيد في الهضبة العالي والتي تلتف حافته القريبة بوادي حبونا في الخضيرة في شكل مرتفعات منخفضة تسمى يتم التي تقع بين مسيل خيرة ومسيل آخر يسمى بط يتصل بصيحان بالقرب من مزارع آل فائد. واصلنا مسيرتنا عن طريق خيرة وكان الوقت قد تجاوز الواحدة مساءً حينما عدنا إلى المعسكر وأنعشنا أنفسنا وكنا على استعداد لبداية جديدة.



الفصل التاسع عشر

وطن السفاحين[١]

وصلنا إلى سفح مسيل خيرة بعد حوالي (١٥) دقيقة بعد مغادرتنا للمعسكر وشرعنا فوراً في تسلق له مرهق وفي أكثر ساعات اليوم حرارة. يوجد عند السفح مسيل آخر يسمى شرج، الذي يتصل به، كان عرض بطن المجرى الحجري هناك حوالي (٤٠٠) ياردة وقد كان ينحدر أول الأمر بلطف وفي مجرى متعرج حتى وصلنا إلى موقع دخول شعيب العين، الذي يوجد فيه نبع ماء مستديم في موقع متقدم في بطنه. تقف شجرة سدر عند موقع الالتقاء لمسيلين مسمى أحدهما علبة السيد -يعتقد أنه قد استراح أسفلها أحد أعيان المكارمة-، أو فقط علبة العين -إشارة إلى النبع-. هذا وقد انتشرت العديد من الأشجار في هذا المجرى الكئيب حتى وصلنا إلى مفترق له، والذي من عنده اتجه طريقنا ناحية الغرب على مسيل رافد يسمى الخليف، بينما قاد طريق أقصر، لا يناسب الحيوانات، مباشرة إلى أعلى.

كنا نسير راجلين جميعاً، لنعطي الجمال بعضاً من الراحة، وذهبت أنا عبر الطريق الآخر الذي يسمى الصدر. كان عرض المسيل هنا حوالي (٢٠٠) ياردة وأخذ يضيق إلى نصف هذا العرض مباشرة عند جلمود يرتفع إلى (١٥٠٠) قدم على اليسار وعند سلسلة سهله على اليمين، والتي تعرج الطريق عليها، وذلك

---

(١) لا ندري لماذا فيلبي أطلق كلمة (السفاحين) على وطن المكارمة في نجران، وكان من الأجدر أن يقول: (وطن الإسماعيلية). (ابن جريس).

لأن المجرى الفعلي كان بالطبع جافاً ومختنقاً بالجلاميد المتساقطة. اتحد طريق الجمال مع طريقنا عند مضيق سهل يقع قليلاً إلى أعلى، غير أن الطريقين انفصلا مرة أخرى عند رأس مسيل الشقيقة والذي ينحدر إلى (١٠٠٠) قدم نحو مجرى خيرة، إلاّ أنه مهد لنا طريق مختصر يقود إلى صدع آخر في الجدار يسمي شربة البغدادي، على ذكرى زائر من العراق، كان قد سقط في اللجه وقتل نفسه. استمر الطريق منحدراً ولكنه لم يكن صعباً مع وجود مسايل جانبيه متكررة تدخله، بينما، وبالقرب من قمة صدر، علماً بأننا لم نصل بعد إلى قمة الممر، كانت الصخور تحمل عدداً من النقوش الثمودية وبعض الرسوم، متضمنة ثعباناً ووعلاً.

يجري مصرف ضحل على ارتفاع (٦٠٠٠) قدم فوق سطح البحر يسمى أليب إلى رأس المسيل، كاشفاً عن مساحة معتبرة لعدد من القبور البدائية. يجري الطريق الرئيس الآن، وبسهولة، أعلى الجزء الصعب الأعلى لصدر إلى موقع المضيق، والذي من جانبه الآخر يجري مسيل يسمى أسجعات الأثاب إلى أسفل حيث الجزء الأسفل من مجرى بدر (قاب). بينما تجري تعرجات أخرى قصيرة أعلى السفح المنحدر إلى حيث القمة الفعلية لكل من الجلمود والمسيل. يسمى هذا الموقع برأس نقب الخيرة، وترتفع إلى (٦٤٠٠) قدم فوق سطح البحر، وإلى حوالي (١٢٠٠) قدم فوق الخناق وتشتمل المساحة على ممر ضيق، محفور عبر حاجز صخري يقود إلى رأس منحدر قصير وسهل يسمى شعيب المجزعة الذي يقع إلى أسفل على الهضبة العالية الفعلية. كانت قمة الحاجز حوالي (١٥٠) قدماً أعلى من الممر وتسيطر على منظر مدهش للجبال المتدحرجة ناحية الجنوب.

استغرق تسلقنا الممر أقل قليلاً من الساعتين. امتطينا الآن الجمال وتحركنا إلى أسفل سالكين منحدر مسيل الشرفاء السهل لنقابل مجرى يسمى صلف بن نجم الذي يقبل من جهة الشمال الغربي متجهاً إلى رأس شعيب مجزعة، الذي يجري شرقاً بدوره ليقابل مضيق قاب. يقع طريقنا أعلى سلف بن نجم إلى عند رأسه الذي لا يبعد كثيراً وذلك حينما تتبعنا سلسلته في اتجاه غربي موازٍ لشعيب أعرب وهو رافد آخر من روافد قاب. أوصلنا هذا إلى هضبة متدحرجة صعبة صخرية عليها غطاء نباتي جديد خاصة أشجار القرظ، وشجيرة تفرز سيقانها لبناً تسمى الشرفاء، وهي ليست شبيهة لنبات الدني العطري في حضرموت. يرتفع أعلى هضبة قرة هذه والتي يمكن رؤية كل من بدر وقرن سبط فيما يليها، إلى حوالي (٦٧٠٠) قدم فوق سطح البحر، وعليها قشرة رفيعة سمكها حوالي (٢٠) قدماً من صخر رملي يعلو فوق الصخور النارية التي قد تحفرت في كل اتجاه بخطوط الصرف العديدة. تعرج الطريق بين رؤوس هذه الخطوط العديدة تحاشياً لها، وذلك بالسير على المناطق المرتفعة، وقد كانت مسيرة مرهقة.

وصلنا إلى مقبرة مهجورة يقال إنها تذكار لمعركة قديمة وقعت بين يام وجيرانها سنحان (قحطان) في وادي تثليث[1]. ثم وصلنا بعد قليل إلى عدد أكبر من القبور ووجدنا لوحاً من الصخر عليه نقوش باللغة العربية العادية. وجدنا أيضاً بجوار الطريق، صخرة وعليها اسم إحسان بن هاشم، الوكيل الفعلي للرئيس للمكرمي الغائب داعي. صعدنا تدريجياً إلى مستوى أعلى للهضبة، ونحن الآن

(١) كانت الصراعات بين القبائل قديماً مستمرة، وفي أغلب الأحيان تكون حول الحدود وموارد المياه وأماكن رعي البهائم وما شابهها، وقد يتولد عن تلك الصراعات حروب وثارات تستمر لعدة عقود. (ابن جريس).

على ارتفاع (٦٨٠٠) قدم، فوق سطح البحر عند كومة حجارة بالقرب من الرف الصخري الرملي تعلم رأس شعيب ملطي الذي ينساب أيضاً شرقاً إلى قاب. كانت هنالك أكوام عديدة من الحجارة بالقرب من هذا الموقع إلى جانب مواقد للنار كبيرة تسمى محنذاً[1] والجمع محانذ، ولعله كان موقعاً تعسكر فيه القبائل، كلها كانت مبنية وبعناية من ألواح لصخور رملية وكانت كبيرة الحجم للحد الذي يسمح بوضع شاة كاملة في قدر فوقها. مررنا حول رأس شعيب ملطي ووصلنا إلى مجموعة أخرى من أكوام الحجارة، كان أحدها يحمل نقشاً من ثلاثة أحرف، في موقع يسمى منسه على رأس واديين عريضين هما غضيف وتنمة واللذان يتحدا فيما بعد ناحية الشرق لينسابا في قاب. تتبع طريقنا اتجاه صخرة تنما، والتي تقع على مسافة (١٠٠) قدم أسفلنا في الصخر الجرانيتي، وذلك لبعض الوقت، ثم هبطنا آخر الأمر إليها في درب مائل محفور على الصخر. لقد غربت الشمس منذ نصف الساعة وأظلم المكان، غير أن بدر نفسها كانت علي بعد مرمى حجر منا، وكنا مكتفين بدخول عاصمة المكارمة تحت ستار الليل، تاركين استكشافها إلى الصباح.

لقد أعد لنا معسكرنا فوق الرمال الباردة البيضاء في بطن وادي بدر الذي كان لا يزيد عرضه عن (٢٥) ياردة في هذا الموقع وكان مسوراً على الطريقين بسور كثيف من أشجار التين البري التي تقدم ظلاً كافياً كل الوقت إلاً عند منتصف النهار، حينها كنا نجلس تحت الأشجار نفسها. كان موقعاً ممتعاً. قابلنا هنا محمد

---

(١) المحنذ: عبارة عن حفرة تحفر في الأرض، وتبنى أطرافها بالحجارة كي تمنع سقوط الأتربة في بطن الحفرة، ثم يوقد الحطب فيها حتى يصير جمراً، بعدها يطهى اللحم عليه بطريقة فنية يجيدها العاملون في هذه المهن. وهذا النوع من الطعام يكاد يكون منتشراً في أنحاء المملكة اليوم. (ابن جريس).

النشمي وذلك عند وصولنا بعد أن قدم لجمالنا المرهقة كمية وافرة من البرسيم وأعواد الدخن التي كانت هنا نحيلة أكثر وكانت أكثر عصيراً مقارنة بتلك في نجران وفي وادي حبونا. لم تضع الجمال وقتها في تقرير صلاحية البرسيم لها وبعدها ومما يدعو للتسلية هو أن نرى الرجال وهم يقدمون أعواد الدخن بأنفسهم للجمال وقد غلفوها بأعواد البرسيم! وظلوا يمسكون بالعلف إلى أن يتأكدوا من إدخاله تماماً إلى أعماق فم الحيوان وحتى يتأكدوا من أن الخليط قد تم ابتلاعه تماماً. لم يكن هذا موضوع ضرورة اقتصادية لأنني على كل حال سأقوم بتسديد الفاتورة لمن يهمهم الأمر، ولكن لعلمهم بأن البرسيم مادة دسمة ويخشون أن يسبب البرسيم الإسهال للحيوانات في مثل هذا الطقس البارد. كانت أدنى درجة للحرارة في تلك الليلة، تم تسجلها، هي (٢٣) درجة فهرنهيت أو تسع درجات تحت الصفر. سجل مقياس الحرارة عند الساعة الثامنة صباحاً درجة الصفر، إلاَّ أن الشمس قد أدفأت الجو أثناء النهار لتعطينا أقصى درجة حرارة في الظل وقد كانت (٩٧) درجة، وكانت الليلة التالية هي أول ليلة ملبدة بالغيوم منذ أن غادرنا نجران، وقد كانت أدفأ كثيراً إذ كانت درجة الحرارة الدنيا هي (٣٥) درجة.

بعد أن أشرف الأمير على راحة حيواناتنا، صحبنا كلنا إلى منزله في البلدة حيث وجدنا هناك وليمة رائعة في انتظارنا وقد تناولناها بما يجب من الاهتمام بعد طعام المجاعة الذي كنا عليه في اليومين السابقين. كان كل أتباعه حاضرين وكذلك حضر الموظفون ولكن لم يكن هنالك أحد من الأعيان المحليين ولذا كان الجانب الاجتماعي للعشاء فاتراً. عدنا لهذا السبب بأسرع ما نستطيع إلى المعسكر، فقط لنفاجأ بإزعاج آخر هو حضور الأمير وعدد من موظفيه يرغبون في الاستماع إلى الأخبار التي كانت خليطاً تلك الليلة افتتاح جلسات اللجنة الملكية الفلسطينية،

القصف الجوي على مدريد، واعتراف النمسا وهنغاريا بضم الحبشة إلى إيطاليا. علق محمد النشمي بعد أن استمع إلى هذه الأنباء بقوله: إن فلسطين لابد وأن تكون في موقف صعب بعد كل هذا القصف الجوي! خطر بذهني أنهم كلهم لم يفهموا ما قد سمعوه. أعترف بأنني بعد ليلتين (١٤ نوفمبر) أخفيت خبراً مهماً، كان عليَّ أن أطلع رفاقي عليه. لقد بحثنا عند الغروب ذلك المساء بلا فائدة عن هلال رمضان الجديد، وهيأنا أنفسنا، في شيء من الارتياح، لقضاء يوم آخر عادي قبل أن يبدأ الصباح. لقد علمت من إذاعة القدس في وقت متأخر من المساء أن الهلال قد شوهد هناك وقد أعلن الصيام ابتداء من الغد، غير أنني رأيت من الأفضل ألاَّ أخبر أحداً عن هذا الأمر، إذ لا يزال الأمر موضع نقاش عند السعوديين في الجزيرة العربية إن كان الهلال قد شوهد في بلاد أجنبية أيكون إثباتاً شرعياً يعتمد ليثبت عدم ضرورة مشاهدته في الجزيرة العربية؟

ترتفع بدر إلى (٦٦٠٠) قدم فوق سطح البحر، وتقع في وادي ضحل هو وادي بدر الذي تكون بالتقاء مسيلين، هما الخضرة والخانق، وهما يقبلان من عند طرف الهضبة العالية في الربع الشمالي الغربي. يتصل شعيب المهجر الذي يقع أسفل القرى مع وادي بدر، ويصرف وادي المهجر الجزء الغربي من الهضبة، ثم يتصلان بعد مسافة قصيرة، مع مجرى تنما - غضيف لينسابا جنوباً باسم وادي قاب ليتصلا مع وادي حبونا بالقرب من آل فايد. تتصل بهذا النظام فروع تصريف عبيدة عند نقاط مختلفة، غير أن وادي الخضرة، وعلى جانبيه رأسان هما: قرن سبط ناحية غرب الشمال الغربي وشعيب الخانق، والذي يقع رأسه في مضيق ممتاز، وقد قمت بزيارته في وقت لاحق، هذه هي الخصائص الرئيسة التي يعود إليها هذا الازدهار الذي تستمتع به بدر كقرية.

لا بد وأن تكون بدر في أيام أوجها في عصر المكارمة مركزاً ذا أهمية عالية وعظيمة حكماً بما يشهد عليه ما تبقى من قصورها ومبانيها والفلل ذات الحدائق وما شابه ذلك. بقى اليوم هيكلها، مشققاً ومدمراً، وقد ذهبت عنها الحياة وقد حافظت التربة على طهارتها، إن لم تهمل مستقبلاً. قد قيل: إن الكثير من الضرر المتعمد قد وقع على المباني والممتلكات الخاصة بقادة المكارمة أثناء الاحتلال اليمني لهذه المقاطعة عام ١٩٣٣-١٩٣٤م، بينما لم يتضايق الأتراك، أثناء احتلالهم الطويل المدى لليمن، من عام ١٨٧٢م إلى ١٩١٨م من بدر ونجران وتركوا المكارمة فيها لقيادتهم المؤقتة التي صاحبت مكانتهم الدينية بين قبائل يام. تمزقت الآن آخر بقايا كل من بدر ونجران. ولا يحكم الحشاشون بعد اليوم في أراضي سلفهم. لقد سقطت حتى الكرامة الدينية المرتبطة باللقب المكرمي «داعي» وذلك بوفاة آخر حامل له قبل العهد السعودي، وهو علي محسن في نجران في الشهر الذي سبق زيارتي الثانية، ولم يسمح لسلفه الطبيعي، حسين أحمد، الذي يعيش في هذا الوقت في المنفى في مكة، باستخدام اللقب.

اختفى هكذا أثر لسلطة قديمة عاشت تلك السلطة -بالطبع- على ما كان يسهم به المتعصبون لها بالمال والعتاد في مقابل خدماتها الدينية، غير أن كل هذا قد انتهى الآن. قرر ابن سعود فور انضمام نجران أن يدفع جملة واحدة كل توقعات الأسرة المكارمية لمنحة المعاش على حساب الحكومة المركزية. لقد تقرر، بعد التقييم الكامل لكل الأحوال، أن يتلقى كل شخص على قيد الحياة من أفراد المكارمة يقيم في منطقة يام، سواء أكان رجلاً أم امرأة أم طفلاً - مبلغاً من إدارة المالية السعودية يُعَد معاشاً سنوياً مدى الحياة ويتألف من (١٥) ريالاً نقداً و(١٦) صاعاً لكل فرد (٦,٥ كيلوجرامات ونصف الجرام أو ١٣٥,٥ رطلاً ونصف الرطل) من القمح

والدخن والتمر. لا يبدو هذا مخصصاً أميرياً، غير أنه -وليس لدي أدنى شك- كان كريماً بما فيه الكفاية بالنسبة للأحوال في بلاد يام، بينما بالطبع، احتفظ المكارمة بكل مساكنهم وأملاكهم الزراعية ويمكنهم إضافة الكثير إلى معاشهم هذا.

فقد أجري إحصاء للمكارمة الذين يعيشون في نجران وبدر وأجزاء أخرى من أرض يام مثل وادي حبونا وذلك لأجل تطبيق هذا القرار، ووجد أن العدد الإجمالي الذي يخصه الأمر هو (١٤٥) شخصاً فقط. كان العبء الأولّي الإجمالي الواقع على الخزينة السعودية، والذي سينقص تدريجياً بوفاة صاحب المعاش الأساسي، في حدود (١٧٥) شخصاً بمعدل ريالين (قُل ١١٠ جنيه استرليني ذهبي) وبعضاً من (٢٦) طناً من المواد الغذائية.

تتألف المجموعة المكارمية في بدر في هذا الوقت من عشرة أفراد ذكور بالغين وتابعيهم، بينما كانت هنالك أسرة في المجمع، كما رأينا، في وادي حبونا، والبقية كانت في نجران. وإذا اعتبرنا أن الأسرة الواحدة تتألف من سبعة أشخاص، فإننا نحصل على مجموعة (٧٠) من المكارمة في بدر، بما في ذلك إحسان بن هاشم وكيل عميد الأسرة (حسين أحمد) وإبراهيم وهو خال بعيد وصل حديثاً من الرياض. وقد بدوا لي كأناس متواضعين بلا هالة حول نبلهم القديم، برغم أنهم يبدون سعداء عند الحديث عن تقاليدهم القديمة والتي يقولون أن الأتراك قد احترموها بتركهم لها وحالهم. توجد البعوث الرئيسة للمكارمة في ضاحية حشا في المدينة غير أن هذا الجزء قد تضرر كثيراً على أيدي اليمنيين، ويبدو معظم الناس الآن وهم يعيشون في فللهم.

لا يبدو أن تأثيرات حركة المكارمة قد انتشرت كثيراً بين العناصر البدوية في يام التي -ونقول الحقيقة- كانت ذات احترام قليل للدين. لذلك، يوجد أتباعهم

بين الأقسام المستقرة للقبيلة وفي ثلاث مناطق رئيسة. ينتمي معظم السكان في بدر -وهم أساساً زراعيون- إلى قبيلة وعلة من آل فاطمة، وهذا القسم هو الذي تحت الظروف الحالية لا يزال يكن بالولاء وفي شراسة للنبالة القديمة ويتعلق بالقيادة الدينية حتى في الشدة. يمكن القول – بصفة عامة – إن مذهب المكارمة أو الإسماعيلين قد تمتع بقبول واسع نسبياً في كل الأجزاء المستقرة المأهولة في محافظة نجران، بما في ذلك حبونا وبدر، خلال القرون الثلاثة الماضية، ويبدو أنهم سيختفون الآن لعدم وجود الاهتمام الشعبي الصادق وعدم التشجيع الرسمي للإدارة الجديدة التي تمتعت بالميزة العظيمة في كونها قد استطاعت بالفعل أن توضح ليس فقط اتباعها العنيد لمبادئ الإسلام، بل مقدرتها على فرض السلام والأمن فوق أرض نادراً -إن لم يكن مطلقاً- ما تكون قد تمتعت بهاتين العطيتين. إذا ماتت الإدارة الإسماعيلية كما افترض. على أنه لن يكون خارج الموضوع هنا أن أسجل للذكرى، بعض الحقائق البسيطة حول تاريخ هذه الحركة في منطقة نجران. ارتكز معظم ما سيرد من معلومات على دراسة خاصة عن المكارمة، تمت قبل سنوات أعدها الشيخ فؤاد حمزة، الذي كان وكيلاً لوزير الخارجية في فرنسا (حتى عام ١٩٤٢م) وتركيا، وحيث ظل هناك حتى عام ١٩٤٣م.

امتاز الشيخ فؤاد بأنه جمع كل مادة دراسته من حسين أحمد نفسه، عميد الأسرة الحالي، وكما أظن، في مقابلة له مع علي محسن، الذي كان على قيد الحياة حينها، في نجران، فقد ساعده حسين أحمد بنقل فقرات من الكتب المقدسة للإسماعيلين والتي -بالطبع- احتوت على مادة سرية كثيرة حول المذاهب المعدة أصلاً لفئة قليلة من الناس التابعين لهذه الطائفة، ولم يكشفها له. لا أدري ماذا حدث لهذه الكتب من ذلك الوقت، وربما لا تزال في ملكية حسين أحمد في مكة.

الإسماعيليون فرع صغير وسمري من فروع الشيعة وأيضاً يسمون بالسبعية من الحقيقة الرئيسة في أنهم يعترفون فقط بالأئمة السبعة الأول من أسرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأنهم ملهمون تماماً، ويعدون الأخير منهم -وهو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق- الإمام المنتظر أو المسيح. يوجد طائفة أخرى معدة لفئة قليلة، تابعة للشيعة، وتسمى الاثنا عشرية وتختلف عن الإسماعيلية باعترافها بكل الأئمة البالغ عددهم (١٢)، ينتهون إلى جعفر العسكري (المهدي المنتظر)، ويرفضون أن يكون محمد بن إسماعيل هو الإمام السابع لهؤلاء الأئمة، وذلك لأن الإمام السابع في قائمتهم هو الإمام موسى الكاظم. يكفي هذا لعرض الحقائق الرئيسة للموضوع. تفرع الإسماعيليون، بمرور الوقت، إلى فروع مختلفة، كما هو متوقع، تحت قيادة رؤساء محليين موقرين، وليس من الضروري ذكر أسمائها كلها حتى لو استطاع المرء ذلك! كانت الفروع الثلاثة الرئيسة هي:

١- الخواجية، ومقرها الهند تحت القيادة التقليدية للأغاخان، الذي -فيما أعتقد- يزعم بتسلسل خطي لنسبه من الحشاش الأصلي.

٢- الداؤدية ويتمركزون في بومبي تحت قيادة طاهر سيف الدين.

٣- السليمانية وأصل مقرهم اليمن وهم يعترفون الآن بقيادة مكرمي داعي الحالي والذي له قائم مقام في بدر باغ في الهند لجمع وإرسال مساهمات ذلك القطر إلى الجزيرة العربية.

يبدو أن فرع السليمانية التابع للإسماعيلية قد نشأت مؤسسته التبشيرية من بلدة تسمى طيبة وهي ليست بالبعيدة إلى جنوب صنعاء، غير أن المبشرين الأصليين في اليمن كانوا هنوداً من الهند. يبدو أن عدداً من المبشرين الهنود قد نشروا دعوتهم في السنوات بين (١٥٦٧م و ١٦٧٧م) في جنوب غرب الجزيرة

العربية، بافتراض أنهم يمثلون للأصل الأبوي له ومُمولون بواسطته والذي ربما كان هو الفرع الذي يسمى الخواجية أو الشمسية. كان بين هؤلاء المبشرين، مهما كان الأمر، من الهنود، شخص يسمى داؤد بن عجب، وآخر يسمى سليمان بن حسن الهندي، وقد حدث الانفصال أو التباعد بعد وفاة داؤد وأدى هذا إلى بروز فرعي الداؤدية والسليمانية للحركة. يبدو نتيجة لهذه الحادثة، أن الداؤدية حصرت نفسها في النطاق الهندي، تاركة العمل العربي بكامله للسليمانية، والتي يعتقد أن اسمها قد اشتق من اسم سليمان حسن الهندي، والذي واصل عمله من بعده ابنه جعفر ابن سليمان. لقد ورث الأخير بوصية عند وفاته مهام والده، حوالي عام ١٦٣٣م، ورسالته إلى واحد من الدعاة العرب واسمه إبراهيم بن محمد بن فهد ابن صلاح بن مكرمي. كانت هذه بلا شك بداية قصة المكارمة كهيئة دينية، رافقها النجاح بإقامة سلطة مؤقتة[1].

يزعم الرئيس الحالي للأسرة، وهو حسين أحمد، أنه من سلالة قحطان وقد قدَّم إلى الشيخ فؤاد حمزة إقراراً شاملاً حول شجرة نسبه والتي تضمنت ليس اسم إبراهيم الحالي، بل اسم والده محمد بن فهد بن صالح المكرمي، والذي ينظر إليه في الرواية المحلية بأنه أول المكارمة الذين استقروا في بدر.

لقد أخبرنا بأن ابنه إبراهيم الذي وصلت إليه بالتوالي عباءة النبي الهندي والذي كان اسمه جعفر بن سليمان، الذي كان يدعو لمدة (٤٤) سنة قد توفي عام ١٦٧٧م، مورثاً سلطته إلى حفيده، محمد بن إسماعيل والذي ربما كان من سلف

---

(١) لمزيد من التوضيحات عن نشأة المكارمة وظهورهم في بلاد نجران، انظر: فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص١٨٦ .

الخط المباشــر للداعي الأخير واسمــه علي محسن (أو علي بن مــحسن) والذي لا أعرف شيئاً عن شجرة نسبه، والتي لم يســجل الشيخ فؤاد حمزة عنها شيئاً. يأتي حسين أحمد، الرئيس الحالي للأســرة، في الخط المباشر للتسلسل من والد إبراهيم محمد، وهو غير ابن آخر يسمى أحمد.

من المحتمل جداً، تبعاً لذلك، كما هو الأمر في حالة البايات في تونس مثلاً أن تَوَلّيٍ منصب الداعية يتم تناقله إلى أكبر الذكور من بين أفراد الأسرة.

أخذت أسرة المكرمي اسمها من اسم مكرم بن صــبا بن حمير الأصغر والذي تمثله شــجرة الأســرة التقليــدية بأنه منفصل من حــفيــد نوح بما لا يزيد عن (١٨) جيلاً، لنقل (٥٠٠) أو (٦٠٠) عام مضت.

أنجب مكرم حسنًا، وأنجب هذا صــابحاً الذي أنجب عليّــاً، الذي أنجب بدوره عمــر الذي أنجب عبدالله الذي أنجب بدوره مــحمداً الذي أنجب داؤد التــامر الذي أنجب بدوره صالحاً الذي أنجب فهداً الذي أنجــب بدوره محمداً الذي أنجب كلاً من أحمد وإبراهيم. أنجب إبراهيم إسماعيل الذي أنجب بدوره محمداً الذي تولى رتبة الداعي المكرمي الثاني خلفــاً لجده. أحمــد الابن الثاني لمحمد، وقــد أنجب حسين عليــاً الذي أنجب حســيناً الذي أنجب علياً الذي أنجب حــسيناً الذي أنجب حــسناً، الذي أنجب أحمد الذي أنجب حسيناً وهو الرئيس الحــالي للأسرة، والذي يحمل فرعه الاسم الخاص «ذي جدين» الذي يشير إلى الأصل المكرمي من الجانبين الأب والأم.

كان آخر الــدعاة الحاكمين واســمه علي محسن قــد تولى اللقب عام ١٩١٢م وتوفي، كما ذكر سابقاً، في سبتــمبر ١٩٣٦م وحمل اللقب المميز «الشبام» -بلدة

في اليمن غير تلك المعروفة في حضرموت- والذي يدل على أنه مكرمياً أصيلاً، على الأقل من جانب والده. حمل اللقب نفسه أحد أسلافه في منصب الداعية واسمه حسن بن إسماعيل الذي خلفه، عام ١٨٤٦م، توفي عام ١٨٧٢م، وربما كان قد تزوج من داخل الأسرة واعتبر ذا خصائص كافية لأن يكون داعياً.

ليس من المستحيل ألاَّ يكون حسن هذا هو والد حسين الذي بدوره هو والد محسن والذي هو والد آخر داعٍ، واسمه علي وفي هذه الحالة بالطبع، فإن المذكور أخيراً لم يتسلسل عبر الخط المباشر من عند محمد بن إسماعيل، الداعي المكرمي الثاني. لقد كان الداعي السادس عشر في الترتيب، والذين فيما بينهم غطوا فترة (٣٠٣) سنة من الحكم من عام (١٦٣٣م إلى ١٩٣٦م).

يبدو أن أول الدعاة المكرميين هو إبراهيم بن محمد قد عاش وعمل طيلة أيام حكمه داعياً (١٦٣٣ - ١٦٧٧م) في طيبة في اليمن، غير أن والده، لسبب ما- ربما فقط ليتخلص منه- قد هاجر شمالاً واستقر في بدر وكان من أول المكرمين الذين يفعلون ذلك بصفته مواطناً فقط، إذ لا يوجد أي سجل يدل على أنه قد مارس أية ضرب من السلطة، على الرغم من أنه قد نجح في خلق علاقات طيبة مع قبيلة يام، والتي سيجني ثمارها في وقت لاحق.

خلف إبراهيم على طيبة حفيده محمد بن إسماعيل والذي كان قد تعرض إلى متاعب، خلال فترة الأربعين عاماً التي حكم فيها، من جهة الحكام الزيديين في اليمن. كانت نتيجة العداوات السيئة بالنسبة له، فهرب إلى القنفذة التي تقع على ساحل الحجاز[1]. وجّهت إليه الدعوة وهو هناك بواسطة قبيلة يام في نجران،

---

(١) القنفذة:ـ إحدى الموانىء الرئيسة لبلاد تهامة والسراة على ساحل البحر الأحمر، وهي تقع بين مكة المكرمة وجازان، وهي إلى مكة أقرب حيث تبعد عنها (٣٠٠كم) تقريباً. للمزيد انظر: شرف البركاتي. **الرحلة اليمانية** ص ٤٦ ـ ٦٧، ١٣٣ ، عاتق البلادي. **بين مكة واليمن**، ١٠٩ ـ ١٦٩، سهيل صابان. **مصادر تاريخ الجزيرة العربية في تركيا** (الرياض. مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م) ص ٦٧ وما بعدها. (ابن جريس).

والذين استجابوا بالعقل إلى جانب عقيدته، ويعزي الشكر إلى جهد جده الأكبر، ليستقر في نجران. رحب بطلبهم وجاء إلى نجران كأول داعٍ فيها. كانت هذه وبوضوح هي الحادثة التي أشار إليها حسن المكرمي في المجمع بأنها وقعت قبل (٢٣٠) عاماً. يمكننا الآن أن نضع تاريخاً مبدئياً لهروب محمد من اليمن إلى القنفذة ووصوله إلى نجران، ولنقل أنه كان عام ١٧٠٦م. توفي محمد بعدها بأحد عشر عاماً وخلفه خاله هبة الله بن إبراهيم كداعٍ ثالث. وعند وفاة هبةالله، خلفه ابنه إسماعيل داعية رابعاً، وهو بدوره قد خلفه عند موته عام ١٧٦٠م واحد من أشهر الدعاة المكارمة في نجران، شقيقه حسن، الذي ظل يحكم حتى وفاته عام ١٧٧٤م، وخلال تلك الفترة نشر دعوة المكارمة إلى حضرموت ونجح في إدخالها إلى وسط جزيرة العرب استعداداً للهجوم على القوة النامية للدولة السعودية في كل من الدرعية والرياض. عاد منصب الداعية بعد وفاته إلى نسل محمد بن إسماعيل ومن المحتمل أنه منذ ذلك الوقت انحصر التأثير الإقليمي للمكارمة في منطقة نجران، التي كانت من أكثر المقاطعات اضطراباً وخروجاً على القانون في كل الجزيرة العربية. كان الذي تولى أمرها بعد حسن بن هبة الله هو عبدالعلي، الذي حكم مدة قصيرة، لا تزيد عن ست سنوات، كداعية سادس، وانتهت فترته عام ١٧٨٠م.

منذ ذلك الوقت ظلت الخلافة، عدا الحالتين اللتين كان الدعاة فيهما أجانب من فرع الشبام، الذي ورد ذكره، داخل الخط المباشر المنطلق من عند هبةالله. كان ابنه علي وأبناء الأخير، وهما عبدالله ويوسف قد توليا الدعوة، فأولهما هو الداعي السابع وثانيهما هو الداعي الثامن، وحفيدهما حسين بن حسن الذي كان الداعي التاسع. كان الداعيان العاشر والحادي عشر هما بالتتالي حفيدا حسن بن هبة الله وهما إسماعيل، وحسن. بينما كان ابن إسماعيل واسمه أحمد، الداعية

الثالث عشـر بعد حكم أول المتطفلين الأجانب واسـمه حسن بن إسمـاعيل. كان الداعيان الرابع عشر والخامس عشر هما أحفـاد أحفاد أحفاد الجد الأكبر لهبة الله، علماً بأن خطهما الوراثي الصحيح غيـر معروف. وهم كما يلي، عبدالله بن علي الذي توفى عام ١٩٠٥م وعلي بن هبةالله الذي توفي عام ١٩١٢م، ليفسح المجال لآخر الدعاة وهو علي مـحسن. هكذا كانت السلالة الحاكـمة لستة عشر شـخصاً حكموا نجران لما يزيد قليلاً على ثلاثة قـرون- بمتوسط (١٩) سنة لكل منهم، غير أن الاثنين الأولين، وكـذلك الأخير -وفـيمـا بينهم- حكم ثلاثتـهم مدة (١٠٨) سنوات، علمـاً بأن الحكم كان لفـترة بسـيطة من الوقت في نجران، حـيث حكم (١٥) داعـية مـدة (٢٥٠) سنة، بمتوسط (١٥) سنـة فقط لكل منهم، وتجـاوزت ثلاث فترات فقط منهـا مدة العشرين عاماً. تبـقى الإشارة بعد هذا إلى أن الدعاة السليمانيين يعترفـون دوماً بالسلطة التي تمركزت في رئاسة ظل في الهند -في بدر باغ والتي يعـتقد أنهـا اشتق منهـا اسم بدر، أو العكس-. لا يوجد سـجل قديم حسب علمي لاسم بدر في منطقة نجران.

كانت هذه هي الأجيال لحشاشي الجزيرة الـعربية. فماذا عن وضعهم في هذه الهضبة الصحراوية الغربيـة؟ ترتفع التلال والسلاسل في الجوار المباشر لبدر بلطف بارتفاع (١٠٠) إلى (١٥٠) قدماً فوق مسـتوى الوادي، وفوق واحد منها، ويطل على الجانب الأيسـر للوادي، تقف قلعة بدر التي تم بناؤها فـوق حجر صـخري طبيعي مربع ضلعه (١٥) قدماً، أسود اللون. كانت هذه الصخرة في أزمان قديمة، فيما يعتقد، تقع ضمن سيطرة المكارمية لأغراض عسكرية، مثل صهر المعادن ولعل الأفران الكبيـرة التي كنت قد أشرت إليها ذات ارتبـاط بهذا النشاط، الذي توقف منذ زمن بعيد.

تسمى مجموعة من التلال الصخرية الرملية التي تقع على الجانب الأيمن للوادي باسم «جبل تنور» وذلك لوجود واحد منهما يشبه -إلى حد بعيد- فرناً كبيراً مستديراً قطره (٣٠) بوصة وعمقه (١٨) بوصة، وعلى الرغم من أنني لم أكن مقتنعاً تماماً إن كان هذا الحجر الفرن من عمل الإنسان أو كان طبيعياً. يحمل أعلى هذه الهضاب آثاراً لمتاريس ذات خصائص حربية. تسمى قلعة بدر محلياً باسم قشلة أو «ثكنات»[1] لا يميزها تركيب هندسي معماري، فهي عبارة عن بناء عادي من طابقين مبني من اللبن ويعتقد أن الدعاة قد أقاموه ليؤدي وظيفة مركز للرئاسة الإدارية والعسكرية. تعيش فيه الآن قوة الشرطة السعودية، والقلعة صغيرة إلا أنها بالتأكيد تسيطر على منظر ممتاز للمحيط المجاور.

تقع بلدة بدر نفسها، وقد انتشرت على سفوح الجانب الأيسر للوادي الذي تناثرت فيه مزارع غير منتظمة وحقول ذرة صفراء، في ثلاثة أقسام تتجه من الشمال إلى الجنوب، فوق مساحة تقدر بأربعمائه أكرات وتتألف، تقريباً من (٧٥) منزلاً. تنتشر البلدة، كما قد رأيتها من عند القلعة، على شكل وتر تغطي الربع الجنوبي الغربي مع وجود ضاحية حشا على اليسار، التي تندمج في انسياب مع الضاحية الوسطى سند التي كانت قد انفصلت بشريط من حقول الذرة الصفراء والحدائق، عرضه (٢٥٠) ياردة من عند ضاحية المضمر الشمالية إلى اليمين وعلى الجانب الفعلي للوادي، والتي تنفصل عن البقية بأرض بساتين.

---

(١) الثكنة أو القشلة: هي في الغالب بناية مكونه من عدة أدوار وأجنحة وممرات وغرف تستخدم لأمور عسكرية وإدارية من قبل الإمارات والحكومات التي قامت في شبه الجزيرة العربية خلال العهود الماضية. ولا زلنا نشاهد أطلال بعضها في أجزاء عديدة من البلاد. (ابن جريس).

لم يكن هنالك شيء جذاب في البلدة، التي -بصفة عامة- كانت تمثل مظهراً للتدمير والتآكل، غير أن بعض المنازل الكبيرة ذات الثلاث طوابق أو الأربع الخاصة بالمكارمة، خاصة في ضاحية حشا، فإنها ما زالت تحكي قصة الأيام الأحسن. يقع أكثر الأقسام المريحة في الوقت الحاضر، في البلدة، في الفلل المبعثرة التي تكون منفردة أو في مجموعات وتقع داخل الحدائق والبساتين. تقع الفلة صاغر المنعزلة الوحيدة ناحية اتجاه أسفل الوادي وعلى بعد الميلين من القلعة، وبجوارها ثلاثة بيوت تابعة الحمضة تكون على يمينها، وكلها داخل حدائق جذابة بالقرب من مكان التقاء واديي بدر ومحجر. تقع قريباً منها وعلى الجانب القريب مجموعة أكبر من المساكن داخل حديقة أكبر وتسمى خضران وبها سبعة منازل. تقع الصبيخة عند منتصف المسافة بين القلعة وصاغر وهي فلة منفردة وملحقة بها حديقة بينما تقع القرية الصغيرة التي تسمى قضان (سبعة منازل) في داخل الحقول المكشوفة على يمين المجرى. توجد عشرة منازل بين قضان وحشا، كلها على الجانب الأيمن، وملحقة بها حدائقها وتسمى جعران، بينما تقع الفلّتان المسميتان الرحبة عند منتصف الطريق بين القلعة وقضان على الجانب الأيسر. يكتمل المنظر بوجود برج مراقبة نحيل على الجانب الأيمن للوادي ويقع قريباً من معسكرنا إلى جوار عشة حقيرة من اللبن تقع قليلاً إلى أسفل وكما يوجد مزرعتان في كل منهما بئر وكلاهما يقع أعلى موقع التقاء الخانق مع الخضرة، كما يوجد بئر صالح على الجانب الأيمن للخضرة، وبئر قيس على الجانب الأيسر للخانق[١]. يبلغ عمق بئر عزيزة في المضمر حوالي تسع قامات وبرجها مبطن بألواح من صخر رملي ويبلغ

---

(١) لقد شاهدت آباراً عديدة في منطقة نجران، وبعضها يظهر عليها العمق الشديد في باطن الأرض وكذلك قدم تاريخ حفرها، ومنها ما لحقه الخراب والدمار، وبعضها لا زال يستخدم بالرعاة وأهل البوادي والأرياف. (ابن جريس).

قطرها (٢٠) قدماً ويتم سحب الماء منها بواسطة ستة حبال، وكان يعمل منها اثنان فقط حينما قمت بزيارته.

انتشرت أشجار نخيل طويلة هنا وهناك في القرية، وقد شمخت برؤوسها الرشيقة، غير أنها هنا في بدر، وفوق الهضبة المرتفعة بصفة عامة، فإنها كانت فقط للزينة. تحمل هذه الأشجار الثمار كطبيعة الأشياء، غير أن الثمار كانت صغيرة لا تؤكل، ويرفضها حتى البدو. يبدو أن الهضبة تقع على ارتفاع يفوق ذلك الذي يناسب الإنتاج التجاري لأشجار النخيل، والذي أتخيله أن يكون في حدود حوالي (٥٥٠٠) قدم على أقصى تقدير في هذه الأجزاء. أذكر كتاباً تم نشره أثناء الحرب العظمى لقصة مجهولة لتجسس مضاد تركزت في مدينة عربية تقع في حضن أشجار نخيل وشجيرات البن، غير أنني بالتأكيد لم أر هذه التوافقية في الحياة. كان أعظم ما تخصصت فيه بدر، هو زراعة أشجار التين، التي كان أجودها ما كان نامياً بالقرب من الوادي، حيث توجد أسوار ضخمة منها هناك وهي أكثر ما تكون تشتتاً في البساتين. كانت أشجار التين في هذا الوقت تسقط أوراقها سريعاً، وبرغم ذلك فهي لا تزال ذات ظل كافٍ. ينمو العنب كذلك هنا ولكن لا يجد العناية ويقال إنه ينتج ثماراً من نوعية متدنية. كانت هنالك شجيرات الرمان بكثرة ولكنها قد أهملت وتركت لرحمة مياه السيول إذ لم تعد تروى بمياه الآبار- لذا كانت ثمارها متوسطة النوعية. كانت هنالك أيضاً أشجار الخوخ وأشجار فواكه أخرى، ولكن على مستوى انتشار محدود، لقد انحصر كل النشاط الزراعي في بدر في زراعة الحبوب، يتخللها محصول برسيم معتبر والذي كان يجد تسويقاً جيداً في الجزيرة العربية. ينتج الدخن هنا محصولين في السنة، مقابل ثلاثة أو أربعة محاصيل في نجران وحبونا وقد تم حصاد محصول الخريف

بالفعل. ويزرع كل من القمح والشعير على مدار العام في تتابع متصل، على الأقل ثلاث، ربما أربعة مرات. كان محصول أواخر الخريف في هذا الوقت في مرحلة تكوين السنابل، ووقت حصاده ليس بالبعيد. بينما ينمو معه المحصول التالي في المساحات المكشوفة والذي قد بلغ ارتفاعه بوصتان، ويتوقع حصاده في أوائل مارس.

لقد وجدت بعض الرسومات الغريبة على صخور جبل تنور[(١)] حيث الفرن، غير أنني أستطيع أن أؤكد، حتي هذه اللحظة، غياب النقوش حول بدر نفسها- بمعنى أنه لا توجد نقوش قديمة- علماً بأن النقوش العربية قليلة الفائدة كانت متوافرة. كان من بين الرسوم العديدة لثعابين تتلوى، وصورة لكائن يشبه فرخ الضفدع وصورة لسحلية كبيرة، -ربما تمساح-، وشيء شبه السمكة برأس مستدير تحيط به أشعة. كان من أميز طيور بدر طائر الأبلق وثلاث حمامات خضراء (غرد). كما كانت طيور يمام الصخور والحمام في وفرة. إلى جانب أبلق آخر، كما تحصلت على طائر أبيض الحنجرة الأصفر ولعله كان يقضي الشتاء هنا.

هكذا كانت بدر. هرع رجل يجري نحوي، قبل مغادرتنا لها، يطلب العلاج لابنه الذي فقد سمعه حديثاً بعد هجمة للحمى. لم أستطع أن أفعل له شيئاً، وتحركنا في مسيرتنا، بينما حلق فوق رؤسنا صقر، يقال إنه يبحث عن شاة، وكان هذا أسلوب فقدانهم للشياه من حين لآخر.

---

(١) جبل تنور:ـ نسبة إلى التنور المعروف عند أهل البلاد، وهو وعاء يصنع من الفخار أو الحجارة، ثم يغرس في الأرض ويعمل فيه الخبر. وهو معروف عند معظم سكان جنوبي البلاد السعودية إلا أنه يختلف في شكله وأحجامه وطريقة استخدامه من مكان لآخر. (ابن جريس).

هبت علينا رياح باردة حادة شرقية ونحن نصعد وادي الخانق، تكون حيناً في بطنه وحيناً خارج شريطه، ونكون أحياناً ممتطين دوابنا، وأحياناً أخرى مترجلين عبر الأجزاء الصعبة المنحدرة والتي أجهدت حيواناتنا البائسة. كان معنا المرشد الجديد الذي اعترف لنا بعد أن تحركنا منطلقين بأنه لم ير مطلقاً النقوش المزعومة على سلسلة العشة أمامنا، والتي وظفه الأمير من أجلها، الذي كان قد رآها بنفسه خلال رحلاته، لأجل أن يقودنا إليها. كان في صحبتنا، لحسن الحظ، أحد رجال الأمير واسمه ضاوي، وهو أصم كالحجر، وقد صرّح بأنه يعرف الطريق إليها. اتصلت سلسلة مبنى البيت الطويلة على يميننا تجاه الشمال مع سلسلة منخفضة تسمى مرقان ومن فوقها سلسلة سفلى تسمى العرف تبعد حوالي ستة أميال من طريقنا ناحية الشمال الشرقي.

يقال إن هذه السلسلة الأخيرة العرف هي رأس المسايل التي تقود إلى أسفل إلى حزيمة وإلى وادي ثار. يجري طريقنا في هذا الوقت عند منتصف المسافة بين مجريي الخانق والخضرة، ويكون أقرب قليلاً إلى الأخير منهما، وهو يجري فوق سطح من حجارة رملية صعبة وتنمو عليه أشجار القرظ المبعثرة حتى إذا ما كنا على مسافة أربعة أميال من بدر وصلنا إلى مفترق الطريق، يقود فرع الطريق الأيسر، والمتجه ناحية غرب الشمال الغربي، إلى سوق الأحد ماراً ببركان قرن سبط التابع لقرية أهل صروم. يقام السوق في بدر، بالمناسبة، أيام الثلاثاء تحت الإشراف القبلي لأبي ساق. سلكنا الطريق الأيمن نازلين مع مصرف عين جربوع الضحل والذي يوجد فيه نبع «ميت» في مكان ما إلى أسفل في الطريق إلى الخانق. وقد مررنا في مجراه على زرائب أغنام مبنية من الصخر لحماية الحيوانات ليلاً من الذئاب.

تحولت البلاد الآن إلى أرض شجيرات تنتشر بين مجرى عين جربوع ومجرى نعيمـة وسرعان ما وصلنا إلى بئر سبكة (ينطق سبجـه) وتقع داخل أخدود خنق نفسه والذي يقع رأسه الـفعلي على بعد الميل الواحد تجاه شمـال الشمال الغربي. يبدو أن الجمال تهوى قضم أغصان أشجار القرظ، فتركناها لذلك وذهبنا لنفحص البئر التي احـتوت على ماء وافر على عمـق قامة ونصف القامة، كـان بعض البئر من صخر طبيعي وبعضها مدعم بالبناء عند قاعدة لصخرة ارتفاعها ٤٠ قدماً والتي لابد أن ينحدر منها شلال رائع أثناء السيـول. كان هنالك رجل من أفراد قبيلة يام ومعه صـبي صغير وبعض الماعـز تشرب، كما مـررنا بقطعان أخرى صغـيرة تقوم برعايتها النسوة، تظلل هذه البئـر أعداد من أشجار الآثاب (التين البري) وتعد بئراً قديمة قدم الزمن، إلاَّ أنه كـان «ميتاً» حتى وقت قريب، وحـيث تم حفره بواسطة مرافقي الأصم ضاوي، تحت أوامر الأمير. يوجد على الصخرة رسم جذاب لرجل مسلح بقوس وسـهام مهدداً شخـصاً عارياً، عديم الحيلـة، رافعاً يديه إلى أعلى، رمزاً للاستـسلام. كـان العضو الذكـري في كليهمـا مبالغ في تصـويره، وكانت بجانبها علامة البئر وهي عبارة عن دائرة وبجوارها (١٨) نقطة.

شمخت ناحية الغرب وعلى مسافة ميل واحد السلسلة الصخرية الرملية المنخفضة التي تسمى قـهرة زبيدة، وهي الموقع الذي ذكره لنا الأمـير والذي توجد فيـه النقوش القديمة والصـور. توجهنا إلى هناك وكان الارتفـاع حوالي (٧٠٠٠) قدم، وأمـضيت ساعة ونصف السـاعة أنسخ هذه الوثائق القديمة، التي كانت بالفـعل تستحق الزيارة، إلى جانب النزهة. تبعد (قرن السبط) على بعد ميل ونصف الميل من هنا.

حيث قررت أن يكون مـعسكرنا الليلة عند مشارف عتبـة أرض جديدة. لقد انتهـينا من أرض الحشاشين ومن منطـقة نجران وسنكون في أرض قـحطان القديمة غداً. كان معسكرنا هنا على ارتفاع (٧٢٥٠) قدماً فوق سطح البحر.

الفصل العشرون

تثليث الأعلى[1]

شمخت قمة قرن سبط على ارتفاع (٧٦٠٠) قدم فوق سطح البحر. كانت القمة مخروطاً بركانياً قديماً، ولم يكن تسلق سفحها المنحدر البازلتي أمراً صعباً، إلا أن الصخر المعدني قد أثر بفعل بحقله المغناطيسي على بوصلتي التي بدأت تعمل بأسلوب غريب مما فرض عليَّ أن أصرف النظر عن قيمة اتجاهاتها. كان اتجاه قرن سبط من عند قلعة بدر هو (٣٠٢) درجة بينما كان الاتجاه المعاكس من قرن سبط إلى بدر هو (١٠٨) درجة بفارق أربعة عشر درجة. كانت صخرة البازلت ممتدة في طبقات عمودية ومن ثم برزت من فوق القمة غير أن البوصلة بدأت تعمل بأسلوب عادي حينما استخدمتها في الجزء المسطح الذي تكسوه الرمال. كان عليَّ، على كل حال، أن أراجع ملاحظاتي في النجوم لأتحقق من تقلبات بوصلتي، غير أنها كانت تجربة مربكة في حينها. لقد مررت بالظاهرة نفسها من قبل في المخروط البركاني لقرن القاعة بالقرب من طريب، الذي يمكن رؤية بعض تلاله البارزة من هنا: منها أم القصص والعار، إلاَّ أنها ليست واضحة تماماً.

تقع إلى مسافة ناحية اليسار السلسلة المرتفعة لقعم عبيدة (سلسلة أحد) التي كنا قد رأيناها من عند أبها وخميس مشيط، والتي تواصلت جنوباً لسلسلة مشابهة

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن وادي تثليث من بدايته في أعالي السروات حتى يصب في رمال أعالي هضبة نجد من الناحيتين الغربية والجنوبية الغربية، انظر: عبدالرحمن الشريف، **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢، ٤١٣ ــ ٤٢٨ ، فؤاد حمزة، **في بلاد عسير**، ص ١٤٥ ــ ١٤٦، علي الحربي، **المعجم الجغرافي.. (منطقة عسير)**، جـ١، ص ٣٠٤ ــ ٣٠٥ . (ابن جريس).

مسطحـة بركانية مع زوائد من حين لآخر منهـا: مشرفة، ونطفـة، والمسورة على الجانب الغربي لحوض تثليث الأعلى الذي يمتـد أمامنا والذي سندخل إليه سريعاً. ينحدر مجرى شعيب راحـة من عند المسورة إلى الجنوب الشرقي من موقعنا، فوق قاعدة تلال عالية ماراً بالبلدة الصغيرة الـتي تسمى الحرجة (تقريباً غرب قرن سبط) ليصبح باسم وادي الفيض والذي بدوره يتصل مع وادي القصب في قرية القصب، التي يملكها آل حرّان وال جبرة التـابعان لسنحان قحطان[١]، ثم يصبان في مجرى واحد يسـمى «المضيق» وبعـد ذلك يطلق عليهـما اسم «تثليث». ينـحدر في هذه الأرض المتقلبة، إلى الغرب من هذا الشريط، وإلى تلال عـبيدة الرافدان العظيمان وهما العـرين وطريب. يشترك وادي القـصب نفسه مع وادي ثار في حـد فاصل حيث أنه يمثل اسـتمراراً لوادي ضـحل يسمى البـياض وهذا بدوره يمثل استـمراراً لمسيل يسمى الخوايس ينحدر من عند الفاصل فوق الشفة الشمالية للهضبة العالية. توجد في مجرى بياض مجموعة من القـرى عبارة عن المجمع وقمم جرانيتية بارزة تسمى اضكر ينتهي الطريـق من بدر إلى هذا الموقع فجأة على حافة هضبـة الحجر الرملي أسفل قرن سبط -حيث تميل الهضبة نفسـها لتصرف مياهها جنوباً وشرقاً. ينساب كل من الخوايس ومـسيل آخر صغيـر يسمى وقيره فوق الحـافة إلى حوض تثليث. كنا هنا على القاسم المؤثر بين حوض تثليث وحبونا[٢]. نستطيع الآن رؤية شثاث والتلال العديدة الواقعة إلى ما يلي ظهران.

---

(١) سنحان قـحطان:ـ إحدى القبائل الرئيـسة لقبـائل قحطان الحالية، وهي مـجاوره لبلاد نجران من الجـهة الشمالية والشمالية الغربية. للمزيد عن عموم قبائل قحطان وأوديتها وقراها، انظر: فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص ١٣٨ ـ ١٥٠ . (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن واديي حبونا وتثليث انظر: عبدالرحمن الشريف، **المرجع السابق**، جـ٢، ص ٤٠٧ ـ ٤٢٨ (ابن جريس).

بدأت تهب علينا رياح شديدة البرودة ونحن فوق تلك القمة المكشوفة بينما كنت أنسخ النقوش العديدة التي كانت على صخورها، كنا سعداء ونحن نغادر القمة ونعود إلى المعسكر وذلك قبل غروب الشمس. لم يبرهن مرشدي عوض، وهو من أبناء شريف سنحان[1]، جدارته كمساعد لي حيث أنه لم يفعل شيئاً غير العمل العادي في حدود معلوماته عن بلاده وكان يعتقد بأن الأشياء البعيدة ليست ذات أهمية لتثير التطلع إليها. استطعنا الإمساك بحرباء أثناء النهار والتي بدأت في وضع أعداد ضخمة من بيضها ونحن نعد العدة لإدخالها إلى زجاجة الموت. وضعت مع تقدم الليل (١٩) بيضة، وفي الصباح، وهي لا تزال حية، واصلت وضع البيض. بدأنا نتفقد الهلال الجديد لرمضان بعد وصولنا إلى المعسكر، غير أننا لم نره بسبب وجود شريط من سحاب نحاسي اللون متدنياً فوق السماء الغربي. لقد كان كل من الزهرة والمشتري مقتربين من بعضهما وكان ذلك نهاية مناسبة لليوم. لقد تأجل صومنا ليوم آخر. إلاَّ أنني لاحظت أن رجال يام القائمين على العناية بالجمال كانوا قد بدأوا بالفعل صيامهم في بدر (١٤ نوفمبر)، لعل ذلك كان استجابة لتوجيهات من أحد وكلاء المكارمة. إنهم يكملون بذلك يومين من شهر الصيام قبل أن نبدأ نحن برغم أنه من الواضح جداً أن الهلال الجديد كان لا يمكن رؤيته في الثالث عشر من نوفمبر. كان ذلك، على أي حال، أمر خاص بينهم وبين الداعي، وكانوا بالتأكيد ملتزمين بالصيام. أطبق الليل مع رياح غير طيبة وقد امتلأت السماء بالسحب، كان العراء المكشوف بارداً دون ملجأ، غير أنه لم يكن هنالك صقيع.

---

(١) شريف: ليسوا أبناء سنحان، وإنما شريف عشيرة وسنحان عشيرة أخرى، وجميعهم يعودون في قبيلة قحطان الأم. (ابن جريس).

يقع قرن سبط على بعد ميل واحد عند طرف الهضبة العالية وفي شريط عريض صافٍ، والذي قد تآكل من فوقه الشريط النحيل للصخور الرملية، أو أنه قد غسلته الأمطار من فوق سطح الصخور الرسوبية التي تقع أسفله. كانت الجلاميد الخارجية للهضبة من البازلت والجرانيت وهي مبعثرة في اضطراب شديد لتمهد مجرى للعديد من الجداول فوقها، والتي تصب مياه الأمطار من خلالها داخل شريط الصرف الرئيس الذي يقع إلى أسفل. توجد عند قواعد هذه المسايل وكذلك في المجاري الكبيرة الكثير من القرى الصغيرة التابعة لسنحان قحطان، وتكون عادة في مجموعات صغيرة. هبت علينا رياح باردة لاسعة من جهة الشرق. فتوقفنا لفترة عند رأس مسيل أثبة، حيث رغبت في مراجعة بعض اتجاهاتي من عند القمة المغنطيسية. اتضح لي أن الاتجاه من هنا إلى ناحية العار، مثلاً، كان (٣٢٢) درجة بدلاً عن (٢٩٧)، وهو فارق (٢٥) درجة. امتدت حافة الهضبة من هذا الموقع وعلى يسارنا ناحية الجنوب الشرقي مسافة ثلاثة أميال ثم اتجهت ناحية الجنوب الغربي في أرض صعبة تسمى العذار والتي يتصرف ماؤها جنوباً عن طريق شعيب مقم الذي يصب بدوره في شعيب أمتره، الذي ورد ذكره، كواحد من رؤوس حبونا. تتجه حافة الهضبة، على يميننا، بعد امتدادها إلى مسافة نصف الميل تجاه الشمال الغربي. إلى جهة الشمال الشرقي لتختفي في الفضاء البعيد قبل أن تدور جنوباً. يقوم مسيلان رئيسان هما الأجوف والخوايس بتصريف مياه الصخرة إلى كل من شعيب السميكة، الذي يقع تحت أرجلنا، وإلى وادي القصب بالتتالي.

وصلنا بعد سير صعب على الأقدام مدة نصف ساعة إلى شعيب السميكة عند ملتقى كل من الأثبة والأجوف، من حول الرعن المنحدر الذي نزلنا منه.

تكسو سميكة شجيرات جافة خفيضة وبعض شجيرات الطلح وكان الوادي دافئاً بشكل مريح مقارنة بالبرودة الشديدة في أعلى الجبل. لقد لاحظت أكواماً كثيرة من الحجارة على الطريق، ربما كان قد وضعها جامعوا الحطب المحليون، هذا الحطب الذي ينقل معظمه إلى سوق الحرجة، وذلك لوضع حمولتهم عليها أثناء توقفهم لتهدئة أنفاسهم قبل التقاطها مرة أخرى دون الحاجة إلى الانحناء. يحمل ناقلوا الملح في الهند معهم عصاة ذات قمة مسطحة للغرض نفسه. بدأنا نرى طلائع مزارع المجمع عند منحنى الوادي، حيث يدخل المسيلان وحيث كانت الصخور مغطاة برسوم لحاملي الرماح، وسرعان ما وصلنا إلى أولى قراها الصغيرة واسمها آل قناع على جانب الوادي الأيسر. تقع عرق بن مسلم من وراء آل قناع وعلى الجانب نفسه، وهي قرية أكبر قليلاً إلاً أنها مخربه تأتي قرية آل حاجب في مقابل عرق بن مسلم على الجانب الأيمن، بينما تستقر مجبه إلى أسفل قليلاً وعلى الجانب الأيسر وفي قسمين داخل حضن وتر مهيب من صخور جرانيتية. تقع آل جحيش خلف عرق بن مسلم عند قمم شعيب الوقيرة في موقع دخوله السميكة من جهة الغرب، ويكتمل المنظر بوجود مزرعتين فيهما بئران هما: بئر جلا وبئر الوادي. كانت هذه هي قرية المجمع الواقعة في شعيب السميكة الذي ينساب شمالاً ليتصل مع منخفض بياض. تسمى الصخور الجرانيتية الجميلة باسم تضكر. كان معظم سكان المجمع غائبين حين وصلناها لذهابهم لسوق الأحد في صروم ، ولذا يبدو المكان مهجوراً ومنعزلاً إلا من بعض النسوة وقد علمنا أن الناس هنا قد بدأوا صيامهم في اليوم السابق بأمر من المكارمة! كان أهل المجمع يتبعون سنحان، وكان من المثير أن نجد التأثير الديني للمكارمة ينطبق على إقليمهم. كانت مجمع قرية صغيرة بائسة بها بعض حقول الذرة الصفراء وبها الكثير من الأثل وبعض مساحات للتين البري والرمان.

واصلنا السير مع وادي سميكة مدة ربع الساعة إلى جزيرة ضخمة من جلاميد جرانيت رمادي تسمى حريمة تعلّم رأس أرض يسمى بياض - وهو عبارة عن فرجة واسعة بين مجموعة من تلال حجرية أكثر منه وادياً، إلاَّ أنها تحمل معها إلى أسفل استمرارية مجرى السميكة وهو يجري عبر مساحة زراعية أخرى متجمعة حول عدد من القرى الصغيرة تابعة لآل حيان (سنحان). يندمج بياض، عند النهاية البعيدة، على مسافة تجاه شمال الشمال الغربي مع وادي القصب، والذي لم تكن قراه مرئية لنا من هنا، برغم أنني قد رأيتها من قمة قرن سبط. تنتمي قريتاه الرئيستان وهما آل حران وآل الجبرة إلى سنحان وعبيدة بالتتالي[١]. لقد تسلقت إلى قمة الكتلة الجرانيتية، مزعجاً أثناء ذلك بحركتي هذه ثعلباً، وسرباً ضخماً من حمام الصخور، وأسراباً صغيرة من طائر «الحجل» ومجموعة كبيرة من طيور السوَّادية. كان الارتفاع عند القمة (٦٧٠٠) قدم فوق مستوى البحر وكان الوادي على مسافة (٢٠٠) قدم إلى أسفل، وعليه نكون قد هبطنا إلى (٧٠٠) قدم من عند مستوى الهضبة، وكانت الأجواء هنا دافئة ومريحة بما فيه الكفاية مما يؤمن لنا وقفة طويلة في منتصف النهار.

نظرت من عند القمة إلى قرية بائسة، وإلى ما حولها من منظر غير منظم لصخور وتلال في هيئة يصعب تصورها. لا يمكن الخروج بأي نظام جغرافي من هذه الفوضى. كان عرض حوض بياض حوالي نصف الميل غير أن معظم قراه الصغيرة تقع على شريط المجرى الفعلي الضيق للسيول. تقع قرية ثغر الصغيرة،

(١) عبيدة:ـ هي ما يعرف اليوم بسراة عبيدة، وهي من المراكز الرئيسة في بلاد قحطان ومن المحافظات الرئيسة في منطقة عسير. (ابن جريس).

وهي الأقرب إليّ، على بعد ربع الميل وبها ستة منازل فقط. كانت قرية الشويكة والتي تلي ثغر هي القرية الرئيسة وبها (٢٥) منزلاً. وتوجد مزرعة ذات بئر مع اتجاه الوادي على بعد نصف الميل تسمى بئر البغدادي، وبئر أخرى اسمها بئر شويطر على مسافة نصف ميل آخر. كان ذلك هو كل ما يمكن مشاهدته، إلى جانب أرض لزراعة الذرة الصفراء والقمح والشعير، ومجموعات قليلة من أشجار التين والرمان. لقد أطلقت رصاصة أثناء نزولي للحاق برفاقي وهم يستريحون في ظل الصخور عند سفح التلال صوب سرب حمام بني وأسقطت أربعة منها، والتي كانت إضافة نرحب بها لإثراء وجبة الغداء.

يتكون رأس بياض من اندماج كل من وادي شعيب السميكة وشعيب الجيرة ويأتي هذا الأخير من جهة الغرب. وقد سلكناه لمواصلة مسيرتنا المتكاسلة، بعد أن سبقتنا في بداية السير جمال العفش بمسافة ساعة كاملة. كانت طيور الحجل والسيسي كثيرة هنا وبشكل مدهش، خاصة بين الجلاميد الجرانيتية والتي ملأت الوادي في سلاسل وأكوام والتي سرنا بينها بصعوبة، وكنا نمشي أحياناً بدلاً من أن نكون راكبي الجمال وذلك حسب صعوبة الممر الذي جاهدت فيه الجمال بحق. يسمى الجزء الأعلى من الجيرة باسم جنب[1]، وينحدر من عند السلسلة التي تقع على يسارنا برفقه عدد من الرعنات المنتشرة شمالاً لتتصل كلها مع الأرض الجبلية التي تقع على اليمين من موقعنا. مررنا بمجرى أزبيات أثناء خروجنا من جنب وذلك لعبور هذه الرعنات، والذي بدوره سيلتقي مع جنب بعيداً إلى الأسفل.

---

(١) جنب:ـ المقصود بها سراة قحطان اليوم وهم أساساً من مذحج القحطانية. لمزيد من التفاصيل عن ذكر اسم (قبيلة جنب) في التاريخ، انظر: الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، ص ١٣٩ ، ٢٠٥، ٣٢٢، عاتق البلادي. **بين مكة وحضرموت**، ص ٧٢ ـ ٧٦ . (ابن جريس).

لقد قابلنا في الطريق مجموعة من القرويين وهم عائدون من سوق الأحد الذي أقيم في وادي صروم الذي يقع أمامنا. أوصلتنا سلسلة أخرى متعارضة ومنخفضة إلى شعيب مقصر وهو أحد روافد أزبيات الذي كنا قد سلكناه باتجاه أعلى الوادي إلى سفح بجلاميد ووصلنا إلى ما يليه إلى مزارع وإلى قريتين توءم هما نسلة وآل نزيه ويسميان معاً «العرف» وكلاهما في مسيل السواد. كانت فعلاً قرية واحدة ومنظارية جداً، تقف على سلسلة من جلاميد جرانيتية، والتي نهبط من عندها إلى تفرع المسيل إلى حيث حقول الذرة الصفراء التي تصل إلى الطرف المقابل. يجري من هذه النقطة خط صرف آخر يسمى جنب إلى داخل السواد من جهة الجنوب، ويتجه السواد نفسه إلى مقصر ومنها إلى أزبيات ثم إلى وادي القصب فيما يلي أزبيات.

وصلنا بعد مسيرة خمس دقائق من جنب إلى مجموعة من أربع قرى صغيرة إحداها كانت مدمرة وبلا اسم بينما كانت أسماء الثلاث المتبقيات هي وسط، والعرق ورزقة بهذا الترتيب إلى أعلى. لقد كانت هذه القرى، بالإضافة إلى حفير، ذات أهمية قليلة على الرغم من ازدهار أشجار التين المزروع منه والبري (حمط وأثب) بين الحقول المبعثرة، كما يوجد في حفير نفسها أبراج جيدة. وقفت قرية كبيرة عند ملتقى شعيب الحباب مع جنب، تسمى القرن وفيما يليها قرية المعزب وبئر ورخة، وقد امتلأ الوادي في هذا الموقع ومن الجانب إلى الآخر بحقول القمح والدخن والبرسيم. توجد مزرعة بئر أخرى، تسمى بئر ابن رزقة إلى أعلى وبها قلعة مبنية على هضبة صغيرة مرتفعة، ويبدو أنها تعلّم الخط الفاصل بين قريتي العرف التي تقع وراءنا الآن، وقرى آل جشمة التي تقع أمامنا. تواصلت المزارع ترافقها أبراج مراقبة نحيلة متكررة تحيط بالحقول.

مررنا بآل ساري وآل هادي بالتتالي لنصل إلى آل جشمة نفسها وهي على جانب الوادي الأيمن، وتقع الزرقان على الجانب المقابل لها، وكانت هذه القرية التؤام آخر قرى شعيب جنب، الذي يتصل به هنا عند رأسه مسيل عبب القادم من جهة الغرب، والذي توجد فيه بعض الحقول كما يوجد فيه بئر تنتمي إلى مجموعة الزرقان. واصلنا سيرنا من هنا إلى أعلى حوض عبب الضحل، العاري، إلى حيث ممر من أرض صخرية ينتهي في مضيق الذي كان على ارتفاع حوالي (٧٠٠٠) قدم أو تقريباً على مستوى الهضبة العالية. ثم هبطنا من عنده إلى مسيل شعيب الحماطة ناحية الغرب ومدة عشر دقائق إلى حيث الموقع الذي ينحني فيه بشدة إلى جهة الشمال، تجاه شعيب صروم الذي يذهب بدوره إلى وادي الفيض. يكوّن مضيق عبب (أو الحماطة) هذا، تبعاً لذلك، الرأس الأعلى للنظامين التصريفيين وهما الفيض والقصب، اللذان يتحدان في الأسفل ليكونا وادي تثليث، غير أن الفيض، كما سنرى، ما هو إلاَّ استمرار لوادي راحة، الذي يحمل بدوره تثليث إلى الخلف إلى منبع بعيد.

تهمني دراسة شعيب الحماطة، برغم أنه غير مميز وكئيب المظهر، لقد عبر درب الفيل المشهور من هنا، عند منحنى الحماطة قادماً من الشمال عبر قرى الفيض وعلى امتداد شعيب صروم (حيث أسواق الأحد)، ومن فوق طريقنا هذا، صاعداً إلى الهضبة العالية عن طريق مسيل رافد ضحل ومنه إلى الطلحة، وإلى ظهران، وإلى سهل الحماد فيما يليها. لقد رأيته آخر مرة عند طريب. ولا يوجد ما يميزه هنا غير ذكراه الحية. من المدهش تأمل عمق تأثير درب الفيل على

الروايات المحلية القديمة في أعماق الناس هنا، الذين قد نسوا تماماً كل شيء غيره[١].

يواجهنا الآن صعود صعب إلى حيث مضيق آخر، يقع على الارتفاع نفسه كما في عبب، التي نزلنا من عندها إلى رأس شعيب صروم نفسه، حيث توجد مجموعة أخرى من قرى صغيرة ومن حقول. يدخل مسيل باقم إلى صروم من جهة الجنوب الغربي، وتكون مجموعة القرى الصغيرة ومجموعة الحقول في هذا الموقع ما يسمى بالديرة، عند الرأس الفعلي لصروم في سلسلة منشر على بعد ميل واحد إلى أعلى من عند طريقنا، وتقع آل حامد على يميننا وتتكون من كل من ابن حقة (التابع لآل زمر) وآل زاهر بالقرب من فم باقم. تعرف كل هذه القرية الصغيرة باسم الصدر أو الرأس (لصروم). يهبط باقم من عند السلسلة البركانية المنفصلة التي تسمى قعمة القلح البارزة من بين الحاجز الرئيس من خلف مجرى وادي راحة. لقد تتبعناه قليلاً إلى مسافة قصيرة فقط قبل أن نصعد إلى أرض ذات منحدرات على امتداد مسيل سوس، الممتلئ بأشجارالطلح. ثم ترجلنا عن دوابنا لنسير على الأقدام إلى أعلى السفح المنحدر إلى رأسه الذي يرتفع حوالي (٧٢٥٠) قدماً فوق سطح البحر، أو على مستوى معسكرنا عند سفح قرن سبط، والذي من الممكن رؤيته الآن ناحية الشرق من موقعنا.

---

(١) درب الفيل: مشهور إلى اليوم عند سكان شرق بلاد قحطان وشهران، وغيرهما من القبائل الواقعة إلى الأجزاء الشرقية من بلاد السروات. وذلك لعدة أسباب منها:ـ (١) عبور أبرهة الحبشي بجيشة وفيلته من اليمن إلى الحجاز بغرض هدم الكعبة. (٢) إن حادثة الفيل واقعة مهمة عند المسلمين اليوم، بل هناك سورة في القرآن حول هذا الموضوع، وبالتالي فإن نسيان هذا الطريق وتلك الحادثة أمر صعب وبخاصة الأقوام الذين يعيشون قريباً من هذا الدرب (درب الفيل) وآثاره الموجودة حتى اليوم. (ابن جريس).

غربت الشمس الآن، وواضح أننا لن نستطيع الوصول إلى الحرجة هذا المساء دون أن نترك عـملاً كثيـراً أود أن أقوم به في هذه المنطقة المـتشعبـة من البلاد، لا توجد إشارة تدل على جـمال الحمل التي كانت قـد سبقتنا، ويبدو أنهـا ضاعفت الخطو للوصول إلى قدور اللحم في الحرجة قبل موعد الإفطار. كان من الممكن لنا أن نتركهم يذهبون ونعسكر في استقلال عنهم لولا أن ساعاتي الكرونومتيرية كانت معهم ولا بد أن يعبأ نابضها. لقد أرسلنا رسولاً لإحضارها وتحرك بقية الفريق إلى الأمام إلى أسفل شعـيب قليطة بحثاً عن موقع مناسب للمعـسكر إلى جوار مرعى للحيوانات. كان علينا أن نصعد المضيق التالي لنجد مثل هذا الموقع، والذي وجدنا في أسفله قطعـة أرض ذات شجيـرات في مسيـل يسمى شعـيب غربان في وسط جلاميد جرانيتية.

وصلت جمـال العفش إلى الحرجـة ولم تعد إلينا إلا عند السـاعة (١٠,٥) ليلاً، وقد قادها ناحيتنا ضوء مصباحي والذي يمكن رؤيته من عند السلسلة الثانية، وقد سـعدنا كلنا بذلك، خاصـة شخصي. لـقد تم إنقاذ سـاعاتي، والآن يتطلع رفاقي إلى وجـبة طعام، ذلك لأنه لم يكن مـعنا شيء إلا تمر جاف صلب، وهو التموين الراتب العادي لرجال جمالنا، وقد كنا نجلس من حول النار لنشويها كأنها اللوز وذلك لنجعلها مستساغة للأكل. كان التمر بعد تلينه بهذا الأسلوب لذيذاً مع تناول الشاي معه.

نظر إلينا المبـذرون العائدون نظرة عـتاب وهم ينصـرفون إلى مـواقعـهم في المعسكر دون أن ينبـسوا بكلمة. ولقد رأيت بدوري أن ألزم الصـمت أيضاً، ذلك لأنني كنت المسؤول عن إعادتهم من عند مشارف وليمة إفطار رمضان. شاهد فرج في هذه الأثناء الهلال الجـديد لرمضان، وقـد فاتني أن أنتبه لذلك، إذاً يبـدأ غداً

صيامنا. لم يتم إعداد وجبتنا البسيطة الخالية من اللحوم إلاَّ قليلاً قبل منتصف الليل، غير أنه إدراكا بأن أعمالي في موضوع النجوم غير ضرورية في مثل هذا المكان، فقد استمتعت بالجلوس حول النار بلا عمل.

لم يكن هنالك صقيع أثناء الليل، غير أن رياحاً شرقية باردة كانت تهب في الصباح عندما واصلنا مسيرتنا ونحن صائمون. وصلنا إلى المضيق بعد مسيرة دقائق قليلة، وتوقفنا عند السلسلة التالية له مدة ساعة ونصف الساعة لتسجيل كل التفاصيل عن المنظر الجديد. لقد نظرت إلى أسفل من عند ارتفاع (٧١٠٠) قدم فوق سطح البحر، إلى حوض وادي راحة، أو راحة سنحان كما يسمونه محلياً. كان المشهد العام لوادي مرتفع ممتلئ بالأشجار يخترق من جهة لأخرى، العديد من المسايل والمصاريف ويعترضه مجرى واحد رئيس يرتفع إلى (٨٠٠٠) قدم أو أكثر من صخور داكنة بركانية تقف على قاعدة مربعة لصخور متقطعة محمرة اللون الأبيض. كما يمكن رؤية جزء من الحرجة نفسها من عند هذا الموقع، وهي ليست بالبعيدة، ولما كان كل فرد الآن صائماً، فلا ضرورة للإسراع.

يدخل وادي راحة، الذي ينساب على امتداد قاعدة سلسلة جبال بعيداً ناحية الجنوب، إلى الحوض العظيم الذي أمامنا، من بين سلسلة جنعان على جانبه الأيسر وسلسلة قعمة القلح عند قرية آل الطويل عند ملتقى مسيل صغير قادم من ناحية الغرب مع المجرى الرئيس. ينساب هذا الآن إلى أسفل عبر حقول آل نجيب المرقطة بالبروج إلى ناحية القرية المتوسطة الحجم التي تسمى آل بحير وتقع إلى الجنوب الغربي لطريقنا المتجه إلى الحرجة.

يمر الوادي بعد ذلك في منحنى عريض لمجراه الكثير الأشجار ليتصل به وبالتتابع، كل من شعيب ولج الهابط من عند مضيقنا هذا، والمجرى المشترك بين

قليطة وغربان (يسمى مضـرة) والذي يدور حول السلسلة على يميننا ومن خلفنا. كانت كل هذه النقاط تبعـد مسافة ميلين ونصف الميل وميلين في خط مـستقيم من عند المضيق من هنا. يمر المجرى نفسه، عند قرية آل السويد، على بعد ثلاثة أميال وبقربهـا يوجد بئر أم قطرة داخل مـجال رؤيتنا وهو في طريقـه إلى الفيض. تقع قرية ضـير، إلى الغرب من مـوقعنا، داخل مسيل يـجري بين جوعان ونتـفه، ثم يستمر هذا المسيل مـاراً بقرية سلعان الصغيرة والحرجة نفسـها ليتصل براحة وذلك بعد مروره بقلعة قـديمة تسمى أشرف تقع عند قدم الصخرة الجـبلية. يوجد مصب آخر يقع بعيداً إلى ناحـية الشمال يسمى شعيب جريدة حـيث توجد قرية حجراف على تل في وسط الحـقول، وقرية آل حـجر عند التقـائه مع راحة حـوالي ميلين ونصف الميل من موقـعنا. يخرج شعيب محله من عند نـتفة وبه قريتان صـغيرتان تابعتان لآل سرفـان وحصونهم المبعثرة، من عند الحاجـز الجبلي عند قرية آل زاهر ليتـصل مع راحة في آل السويد. يأتي بعـد ذلك في الترتيب شعـيب شعف وتقع قرية آل محيرث في مجراه ليتصل مع الوادي الرئيس أسفل آل السويد.

كانت كل هذه خطوط تصريف صغيرة نسـبياً، غير أن الخط التالي الذي يتبع من عند الحاجز على بعد سـتة أميال غرب الشمال الغربي كان ذا أهمـية عظيمة. أنه وادي يعوض والذي لم أقم بزيارته والـذي قيل إنه يجري لمسافـة طويلة بين أحضان الجـبال والذي تقع عليه قـرى عديدة والتي نرى منها واحدة فـقط من هنا هي آل التيس وهي عند مخرجه ناحية المشرف، وهي عبارة عن مخروط بركاني عند طرف السلسلة.

يحضن وادي يعوض الـصخور من هنا ويمر من الجانب القـريب بالمخروط البارز المسمى قرن الخبط تجاه الشمال الغربي من موقعنا لكي يعبر من خلال التلال المنخفضـة ليتصـل مع راحـة عـند أعلى موقع التقائه مع وادي الفيض. يمر يعـوض في موقع ما

بين آل التيس وموقع التقائه مع راحة، عبر القرية المهمة التي تسمى آل دليم، مقر إقامة رئيس سنحان الذي يشغل مركـزاً إداريا في الحكومة السعودية[١] بصفته أميراً على كل بلاد سنحان، مع بعض القيود في أمور المالية والقوانين الشرعية. تتجمع القرى في هذا الوادي داخل الحاجـز الجبلي تحت الاسم العـام شريف[٢]. يمكن رؤية العار وسلسلة جبال القعم في عبيدة، ناحية الشمال الغربي، في اتجاه طريب.

ذكرتني البـلاد التي تنتشر فـيها الجـلاميد الصخـرية والتي نزلنا من عندها الآن، بمحيط الطائف. وصلنا خلال عشـرين دقيقة إلى مجموعة قرى صـغيرة، منها قرية آل بحير وقرية البصرة، وقرية آل نجيب، وقرية فطيس، وقرية القلعة، وقرية آل الصعب، والعديد من الأبراج في أرض زراعيـة واسعة عند منفرج مسيل السـد إلى أسفل ناحية الجانب الأيمن لراحة نفسها حيث توقفنا لفتـرة وجيزة على صخرة ارتفاعها (٤٠) قدماً من جـرانيت مكشوف تطل على الـقرية المبـعثـرة والمحطمة. كـانت المزارع متـواصلة ومستمرة فعلياً من هذا الموقع إلى الحرجة نفـسها على بعد ميل واحد فقط، وقد مررنا بين حقول محاطة بالحجارة، وكلها كانت تبدو مـهملة ومهجورة غير أنها منتجة وذات محاصيل جيدة وذلك استجابة طبيـعية لسيول جيدة، ذلك لأن هذا المزج بين الصخور الجرانيتية والبركانية ينتج عنه عادة تربة خصبة. كانت الحرجة نفسها خارج خط الوادي عند منفرج مجرى تابع لها والذي كنا قد أقـمنا معسكرنا في بطنه عند الساعة الواحدة مساءً بعد مسيرة قصيرة في يوم كان كثير العمل.

---

(١) القرية الـتي تسمى (آل دليم) أو (الكولة) هي مـقر إقامـة شيخ شـمل قحطان ووادعة المـعروف بـ (ابن دليم). أما سنحان فهي عـشيرة من عشائر قحطان المتـعددة ومشيختهم في آل راسي، لكنهم جـميعاً مع غيرهم من عشائر قحطان ووادعة يعودون لشيخهم الرئيس (ابن دليم). (ابن جريس).

(٢) شريف: من قبائل قحطان الرئيـسة ويتبعون في مشيختهم إلى ابن دليم. للمـزيد انظر: محمود شـاكر. **شبة جزيرة العرب ـ عسير** (بيروت: المكتب الإسلامي، (١٤٠٠هـ / ١٩٨١م) ص ١٠٥ ــ ١٠٧. (ابن جريس).

كنا محظوظين أن نصل إلى هنا في يوم السوق المحلي، ففي الحرجة يقام السوق أيام الإثنين، وكان المكان مزدحماً بالزوار من الريف المجاور. كما يتوقع المرء منهم معظمهم من القحطانيين التقليديين، زبدة فرسان القبائل العربية، غير أن النسوة كن أقل ظهوراً في الأسواق مقارنة بنجران، واللاتي يأتين للسوق منهن كنَّ أكثر تحفظاً من أخواتهن في يام. وصلنا بالطبع إلى السوق في وقت متأخر وكان السوق قد بدأ يتفكك. كان هنالك تجمعاً لا بأس به في السوق، مع ذلك، والذين قد بدا عليهم الاهتمام العميق بشخصي وبتحركاتي. فأينما ذهبت تبعني فيلق من المتفرجين، غير أنني استفدت من هذا لأبعد الحدود، فقد كانوا على استعداد تام للإجابة عن أي سؤال أوجهه لهم، غير أنهم كانوا متشككين ومتخوفين من آلة التصوير. كانوا رجالاً مكتملين قويين، ذوي مظهر أرسطوقراطي أكثر من أولئك، قاطعي الطريق السابقين في يام.

استمعت إلى شكاوى من كل الجهات تدور حول الفقر والبؤس الذي تعانيه بلادهم ويعزى هذا إلى حقيقة أن العربي الحقيقي التابع لقبائل عظيمة لم يكن إطلاقاً مزارعاً. ينظر هذا العربي إلى الزراعة بأنها مهنة تناسب العبيد والخدم، وأن الأرض ستنتقم منه[1]. كان على الأيدي العاملة المؤجرة أو المكرهة أن تستفيد إلى أقصى حد من الأرض ومن الماء المتوافر، ولا يوجد رأس مال متوافر لتطوير الوسائل الزراعية لاستغلالها. ونادراً ما كان يتم حفر آبار جديدة، ونادراً ما كانت

---

(١) العربي من قديم الزمان يأنف من العمل في المهن المختلفة، بل إن هناك بعض المهن لا يعمل فيها إطلاقاً ويحتقر من يمارسها. أما مهنة الزراعة، وبخاصة عند سكان تهامة والسراة، فتأتي من المهن الرئيسة التي يقتاتون منها، وما ذكر فيلبي قد ينطبقعلى البدو الرحل، أما الذين يعيشون في القرى والحواضر والأرياف فإن الزراعة تعتبر مهنة رئيسة عندهم. (ابن جريس).

تصان السدود القديمة، والمساطب والقنوات، فضلاً عن تمديدها. كان على ملاك الأرض أن يقبلوا بما منحهم الله، وقد تكون المنحة أحياناً كافية بالكاد، وتكون أحياناً في وفرة عظيمة.

لا توجد وسائل مواصلات لنقل الفائض إلى الأسواق المربحة، وإذا تم ذلك فهو بتكلفة عالية. كانوا بصفة عامة يعيشون بأسلوب الحياة من اليد للفم ولم يكن هنالك فائض لثروة حقيقية. وقد اتجهوا -تبعاً لذلك- إلى الحكومة وشكوا من انصرافها عنهم وعن الاهتمام بشأنهم. وقد اعتقدوا بأسلوب غامض بأن حضوري لهم مع تبريكات ابن سعود هو تنبوء لهم بمستقبل أفضل[1]. كان المخزون لغرض التجارة لهذا السوق كما هو في أية مكان آخر هو تلك البضائع التي تباع بالقطعة وهي رخيصة الثمن، والتوابل الضرورية وما يباع في البقالات، والمنتجات المحلية، برغم أن التمور كان بنداً بارزاً وذلك لأنه غائب.

باشَرَت الحكومة السعوودية قبل فترة سبقت هذه الأيام العمل بتجربة الإدارة المباشرة لمنطقة سنحان، وقد أوفد إليها أمير من الرياض واسمه عبدالله بن عثمان. وسرعان ما دخل عبدالله في خصومات مع العادات المحلية ومع شيخ القبيلة المحلي وقد تم إعادته حديثاً. لقد جاء دليم بن دليم خلفاً له ودليم هذا هو شيخ السنحان الذي كان قد منح لقب أمير على منطقته القبلية وكان مقر عمله الرسمي هو الحرجة[2]، حيث بقي معه عدد قليل من كتبة الخدمة المدنية من الإدارة النظامية

(١) فعلاً كان الناس في حاله اقتصادية سيئة، ولكن بعد توحيد البلاد في عهد الملك عبدالعزيز، وتوفر الأمن بدأت الأحوال الاقتصادية تتحسن، بل صار الناس يأمنون على أرواحهم وممتلكاتهم بعكس العهود السابقة. (ابن جريس).

(٢) دليم بن محمد بن دليم هو شيخ مشائخ وادعة وقحطان. وقرية الكولة كانت المقر الرئيس للمشيخة ثم حل محلها قرية الحرجة التي تقع بين سراة عبيدة وظهران الجنوب. (ابن جريس).

وذلك لأداء العمل المالي والدخل الضروري، بينما تم تعيين قاضٍ جديد لتنفيذ العدل طبقاً للشرع. لقد ترك كل ما عدا ذلك لصلاحيات دليم، ولم تواجهه مشكلة في إدارة أمور قبيلته.

كان دليم مشغولاً في المجلس حين وصولنا، ينظر في الدعاوي العادية الموجهة لعناية الأمير في أيام الأسواق، وبمجرد استقرارنا في معسكرنا ذهبت ومعي فرج لزيارته. لقد كان فعلاً بمظهر الرئيس لقبيلة عربية فهو رجل قوي، وفي متوسط العمر، ويظهر عليه السمات السامية. لم يقدم لنا دليم قهوة أو أي منعشات أخرى، وذلك بسبب الصيام ولم أعطله طويلاً عن رغبته في العودة إلى يعوض لينعم باستراحة الظهيرة وقيلولتها. ومن جهة أخرى لقد كان كثير الحماس، في أن يمدني بمرشدين ممتازين وذلك لاستكشاف إقليمه وقد أصر على أن أعده بزيارة أخرى في وطنه الخاص بعد عودتي من ظهران.

ما كدت أستقر في المعسكر حتى وصل أحد عبيده واسمه شعبان ومعه شاتان قد أرسلهما لنا سيده بغرض إعداد عشائنا. أكرمته -بالطبع- بالبقشيش العادي وأدهشني أنه رفض أن يأخذه. لم يكن هذا بالأمر المألوف، غير أنه متوقع. كان هذا الرجل هو نفسه الذي كلفه الأمير في غيابه، مع أوامر مشددة، أن يقوم بتأمين أحسن المرشدين المتوفرين لخدمتي. لقد زارني شعبان عدة مرات أثناء فترة الظهيرة وبرهن لي على أنه شخص يجمع بين قوة الشخصية وبين السلوك الجذاب. وبرغم أنه مصنف ضمن طبقة العبيد وهو بالفعل زنجي الأصل[١]، إلاَّ أنه يبدو في تطبيق

(١) كان الرقيق موجودين بكثرة في جنوبي البلاد السعودية، وكان يؤتى بهم إلى البلاد عن طريق الحجاز واليمن وسواحل البحر الأحمر، وربما نجد والخليج العربي. (ابن جريس).

سلطات سيده وكأنه جبل على ذلك. أخبرني أن يعوض تبعد مسافة ساعة سفر من الحرجة، لنقل خمسة أميال في بلاد صعبة كهذه.

كان هنالك القليل من الظل حول المعسكر، وكانت استلقاءات القيلولة عند الظهر كثيرة التقطع وذلك بسبب أشعة الشمس التي كانت تتخلل الموانع التي وضعت في طريقها. كنت أحس بالإرهاق إما نتيجة ذلك، أو بسبب الصيام، وخاصة حرماني من التدخين، عند نهاية فترة العصر، وقد كنت سعيداً بمغيب الشمس في ذلك اليوم الأول من رمضان. لقد أسيء طبخ شاة الأمير للأسف بواسطة زملائي وكان عشاؤنا فاشلاً. أطبق المساء في دفئه تحت سماء ملبدة بالغيوم وهو الأمر الذي تداخل إلى حد ما مع ملاحظاتي للنجوم، ثم برد الجو في وقت متأخر من الليل، وسقطت علينا بعض درجات من الصقيع. كانت أقصى درجة حرارة في الظل عند فترة ما بعد الظهر حوالي (٧٢) درجة فقط، وكانت الحرجة عند ارتفاع (٧٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. تنهض القرية، وهذا كل ما فيها، من الجانب الأيسر لمسيلها فوق منحدر لطيف والذي من عند قمته بدت منازلها ذات الثلاثة طوابق شديدة الجاذبية. يقع السوق ناحية الغرب من القرية في مكان واسع مكشوف محاط بجلاميد جرانيتية. اختلط اللون الرمادي لهذه الصخور مع لون البناء الداكن البازلتي للقرية ومع جدرانها المتبقية على امتداد المسيل، لتصنع صورة كئيبة. تدعم هذا المظهر الكئيب قربة من الجبال البركانية الداكنة، الناهضة في معظم أجزائها إلى شريط مستوى مسطح عند القمة يطل على، أو بالقرب من، لج تهامة. ويحمل إلى جانب ذلك قرى مشرف، والنطفاء، وجوعان، وقلح بهذا الترتيب من الشمال إلى الجنوب، وقد ورد ذكرها. كانت أبرز السمات للجانب المرئي من سلسلة الجبال وفي ترتيب تجاه الجنوب هي أبا ثول، وأبا الصبر،

والسعدي، وليطان وحمَّل -تقع كلها تجاه الجنوب من الحرجة- ثم شيبة. يبدو، من بين هذه القرى، أن سعدي وشيبة مميزتان وقد علّمتهما لكي أقوم بزيارتهما.

ربما كان مسيل الحرجة هو الذي أشير إليه من قبل باسم ضيسر أو هو فرع منه، عبرنا سلسلة منخفضة، عندما واصلنا السير في الصباح كانت تفصل الحرجة عن شعيب عقيقة والذي عن طريقه وصلنا إلى قرى آل الطويل التي ورد ذكرها تتكون من آل بحير والبصرة إلخ إلخ. ذلك بكونها تقع على أسفل المجرى حيث تتصل مع راحة سنحان التي تقع الآن ناحية اليسار لطريقنا وليست هي بالبعيد كثيراً، إلى جانب قرية أخرى تسمى القروات، التي تشاهد إلى البعيد في مجراه، وقرية آل جهيم الصغيرة التي تقع أمامنا على جانبه الأيسر. قابلتنا هنا فتاة كانت متسلقة لشجرة طلح طويلة، وكانت تقطع بالفأس أغصانا كبيرة منها توفر العلف لقطيع ماعزها الذي تجمع أسفل الشجرة، والذي كان يلتقط الأوراق العصارية الصغيرة وبشهية واضحة. تمكن الملاحظة الآن وبسهولة كيف أن مثل هذه البلاد من خلال سلوك أجيال مهملة قد أصبحت معرّاة من غاباتها. سيكون من عديم الجدوى بالطبع أن نعترض على ما تقوم به هذه الفتاة، فهي بعد كل هذا مسؤولة عن إطعام قطيعها[1].

تقع قرية آل سويد عند معبر عين الوعل، بالقرب من انبعاج التقائه مع راحة، على بعد نصف الميل باتجاه أعلى الوادي وكانت القرى الصغيرة المماثلة هي آل مونس ومحجر القضا وكلاهما أسفل منا. كما تقع إلى مسافة في آل شماخ مجموعة صغيرة من المنازل، مقابل راحة، وتكون أطلال آل الحمال إلى أعلى منها وعلى الجانب نفسه. كان الوادي ممتلئاً بكثافة بأشجار طلح قديمة طويلة والتي

(١) في الآونة الأخيرة صارت وزارة الزراعة تقوم على حماية الغابات من الخراب وقطع الأشجار، بل هناك قوانين صارمة لمن يمارس أي تشويه أو قطع للأشجار دون إذن مسبق من الجهات المسؤولة عن ذلك. (ابن جريس).

حلقت فوقها البلابل الكثيرة، وقد استغرقت في التفكير إن كان نقار الخشب الذي كنت قد اكتشفته من قبل يصل بعيداً إلى هذا الجنوب. وصلنا بعد مسيرة دقائق قليلة إلى آل حريج وآل جهيم (آل جعدنه). تقع هاتان القريتان في مسيل صغير والذي من عند رأسه هبطنا إلى جانب الوادي راحة مرة أخرى بالقرب من آل حيان وسرعان ما وصلنا إلى القرية الطويلة المتعرجة واسمها القروات. استقرت في مقابل هذا المكان وفي مسيل يأتي منحدراً ناحية الجانب الأيمن لرحة، القريتان الصغيرتان، وهما هجرة وآل باهر من فوقها.

يدخل الوادي العريض المسمى وادي الحبيط، من عند النهاية أعلى الوادي باتجاه قروات، على ارتفاع (٧٢٠٠) قدم فوق سطح البحر، إلى راحة وعلى جانبه الأيسر. يقود طريق هام يقع أعلى هذا الوادي، ماراً بقرية آل عبدالله، والتي تشتمل على ثلاث قرى صغيرة، ثم الصمعة وتقع أعلاها، ثم إلى ممر عقبة شراقب عند قدم سعدي. هذا هو أفضل وأيسر طريق من بين كل الطرق التي تقود إلى تهامة جنوب منطقة أبها وسأترك وصفه إلى الوقت المناسب، ذلك لأنني سأسلكه في نهاية الأمر في طريقي إلى الساحل.

كان لدينا عمل آخر يشغلنا في هذه الأثناء، وقد عبرنا راحة إلى قرية الحوط التابعة لقبيلة شريف حيث توجد مباني مهيبة غير أنها في معظمها كانت في حالة مدمرة. توقفت هنا في طريق العودة ولن أذكر شيئاً عن ذلك الآن. يجري الوادي فيما يليها تجاه الجنوب لفترة قبل أن يدور فجأة ناحية الشرق في واجهة جبل شيبة، الذي كان هدفنا المباشر. وقد سلكنا طريقاً مختصراً، لنصل إلى قاعدته، عبر قاعدة المثلث الذي يكوّنه الوادي، وهو يتبع خط شعيب الظفارة، الذي يجري إلى أسفل راحة في الحوط.

تقع قرية جزعة على يميننا عند منحنى حاد لراحة، عند مدخل شعيب جيسان من جانب الوادي، وتكون قرية جيسان إلى أعلى الرافد. ذكر مرشدي وهما رجلان قويا البنية من رجال القبائل التابعة لبلاد ابن دليم أن الجزعة وهي أول قرية تابعة لسنحان في راحة، بينما كانت كل القرى الصغيرة التي عبرناها حتى الحوط تابعة إلي آل شريف. لقد كان هذا محيراً لي، ذلك لأنني توقعت أن يكون آل شريف فخذاً من سنحان وبعد إعادة التفكير توصلت إلى الاستنتاج بأن هذا يجب أن يكون هكذا، علماً بأن فخذ شريف، وهو القسم الذي يتبعه الرئيس، يمكن النظر إليه كفرع مستقل لقحطان، مثله مثل سنحان وعبيدة. يجب أن أعترف بأنني غير متأكد من ذلك[1]. كنت قد رأيت قرية آل فاضل الصغيرة وذلك عندما وصلنا إلى جانب الوادي الأيمن لراحة مرة أخرى، وتقع على الجانب المقابل، على مسافة نصف الميل عند قاعدة شيبة. اعترض طريقنا المسيل الصغير المسمى عطيف وتقع عليه قرية آل أبو مخروقة قليلاً باتجاه أعلى الوادي، وذلك قبل أن نصل إلى آل دشان في راحة نفسها حيث ترجلنا لنبدأ الصعود.

كان ارتفاع الوادي (٧٣٠٠) قدم وتقع قمة شيبة ناحية الجنوب من موقعنا وهي شامخة فوق رؤوسنا. كانت حقول آل دشان ذات المساطب قائمة في الجزء الأسفل من جانب التل مع جدران متبقية ترتفع إلى عشرة أقدام[2]، واحتلت القرية الصغيرة الثانية مستوى أعلى قليلاً، بينما يمكن رؤية آل يصبا على الجانب الأيسر لراحة على مسافة ميل واحد باتجاه أعلى الوادي. كانت هنالك بعض

(١) نعم عبيدة، وشريف، وسنحان فروع رئيسة في قبيلة قحطان، ولكل قبيلة من هذه القبائل شيخ يدبر أمورها، لكنهم جميعاً يعودون إلى المشيخة العامة لقحطان وودادعة عند ابن دليم. (ابن جريس).

(٢) تسمى هذه الجدران باسم (المدرجات الزراعية) تبنى حول المزارع لتمنع تربتها من الانجراف، وبلاد السروات من الحجاز إلى اليمن تشتهر بهذا النوع من المدرجات. (ابن جريس).

أشجار الفـاكهة بالقرب من الوادي في هذه الأرض التي تحتوي أيضـاً على حقول ذرة صفراء كان معظمها قد تم حرثه حديثاً، والتي كـان السير فوقها صعباً غير أنه ليس بالسطح المنحدر. كان الجزء الأول من الصعود إلى أعلى تجاه الصخرة الحمراء عند قاعدة الجبال البركـانية، وقد وصلنا إلى موقع التماس بين الاثنين - وهو خط طويل مستقيم حاد يقع على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم.

كانت كتلة التل فـيما يلي هذه من بازلت شبيـه بذلك الذي شاهدناه في قرن سبط، وكان مركـباً عمودياً ويبدو أنه من المحـتمل أن تكون كل سلسلة السراة من عند قـعم عبيـدة جنوباً هي من نوعـية التكوين نفـسه، بينمـا يوجد أيضـاً سبب للاعتـقاد بأن الشريط التحـتي المحمر البيـاض يحتوي على البوكـسيت. لم تكن هنالك صـعوبة في التسلـق وذلك لأن مرشدي كـانا يعرفـان الطريق جيـداً، وقد وصلنا إلى قمة سـفلى لقمة الهضبـة العالية الواسعة، على ارتفـاع (٧٨٥٠) قدماً فوق سطح البحر، وذلك في خلال (٤٠) دقيقة من عند القاعدة.

يمكننا الآن أن نسير بسهـولة عبر المنحدر اللطيف إلى قاعدة القمة الحـقيقية، ومرة أخرى وجدنا الـصعود سهلاً، وقد استـغرق إكمالنا لكل المهمة حـتى القمة (٦٥) دقيقة من عند مجرى رحـة، حوالي (١٠٠٠) قدم، وذلك لأن القمة تقف على ارتفاع (٨٣٠٠) قـدم فوق سطح البحر. وقـد وجدنا عليها مـصلى وكانت بعض جدرانه ترتفع إلى ثلاثة أقدام غير أننا لم نجـد محراب القبلة التي تقول عنها الروايات المحلية، كمـا يقول مرشديَّ، أن النبي (صلى الله عـليه وسلم) قد زارها وصلى فيـها![1] ويقع بالقرب من المصلى تذكـار قديم، عبارة عن لـوح صخري عليه نقوش وصور تمثل رمّاحين ممتطين.

---

(١) هذا ضرب من الخرافات والأسـاطير؛ فالرسول ﷺ لم يصل هذه البلاد التي يتكلم عنها فيلبي في هذه الدراسة وبخاصة ما يقع جنوب بلاد بني سعد في الطائف حتى بلاد اليمن. (ابن جريس).

كان المنظر من هذه القمة عظيماً بمعنى الكلمة ويدفع للرهبة، لقد قمت بمراجعة بوصلتي في كل من الحرجة والحوط ودخفة وقد وجدت أنها كانت تعمل طبيعياً وقد أصبح بإمكاني مواصلة العمل بها دون مخاوف في بقية مسوحاتي. فوق آل يصبا تعرج مجرى راحة حول قاعدة شيبة وقد انتشرت فوقه خمس قرى صغيرة التابعة لآل الأشعث على امتداده من ناحية الشمال الشرقي إلى ناحية شرق الشمال الشرقي على بعد ميل ونصف من مكاننا في خط مباشر. وعلى بعد المسافة نفسها كما تقع في راحة أيضاً قرية آل ملعب ومن فوقها قرية العوران الصغيرة. تقع في مسيل شعب آل مسعود الذي يهبط من عند عرن قعمة القلح إلى راحة قليلاً أعلى آل ملعب، قريتان صغيرتان وهما آل خاري وآل الشعب التي تليها من أسفلها.

لم نستطع رؤية أي من قرى راحة أعلى العوران من عند هذه القمة، وذلك لأنها كلها كانت محجوبة بكتلة الجبال. يجدر بي أن أقدم قصتها هنا، وقد رأيتها أثناء عودتي إلى أسفل من المضيق الجنوبي لشيبة الذي كان يسيطر على منظر كامل لراحة إلى عند رأسها في قمة مسوره قليلاً ناحية الجنوب الشرقي. كانت هذه البقعة على بعد (٣٠٠) ياردة من القمة وفي ذلك الاتجاه. تقع أولى القرى الصغرى التابعة لراحة وتكون أعلى العوران إلى الشرق من موقعنا وعلى بعد ميل ونصف الميل في خط مباشر، وتقع قرية آل علي[1] ومعها آل جحلان على مسافة نصف الميل أعلى منها وتقع قرية أهل بقعان إلى أعلى أكثر، حيث يدور الوادي بعنف ناحية الغرب في تدرج منحدر. كما تقع قرية ومزارع آل لوي في هذا الامتداد الذي يصل طوله إلى ميل ونصف الميل قبل أن يدور مرة أخرى ناحية

(١) آل علي: ــ يطلق عليهم أيضاً آل بن علي، أو آل علي بن علي. (ابن جريس).

الجنوب ليصعد للمرة الأخيرة. نستطيع أيضاً رؤية أجزاء من الصفراء وآل عيفة على قمة الوادي، وهما أعلى من آل لوي، حيث تتجمع مسايل المسورة لتكونه. يتضح للقارئ من هذا أن وادي راحة، من رأسه إلى محيط الفيض هو عبارة عن منظر لمناطق مأهولة باستمرار ومشغولون بالزراعة التي يقوم بها عدد قليل ومبعثر من السكان الذين يعيشون في مجموعات صغيرة ونادراً ما يزيد حجمها عن الأسرة الواحدة[١].

لنعد الآن إلى المنظر العام من عند القمة ولو من على بعد أمكننا الآن أن نرى، بعض معالم المرتفعات العليا لوادي يعوض داخل الحاجز الجبلي. تقع هذه المعالم فعلياً تجاه الشمال من عند موقعنا، وقليلاً ناحية الغرب وكانت أعلى القرى هي آل العباس التي تقف على صخرة تبدو لصدع عميق في الجبل عند قاعدة القمة الأعلى. يمر هذا المجرى الصخري العميق بآل شارد ثم كانت بالتتابع بعد ذلك قرى آل قبس والشرمان وآل صيت مع قرى صغيرة أخرى لا ترى، وذلك لأن المسيل يدور إلى أسفل حول قرية آل التيس حين دخوله حوض راحة. يمكن رؤية الجزء الأعلى من وادي محلة القريب من هنا، وتقع على جانبه قريتا ضبعة وعقلة (الزرقان).

يكفي هذا لمسح المناطق المأهولة التي يسكنها الإنسان. لم تكن بدر نفسها مرئية لنا غير أن قرية قرن سبط كانت بارزة. لقد حملت كل من سلسلة العرف وسلسلة مرقان خط الأفق الشرقي إلى مبنى البيت وإلى دخفة على جانب الوادي

(١) المناطق الجبلية الممتدة من سنحان في بلاد قحطان حتى بلاد الطائف مأهوله بالسكان، وذلك لما تتميز به هذه البلاد من مقومات للحياة مثل:ـ التربة الصالحة للزراعة، والمياه الجوفية، والتضاريس الصالحة للرعي والصيد وجمع الحطب وغيرها من المهن الضرورية لعيش الناس قديماً. (ابن جريس).

الأيمن لحبونا وكلاهمـا يطل على الخضرة. كان المنظر قميئـاً في ذلك الاتجاه بصفة عامـة وناحية الجنوب، فـيما عدا الـقمة الجذابة التـي ترى في المجال الرئيس إلى أسفل قرية المسورة، ويعرف باسم رميح ويـشبه في شكله أحد الأهرامات المدرجة في مصـر. انتشر الوتر لجبـال خولان العاليـة من جهة الشرق تقـريباً إلى الجنوب الشرقي ثم إلى الجنوب الغـربي، وبدا رائعاً غير أنه يقع إلى البعـيد حيث لا ترى تفاصيله. لا حاجة لي للحـديث عن المنظر الشمالي أكثر من ذلك، وذلك لأنه لا توجد سمات رئيـسة فيه لم ترد من قبل في قصـتي. يترك هذا المجال للربع الذي يقع بين الجنوب الغـربي والشمـال الغربي - وهو منظر رائع بمعـنى الكلمة لجـبال عالية ولسلاسل عظيمـة متدحرجة ذات أودية عميقة ومـضايق خطرة تبدأ كلها من تحت أقدامنا وتمتد إلى البـعيد إلى مرمى البصر وذلك لأننا لم نر سـهل تهامة من ورائها فضلاً عن رؤية البحر. تتبع كل هذه الأودية والصدوع والشقوق التي تشاهد باتجـاه الغـرب، من عنـد هذا الحـاجـز الجـبلي العظيم الذي يـرتفع إلى حـوالي (٨٠٠٠) قدم فوق سطح البحر.

يشاهد رأس وادي بيش من عند الحدود الشمالية لمنظر الجرف، وهو يأتي من سلسلة من الصـدوع والمسايل التي تجري مـنسابة إلى أسفل من عنـد طرف الحلقة التي تتكون من الجـوانب الغـربية لكل من النـطفاء، وثروع، ونودان، وكـتفـاء، وليتان، وسعدي، وتقع القرية الصغيرة المنعزلة التي تسمى الجوه عند قاعدة كتفة، غيـر أنني سأكتب عن وادي بيش بتـفاصيل أكثـر في فصل آخر. كشف الامـتداد الأمامي للجرف، عند النهاية إلى اليـسار لهذا الوتر، وفي اتجاه الغرب، عن منظر للشريط الطويل لقمة السـراة يمتد إلى البعيد، ناحية مرتفـعات أبها، والذي توجد فيه سلسلتان بارزتان بهـما قمم عالية، ويجهلهما مـرشداي، وقد أعادا إليّ ذكرى

تمنية[١]. وقد ارتفعت أمامهما سلسلتا الجبل الأسود والقهرة، كما أسماها مرشداي، برزت جيسان الغربية، من عند ليتان، الذي ورد ذكره، منطلقة من عند قاسم مشترك مع مسيل بالاسم نفسه يتجه إلى أسفل، إلى راحة، مائلاً عبر حافة منحدر الجرف عند مروره بأكتاف شيبة الخارجية لينبعج في رأس شعب السهوة الذي يقع أسفلنا (يقبل من جهة الجنوب)، قليلاً فوق التقائه مع وادي بيش، في المكان الذي يدخل منه مضيق ضلع إلى النظام نفسه. يتكوّن المنظر الذي يشاهد أمامنا، حقيقة، من سلسلة من سلاسل متقاطعة متوازية متجهة نحو مجرى بيش على الجانبين. شمخت القمة النبيلة لفيفاء إلى البعيد، وهي أعلى من تلك القمم التي تشاهد على الجانب الأيسر من بيش وتتكون من: حمار، والغول، وأثيث، وغيرها -أي تجاه جنوب الجنوب الغربي- ومعها شقيقاتها العملاقة والتي كانت أسماؤها غير معروفة لمرشدي.

كانت الساعة الثالثة عصراً قبل أن ننتهي من مهمتنا في شيبة ونبدأ نازلين المنحدرات الجنوبية اللطيفة، المتجهة ناحية قرية راحة التابعة لآل لوي. واصلنا سيرنا على الأقدام مدة ساعة إلى المجرى، الذي كان ارتفاعه هنا (٧٧٠٠) قدم فوق سطح البحر، عند منتصف المسافة بينه وبين القرية العليا من قريتي بقعان، وكانت كل منهما على مسافة نصف الميل من موقعنا. وجدنا جمالنا تنتظر بصبر، ثم عبرنا منحنى الوادي وكنا نسافر بصعوبة فوق الصخور البركانية. كان كل الوادي أعلى من بقعان ممتلئاً بحقول الذرة الصفراء والشعير وكلها جاهزة للحصاد. كانت بقية الحقول غير جاهزة بعد وكان الدخن نصفه مكدس ونصفه

---

(١) تمنية: ـ إحدى مناطق شعف شهران، هي تبعد عن مدينة أبها حوالي (٣٠ كم) جنوباً وتعد من أجمل المناطق السياحية في منطقة عسير. (ابن جريس).

الآخر ينتظر المنجل. كما كان هنالك الكثير من أشجار التين وبعض أشجار الرمان المبعثرة وأشجار أخرى.

تتبعنا مجرى الوادي الذي يتجه ناحية الجنوب الشرقي حينما عدنا إليه مرة أخرى، والذي لا يزال يخترق حقول الشعير والدخن والذي كانت فيه الطبقة المحمرة البياض (بوكسيت) بارزة عند قاعدة منحدراته السهلة البازلتية، على الجانبين. استدار المجرى أكثر ناحية الجنوب وقد انحصر عند المنحنى ومن أعلاه بآبار من بازلت والتي تقع فوقها مجموعات من شجيرات العثرب وهي مزهرة، ووردية وجميلة جداً. كان لون الرمال في المجرى في هذه اللحظة أسود عند وأسفل موقع التقاء ثلاثة شعيبات تكوّن رأس راحة. هي: شوقبه على اليسار، والأبتر في الوسط، وآل عيفة على اليمين، مكوِّنة في موقع التقائها حوضاً ضحلاً. وصلنا بعد مسيرة خمس دقائق إلى أعلى مجرى عيفة الذي كان مكسواً بحقول الشعير إلى حدود القرية، وصلنا كذلك إلى نهاية عمل اليوم. كان معسكرنا قد تم إعداده فوق أرض غير مزروعة على بعد (٢٠٠) ياردة من حد القرية الصغيرة وبعيداً عن عمليات الطبخ التي كانت تجري قبل غروب الشمس لهذا اليوم من رمضان. كانت هذه مسيرة يوم كامل لبعض رفاقنا تحت ظروف الصيام، غير أنني فيما عدا الامتناع عن التدخين، لم أحسّ بأي مضايقة ولما كان لدينا أكثر من ساعة كاملة قبل الإفطار فقد انطلقت في جولة استكشافية.

لا يمكن تمييز منازل القرية بين بساتينها ما عدا برج مربع بارز. كانت تحتوي على أشجار تين متخشبة، غير أنني لاحظت أن مواد بناء المنازل هنا، كما في العديد من القرى الصغيرة إلى أسفل، تحتوي على نسبة معتبرة من الصخر المحمر مع شيء من البياض ليخفف كآبة البازلت الشائع. انتشرت حقول الذرة الصفراء

عبـر الوادي، مع قليل من مـساطب ترابيـة عند رأسه تكونت مـن اتحاد مسـيلين صغيرين، ينحدران من عند كتف مسورة، والمحجر من جهة الغرب ومن هيجة من جهة الجنوب الشـرقي. يصرف كل من الأبتر وشوقـبة إلى أسفل، سفـوح مسورة تجـاه الجنوب الشرقي، غـير أن حـوض آل عيـفة مـحصـور داخل دائرة من تلال منخفضة، حددت علينا مجال الرؤيا في كل الاتجاهات. كان الارتفاع عند آل عيفة نفسها حوالي (٧٨٠٠) قدم فوق سطح البحر، بينما كانت رؤوس كل من المحجر وهيجة وكلاهما معاً يـعدان الرأس المؤثر لوادي راحة ومن ثم لوادي تثليث، فهما يرتفعان فوق ذلك بحوالي (٢٠٠) قدم.

وصلنا الآن إلى ارتفـاع (٨٠٠٠) قدم فوق سطح البـحر لأقـصى حد ممكن لتـثليث وهو أعظم وأطول وادٍ في الجزيـرة العربيـة، يبدأ من هنا على مـرأى من البحر الأحـمر -في يوم صافٍ جميـل-، ويجري شمالاً مسـافة (٣٠٠) ميل ثم يدور ناحية الجنوب الشرقي عبر وادي الدواسر والربع الخالي على الخليج العربي. من المؤكد أن الطول الإجـمالي لهـذا الوادي أكثر من (١٠٠٠) مـيل. لقد رأيت الآن ثلاثة أقسام معتبرة من تثليث في مساره شمالاً، والآن ولأول مرة يمكن وضع مساره على الخريطة مع درجة من الدقة. يتقاسم شعيب شوقبة مستجمع الماء الذي يقع على مـسافـة الميل الواحد من هذه المنابع، مع وادي الحـمرة وهو واحـد من المصـادر العديدة لوادي حـبونا. لم ير أوربي غـيري أي جـزء من هذين الواديين العظيـمين. شـعرت بنشـوة الارتيـاح وأنا أرى شـمس يوم صيـامنا الثـاني وهي تغرب[1].

(١) للمزيد من الإيضاح عن وادي تثليث انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢، ص ٤١٣ ــ ٤٢٨ . (ابن جريس).

بدأت السحب تتجمع في السماء قبل الغروب، وقد سقطت بعض القطرات بالفعل. أفطرنا بالأسلوب التقليدي، حبات من التمر وفناجين من القهوة حول نار المعسكر قبل صلاة المغرب وقبل العشاء، وكنا نجمعهما دائماً أثناء السفر. ثم تعشينا وقد اجتمع كل من القمر والزهرة والمشتري في مثلث منفرج الزاوية في مساحة خالية تقع بين السحب وكأنها تراقب ما كنا نقوم به. اكتظت السماء بالسحب سريعاً، وكان عليَّ أن ألزم الصبر حتى ينكشف السحاب عند منتصف الليل لأقوم بملاحظاتي حول النجوم. أدرك النوم كل المعسكر وكل القرية الصغيرة بينما ظللت أنا ومعي سعد نعد المزواة لنثبت موقع تثليث.

صحونا مبكرين لنتناول السحور قبل بداية صيام يوم جديد وعدنا إلى نومنا بعد أداء صلاة الفجر وكانت الشمس قد ارتفعت عندما دبت حركتنا مرة أخرى. لم يكن الجو بارداً أثناء الليل حيث كانت الدرجة الدنيا (٣٧) درجة. بدأت صعود مسورة مع مرشدي بمجرد أن أحسسنا بدفء شمس الصباح، تاركين البقية يخلدون للراحة في المعسكر إلى حين عودتنا. لقد أزعجنا سرباً من طائر الحجل كان داخل حقول الذرة الصفراء أثناء سيرنا عبر مسيل محجر الصعب، كانت أشجار التين ممتلئة بمجموعة من طيور السوادية والبلابل، ويبدو أنها كانت تستمتع بالتقاط الحبوب. كانت طيور الأبلق وافرة على سفوح الصخور وعلى أطراف المزارع، متضمنة النوعين النموذجي والجنوب الغربي (O.S.bottae). (O.lugentoides) وجدت عند رأس المسيل منبع محجر آخر، ناحية اليمين، يجري أسفل الجانب الشمالي لسلسلة عيفة ليتصل مع راحة عند المنحنى الحاد أعلى قرية آل لوي[1].

(١) ربما يطلق أيضاً على قرية آل لوي اسم (آل الهويج). (ابن جريس).

تتبعنا الآن الكتف الأسفل لمسورة تجـاه الجنوب مارين برؤوس هيجة، ويقع الجرف الرئيس لها على يميننا، يسقط في مدرجات منحـدرة من صخور سوداء إلى مضيق شعيب الغول والذي كان يزدهر بالشجيرات والأشجار الخضراء. كما كانت الهاوية كالحة المنظر.

وصلنا الآن إلى ما يـبدو أنه المستـوى العام لحاجـز قمة الـسراة، الذي يكوِّن حافـة الجرف وقد برزت فيـه النقاط العاليـة مثل شيبـة ومسورة وكأنهـا أهرامات عظيمة.

قابلتنا فـتاة راعـية أثناء هبوطنا إلى قـاعدة مسـورة، وهي من قبـيلة سنحان وكانت ترعى قطيع أغنامـها في هذه المرتفعات المنعزلة وقـد تبادلنا معها التـحيات ولولا الصيام لكان صـاحَبَها جرعات من اللـبن. كنا على ارتفاع (٨١٠٠) قدم، عند هذا الموقع، فـوق سطح البحر ولم نجـد صعوبة في الصـعود إلى القـمة التي ترتفع إلى (٤٠٠) قدم. كانت القمة عبارة عن مسطبة مسطحة صغيرة تنتشر عليها جلاميد ضخمة وألواح من بازلت يصل قطرها إلى حوالي (١٠٠٠) ياردة. كانت الصخور هنا مغناطيـسية للأسف، كتلك التي شاهدناها في قرن سـبط، وقد أحسست بعدم الارتياح لأداء بوصلتي واتجاهاتها غير أن المنظر مرة أخرى كان عظيماً.

كان منظر حاجز السراة، كما يرى من هنا، ناحية الشمال، منسقاً على شريط يبدأ من عند شيـبة إلى الشمال الغـربي من موقعنا وليس بالبعيـد منا وينتهي عند مرتفعات تمنيـة وأبها ناحية غرب الشمال الغربي، بينمـا توجد في الاتجاه المعاكس السلسلة العـالية البركـانية التي تسمى مـرعة والتي يقال: إنهـا تطل على باقم من ناحية الغرب، وتقع فعلياً ناحية الجنوب.

ويبدو أن حافة الجرف داخل الأراضي العربية السعودية من عند الحدود في ممر علبين إلى مرتفعات أبها، تكون وتراً لطيفاً، يتجه ناحية الجنوب الغربي ليحتضن البانوراما الرائعة لقمم الجبال والسلاسل العالية والمضايق العميقة التي تؤلف مرتفعات تهامة، هذه المساحة التي تختلف كثيراً من السراة العارية من حيث الطقس ومن حيث مجموعاتها النباتية والحيوانية. أنها تنتمي إلى الإقليم الأثيوبي تحت المداري ولا تنتمي إلى الجزيرة العربية، وتبدو كأنها شريحة من الجبال الأثيوبية قد تركت على الجانب الخطأ للمياه وذلك حينما تكون وادي الصدع العظيم بعد مخاض الأرض في العصور القديمة(١). وقف جبل فيفاء، من هذه الجبال العظيمة، في شموخ ومعه كل من حشر ومنجد وزهوان وقمم عالية أخرى كثيرة وسوف أتجول بينها كثيراً ولأسابيع كثيرة.

يجري الشريان العظيم لوادي بيش في وسط هذه المساحة الضخمة مع عروق جانبية له تربطه مع الجبال من على الجانبين. يصرف جزؤه الشمالي ناحية البحر عن طريق وادي بني شعبة متجهاً نحو شعيب ضلع بالقرب من أبها. كان الشريان الرئيس النائي، فيما يلي هذا، ويقع خارج نطاق الرؤيا، هو وادي حلي، بينما في الجنوب وداخل حدود مجال الرؤيا، فإن المرتفعات كانت مجرّحة بروافد وادي جازان. سيتم وصف كل هذه بتفاصيل أكثر في فصول لاحقة(٢).

(١) عن تضاريس بلاد السروات وبخاصة المنحدرات الغربية منها انظر: عبدالرحمن الشريف. **المرجع السابق** جـ٢، ص٢٧٥ ــ ٣٨٨. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الاطلاع عن الأدوية التي تصب من بلاد السروات ناحية الغرب حتى البحر الأحمر، انظر: محمود شاكر. **المرجع السابق**، ص١٣ وما بعدها، عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، حـ٢، ص ٥٣ وما بعدها. (ابن جريس).

تقع المنابع العليا لوادي حبونا على الجانب الآخـر، ناحية شرق ضلع السراة، وذات أهمية كبـيرة لي ذلك لأننا سنهبط إلى هناك قريباً بمجرد فراغنا من مـسحها من أعلى، وهي تنهض في دائرة تتـجه ناحـية الشرق لـلجبل عند ما يـقدر بست نقاط ويجري عبر الهضبة الحجرية الرملية المكسرة وغير المنسقة إلى مضايق صخرية تقود إلى أسفـل إلى حيث الوادي العظيم. نبدأ برأس شعـيب مقم الذي يقع عند سفح قرن سـبط - أو بدلاً من ذلك من عند رأس الخانق -بدر- قاب فيـما يليه- فإن أكثر المنابع أهمية هي:

١- سلسلة مرحض وتقع على بعد أربعـة أميال من مسورة، وعرن جنـوبي قعمة القلح الذي يكون رأس وادي الحمرة وهو ينساب إلى قرى الطلحة.

٢- الفرع الشرقي لمسيل شوقبة الذي ينحدر إلى وادي الحمرة عند سفح مسورة.

٣- شعيب قحـيث وهو مسيل على الجانب الشمالي لمسـورة، يصعد بالكاد نصف الميل عن القمة، ويجري مـتعارضاً أسفل الجبال ليـتصل مع شعيب الدرة الذي يهبط من قمـة رميح من عند القريتين التوأم التابـعتين لآل ثابت، ومن عندهما ينسـاب ليتصل مع الـطلحة أعلى منفـذه بين حقـول وبساتين كل من المحـجر وطرف الذراع.

٤- شعيب آل فـروان، وبه قرية ابن داهش الصغيرة (آل فـروان) وتقع على جانبه الأيسر وينساب مـستقيمـاً إلى موقع آخر من جوانب ششـات. تتقارب كل هذه عند مضيق الضيقة الذي يقع مباشرة أسفل طرف الذراع لتكون مجرى أم طرا، والقرى التي تقع أعلاه، والتي تشتمل على الطلحـة وغيرها بالإضافة إلى تلك

التي ورد ذكرها، وتسمى كلها في شمولية «الغيل»[١]. يمكن بالكاد رؤية مجرى ظهران من هذا الموقع، ويمكن تأخير الحديث عن اتصاله مع الروافد المختلفة فيما يليه ومع حبونا إلى الفصل الآتي.

أشرت إلى أن سلسلة السراة وقممها كانت بصفة عامة عارية، وأن التأثير الذي تتركه في المرء هو الجفاف مقارنة مع الغطاء النباتي الثري للأودية ولسفوح الجبال الواقعة ناحية الغرب. كانت هنالك بعض أشجار العرعر، حتى في الأطراف السفلى من مسورة، وليس، حسب معرفتي، في شيبة التي لم أرها منذ مغادرتي مقاطعة أبها، كما كان هنالك غطاء نباتي خفيض وبكثرة خاصة في المسايل المناسبة له وفي الصدوع منها أشجار الطلح والشث والجبر والثول والطباق والحوشة والمستعار (نبات حساس) والعشرب وردي الأزهار[٢]. كان النباتان الأخيران متوافرين بكثرة خاصة حول حقول آل عيفة التي قد عدنا إليها الآن وذلك لمواصلة مسيرتنا إلى الحوض الأعلى لحبونا. لقد اكتشفنا، على الأقل، منابع تثليث، وقمنا بوضع الحل للمشكلة التي كانت قد شغلت الجغرافيين مدة قرن كامل.

---

(١) الطلحة:ـ قرية في بلاد قحطان لا تتبع (الغيل) الذي يجمع اسمه عدد كبير من القرى. (ابن جريس).

(٢) جنوبي البلاد السعودية تمتاز بغطاء نباتي جيد، فيوجد بها مئات الأنواع من النباتات والأشجار المختلفة في الأشكال والألوان والاستخدام، للمزيد انظر: **كتاب النبات للدينوري** (عدة مجلدات)، فريدة قدح، **الغطاء النباتي الطبيعي في الإقليم الجنوبي الغربي**، ص ٢٨ وما بعدها. (ابن جريس).



الفصل الحادي والعشرون

المنابع العليا لحبونا[1]

تمتلك شـوقبة رأسين يتـجهـان في ناحيتين مـتضـادتين من عند ممر يقع على الطريق الرئيس بين ظهران والطلحـة ناحية الجنوب وبين قرية الحرجـة وقرية راحة تجاه الشـمال. كان المجرى الذي يقـود إلى راحة أسفل حقـول آل عيفة قـصيراً، وصعبـاً ومنحدراً بلطف، بينما كـان الثاني طويلاً ومنحدراً بهـبوط (٣٠٠) قدم، وكان طريقه صعباً بصفـة بارزة (للحيوانات) ويقود إلى أسفل إلى الرؤوس العديدة لشعيب الحمرة. هبطنا راجلين تاركين الجمال لتجد الطريق المناسب لعودتها.

وصلنا بعد هبوط ١٥٠ قدماً إلى قمة صخـرة محمرة مشربة بالبياض ويطلق العرب عليها اسم مغر ويستخـدمونها على شكل مسحوق في الأغراض البيطرية - وهي صخرة ناعمة وسهلة الانسحاق تمتد إلى مسافة أسفل تماسها مع البازلت الذي يعلوها، غيـر أنها تتصلب إلى صـخرة ناعمـة بيضاء وصلبـة عندما تكون وسطاً وتعود مرة أخرى للتكسر حين تعلو هي فوق صخور جرانيتية والفلدسبار المكشوف من أسفل. تعرف الخـبراء في المتحف البريطاني على الصخرة بأنهـا بوكسيت بناءً على العينة التي كنت قد أرسـلتها إليهم، وهو خام الألومونيـوم. وقد وجدته في وقت لاحق متكشـفاً على الجانب الغـربي لحاجز السـراة ويستنتج من هذا أن هذا العرق من البـوكسيت الذي يبلغ عـمقه، حوالـي (١٠٠) قدم يمتد أسفل امـتداد

(١) لمزيد من الإيضاح عـن وادي حبونا ومنابعـه وفروعه، انظر: عـبدالرحـمن الشريف. **المرجع السابق**، جـ٢، ص ٤٠٧ ـ ٤١٠. (ابن جريس).

القلنسوة البازلتية للسراة والتي يبلغ طولها (١٠٠) ميل من ناحية الشمال إلى الجنوب ويبلغ عرضها حوالي الميل الواحد. تمدنا عملية حسابية سريعة بالحجم الكلي للصخر بما يقدر بـ (٧٠٠٠) مليون طن شحني، ولا أدري كم من البوكسيت سينتجه هذا، أو حقيقة، إن كان مربحاً تجارياً. خطر لي أنه من المجدي إجراء التعدين ثم نقل المادة على الطريق الجبلي الرأسي. سيكون إنشاء طريق مكلفاً جداً بلا شك، ولكن هنا -مع ذلك- فيبدو أنه مصدر لم يستغل بعد من مصادر الثروة الطبيعية.

يقع رأس هذه الأرض التي تسمى شعيب الحمرة حوالي ميل واحد إلى الخلف ناحية الشمال الغربي، وبعد أن امتطينا دوابنا سلكنا مساره الشرقي إلى أسفل عبر غابة خفيفة وكثيفة من أشجار الطلح تقف في وسط خليط من جلاميد جرانيتية، تذكرني مرة أخرى، ببلاد الطائف. اعترضت طريقنا عشرات المسايل الصغيرة المنحدرة من عند سفوح الجبال وذلك أثناء ما كنا نقترب تدريجياً من مجرى حمرة الرئيس الذي يجري إلى يسارنا إلى أسفل إلى وسط حوض ضخم غاطس بين آبار من صخور بركانية أكسبته مظهر الفوهة البركانية الضخمة. كانت هنالك خيام مبعثرة في المسايل الأكبر وهي: عين البقرة وشعيب دخس، تدخل مجرانا من ناحية الغرب، ممرنا بأناس ربما كانوا رعاة يرعون قطعانهم في هذا الغطاء النباتي، بينما مررنا من حين لآخر بمجموعات منهم راجلين ومرحين أو هم على ظهور الحمير عائدين من سوق طلحة الأسبوعي وهو سوق الأربعاء. لقد منعتنا زيارتنا إلى قمة مسورة من هذا النشاط، وكان النهار قد تقدم كثيراً. كانت المسيرة أحياناً صعبة جداً في مسارات ضيقة جداً بين جلاميد بينها أشجار الطلح ذات أشواك رهيبة.

تركنا المجرى الآن لنجد أنفسنا مرة أخرى في رافد آخر من روافد الحمرة، وهو شعيب النقيل الرملي الضيق الذي تحيط به من على الجانبين سلاسل جرانيتية عالية، تقع سلسلة القرارة العليا من خلفها على مسافة ميل واحد على يسارنا، ويجري تحتها -كما قيل لي- طريق وجد أنه مناسب لحركة سيارات الأمير سعود وجيشه أثناء حرب اليمن. جاءت السيارات من أبها، أغلب الظن أنها كانت سالكة طريقنا هذا حتى الأمواه ومنها إلى الفيض ومنها إلى الطلحة وظهران. ربما كان الطريق من الفيض إلى الأمام هو درب الفيل القديم. يتصل النقيل مع مجرى آخر يسمى الحنكة الذي مررنا فيه بواسطة طريق مختصر فوق أرض صعبة جداً من جلاميد ضخمة وقادنا إلى سلسلة منخفضة وإلى مضيق. ترجلت عن دابتي لأسير على قدمي صاعداً أتفقد أكوام الحجارة العديدة على جانبي ما يبدو وكأنه ممر شيد بعناية، غير أنني لم أجد معنى يفسر هذا، وكان بمقدورنا أن نظل في المجرى إلى الموقع الذي ينبعج فيه مع شعيب الإصادين من ناحية الشمال والغرب بالتتابع ويجري إلى داخل حوض الحنكة. يعني الاسم «ضيق»، والذي يشير بوضوح إلى ذلك الممر الضيق مهما كان مغزاه في الأزمان الغابرة.

ضربنا في سيرنا فوق منحدرات حجرية منخفضة، بعد أن تركنا المجرى يواصل مساره إلى الحمرة، أيضاً تسمى القو، تقع على جانبه الأيمن، الذي تشاهد عليه آثار إطارات سيارات عبرته قبل عامين، لا تزال معلمة فوق سطحه الصلد. كانت الآثار تتجه ناحية الجنوب الشرقي ولكنها لم تصمد أمام خط الصرف التالي، وهو فرع آخر الإصادين الذي استدرنا فيما يليه ناحية الشرق إلى أسفل

(١) لقد أعطت الدولة مؤخراً فرصة التعدين للمستثمرين في البلاد، والأجزاء الممتدة من الحجاز حتى اليمن غنية بمعادنها الجيدة والمتنوعة. (ابن جريس).

إلى حيث شعيب آخر لنصل إلى مصرف الحمرة الرئيس في أرض تسمى وادي الأفياض، وهي فرجة جميلة يبلغ عرضها ميلاً واحداً وكانت أرضيتها من رمال وردية جميلة وعلى الجانبين وقفت سلاسل صخرية كان طير الحجل الذي كنت قد اكتشفته متوافراً فيها.

يمكننا الآن أن نرى الطلحة أمامنا وقد وصلنا إليها خلال عشر دقائق وذلك قبل غروب الشمس بقليل لنعسكر بجوار أشجار الطرفاء الكبيرة في بطن السيل الرملي لأحد المجاري العديدة التي تصب هنا والتي تكون حوضاً ذا اعتبار لحقول القرية. لم نتمكن من الذهاب إلى السوق، غير أنه يبدو أن بعض الزوار من خارج المنطقة قد تخلفوا مع مضيفيهم لتناول إفطار رمضان معهم ولقضاء الليل. كان اسم أحدهم ابن داهش وهو رئيس شعيب آل فروان الذي أقبل ومعه رئيس الطلحة[١] واسمه ملفي[٢] ليتفقدانا بعد عودتنا. لقد دعوتهما لمشاركتنا طعام الإفطار، غير أنهما لم يستطيعا ذلك، إذ كان ملفي يتوقع ضيوفاً آخرين ينتظرونه في منزله، وقد غادر كلاهما قبل غروب الشمس. يبدو أن الطرفاء الكبيرة التي عسكرنا تحتها كانت هي الوكر للصقر المحلي الذي راودتني الآمال أن أضيفه إلى مجموعتي. ولكن هذا لم يحدث.

أقبل الطائر العظيم في حذر على ارتفاع كبير، وأحس بأن هنالك شيئاً غير طبيعي يحدث عند شجرته، ومن ثم طار لحال سبيله غير أنه عاد مرة أخرى ليجدنا لا نزال محتلين الموقع، وأخيراً اختفى تماماً ليبحث لنفسه عن سرير في موقع آخر لقضاء الليلة. كانت طيور الغداف هنا من الصنفين المعروفين في الجزيرة العربية

(١) يسكن الطلحة فرع من عشيرة آل منصور اليامية، وهم داخلون بالحلف في قحطان، ولهم خصوصيتهم، كما يسكن الطلحة أيضاً أسر من قبائل وادعة وقحطان. (ابن جريس).

(٢) ملفي، يسمى ملفي العرام، وهو من أعيان قرية الطلحة. (ابن جريس).

الصنف الجبلي أو المروحي الذيل والصنف الصحراوي الشائع البني الرقبة. كان كلاهما وافراً هنا وكانت كلها عائدة لمأواها وجاثمة بإزعاج لقضاء الليلة.

كان ابن داهش رجلاً ذا تأثير، قوياً وذا ميول أرسطوقراطية قد أسرّ إلينا بفخر بأننا لم نعد في أرض قحطان، بل نزلنا ضيوفاً على قبيلته العظيمة وادعة[1]، والتي مثلها مثل قبيلة يام وقبيلة دهم وغيرهما تكون قسماً مستقلاً ومهماً للأصل التاريخي العظيم لهمدان بن زيد. تشق الحدود القبلية بين وادعة وسنحان خطوط صرف لكل من الإصادين والحنكة وتعبر فوق خط الحمرة عند الطرف وباتجاه أعلى الوادي لأفياض لتواصل الانسياب إلى حافة الهضبة العالية. يستمر خط الحمرة - والأفياض، وعلى جانبه الأيمن تقف قرية طلحة عند منفرج المجرى الصغير الذي عسكرنا فيه فوق منحدرات سلسلة تسمى الخيالة، وأيضاً يطلق عليها اسم الطلحة ومنها إلى قرية طرف الذراع حيث تصبح مضيقاً يسمى الضيقة والذي بدوره يصبح شعيب مرار في قرية تسمى ملحة، ثم يستمر عبر أم قرة إلى مجرى الخانق عند قرية القرن. ومن عند هذا الموقع وإلى بقية الأجزاء إلى أسفل فهي أرض تابعة لقبيلة يام خالصة، بينما إلى اتجاه أعلى الوادي بما في ذلك ملحة فهي أرض تابعة لقبيلة وادعة.

تقع قرية الطلحة، التي تحتوي على (٢٠٠) منزل وعدد من السكان -بما في ذلك قاطني الأبراج المبعثرة- حوالي (١٠٠٠) نسمة، في المنحنى الذي يكونه مجرانا هذا الصغير وفي الوادي الرئيس على هضبة مرتفعة قليلاً بين حقول مستوية

---

(١) قبيلة وادعة من القبائل الرئيسة في بلاد قحطان، وشيخهم الرئيس هو ابن دليم، مع العلم أن قبائل وادعة لها العديد من المشائخ المحليين، للمزيد انظر: محمود شاكر. المرجع السابق، ص ١٠٥، عاتق البلادي. بين **مكة وحضرموت**، ص٧٤ . (ابن جريس).

واسعة، وتوجد في هذه حصون من حين لآخر تلتحم مع سفوح سلسلة الخيالة وتمتد إلى مسافة مع اتجاه أسفل الوادي في شكل وتر لتنتشر من حول القرية. أحسست بسريان الحياة الطبيعية في هذه القرية وهو إحساس لم أجده في أي قرى أخرى تابعة لسنحان أو شريف التي كنا قد عبرناها، وكانت بها مساكن يبدو أنها حديثة إذ إنها مبنية بعناية وقد برزت فتحات نوافذها داخل إطار مستطيلات عريضة من الجير الأبيض، كانت القرية متعرجة إلى حد ما وبها مجموعة من المنازل التي تبدو وكأنها مهجورة[١].

يلتف طريق السيارات حول سلسلة الخيالة المسننة حيث علامات دواليب السيارات واضحة، ليواصل مسيرته إلى وادي الطلحة وإلى قرية المعلف الصغيرة على بعد مسافة ميل واحد. ثم يضرب إلى أعلى شعيب القحيف قبل أن يتفرع. يصعد الفرع الأيمن الذي ستتبعه إلى السفوح السفلى لشثاث إلى مضيق يقع بينه وبين السلسلة المجاورة (للقهرة)، ثم يهبط عبر طريق صعب إلى ظهران. أما الفرع الآخر الأيسر والذي سلكته سيارات الأمير سعود في طريقها إلى سهل الحماد على الحدود بالقرب من النقعاء، فهو درب الفيل، ويصعد مجرى شعيب قاوية إلى ممر منخفض من سلسلة القهرة وسلسلة بياح[٢]، ثم يهبط إلى قرية المجزعة في وادي العرين، تجاه الوادي بالنسبة لظهران ثم يمر عن طريق سلسلة تسمى المصلولة تجاه النقعاء، وأخيراً يتجه إلى صعدة وصنعاء.

---

(١) الطلحة:ـ قرية قديمة وردت في كثير من كتب التراث الإسلامي، وبخاصة كتب الرحالة الجغرافيين مثل:ـ الهمداني، وابن خرداذبة، والإدريسي، وابن حوقل والاصطخري، وابن الفقيه وغيرهم. (ابن جريس).

(٢) بياح: ربما يطلق عليه أيضاً اسم (المبرح). (ابن جريس).

أخبرني ملفي، مرشدي، أن طريق الفيل إلى الشمال من الفيض يمر خلال سهل خبت ومجرى خنقة، ثم يعبر الجزء الأعلى من وادي العرين (ربما عند الغارس) في طريقه إلى طريب وما يليها. كانت معظم التلال المنخفضة والسلاسل في منطقة طلحة من البازلت، الذي برزت سفوحه من عند أرضية رقيقة من الصخر الرملي. تقع طلحة نفسها على ارتفاع (٦٧٥٠) قدم فوق سطح البحر، وقد أحسست بلطافة المساء هنا تحت سماء امتلأت بالسحب منذ غروب الشمس، غير أن مقياس الحرارة سجل أربع درجات من الصقيع أثناء الليل، كما سجل عند الساعة (٨,٣٠) صباحاً وفي الشمس (٦٢) درجة فقط.

لقد تسلقت إلى قمة الخيالة لألقي نظرة لما حوله، وذلك قبل أن نترك المعسكر للمرحلة التالية من رحلتنا، والتي من أجلها تحركت جمال العفش متقدمة علينا. لقد شكرت رفيقي القويين وصرفتهما مع إكراميات لهما مني، وكلاهما ينتمي إلى سنحان، كانا عظيمين، متيني البناء الجسمي، كما كانا نحيلين وشديدي الاحتمال وكانت سماتهما نموذجاً للسامية ولكن للأسف، وقد أدهشني أن أجد ذلك فيهما، فقد كانا متأثرين بعقدة النقص برغم أنهما كانا رقيقي الحديث والسلوك ومتواضعين. يطلق أهل سنحان وشريف شعورهم الطويلة مفرودة أو مجعدة وفي الحالتين فهي مدهنة بكثافة[1]. يصعب التمييز من أول وهلة حقيقة بين العنصرين إلا أن اليهود -وهم قاطنو المدن- كانوا ذوي قامات أصغر مقارنة بهؤلاء الذين يعيشون في الجبال. وربما جرى الدم العربي نفسه في كليهما؛ وذلك

(١) هذه سمة قد تكون منتشرة آنذاك بين أفراد كثيرين من القبائل في نجران وقحطان وبلاد شهران، وأجزاء عديدة من الديار التهامية. كما لا زال بعض التهاميين إلى اليوم في تهامة قحطان وعسير وشهران يطلقون شعورهم حتى يصل طولها إلى (٢٠، و ٣٠ ، وربما / ٥٠سم)، ويقومون على دهنها وتضفيرها، وأحياناً تزيينها ببعض النباتات العطرية المحلية، (ابن جريس).

لأن اليهود الأصليين في جنوب الجزيرة العربية كانوا قد تحولوا من الوثنية القديمة. رافقني أحد الرجال المحليين إلى قمة الخيالة التي ترتفع إلى حوالي (١٥٠) قدماً فوق مستوى الحوض، غير أنني قد سبق لي أن وصفت معظم ما قد رأيت هناك.

تقع قرية محاري الصغيرة[١] مباشرة تحت طرف الطلحة تجاه أسفل الوادي، على بعد ثلاثة أرباع الميل، وتتكون من ٣ أو ٤ مبانٍ أبراجية في وسط الحقول مع وجود بعض أشجار التين وأشجار أخرى على جانبي المجرى. يوجد في قسم الطلحة وعند قاعدة الخيالة، غابة جميلة من الأثل الكبير مبطنة الجانب حول بئر تابعة للقرية. كما تقع، على بعد ميلين ناحية الجنوب الشرقي وعند رأس مضيق الضيقة القرية المتعرجة التي تسمى طرف الذراع، والتي تمتد حقولها وبساتينها مسافة أعلى فوق كل من وادي الطلحة ورافده شعيب القحيف، الذي تقع فيه كذلك وعلى مسافة أربعة أميال ناحية الجنوب الغربي، قرية آل ثابت.

توجد المزرعة ذات البئر والمسماة بئر الطيار على بعد ميلين إلى الغرب من مجرى صغير آخر بينما يبدو أن قرية العار هي استمراراً لطرف الذراع في أعلى القحيف أو في مسيل رافد، وتقع، أخيراً، وفي الطريق إلى ظهران، وعلى بعد ميل واحد قرية المعلف، وهي واقفة إلى الخلف من الجانب الأيمن لوادي الطلحة وبجوار غابة طرفاء ذات اعتبار توجد داخل حقول الذرة الصفراء. لم تكن الملحة، وهي أسفل المضيق، مرئية لنا، إلاَّ أنها تقع قليلاً ناحية الجنوب الشرقي من الطلحة. كان تل شثاث، الذي يبرز من داخل الجدار الرئيس للجبل، وتماماً ناحية الجنوب من موقعنا، بينما كانت هنالك قمة منعزلة أخرى إلى شمال شثاث تسمى

(١) قرية المحاري:ـــ ربما يطلق عليها أيضاً اسم (المهاجرة). (ابن جريس).

عمان الأعلى وهي منبع شعيب راية، وهو أحد روافد وادي العرين الذي يدخله من أعلى ظهران. يهبط مسيل آل فروان من الدارة، وهي عبارة عن سنام على سلسلة السراة المسطحة البركانية.

سرنا حتى المعلف وإلى ما يليها سالكين طريق السيارات الذي كان أيضاً هو «طريق الفيل». تفرع الطريق واتخذنا الجانب الأيمن منه ناحية منحدرات سفوح شثاث إلى حيث يوجد ممر تحيط على يمينه صخرة بازلت مربعة القاعدة ينهض من فوقها التل. كان ارتفاعنا هنا (٧١٠٠) قدم فوق سطح البحر ثم هبطنا على المسيل الصخري المسمى المعيجب الذي قابلتنا فيه جماعة من سنحان عائدين من سوق الخميس في ظهران، التي تبدو لنا عن قرب. يجري المعيجب داخل شعيب السد الذي كنا قد دخلناه على بعد نصف الميل أعلى قرية آل جبير وعبرنا إلى المنحدر المقابل، والذي من عند قمته نظرنا إلى أسفل إلى حيث البلدة. ثم عبرنا حول حافة ساحة السوق خلال دقائق وقد كان السوق عامراً بالناس، ثم مررنا عبر البلدة – التي كانت أكثر قليلاً من مجرد قرية– لنعسكر في مجرى وادي العرين حوالي (٦٧٠٠) قدم فوق سطح البحر.

أسرعت لأرى ما أقدر على مشاهدته حيث رأيت واحداً من أفضل الأسواق وأكثرها حيوية مقارنة بكل الأسواق المحلية، وعلى الرغم من أن كل الناس كانوا –بالطبع– صائمين. لم يكن العنصر النسائي واضحاً، غير أن الرجال كانوا مرحين وطروبين، وكانت التجارة كما هو واضح لنا، جيدة[1]. ترك معظم الناس

---

(١) شاهد فيلبي التجارة النشطة عندما دخل السوق المحلي بقرية الطلحة في بلاد قحطان. ونستطيع القول إن معظم الأسواق الأسبوعية في جنوبي البلاد السعودية كانت نشطة خلال العقود الماضية من القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الهجريين، والسبب في ذلك يعود إلى عدم وجود الأسواق المحلية الدائمة (كما نشاهد اليوم)، ثم إن سكان القبائل كانوا لا يجدون غير هذه الأسواق للممارسة تجاراتهم من خلالها. (ابن جريس).

مساوماتهم عند وصولنا، واصطفوا بجمهرة كثيفة على حافة ساحة السوق ليرونا ونحن نعبره. توجد لديهم هنا صناعة مثيرة للاهتمام ألا وهي صناعة القدور والمقالي المنزلية من حجر أخضر رمادي، وهو نوع من الحجر الصابوني - يقلع من المحيط الصخري المجاور. يمكن وضع هذه القدور بعد دهنها جيداً بالشحم أو الدهن، فوق النار لأغراض الطبخ. كما يصنع أناس هنا معاطف نسائية مريحة من جلود الحملان ويكون الصوف الطبيعي إلى الداخل ويزخرف الجلد بخياطات ملونة، أما في حالة معاطف الرجال، فهم يستخدمون جلد الأغنام الخشن ويكون الصوف فيها إلى الداخل مثل البوشتين الأفغاني. كانت المعاطف النسائية قصيرة ولا تصل إلى أسفل الخصر. كما كانت أعمال الحديد والفضة في ظهران في يد أسرة يهودية واحدة مكونة من ثمانية أشخاص ويسمى رئيسها جميلاً وهو الذي كان قد زار نجران حينما كنت أنا هناك. وقد صنع لنفسه الآن طقماً كاملاً لأسنان صناعية للفك الأعلى، من الفضة، وكان في ذلك إرضاء كاملاً له.

كان من حظي أن أجده مقيماً هنا وذلك لأنه كان ميالاً لقضاء معظم وقته في صعدة. لقد وقعت لي كارثة كبيرة في طلحة وذلك حينما كنت مشغولاً بملاحظاتي للنجوم بمزواتي حينما توقف النابط التانجستي، وقد فشلت كل محاولاتي لإعادته للعمل. بدا لي وكأنها نهاية أعمالي في ملاحظة النجوم. وهو أمر محتمل ملأني بالرعب، وذلك لأن بوصلته موشورية ولا يمكن تحديد قيمتها، وتحتاج إلى عمل دقيق أكثر لتعطي القيمة الكاملة لنتائجها، خاصة في حالة الشوشرات المغناطيسية في بلاد بازلتية مثل هذه الأنحاء. كان سعد هو الذي شاركني الحزن وهو الذي قدم لي الاقتراح بأنه إذا كان ذلك اليهودي لا يزال في ظهران، فربما استطاع أن يصلح التلف. وقد وجدناه في ظهران، هذا حقيقة، غير

أن جميلاً بدا كئيباً جداً حينما رأى الأداة التي لم ير مثلها من قبل قط. أريته النابض التانجستي، غير أن كل ما عمله هو كان الوعد بالتفكير في الموضوع. حضر إلى معسكرنا صباح اليوم التالي ليقول: إنه مستعد لمحاولة التجربة دون ضمانات بالنجاح. جلسنا وجلس هو يراقب حركاتي باهتمام شديد، وأنا أشرح له كيفية عمل النابض وكيف أنه لا يؤدي هذه الوظيفة الآن. ثم قمت بتفكيكه من الأداة بعد ذلك وفككته أكثر إلى أجزاء صغيرة. التقط جميل هذه الأجزاء بعناية ثم ذهب. كانت أمامه فترة عشرة أيام للفشل أو النجاح، وذلك لأننا كنا نعد العدة خلال هذه الفترة دراسة لمسح الحدود.

كنت أقابل في هذه الأثناء بعض زوار السوق، من أولئك الذين قد زاروني في المعسكر. طلب مني محمد بن داهش -من أبناء شعيب آل فروان والذي كنت قد قابلته من قبل في الطلحة، وكان ينوي زيارة سوق الخميس في ظهران، بلطف- أن يكون مرشداً لي خلال الرحلة القادمة. كان الانطباع الحسن الذي تركه في مقابلتنا الأولى لا يزال قائماً، وقد وجدته كما كان رفيقاً جذاباً وذكياً وملماً بالكثير من المعلومات في إطار الأبعاد المحدودة للبلاد ولأهلها، لقد تزوج محمد حديثاً من فتاة بدوية عمرها (١٤) عاماً، وكان يضج متذمراً من هذه الرحلة إلى ظهران تلك التي ستحرمه من صحبتها لمدة (٢٤) ساعة وحتى بعد عودته للوطن في الصباح التالي فإن صيام رمضان سيحرمه من متعة اللقاء بها حتى غروب الشمس. لقد أصبح محمد شديد العاطفة تجاهها، ولم يكن بأي حال رجلاً شاباً، ولم تكن هي، بالطبع، أول زوجاته. لقد توصل محمد إلى حل وسط في النهاية وهو أن يقوم بتأخير عودته إلى المنزل بغرض مرافقتي إلى قمة شثاث في اليوم التالي، ولم نفترق إلاّ عند الساعة (٤,٣٠) عصراً وعند سفح هذا التل ليذهب

كل منا بعد ذلك في طريقه. لقد كان محمد بالتأكيد رفيقاً ممتازاً وقد قدّم لي الكثير مما زاد معرفتي ببلاده.

قام بزيارتي بعد إغلاق السوق كل من ابن كعبان رئيس قرية العر، وابن عرير وهو أيضاً رئيس قرية المجزعة التي تقع إلى أسفل وادي العرين[١]. لدى كل أعيان وادعة العديد من المظالم وكانوا بلا شك يأملون فيّ ويتوقعون مني أن أتدخل لصالحهم مع السلطات. برزت المظالم بسبب تعيين دليم بن محمد بن دليم الذي تولى رئاسة شريف بعد وفاة والده، محمد، فأصبح بذلك أميراً على منطقة هذه الهضبة التي تشمل حرجة وظهران، العاصمة، خلفاً للأمير النجدي الأصل واسمه عبدالله بن عثمان[٢].

لم أدرك وأنا في الحرجة أن صلاحيات دليم قد امتدت إلى ما وراء كل من بلاد شريف وبلاد سنحان، لتصل إلى منطقة وادعة التابعة لظهران؛ لذا، فإن أهالي وادعة محقون في مظلمتهم في تعيين رئيس من قبيلة منافسة لهم -وكانت منافسة لهم في السابق- لموقع السلطة عليهم. كل ما كانوا يريدونه هو إعادة الوضع كما كان في السابق، بإيفاد موظف من الرياض أو مكة أميراً للمنطقة، إذا ما كان الغرض من ذلك هو معاملتها كوحدة واحدة لأغراض إدارية.

لم يكن من حقي بالطبع أن أتدخل في مثل هذه الأمور، غير أنني أرى بالتأكيد أن الشكوى منطقية بما فيه الكفاية، برغم أنه، حسب معرفتي، فإن دليم

(١) ابن كعبان وابن عرير لا زالوا من المشائخ الرئيسين في قبائل وادعة حتى اليوم، وهم وغيرهم من مشائخ وادعة وقحطان يعودون إلى المشيخة الرئيسة عند ابن دليم. (ابن جريس).

(٢) ابن دليم هو في الأساس شيخ قبائل شريف، ثم صار خلال الحكم السعودي الحالي شيخ مشائخ قحطان ووادعة. (ابن جريس).

نفسه، برغم إنه كان أميراً إسمياً على المنطقة، إلا أنه نادراً ما كان يقحم نفسه في بلاد وادعة، التي يبدو أن إدارتها تقع على كاهل كل من محمد بن بريكان، مدير الجمارك والمالية، ومحمد القدسي، مدير قوة الشرطة الصغيرة المؤلفة من (٢٠) رجلاً.

ولد محمد القدسي في أبها. وهو ابن مواطن من القدس وكان قد شغل منصباً رسمياً في تلك المنطقة خلال النظام التركي القديم. وقد كان رجلاً غريب المظهر، صغير الحجم، حقير الطلعة، إلاّ أنه فيما يبدو كان قادراً وحاذقاً في عمله. لقد قابلته في أجنحته المريحة جداً في منزله في البلدة ووجدت أن غرفة الاستقبال لدية كانت نظيفة أكثر من العادة وأنيقة. كانت الأجزاء العليا من الجدران مطلية بالجير الأبيض، بينما طلي الجزء الأسفل بالأخضر الناعم، مع شريط تزييني ملوّن يمتد في خط عريض حول جدران المجلس على أسلوب أبها[١]. كانت الغرفة بسيطة ولكنها أنيقة، وكانت -بلا شك- من عمل امرأة من أبها كانت تشارك زوجها في منفاه في هذه البقعة النائية. تناولنا طعام الإفطار إلاّ أن محمد القدسي قد أصر على تقديم الأطعمة المنعشة إلى جانب القهوة العادية والشاي وكان يمطرنا بالتمر الممتاز الذي جلبه من بيشه، وبالزبيب، وبالرمان الطازج المحلي.

كما احتفى بنا محمد بن بريكان، وأصله من حضر عنيزة، الذي دعانا عنده للإفطار وقدم لنا مأكولات مشهية منعشة، وبعد مضي نصف ساعة، قدم إلينا

---

(١) هذا الفن الجمالي في تزيين المنازل كان منتشراً في عموم بلاد قحطان وشهران وعسير، ورجال الحجر (بنو شهر، وبنو عمر، وبللسمر وبللحمر)، وكذلك عند معظم القبائل القاطنة في أرض السراة بين الطائف ونجران. (ابن جريس).

عشاءً كـاملاً في منزله الفاخر الذي يقع على الـطرف الغربي للبلدة. تناولنا عنده الإفطار المكون من القـهوة مع تمور بيـشة وعنب الخريف الأسـود الذي جلب من صعدة، وبعض اللقيمات الـصغيرة اللذيذة، وهي ضرب من الكعك المحلي المقلي بالدهن. كان العـشاء أساساً الرز الوافر مـع لحم الضأن، غير أن اللحم كـان غير مطهو جيداً وكـان قوياً مع قرع مقلي ومشرح في أطبـاق من صلصة مرق اللحم. كانت وظيفة مضيفنا تنحصر في ضبط وإقرار الضرائب على تجارة البن من اليمن، والتي أصبحت ظهران هي المركز الرئيس لهـا في أراضي المملكة العربية السعودية. كـان البن مصـدر دخل مهم للحكومـة وقـد علمت من محـمد أن تجـربة الريال السعودي كانت قد طبقت ثم ألغيت هنا كما في نجران.

كانت ظهران نقطة حدودية ذات أهمية كامنة على الرغم من أن محمداً لم ير أنه من الضرورة إقامـة حامية عسكرية هـنا، وكانت وظيفة الشرطة الأسـاسية هي ضبط التـهريب عبر الحـدود. كان رجال الشـرطة حتى هذه اللحظة يعيـشون في مساكن سـيئة محطمـة على أطراف البلدة، غير أن محـمد بن بريكان بما لديه من الصلاحيـات قام ببناء نقطة شرطة جديدة على الموقع المسيطر من فـوق هضبة تطل على البلدة. كاد بناء نقطة الشرطة هذه أن ينتـهي في هذا الوقت، وبقيت الزخرفة الداخلية، والطلاء بالجير الأبيض والنظـافة العامة وقريباً سيتم تسليـمها للشرطة. تبدو النقطـة مهيـبة بلا شك، مبنيـة كلها من مواد حـجرية ومن أخـشاب العلب للأعمدة والرافدات. كان تقدير تكلفة الأشـجار التي تم قطعها للحصول على هذا الخشب (٤٥٠٠) ريال ماريا تريزا أو حوالي (٢٢٥) جنيه إسترليني ذهبي. والذي يبدو أنـه مبلغ مرهـق وذلك لأن قطع الأشجار وإعـداد الخشب قـد تم كله على حساب الحكومة.

يسهر الناس إلى وقت متأخر من الليل خلال شهر رمضان، ولقد رتبت برامج رحلاتي المسائية بزيارة إلى جميل اليهودي الذي كان قد دعانا إلى الشاي والقهوة مع الزبيب والرمان. كان الرمان يقدم على هيئة بذور في الصحون وكانت حبوبه طازجة هذا الوقت، غير أنها هنا في ظهران يتم تخزينها بعد الحصاد وتدوم بسهولة من موسم إلى آخر دون أن تفقد مذاقها - كانت الثمار صغيرة ولكنها حلوة جداً. شاركنا في تناول الوليمة ابنا جميل وهما ولد وبنت غير أن زوجته لم تظهر إطلاقاً. غير أن مما لمحته عنها أثناء غسيلها للصحون، يدل على أنها جميلة جداً، وامرأة شابة. يبدو أن هذه الأسرة، إذعاناً لقيود رمضان، ظلت تحافظ على ذلك، برغم أن هذا الإذعان قد لا يكون ملزماً لها.

تقع ظهران على أرض عالية على امتداد الجانب الأيسر لوادي العرين، الذي كان عبارة عن صخرة من طمي يصل ارتفاعها (٢٠) قدماً مرتداً إلى الوراء بقوة وتبدو أشجار التين وشجيرات أخرى قد ضربت جذورها فيه لتساعد في التصاق كتل البازلت الكبيرة التي كانت قد استخدمت في عمل المنحدر الخفيف. كان المنحدر على جانب الوادي الآخر، البعيد من المجرى سهلاً، غير أنه على كلا الجانبين على مسافة إلى أعلى وأسفل، فإن الحقول والبساتين ذات المساطب قد غطت الوادي. لقد استمتعت بإغفاءة القيلولة في فترة ما بعد الظهيرة في أول يوم لنا هنا، تحت ظل الحائط الحاجز الكبير وقد شعرت بالبرودة عنده، غير أن الجو كان دافئاً في الجانب المشمس من المجرى. كان المساء لطيفاً ودافئاً، بينما جلس كل من جميل والقدسي معي ليستمعا للأخبار التي تبث من جهاز اللاسلكي، برغم أنه كان هنالك صقيع بنسبة ثلاث درجات ليلاً. فقد كان استقبال اللاسلكي ممتازاً غير أن جميلاً لم يكن على طبيعته وهو يستمع إلى الحديث العبري من القدس

الذي وجهت مؤشر الراديو إليه لمصلحته. «اشكانزي! قـالها» كما قالها زملاؤه في نجران.

تبدو المياه في هذا المجرى في شكل غـيل بعد السيول الموسمية، غـير أن الوادي في هذا الوقت كـان جافـاً ورملياً. كـانت آبار ظهران ضـحلة نسبـياً، إذ يتراوح عمقها بين (٤) إلى (٦) قامات، على عكس آبار طلحة حيث يكون عمقها من (١٠) و (١٥) قامة، علماً بأن مستوى الماء في كل الآبار في هذه المنطقة يرتفع في موسم السيول. كان اليوم بصفة عـامة يوماً مريحاً ومملوءاً بالعمل بالنسبة لي، ولماَّ لم يكن لدي عمل خاص بالنجوم، فقد خلدت إلى مذكراتي.

كنت قـد قـابلت في منزل القـدسي رجل دين جـمع بين وظيـفـة القـاضي والكاهن، وهو رجـل ضـخم، سـمين يميل للتـودد والشـحاذة. كـان مبـكراً جـداً -حقيـقة- للوصول إلى معـسكرنا صباح اليوم الـتالي، وقد شحذ بالـفعل، وقد أعطيته ريالاً واحـداً وقبله برشاقة. كان عليَّ أن أنهي أمـوري مع الرجال القائمين على أمر الجـمال الذين رافـقونا من نجـران وقد انتهت الآن عـقود عـملهم. كان الإيجار لعشرة جـمال -وهنالك جمل لم يتضمنه الحساب لإصـابته بالعرج إذ كان العدد الأصلي (١١-) هو (٦٠) ريال ماريا تريزا فـقط لرحلة (١٧) يوماً بالإضافة إلى الطعام لكل من الرجال والجمال على طول الطريق. وقد انصرفوا وكلهم فرح وغبطة بإضافة عشرة ريالات أخرى تعبيراً عن الشكر لهم.

ترتفع شثاث إلى (٨٠٠٠) قدم فوق سطح البحر فوق مخروط ضخم مسطح القـمة من البـازلت، مخرَّم مـن كل الجهـات كأنه أنابيب أورغـان عمـلاق. كان الهيكل العاري للصـخور المعدنية، اللامعة، غيـر الملائم تماماً للغطاء النباتي، ومع

ذلك فإن كل صدع وكل شق فيه كان يبرز كأنه شجرة خليجية، وكان من أبرز هذه النباتات نبات الأغاف ونباتات أخرى سميكة الورق كانت لها المقدرة على الإمساك بالمياه وتخزينها لفترات جفاف طويلة، قد مكنها ذلك من احتلال موقع مسيطر فوق المنحدرات العارية وفوق القمة التي كنستها الرياح. لم يكن الصعود صعباً، فهو صعود إلى مسافة (٢٠٠) قدم من الممر، وقد استغرقت مهمتنا أنا وابن داهش، حوالي ست ساعات نهارية فوق الجبل. لم يكن هنالك ما يدعونا للقلق، وقد منع الصيام عنا كل المنعشات، ولا بد أن نوفر فسحة من الوقت تمكننا من العودة إلى أوطاننا قبل غروب الشمس. كان المنظر رائعاً بحق، غير أن أداء بوصلتي المضطرب تحت تأثير المغنطيس المحلي كان مزعجاً لي بعض الشيء.

كان السجل الوحيد الذي وجدناه لزيارات سابقة لرجل إلى هذه القمة قد امحى ويصعب قراءته وهو نقش باللغة العربية يحمل التاريخ (١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م)، الذي يدل -ربما- على فترة سيطرة السعوديين على هذه الأجزاء كما في اليمن بصفة عامة. كان النقش على صخرة بجوار كوم حجارة تم وضعه عند أعلى موقع بالقرب من تركيب دائري من الحجر والذي يبدو أنه كان بهدف جمع مياه المطر.

كانت السمة المثيرة للانتباه التي نلاحظها من عند القمة هي تلك الأرض التي لم تستكشف بعد والواقعة في شمال اليمن إلى ما يلي حدود الهضبة، لعام ١٩٣٤م بين سلسلة هضاض شرقاً وممر علبين في تجاه الغرب. والتي تكون في تضاد مع الهضبة شمال ظهران وشريط وادي العرين التي يخترقه، والذي يتألف أساساً من طبيعة بركانية مع تداخلات جرانيتية وغطاء خفيف من صخور رملية هنا وهناك، فإن كل الهضبة، تجاه الجنوب على جانبي الحدود يبدو أنها مغطاة بطبقة

سميكة من الصخر الرملي إلى شرق السلسلة البازلتية المسطحة التي تسمى السراة، والتي كانت بعض سماتها البعيدة في أرض اليمن التي تشاهد من هذا الموقع منها سلسلة قعمة آل قراد ومرع وشحاط، التي تحتل وتراً ضيقاً من الجنوب إلى الجنوب الغربي. تقع على القاعدة الشرقية لشحاط على حدود اليمن عند قرية باقم، التي لا نراها بين سفوح التلال.

شمخت جبال عرو إلى الخلف قليلاً ناحية الجنوب الشرقي، ولا تزال بركانية، -وهي نقطة حدودية أخرى- وكذلك سويد في قرية ساقين التي لا نراها وتقع خلف سويد. كما يوجد تل الصبر إلى الوراء مرة أخرى، وهو متواصل، أو منفصل قليلاً عن سلسلة السراة، ناحية الشرق داخل سهل آل سعيد وبالقرب من صعدة وبذلك يكوّن منبع شعيب مروان والذي هو الجزء الأعلى من وادي نجران. يهبط منبع مماثل آخر هو مسيل الفلاح من جانب سويد.

تقع الهضبة العالية الصخرية الرملية إلى الشرق من هذه السمات العالية، ترافقها سلسلة عوير وصعدة نفسها ويقع سهل بني سحار على جانبيها. تصطف إلى وراء عوير، في أراضي اتحاد كل من حاشد وبكيل المشهور، تل وسلسلة مفلك، وهي أقصى سمة، تشاهد إلى البعيد، ناحية اليمين وترتفع من سهل يسمى عمشية. نهضت قمة رأس السكر البديعة لجبل براش وهي من أبرز السمات، قليلاً ناحية شمال مفلوك، وربما كانت مخروطاً ناتئاً من الجرانيت، ويوجد قريباً منها وعلى الجانب نفسه تل بربر، وهو على هيئة سنام مسطح القمة مكون من صخر رملي يقف على هرم جرانيتي. يقال إن المسافة بين براش وصعدة حوالي رحلة ست ساعات، لنقل (١٥) إلى (٢٠) ميلاً، كان هذا كل ما أمكننا رؤيته من جانب اليمين، أرض مهيبة عارية. لقد كانت مفصولة من مجال الرؤيا ناحية الشرق تجاه الأرض الذي رأيناها من نجران، بسلسلة هضاض المتعارضة.

تقع سلسلة هضاض وبها أحد الأعمدة الحدودية ناحية الجنوب الشرقي من موقعنا، ويوجد تل صغير بارز عند طرفها الأيمن معلماً الموقع لقرية النقعاء على سطح مسيل الحنكة الذي يهبط إلى اليمن من عند الحدود ويتصل مع شعيب العرض وهو في طريقه إلى وادي نجران. يوجد قليلاً ناحية الغرب، مسيل آخر يجري أسفل المجرى نفسه وفي بطنه تقع القرية الحدودية (اليمنية) الصغيرة، بينما يهبط المصرف الرئيس لشعيب العرض نفسه من عند سلسلة شحاط التابعة للسراة. يمكننا متابعة الشريط العام، من هضاض نفسها، للحدود على امتداد سلاسل وعوع وشيبة وضراوية. وقفت بارزة إلى حيث ممر علبين الذي يقع ناحية الجنوب من موقعنا والذي يعلمه تل مربع القمة وجرف فاغر، والذي إلى أسفله يهبط الطريق إلى حيث أرض جبال تهامة غرب الجرف. سأتمكن من وصف هذا الشريط الحدودي بتفصيل أكثر ولا ضرورة للخوض فيه هنا. كما لا أحتاج أن أحكي شيئاً عن البانوراما العظيمة لجبال فيفا التي تملأ المنظر ناحية الجنوب الغربي.

تنقسم الهضبة بواسطة مضيق عميق لوادي كتام[١] قريباً من هنا وعلى مسافة نصف الطريق بين شثاث والحدود، وهو وادٍ يهبط من السراة من بين صخور رملية طويلة مكسرة تدعمها السلسلة المتعارضة الجرانيتية العالية التي تسمى قعمة آل أبا الشيخ. ولقد برزت الأبراج السكنية من عند رأس المجرى، التابعة لقريتين صغيرتين هما زاوية وآل زاهر بينما نستطيع رؤية الحوض الواسع الكثير الشجيرات الذي يتحد فيه ومعه مضيق آخر يسمى القبضة مع وادي العرين في طريقه إلى حبونا. يوجد عدد من القرى الصغيرة في معقد المسايل هذا وهي تكون رأس

(١) كتام: ـ ربما يطلق عليها أيضاً اسم (قتام). (ابن جريس).

وادي العرين أعلى ظهران وهذه القرى هي: آل السحامي[١] وتقع على بعد أربعة أميال من موقعنا، آل سيار وآل رشيد، وهما قريبتان منا، وآل محض وسعرا على بعد الميلين منا وليستا بالبعيدتين من ظهـران والتي يقع بالقرب منها مجموعة قليلة من الأبراج، الحصون. يقع عدد من القرى الصغيرة في العرين وناحية أسفل البلدة وفي انبعـاج معتبـر للوادي الذي تكونه روافد ثانوية من السفـوح المجاورة، وهذه القرى الصغيرة هي: العرق، وقعه، وحـيدان، والعطف وهياج وكلها مبعثرة على مسافة ثلاثة أميال من موقعنا وفي خط مستقيم. يتكون الأفق إلى البعيد إلى شرق مبنى البـيت والسلاسل التي تقع وراء بدر، وتقود إلى المعلم المخروط الـبارز دائماً وهو قرن سبط والذي يقع الآن قليلاً ناحية الشمال الشرقي فوق قرى الغيل.

كان الحيوان الوحيد من ذوي الأربع الذي شاهدته في شثاث هو الفأر الصغير الذي تأقلم مع الحـيـاة في هذه التـلال العـارية، غيـر أن فـرج كـان قد أصـاب بالرصاص ثعلبـاً أثناء غيابنا في واحة العرين. كـما ظهر صقـر طلحة في الصورة على ارتفاع عالٍ وكأنه يراقب أعمالنا، كما تكثر هنا طيور الغداف مروحية الذيل، إلى جانب بعض القنابر وسمنة الصخـور، وطائر العوسق وهو يطارد الجراد. حان الوقت أن نغادر المكان وجـدت عند الممر رجلاً متجـهاً إلى ظهران وبرفقـته جمل وجحش. امتطيـت الجحش نازلاً معه قافـلاً إلى المعسكر حيث كانت اسـتعدادات إفطار رمضان قد شارفت على النهـاية. زارني أربعة من رجال الشرطة المحليين في المساء، ويبدو أنها كانت حملة شحذة، غـير أنني قد صرفتهم خالي الوفاض على الرغم من إدراكي أنهم لم يتسلموا رواتبهم لعدة شهور خلت. لقد كانوا مجموعة

---

(١) آل السحامي يطلق عليهم أيضاً اسم (آل أمسحامي) أو (قلة أمسحامي). (ابن جريس).

حزينة حقيقة، وعلى الرغم من أنهم قد بادروا بزيارتي، إلا أنهم عاجزون عن الإدلاء بأي حديث حول أنفسهم، عدا أنهم لا يحبون ظهران إطلاقاً وهذا أمر غير عجيب، إذ لم تكن مكاناً مثيراً يشجع على الحياة فيه.

سرني أن يلتحق بمجموعتي ثلاثة من هؤلاء الرجال لمرافقتي وإرشادي للرحلة على امتداد الحدود. وذلك ليس فقط لأنهم سيتحصلون على بعض المال لشراء بعض الحنطة لطاحونهم، ولكن لأنهم قد التحقوا من قبل وبمستوى وظيفتهم هذه مع القسم السعودي في لجنة الحدود المشتركة وهم يعرفون تماماً المواقع الصحيحة للأعمدة الحدودية. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة والنصف صباح يوم (٢١ نوفمبر) عندما بدأنا رحلتنا على ظهور الحمير أسفل الجانب الأيمن لوادي العرين، سالكين درباً سهلاً يرتفع تدريجياً مع الخطوط الكفافية لطبقة الانحدار للسفوح إلى عند مضيق في السلسلة يكون الفاصل بين كل من وادي العرين ووادي القبضة. وصلنا إلى كومة كبيرة من ألواح صخور رملية ضخمة متساقطة من قمة سلسلة بازلتية، بعد أن مررنا بمجموعة من القرى كنا قد رأيناها من عند شثاث عند المنحنى العريض لوادي العرين، وإلى مساحة معتبرة لأراض زراعية ذات أشجار الأثل وبعض أشجار النخيل.

لقد تركت العديد من الأجيال المسافرة عبر هذا المكان بصماتها هنا، إذ كانت الألواح ممتلئة بالنقوش وبالرسوم. لم تكن الرسوم ذات أهمية تذكر -فهي رسوم بدائية من النوع الذي قد ألفناه وتنحصر في رسوم لأناس، ولوعل، ولحصين، ولحاملي رماح ممتطين وما شابه ذلك. ويرجع تاريخها إلى العصر الثمودي[١]،

(١) من يتجول في بلاد تهامة والسراة فإنه يلاحظ كثيراً من النقوش والرسوم العديدة التي بعضها يعود إلى العصر الثمودي. كما أنني أنادي الآثاريين والمتخصصين في التاريخ القديم إلى أن يولوا مثل هذا التراث بعض العناية والاهتمام في دراساتهم وبحوثهم. (ابن جريس).

وقد كتبت فوق بعضها نقوش عربية من النوع العادي، وليس عليها إشارة للتاريخ. كان على أحد هذه الألواح شعارات توحي بالحروف الثمودية أو نحو ذلك، غير أن أكثر سمة مثيرة كانت عبارة عن نقوش عبرية، اثنتان منها كانتا ذاتا طول لافت للنظر. كانت هذه النقوش العبرية ذات تاريخ حديث نسبياً، من عمل يهود مسافرين بين صعدة وظهران.

كان وادي القبضة، الذي نزلنا إليه من عند المضيق موقعاً جذاباً. تقع القرية عند سفح الممر على جانب الوادي الأيسر وهي محاطة بالبساتين وبمزارع العنب التي كانت ألوان طيفها تتراوح بين الأحمر العميق والأصفر والأخضر وكلها ممتزجة بجمال مع الجرانيت والصخور الرملية عاكسة صورة جميلة وبشكل غير عادي. كانت البساتين مزروعة بالتين والخوخ والرمان، وكلها عارية من الأوراق الآن، غير أن مزارع العنب هي التي أكسبت المكان تميزه بالجمال. رأيت حتى الآن أشجار العنب كشجرات منفردة أو مجموعات صغيرة، غير أنها هنا كانت تزرع على مستوى تجاري مما جعل شمال اليمن مصدراً كبيراً للعنب، يقع رأس الوادي على بعد الميل الواحد باتجاه أعلى الوادي فوق صخور رملية صعبة، والتي قد ألقت بساطاً ضحلاً فوق الجرانيت التحتي للجانب الأيسر والتي كونت جداراً أعمق كثيراً إلى حدود مستوى المجرى على الجانب المقابل، والذي ارتفع إليه طريقنا بانحدار شديد بين كتل الصخور، وقد كان بطن الوادي مكوناً من الرمل الصافي.

نظرنا من عند المضيق على الجانب البعيد، على ارتفاع (١٤٠) قدماً فوق مستوى الوادي ناحية وادي كتام المستوى العريض الذي يهبط من عند سلسلة القبضة ليجري موازياً لها إلى موقع التقاء مشترك له مع وادي العرين. يهبط

الطريق بعد ذلك إلى حوض ضيق صعب عبر السلسلة الصخرية ليوصلنا إلى مستوى الوادي وإلى مزارعه الكثيفة. كان الوادي كثيف الشجر وتوجد به أشجار الطلح ومجموعات من الأثل وشرائط من أشجار الخروع ومزارع عنب، وبساتين وحقول ذرة صفراء مبعثرة- كانت المنطقة مدينة كبيرة وأكثر ازدهاراً من القبضة، وبها أربع قرى صغيرة. تقع اثنتان من هذه على الطريق وهما العمدة وآل طوق مجتمعتان معاً «كموقع وسط» تليهما مع اتجاه أسفل الوادي كل من رهوة وشط، وبهما أبراج خلابة يقعان قليلاً إلى أسفل عند موقع اللقاء مع العرين. تقع قرية الحنكة، الكبيرة شيئاً ما، عند رأس الوادي في مدرج طبيعي للتلال الصخرية الرملية. لقد توقفنا هنا مدة ساعتين وقد تجولت حول المكان دون أن أجد شيئاً ذا أهمية خاصة، إلاَّ من مصيدة خشبية بدائية يستخدمها الناس لصيد طيور الحجل التي تدخل حقولهم من عند الصخور المجاورة.

يتصل المجرى، عند قرية آل طوق على جانب الوادي الأيمن، مع بطن مسيل محذ الذي يشبه الدلتا والذي بدوره ينحدر من سلسلة مرتفعة على الجانب الجنوبي. كانت ارتفاعاته السفلى مغطاة بكثافة بالأشجار، وقد كانت أشجار الطلح مهيبة، وقد تأخرت بينها لفترة أطارد طائر ناقر الخشب، وهو أول طائر من هذا النوع أراه منذ مغادرتي محيط خميس مشيط. كانت مطاردتي له ناجحة وقد تحصلت على عينة منه لأسجل هذا الامتداد البعيد إلى الجنوب لطائر عربي صرف والذي لم يسجل وجوده بعد في اليمن أو في مناطق شمالية لا تتجاوز قرية محدثة. كان من بين الطيور التي شوهدت في هذا الموقع: الطائر الناسج والردستارت والشادي والطيور الصحراوية العادية. مثل الحمام والبلاكستارت والأبلق.

ينحدر مسيل محذ من عند هذه المرتفعات الواسعة الكثيفة الأشجار عبر سلسلة عالية إلى وادي صغير ضيق وجميل عبر الممر المحاط بالصخور إلى ارتفاع (١٥٠) قدماً فوق كتام و(٧٠٠٠) قدم فوق سطح البحر.

وصلنا إلى بركتين صخريتين قبل أن نصل إلى الممر، تسميان معاً مبين وتغذيهما العيون التي تسيل من جانب الجبل عند قاعدة الصخر الرملي الذي يرتفع هنا على الجانبين إلى الوادي الصغير في الصخور الترسبية وإلى ارتفاع (٣٠٠) قدم. قررنا أن نقضي الليلة في هذا الموقع الجميل حيث الماء الوافر وقد عسكر الرعاة الذين كنا قد اشترينا منهم جديين بسعر ريال واحد في الوادي الضيق، وقد انتشرت سراخس كزيرة البئر ونبات القصب ونبات الحرف وبغزارة في الجداول الصغيرة التي يدخلها الماء من البرك ومن منابعها في الصخور. يقال إن المياه هنا تنساب على مدار العام، غير أنها في مجراها العادي نادراً ما تصل إلى الجزء الأسفل من المسيل. كان الطقس دافئاً ومريحاً تحت حماية الصخور العظيمة وقد بلغت درجة الحرارة أثناء الليل (٤٢) درجة.

أقبلت حشرات العثة وحشرات أخرى بأعداد كبيرة إلى ضوء مصباحي ليلاً، وقد عمنا الإحساس بالراحة والاكتفاء بعد أن تناولنا الوليمة المعدَّة من لحوم الجديين والرمان الذي اشتريناه في ظهران بسعر (٥٠) حبة مقابل ريال واحد. كان هذا الرمان من إنتاج مزارع جميل اليهودي ومن مخزون شتائه، غير أنه أفادنا بأنه في موسم الحصاد يرخص السعر وقد يشتري المرء هذه الفاكهة بسعر (١٠٠) حبة أو أكثر بريال واحد وذلك لأن الرمان يكون حينها وافراً في كل هذه الهضبة العالية. تعتبر قرية مبين واحدة من المواقع المثالية لإقامة معسكر من بين كل رحلاتي فهي منظر لا ينسى لجمال فطري.

صعدت إلى قمة إحدى الجلاميد الصخرية الرملية في الصباح بصحبة أحد مرشدي، تاركين بقية الزملاء الآخرين لرفع المعسكر استعداداً لبداية مسيرة اليوم التي يمكنني متابعة موقع مسارها العام من أعلى، وستتجه ناحية الجنوب الشرقي من عند ممر يقع في وادي الضحضاح الذي يبدو وكأنه مجرد مسيل فقط أول الأمر، ثم يتسع أثناء انطلاقته مع تدفق مسايل عديدة أخرى وروافد إليه من جهة تلك البلاد الصعبة المكسرة ناحية الغرب، وإلى ما وراء موقع عبورنا لمجراه، ثم يستمر في اتجاه جنوب الشرق ليتصل مع مجرى آخر يسمى الخانق الذي يتصل بشعيب حلال بالقرب من هدادة ويكون بذلك أحد روافد حبونا.

تؤدي السلسلة التي أقف عليها الآن خدمة أخرى وذلك لأنها هي المنبع لمصدرين من المنابع المساهمة في صنع هذا الوادي العظيم. تهبط روافد الضحضاح من عند كل من قعمة آل أبا الشيخ وقعمة عرابة، وهما فرعان مائلان لسلسلة السراة الرئيسة والتي تقع قريباً منا وأمامنا ناحية الجنوب الغربي، وتقع قعمة آل أبا الشيخ قبل قعمة عرابة. لقد كانت ظهران نفسها محجوبة عنا بسلسلة الحمرة، غير أننا نستطيع رؤية القرى التي تكون تحتها وكذلك قرى كتام إلى أسفل حتى ملتقى العرين. كما توجد أمامنا منطقة حدودية في كل امتداد هضبتها، وقد كانت سلسلة المذراع ذات أهمية خاصة لي، وقد كنا قد رأيناها على مسافة من قبل، غير أنها الآن تبدو مهيبة بتركيبها الشديد الانحدار ويمر طريق نجران – ظهران الرئيس عند سفح طرفها الغربي، والذي يغادر نجران -كما ذكر سابقاً- عند ممر يقع في أعلى شعيب برن.

تمكنّا من اللحاق بقافلتنا سريعاً في شعيب الضحضاح، ورجعنا مرة أخرى إلى أسفل المستوى للحجر الرملي في وسط الجلاميد والنتوءات الكثيبة المكونة من تركيب بركاني ورسوبي. ثم عبرنا من فوق سلسلة منخفضة بعد أن عبرنا المجرى،

وقد كانت تفصله هذه السلسلة عن خط محـر وجعار الصرفي الضحل والذي هو أحد روافد الخـانق وقد ملأته أشجـار القرظ التي تحولت إلى غـابة، إلى جانب شجـيرات البالميتـو التي توجد داخل وخارج مجرى شـعيب الفرح، الذي ينبثق من عـدة مسايل معقدة نازلة من سفوح السلسلة الـصخرية الرملية التي تقع قليلاً إلى الخلف من طريقنا وتجاه الغـرب. وجدت عدداً من النقوش على صـخرة ساقطة من الحـجر الرملي على جانب الطريق، ومعظمـها كان باللغة العـربية وكانت كلها ذات قيـمة قليلة، وإحداها كانت بالعبـرية. لا نزال مستمرين في المسيـرة في مجرى محر، متـجهين إلى أسفل، ناحية الشرق، وقـد تسلقنا إلى خارجه قبل اتصاله مع جـعار، وذلك من على منحدر سهل من صخـر رملي، ثم على سهل متمـوج تخترقه بحـيرات عديدة لشعـيب جعر نفسه، وكلها كـانت منحدرة من عند السفوح الصخـرية الرملية لسلسلتي كل من قدم منصور ونزوح وتبعدان على مسافة ميل واحد من هنا.

كان الجـانب الجنوبي من نزوح هو أيضـاً منبع لوادي نجران، وذلك لـوجود مسيل آخـر له اسمه الخاص به يجري جنوباً من عند وادي نجـران ليتصل مع وادي ثويلة، وهو رافـد لشطيبـة الذي هو بدوره رافـد لوادي الحصن الذي يجـري إلى أسفل إلى وادي العرض والذي يكون حين اتصاله مع وادي مروان، وادي نجران.

وصلنا الآن إلى مستجمع الماء الذي يقع بين حبونا ونجران، وقد زرنا وعبرنا، بالقرب من منبعه، كل روافد حبونا، تكون حبونا. ومنابعه، في رأيي، النقلة من العربية السعيدة إلى الصحراء العربية[١] تاريخياً وجغرافياً وجيولوجياً.

---

(١) العربية السعيدة (Arabian Flex) والصحراء العربية (Arabian Deserta) هما مصطلحان جغرافيان تم استخـدامهما من قبل الكتاب الإغـريق، غير أن العربية السـعيدة كانت تشمل جـميع أراضي الجزيرة الواقعة جنوب الخط الممتد من الخليج العربي شرقاً وحتى خليج العقبة غرباً. وللمزيد انظر: محمد بيومي مهران. **دراسات في تاريخ العرب القديم**، ص ٩٣ وما بعدها، السيد عـبدالعزيز سالم. **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ص٦٤ وما بعدها. (ابن جريس).

الفصل الثاني والعشرون

حدود الهضبة

إن الإنسان كائن سياسي وهو قليلاً ما يهتم بتنظيمات الطبيعة أو حتى بتجاربه الماضية. وكانت نجران دائماً ضحية للصراعات الداخلية. لقد تحركنا بعيداً من الجزء التلِّي للهضبة دون أن نحس بذلك، تجاه السهل المستوي لأطرافه الشرقية لنجد أنفسنا فجأة ونحن نتبع خطي السلف المتنافس في كل من الشمال والجنوب. لقد تقدمنا لمسيرة خمس دقائق من آخر مسيل عبرناه من مصرف جعار حينما وصلنا إلى حافة هوة ضحلة في أرضية الحجر الرملي والتي يقع أسفلها حوض شعيب العرقة وهو أحد الرؤوس العديدة لوادي نجران.

غير أن الأهم من ذلك هو أن الطريق العريض المعبد الذي يقود إلى أسفل، كان مائلاً على امتداد جانب الجلمود إلى المجرى أسفل. عدنا مرة أخرى إلى طريق الفيل والذي يحف البلاد الصعبة من عند جنوب المجزعة، وقد وصل إلى حاجز لا يمكن للفيل أن يدور حوله دون مساعدة الإنسان له، ولا نحتاج هنا إلى روايات محلية لتفيدنا بأن طريق السيارات العريض، المنحدر، والمتعرج في بعض أجزائه والذي قد انتزع من وجه الصخرة الرملية، كان بالفعل من عمل الإنسان.

لم تكن هنالك رسوم أو نقوش قديمة (أو حديثة) لتؤرخ هذا الموقع، والغريب في الأمر أن فترة الثلاثة عشر قرناً ونصف القرن التي فصلت بين درب الفيل ودرب السيارات وتعاقبهما في اتجاهين متضادين قد تركا أثرهما، فقد مرَّ

الفيل وقد مرت العربة لاحتلال الأراضي التي تقع وراءه، لقد ترك الفيل آثاره في ذاكرة الإنسان، إلاَّ أن آثار سيارات الأمير سعود كانت لا تزال منطبعة وواضحة في الممر الصخري وفي مداخله لمن يرى. كان هنالك جهد يدوي بشري حذر بمساعدة الحبال والبكرات، وقد كان ذلك ضرورياً، بغرض إنزال السيارات بسلام إلى أسفل الجزء المتعرج من الطريق، وقد تمت هذه العملية بنجاح وبلا خسارة. غير أن ذكرى عبور فيل أسعد كامل إلى أعلى الممر، وهو بطل الاحتلال الأول، لا تزال ترفرف في أعلى الذاكرة المحلية. لقد رأى هؤلاء الناس، على كل حال، السيارات، وتقبلوها كأمر واقع، إلاَّ أنهم لم يروا الفيل إطلاقاً وربما كانت لديهم فكرة غامضة عن هذا الحيوان العظيم. رجع ابن داهش، بعد زيارة قصيرة لزوجته، وهو لا يزال متذمراً لمرافقته لي في هذه الحملة ومعه مرشد محلي اسمه مسفر، الذي كان أشبه ما يكون بالقرد منه بالإنسان، وقد سرني أنهما معاً كانا يتحدثان عن ذلك الفيل.

يسمى هذا الممر أحياناً الشطيبة، وقد ظهر بهذا الاسم في رسائل الأمير سعود، غير أنني لم أجد تأكيداً محلياً لهذا الاسم، والذي يمكن أن يكون اشتقاقه من مجرى الشطيبة الذي يقع قليلاً وراءه. لقد هبطنا إلى خليج العرقة العريض في غير ما صعوبة، ومن ثم تتبعناه إلى أسفل إلى قرية قرض التي تقع بين جلاميد صخر رملي، ترتفع أحياناً إلى (٤٠٠) أو (٥٠٠) قدم فوقنا. ثم اتسع تدريجياً إلى أكثر من الميل الواحد إلى حيث موقع اتصاله مع مسيل عطفة الذي يدخله من جهة اليمين لنعبر من بعده إلى وادي ثويلة، الذي كان جانباه ممتلئين بأشجار القرظ وأنواع الطلح الأخرى، كان البدو الرعاة يقومون بقطع أغصان كبيرة من هذه الأشجار علفاً للماعز. كانت الأشجار ليست فقط كثيفة ولكنها أيضاً مرتفعة العلو

بحوالي (٣٠-٤٠) قدماً، برغم هذا التخريب المتعمد الضارب في التاريخ. لقد تكون أمامنا الآن منظر جميل لأرض غابات في وسط الصخور الرملية الكئيبة في هذه الأقفار. أشار ابن داهش إلى طريق، قبل أن نغادر مجرى العرقة، وهو الطريق القادم من ناحية نجران ماراً بتل المذراع، الذي يقع الآن ناحية الشرق من موقعنا، ويبدو أنه متصل مع الممر، الذي كنا قد سلكناه من ظهران، عن طريق ممر العرقة وممر مبين، ثم يتفرع هنا أيضاً إلى الشمال على طريق الفيل إلى كل من المجزعة والطلحة، بينما يقود الفرع الطويل الآخر إلى النقعة ناحية الجنوب الشرقي.

كان هذا الممر الأخير هو الذي سلكناه لنعبر وادي ثويلة ومنه إلى سهل عريض رملي، كثيف الشجر، لقد كانت آثار عجلات السيارات التي عبرته عام ١٩٣٤م لا تزال واضحة. لقد أوصلنا صعودنا اللطيف إلى مستجمع أمطار منخفض ومن عنده اتجه السفح إلى الأمام إلى وادي الحصن، ويقع طريقنا عن النقطة الوسطية بين مجرى رافد حجر (أو طيب الاسم) وذي كحل[1]، على يسارنا، وهما يصرفان مياه أرض من الصخر الرملي كانت عليها تلال وسلاسل غريبة وكان بعضها قد نحتته الرياح فأصبح في شبه عش الغراب العملاق ويقف على سيقان عالية، بينما اكتسب الآخر بشكله القضيبي اسم زب واردة. أصبح سطح السفح الآن صعباً وقد انتشرت قطع من حجر صخري أسود نقلتها مياه الأمطار من السلاسل العليا، فوق طبقة حجر صخري ذي لون وردي.

لقد اقتربنا تدريجياً إلى مجرى ذي كحل المطوق بالصخور، لنصل إلى وادي الحصن، الذي يقع على بعد (٢٠٠) ياردة من موقع تدفقه. وقد كانت على بطنه

---

(١) وادي ذي كحل يقع جهة حصن الحماد. (ابن جريس).

الواسعـة، المبطنة بألواح الصخر الرملي، العـديد من البرك المائية يحيط بهـا نبات القصب الطويل مع الكثـير من نبات الحلفـاء وأشجار القرظ المتناثرة من حـولها. قررنا لذلك أن نعسكر هنا لقضاء الليلة بالقرب من بركة كبيرة ذات ماء عكر والتي خفف عندها زملائي، عنـد الغروب، عطش صيام نهار اليـوم، وبإسراف للدرجة التي لم تكن لديهم بعدها الشهية لتناول وجـبة المساء الخالية من اللحوم، والمكونة من عـجين طبخ بالسمن. لم أشـرب ولا قطرة ماء منذ بدايـة رمضان، مـكتفـياً بالشاي والقهوة، وقـد كنت الشخص الوحيد في هذه المجمـوعة الذي قام بإعداد وجبة حـسنة الشهية في ذلك المسـاء وقبل الفجر، وقـد لاحظت لأول مرة رطوبة مميزة على الأرض، وهي الندى. أقبلت في وقت لاحق من الصـباح، بطة منفردة ناحية البـرك، وقد أطلقت عليها رصـاصة وهي تقترب من سطح المـاء، غير أنني أخطأتها ولم أرها بعد ذلك.

يكتسب وادي الحصن اسـمه من هضبة صخـرية رملية منخفضة تشـبه القلعة تقع في حـوضه. كانت هذه الربوة وغـيرها داخل المجـرى ومن حوله قـد حصنه بصخر يصل ارتفاعه إلى مسـتوى الصدر تم وضعه بواسطة القوات الزيدية، الذين تغلغلوا إلى هذا الموقع من منطقـة النقعـة عند بداية حملة عـام ١٩٣٤م. استطاع حفيد الملك، وهو فـيصل بن سعد، الذي كان يقود المجموعة المـتقدمة من جيش الأمير سعود وبالقليل من المصاعب أن يرغمهم على الانسحاب من الوادي، الذي عسكر فيه هو لبعض الأيام أثناء ترتيبه للقوة لتـتقدم على باقم. كما عسكر سعود هنا أيضاً عندما كانت قواته تجول سـهل الحماد الذي يمتد من جانب الوادي الأيمن إلى أسفل إلى جوار الحـدود، ثم قام بدخول أرض اليمن حتى حدود قـري النقعة وعار، التي تم احتلالها ثم تدميرها.

كان حفيد الملك في هذه الحادثة، وهو خالد بن محمد، هو القائد، وقد قتل في المعركة ثمانية من رجاله بما فيهم حامل اللواء الذي سقط في الجبهة الأمامية للمعركة وقد أصيب بجرح مميت. لم يذكر عدد أفراد العدو الذين قتلوا في المعركة، إلاَّ أن (٦٥) أسيراً قد أخذوا.

يرتفع الوادي في قعمة أبالشيخ ويتصل به على مسافة ميلين إلى أعلى تل حصن شعيب العاقة، الذي ينساب فيه شعيب حجر عند أعلى موقع الاتصال. وتقع مجموعة من التلال المرتفعة، أمامنا ناحية الجنوب الشرقي، وهي متمركزة في سلسلة هضاض وتشمخ منها قمم بارزة في كل من مرتكزه والأتم وكلاهما إلى يسار مسيل الحنكة، الذي ينحدر إلى النقعة ماراً بذات انشان. يمكننا رؤية هضبة علب، بعيداً ناحية الغرب وهي تعلّم النهاية الأخرى للحدود على الخط القاسم لمسايل علبين، ويجري أحد الفرعين إلى باقم بينما يسقط الآخر في هوة تهامة على عمق (٢٠٠٠) قدم إلى أسفل. وقفت شثاث بارزة معلمة موقع ظهران، وما عدا ذلك، فلا يوجد ما يهم ذكره في هذا المنظر الكئيب الممتد أمامنا.

كنا الآن على ارتفاع (٦٢٠٠) قدم فوق سطح البحر، وكانت الليلة هي الأدفأ بين الليالي التي قضيناها منذ مغادرتنا نجران، إذ كانت درجة الحرارة الدنيا ٤٦ درجة. لحسن حظنا جميعاً، وأنا خاصة، إن مجموعة من رعاة يام بالحارث حضروا إلى موقع الماء ذلك الصباح وذلك قبل تحركنا لمواصلة الرحلة. وتمكنت من توظيف اثنين منهم كمرشدين لي لتوضيح العلامات الأرضية الخاصة بنجران، بينما اكتفى رفاقي بتأمين شاة منهم لوجبتنا القادمة.

انطلقنا، بعد هذا التدعيم للفريق، ونحن فرحين وسرعان ما وصلنا إلى وادي مخوار الواسع وهو رافد لحصن. يهبط مخوار من قهرة العنز التي ينبع من

جانبهـا الآخر مجرى شـجع هابطاً إلى برك شعيب الجدليّـة على الحدود، والذي يجـري داخل أرض يمنية، ليـتـصل مع وادي العرض بـالقرب من تل بربر، تجـاه الجنوب من موقعنا من هضبـة الحصن. كان مجرى مخوار كثـيف الشجر وخاصة أشجار الباليتو. ثم عبرنا فيمـا يليه، وبالتتابع، مصرفين ضحلين وخلالهما تندفع ميـاه سيـول وادي الحماد إلى المرتفـعات السـفلى من وادي الحصن. مـررنا فوق المسطح اللطيف الذي يفصلهـما على زوان صخرية رملية ضخـمة، والذي تحولت فيه قـاعدته التي نحتتـها الرياح إلى مظلة ضخمـة من الصخر مانحـة ظلاً ظليلاً للمسافـرين العابرين، الذين قضى بعضهم وقت الراحة في الخـربشة على الجدران بالصور العادية (وعل، فرسان، إلخ) بينما تمكن زائر حديث، بلا شك ينتمي إلى عضوية الجيش السعودي لعام ١٩٣٤م الذي كتب العنوان: ملك الحجاز وملحقاتها سعود بن عـبدالعزيز![١] لا بد أن يكون هذا الموقع قـد تم احتلاله بواسطة فـرقة عسكرية من الحوطة، غيـر أن الجيش كان قد انتشر فوق السـهل هنا وإلى مسافات معتبرة في كل الاتجاهات تاركين في أثرهم عدداً من المراجل الثلاثية الأقدام المكونة من الحجارة في مواقع نيران معسكراتهم والتي كانوا يطبخون طعامهم عليها.

لم يتبـعنا -بالمناسبة- طريق الفـيل الذي اختفى بعـيداً تجاه الغـرب، قبل أن يصل إلى وادي الحصن ليعبـر فوق حَجَر إلى مستجـمع ماء شجع ومن هناك إلى وادي الجدالـيّة. يمضي طريقنا الآن خـلال سهل الحـماد المرتفع وهضـابه الغربـية المبعـثرة بين أشـجار القرظ والطلح والتي تـطورت إلى غابة منتظمة والـتي كنا قد

(١) يقصد عبد العزيز بن سعود وقرأها فيلبي حسب ترتيبها بينما هي العكس. (ابن جريس).

توقفنا فيها لننال بعضاً من الراحة في الظهيرة مدة ساعتين، في أرض لأشجار القفل والباليتو.

وصلنا إلى الحدود عند العمود الحدودي في ردم الحنكة واستقر بنا المقام لنعسكر في المسيل الذي تطوقه الصخور، بعد أن سرنا مسافة تقل عن الساعة فوق بلاد صخر رملي صعبة تنحدر تجاه ناحية الحنكة ذي الرأس القمعي، وقد كانت صخور المسيل قد تآكلت بفعل الرياح وتحولت إلى مجموعة من الكهوف والمغارات والتي يمكن أن تأوى قرية من سكان الكهوف، غير أنني لم أر أي إشارة لاحتلال قديم لها. كان الصخر الرملي الحديدي أسود كالفحم ممتداً من أحد الجانبين إلى أعلى السفح الأسود لسلسلة شثيان، وعلى الجانب الآخر لشفة سهل الحماد، حيث يطل من هناك على أرض يمنيه عند سفح الجلاميد. يقع على كل من جانبينا عمود حدودي وأعتقد، وأنا داخل كهفي الدافئ أن درجة الحرارة الدنيا كانت ٥٣ درجة وقد بلغت (٥٥) درجة في الليلة التالية - لقد نمت ونصف جسمي في أرض سعودية عربية ونصفه الآخر في اليمن.

يقع أسفلنا حوض مسيل النقعة وتشاهد فيه بعض أشجار النخيل كما شاهدنا أسفل الطريق الذي يقود إلى هناك مجموعة من الجمال التي أثارت شكوك ابن مسفر، رئيس الشرطة المرافقة لي. ذهب هو ورجاله لمتابعة الأمر، برغم الحقيقة بأنهم يدخلون بلا إذن أرضاً تابعة لدولة أخرى. ولم يمضي طويل وقت إلاَّ وقد عادوا إلى المعسكر ومعهم غنيمتهم: ثلاثة رجال وثلاثة جمال وخمسة بنادق- وكانوا سعيدين جداً بحصيلة يومهم. كان المهربون الثلاثة- وهذه حقيقتهم- من مواطني بريدة الذين قد استقروا حديثاً في أبها ليستغلوا فرص الانفتاح الجديد في التجارة.

جـاءوا هذه المرة من هناك دون إثارة أي شكوك حـولهم، ولولا سـوء الحظ الذي واكبـهم اليوم، لكانوا قـد باعوا البنادق بربح جـيد في صعـدة. وربما عادوا بشحنة من البن لتهرب بالأسلوب نفسه عبر الصحراء دون دفع الرسوم عليها، لقد حرمهم اختياري لهذا الوقـت غير المناسب لهم للوصول إلى الحدود ليس فقط من مشروعهم التـجاري وهو في مهده، بل ضياعهم أنفسـهم إلى جانب وضعهم في موقف حرج جداً. لقد تناولوا معنا العشـاء، بالطبع، وقد زارني رئيسهم عبود في كوخي ليلتمس تدخلي، ليس مع الحكومـة ولكن هنا والآن مع الشرطة. لقد تمت مصادرة البنادق، بالطبع، وأمر ابن مـسفر الرجال الثلاثة ومعهم جـمالهم بمراجعة القائد في ظهران وقد فـعلوا ذلك كما سمعنا لاحقاً، كنت آسـفاً لحالتهم، وأحس بتعاطف مـعهم لأنه قد تم القبض عليهم وهم داخل أرض دولة أجنبـية، وهو أمر لم يحاولوا اسـتغلاله، لم أستطع عـمل شيء لهم وقد ألقي القبض عليـهم بهذه الطريقة واكتفـيت فقط بالتعليق بأنه من السخيف لرجال محـترمين مثلهم المخاطرة بمثل هذا العـمل الشـائن لأجل ثراء غيـر شرعي. كـان الجـانب السيء الخطر في الموضوع كله من وجهة نظرهم هو أنهم لم ينتبـهوا إلى وجودنا في ناحية الحدود، فترجلوا من دوابهم عند برك الحنكة المائيـة (وقرة) عند منتصف الطريق إلى المسيل لملء قرب المياه وهناك تم الإمساك بهم. كان بإمكانهم الهروب لأن تحركهم كان قد بدا قبلنا بمسافة طويلة، وبإسراع للخطى.

قررت أن أمكث هنا اليـوم كله وذلك لأجل ربط خط الحدود من النقطة التي تمكنت من أن أرسمها وأقوم بمسحـها من عند التلال أعلى واديي مروان والموفجة. ذهبت ومعي مسفر وابن داهش والمرشدين اليـاميين إلى كومة حجارة حدودية تقع على سلسلة شـثيـان على بعد (٣٠٠) ياردة جنوب القـمة، وتركنا فـرج يلاحق

ليصطاد الأرانب الأوروبية والتي يقال إنها وافرة هنا[1]، وقد تمكن بالفعل من اصطياد اثنين منها. ارتفعت قمة السلسلة حوالي (٥٠٠) قدم فوق مستوى معسكرنا الذي أقمناه في رأس الحنكة، وقد كان موقعه موفقاً للحصول على فكرة عامة عن المخطط العام للبلاد عند هذا الجزء المتشابك من الحدود. تجري سلسلة مارة بموازاة مع سلسلة شثيان، من الجنوب إلى الشرق إلى كتلة الأتم على بعد الميل الواحد من موقعنا، وهي من حجر رملي مماثل أسود.

يبدأ مسيل ومجرى وادي هضاض من عند النقطة التي تلتقي فيها الأطراف الجنوبية لهما على بعد ربع الميل إلى شمال الشمال الشرقي لعلامة الحدود، والذي يكون جانبه الأيسر، على امتداد قاعدة المنارة الخط الحدودي الذي يصل إلى الفرجة بين الطرف الجنوبي لمنارة وقاعدة الأتم. يستمر، من تلك النقطة، الجانب الأيسر للوادي المتجة شرقاً لهضاض كخط حدودي، إلى بقعة يتصل فيها وادي العرض معه فيها على الجانب الأيمن، وعلى مسافة أميال قليلة من هنا. تجري الحدود بعد ذلك على امتداد الجانب الأيمن للمجرى، الذي يسمى الآن العرض، ثم إلى قمم مسيل فرد الذي يهبط من القمة الوسطى لسلسلة فرد -والتي أسماها مرشداي الجديدان بني داحر- والذي يقف من فوقه آخر الأعمدة الحدودية التي سجلتها من منطقة نجران ويحمل رقم (١٢).

أخبرني مرشداي أنه قد تم نصب أعمدة حدودية أخرى فوق كل من شحاط الغميرة والأتم وجبل هضاض -هذا اسم مرادف لشثيان-. لقد أبلغت الآن،

(١) لا أعتقد أن في جبال نجران وقحطان وما جاورها أرانب أروبية، وذلك لبعد هذه الجهات عن القوى الأوربية التي كانت تأتي إلى الجزيرة العربية آنذاك، وربما أن هذا الاسم من استنتاجات فيلبي، أو أن الأرانب التي شاهدها هناك تشبه في أشكالها بعض الأرانب الأوربية. (ابن جريس).

رسمياً أنه لا توجد أعمدة حدودية بين كل من فرد وشثيان، ويعزى ذلك لأنه أثناء عملية التعليم للحدود وقع خلاف حول التخطيط الصحيح، ولم يحل بعد. كانت البلاد، بما في ذلك سلسلة منارة، في الزاوية التي يكونها مجرى هضاض تابعة بلا شك لآل حشيش، وهو قسم تابع ليام والذي ينتمي إليه مرشداي الجديدان. ولقد تم حل الإشكال في وقت لاحق لصالح آل حشيش والمملكة العربية السعودية، وذلك بتثبيت الحدود كما وصفتها هنا.

أصبح عمود حدود شثيان هو الرقم (١٣) على قائمة علامات الحدود. تقع الأتم داخل حدود مملكة اليمن، وهي، مثلها مثل سلسلة شثيان إلى جنوب ركام الحجارة الحدودية ومسيل الحنكة على جانبه الغربي إلى أسفل موقع معسكرنا. لقد سررنا بما فيه الكفاية أن نتمكن من حل مشكلة هذا الجانب غير المعلّم من الخط الحدودي وأن نكون قد أزلنا شجاراً محتملاً. يمكن أن يكون اسم شحاط الغميرة اسماً مرادفاً لصخرة ذات العطف الرملية التي تقع في أرض آل حشيش إلى الشرق من سلسلة المنارة.

توجد في أجزاء من سلسلة شثيان حجارة رملية مبعثرة يصل قطرها إلى ١٢ بوصة وكانت سفوحه مغطاة بنبات شجري شوكي يسمى شخض أزهاره وردية بوقية. يبدو أن الصخور الرسوبية التي تشاهد عند قاعدة التل من تكوين الشست مع كوارتز كثير. استطعنا أن نرى من هذا الموقع ولأول مرة الأبراج السكنية لحجر، في مسيله عند رأس وادي الحصن. كما لمحنا ناحية الجنوب أولى القرى الصغيرة الثلاثة المكونة لنقعة عند التقاء مسيل الحنكة مع شعيب النقعة الذي ينساب ليتصل مع وادي العرض جنوب الأتم. احتجبت القريتان الأخريان، مع اتجاه

أسفل الوادي، وراء مضيق ذات انشان، وتبدو القرية التي كنت قد رأيتها مكونة من نخيل مشتت وبعض الحصون. كما رأيت قصور كونا التي يسكنها آل عامر (وادعة) عند قاعدة سلسلة فيما يلي القريتين في الخط المباشر (ناحية الجنوب) لصعدة، التي لم تكن مرئية.

تقع سلسلة مرعة البركانية ذات القمم المستوية للسراة الرئيسة الآن ناحية الغرب من موقعنا وتقع سلسلة شحاط الصخرية الرملية أمامها كما تقع باقم عند سفحها وتقف قلعة مهيبة قديمة تسمى أم ليلى على السفح للامتداد الجنوبي للسلسلة عبر وادي أصنام الذي يقال أنه يحتوي على قرى عديدة. تواصلت هذه المجموعة من الجبال جنوباً إلى أقصى مجال للرؤيا عبر الجبل الأسود وهي عينة، وبنو حليفة وفلة وقعم الصبر، في هذا الترتيب من الشمال إلى الجنوب، كانت الأخيرة منها في اتجاه جنوب الجنوب الغربي من موقعنا. اتجه الخط الحدودي من شثيان ناحية الشمال الغربي تجاه تل علب الذي يشاهد من ناحية غرب الشمال الغربي. ويقف جبل جفا في منتصف المسافة بيننا وبين تل علب، ويقع في أرض يمنية، وتقع من ورائه قرية يباد، وهي بداية بلاد خولان ويسكنها قسم ابن صبحان التابع لتلك القبيلة في بلاد سحار.

مشينا سيراً على الأقدام على السفح البعيد لمجرى هضاض ثم تتبعناه هابطين على امتداد الحدود إلى حيث انحناءته الحادة إلى اليسار بين طرف منارة وسفح الأتم الحاد ومن ثم عبر مضيق رائع. كان الارتفاع في هذا الموقع حوالي (٦١٥٠) قدماً فوق سطح البحر، في مواجهة الصعود أعلى الأتم والذي كانت قمته على ارتفاع (١٠٠٠) قدم أعلى من موقعنا. كان السفح من تركيب الشست ومسافة (٦٠٠) قدم مع الكثير من الكوارتز المتخلل له وكانت هنالك بعض أشجار اللبان

التي أكسبت المنظر مسحة رومانسية. كان أحد هذه الأشجار نموذجاً عظيماً، إذ كانت أغصانها منتشرة مثلها مثل بعض أشجار نخيل الزينة الدخيلة. تسمى هذه الشجرة أعربة ويقال إنها تنمو إلى حجم كبير في جبال تهامة حيث تستخدم ألياف أوراقها في صناعة الحبال[١]. يعترض شريط رفيع بين الأساس الشستي والحجر الصخري الفوقي لأتم مكون من الكوارتز ومن كسارة من خليط كوتقلوماريني، يبلغ سمكه القدم الواحد، ويصل ارتفاعه إلى (٦٠٠) قدم على جانب سفح التل، كما وجدنا هنا نباتاً يسمى تألب، وله ثمار توتية، يبدو أن هذه الثمار قد جذبت نحوها جملاً هائماً وزوجاً من غزلان حمر قد هربت إلى ما وراء التل للدرجة التي لم أتمكن حتى من رؤيتها. ربما كانتا من نوع غير معروف وذلك لأنها لا تبدو شبيهة بأي من الغزلان العربية التي أعرفها. لقد قابلتنا هنا فتاة صغيرة بصحبة قطيع من الماعز. ربما كان قطيع الألبان لنقعة، غير أنه يبدو لنا أن المسافة إلى هنا طويلة لتترك فيها هذه الطفلة بلا مرافق في هذه البرية.

كان القسم الشرقي هو أكثر أجزاء المنظر العام بروزاً من عند القمة إذ أنه هو الذي يحتضن العلامات الأرضية لنجران. يقف أبو همدان نفسه واضحاً بين تلال جانب الوادي الأيسر في اتجاه شرق الشمال الشرقي، وتقع من ورائه كل من عان الدريب والرهوة كما يقف قرن آل الحارث إلى اليسار بين تلال الجانب الأيسر، بينما كشفت صخرة الوادي المقابلة بعض قممها، منها خشم مدر، وعرير، والعبلاء، دون الحاجة لذكر بقع التي تطل على قرى وادي الفرع. ويقع قريباً منا

---

(١) لمزيد من الايضاح على نباتات بلاد تهامة والسراة واستخدامها في أغراض عديدة، انظر: كتاب: **النبات للدينوري**، الذي يقع في عدة مجلدات ويفصل الحديث في هذه الجزئيات، وبخاصة النباتات المتواجدة في المنطقة الواقعة بين اليمن والحجاز. (ابن جريس).

ملتقى تربية المكون من كل من مروان والعرض، بينمـا يمكن متابعة المجرى الكامل للعـرض وعلى مراحل إلى الخلف إلى حـيث منبعـه في سلسلة شحـاط، والذي يتجمع عند قاعدته كل من مصرفي الجبـل الأسود وبني حليفة في مرتفعات السراة الرئيـسة. الذي ينحـدر إلى مخـروط بربر، من عند باقم، مـاراً إلى الجنوب منه ويدور إلى حوض واسع ضحل على مسافـة ثلاثة أميال جنوب الجنوب الغربي من عتم. ينساب من هنا من خـلال، التلال التي تمتد ناحيـة الجنوب الشرقي من عتم لتظهر مرة أخرى في الجـانب الشمالي عند التقائه مع هضـاض بجوار دلوه العالية على مسافة ميلين ونصف الميل. يمكننا بهـذا أن نضع رافداً آخر لنجران وبدقة على الخريطة.

أمكنني بعـد ذلك رؤية قرية أخـرى من قرى النقعـة، تقع أسفلنـا وتبرز من خلف زاوية قرية ذات أنشان، وهي عبارة عن ابراج قليلة في مـزارع نخيل كثيفة، كما اقتربت من رؤية صعدة ناحـية الجنوب أكثر من ذي قبل، وذلك بعد أن لمحت هضبـة صغيرة تعلّم مـوقعها في حـوض سهل سعـيد. لم أتمكن من رؤية أي من منازلها، ولم يكتب لي ذلك، بعدها. نظرت ملياً إلى اليمن ناحية جنوب الجنوب الشرقي، من فوق سلسلة كل من مفلوك وبراش، إلى سلسلة برد البعيدة[١]، التي تحتضن بكيل (آل محمدي وآل حسيني) وهي بلدة سوق عنان. تقع قرية نشور في وادي آخر بالاسم نفسه، وهي غير مرئية لي، على مسافة جنوب مجرى العرض. لقد ملأت شثـاث ونقاط مألوفة أخرى، الجزء الشمـالي لهذا المنظر الكئيب بحق- كأنه بحـر من حجارة رمليـة ونتوءات صخـرية ترتفع كأنها الأمـواج بين أحواض البازلت الأسود والشست.

(١) سلسلة (برد) ربما يطلق عليها أيضاً اسم (برط). (ابن جريس).

هبطنا من فوق الجبل إلى نقطة على طريق النقعة عند أسفل مسيل الحنكة، ومن ثم عدنا إلى المعسكر بعد أن تسكعنا بعض الوقت فوق الممر الضيق المكون من كسور صخرية بين جلاميد كئيبة من الشست. واصلنا دراستنا في الصباح اليوم التالي للحدود، سائرين حيناً وراكبين حيناً آخر على ظهور الحمير بحسب الظروف، وكان عمود الحنكة الحدودي رقم (١٤)، يطل على رأس المسيل. كانت كومة الحجارة التالية، وهي بلا اسم، قد وضعت عند حافة الصخرة على مسافة (٥٠) مقياس سلسلي من حافة حنكة، وقد تم استخدام النظام السلسلي كوسيلة مساعدة للوصف الرسمي للحدود، إلاَّ إنه قد هجر سريعاً بوصولنا إلى المنطقة التالية. كانت السلسلة كما أذكرها تعادل (٢٠) متراً، وعليه تكون المسافة بين عمودين، بهذا المعنى، تعادل كيلومتراً واحداً. ولقد لاحظت ناحية الجنوب شريطاً من أكوام الحجارة على الحافة السفلى للصخرة، وقد تم وضعها (كما قيل لي) بصفة غير رسمية لتعليم الحدود قبل حرب ١٩٣٤م.

يمكن، على هذا الأساس، تجاهلها، وذلك لأن لجنة الحدود المشتركة قد أرجعت الشريط لصالح اليمن. يقع كوم الحجارة التالي على بعد (٥٠) سلسلة من سابقة على رأس مسيل مسياد (رقم ١٦) إلاَّ أن الوصول إليه قد استغرق منا (٤٠) دقيقة عن طريق ملتوٍ فوق سلسلة في بلاد قد حرقتها الشمس. يجري مسيل مسياد إلى أسفل الحنكة ومنها إلى النقعة. ثم سرنا على الأقدام بعد ذلك إلى أسفل سلسلته إلى غابة أشجار قرظ كثيفة، لنجد أن مستوى الأرض قد مال إلى أعلى من عند حافة الجلمود في اتجاه الجنوب، وفي اتجاه شمال شرقي ناحية سهل الحماد وخطوط صرفه، والتي عند رأسه، جنوب غرب كومة حجارة مسياد، يقف فوقها العمود الحدودي التالي. كان هذا العمود بالفعل على سلسلة تكوّن

قاسماً شمالياً - جنوبياً ويعـرف في القائمة الرسميه باسم رأس الحماد (رقم ١٧)، وهو وصف كافٍ لموقعه.

يواصل خط الحـدود اتجاهه الشمـالي الغربي، الذي تم تحـويله بعض الشيء ناحية الجنوب ليشـمل مصرف كل من الحماد ومرعى ويقعان بكاملهـما في العربية السعودية، إلى حيث كومة حجارة رأس العار إلى موقع معلم على سلسلة وعوع. لقد تم وضع كوم حجارة العار (رقم ١٨) فوق هضبة صخرية على الطرف المكسر لوتر ضحـل تنحدر من عنده نهـيرات عديدة، لتـكون مسيل العـار، الذي، أثناء مروره بقرية بالاسم نـفسه عند قاعدة رفـة، يتصل مع مجرى النقـعة على الجانب الشرقي لتل بربر. تفصل الحدود من عند عمـود شثيان إلى رأس العار، بين وادعة من منطقة ظهـران وقبيلة وعـيلة اليمنية، التي كـانت حتى شثـيان من عند النقطة الأقصى تجاه الشرق، عند تنصاب، قد فصلت بالأسلوب نفسه من منطقة قبيلة يام في منطقة نجران.

يفصل مـسيل العـار على جانبه الـيمني بين قبـيلة وعيلة وقـبيلة بني حليـفة الخولان التي تتاخم مع وادعـة حتى العمود الحـدودي لجدليّة، والتي فيمـا يليها، يوجد قـبيلة سحـار خولان الذين انفـصلوا عن أقربائهم بني حليـفة بواسطة ذلك المجرى ويلتقطون الحدود التي تتـاخم الحدود إلى قبيلة علب[1]، مع قبيلة وادعة، والذين يكونون مجموعة قبلية سعودية يمكن مـقارنتها مع قبيلة يام، إلا أنها أصغر منها، ومن الأصل نفسه النهـائي لهمدان بن زيد. تمتد عناصر قبـيلة وعيلة وقبيلة خولان في شـريطيهمـا المتوازيين إلى ناحيـة الجنوب، حتى بلاد بكيل في مـحيط

(١) قبيلة علب: أو بلاد علب عـبارة عن أرض تحتوي على جانبيهـا قبائل وادعة السعودية وسـحار اليمنية. (ابن جريس).

برد. تعود أصول قبيلة همدان، المكونة من كل من يام ووادعة إلخ، إلى زيد الهلالي[1]، بينما تتبع كل من قبيلة خولان وقبيلة قحطان لبني عامر.

استمرت كثافة الأشجار في البلاد التي تلي عمود العار الحدودي مع هضبات من صخر رملي وسلاسل ترتفع إلى (٣٠٠) أو (٤٠٠) قدم فوق مستوى السهل. يبدو أن هذه الأراضي قد اعتادت على هطول أمطار غزيرة مقارنة بالأراضي إلى الشمال والشرق وهذا هو أيضاً حال المنطقة المماسة لحدود اليمن الشمالية. كان سهل الحماد بصفة عامة وهذا الجزء الغربي منه بصفة خاصة، كثيف الأشجار مقارنة بأي جزء آخر كنت قد رأيته في الجزيرة العربية خارج جبال تهامة، التي تقع في ممر الرياح الموسمية. وصلنا إلى وادٍ رملي كثير الجنبات، بعد أن تعرج طريقنا خلال الغابات وعبرنا بأطراف السلاسل مدة نصف ساعة، تتبعنا مجرى الوادي عبر الجلاميد العالية المتآكلة بفعل الرياح إلى موقع يلتقي فيه مجريان، أحدهما من الجنوب والآخر من الجنوب الغربي، ليكونا رأس الوادي بين شجيرات وصخور ذات ظلال تغطيها النقوش الثمودية وعلامات المياه. كان هذا هو وادي حلقة ولعله اكتسب هذا الاسم من علامات الآبار الدائرية، وهو على أي حال رافد مهم لوادي الحصن.

كانت هذه البقعة بنقوشها، علامة حدودية ضاربة في القدم بين قبيلة بني حليفة (خولان) وبني جمعة (وادعة)[2]، ولهذا فقد وافقت اللجنة الحدودية

---

(١) تنسب إلى همدان بن زيد عدد من القبائل كوادعة، ويام، وحاشد وبكيل وغيرها، لكن قول فيلبي أن زيد جد همدان ينسب إلى أبي زيد الهلالي فهذا رأي مخالف للحقيقة، للمزيد انظر: علي بن أحمد بن حزم. **جمهرة أنساب العرب** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ص ٢٥٢ ، ٣٩٢ ـ ٣٩٥، ٤٧٦ ـ ٧٤٥ . (ابن جريس).

(٢) بنو جمعة (وادعة):ـ هذه العشيرة لا تعود في وادعة بل تلتقي مع وادعة في همدان بن مالك بن زيد. (ابن جريس).

بقبولها معلماً حدودياً بلا حاجة إلى عمود حدودي أو كوم حجارة. اتخذت هذه البقعة الرقم (١٩) في قائمة العلامات الحدودية، ويمكن اتخاذ الخط الصحيح للحدود هنا بأنه يقع عند النقطة الوسطية للمجرى بين الدوائر التي رسمتها كل قبيلة على صخورها الخاصة بها. كانت بعض النقوش الثمودية قد تآكلت كثيراً بفعل الطقس، غير أنني قمت بنقل تسعة منها، وكان إجمالي عدد حروفها (٧٣) حرفاً. لقد كانت بلا شك أكبر مجموعة للنقوش أتحصل عليها على الهضبة فعلياً.

تتبعنا طريقنا إلى أعلى الفرع الجنوبي الغربي للوادي، وسرعان ما ابتعدنا عنه تجاه الشمال الغربي أعلى السفح للسلسلة المحيطة التي هبطنا من قمتها تدريجياً عبر سفح حجري صعب، تنتشر فوقه ألواح وكسور لصخر رملي، حتى كومة حجارة بلا اسم (رقم ٢٠) تطل على وادي شجع. اتجهنا الآن ناحية الشمال، لنصل خلال دقائق إلى مسيل محيريشة، ونتبع مجراه الشمالي الغربي فوق بطن من ألواح صخر رملي يكسوه غطاء نباتي ثري من أشجار البالميتو والقرظ. يجري المسيل إلى أسفل في مضيق عرضه (٥٠) ياردة من صخور ارتفاعها (٢٠٠) قدم، تنكشف عن دلتا صغيرة ذات غطاء نباتي كثيف، والتي قد اندمجت سريعاً مع فم مسيل السلفة من جهة غرب الشمال الغربي، ومسيل قفية شجع من جهة الشمال، داخل وادٍ صغير كثيف الشجر والذي يدخله شعيب شجع من ناحية الشمال الغربي ليجري داخله في اتجاه جنوبي إلى ما وراء منحنى حاد، وفي وسط غابة من الحلفاء تقع البرك المائية بجدلية التي تغذيها العيون في وسط حلقة من السفوح الخضراء بالنبات عند موقع التماس للصخر الرملي الأعلى مع الجرانيت التحتي، حيث تسيل العيون إلى خارج السطح.

كنا هنا على المنحدر المعاكس لمستـجمع الماء، على ارتفاع (٦٢٠٠) قدم فوق سطح البحـر، عند موقع لقاء حـقيقي لمجاري سـيول ذات حجم معـتبر وكثـافة لنباتات الذروة التحتية. كما يوجد، إضافة إلى المجاري التي قد أشير إليها، مسيل الجدليّـة الذي ينحدر مـن مستـجمع الماء ليـتصل بالوادي الصـغيـر الذي يقع بين محيريشة وقـفية شجا، بينما توجد أسفل البرك جدليّـة أخرى، أو الجدليّة سفلى، يدعمها مسيل ضبعة القادم من الشمال الغربي، ليدخل مجرى شجا من عند جانبه الأيمن عند المنحنى.

لقد وضعـوا حدود الجدليّة، مـباشرة مقابل وأعلى هذا المـوقع وعلى صخرة على الجانب الأيسر، على ارتفاع (٢٥٠) قدمـاً فوق مستوى بطن المجرى، وذلك لتعليم النقطة الثلاثية التي تلتقي فيها كل من قبائل وادعة وبني حليفة وآل سحار. لقـد عسكرنـا لقضـاء الليلة على بعـد (٥٠٠) ياردة من هذا باتجـاه أعلى الوادي بالقرب من البـرك، غير أنـي لم أضيِّع وقتـاً فقد أسـرعت للصعود إلى العـمود الحدودي الذي أحاطت به الجلاميد للدرجة التي دفـعتني للصعود أكثر لألقي نظرة على المحيـط الذي حوله. يحمل هذا الـعمود الرقم (٢١) للحـدود. ويطل الرقم (٢٠) على محيريشة، ناحيـة الشمال الشرقي منه، ويحمل الذي يليه الرقم (٢٢) ويقع في الجزء الأعلى من مسيل ضبعة ناحية الشمال الغربي، وقد كانا قريبين من موقعنا. لقد لفت نظري فجوة في مستجمع الماء -وهذا موضوع بعيد عن موضوع الحدود- تقع ناحـية الشـمال الشرقي، ويمر من عندها درب الفـيل ليدخل مـسيل الجدليّة العليا وليهبـط منه إلى برك الوادي الضيق، ومن ثم يواصل انسيابه ليدخل وادي شجع ومنه إلى وادي العرض ثم يعبر الأخـير هذا في طريقه إلى صعدة. لا يصلح هذا الجانب للدرب المشهور لحركة السـيارات. ينحدر وادي شجع نفسه من

سلسلة ضربة العالية إلى الوراء ناحية شمال الشمال الغربي، حيث يكون منبعه هو مسيل الخربان.

خرج فرج حاملاً بندقيتي ومعه أرنباً، بينما كنت أقوم بأنشطتي الجغرافية، لم ألحظ طيوراً لافتة للانتباه وقد كانت البلابل متوافرة هنا وكذلك البلاكستارتس و القنابر. كانت الليلة لطيفة وقد أحاطت بالقمر هالة من ألوان قوس قزح، بينما بشرت سحابات خفيفة بتغيير محتمل في الطقس. هبت الرياح أثناء النهار من جهة الجنوب الغربي، إلاَّ أنها سكنت تماماً عند غروب الشمس وقد أدفأت لنا الليلة إذ كانت درجة الحرارة الدنيا (٤٨) درجة.

أدهشني عدم وجود رعاة حول الماء عند وصولنا، والشخص الوحيد الذي كنا قد رأيناه، من غير أفراد مجموعتي، كان زائراً عابراً مسناً غبياً وكان قد شاهدنا من بعيد وجاء إلى المعسكر على أمل أن يحظى بوجبة طعام. كان اسمه حسين وهو من رعاة آل فاطمة -ربما يتبعون آل حشيش- ويرعون قطعانهم في سهل الحماد، وهو من شاكلة المرشدْين اللذين يعملان معي وكنا قد ألحقناهما معنا في وادي الحصن. وأطلقنا سراحهم حديثاً بعد نهاية العقد معهم. لقد ظل مرعي، وهو من قبيلة وادعة معنا، كما وافق حسين أن يرافقنا على الأقل إلى معسكرنا الآتي. لم يكونا متفقين دائماً على أسماء الأماكن، غير أنني وجدتهما مفيدين جداً كمصححين لبعضهما البعض.

صعدنا إلى خارج الوادي في الصباح من فوق عرن السلسلة لندخل ضبعة والذي وصلنا على جانبه الأيسر إلى عمود حدودي، من كومة صغيرة والحجارة غير بارزة. يبدو أن بطن المسيل يقع في أرض يمنية ويتصل مع وادي شجع أسفل عمود الجدليّة الحدودي. ثم وصلنا إلى كتلة كبيرة لحجر رملي، بعد أن واصلنا

سيـرنا على المسيل متجـهين ناحية غرب الـشمال الغربي إلى مـا يلي موقع تدفق حلقوم من عند سلسلة خطا العـالية تجاه الشمال الغـربي، كانت تلك الكتلة على الدرب عليها نقوش ثمودية طويلة مكونة من (٣٠) حـرفاً، بينما وجدنا على بعد مسافة بعض الرسوم للوعل وكلاب الصيد على صفحات جلاميد متشابهة مفككة. وصلنا هكذا إلى رأس ضبع على ارتفاع (٥٠٠) قدم فـوق موقع التقائه مع شجع كما دخل من الجانب البعيد مجرى رحب والذي يدخل إلى شجع أيضاً، قليلاً إلى أسفل.

دخلنا إلى مضيق جميل، بعد أن تتبعنا جانبه الأيسر، كان عرضه ١٠٠ ياردة ويقع بين صخور شديدة الانحدار، لنصل بعـدها إلى العمود الحدودي التالي (رقم ٢٣) الذي يعـرف باسم علـيب وهو اسم الجـزء الأعلى لمجـرى رحب من فـوق المضيق. كانت هنالك بركـتان كبيرتان للماء في هذا الموقع المجـرى، يقال: إنهما مستديمتـان، بينما برز شريط نحيل للبازلت يشق طريقـه إلى أعلى، خلال الصخر الرملي، ليكون طريقاً للعبور يبلغ عرضه (٧) أو (٨) أقدام وقد شمخت الصخور الرملية على جانبيه.

كان العمود الحدودي على قمة صخر رملي على جانب الوادي الأيسر، أعلى البـرك، والتي لا بد أن يكون مـوقعـها على بعـد (٥٠٠) قـدم أسفل منا. كـان الارتفاع هنا حوالي (٦٧٠٠) قدم فوق سطح البحر، وقد أمكننا رؤية بطن عليب وهي مرتفـعة في ثبات ناحـية سلسلة وعوع الصـخرية الرمليـة إلى الغرب، على مسافة ميل واحد فقط. أمكننا كذلك رؤية كوم الحجارة الحدودي لوعوع على قمة السلسلة وكذلك كوم حـجارة حدود الجدليّة إلى الخلف من موقـعنا ناحية الجنوب الشرقي. كان تل دلنان مـعلماً مثيراً للانتباه ويقع ناحـية الجنوب الذي إلى الشرق

منه يجري طريق الفيل أسعد كمال كما روى مرشداي، وهو يعبر أرض آل سحار متجهاً إلى صعدة.

ثم واصلنا سيرنا فوق الجانب الأيسر المرتفع لعليب، ووصلنا بعد ساعة من المسيرة الصعبة إلى قمة وعوع وإلى عمودها الحدودي، رقم (٢٤)، على ارتفاع (٧٣٠٠) قدم فوق سطح البحر. لقد سيطرنا، من هذه البقعة المثيرة، على منظر رائع ليس به إلا القليل من السمات الجديدة، مثل القلعة الصغيرة (قصبة الحيد) التي تقع فوق قمة هرمية على سلسلة السراة قليلاً ناحية الجنوب الغربي. قال عنها مرشداي أنها تطل على بلدة صغيرة أو قرية كبيرة اسمها ساقين عند قاعدة التل وعلى جانبه القريب.

ظهرت الآن جبال عرو ورازح، التي ورد ذكرها كثيراً أثناء المراحل الأولية لحرب اليمن، ولأول مرة من وراء الكتف الأيسر للجبل الأسود، وبالطبع، داخل الحدود اليمنية. يقع تل علب ناحية الشمال الغربي من موقعنا وتقع قلعة أم ليلى تجاه الجنوب الغربي، بينما وقفت شثاث في تجاه شمال الشمال الغربي ومعها قرن سبط الذي يشاهد بوضوح ناحية الشمال. كانت بعض قمم نجران مشاهدة من ناحية الشرق وهي قرن آل الحارث، وزبره، وعرير، بينما تقع الأعمدة الحدودية الأتم وشثيان ناحية شرق الجنوب الشرقي. يمكن أيضاً رؤية بربر، وبراش ومفلوك وكذلك برد البعيدة، ناحية الجنوب أكثر.

وصلنا بعد تسلق صعب فوق السفوح المنحدرة الحادة على الجانب البعيد من وعوع إلى هبوط في الارتفاع يقدر بـ (٥٠٠) قدم إلى مجرى تكسوه أشجار البالميتو ويسمى شعيب الظريفة، والذي ينساب من هنا ناحية الشمال الشرقي لمسافة قبل أن ينحني ليتصل مع وادي شجع من عند موقع دخوله إلى وادي الجدليّة

الصغير. توجد في حوضة وهي أعلى موقع اللقاء، بعض الثقوب المائية (حيرة) تسمى الظريفة. سلكنا هذا المجرى إلى أعلى ناحية الجنوب الغربي، حيث يصل إلى فاصل صخري ضيق يبعده عن وادي شعيب الشعبة. ينساب هذا المجرى جنوباً ليتصل مع شعيب ثيبان، الذي ينحدر من عند ممر علب ويتصل في نهاية الأمر مع وادي شجع بالقرب من موقع التقائه مع وادي العرض بالقرب من بربر. ينبع وادي شجع نفسه، كما قيل لي، من موقعين في جوانب كتله صخرية رملية تسمى ضراوية والتي كان عمودها الحدودي مرئياً لنا من عند القمة إلى الشمال الغربي من موقعنا.

توجد برك مائية في شعيب الشعبة عند موقع التقائه مع ثيبان، بينما يقع العمود الحدودي لشعبة على مسافة (٥٠٠) ياردة فقط من رأس الظريفة في اتجاه شمال الشمال الغربي وعلى ارتفاع (٧٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. قررت أن نتوقف عندما وصلنا إليه، للراحة ولننال قسطاً من النوم الخفيف على الرغم من أن الجو كان بارداً عند ذلك الارتفاع، وكانت السماء ملبدة بالسحب، منذرة بالرعود من جهة الجنوب الغربي. كان هذا هو كوم الحجارة الحدودي رقم (٢٥) في السلسلة الحدودية.

لقد أرسلنا حميرنا فوق طريق سهل لتقابلنا فيما يلي رأس الشعبة والذي يحمل صرف مياه سفحه الشمالي مسيل سيلة معدة الذي ينساب ناحية الشمال الشرقي ليتصل مع موقع التقاء كل من فرع جليل من ناحية الغرب وتقبلة على بعد نصف الميل من موقعنا، ويسمى المجرى بعد ذلك باسم الحجفاء ويواصل سيره ليتصل مع وادي شجع. لعل القارئ الآن قد أدرك التعقيد الكبير للنظام الصرفي في هذه الأرض الصخرية الرملية المكسرة، غير أنه يجب القول هنا بأنه بالنسبة

للرعاة المحليين المنتشرين في هذه الأراضي، فإن كل مجرى فيها يمثل قسماً من أراضي الرعي والتي هم دائماً على استعداد للدفاع عنها ضد المعتدين. مررت في هذا المسيل نفسه، أي سيلة معدة، أثناء هبوطنا، بتذكار كئيب وغريب لمعركة من هذه المعارك كانت قد حدثت قديماً وفي عام ١٨٩٤م بين قبيلة وادعة، وهم يدافعون عن مراعي بلادهم، وآل هشام وهم قسم من قبيلة وعيلة[1].

كان ما شاهدته هنا عبارة عن مجموعة أكوام من الحجارة وهي مبعثرة في المنطقة محددة الموقع الحقيقي حيث سقط الأفراد المدافعون عن القبيلة أثناء قتالهم المعتدين، والذين بناء على الروايات المحلية، التي تصف المعركة بأنها كانت كبيرة، قد تم دحرهم بخسارة كبيرة، توجد عشرات من هذه الأكوام الحجرية في المجموعة الواحدة لتشير إلى ثمن انتصار قبيلة وادعة. كما قد ذكرت لي معركة مماثلة أخرى، وأنها قد وقعت في ضهبة بالقرب من سلسلة الآجمعين جنوب شرق ظهران، ولقد ذكرت سابقاً موقع معركة ثالثة عند الهضبة جنوب بدر. امتطينا ظهور الحمير الآن لنواصل سفرنا فوق سفح سهل تجاه الكتلة البارزة التي تسمى ضراوية، والتي قد وصلنا إلى قاعدتها، التي كانت عند مستوى الارتفاع نفسه الذي كان عليه رأس الشعبة، وذلك خلال (٢٠) دقيقة.

كان صعودنا فوق الصخور على السفح المنحدر صعباً جداً. أصابت الجروح يدي بسبب الصدمات والسقوط المتكرر بين الجلاميد الحادة لهذه البلاد. وكان الأمر أيضاً صعباً على كعوب أرجلنا والأجزاء العليا للأحذية المطاطية. كان هذا الصعود

---

(١) الصراعات بين القبائل على أماكن المراعي وموارد المياه كانت من أعظم المشاكل التي تقابل الناس قديماً، واليوم خفت بدرجة كبيرة لوجود أجهزة حكومية تقضي بين الناس، وكذلك توفر مصادر رزق أخرى غير مهنتي الزراعة والرعي التي كانت توجد تلك الصراعات من خلال ممارستها. (ابن جريس).

من أسوأ ما قد واجهناه حتى الآن، برغم أن القمة كانت على ارتفاع (٤٠٠) قدم فقط من القاعدة، لنقل (٧٤٠٠) قدم فوق سطح البحر. سقط رذاذ مطر خفيف حينما وصلنا إلى القمة، في ذيل عاصفة كانت عابرة فوق المرتفعات الغربية من الجنوب إلى الشرق خلال فترة ما بعد الظهر كلها. سعدنا بعد ذلك بمشهد نادر لقوس قزح رائع ولمدة طويلة بألوانه البديعة- وكان طرفا دائرته التي تمثل ثلاثة أرباع الدائرة، ظاهرين بوضوح عند قاعدة السلسلة على الجانبين، بارزاً من عند الموقع نفسه الذي كنا قد بدأنا منه تسلقنا ومستديراً من فوقنا وإلى أمامنا ليهبط عند البقعة التي تنتظرنا فيها حميرنا، بعد أن استدارت حول السلسلة، على الجانب الآخر. خلدت بقية أفراد مجموعتي للراحة في المعسكر في هذه الأثناء لقضاء الليلة عند قاعدة تل يسمى مهد على بعد الميل الواحد تجاه شمال الشمال الغربي.

لم يكن هنالك ما يبرر بقاءنا أكثر من ذلك عند القمة، وقد اعتدت على المنظر العام، والذي كانت سمته الوحيدة الجديدة هي جرف عالٍ من صخور رملية يسمى غرا، ناحية الجنوب الغربي، على جانب واحد من الممر المشهور المسمى باب الحديد أو أم حديدة كما يسمونه في هذه الأنحاء[1]، وهو البوابة الحديدية التي تقود إلى اليمن عن طريق باقم. كما توجد كومة حجارة أخرى على قمة ضراوية على بعد الميل الواحد تجاه الغرب، غير أنها كانت أرضاً قبلية قديمة أو علامة حدودية. ولا دخل لها بالحدود الدولية، والتي وصلنا عندها إلى العمود الحدودي رقم (٢٦).

كان العمود الحدودي التالي، (٢٧) لا يزال على سلسلة ضراوية عند طرفها الشمالي ويسمى بل فريض الراكة. لا يزال قرن آل الحارث التابع لنجران مرئياً لنا

(١) وربما أطلقوا على هذه المواطن اسم (أبواب الحديد). (ابن جريس).

ناحية الشرق، غير أن بقية المعالم الأرضية الأخرى لنجران قد غابت عنا بسبب السلاسل المعترضة.

لم يعترف حسين الفاطمي، على أي حال، بقرن آل الحارث، كما أنه لم يكن مفيداً كمرشد وكان كذلك حال مرعي الوادعي برغم أنه كان يثرثر كالقرد. يرتدي حسين ثوباً من السمق مصبوغ بكثافة بالنيلة وملتصقاً مع جلده، ويرتدي فوقه سمقاً أبيض اللون للأناقة. وكان يحتذي صندلاً مصنوعاً من مطاط إطارات سيارات تالفة، وكان دائماً يحمل أحد الحذائين ليحميه من ضرر الصخور! كان ابن داهش يمثل دعامتي الأساسية، برغم أنه لم يكشف عن أي معلومات جغرافية تفصيلة، خلال هذه الأيام الطويلة الكئيبة التي قطعناها سيراً على الأقدام، ونحن نصعد صائمين. تركت فرج واستقلاليته للصيد، علماً بأن ذلك لم يكن كثيراً، إلاَّ من أرنبة خجولة، في هذه البلاد المعزولة. لم أر الكثير من بقية الرفاق، إلاَّ في المعسكر فقد كانوا سعداء بمتابعتهم للطريق الأقل مقاومة والأكثر راحة.

وصلنا إلى المعسكر مع غروب الشمس وقد مررنا بصخرة على جانب الطريق وعليها نقوش ثمودية، وتركت أمر نسخها إلى صباح الغد. كان يوجد نقش آخر من تسعة حروف يقع بعيداً قليلاً من الصخرة الكبيرة والتي كانت صفحتها مغطاة بنقوش عديدة تشتمل على (٦٥) حرفاً في جملتها. أقمنا معسكرنا في تل مهد على الجانب الأيسر لوادي تقبلة والذي كانت توجد فيه أيكة جميلة من شجر القمر، والذي يستخلص البدو من سيقانها اللحمية دهناً يستخدمونه في علاج الجرب[١] وغيره من أوجاع الجمال.

(١) الجَرَبْ:ـ من الأمراض التي تصيب الإبل، وقد تعالج من هذا المرض إذا تم دهن جلودها، أو مكان المرض بمادة (قطران) المستخلصة من جذوع بعض الأشجار المحلية كالعتم والطلح وغيرها. (ابن جريس).

رأينا في هذا المجرى وفي مصارف مماثلة في هذه المنطقة، الكثير من شجرة يسمونها نهدية شديدة الشبة بالطعسوس، والتي تستخدمها النسوة في غسيل الشعر. كانت شجرة القرظ وافرة هنا، إلاَّ أن ابن داهش ذكر لي بأن أوراق القرظ، على عكس الطلح وأنواعه الأخرى، لا يصلح علفاً للإبل. لقد شاهدت الجمال تأكله بحرية في حضرموت، ويبدو أن الجمال المحلية هنا تفعل ذلك أيضاً، إلاَّ أنها لا بد وأن تتأقلم عليها طوعاً أو كرهاً. تتأذى الجمال الغريبة من أكله كما حدث لجمال السعوديين أثناء العمليات في الحماد خلال حرب اليمن. كانت هذه البلاد أرضاً كئيبة ومعزولة، على الرغم من كسائها النباتي الأخضر، يبدو أن شجرة اللبان (اعربة) تنمو بغزارة في هذه السلاسل الصخرية الرملية مثل سلسلة وعوع وضراوية.

سلكنا سلسلة نهد صباح اليوم التالي، صاعدين إلى أعلى الوادي إلى فترة، قبل أن نضرب تجاه الغرب من خلال غابة من أشجار القرظ أسفل ضراوية إلى القاعدة الشمالية لضراوية، والتي وصلنا إليها خلال (٢٥) دقيقة. ثم وصلنا بعد (١٠) دقائق من الصعود إلى العمود الحدودي (رقم ٢٧) الذي يقع عند ارتفاع (٧١٠٠) قدم فوق سطح البحر في سرج منخفض به قمتين للسلسلة يقعان في أقصى الشمال. يجري مسيل فريض الراكة، على الجانب البعيد منه، إلى أسفل في اتجاه الجنوب ليتصل مع ثيبان. ثم هبطنا سالكين الطريق الذي صعدنا عليه، وكنا ممتطين حميرنا، وتواصل السير على الخط الكفافي لقاعدة ضراوية إلى مسيل المعول، الذي سلكناه إلى رأسه في المضيق، والذي من عنده هبطنا إلى مسيل العروس. يجري مسيل العروس بجوار بعض البرك الواقعة في بطنه ليتصل مع

شعـيب مجازة من نـاحية الغـرب، والذي بدوره يتصل مع المعـول إلى أسفل مع شعيب حجر، ومنه إلى وادي الحصن.

تركنا العروس بـالقرب من منحنى البرك وضـربنا السيـر فوق مسـيل يسمى عجمـة المعول والذي هبطنا من عند رأسه إلى شـعيب البطيح الذي سلكناه، وهو رافد لمجزة. أصبحت التلال شديدة التشابك ومختلطة ويصعب رؤية ما يحدث في الحدود، التي تقع على امتداد طريق متعـرج يجري تجاه الغرب. كان مسيل البطيح قليل الأشجار والتف بعد فترة ناحية رأسه في سلسلة وردية اللون وليست بالبعيدة ناحية الشـمال الغربي، تاركاً لنا في مدرج جبلـي طبيعي والذي من عنده وصلنا، بعد تسلق استمر مـدة ساعة على السفوح الصخرية العادية، إلى قـمة جبل عضد وعموده الحدودي القائم على حافة هوة رهيبة.

كان ارتفاعنا على هذه القـمة حوالي (٧٦٥٠) قدماً فـوق سطح البحر، وهو أعلى موقع وصلناه في الحدود حتى الآن، ولا بد أن يكون حوض وادي ثيبان عند أسفل الهاوية على بعـد (٢٠٠٠) قدم أسفل من موقعنا وقد هبطت عـليه صخرة شديدة الانحـدار وتستدير من حوله في شـكل نصف دائرة جروف مخيـفة لتكوِّن صدعاً يبلغ عرضه (٢٠٠) ياردة والذي ينحدر منه مسـيل ثيبان ومسيل آخر يسمى يباد من جـهة الغرب والجنوب الغربي بالتـتالي في سباقـهما ناحيـة كل من شجع والعرض. كان كـلاهما جافاً في هذا الوقت، وكان بطن الهوة مـحتوياً على برك متقطـعة غير أن الأمر يحـتاج إلى قليل من الخيال لـتصور ما سيكون عـليه الحال خلال موسم السيول وحين تصب المياه الهادرة من هذا العلو.

يهبط مسيل يبـاد من عند فجوة في الصخر الرملي على مسـافة أميال قليلة، وتقع قرية يباد نفسها إلى الوراء على السلسلة نفسـها، بينما يقع منبع ثيبان ببضعة

أميال في أرض مرتفعة مكسرة. نحن نقترب الآن من الجرف العظيم ذي السلسلة البركانية المسطحة واسمه جبل شعير الذي وضحت حافته بجوار علب، الذي لم يكن مرئياً لنا، إلاَّ أنه يقع غرب الشمال الغربي خلف كتلة صبحطل[1] المعترضة. كانت أبعد النقاط المرئية لنا هي قرن سبط ناحية الشمال والمعلم الأرضي برد ناحية الجنوب الشرقي.

قضينا حوالي ساعة عند هذه النقطة الحدودية (رقم ٢٨) مستمتعين بالمنظر العظيم الذي وقفنا عليه. كما استغرق وصولنا إلى البقعة الحدودية التالية وهي فريض أسعر (رقم ٢٩) ساعة كاملة أخرى، على الرغم من أنها لم تبعد بأكثر من ميل واحد. كان الارتفاع مثل الارتفاع عند عضد حوالي (٧٦٠٠) قدم فوق سطح البحر، ولكي نصله كان علينا أن نهبط بعض الشيء لنصعد فوق سفح آخر يقودنا إلى مضيق ضيق والذي على جانبيه ينحدر المسيل بحدة إلى كل من ثيبان ومجازة بالتتالي - وهو منبع آخر مزدوج الرأس لوادي نجران.

يمتاز هذا العمود الحدودي بأنه لا يمكن رؤيته من أي موقع غير شثاث، وبعض التلال التي ساعدت على تثبيت موقعه، وقد استغرق وصولنا إلى العلامة الحدودية التالية، حوالي (٢٠) دقيقة فوق سلسلة واصلة صعبة، التي تقع على هضبة صبحطل العالية (رقم ٣٠) والتي يبلغ ارتفاعها (٧٨٠٠) قدم فوق سطح البحر. لقد كانت هضبة منعزلة، تملأ الفجوة بين جرف عضد وجرف السلسلة وقد تم وضع العمود الحدودي عند النقطة الوسطية. ثم ظهرت إلى البعيد ناحية

---

(١) صبحطل:ـ يطلق عليه أيضاً اسم سبحطل. (ابن جريس).

الجنوب كتلة جبال جديدة يمنية، كنا قد رأيناها من قبل من عند أسعر، وكأنها هضبة حادة الجنبات، إلاَّ أن مرشدَيَّ لم يقدما لها اسماً. كان كل من قرن سبط وقرن آل حرث مرئيين لنا ناحية الشمال وناحية الشرق بالتتالي، بينما تقع أمامنا تقريباً، سلسلة شعير ومعها ممر علب الذي يقع في طرفها الشمالي.

وصلنا بعد مسيرة (٤٠) دقيقة على الأقدام إلى الطرف الغربي الأقصى لأرض صبحطل النجدية، والتي تنفصل عن هضبة مماثلة ولكن أصغر منها تقع ناحية الغرب وتسمى فريض المحدث، بواسطة مضيق عميق ينحدر إلى (٦٠٠) أو (٧٠٠) قدم بين صخور شديدة الانحدار والتي يسقط من فوقها مسيل فريض المحدث في طريقه للاتصال مع ثيبان. يقع العمود الحدودي التالي (رقم ٣١) على حافة فريض المحدث على بعد (٢٥٠) ياردة من موقعنا، عبر المضيق، قليلاً ناحية الشمال الغربي، وفي خط مستقيم عبر شعيب المزيرعة، مع رأس مسيل علب حيث يهوى إلى الجرف. لقد أرهقتني ضغوط عمل اليوم وقد تقدم النهار وضعفت مقدرتي على العطاء، بينما حذرتنا طبول الرعد المتدحرجة من ناحية الغرب فوق فيفا بأنه قد حان الوقت لمغادرة المرتفعات إلى الأرض. أجَّلتُ رؤية عمود محدث الحدودي وأسرعنا إلى المعسكر. كنا نرى زملاءنا وهم مستريحون في الأسفل، على بعد يقل عن ميل واحد، في حوض فجة البيضاء عند سفح الجبل، على بعد (٥٠٠) قدم إلى أسفل من موقعنا. كان الهبوط صعباً بحق على الصخر الرملي من أعلاه إلى أسفله. كانت الطبقات السفلى، وإلى عمق (٣٠٠) قدم، من حجر رملي أكثر بياضاً من الرخام وكان في تضاد مثير مع اللون الأسمر المحمر والصخور السوداء في المستويات العليا.

كان القمر بدراً هذه الليلة، يلمع فوق مخـابي انسحابنا بين الجروف الضخمة التي شمخت فوقنا، وهي جروف بيضاء وقفت في شبه دائرة كبيرة من عند التلال العالية حـول الحوض الذي يجري فيه مسـيل بياض ناحية الشرق. تمثل مجـموعة الطيور هنا بطيـور السوَّادية والأبلق، بينما لاحظنا أثنـاء النهار آثار الوعل على تل صبحطل وشاهدنا كذلك بقايا ماعز كان قد قتله ذئب وأكله.

تحـول الطقس إلى الدفء، وكـانت الدرجـة الدنيـا للحـرارة في هذا الموقع المحمي (٥٩) درجة، بينما كانت الحـرارة في وادي مهد المحمي أيضاً (٥٢) درجة لقد شققت تأثيرات الشمس نهـاراً، والرياح الباردة عند القمم، والظروف المعتدلة في هذه الليالي، إضافة إلى التسلق الصـعب بين الصخور، كلاً من وجهي وأنفي وأصابعي وظهـر يدي إلى الدرجة التي لم تزعجني فـقط، بل سببت لي مـتاعب خطيرة. كـانت ذروة ذلك خلال مـسيـرة اليوم، حيـنما اكتـشف أنه، عن طريق إهمالي وعدم انتـباهي، فإن بعض تقرحاتي بدأت تتـقيح وتمتص طاقتي. لم يكن معي من المؤن الطبيـة غير اللفافات، إلاَّ أنني جلست اغـتسل بالماء والصابون عند المسـاء لإعـادة صيـانة جـسـمي، وكنت في الصـبـاح أؤدي عمـلي وأنا ملفلف بالشرائط، غير أن ذلك لم يكن نهاية متاعبي بأي حال.

واصلنا عملنا فـي الصباح خارج فـجة البيـضاء على امتـداد خطوط الكفاف لسـفح فريض المحـدث، الذي يرتفع تدريجـياً وهو أمـر صـعب على الحيـوانات السالكة في الممر، غير أنه لم يكن صـعباً علينا مع بعض الزحف من حين لآخر. استغـرق وصولنا إلى حافة هضبـة فريض المحدث حوالي نصف السـاعة، وكانت أقل ارتفـاعاً من صبـحطل بحوالـي (٢٠٠) قدم وتقع تجـاه الغرب من عـمودها الحدودي. مررنا بعـدد من البرك الصخرية أثناء صـعودنا وكانت كلها مليـئة بالمياه

نتيجة للأمطار الأخيرة، كما كانت هنالك برك بين جروف فجة البيضاء، غير أن الأخيرة هذه يقال عنها إنها تجف صيفاً. كانت قمة فريض المحدث مكسوة بالشجيرات الخفيضة وببعض أشجار القمر وبشجرات الشث زيتونية اللون.

سرنا على الأقدام فوق هذه الهضبة مدة (١٥) دقيقة، لنصل إلى العمود الحدودي التالي واسمه رأس المزيرعة (رقم ٣٢)، وقد تخرب تماماً، ربما بفعل الرياح والسيول. يقف العمود بجوار بركة كبيرة ضحلة، كانت جافة تماماً في هذا الوقت، داخل حوض من حجر رملي عند زاوية الهضبة حيث يهبط مسيل شعيب القوم من عند سلسلة الحضار ناحية غرب الشمال الغربي من موقعنا، ويتفرع إلى جزأين، أحدهما يجري شرقاً ليكوِّن رأس شعيب المزيرعة ويتجه الآخر جنوباً ليصب في الجزء الأعلى من مجرى علب، الذي يجري إلى أسفل حيث وادي شجع. كان علينا أن نبحث عن طريق مختصر وقد واجهتنا جلاميد عالية، مما دفعنا للعودة على أثر طريقنا لبعض المسافة ثم لنصعد وبمشقة إلى أسفل المجرى المزيرعة الأعلى، والذي كنا قد سلكناه إلى مضيق ضيق على ارتفاع (٧٦٥٠) قدماً فوق سطح البحر، والذي كان يمر عبر طريق الجمال اليمني الذي يتجه إلى مسيل علب ومن ثم على امتداد المزيرعة ليمر داخل شعيب القوم. تجمعت أشجار العرعر في هذه المنطقة، وكنا قد رأيناها متفرقة حول صبحطل، وكان بعضها هنا مثمراً. كانت الشجرة اللافتة للانتباه التي رأيناها لأول مرة في شعيب المزيرعة هي شجرة كثا، التي اتضح أنها زيتون بري.

تضمن الغطاء النباتي العالي المحلي نبات مجره ونبات أثق كما قابلنا ونحن في طريقنا إلى هذا المكان، فتاة في السادسة عشرة من عمرها (غير متزوجة) ترتدي سمقاً جميلاً حديث الصبغ بالنيلة وكانت خصلات شعرها مدهنة جيداً

ومكشوفة، وهي تمضي في طريقها وحيدة من عند مخيمها وذلك لزيارة للجرف المجاور. كانت فيما يبدو شخصية مشهورة، فهي واحدة من ستة من البنات، تزوج اثنتان منهن، والدهن هو محمد بن شيخ من قبيلة وادعة، الذي مات منذ زمن دون أن يخلف أبناء ذكور يرثونه.

استغرق وصولنا إلى العمود الحدودي (رقم ٣٣) عند رأس شعب القوم حوالي ساعة كاملة من المشي الجاد المرهق على الأقدام عبر مجاري صعبة لكل من المزيرعة وشعب القوم، على ارتفاع (٧٧٠٠) قدم فوق سطح البحر. تقع كل الهضبة داخل الزاوية التي يكوِّنها هذان المسيلان وكانت هضبة خضراء مريحة وبها العديد من المنخفضات المشجرة التي أصابتها الأمطار الأخيرة وبدت طازجة المظهر. اتجهنا الآن ناحية الجنوب الغربي، عبر التركيبة نفسها من الصخر الرملي لهضبة البلاد، التي انتهت فجأة عند قاعدة الوتر لسلاسل البركانية التي تكون القمة، للجرف الفعلي، الذي ينحدر من الجانب البعيد إلى هوة تهامة وإلى صدوعها. ثم تسلقنا السفح الشرقي الصعب لسلسلة بركانية لنقف على قمتها على ارتفاع (٧٨٠٠) قدم فوق سطح البحر. يقف العمود الحدودي لعلب على هضبة منعزلة على مسافة قليلة من موقعنا، تجاه جنوب الجنوب الغربي عند رأس العقبة المشهور، ومن عنده يهبط طريق شديد الانحدار عبر فتحة في الصخر تسمى الحنكة، ثم إلى قرية المريسيقة اليمنية التي تقع إلى أسفلنا بحوالي (٢٠٠٠) قدم وتبعد مسافة ميلين في خط مستقيم موقعنا.

لم نكن في عجلة من أمرنا للذهاب إلى العقبة حيث سيكون معسكرنا، أثناء جلوسنا على السلسلة نستمتع بالمنظر، وصل إلى سمعي صوت يشبه صوت حصان يعدو، لم يكن لديَّ الوقت لأسجل هذه الظاهرة، حينما برز من عند

الزاوية للسلسلة وعل ذكـر مكتمل النمو، كـائن رائع ذو قرون ثقـيلة، يخب أمام عيوننا بيسر فوق صخور البازلت الصـعبة. لقد كان رجل الشرطة الجالس بجواري بطيئاً في استعمال بندقيتـه واختفى الحيوان من وراء منحنى في الجرف قبل أن أجد وقتـاً أطلق فيه رصاصـة. لم يتملكني الأسف على ذلك، على أي حـال. كانت هذه هي أول مرة أرى فيها وعلاً في بيئته المحلية الطبيعية في جبال الجزيرة العربية، وقد رأيت الحيوان بكامـله أمامي مدة دقيقة كاملة علـى مسافة (١٠٠) ياردة مني، وهو مشهد لا يمكن أن ينسى. أسـرع محمد بن مسفر فوراً في ملاحـقته، غير أنه لم يره مطلقاً. لقـد كانت أمامه فرصـة الحياة غير أنه لم يكن مـستعداً لهـا حينما جاءت.

كان المنظر فوق جـبال تهامة يمتد أمامـنا باتساع غير أنه قد اعتـرضت صفاءه سحب منخـفضة، مما جعل التـقاط التفاصيـل أمراً صعباً. تقف الأرض المـرتفعة البركانية التي تسمى مندبة مباشرة خلف العقبة وداخل أرض يمنية ممتدة غرباً لتكون زاوية مع سلسلة علب والحـضار، والـتي نقف نحن فوقـها الآن، وهي تمتـد من الجنوب إلى الجنوب الغربي، وتحجب المنظر في ذلك الاتجـاه. غير أن كتل كل من مرعة وقـعمة قراد قد برزتا جزئـياً فيما يلي وأعلى من كـتف مندبة وإلى اليسار، وكان جبل فيفـا بارزاً بين جبال تهامة ناحية الغرب ومن حـوله كتل منجد وثهران وغيرها.

سرنا على مـهل إلى العقـبة لنعسـكر في كهوف رائعـة في صخـوره الرملية الترسبية أسفل قمة البازلت. يقع الممر على ارتفاع (٧٥٠٠) قدم فوق سطح البحر في منخفض في قمة الجرف. وقد سـيطرتُ على منظر عظيم من عند كهفي، يمتد من ضلع إلى آخر لأكتاف الجبال البارزة من الجدار الشديد الانحدار للجرف. وهو

جدار يرتفع إلى (٢٠٠٠) قدم ويتعرج تجاه الشمال في سلسلة مصفوفة من أراضٍ رأسية، وجدار من صخر رملي أحمر تكسوه قلنسوة رفيعة من البازلت، والذي كسحت حجارته المتساقطة المائة قدم العليا من صخرة التحتي. كنت مرهقاً جداً عند الوصول، ومتعباً بسبب التسلق ولا أزال أشعر بآثار تقرحاتي الملتهبة.

استلقيت بسبب ذلك لأنام في كهفي، وبرغم الإزعاجات الصادرة من أكثر من جهة، إلا أنني قد نمت براحة كافية من الساعة (٢,٣٠) حتى غروب الشمس، حيث كنت مستعداً لتناول بعض المنعشات، مع عدم ميلي إلى النشاط. صحوت عند الساعة (٤,٣٠) على جلجلة رعد عنيف، معلناً لنا بقدوم العاصفة. ثم جاءت العاصفة، مندفعة شمالاً في مقدمة إعصار، غير أنها تركتنا جافين وأمطرت فوق الجبال الواقعة ناحية الغرب إلا أن العاصفة عادت مرة أخرى ولكنها لم تصبنا للمرة الثانية، وقد مرت فوقنا تجاه الشرق. ثم اختفت العاصفة نهائياً مع غروب الشمس، وقد صفا الجو ليعبره القمر، إلاَّ أن الجو قد برد إلى جانب أن قروحي والشرائط ومع الألم الواخز قد سببت لي الكثير من عدم الراحة، وجعلني أحس بأنني خارج حالتي الطبيعية. عزلت نفسي -على أي حال- في كهفي وقد فاتتني المجموعة الضاحكة من رجال الحمير الذين عادوا بعلب فارغة من باقم إلى ظهران، وهم يتلكأون ليدركوا فرصة تناولهم العشاء مع رفاقي.

قررت أن أقضي كل يوم الغد (٢٩ نوفمبر) هنا وأن آخذ الأمور ببساطة وأعطي لنفسي فترة استرداد للعافية. كان الموقع مريحاً حقاً لكي أنال إجازة، وقد واكبنا الحظ في أن نعترض مسار شحنة عنب لذيذ كانت متجهة إلى سوق ظهران. لقد كانت قافلة كبيرة من الجمال والحمير وأقبلت عبر طريق يتلوى من باقم هذا

الصباح. كانت الحمير محملة بالعنب في الصناديق الخشبية المعروفة. التي تم صنعها أصلاً لتحتوي على علب البرافين، بينما حملت الجمال المواد الثقيلة الأخرى مثل البن في حقائب (مزودات) مصنوعة من جلود الجمال[١].

يجري وادي علب، من عند الممر، وهو هنا أشبه ما يكون بالمسيل، تجاه الجنوب الشرقي. ثم يدور الطريق على مسافة (٥٠٠) ياردة ليهبط إلى أسفل عبر ممر صعب بين سلاسل منخفضة، ليرتفع مرة أخرى سريعاً إلى ممر آخر يسمى الشطبة الذي ينساب من عنده مسيل يقود مباشرة إلى قرية يباد. يلتف الوادي من هناك تجاه الغرب إلى ممر أم حديدة الرئيس (باب الحديد)، الذي يقع على مسافة ميلين تجاه الجنوب من عند عقبة علب، ويبعد تقريباً نحو ثلاثة أميال إلى الشمال من باقم. لم نستطع رؤية أي من القرى التي ورد ذكرها. يجري الطريق ناحية الجنوب الشرقي من باقم مسافة (١٥) ميلاً إلى سقي فوق أرض بني جمعة، ومنها وبمسافة مماثلة، إلى سعيد في أرض بني سحار -تنتمي إلى ابن مناع-. يتبقى بعد ذلك مسافة خمسة أميال فوق سهل منزرع ليصل الطريق إلى صعدة.

يبدو أن علب هو الاسم المحلي الذي يستخدم للممر الذي يشار إليه غالباً باسم علبين في داخل البلاد، مثلاً، في نجران والرياض. يعني هذا بوضوح أن «علبين» هي مثنى «علب» ويشير إلى الصفة المزدوجة للعقبة، التي ليست فقط تقود إلى اليمن عن طريق باقم كما ورد وصفه، بل تلتقي إلى أسفل بطريق قديم

---

(١) هذه (المزودات) يطلق عليها في اللغة اسم (عياب) ومفردها عيبة، وهو وعاء ينقل فيه الزرع المحصود من مزارعه إلى أماكن درسه وخزنه. واسم عيبة مصطلح دارج عند معظم سكان جنوبي البلاد السعودية، وكان يستخدمها أصحاب المزارع إلى وقت قريب، بل لا زال يوجد منها بعض النماذج في المتاحف المحلية بهذه البلاد. (ابن جريس).

في الصدوع المنحدرة لحنكة وفي اتجاه تهامة. تقع قـرية المريسيقة اليمنية عند أسفل حنكة على بعد (٢٠٠٠) قدم إلى أسـفل من موقعنا، وهي محتـضنة بين سفوح مضيق يسمى الشعثاء،وهي قرية تنتمي إلى عناصر من قبيلة سحار التابعة لخولان.

يغير الحنكة، ومـعه تلال الحرف وخيمـة على جانبه الأيسر اسـمه أسفل هذا الموقع، إلى اسم أم جوة[1] وذلك بعد تدفق مسايل أخرى إليه وينساب إلى شعيب موتان إلى أسفل فـي شبكة واسعة من التلال، وهذا بدوره يـنحدر إلى دفاء الذي سنصله في وقتـه. لا توجد قرى، إلى جـانب أطلال قرية الرهوة (أيضاً سـحار) على مسافة ميل واحد إلى أسفل، في هذه السلسلة من المسايل، غير المريسيقة التي يوجد بها برجان و(١٢) من عشش ذات طابق واحد كلها مبنية من اللبن في وسط الحقول والنخيل.

يكون الشـريط العـام -الحنكة، والجوه، ومـوتان، والريث، الخط الحـدودي الذي كان يعلّم على فـترات بالأعمدة، التي لم أقم بزيارتها ولكـني نظرت إليها، وكـانت أحـياناً بـلا وضوح تام، وذلك مـن عدة نقـاط من على الجـرف وبهـذا استطعت أن أضعها على الخريطة مـع درجة قريبة من الدقة. لم أرغب في الإساءة إلى آداب المعايشة بسؤالي عن إمكانية الحصول على دليل من مريسيقة اليمنية الذين يبدو أنـهم غير واعـين بوجودنا في الممـر أو أنه لا يهمـهم الأمر ليـقومـوا حتى بزيارتنا. شعرت حـقيقة، بأنني أنفـر من الإجهاد الذي ستسـببه دراسة تفـصيلية لعلامـات الحدود في تلك المنطقـة. لقد رحب رفـاقي بحماس بـقراري أن نسلك

---

(١) أم جوه:ـ يطلق عليـها أيضاً اسم (الجـوه). وهناك كثير من المصطـلحات في أجزاء تهامـة والمنحدرات الغربية من السروات (الأصدار) في جنوبي البلاد السعودية يقلب فيها حرفي (ال) إلى حرفي (أم)، مثلاً؛ الجوه تنطق أحياناً أم جوه. . . وهكذا. (ابن جريس).

الطريق الأقل مقاومة لنا وأن أكتفي باعتبار المنظر التحليقي للحدود في تلك المجموعة المرتبكة من التلال والسلاسل والمسايل.

كان العمود الحدودي والذي يحمل الرقم (٣٤) على صخرة صغيرة بارزة بالقرب من ممر علب آخر علامات الهضبة. تجري الحدود من عنده إلى أسفل إلى الحنكة إلى موقع قريب من أطلال الرهوة التي يقف في مقابلتها وعلى جانب الوادي الأيمن عمود الرهوة (رقم ٣٥) الذي يبعد حوالي ميلين من الممر. تتبع الحدود بعد ذلك مجرى الحنكة مارة بالجانب الشمالي لسلسلة الحرف وسلسلة خيمة، غير أن الأعمدة، مرتدة إلى الجانب الأيسر، تسلك طريقاً مختصراً عبر قاعدة الانبعاج، على امتداد الشريط للممر القديم الذي يقود من غرب الرهوة إلى بلاد الريث.

توجد ثلاثة أعمدة في هذا الامتداد القصير من الأرض، كلها قائمة فوق هضبات منخفضة أو سلاسل، وهي: برق (رقم ٣٦)، والبيضاء (رقم ٣٧) ونيد الكحل (رقم ٣٨)، معلمة ممراً منخفضاً الذي يبدو الطريق من بعده هابطاً إلى أم جوة، عند نهاية الانبعاج البعيدة. تقف قشبة (رقم ٣٩) ومجزع القرظ (رقم ٤٠) وهما العمودان الحدوديان التاليان، على نقاط على السلسلة التي تكون الجانب الأيسر لهذا المجرى، بينما يقع العمود الحدودي رقم ٤١ وهو آخر الأعمدة التي تهمني فوق عرن سلسلة منجد أو ثهران، تقريباً عند الموقع الذي يترك فيه أم جوة (الجوة) المجال لوادي دفاء، بعد اتحاده مع مصارف أخرى من الجانب الشرقي لهذه الجبال، لقد قدرت أن المسافة من عند ممر علب إلى عمود الحمرة هذا[1]، حوالي

(١) عمود حمرة:ـ يطلق عليه أيضاً اسم (عمود حمرة دفاء) (ابن جريس).

سبعة أميال، غير أن طول الحدود الفعلي بين هذين الموقعين من حول الانبعاج كان على الأقل ضعف تلك المسافة.

تقع الحمـرة قليلاً إلى الجنوب الغـربي من علب، بينما كـان الطرف البعـيد للانبعاج الشمالي على بعد أربعة أميـال اتجاه الشمال الغربي، كان المنظر محجوباً، فيما يلي الحمرة، بسلسلة فيفا وشقيـقاتها العملاقة، وهي جبال عظيمة تشمخ إلى (٧٠٠٠) قدم فيما يلي ارتفاعات أقل تقع بينها وبين الجرف العظيم. نحن لا نرى شيئاً من سهل تهامة ولا البحـر، غير أن ميناء جازان يقع على بعد (٥٠) ميلاً في خط مستقيم مع فيفا، نـاحية الجنوب الغربي. يعترض المنظر الذي نشاهده كل من الجبل الأسـود وجبل مرعة من جـهة الجنوب، بينما لا تزال بربر تشاهد مـن جهة الجنوب الشرقي.

أقبلت العـاصفة للمرة الثـانية من جهة الجنوب، غـامرة للمرتفعـات الجنوبية الغربية بجداول مياه أمطارها وقد حولت المعـسكر إلى حالة بائسة وكانت تصحبها رياح باردة ظلت تهب على مدى سـاعتين بعد غروب الشـمس. تحسنت الأحوال كثيراً مع تقدم المسـاء وقد صفت السماء واستقرت مجمـوعتنا بعد يوم قليل الجهد ووجبة عشاء يسودها اللحم والعنب في كهفي في آخر ليلة لي أقضيها فوق الهضبة الحدودية. سنكون مـتجهين إلى وطننا صـباح الغد وطننـا الذي لن نصله إلاّ بعد شهرين ونصف الشـهر. سيكون أمامنا العديد من الجولات وكـثير من المحن ولمدة تصل إلى ثمانـين يوماً في أرض أكثـر غرابة من صحـراء الجزيرة العـربية - أرض استـوائية من سهـل وجبل ويسكنها أناس أكـثر بدائيـة من عرب صحـراء الجزيرة العربية.

الفصل الثالث والعشرون

عودة إلى شراقب[1]

اتجهنا ناحية الشمال في آخر أيام نوفمبر. كان من الأجدر لنا أن نتبع الحدود من عند ممر علب وعبر جبال تهامة إلى البحر، غير أن عدة أسباب حالت دون ذلك، خاصة حاجتنا إلى مرشدين، واستحالة أن نجد أحداً لهذه المهمة في شريط التلال العارية، والسلاسل التي تقع بين علب وفيفا. كان عليَّ نتيجة لذلك أن أترك فراغاً صغيراً في الخريطة الفعلية للحدود، بالدرجة التي تدل على أن الأمر ثانوي الأهمية، بينما كان المخطط الذي حددته لنا السلطات هو أن يحقق لي رؤية الكثير من بلاد تهامة، أكثر مما قد فعلت الآن. كان الممر العملي التالي الذي يقع إلى الشمال من علبٍ، هو ممر عقبة شراقب بالقرب من قرية الحوط في وادي راحة، ولكي نصل إلى هناك فعلينا أن نعود عبر ظهران والحوط نفسها، برغم أنه إلى جانب تماسنا بهذين الموقعين وبالطلحة، فإن طريق عودتنا كان يجري فوق بلاد جديدة علينا مما مكنني من إكمال مسح الهضبة.

---

(١) شراقب:ــ هي طريق (عقبة وجمعها عقبات) تربط بين أعالي السروات في بلاد ظهران الجنوب وبين منطقة الأصدار والأجزاء التهامية في أعالي وادي بيش. ومثل هذا الطريق (العقبة) توجد هناك طرق (عقبات) عديدة في البلاد الممتدة من ظهران الجنوب حتى الطائف، وجميعها تربط أعالي السروات بالأجزاء التهامية، ومن هذه (العقبات) ما تم تحويله إلى طرق رئيسة مسفلتة تسلكها السيارات بأنواعها، ومنها لا زال شديد الوعورة، ولكن السيارات القوية في صنعها وعزمها تسلكها مع بعض الصعوبات. (ابن جريس).

يقع أول أجـزائه، من عند علب إلى ظهـران عن طريق درب البن[١]، قريـباً أكثر من الجـانب الشرقي للقلنسوة البازلتيـة، ويكون الجرف الفعلي وهو منبع كل خطوط الصرف التي تجـري شرقاً إلى الـصحراء وغـرباً إلى البحر. كـانت تكسو سماء تهامـة سحب منخفضة إلى البعـيد ناحية الشمال الغربي مـع بداية مسيرتنا. غير أن قـمم التلال كانت واضحة، وكـان أمامنا منظر رائع للجبال الغـربية. لقد سرت راجلاً على الحافة الغربية للقلنسوة البازلتية المكسوة بالحصى، إلى موقع يطل على وادي الحنكة إلى أسفل، وعلى قرية مريسيقة خلف تل بتار عند ملتقى مسيلة مع الحنكة. ومن هذا الموقع أمكننا الحصول على منظر عام، لكل النقاط التي بُنيت عليها الحدود إلى قرب كومة الحجارة الحدودية لحمرة، على العرن الجنوبي لسلسلة طويلة عـاليـة، ذات القمم الأربعـة البـارزة، التي تقع ناحـية الـغرب من مـوقع المشاهدة، والتي يسـميهـا مرشدي: منجـد الفرعات. وتوجـد إلى ما يلي هذه، سلسلة أخرى، وعـدد من سلاسل تغطي كـتل كل من ثهران، وفيـفا، وزهوان، وينتهي ذيلها ناحية الشمال الغربي في جرف مرتفع شديد الانحدار في وادي ضلع بالقرب من أبها. كان مرشداي قليلي المعرفة بالأسـماء، ولـم أكن مقتنعاً بتعريفهم للقمم الـفردية من هذا الموقع، وكان عـليَّ أن أتركها لفـحص أكثـر دقة في وقت لاحق في جولتي. ارتفعنا الآن إلى قـمة قسم والحضار من القلنسوة البـازلتية التي من عندها كنت أشاهد منظراً رائـعاً للمنحدر الشديد للجـرف أسفل إلى الوادي. وكانـت الصخـور على عمق (٢٠٠) أو (٣٠٠) قـدم تحت قلنسوة البـازلت من

---

(١) درب البن:ـ عرف الطريق الذي يصل ظهران الجنوب ببعض الأجزاء في اليمن بهذا الاسم (درب البن)؛ وذلك لأن سلعة البن كانت هي البـضاعة الرئيسة التي تصدر من اليمن إلـى ظهران الجنوب والحرجة في بلاد قحطان، ثم من هناك تصدر إلى أسواق عديدة في الجزيرة العربية. (ابن جريس).

صخر رملي، حيث تمتد إلى (١٠٠٠) قدم أو أكثر إلى أسفل والتي يمكن رؤية الشست تحتها إلى مستوى الوادي حوالي (٢٠٠٠) قدم من تحتنا. كان هذا الشست هو المادة الرئيسة التي تكونت منها معظم جبال تهامة، غير أن الحجر الرملي هنا وهناك يتعارض في شكل سلاسل عالية شديدة الانحدار وعظيمة.

قضينا حوالي ثلاث ساعات فوق هذه الأميال القليلة لمسيرتنا نستمتع بالمنظر قبل أن نهبط آخر الأمر لنلحق بقافلة الحمير عند أسفل القلنسوة البازلتية على الجانب الشرقي. وحجبت هذه السلسلة الرؤيا عنا تماماً في اتجاه الغرب أثناء مسيرتنا، ولم نر بعد ذلك تهامة، إلاّ بعد وصولنا إلى ممر شراقب بعد أيام قليلة. لقد أصبحنا فوق طريق البن الذي يخترق هذه البلاد البازلتية الصعبة التي تصب كلها تجاه الشرق عبر عدد لا يحصى من المسايل والمضايق التي جرّحت سطح الصخرة الرملي. كان أول هذه هو شعيب الحضار الذي ينحدر من عند بازلت الحضار على يسارنا وينساب إلى أسفل، ليتصل في نهاية الأمر مع شعيب الزج[١]، الذي بدوره يتصل مع شعيب معس وهو رافد لوادي كتام الذي يجري إلى حبونا. وخرجنا من منطقة مستجمع الأمطار لوادي نجران. ثم أوصلنا منحدر صخري صعب خلال خمس دقائق إلى أسفل بطن وادي حضر الصخرية التي كانت قد احتفظت بالعديد من البرك المائية، ثم تسلقنا بعد عبورنا لهذه المنطقة إلى السفح المقابل، وهو صعب أيضاً والذي من عند قمته يواصل طريق القوافل المشهور اتجاهه إلى أسفل حتى منخفض أم الكوم الضحل، وهو رافد لوادي كتام.

لقد أوصلنا هذا بدوره إلى مضيق ضيق، تعلّمه كومة حجارة، والذي من عنده هبطنا تجاه رأس شعيب حليم قضض، وهو رافد مقاطع لكتام، الذي صعدنا

---

(١) شعيب الزج:ـ ربما يطلق عليه أيضاً اسم (الدج). (ابن جريس).

من عند جانبه الـبعيد عبـر ممر ضيق تحيط به الصخور يـسمى رهوات المسوَّان إلى رأس شعـيب أم سرب. هبط طريقنا مع هذا الوادي عـبر منظر رائع من جلامـيد صخرية رملية ممزقة، إلى ممر سلحات الضـيق الذي عنده يشق المسيل طريقاً له عبر الصخور. ويرتفع هذا المسيل في الجـوانب المشققة للجزء الشمالي البـعيد لقلنسوة الحضار الـبازلتية التي كـانت في هذا الوقت محتفظة بكمـية ضخمـة من المياه في بركها الصخـرية العديدة في غطاء نباتي مزدهر من أشجار القمـر وأشجار أخرى، بما في ذلك نسبة معتبرة من أشجار العرعر.

يتصل سرب مع مـسيل سبت في مكان ما إلى ما يـلي الممر الذي ينحدر من جهة الشمال ثم يتجه ناحية الشـرق فوق بطن صخري ضيق يقع بين الجلاميد. ثم ينبعج بعـد ذلك إلى أرض واسعـة ذات شجيـرات في الموقع الذي يتصل فـيه مع شعيب القمقم القادم من جهـة الشمال، في انحداره نحو وادي كتام، الذي يكون قمقم أحد روافده الواقعة في أقصى الشمال. لقد سلكناه إلى قرب رأسه في مسيل نجد حطب الذي ينبع من الجانب البازلتي لجبل مـرعود على مسافة نصف الميل إلى يسارنا. ويقع رأس مسـيل قمقم - نجد الحطب المعقد على ارتـفاع (٧٦٥٠) قدماً فوق مسـتوى البحر، ويمكـن رؤية المسيل الذي ينطلق إلى أسفل في اتجاه الـشمال الغـربي من عند الجانب البـعيـد للقـاسم، ويكون الرافد الجنوبي الأقـصى لوادي قبـضة. ويسمى أيضـاً، على أية حال، باسم قمـقم ويقوم بحمل الطريق لمسـافة نصف مـيل إلى أن يدور بعيـداً عنه ناحيـة الشرق. ثم يسـتمر الطـريق الآن فوق الأرض المرتفعة لحلقة من أرض مرتفعة مكسرة تكوّن رأسه، ويدخل فيما يليها إلى رافد آخر لقـبضة يسمى حـضن الجرذان، ليتبع واديه الصعب، لـنرتفع مرة أخرى فيما يليه إلى قطع في رأس وادي العرين، وهو مجرى ظهران.

تفتت السلسلة البازلتية على يسارنا إلى سهل منحدر حجري مائل بدرجة حادة، لا تسمح برؤية جبال تهامة، وممزق بالعديد من خطوط الصرف، مكونة الرأس العريضة لعرين. ويقف أمامنا الآن – قليلاً تجاه الجنوب الغربي – الهرم المسطبي البارز المسمى الرميح، وهو أول القمم الكبيرة للجرف. ويجري مجرى سارة – وهو رافد لعرين – الضحل فوق هذا السهل الميت الذي يقف في مجراه الأعلى برج مراقبة منعزل لقرية قصبه ابن حيان البارزة[١]. مررنا بها بعد فترة على مسافة نصف ميل إلى يسارنا ونحن نتابع مجرى سارة الذي اتجه تدريجياً شرقاً. ثم عبرنا إلى جانبه الأيسر بعد فترة، أعلى الموقع الذي يدخل فيه مضيقاً عميقاً ضيقاً، ثم صعدنا جانب تل صعب بازلتي عليه قلنسوة صخر رملي. يشق ممر مدر طريقه بالقرب من القمة، عبر القلنسوة وبرز لنا من عند الممر مضيق سارة العميق الذي يقع على بعد (٥٠٠) قدم أسفلنا على اليمين. ولا نستطيع رؤية ظهران نفسها من هذا الموقع، إلا أننا نرى القرى فيما يليها في العرين الأسفل وكذلك العلامات الأرضية المختلفة المألوفة مثل السمة التلية البارزة الآجمعين، وقد كانت قاعدة الحجر الصخري هنا من بوكسيت إلا أن أجزاءها العليا كانت داكنة الحمرة حديدية، وفي بعض الأجزاء تكون سوداء بسبب عوامل الطقس.

قادنا ممر أسفل إلى حيث تتصل ثلاثة مسايل لتكون البداية الفعلية لوادي العرين وهي عين آل عبس، وعرير، وذات ريح على يسارنا الذي يتصل به شعيب سارة من الجانب الأيمن قليلاً إلى أسفل. توقفنا قليلاً فوق هذا الملتقى عند طرف البساتين والحقول لقرية سارة، قبل أن نواصل مسيرتنا خلالها إلى قرية الحصن الجميلة، التي تقوم على قمة حاجز صخري منعزل، عبر الطرف النهائي لمجرى

---

(١) قرية قصبة ابن حيان:ـ ربما يطلق عليها أيضاً اسم (آل السحامي). (ابن جريس).

سارة الذي يدخل العـرين التي تقع أسفله. عـبرنا الآن إلى الجـانب الأيسر لوادي العرين لنصل إلى البساتين الـعليا لظهران نفسها ومنها إلى مـوقع معسكرنا الجديد بجوار المجرى قليلاً أعلى جانبه الأيمن. وكـان التحول الأخير في الطقس قد أملى علينا أنه من الحكمـة ألاَّ يقام المعسكر في بطن الوادي كـما كانت عـادتنا، بسبب احتمال قدوم سيل أثناء الليل.

لقد سررنا بعودتنا إلى البلدة مرة أخـرى، بعد عشرة أيام مرهقة في الريف. وكانت الأخبار التي وصلتني عند وصولي سارة بحق. فقد استطاع جميل اليهودي أن يعيـد النابض التانجسـتي مزولتي للعمل وقـد ظللت أنتظر قدوم الليل لأختـبر الأداة التي تم إصلاحهـا ولاختبار الملاحظات الفعلية. برهنت هـذه الاختبارات أن العـملية كـانت ناجحـة بحق، كمـا يشهـد بذلك الموقع المسجل الآن لظـهران - والعديد من الأماكن التي تمت زيارتها بعد هذا التاريـخ - وأشعر أن علم الجغرافيا مدين بالكثـير لجمـيل وأن هذا الشكر يجب أن يدخل في السجل العـام. توقفت ملاحـظاتي للنجوم بعـد أسابيع بسـبب تلف بطاريات الراديو. إلاَّ أنه قـبل ذلك الوقت، أمكنني إدخـال نقاط مهـمة إلى الخـريطة. اكتـسب جميل شـكري أيضاً لإصلاحه مفـصل نظارتي. لم نتأخر كثيراً في ظهران إلاَّ أنـني قد سعدت بليلتين في أمنها النسـبي، وذلك لأنني لا أزال أحس بالتعب وغير مـرتاح بمعنى الكلمة، وقد برزت بثـرة ذات حجم ضخم في الأصـبع الأوسط لإحدى يدي. تمكنت من الوصـول إلى مخـزوني الشـحيح للأدوية الذي أمـكنني أن أحاول تأثيـرات دواء ستانوكسيل الذي شفاني منذ عدة سنوات في جدة من عدة بثرات في سرعة مذهلة

غير أن الدواء قد خذلني الآن، وبقية مراحل علاجي قد تركتها للوقت وللصدفة[١].

نحن الآن في منتصف رمضان ولم أشرب قطرة ماء واحدة منذ بدايته. لقد حافظت على صحتي حتى الآن، إلاَّ من هذه البثور الحديثة والتقرحات وكلاهما يعزى إلى تأثير الهرش، والكدمات، والصقيع ووعثاء السفر، ولا أزال أعتقد أن تحاشي الماء هو سر نجاح رمضان، بينما العديد من الصائمين يعرضون أنفسهم للمرض مع جرعات كبيرة للماء فوق معدة خاوية عند افطارهم في نهاية اليوم مع غروب الشمس. أعتقد أن الشاي والتبغ هما المكونات المثالية لإفطار رمضان[٢]، مع الفاكهة إن وجدت. دعانا محمد بن بريكان لتناول طعام الإفطار والعشاء معه في هذه المناسبة وقد أمدنا بالعنب للإفطار، وبلحوم الضأن والأرز للعشاء. لقد حضر لسماع الراديو جمهور غفير بما في ذلك جميل اليهودي ومعه ابنه وحفيده. وقد أدرت مؤشر الراديو لمصلحتهم، لإذاعة الأخبار العبرية من القدس، لأكتشف -كما في نجران- أنهم قد استوعبوا ما قيل على أساس أنه لهجة اشكانزية ولم يجدوا صعوبة في استيعاب الأخبار العربية التي اشتملت هذا المساء على تقرير طويل لمناشط اللجنة الملكية في فلسطين، وأخبار الحرب في إسبانيا دون إكثار الحديث عن تدمير القصر البللوري بواسطة النيران.

---

(١) إذا أصيب الإنسان بمرض فإن الشافي هو الله عز وجل، وليست الصدفة، كما يذكر فيلبي، هي التي تتسبب في الشفاء من العلل والأمراض. (ابن جريس).

(٢) قول فيلبي: «إن الشاي والتبغ هما المكونات المثالية لإفطار رمضان»، هذه وجهة نظره؛ لأنه من الميالين إلى هذا الصنف من الطعام والشراب، مع أنها وجهة نظر غير سليمة من الناحية الطبية وكذلك من الناحية الدينية الشرعية. (ابن جريس).

كنت سعيداً بهذه الزيارة الثانية لظهران لأقيِّم حالتها العامة بالنسبة لمناخها الجغرافي والجيولوجي التي تحسنت معرفتنا له. يقع الجزء الرئيس المأهول للوادي، وكذلك البلدة، داخل حوض واسع تحيط به تلال بركانية أو ناريه عدا ناحية الغرب والجنوب الغربي حيث يكون شريط من هضبات منها جيث، وجفجفان، وقردة، والحمرة، وسلسلة، تواصل الأخيرة تجاه الشمال، الحدود الخارجية لقلنسوة الحجر الرملي التي تعلو قاعدة الحجر الناري للأرض المرتفعة وهو نفسه يقع أسفل قلنسوة بازلتية على الجرف على امتداد طرفه الغربي. ويبدو أن طبقة المغر أو البوكسيت تقع وسطا بين الحجر الصخري والحجر الناري. يتكون حوض ظهران - الذي يبلغ قطره ثلاثة أميال - من تلال جرانيتية متدحرجة بينما تقع على الشاطئ الأيمن في مواجهة البلدة، مساحة معتبرة عليها كتل صخرية سوداء مبعثرة، ربما بازلتية أو شستية.

تقف شجرتان من الطرفاء بين هذه وبالقرب من مجرى الوادي على أرض مرتفعة وتقع بقربهما جلاميد جرانيتية مستديرة في حلقتين تامتين، يتراوح قطرهما بين (١,٥) قدم و(٢) قدم. تقول الروايات المحلية أن هذه الجلاميد قد تم وضعها بهذه الطريقة حول شجرة طرفاء حديثة الغرس في مركز الدائرة الداخلية لحمايتها من الرعي بواسطة الجمال! مهما كان الأمر، فإن شجرة الطرفاء قد ماتت بسبب حادث لم يسجل، وفي رأيي أن الشجرتين العائشتين الكاملتي النمو وإن الدائرتين المزدوجتين من صخور جلاميد، كان الغرض الأساسي منها كلها هو مغزى ديني أو احتفالي، ويمكن أن تكون الدوائر ضريحاً لرجل دين أو رئيس محلي، وأن تكون الأشجار (أو ما سبقها) أشياء للعبادة الوثنية التي نعرف أنها استمرت إلى عصر الإسلام في العديد من أجزاء الجزيرة العربية مثل: وادي حنيفة.

تحيط بظهـران روايات محلية تعود إلى عصر بني هلال، هذه القبيلة التي يعزى إليها أمر البئر الذي يوجد داخل المسجد والبئر الآخر الذي يوجد بالقرب من مجرى السيل شرق البلدة[١]. ويسمى البئر الأخير هذا باسم بئر أم سبع -أو بصفة عامة بئر الجن-، ويقال إنه مسكون بأرواح شريرة- قيل لي إن الكاهن الذي كان يتنبأ بموقع الماء والذي حضر إلى هذا الموقع أثناء عمله، قد هرب منه هلعاً لسبب لم يفصح عنه[٢]. لم تؤثر هذه الموانع على شخص أبله اسمه حسين بن محسن، الذي تطوع أن يصحبني إلى الموقع مقابل ريال واحد، والذي قال إنه لا مانع لديه أن يتم تصويره وهو يجلس «فوق الجن»، كان البئر معطلاً لمدة طويلة، وقد تساقط بناؤه الفوقي إلى الداخل الذي يبلغ عمقه الآن حوالي عشرة أقدام بسبب الركام والحجارة التي سقطت فيه، فأصبح داخل البئر كأنه سطح تربة وقد نمت عليها أشجار بالميتو من البذرة.

ويقال إن المسجد قد تم بناؤه في الأيام القديمة لسعود الأول[٣] حين امتد النفوذ السعودي بعيداً إلى داخل اليمن. كان البناء صغيراً ولكنه كان مميزاً، ولقد زخرفت جدرانه بالجبس، وقد فصل جزء منه ليكون مكاناً للوضوء، الذي يصله الماء عن طريق جداول من البئر الذي يغطس صهريجه إلى عمق ثمان قامات عبر

(١) من يشاهد بعض الآبار في ظهران الجنوب، أو في أجزاء عديدة من بلاد السروات يجدها نُقبت في أرض صلبة، وأحياناً في الصخر لعشرات الأمتار. وهذا يدل على قوة وصلابة من قام بهذه الأعمال الجبارة، التي يجد الناس اليوم صعوبة في عمل مثلها مع توفر العديد من آلات الحفر العملاقة. (ابن جريس).

(٢) الجهل بالدين يوقع الناس في أخطاء عقدية مثل التبرك ببعض الأوثان، وشركيات أخرى يصعب حصرها في هذا المقام. ومثل هذه الممارسات كانت منتشرة في معظم أجزاء الجزيرة العربية حتى ظهر الشيخ محمد بن عبدالوهاب ويؤازره الإمام محمد بن سعود فعملا على محاربة هذه البدع حتى تم القضاء عليها، وهكذا حتى جاء الملك عبدالعزيز آل سعود فسار على نهجهم حتى عم صفاء العقيدة عموم البلاد. (ابن جريس).

(٣) سعود الأول: المقصود به الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود. (ابن جريس).

صخور طبيعية إلى ماء مستديم عـمقه ثمان قامات. لم تكن للمسجد مئذنة أو أية ضرب من الـزينة، بينما ظل مكان الصـلاة مغلقـاً بصفـة دائمة، غيـر أن هنالك مسطبة مكشوفة أمامها، مجهزة للزوار لأجل العبادة.

تصنف تجارة البن في ظهران إلى مجموعتين مـتجهتين إلى الحجاز وإلى نجد، وكلاهما يمر ببيشه. يذهب المـمثلون التجاريون من ظهران إلى اليمن، لشراء المواد وإحضارها مـعهم إلى هنا عبر الضـرائب والجمارك بنسبة (٢٠٠) حـمل (حمولة الجمل) في كل شهر، وكل حمل يعـادل (٧٢) مداً أو حوالي (٥٥٤) كيلوجراماً. انخـفض سعـر الحمـل هذه الأيام إلى (٦٠) ريالاً ماريا تريـزا، غيـر أن التقـدير الضرائبي الرسـمي كان (١٤٥) ريال ماريـا تريزا، والتقدير الجـمركي كان بنسـبة (٢٠٪) وتقديره (٢٩) ريالاً ماريا تريزا إلى جانب رسـوم مصاريف تقدر بثلاثة ريالات ماريا تريزا لشـهادة التخريجيـة التي تثبت أن الرسوم قد تم دفـعها. يدفع المورد على هذا الأسـاس، لما اشتـراه بسـعر (٦٠) ريالاً مـاريا تريزا، (٣٢) ريالاً أخـرى مقـابل الضرائب ويضـاف إلى ذلك تكلفـة النقل بالجـمال قـبل أن تصل البضـاعة إلى بائع القطاعي الذي يعـرضها للمـستهلك. إن تقـدير الحكومة لمبلغ (١٤٥) ريالاً ماريا تريزا للحمل الواحد كان معـادلاً لسعر التجزئة (القطاعي) للبن في مكة. ويبلغ الدخل الشـهري لظهران من البن فـقط حوالي (٦٠٠٠-٧٠٠٠) ريال ماريا تريزا في المتوسط.

قمنا برفع المعسكر في الثاني من ديسمـبر لنواصل تجوالنا، وبدأنا بالسير فوق وادي العرين في اتجـاه الشرق فوق ربوات مـتموجة فـي لطف إلى تل جيث الذي يقع على بعد يقل عن الميلين وإلى يمين مـوقعنا. ثم عبرنا الوادي فـوق قرية هياج الصغيـرة التي تقع عند منحنى عريض للوادي، ثم عبرناه مـرة أخرى إلى الجانب الأيمن قليلاً أعلى من آل حـيدان حيث توجد مـساحات معـتبرة، كمـا كان الحال

حول دار العرق للذرة الصفراء والبساتين مع كثافة لنمو شجيرات الأثل في المجرى نفسه. دخلنا المجرى مرة أخرى أسفل دار العرق، وتتبعناه أولاً عبر ممر من صخور جرانيتية وبازلتية، وفيما يلي هذه، عبر حقول مبطنة بالحجارة، وشارع على جانبيه أشجار الأثل والطرفاء التي يخترقها بطن السيل الرملي الذي يبلغ عرضه (٥٠) ياردة. ووصلنا بعد مسيرة متقطعة استغرقت نصف ساعة من عند دار العرق، إلى موقع التقاء كل من وادي القبضة ووادي كتام مع وادي العرين في مساحة رملية عريضة في وسط غابة حقيقية من أثل وطرفاء. لقد تحدد موقع دخول وادي القبضة، بوجود شريط طويل من المياه تعلوه طبقة نبات أخضر لزج، والذي يبعد بحوالي (١٠٠) ياردة فوق فم كتام، الذي وقفت في مجراه على ارتفاع (٣٠٠) قدم قرية الشحاك الصغيرة.

وصلنا على هذا الملتقى بعد دقائق قليلة لأول حقول المجزعة، والذي كانت أولى قراه تسمى العطفة، تقف قليلاً إلى الخلف على الجانب الأيمن، ثم توقفنا قليلاً قبل المعزاب على الجانب المقابل، عند الموقع الذي ينحدر فيه بطن الوادي إلى حوالي (٢٠) قدماً من فوق سد جيد البناء من مواد بازلتية. وتوجد عند قاعدة السد بركة من مياه تعلوها طبقة نبات لزجة خضراء، تكاد تكون مياهها راكدة، مع سيلان خفيف يخرج من عند نهايتها السفلى متجهاً ناحية قرية الثغر التي تبعد قليلاً مع اتجاه الوادي على الجانب الأيسر. كانت المياه المملوءة بكائنات دقيقة تشبه سمك المنوة، وبعضها ذو حجم كبير، وكان يقفز باستمرار ناحية الذباب الصغير المحلّق فوق السطح، بينما طارت من سطح الماء أعداد كبيرة من طيور الماء وذلك حين قدومنا، من بينها البط وأبو مطرقة ومختلف أصناف طائر المخوض إلى جانب هذه يوجد أيضاً الحمام والقنابر المتوّجة وطيور أخرى مائية. لقد كان بطن الوادي

أسفل السد، من صخر أزرق مكشوف، أصبح ناعـماً بفعل حركة المياه ومبطناً هنا وهناك بطبقات من الرمل والعـشب الأخضر والقصب -وكان منظراً طبيعـياً مريحاً على خلفية من أشجار تين عارية ومبانٍ بسيطة. عدنا مرة أخرى إلى طريق الفيل، من عند الثغـر، الذي تقع أسفله آخر قرى المجـزعة وهما سند ومخلبـة على بعد (٤٠٠) أو (٥٠٠) ياردة مع اتجـاه أسـفل الوادي، الذي يقـبل مـاراً بتل المصلولة على بعد ميل واحد تجاه الجنوب الشرقي، ثم يعبر في هذا الموقع وادي العرين في مسـيرته إلى الشمال. ويجـري الوادي نفسه من هنا إلى قـرية القرن ثم إلى وادي الخانق ومنه إلى حبونا. ويختـفي سيلان الماء في مقابل مخلبة، وبعـد ذلك يستمر الوادي وهو جاف تماماً إلى الأمام.

لقـد سلكنا الآن درب الفيل فـوق الخطوط الصـرفيـة الضحلة التي كـونتهـا الخطوط الكفافية للأرض الحجرية التي كانت تنمو فيها شجيرة الشرفث في غزارة. لقد هبطنا من أعلى الهـضبات - وبالمناسبـة فإن المجزعة تقع على مـسافة (١٥٠) قدماً أسفل ظهران- إلى بطن شعيب قـاوية - أحد روافد العرين - وامتطينا ظهور الدواب إلى أعلى بطن الوادي الحجري، الذي توجد فيه أشـجار العبال منتشرة هنا وهناك. لقد كونت أشـجار العبال هذه وأشجار الطلح منظراً سـاحراً للغابة وعلى امتدادها وقد كـانت حرارة الشمس عالية، مسـلطة على ظهورنا ونحن نقود دوابنا عند الظهر. لقـد استخـدمت سيارات الأمـير سعـود هذا الطريق ولا تزال آثارها مشاهدة في الأجـزاء الصلبة من الوادي. يتصل مجرى حضـه العريض على بعد، مع قاوية من عند رأسه في سلسلة تبعد حوالي (٢) ميلين ناحية الشمال، وقد كنا قد تأخرنا بضع دقائق بسـبب محاولاتي الفاشلة للإمساك بفراشـة كبيرة من جنس البابليو. ثم يضيق الوادي تدريجياً مما يلي موقع دخول مصرف ضحل يسمى ركايه

إلى جهة اليسار من موقعنا، لقد تباينت رتابة المنظر الكئيب الذي يقع أمامنا بتخلل قطيع كبير لأغنام بيضاء وماعز أسود متجهة إلى موطنها في دار العرق تحت حراسة فتاة واحدة، كاشفة الرأس ومتأنقة في عباءة جديدة مصبوغة بالنيلة الداكنة[١].

يمر طريق الفيل فوق قناة مبنية تصل دخول مسيل ثانوي، قبل وصولنا إلى رأس قاوية. كان ارتفاع المضيق فوق قمة قوية حوالي (٧١٠٠) قدم فوق سطح البحر، بينما هبطنا من الجانب الآخر إلى شعيب بيح، وهو حوض عار وضحل في الأرض الحجرية التي تحيط به والتي يشق طريقه عبرها، خلال ممر شستي ضيق مملوء بقصب الحلفاء والنمص. ويقع الثغب المائي الذي يسمى مضره والذي ثبتت أهميته لموقعه الاستراتيجي بجانب الطريق بكثرة النقوش قديمها وحديثها، على سطوح جدرانه الشستيه الشبيهة بالألواح.

لقد تآكلت النقوش والرسوم القديمة الثمودية بفعل عوامل التعرية وكانت أهمية النقوش العربية الكوفية متدنية. ينبع الماء من العين ويصل إلى العديد من البرك التي تقع بالقرب من رأس هذا الممر ويكون فيضها سطوحاً مائية يكسوها نبات لزج، وتجري لمسافة (٣٠٠) أو (٤٠٠) ياردة قبل أن تدخل مرة أخرى إلى أسفل السطح الحصوي للمجرى، وذلك أثناء اتساعه خارج الممر. قابلتنا مجموعة من الناس، بعد أن واصلنا مسيرتنا، وهم عائدون إلى المجزعة من عند سوق الأربعاء في طلحة. لقد تركنا طريق الفيل يأخذ اتجاهه شمالاً، تقريباً بعد خروجنا من الممر الصخري، وواصلنا سيرنا فوق مجري بيح الثعباني إلى حيث مزارع التين

---

(١) مادة النيلة: تعد من أصباغ الملابس الأساسية عند سكان جنوبي الجزيرة العربية خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، بالإضافة إلى أصباغ أخرى كانت تستخلص من بعض النباتات والأشجار المحلية في هذه البلاد. (ابن جريس).

والأثل في شعبة، وإلى ما يليها توجد قرية طرف الذراع التي تسيطر على رأس مضيق الضيقة الكئيب. لقد كانت مستوطنة صغيرة، غير منظمة، وغير مؤثرة ذات حقول واسعة وبساتين، وكانت تنمو فيها نسبة غير عادية من أشجار الخوخ، ولقد رأيت في الصباح الباكر، بالمناسبة، شجرة خوخ مزهرة في المجزعة. وتحتوي قرية طرف الذراع على حوالي (٥٠) إلى (٦٠) منزلاً إلى جانب مبان برجية مبعثرة بين الحقول والبساتين. وتسمى الأرض التي تقف عليها «الغيل»، برغم أنني لم أر أثراً لمياه جارية في الأجزاء السفلى من المجاري المختلفة التي تلتقي عند رأس مضيق الضيقة. كان هنالك إلى جانب بيح، كل من عار والدارة والقحيف والحمرة.

استغرق وصولنا إلى أبراج مزارع المهجري وإلى ما يليها حوالي نصف الساعة، مارين باستمرار خلال الحقول أو البساتين، ثم وصلنا إلى مزرعة الأثل في الطلحة، وفيما يليها من الأقسام المختلفة لقرية الطلحة نفسها، حيث وجدنا ميدان السوق وقد ازدحم بالناس وهم يتحدثون حول تجارة اليوم وينتظرون غروب الشمس ليوم صيام مرهق آخر. واصلنا سيرنا لنصل إلى موقع معسكرنا على الطرف البعيد لحقول الطلحة فوق الرمل الأحمر لوادي الأفياض، وعلى الجانب المحجوب من الرياح سور من أشجار التين العارية. بدأنا مسيرة اليوم التالي بعد تأخير قليل بسبب ملاحقة طيور الحجل، والتي أفرزت الحصول على زوج منه، وفي أعلى فرجه أفياض، دخلنا عند نهايتها العليا، ثم تسلقنا وادي طلح الكثيف الشجر وهو غابة حقيقية من أشجار الطلح وكان العديد من الضأن يرعى في ظلها الوافر الشائك. كما كان صقر الطلحة، إلى البعيد في السماء، من أمامنا، يحلق في عظمة باحثاً عن فريسة، حينما انطلق سرب من طائر الغداف الصحراوي، مهاجماً في شجاعة الصقر الأعظم ومن كل الجهات حتى هرب الصقر عاجزاً وقد

لاحقه غداف واحـد ليودعه. ولقد كان لونه، حسب ما اسـتطعت رؤيته أنه أسود البطن، ومبيضاً مع بعض العلامات البنية على الظهر.

كنا مرة أخـرى على درب الفيل من عـند الطلحة وما عـلاها، ولا تزال آثار سيارات الأمير سعود واضحة عليه. ثم ينقسم الوادي قليلاً إلى الأمام ليحتضن تلاً يقع في وسطه، ثم يضـيق من خلفه التل إلى حـوالي (٥٠٠) ياردة بين سـفحين أملسين من شسـت أسود يكسوه عـشب جاف في كثـافة. ثم يضـيق الوادي مرة أخرى إلى (١٠٠) ياردة بين جلاميد عاليـة شديدة الانحدار، وهو يتعرج ويتلوى وقد نمت عليه أشجار الطلاح بكثافة، وقـد قادتنا علامة المياه المألوفة المسجلة على جدار الصخـرة إلى الثقب المائي المسمى غـمر الطلاح الذي يقع في البطن الرملي للمجرى. لقد كـان فم الصهريج مبنياً من الخشب ومن قـطع الحجارة وإلى عمق (٣) أو (٤) أقدام غير أنه لا يحـتوي على الماء إلاَّ بعد السيول. كمـا يوجد ثقبان مائيان مماثلان في هذا الجانب من المجـري كان أحدهما عديم الماء في هذا الوقت، بينما احتوى الآخر على قليل من المياه. كما كان على أسطح الصخور بالقرب من هذين الموقعين لـلمياه عـدد من النقوش الثمـودية، وهذا يبرهن على أنهـا مواقع كانت معروفة لدى الأقدمين. وقد آوت الصخور عدداً من الأرانب البرية، بينما نما مزدهراً في بطن المجرى نبات القر الشبيه بالدفلي، الذي يحتوي على سائل لبني.

استمر المضـيق في تخصره أكثر ونحن نصعـده، وقد وصل عرضه في بعض المناطق إلى (٣٠) ياردة وكـانت على جانبـيه صـخور شديدة الانـحدار ذات لون أسود مزرق ولربما كانت من الشـسـت. وأقبل من جهة اليسار رافـدان هما محدثي والقرارة وفيمـا يلي موقع تدفق الثاني منهما يوجد ثقـب مائي آخر جاف من هذه الثقوب المائية ويسـتخدم مصطلح غمر لمثل هذه الظاهرة. بدأ المجـرى ينفتح قليلاً

في هذا الموقع وذلك لاندماج الـصخور على الجانبـين مع سفح يرتفع إلى (١٥٠) أو (٢٠٠) قدم الـذي صعدناه تـدريجياً إلـى هضبـة يصل مسـتوى ارتفاعـه إلى (٧١٠٠) قدم فـوق سطح البحـر. ويتصل في هـذا الموقع مجـريان هما شـعيب الحسرج من ناحيـة الغرب، وشعيب المختلف من ناحية الشمـال الغربي ليكونا معاً رأس وادي الطلاح في أرض قليلة التموج واسعة، من فلسبـار أحمر، منتشر فوق صخور وجـلاميد فوق أرضية مـن مادة مماثلة يجري تحتهـا الشست التابع للوادي الذي نسير عليـه. كان خط التماس من الاثنين مسـتقيماً جداً ومـحدداً، ويبدو أن الشست التحتي والفلسبار كانا على شكل عمودي.

واصلنا مسيرتنا أعلى مجرى المختلف عبر أرض كثيفة الأشجار. عليها العديد من أشـجار الطـلح. كان المنظر مماثـلاً للمناطق التي تحـيط بالطائف[1]، غيـر أن طريقنا ابتعد بعد فترة عن المجرى الـضحل الذي يواصل سيره شمالاً إلى رأسه في مجـموعة من التـلال (فلسبار أو جرانيـت) على بعد ثلاثة أميـال. ثم اتجه طريقنا ناحيـة الشمال الغربي، نـاحية درب الفيل بتـتبع المختلف، فـوق أرضية الهضـبة الفلسبـارية والتي بدأ ينتشر فـوقها البـازلت ونحن نقترب من سلسلة بركـانية تقع أمامنا تتكون من قعم مرخ والعود وهومين سوداوين صغيرين بلا اسم، لقد أبرزت هذه السلسلة من الوحدات البركانية بوضوح ليس فقط القلنسوة العليا البازلتية التي يبلغ سمكهـا (١٠٠) إلى (١٥٠) قدماً بل أيضاً طبقـة الصخر التحـتي (مغر) أو

(١) فيلبي يذكر الغطاء النبـاتي الجميل الذي يغطي مناطق ظهران الجنوب وبلاد قحطان وأبهـا وما حولها. ثم يشبهها ببلاد الطائف وما حولها من حيث وفرة الغابات وما يوجد بها من أشجار متنوعة، مع العلم أنه لو سار عـبر البـلاد السروية الممتـدة من أبها إلى الطائف لوجـد العديد من الديار الجـميلة التي حـباها الله الجمال، ولما فيها من غابات كثيفة وطيور وحيوانات متعددة الألوان والأحجام. (ابن جريس).



البكسيت، الذي يبلغ عمقه (٢٠٠) إلى (٣٠٠) قدم والذي يعتقد أنه يعلو الجرانيت الذي بدوره يغطي الشست. ويبدو أن الطبقة العليا من المغر تجري في خط مستقيم من حولنا ونحن نقترب من الدائرة. وقد أمكننا رؤية رأس ممر شراقب من هذا الموقع ناحية الجنوب الغربي، والذي هبطنا من عنده عند آل عيفة إلى مجرى الحمرة، ويقع بينهما الحاجز الرئيس وهو السلسلة البركانية المسماة قعمة الحمرة التي تلتف لتقابل كلاً من العود والمرخ وقد ورد ذكرهما. لقد كونت هذه - بعد مسافة في نهاية مسيرتنا - الجانب من طريقنا الذي يتجه الآن ناحية الغرب ولمسافة تزيد عن الميل الواحد ناحية الشمال، وسرعان ما عبرنا مجرى ذات العكي وهو ينحدر من سفوح المرخ ليتصل مع الحسرج الذي يقع بعيداً على يسارنا.

تفرقت حميرنا بعد هذا التقدم لقافلتنا بانزعاج وانتشرت فوق المكان وهي ترفس وترتج وكأنما أصابها الجنون، وذلك بسبب ذبابة واحدة. لقد كانت ذبابة لاسعة، فقد لسعت ثلاثة من الحمير أسفل الذيل، الواحد بعد الآخر وكانت النتيجة كما قد وصفت. كان علينا أن نتوقف، بينما أعد ابن داهش هجوماً مضاداً على العدو الذي انسحب آخر الأمر تاركاً الميدان تحت سيطرتنا التامة. ثم واصلنا مسيرتنا مارين بقطيع ضخم من الضأن يمتلكه آل غازي من سنحان، والذين يملكون بلاد الحمرة من عند الشريط الذي تم وصفه بالتفصيل في فصل سابق[1].

بدأنا دخول الفجوة عبر السلاسل البركانية الخارجية التي يكونها وادي الهجلة الذي ينحدر من الجانب الجنوبي لكتلة قعمة القلح ليدخل في نهاية الأمر إلى الحسرج. لقد كان عرض الفجوة في هذا الموقع حوالي ميل واحد أو أكثر قليلاً، ويقع مجرى الهجلة إلى يسارنا على بعد (٥٠٠) ياردة كما تقع سلسلة العود على يميننا إلى ضعف هذه المسافة، ثم يضيق الوادي سريعاً إلى حدود (٥٠٠) ياردة، وتقع الهجلة في وسطه قريباً من طريقنا، ولقد ضاق الوادي بعد نصف ميل إلى (٥٠) ياردة فقط، وقد ظهرت كتل البازلت على جانبيه بارتفاع (٤٠٠) قدم.

(١) الحمرة: أرض واسعة يشترك في امتلاكها عدة عشائر من الحباب، وآل الطلحة، وسنحان. (ابن جريس).

صار السفر الآن صعباً جداً على ضفة الوادي اليسرى وكان علينا أن نهبط إلى بطن الوادي الذي بدأ يتـعرج بين الجـدران التي ارتفـعت إلى (١٠٠) قدم وكـانت من جرانيت تعلوه ركام حجارة. واستدرنا الآن في اتجاه عام إلى شمال الشمال الغربي ووصلنا إلى رأسي الهجلة، جـاء الرأس الذي على اليمين من عند قعـمة القلح، بينمـا هبط الثاني الذي سلكناه من عنـد الأرض الصعبـة التي تفصله عـن الجانب الأيمن لوادي راحة[1]. كان علينا أن نـصعد خـارج المجرى، لندور حول حـاجز صخري يكون سداً عبر المجرى الضيق، وذلك بتسلقنا لمر منحدر صعب.

ولندخل مرة أخرى إلـى الوادي فيما يلي هذا العائـق. كان بطن المجرى في هذا الموقع من صخور جرانيتية تعلوها طبقة رمل خفيفة وكسور بازلتية. ثم وصلنا سريعاً إلى شريط من برك صخرية في منخفضات أرضية الوادي، مع حركة خفيفة لسيلان الماء بهـا تصل بينها كأنها جدول، وذلك بلا شك بسـبب الأمطار الأخيرة التي لم تصرف مـياهها كلها بعـد. لقد قررنا أن نتـوقف هنا للراحة بعض الوقت ولتخفيف شدة حرارة الظهيرة.

انقسم المجرى مرة أخـرى فيما يلي هذه البرك إلى رأسين، وقد تتـبعنا الفرع الأيسر الذي يقـود غرباً عبر مسـاحة معتـبرة من نبات الحلفاء وغطاء نـباتي آخر، والذي في وسطه وصلنا إلى بئر آخر مؤقت، أو هو ثقب مائي يعتمد على الأمطار الأخيـرة لتغذيتـه. ثم صعدنا مـرة أخرى إلى البازلت، الذي يعـلو الجرانيت عند ارتفاع يصل إلى (٧٦٠٠) قـدم في أرض مضطربة، تكون الكتـوف لقعـمة القلح تجاه وادي راحة. وتشبه مستنقعاً ضخماً تصرف مياهه بمجاري عديدة إلى الهجلة. كانت قمة هذه الأرض حوالي (١٠٠) قدم فوق البئر في مضيق يفصل بين الكتف وبين الكتلة الرئيسة، والذي من عنده هبطنا الآن تجاه وادي راحة في اتجاه غربي.

واصلنا هبوطـنا على الجانب الآخر، بعـد أن مررنا برأس الحـوض المنخفض المليء بالشجيـرات، الذي يبلغ عرضه (١٠٠) ياردة ويسمى حلة مـسعود وبه كل

---

(١) كلمة (راحة) وردت كثيراً في الصفحات السابقة، وسـوف ترد معنا أيضاً في صفحات لاحقة، والمقصود بها (راحة سنحان). (ابن جريس).

من قرية آل مسعـود الصغيرة[1] تجاه أسفل الوادي من عند مـوقعنا وآل مجلم عند ملتقاه مع راحة تـاركين قرية آل مسعود على مسافـة (٣٠٠) ياردة إلى يسارنا قرية آل الخرج إلى البعـيد على الجانب نفسه. ثم خرجنا من الحـوض إلى مضيق هبطنا من عنده تجاه الشمال فوق أرض صعبة من جـرانيت أسود ثم عبرنا مصرف مسيل القعمة الذي ينحدر من سفوح قعمة القلح إلى قرية آل مفرح عند التقائه مع راحة على مسافة نصف ميل إلى يسارنا. أمكننا رؤية قـرى أخرى صغيرة تقع على ضفة وادي راحة، والتي نراها لأول مـرة إلى أسفل من آل مـفرح وهي: آل طراد، وآل صالح بن راقع، وآل الزين، بهذا التـرتيب إلى أسـفل. لقد تضمنت هـذه البـلاد الكـثير من السـفر الصعب، الذي أوصلنا إلى القرية المزدوجـة آل وازع في شعيب بالاسم نفسـه يهبط من عند قعـمة القلح. كان شـعيب العطف مصـرفاً مماثلاً من المنبع نفسه، مع أبنـية برجية أكثر للقـرية نفسها، ومن ثم دخلنا إلى مـا يليها إلى حوض صرف شعيب آل بحير وهو وادٍ كثيـف الأشجار وبه مجموعتان من القلاع وعدة أبراج منعـزلة تابعة لقـرية بالاسم نفسه تقع فـي وسطه، وتحيط بها حـقول واسعة، كان بعضها قد ترك بغير زراعة وبعضها قد تم حرقه للبذر التالي.

انتهينا الآن من مـحن هذه البلاد الصعبـة العدائية وستتجـه سريعاً إلى أبراج الحوط التي وصـلناها خلال نصف سـاعة قبل الغـروب. لنعسكر فـي بطن راحة الرملي بجوار مـزارع التين بالقرية. اعـترض مجـرى السيل عـدد من السدود من الرمل ومن الأغصان الخفيفة إلى داخل الحـقول والبساتين على جانبي الوادي. لقد عدنا الآن إلى الموقع الذي مررنا به قبل (١٧) يومـاً في رحلتنا جنوباً من الحرجة، وكان مما يسرنا أن نعيد علاقتنا مع دليم بن دليم[2] الذي جاء إلى هنا لمقابلتنا ومعه ابنه الشاب الجـذاب، الذي يتحدث عنه الناس لحـبه للرياضة. ومـعه بندقية عـيار (١٢) ليس معه ذخـيرتها. كان دليم من الرجال الذين لا يرتشون بالنـقود غير أنه سر كثـيراً بإعطائي له (٥٠) خرطوشاً لابنه. لقـد أعد لنا عشاءً فاخـراً، وقد قام

(١) قرية آل سعود الصغيرة يطلق عليها أيضاً اسم (القرية). (ابن جريس).

(٢) دليم بن دليم:ـ هو دليم بن محمد بن دليم شيخ مشائخ شمل قحطان ووادعة. (ابن جريس).

بجهد كبير لترتيب استمرارية جولاتي في تهامة حيث امتد نفوذه ومسؤولياته حتى قرية الحقو[١]. كانت حدوده الشمالية عند ضبة بالقرب من أبها، بينما تزاملت مسؤولياته مع مسؤوليات حاكم نجران ناحية الشرق، عبر قرن سبط، الخانق - حتى شرق القرن - وهضاض على الحدود اليمنية. لقد حضر هو وابنه وبعض أتباعه بعد العشاء لسماع الأخبار والموسيقى من الراديو، والتي كانت هذا المساء، إلى جانب أخبار حرب مدريد، فإن الموضوع الرئيس الذي كان يناقش هو الصدع الذي حدث بين الملك إدوارد وحكومته وأدى خلال أيام قليلة إلى تنازله عن العرش. كان دليم محتاراً حول القيود التي يستسلم عندها ملوكنا والأهمية التي نضعها على مشاكل الزواج التي تواجه العظماء.

كانت هنالك لمسة صقيع خلال الليل إذ بلغت درجة الحرارة (٣١) درجة فهرنهايت وذلك لأول مرة منذ أن غادرنا الحرجة في اتجاه طقوس جنوبية، ولم ندفأ إلاّ عند الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي لكي نبدأ التحرك من جديد لتنفيذ المسيرة القصيرة المخططة ذلك اليوم إلى ممر شراقب، حيث سنقضي الليلة التالية قبل نزولنا إلى تهامة. لقد اخترقنا سهلاً رملياً بعد عبورنا مجرى راحة وكانت عليه وعلى فترات مجموعات من القبور تكون مقبرة حوط، ناحية شريط أبيض لصخور مغر التي تقف أمام السلسلة البازلتية للجرف، والتي تحجب عنا في الوقت الحاضر وادي حبيت، ثم وصلنا إلى مضيق ضيق، بعد أن مررنا عبر هذا الشريط الملون جداره بالأحمر والأبيض والمكشوف في مسيل ضحل، ومن هذا المضيق هبطنا إلى وادي حبيت العريض بالقرب من قرية القعمة الصغيرة[٢]، التي تقع عند الطرف الغربي لمستوطنة آل عبدالله.

ثم وصلنا أثناء استمرارنا غرباً إلى قرية الصمعة وأحواضها ذات الجدران الحجرية، أما منازلها فقد بني جزء منها من الحجر والجزء الآخر من طين المغر

(١) قرية الحقو: من القرى الواقعة في السهول التهامية، وقد يطلق عليها أيضاً (حقو ماغص)، وتتبع لإمارة منطقة جازان. (ابن جريس).

(٢) قرية القعمة الصغيرة: تحتوي على قريتي آل يصبا وآل عاطف، ويطلق عليهما اسم (قرية القعمة الصغيرة). (ابن جريس).

الوردي، مع مدرجـات من شست شبيـة بالألواح على طراز أبها[١]. كان عرض الوادي من كتلة جوعان وناحية الشمال، وجبل سعدي ناحية الجنوب، حوالي ميل واحد، ويجري البطن الصـخري لوادي حبيت في مجرى عمـيق يصل عرضه إلى (٢٠٠) ياردة عند منتـصفـه. كمـا كان هنـالك أشـجـار طلح مزدهرة علـى كلا الجـانبين، مع كتـل من الهدال وهو نبـات طفيلي ينمو فوق قممـها. كان المكان مملوءاً بطائر الحجل، غير أنني كنت سعيداً أكثر برؤية زوج من طائر نقار الخشب وقد أمكنني إصابته وإضافته إلى حقيبة العينات خلال مطاردة استمرت ربع ساعة. ثم يضيق الوادي في الأعلى إلى حجم المسـيل بين جدران بازلتـية عالية وذلـك أثناء دخولنا إلى طرف الجرف النهائي الحاجز بجوار ثقب مائي يسمى صعدة حيث الماء الدائم.

صار الطريق صعـبًا جدًا، وقد سرت على رجلي مـعظم الوقت على الجانب الأيسر للمجرى، الذي أوصلنا إلى برك لكه في حوضه الضيق الحصوي في وسط نباتات عـطرية مزهرة. ويقع فـيما يلي هذه الـرأس الفعلي لوادي حـبيت، الذي يتكون من التقاء مسـيلين هما شعيب ضفرة الذي يقبل من عند القلنسـوة البازلتية ناحيـة شمال الشمـال الغربي، وشعـيب الجربه الذي يأتي من عند أسفل سـعدي قليلاً ناحية الجنوب الغـربي. ثم تتبعنا سعدي لمسافة مـيل واحد، إلى قرب رأسه في طرف سهل أخضـر معشب، يكون سرجـاً ضحلاً يفصل بين القـسم الشمالي والقسم الجنوبي لقلنسوة البازلت، وقد كانت المسافة إلى ممر عقبة شراقب قصيرة، والتي استـقر بنا المقام علـيها لنعـسكر على ارتفاع (٧٨٠٠) قدمـاً فوق مسـتوى البحر. وكان المنظر من حـولنا رائعاً يستعرض أمامنا جبـال تهامة في هذه المنطقة. استغـرق سيرنا مسـافة ستة أميـال، مع مسيرة مـتقطعة لأكثـر من ثلاث ساعات لنقـضي خلالهـا المسافـة بين الحوط والممـر وكان أول مـا فعلتـه حين وصلنا إلى المعسكر هو أن أعـدّ نفسي لنوم عميـق عند الظهيرة، ولقد نمت نومـاً عميقـاً مدة ساعتين وصحوت وأنا مرتاح ومنتعش، وغير راغب في أي نشاط كبير.

---

(١) توجد مثل هذه المباني المشيدة بالحجر ثـم الطين في مناطق عديدة من جنوبي البلاد السعودية وبخاصة في بلاد قحطان وشهران وما حولها. (ابن جريس).

أحسست بأن فرصة تسلق سعدي يجب ألاَّ تضيع، وعند الساعة الخامسة مساءً، بعد تسلق مرهق فوق سفحها الرفرفي البازلتي الصعب، وقفت على قمتها ومعي مرشدي نقوم بمسح الأرض الموعودة التي تمتد أمامنا. لقد كانت القمة على ارتفاع (٥٠٠) قدم فوق معسكرنا على الممر وعلى ارتفاع (٨٣٠٠) قدم فوق سطح البحر، وكان المنظر يستحق الجهد الذي بذلناه للوصول إليه. وكان مرشدي الرئيس والمتخصص في هذه المهمة، والذي قدمه لي دليم بنفسه، واسمه عايض بن شري وهو من آل حيان تحت قسم آل سريع (تهامة) مجموعة سنحان، وكان يقوم بمساعدته رجل من الأصل نفسه إلاَّ أنه من درجة اجتماعية أقل. كانت الأحوال هنا، عند هذا الارتفاع، وعلى جبل مكشوف لطيفة بدرجة مدهشة. كما هي لطيفة أيضاً في المعسكر أثناء الليل، غير أن كلا المرشدين وهما من رجال أسفل الوادي، قد طلبا الأذن لقضاء الليل أسفل الوادي مع مواطنيهم مع الوعد بالعودة عند الفجر لنبدأ مسيرتنا.

كان منظر جبال تهامة من عند القمة على الرغم من الضباب الخفيف الذي تكاثف أكثر بالضوء المنتشر للشمس الغاربة. لقد كان مرشداي يعرفان بلادهما جيداً، وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أتلقى فيها فكرة أقرب إلى الحقيقة حول الأسماء الصحيحة للسمات الرئيسة للمناظر الرائعة التي تتكون من سلسلة وراء سلسلة من جبال عظيمة شامخة من فوق أوديتها إلى قمم وسلاسل ترتفع إلى (٧٠٠٠) قدم أو أكثر. ولقد كان هذا هو أفضل منظر تحصلت عليه حتى الآن. كانت قمة سعدي مثلها مثل القمم التي كنت قد تسلقتها، بسفوحها العارية التي تتبقع بأشجار الطلح الجافة، غير أنه لا يوجد أثر لأشجار العرعر. ويمكن الافتراض بأن كل هذه القلنسوة البركانية لجرف السراة الرئيس من عند جبل عبيدة جنوباً إلى علب، وابن مرعي والأخريات لها الخصائص ذاتها وهي الكآبة والخلو من النبات وعدم الجاذبية. تقوم جبال تهامة باعتراض معظم الرياح الموسمية الممطرة، وتستمتع بمجموعة نباتية وبمجموعة حيوانية تحت مدارية مزدهرة في مقابل الظروف الصحراوية للهضبة وسلسلة الجرف. لم أقطع شريط تأملاتي في هذا

المنظر إلاَّ قليـلاً قبل غـروب الشمس وها قـد غـربت الشمس بالفـعل ونحن في منتـصف الطريق إلى أسفـل التل. لقد أرسلت المرشـدين إلى المعـسكر وجلست لأفطر على تبغ غليون كنت انتظره بكل رفاهية العـزلة. وقد وجدت حجلاً، عند عودتي للمـعسكر بعد نصف ساعـة، وقد تم طبخه لي، وكان لحـمه طرياً ولذيذاً برغم أن هذه كـانت المرة الأولى لي التـي أتناول فـيهـا لحم طائر كـان قـد قـتل بالرصاص ليصير عينة متحفية. لقد تخلصت الآن تقريباً من قروحي وقد أحسست بالعافيـة في هذا المساء بالذات، والشكر يعزى لفترة الراحـة الطويلة ولتسلقي التل الذي تلي تلا الراحة[1].

انقضت من رمضان الآن عشرون يوماً، وبقيت عشرة أيام ولم أذق فيها الماء حتى الآن. لم يؤثر ذلك على الصـيام تأثيراً ضاراً، غـير أنني أحس بالرغـبة في النوم عند الظهيرة، وقـد اعتدت على السهر في كل الليـالي حتى الساعة الواحدة صبـاحاً أكتب مـذكراتي وأحلل مـلاحظاتي، ثم أنام حـتى الساعـة (٤,٣٠) حين نسـتيـقظ لتناول السحور قـبل الفجر، وعند الساعـة (٥,٣٠) أعود مرة أخرى إلى النوم حـتى الساعة الثامنة، وحينها أصحو على حركة زملائي وهم يتهيأون لبداية مسيرة يوم جديد.

كانت لدينا هذا المساء الميزة الإضافية لمناسبـة عظيمة فقد كان معسكرنا يقف على قمة رأس العالم، والـتي من عندها ألقيت نظرة في الصباح على الجبال وقـد التحفت الضباب الخفيف الذي تخللته ألوان مختلفـة بأشعة الشمس القادمة. ارتفعت طبقة من سحب خفيفة فوق البحـر البعيد، والذي - حسب ما رواه مرشـداي - لا يمكن رؤيته مطلقاً مـن هذا الموقع. لقد رأيت بعيـداً ناحيـة الجنوب في وقت صلاة الفـجر، نجم صليب الجنوب لأول مـرة هذا الشتاء. ثـم هبت علينا رياح جنوبية شـرقيـة باردة مدة ساعة عند منتـصف الليل إلاَّ أنها سكنت مع الفجر، وكانت لطيـفة جداً، كانت أدنى درجة للحرارة أثناء الليل (٣٥) درجة فهرنهايت أو قريباً من ذلك.

---

(١) الشكر هو لله عز وجل، فهـو الشافي لجميع العلل وليست (فترة الراحـة الطويلة) هي التي شفت فيلبي من أمراضه. (ابن جريس).

لقد أمضيت الساعات الأولى من الصباح، قبل أن نبدأ المسيرة، في آخر جولة من زوايا المزواة على النقاط الرئيسة التي تمت ملاحظتها من عند قمة سعدي في اليوم السابق، تحسباً لأن تكون اتجاهات بوصلتي في ذلك المكان قد تأثرت بظاهرة المغناطيس في الصخور البازلتية المزعجة جداً في كل هذه البلاد البركانية. لقد كانت هنالك اختلافات بين القراءتين.

لقد احتضن المنظر من قمة سعدي إطاراً واسعاً من هذه البلاد الجبلية، ممتداً من سلسلة تمنية بجوار أبها تجاه غرب الشمال الغربي عبر زهوان (جبل الريث) وسلسلة الصهاليل إلى قمم كل من حشر وطلان وثهران حاجبة فيفا نفسه، ومنها إلى الحرف مرة أخرى إلى الجنوب من موقعنا. يمكن رؤية مسيل شعيب مجزع القرض وهو يهبط من قرب رأس ممر شراقب، بينما من جهة الجنوب من سعدي - على مسافة الميلين - يجري مسيل مشابه يسمى ضعان إلى أسفل ليقابله بالغرب مشرب العينة، وهو أول أهدافنا في تهامة. مسيل ثالث من عند الجرف قليلاً ناحية الجنوب من ضعان، واسمه رحا[1]، ليتصل مع المسيلين الآخرين بالقرب من الموقع نفسه. يقبل مسيل رابع من عند الجرف فيما يلي مجزع القرض (إلى شماله) واسمه سححة بينما يرسل بازلت مصقوع مسيل حده ليتصل مع المجرى الرئيس، واسمه العطف ويقع أسفل عينة حيث يدخل رافد حرره من عند التلال ناحية الجنوب. يكون هذه المسايل للجرف رأس وادي بيش[2]، وهو خط الصرف الرئيس لكل بلاد تهامة التي تواجهنا غير أن التسمية المحلية تصنفها إلى أقسام مختلفة، لكل منها اسمه الخاص به. فمثلاً يتخذ العطف الذي يبدأ عند سفح الجرف الفعلي، اسم الفرشة الذي يجري داخل لحج، الذي يصبح اسمه رحا والذي بدوره يتحول إلى بيش. علينا الآن أن نعبر أسفل كل هذا النظام حتى نصل إلى البحر، بعد أن انتهينا من الهضبة العظيمة ومن جرفها.

---

(١) وادي رحا: يكتبه بعض المؤلفين باسم وادي (راحة) وأحياناً وادي (رحة) والسليم هو (وادي رحا). (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن أعالي وادي بيش، وأجزاء عديدة من تهامة قحطان وودعة التي يأتي منها عدد من روافد بيش، انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢ ص ١٨٢ ـ ١٨٩ . (ابن جريس).

الباب الخامس

مرتفعات تهامة

٥ ديسمبر إلى ٣١ ديسمبر ١٩٣٦م

الفصل الرابع والعشرون

وادي بيش[1]

كان مرشداي عند وعدهما، فقد عادا في الوقت المحدد من عند دفء الوادي، إلى برودة المرتفعات حيث أكون، ولم نبدأ التحرك من المعسكر إلاَّ عند الساعة العاشرة صباحاً سالكين طريقاً منحدراً صعباً يهبط من عند الممر وقد قيل إنه يصلح لسير الجمال. يفضل معظمنا أن يسير على قدميه وأن يترك الحيوانات تهتدي إلى طريقها إلى أسفل غير مشقلة بأوزاننا. لقد قمنا باستبدال حمير استؤجرت من ظهران بجمال استؤجرت من سنحان التي أمدّنا بها دليم في الحوط[2]، إلاَّ أنها كانت مخلوقات شديدة التحول مقارنة بجمال الصحراء. لقد عبرت الجمال هذا الطريق من قبل، ولذا فقد سلكته الآن بلا حوادث، مع الكثير من الصراخ المشجع من جانب السائقين. يتبع الطريق أول الأمر أخدوداً عميقاً في الصخر البركاني، وبه جانب صعب بمعنى الكلمة يقع على امتداد الرف الضيق، غير أن ظروف السير قد تحسنت، بعد أن عبرنا مسيل شراقب، من فوق سفح عشبي إلى أن وصلنا إلى بطن شعيب مجزع القرض الذي يقع حوالي (٦٠٠) قدم

---

(١) للمزيد عن وادي بيش انظر: البكري، **معجم ما استعجم**، مج١، جـ١، ص ٢٩٣، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ١، ص ٥٢٨، محمد العقيلي. **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية. مقاطعة جازان.** (الرياض: منشورات اليمامة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م) ص ٦٢ ــ ٦٣ (ابن جريس).

(٢) الجمال والحمير كانت وسيلة المواصلات الرئيسة أثناء زيارة فيلبي جنوبي البلاد السعودية، وإذا كانت قد ظهرت السيارات فلا توجد إلاَّ بعدد قليل جداً عند الأمراء والوجهاء في الحواضر الرئيسة مثل مدينة أبها وما شابهها. (ابن جريس).

تحت معسكرنا الليلي. لقد استغرق بحثنا عن هذا الجانب من الممر ما يقارب الساعة الكاملة.

كان الوادي الذي هبطنا إليه الآن يجري في إتجاه جنوبي، وهو كثيف الغطاء النباتي بما في ذلك أشجار التين البري (الأثب) وأشجار الطلح وأشجار العبال وجنبات من نبات العثرب وأنواع أخرى عديدة. وصلنا إلى قطعة أرض بوكسية (مغر) بارزة من فوق جلاميد البازلت وإلى ركام حجارة تقع من خلفنا. وصلنا بعد مسافة قليلة إلى الأسفل إلى ثقب ماء بياضه ويقع في منخفض رملي في وسط صخور مغر، وهو مشرب معروف بالنسبة للرعاة المحليين. لا يبدو أن هنالك أثراً للإنسان، إلى أن صرخ فينا قزم يشبه القرد، نصف عاري يقف عند صدع في الجلمود. لقد كان بلا شك يلحظ تحركاتنا باهتمام لبعض الوقت ويبدو أنه قد تعرَّف على مرشدينا. ويدور المسيل إلى أسفل قليلاً ناحية الجنوب الشرقي في مضيق كئيب لا يزيد عرضه عن (٥٠) ياردة من جلاميد داكنة عالية من الشست، دقيقة المسام ومرتبة عمودياً كأنها ألواح. بدأ غطاء نباتي من أنواع جديدة ينتشر، ويسود فيه التين البري. لقد كانت طيور السوَّادية تتغذى على ثمار التين، بينما أزعج وجودنا سكينة سرب من طيور الحجل بالقرب من تدفق مسيل صغير (حرة) من جهة الشمال، تقع قليلاً إلى أمام فم مسطح جميل لمياه الغيل يسمى مبرته. لم يكن المضيق هنا بأعرض من (٢٠) ياردة وقد سال الجدول بين سلسلة من البرك الصغيرة فوق بطن الوادي الرملية الداكنة اللون. قررنا أن نتوقف هنا لننال قسطاً من راحة الظهيرة إذ أن جمال العفش قد أدركتنا منذ قليل. وتحتاج هي بدورها لشرب الماء بعد إجهادها. لقد أمضيت الوقت مع توقعات حظي مع حصاد البندقية وشبكة صيد الفراشات وأنا أتجول بين أشجار التين وشجيرات اللافندر في

هذه المضايق وقد تمكنت آخر الأمر من إضافة طائر من طيور السوَّادية وفراشة من نوع بابليودمالس إلى مجموعتي المتحفية.

وقد استأنفنا سيرنا بعد الساعة الثالثة بقليل عبر المضيق الصخري والجروف الساقطة التي ترتفع جوانبها من (١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠) قدماً، وتخلل ذلك ظهور الأماكن التي يتسرب منها الماء، وبعض الرقع التي تكسوها أعشاب الحلفاء. وبعد ساعة من السير على الأقدام والتي خلالها اتصل مسيلان مع المضيق، في اتساع عند موقع تدفق كل من مسيل شعيب ضعن ومسيل سمحة من كلا الجانبين الأيسر والأيمن بالتتالي. تفتت الجلاميد على الجانبين إلى سفوح منخفضة لطيفة، وقد أصبح عرض الوادي الآن حوالي (٣٠٠) ياردة، والذي كان قد انحرف سريعاً وبعنف ناحية الغرب ليرافق شعيب رحا الذي كان قد اتصل من الجانب الأيسر على امتداد الحافة لسلسلة عثيث الضخمة. أصبحت أشجار العلب الآن في وفرة وأصبح الوادي معطراً بالأعشاب العطرية. كانت تعلو جانبه الأيسر سلسلة ريدان، وأصبح اسمه من عند هذا الموقع هو العين، بينما أصبح اسم الغيل الذي يدخله من عند رحا هو حلله. نقترب الآن من محطة الوصول النهائية، غير أنني دهشت حين رأيت في مسيل يدود الصغير الذي ينحدر من سلسلة ريدان بعضاً من المباني البسيطة الحجرية التي اتضح أنها ليست مأوى لمن هم على قيد الحياة بل هي قبب لمدافن تحت الأرض. لقد كان للموقع قداسته في أعين آل حيان، الذين مازالوا يحضرون موتاهم إلى هنا، حتى من المناطق البعيدة مثل صبيا ونجران.

يبدأ غيل العينة من عند هذا الموقع، وسرعان ما استقر بنا المقام في معسكرنا بالقرب من مجموعة أشجار ضخمة من السدر (العلب) والطلح وغيرها في مقابل فم شعيب الضبع الذي ينحدر إلى الوادي من جهة الجنوب، وكان ارتفاعنا هنا أقل

من (٤٥٠٠) قدم من عند ممر شراقب في قـمة سعدي. كان التغـيير الذي حدث في الطقس بين الموقعين -والذين تفصل بينهما مـسافة (٣) أو (٤) أميال من أقرب طريق مبـاشر- ملموسـاً، فقد كـانت أدنى درجة للحرارة ليـلاً هي (٥٤) درجة. وكان من أكثر الأشياء جاذبية في العين هو موقـعها ومظهرها المميز كواحة عربية. يجـري الوادي الآن، على خلفـية من جـرف السراة المرتـفع، بين سلسلة كل من عثيث - على الجانب الأيسـر - وريدان، وكلاهما ينحدر إلى الخلف بلطف وعلى ارتفاع (٥٠٠٠) أو (٥٥٠٠) قدم فوق سطح البحر.

يكون الوادي بين هاتين السلسلتـين وفم كل من رافدي يدود وضـبع انبعـاجاً معتبـراً إلى ما يلي الممرات الضيقة التـي دخلنا من عندها إليه، وبعض الشلالات على بعـد ميل واحد إلى أسـفل ناحيـة الغرب. كـان اتساع الانبعـاج عند أوسع مواقعه حوالي (٨٠٠) ياردة وقد احتلت طرفه الشـمالي مزرعة من أشجار جميلة كـان عمـقهـا (٥٠) ياردة وطولها (٥٠٠) يـاردة. ولا توجد مـساكن دائمـة في الواحة، غـير أن بعض الرعاة كـانوا يعسكرون بين الأشجـار على قرب من الماء، الذي كان يتدفق محدثاً خريراً من عند العيون. لقد ذكرت الرقع الصغيرة من المياه التي قابلتنا في المرتفـعات العليا للوادي، غير أنهـا هنا تكون غدراناً ذات خرير لم أر من قبل مثلها في الجزيرة العربيـة. كانت تجري فوق بطن صخري ضحل، وبين مروج من عشب الحلفاء والقصب حـتى تغيب عند منحنى الشلالات التي قد ورد ذكرها. يعزى نمو أيكة الأشـجار الجميلة هذه بلا شك إلى وفرة المياه غـير العادية هنا غير أن استمرارية حياة الأشـجار وبلوغها هذا الحجم لا بد له من سبب آخر. يعتقـد أنها محرمـة وذلك لقربها من المقبـرة القبلية والتي كان العـديد من قبورها مبعثراً فوق الأرض المرتفعة من خلف الأيكة، وكان معظمها بيضوي الشكل يرتفع

إلى قدمين، ومبنياً من حجر محلي، وأحياناً يزخرف بصفين من حجارة صغيرة بيضاء. كانت هذه بلا شك قبور لجمهرة الناس العاديين، بينما كانت الضرائح الكبيرة في يدود محجوزة للرؤساء وأسرهم.

رأيت ولأول مرة شجرة الابراه من بين الأشجار وهي تشبه كثيراً شجرة الكستناء بظلها المنتشر وبكل ما فيها. كان فوق أغصانها العديد من أعشاش أبو مطرقة، وكان العش بحجم ضخم ومظهر غير منتظم. وكان الطائر نفسه (Sco-pus umbretta) منتشراً بكثافة وهو يعود في المساء لعشه بعد أن قضى النهار في صيد السمك. ويطلق عليه العرب هنا اسم انقب الما أو بومه، وقد رأيت طائراً آخر مميزاً لهذه المناطق لأول مرة ويسمى عَجَلَة (Lophocerus nasutus fors-kalii)، مشؤوم المنظر، له طيران كالشبح ومنقاره ثقيل مقوس وهو الذي أكسبه مظهراً ثقيلاً برغم كل جسمه الرشيق. كانت طيور الحجل توجد بوفرة أيضاً، وهي من النوع نفسه الذي يشاهد في الجبال وفي هذه الأثناء تمكنت من إضافة طائر السمنة إلى حقيبة العينات المتحفية، لقد كان يقضي الشتاء في هذا الطقس المعتدل بعد رحلة طويلة من الشمال البارد.

وصلنا إلى المعسكر الساعة (٥,١٥) وذهبت فوراً إلى موقع الشلالات في الجدول، حيث جلست على صخرة أتأمل المنظر وأنتظر غروب الشمس. غير أن المياه الجارية كانت مغرية جداً للدرجة التي لم أستطع فيها أن أكبح صبري أكثر من ذلك وأشبعت رغبتي في شربة طويلة باردة دون أن يشاهدني أحد[1]. وذلك قبل

(١) صحيح إذا كان أفطر في رمضان قبل حلول الإفطار دون أن يراه أحد من البشر، ولكن الله عز وجل يراه ويشاهده. (ابن جريس).

عشر دقائق من موعد الغروب! كانت تلك أول مرة أشرب فيها الماء خلال رمضان، وقد كانت المياه لذيذة. ثم اغتسلت وحركت رجلي ويدي في الماء قبل أن ألحق بزملائي لتناول الإفطار الرسمي، ثم أخذت حماماً ممتعاً في صباح الغد وقبل الساعة الثامنة في بركة تقع بين الشلالات نفسها. كان من أبرز المضاعفات لهبوطنا لهذا الارتفاع المنخفض هو أنني لم أستطع النوم بعمق خلال هذه الليلة الأولى. لقد كنت مشغولاً بكتابة مذكراتي وملاحظاتي حتى الساعة الواحدة صباحاً، حين ذهبت إلى سريري، غير أنني لم أنم إلاَّ عندما تجاوزت الساعة الثالثة صباحاً لأستيقظ بعد ساعة للسحور. ثم اضطجعت عند الساعة السادسة، إلاَّ أنني نهضت من السرير بعد نصف ساعة، وخرجت للبحث عن الطيور. لقد كوفئت بالتقاط منظر رائع لريدان، الذي يبرز من خلال أشعة الشمس الذهبية الشاحبة وهي تشرق، بزمن طويل قبل أن تبرز الشمس نفسها فوق القمم لتطل على معسكرنا من فوق حافة الجرف. واستمر هذا حتى الساعة (٨,٢٠) صباحاً.

بدأت مسيرتنا إلى أسفل الوادي حوالي الساعة التاسعة صباحاً. كانت طيور البلابل توجد بوفرة بين أشجار التين البري على الجوانب الصخرية للوادي، والتي كانت تكثر بداخلها ومن فوقها طيور الذعرة بمرح.

هبطنا خلال نصف الساعة نحو (١٥٠) قدماً إلى فم شعيب حرير الذي أقبل من عند الجانب الأيسر بين سلاسل كل من عشيث وأدن والأخير هذا معلم أرضي كنت قد لاحظته من عند العمود الحدودي من ممر علب. ثم واصلنا هبوطنا في اتجاه غربي بصفة عامة ومررنا بمساحات كثيفة من الحلفاء وعلى فترات. ثم وصلنا إلى فم مسيل أحده (حدا) وينحدر من تل ثروة في الجرف، والذي فيه سجل مرشداي رقعتين صغيرتين لمياه الغيل، هما سددة وكانت العليا ورنده وتقع

أسفلها. ويستمر الوادي من أعلى عينه حيث يلتقي بشعيب حرير على الجهة اليمنى من ريدان وشعيب المعراض حتى أدن على اليسار. ويبلغ عرض المجرى هنا (٥٠٠) ياردة وقد كان حجرياً وعارياً من النبات، غير أننا قبل أن نصل إليه كنا قد سمعنا العواء المألوف للقرود المحلية، ولقد وصلنا في الوقت المناسب لنرى فريقاً منها وهو يصعد سفوح حرير. ورأينا كذلك وسمعنا أنغام زوج من طيور العجلة، وكنا قد أدخلنا إلى صندوق العينات المتحفية بعضاً من الحمام الأخضر، وبعض الطيور النساجة حمراء الوجنات. وذلك خلال مسيرة اليوم. ثم وصلنا إلى أسفل إلى بركة ملحة الصخرية التي يغذيها نبع في قاعدة صخرة جرانيتية على الجانب الأيسر ويقال عنها إنها تكون دائماً مليئة ولكنها لا تفيض. وقد انتشر من فوقها الظل اللطيف لأشجار العلب، بينما كانت الأرض من حولها مكسوة بأشجار الباليتو. لقد كانت بقعة لطيفة. ويتصل شعيب نفض بمجرى العطف من عند كل من أدن ومسيل خبيرة الصغير من جهة اليمين وإلى ما وراء الأخير، وحرفي على اليسار، وكذلك من عند أدن. كما لاحظت أن كلاً من مرشدي السنحانيين عايض ومداوي -وقد قدمتهما للقارئ في قمة سعدي- ينطقان «ل» بدلاً من «ض» مثلاً «لرم» بدلاً من «ضرم» (الخزامى). ويسميان القرود أرباح أو قرود أو قرده[1].

تتصل مجموعات أخرى من المسايل مع الوادي إلى أسفل على ارتفاع (٤٠٠٠) قدم فوق مستوى البحر وهي مسيل عرم (من عند أدن)، وآخر من حرير (من ريدان) والجودلة على اليسار (من الحمة). ويقبل إلى أسفل هذه، مسيل نفض آخر ومسيلان باسم مليض أعلى جزيرة كثيفة الأشجار في وسط انبعاج عريض

---

(١) كما ذكرنا في حواش سابقة أن اللهجات المحلية في جنوبي البلاد السعودية بحاجة إلى دراسات علمية، حبذا لو التفتت الأقسام العلمية وأصحاب التخصص لمثل هذا الجانب من الدراسات. (ابن جريس).

للمجرى. لقد كانت هذه الجزيرة عبارة عن شبكة من شجيرات قصيرة وحشائش الحلفا مع العديد من أشجار العلب جيدة النمو، ويبدو أنها كانت مأهولة ببعض الرعاة. ولم يكن لي دليل على ذلك غير معزة واحدة. ثم وصلنا بعد ذلك إلى غابة حقيقية لنبات الحلفا الذي يرتفع إلى (١٥) أو (٢٠) قدماً مع العديد من أشجار العلب والأثب (التين البري) إلى جانب بعض أشجار الدوم وهي أول مرة أرى فيها هذه الأشجار في هذا الوادي[١]. يوجد في هذه الغابة مشرب نخله، غير أنني لم أشاهد الماء في بطن المجرى، والذي كان مبللاً ولعله هو مصدر القطع المائية التي لاحظناها، وقد وصلناها سريعاً وهي تنساب في جدول لمئات قليلة من الياردات، لتختفي فجاة كما بدت فجأة عند فم مسيل يسمى أضملة من جهة اليسار.

يتصل وادي مهرة العريض الكثيف الشجر الذي ينبع من سفوح ثروة، مع المجرى الرئيس والذي تغير اسمه الآن إلى الفرشة ويتسع ليصبح عرضه (١٠٠٠) ياردة ويكسوه غطاء نباتي ثري. كما ينتشر نبات الحلفا وكتل ضخمة من القصب وبعض أشجار الدوم فوق الوادي من هذا الجانب إلى الجانب الآخر تاركة مسافة صغيرة من المجرى لتحمل مياه الغيل الذي على امتداده سرنا لفترة، لنتوقف عند فم شعيب جع، الذي يقبل من جهة اليسار، وبعد فترة راحة امتدت ثلاث ساعات، وقد كنت نائماً في معظمها بعمق. لقد هبطنا الآن إلى ارتفاع (٣٧٠٠) قدم فوق سطح البحر. وكانت فترة الظهيرة شديدة الرطوبة، غير أن النسيم قد هب من عند الوادي في وقت لاحق، وكان من الممتع أن يستطيع المرء أن يغتسل

---

(١) شجر الدوم وغيره من الأشجار المتنوعة في أشكالها وأحجامها وفوائدها موجودة بكثيرة في جبال السروات الممتدة من بلاد صنعاء حتى الطائف. (ابن جريس).

في الوادي البارد دون أن يقلق على استنزاف مخزوننا من الماء. لقد شربت الجمال بشراهة حينما وصلت إلى هذا الغيل.

يقع جانبا الوادي إلى الخلف في سفوح لطيفة وكان المجرى الوحيد المهم الذي دخل إلى الوادي هو وادي النعام وينحدر من عند سلسلة عمث البعيدة التابعة لمنطقة بني بشر ناحية الشمال[١]. ابتدأت أعداد أشجار الدوم في الازدياد بين الحلفاء والقصب كما لاحظت أن زملائي البدو الذين يرافقوني قد التقطوا الثمار المتساقطة وأكلوها عند الغروب. كانت الثمرة غير شهية، وكانت تؤكل منها طبقتها الخارجية وذلك لأن المركز كان صلباً ومستديراً ككرة البلياردو ويستخدم في السودان في صناعة الزينة العاجية المزيفة. يقوم البدو بحرق الحلفاء في أجزاء كثيرة من الوادي لتقوية المحصول لمقاومة الرعي الربيعي لأغنامهم. كانت مياه الغيل منقطعة وظلت تظهر ثم تختفي أثناء اقترابنا من دلتا الحلفاء والأعشاب الأخرى، التي تكونت بارتطام وادي الحمة من عند السلسلة التي تحمل الاسم نفسه وتقع على يسارنا. وأصبحت أشجار الدوم في وفرة حقيقية في هذه الدلتا، تنمو هنا وهناك حول الدلتا في أجمات مغلقة.

يضيق الوادي فيما يلي الدلتا، وهو يتعرج ويتلوى باستمرار وبه جدول يجري في بطنه الذي تنتشر فوقه الصخور، وعلى جانبيه كوَّنت أشجار الدوم شارعاً جميلاً. يتصل المسيلان الكبيران وهما شوحطة (يسار) والحبرة (يمين) مع المجرى وهما متقابلان مع بعضهما في هذه المرتفعات المتعرجة، والتي قابلتنا فيها مجموعة من العرب وهم متجهون أعلى الجدول، وقد أفادونا بالخبر الذي يقول بوقوع غارة

(١) عشيرة بني بشر إحدى القبائل الرئيسة في بلاد قحطان ومشائخها أسرة آل ثقفان. (ابن جريس).

قام بهـا آل مسعـود ليلة الأمس على الريث في البلاد التي تـقع أمامنا. لقد غـير الوادي اسمه بالمناسبة من عند دلتا الحمـة وإلى أسفل، فأصبح اسمه اللحجة بدلاً من الفرشة، ويعادل ذلك مواقع نمو الحلفاء والقصب. لقد قرر المرشدون بأسلوبهم الخاص أين سيكون مـعسكرنا هذه الليلة غير أنه لم يقطع أمـر ذلك إلاً بعد مضي نصف ساعة بعـد الإفطار الذي كان عبارة عن جـرعات من الماء، حين وصلنا إلى مخيم للبدو فيما يلي فم شعيب الجفار إلى اليسار في أحمية ساحرة لأشجار نخيل الدوم، التي استـقر بنا المقام في وسطهـا لقضاء الليـلة. كنا على ارتفاع (٣٣٠٠) قدم فوق سطح البحر وكانت درجة الحرارة الدنيا أثناء الليل (٥٧) درجة.

كان معسكرنا فعلـياً على مسيل شلالة الصغير عند موقع الـتقائة مع اللحجة في أرض كل من آل حـوير وآل يزيد، تحت قسـم آل سريع قـحطان الذي يشكل شعيب الجفار حدوده الشرقية، كما أن بعض أجزاء الوادي تابعـة لآل حيان، أحد عشائر آل سـريع. ودفعنا لمرشدينا التابـعين لآل حيان أجرتهمـا مقابل خدمـاتهما المتواضعة وكـانت الأجرة ثلاثة ريالات لكل واحد منهما. كان عـايض مفيداً إلى حد ما، أما مداوي فقد كان جميلاً في غموض ومتنعماً وعديم الفائدة، ويبدو أنه يكره القيام بأي نوع من الإجـهاد. وقد عينت في مكانهـما رجلاً من آل يزيد من المعسـكر على الجانب المقـابل للجدول وكـان بعض ذويه قد زارونا وتناولوا مـعنا عشاءنا المتواضع الخالي من اللحوم.

بدأنا رحلتنا عند الساعة العـاشرة صباحاً (٧ ديسمـبر)، وكانت سلسلة ريدان لا تزال ترى من خلفنا، بينما اتجه الوادي ناحية الشمـال الغربي. كانت مياه الغيل تبدو لنا متواصلة لعدة أميال، وقد انتشرت أشجار الدوم على امتداد الجدول وعلى الجانبين. لـقد سرت على قـدمي معظم الطريـق، وكنت أمتطي الحـيوان من حين

لآخر لأجل التغيير. كان المكان بلا حياة بشكل مدهش لا يتناسب مع جمال الموقع، وكان كل ما لمحناه من بني بشر خلال المسيرة التي امتدت لأكثر من ساعتين، رجلاً شبه عارٍ وبرفقته كلب. لقد ازداد حجم قافلتنا وذلك بالتحاق عدد من الرجال والنساء من معسكر آل يزيد وقد كانت لهم أعمال في أسفل الوادي. سار الرجال بمرح، كانوا عراة إلاَّ من خرقة تستر العورة وهم يحملون بنادقهم عرضياً فوق أكتافهم من خلف أعناقهم، وكلا اليدين ممسكتان بعقب وبماسورة البندقية. لقد كان معظمهم مسلحاً ولقد شاهدت إحدى النساء وهي تحمل السلاح، وكان ذلك لتخفيف الحمل مؤقتاً عن أحد الرجال. ترتدي النسوة قبعات طويلة شبيهة بالسلال من القش للوقاية من الشمس. وكان بعضهن يرفع الجزء الأعلى من سماقهن الفضفاض الواسع، وهو كل ما كن يرتدين من غطاء، فوق قبعاتهن وذلك لأجل حماية أكثر. ثم مررنا في أحد المواقع بمنطقة من القرود جالسة بهدوء على جانب التل كانت تراقب تقدمنا إلى أسفل الوادي، لقد كان غذاؤها الرئيس في هذه الأرض هو ثمار الدوم والتين البري وبعض ثمار توتية أخرى.

لقد وصلنا إلى رافد مهم، وهو المسيل العريض المسمى سقامة، وذلك بعد مسيرة ساعة، مررنا خلالها بفم مسيل بعشة إلى اليسار، بعد أن تركنا كلاً من المعسكر وشعيب مخلفة على الجانب نفسه، الذي ينحدر إلى الجانب الأيمن من تل بكة البعيد. لقد اختفى جدول مياه الغيل بعد ذلك وبدا المجرى يدخل مضيقاً، به صخور عالية من شست يشبه الألواح وقد كانت كهوفها وشقوقها موطناً للعديد من الأرانب الأوروبية. يبدو أن الشست هو الصخر القاعدي الأساسي لكل هذه الأرض المرتفعة لتهامة، وذلك لأنني على ما أذكر، لم أر أي نوع آخر من

الصخور تقع أسفله، علماً بأنه يوجد الكثير من الجرانيت في المنطقة. لقد وصلنا إلى ثقوب مائية تسمى برد في وسط المضيق في أرض المجرى الرملية والذي كانت صخوره هنا عالية جداً، وشديدة الانحدار، وسوداء اللون جداً. لقد قابلتنا في هذا الموقع امرأة متقدمة في السن وجميلة جداً وذات صفات منحوته بجمال وقد تبادلت التحية والمزاح من قريبها، محمد أبو علي، مرشدنا، وهو رجل مسن قاسٍ إلى حد بعيد وصموت. كان مسيل برد الذي تشتق منه اسم الثقوب المائية ذا مجرى عريض ويدخل الوادي إلى مسافة قليلة فيما يلي الثقوب المائية. ويقال إنه ينبع من مرتفعات سلسلة وثران بعيداً إلى الجنوب. وكانت هنالك امرأة جالسة بمفردها عند زاوية الطريق وكأنها لوح من خشب أكثر منها إنساناً إلى أن وصلنا إليها.

يُكَوِّن مدخل وادي سقامة بعد مسافة، إلى اليمين وإلى ما وراء نهاية الممرات الضيقة انبعاجاً واسعاً وعشبياً للوادي وتحيط به أجمات أشجار الدوم. كانت أعداد القرود هنا كثيرة جداً، وبالمئات تلو المئات، ويبدو أنها قد توزعت إلى ثلاث فرق ولا يزعجها أمر وجود بني بشر. وكان هنالك قطيع ماعز كبير يرعى عند جانب التل وتقوم بقيادته امرأتان، ولم يثر الظهور المفاجئ لموكبنا حتى القرود. لقد تحركت إحدى فرق القرود، يقودها زعماؤها بمسيرة مماثلة إلى جانبنا وعلى مسافة محترمة لمرافقتنا على جانب التل.

واصلت مياه الغيل ظهورها فيما يلي انبعاج سقامة - تحت مسمى عين سودان - على هيئة جدول لطيف عريض يتموج في هدير خفيف فوق الحصا ثم يمر من خلال الشارع الجميل لأشجار الدوم الذي ينتهي عند موقع تدفق وادي اللحجة من جهة اليمين داخل رافد عريض ومهم أيضاً يسمى لحجة. ينحدر هذا

من تلال عمث في مقاطعة بني بشر ويكون التقاء مسيلي اللحجة خط الحدود بين قسم آل سرع وقسم ال جوب التابع لقسم آخر من قحطان، والذي يزعم أنه الأصل الأبوي لبني بشر في مرتفعات تهامة ولقبيلة عبيدة وقبيلة شريف في الجرف.

يسمى الوادي المشترك الآن رحا بدلاً عن لحجة، ويتوقف فيه مياه الغيل، مؤقتاً، لتظهر بعد مسافة (٥٠٠) ياردة إلى أسفل. كانت الأبقار متوافرة في هذه المنطقة، من عينة وكانت تشاهد على فترات، وهي ذات سنام صغير، ويبدو أنها وافرة اللبن. والأبقار أكثر وفرة في منطقة رحا هذه منها في أي موقع آخر. ربما بسبب اتساع المراعي الذي تسببه كثرة الروافد التي تدخل إلى الوادي من كلا الجانبين. لقد رفعت لي أسماء أكثر من (١٤) من هذه المسائل[١] كما رواها لي دليلي، خلال مسيرة ساعتين ونصف الساعة - لنقل (٦) أو (٧) أميال عن طريق الوادي الملتوي - غير أن أكثرها أهمية كان شعيب ضروة الذي يقبل من عند الجانب الأيمن على بعد نصف المسافة إلى أسفل، وهو ينبع من البعيد إلى الخلف في جبال بني بشر التابعة لعمث. لقد قابلنا القليل من الناس هنا وهناك، وكانت هنالك امرأة منفردة، ترتدي قلنسوة من القش، وهي ترعى الأغنام، وقابلنا مجموعات صغيرة من رجل أو رجلين وهم يجلسون عاطلين بجوار الجدول تحت النخيل، بينما ترعي ماعزهم بجوارهم، وقابلتنا مجموعات من حين لآخر من القرود تكاد تكون إنسانية في سلوكها الرصين. ثم بدأ نسيم قوي يهب عند الظهيرة، وقد أدى ذلك إلى تلطيف الأجواء على الرغم من نعاس رمضان الذي

(١) على الجانب الأيمن: رحا، وحسين، وظل الحص، وضروة، ومضو (تنطق مللو)، والمناخ، والمجنب، وشقرة. وعلى الجانب الأيسر: ضرة، وضروة، وضروة السفلى، وضراية، وفضحو، ويقع ثيحو أسفل معسكرنا. (المؤلف).

كنت أقاومه حتى الساعة الثانية ظهراً على أمل أن نحرز تقدماً في السير أكثر مما قد أحرزناه. قررنا أن نتوقف - على أي حال - للراحة في بقعة ظليلة والتي منها ابتعدت مجموعة من القرود في هدوء ونحن نتقدم نحوها. لقد نمت هنا بعمق لمدة ساعتين ثم أخذت حماماً منعشاً في المياه الجارية قبل أن نواصل المسيرة.

أصبح منظر أشجار الدوم، على الرغم من سحره، مملاً داخل المسافة المحصورة للوادي. والذي حددت سفوحه الشديدة الميلان مجال الرؤيا. غير أن المنظر تغير سريعاً مع اتجاه الوادي ناحية الجنوب الغربي، فقد بدأنا نشاهد جانباً من الكتلة العظيمة لجبل الريث التي تقع أمامنا وتقع سلسلة دفا المنخفضة أمامه على امتداد الجانب الأيسر لوادي دفا، وهو الشريان الصرفي الرئيس لجبال الخولان (تهامة)، ذلك لأن وادينا هو النسخة القحطانية المقابلة. يدخل مجرى وادي بيش العريض، على الجانب الآخر من على بعد نصف ميل بعد بداية سيرنا، وواديه الجاري وأشجار الدوم التي تحفه، عبر مروج الحلفاء، إلى الوادي من عند منبعه البعيد في الأطراف البعيدة لتمنية بالقرب من أبها. أدت هذه الزيادة في القوة لاندفاع الجدول في هدير فوق البطن الحصوي العريض الذي تحفه على اليسار كتلة عظيمة من صخور شستية ملساء سوداء ومنغرسة عند زاوية (٤٥) إلى (٥٠) درجة، وعند طرفها البعيد يتصل وادي دفا نفسه مع رحا في دلتا عريضة يكسوها نبات الحلفاء ونبات القصب، وتجري خلالها مياه الغيل وكأنها النهر والتي كانت تلهو عليها أسراب عديدة من طيور الماء إلى أن تسببنا في إزعاجها. ويُكَوِّن التقاء المجريين الرأس الحقيقي لوادي بيش[١]، والذي يجري من هنا كوادٍ عريض مع

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن وادي بيش وفروعه وسكانه انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٨٢ ــ ١٨٩ . (ابن جريس).

الجدول المدعم له وهو يحتضن الجلاميد الشستية على الجانب الأيسر، بينما يكون الحرف على الجانب الآخر، علامة أرضية بارزة ومن حولها يتجه الوادي ناحية الشمال الغربي. ويهبط سطح حصوي عريض من هذه العلامة الأرضية إلى شريط كثيف من أشجار الطلح والدوم على امتداد الجانب الأيمن للجدول الفعلي. كانت الأحوال هنا، وخاصة منظر طيور الماء، أكثر إغراء لنا، ولذا عسكرنا على السفح الجبلي لقضاء الليلة.

كان ارتفاع رأس وادي بيش عند ملتقى كل من رحا ودفا حوالي (٢٢٠٠) قدم فوق سطح البحر. وكانت درجة الحرارة عند الساعة الثامنة صباحاً ٧٩ درجة. وكانت الدرجة الدنيا للحرارة ليلاً (٦٥) درجة، ويصعب على المرء أن يصدق أننا كنا قد تعرضنا لبرد شديد قبل ثلاثة أيام فقط. كانت مسيرة النهار شديدة الحرارة، وكانت هنالك نسبة عالية من الرطوبة في الهواء، والتي تسببت في تكوين ندى كثيف أثناء الليل[١]. كان كل شيء ينز بالماء في صباح الغد، وكان علينا أن ننتظر طلوع الشمس لتجفف لنا الأسرة قبل أن نطويها للسفر. كان هنالك الكثير من المياه السطحية في هذه الأرض - للأسف - مما حدا بطيور الماء التي لاحظناها حين وصولنا أن تظل بعيدة عنا. لقد كانت حقيبتي المتحفية مخيبة للآمال أيضاً، على الرغم من أنها احتوت على ثلاثة أنواع من البط وفرد واحد من دراسة الصخور دون الحديث عن طائر العجلة الذي أصبح مألوفاً، إلى جانب عينة من نقار الخشب الذي لم أكن أتوقع وجوده عند هذا الخط العرضي المنخفض. لقد كان هو الطائر الوحيد الذي رأيناه وربما يكون قد ضل طريقه من الهضبة، برغم أنه لا

(١) لمعرفة مناخ تهامة، وكذلك الأجزاء الغربية من جبال السروات انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٣٧، وما بعدها. (ابن جريس).

يوجد ما يؤكد أنه طائر أراضٍ مرتفعـة فقط. لم ترجع طيور مالك الحزين والطائر المخوض التي كـنا قد رأيناها، مـرة أخرى للمكان، غـير أنني رأيت في الصـباح الباكر ما بـدا لي وكأنه خمسة من طيور اللقـلاق، وهي تقف في صف على قمة صخرة عالية على الجانب الأيسر للوادي. لقـد اختفت كلها سريعاً ولم أعد أراها بعد ذلك. أدهشني أنه في بلاد وافـرة المياه كهذه، لا توجـد إرهاصات تدل على مـحاولة للـزراعة من أي درجـة كـانت، في كل هذا الوادي، من عند عـينة إلى أسفل، غير أنه قيل لي إن التربة هنا ضعيفة. كان الغذاء الرئيس لهؤلاء الناس هو لبن الأبقار، واللحم مـن حين لآخر، وغالبـاً لحم الضأن أو الماعز. كـما أنهم لا يأكلون في مجموعات عكس ما يفعله عرب الصحراء.

قرر عايض، ذلك المرشد الذي كنت قد دفـعت له أجرته في معسكر شلالة، أن يظل معنا لكي يرى أكثر عن العالم. لقد جاء دور محمد أبو علي لكي أدفع له أجـرته ويذهب في حال سـبـيله، وفي مكانه لحق بنا رجل من آل جـوب اسمـه جابر، ويتـبع لأحد عشائر قـبيلة آل حسن، وذلك لصـحبتنا للمرحلة التـالية من الرحلة. كنت أعتقـد أنه قد التحق بنا لرغبته في رؤية بـعض الأصدقاء والأقارب أسفـل الوادي، والذين حمل إليـهم جدياً تمت ولادته حـديثاً أثنـاء سيره بـجوار الجمال. يرتدي جابر ملابس عبارة عن إزار قصير جداً، وحزام للخراطيش البندقية ثلاثة أرباعه فارغة، وإضـافة إلى، البندقية. كان رجلاً قصيـراً غير أنه متين البناء وصوته هادر عميق وكان يستخدمـه في انطلاقات مختصرة مثل «أى» و «لا» إجابة عن الأسئلة التي توجه له ونادراً ما يبادر بالحديث. لقد استمعنا للقرود وهي تنادي بعضـها بعضـاً خلال الليل كما لا بـد أن يكون هنالك معسكر للرعـاة في الجوار وذلك لورود مئـات الرؤوس من قطعان الماعـز إلى موقع الماء وذلك قـبل أن تبدأ

رحلتنا، ومنها عادت إلى مـراعيها في التلال وهي مكونة منظراً رائعـاً في تسلقها بجهد في مجموعات، مع إيقاع تسـاقط الحجارة من عند الصخرة السوداء الشديدة الانحدار.

لقد قـابلتنا إحدى نسائهم الراعيـات على مسافة إلى أسـفل الوادي، وكانت امرأة شابة وجـميلة، وفي عمر الزواج، ولكنهـا لم تتزوج بعد، كمـا قال جابر، والذي تصله بها قـرابة بعيدة. لقـد كانت فتاة مكتـملة النمو والبناء ذات ابتسـامة ساحـرة وعيون ضاحكة لامـعة، كانت ترتدي القـبعة المألوفـة المصنوعة من القش وترفع قناع الموسلين بعيداً عن وجهـها. كانت ترتدي زياً يتكون من قطعتين، بدلاً من السمـق العادي، من ثوب أعلى يتـصل عند العنق ويتدلى في فـضفـضة إلى أسفل ومن الخلف ويـكون الجانبان مكشـوفين، ومن قطعة قـماش ملفوفـة حول خاصـرتها ومطوية على الجـانب. لقد كنت مـتمكناً من مـلاحظة هذه التفـاصيل وذلك أثناء مرافقتها لجابر لفترة، وهما يسيران بجوار جملي إلى أسفل الوادي تجاه السور الواقي العظيم لجبل الريث. وبدا لي هذا الجبل وكأنه من صخر رملي وربما كان من الجرانيت، وكانت كتلة كبيرة منه قد انتصبت عمودية إلى ارتفاع (٥٠٠٠) أو (٦٠٠٠) قدم فـوق سطح البحر، وفي وسط الشست وفـوق الأرض المحيطة. ينتمي سكـان الريث إلى قسم خولان. وتنفـصل أرضهم عن آل سـريع (قحطان) بواسطة وادي دفا، وتنفصل عن الجوب (أيضاً قحطان) بواسطة وادي بيش من عند موقع الالتـقاء وإلى أسفل، ويمتد آل جـوب إلى وادي أبخ الذي يدخل بيش على بعد ميلين إلى الأسفل من عند فم دفا، ويقع منبعه في كتلة تمنية.

كان الوادي أسفل معسكرنا ممتلئاً بشجيرات نبات الشار وبأشجار الرين صفراء الأزهار، وهي منتشـرة جداً في سفـوح تلال مكان، بينما استـمر شريط أشـجار

الدوم بلا انقطاع بين الجلاميد العالية التي تساعد على تضخيم أقل صوت. فمثلاً، يكون لصوت حركة احتكاك أحد الجمال على جذع شجرة الدوم على مسافة ووراء موقعنا حين يرده الصدى إلى أسفل الوادي، كأنما هو طلقة نارية قد أطلقت، وعندما استخدمت بندقيتي كان صوت الصدى كالرعد. يمتد الوادي إلى أسفل بين جلاميد كبيرة كأنها الغدير، ثم فجأة يفسح الشست المجال للجرانيت ليتخلله. كان الصخر يميل على درجة (٤٥) وقد احتل كلا جانبي الوادي، غير أن الشست كون خلفية له على الجانب الأيمن وبدأ وكأنه يغطي أجزاء منه وكأنما انقلبت الكتلة المتصدعة رأساً على عقب فوق موقعها الأصلي. كانت قاعدة جبل الريث جرانيتية في وضوح، غير أنني لم أقطع الشك إن كان الجزء الأعلى منه هو صخر رملي أو هو من الجرانيت. ويطل جانبه الشرقي على المجرى الرئيس الصرفي الداخلي للمنطقة وهو وادي رنقة الذي كان فمه موعد لقاء جابر مع شقيقه لاستلام الجدي. ولم يصل شقيقه، غير أننا دعونا إلى وقفة إلى حين وصول الشقيق ولمدة نصف ساعة وقد وظفتها بفائدة بنشاطاتي في البحث عن الحشرات خاصة الفراشات العديدة التي كانت تطير فوق الوادي العطر. ويبدو أن ثمار الدوم المتساقطة المتحللة هي الأكثر جاذبية للفراشات وكذلك الطين الرطب بجوار الوادي. هبط على مسافة قليلة إلى أسفل الصدع المحدود الأهمية والذي يسمى أم لجة، إلى بيش من على الجانب الأيسر وعبر انحدار رائع يتكون من ثلاثة أجزاء والذي بجواره، وفي داخل كهف مظلل في جوف الصخرة الجرانيتية شاهدت رجلين وعدداً من الأطفال وكلهم عراة تماماً وهم ينظرون إلى ناحيتنا. وفي أثناء مرورنا تحصلت على أحد طيور مالك الحزين من هذا المكان وقد كنت قد رأيت الطائر من قبل في ملتقى دفا.

وصلنا إلى نهاية الجرانيت على مسافة الميلين من عند أم لجة، وقد استعاد الوادي معطفه الشستي وسط صخور شديدة الانحدار. كان الوادي يتجه ناحية الشمال الغربي بصفة عامة وتقع كتلة ثريان العالية أمامه في حين يدخل على الجانب القريب منه وادٍ آخر بالاسم نفسه إلى وادي بيش من عند تمنية. يقع السور الواقي العظيم المسطح القمة جبل الريث إلى الخلف قليلاً من موقعنا ناحية الجنوب، غير أنه لا يزال يحجب كل شيء في الجوار، وهو جبل عظيم بحق يرسل العديد من المسايل إلى أسفل حتى تتصل مع وادي بيش عند منحنى عريض ناحية الغرب. ثم مررنا هنا بأول المناطق المأهولة بالبشر في هذا الوادي، ولقد كانت مجرد مجموعة من عشش صخرية منخفضة، بعضها لم يزد حجمه على حجم خيمة معسكر مؤقتة. لقد كانت العشش على أي حال مأهولة. ثم مررنا على مسافة قليلة إلى أسفل بامرأة أخرى جميلة جداً وهي تستحم في الوادي تكسوها ملابس شحيحة، إلاَّ أنها كانت مغطاة بحشمة. لقد كان الوادي متخللاً بالعديد من البرك العميقة الممتلئة بالأسماك الكبيرة، غير أن الرمال هنا كانت خطرة وكثيراً ما تغوص تحت وطأة وزن جمالنا. كان لون الرمال رمادياً أسود. ثم دخل عدد من المسايل إلى الوادي الرئيس على فترات ومن كلا الجانبين، ويبدو أن الجرانيت الذي ظهر مرة أخرى هنا كان مختلطاً مع صخور الشست وكان يقع حقيقة أسفلها.

يحمل الوادي الاسم المحلي الفيض، من موقع دخول شعيب شرحان، وترافقه كتلة ضخمة من أشجار الدوم خاصة عند فمه على يمين الوادي، ويبدو أنه منحصر في انبعاج محلي يحتوي على غابة حقيقية للدوم كأنها واحة، إلى جانب حقول عظيمة للحلفاء. وقررنا التوقف هنا لأجل الراحة بضع ساعات ويمتد أمامنا

منظر جيد لجبل الريث، ناحية الجنوب الشرقي وتمتد مستديرة إلى الجنوب في سلسلة منفصلة مزدوجة القمة تسمى قرشو، التي كانت سفوحها الخارجية تكون بالفعل الجانب الأيسر لهذا القسم من بيش (أو الفيض) لمسافة تليه إلى أسفل. ظهرت لنا أيضاً قمتا تمنية من ناحية الشمال الغربي من أعلى وادي ردوم ووادي العوراء اللذين ينحدران من كتلتهما إلى بيش إلى مسافة إلى الأسفل. لقد تكوَّن الجانب الأيمن لعورا قريباً من موقع دخوله، بواسطة سلسلة جبال بيد العالية. لعل النطق لحرف «و» الأخير في كلمات قرشو وردوم يقصد به «ي» قرشي وردمي وهو لهجة محلية. ومن غرائب لهجتهم إدغام المقاطع الأخيرة من بعض الكلمات، مثلاً، «آل الشا» بدلاً من «آل الشام» و«ذللي» بدلاً من «ذا الليل»[1]. لقد تكاثرت الآن طيور الشقراق الإثيوبية الجميلة في مزارع الدوم وقد استطعت أن أتحصَّل على أولى عيناتي المتحفية لها أثناء توقفنا عصر هذا اليوم. لقد كانت بالطبع من أكثر طيور تهامة عسير شيوعاً، وتنتشر إلى البعيد إلى ساحل القنفذة، وليس إلى ما يلي هذا الموقع.

لقد لفت انتباهي عمود صغير، وذلك بمجرد أن بدأنا مسيرتنا، وهو مبني من حجارة بيضاء، الواحد منها فوق الآخر، قائمة على طرف جلمود. لقد كان تقليد محلي أن يقام نصب تذكاري لقتلى الحروب القبلية - أصبح هذا التقليد مثبّطا الآن ومهجوراً - ولا يقام النصب التذكاري على موقع سقوط الضحية القتيل، ذلك لأنه قد يكون قد تمَّ قتله وهو يتحرك أعلى أو أسفل الوادي، ولكنه ينصب حيث أختبأ العدو القاتل الذي قام بإطلاق الرصاصة. لقد كانت الحرارة شديدة في

(١) لهجات سكان تهامة تختلف كثيراً في مخارج الحروف وتركيبها عن سكان أهل السراة، ولكن كما ذكرت سابقاً أن لهجات هذه البلاد (تهامة والسراة) جديرة بالدراسة والتحليل. (ابن جريس).

الوادي أثناء فتـرة الظهيـرة، ولكن سرعان مـا هبَّ نسيم جنوبي غربي بمـجرد بدايتنا للمسيرة، وكنا حينها نعبر أفواه العديد من الروافد والمسايل على الجانبين إلى أن وصلنا إلى موقـع اتَّصل فيـه شعيب لحـج آخر[1] مع الوادي من جـانب الريث إلى الجنوب الشرقي. قـررنا أن نعسكر هنـا في منبعج واسع تكون بواسطة هذا الرافـد المهم وعند التفاف ثعبـاني للوادي الرئيس، ويمتد أمامنا منظر كامل «لأعمدة الـقتل» التي إما أنها كانت لذكرى كمين كـبير أو مصيفاً مـشهوراً لرجال قبائل يهـوون المتاعب. وقد تحول اسم «الفيض» مرة أخرى إلى بيش وذلك من عند فم العوراء وإلى أسفل.

كان الارتفاع هنا ١٦٠٠ قـدم فوق سطح البحر، وأفـرزت الليلة التي كانت درجة الحـرارة فيها ٦٦ درجـة، نسبة عـالية من الندى. كانت أرضـية الوادي هنا بالتأكـيد من الجرانيت، غـير أن الجلاميـد كانت لا تزال من شست داكن مـا عدا الأجزاء السفلى. كان الجزء المبكر من المساء عاصفاً، ذلك لأنه ومنذ الغروب بدأت رياح قوية تهب على السفوح المجاورة وحـول منحنى الوادي، غير أنها هدأت في وقت لاحق وكانت الليلة ساكنة بما فيه الكفاية، مـا عدا إزعاج الضفادع التي يبدو أنها كانت متوافرة بكثرة في هذا الملتقى المائي، وقـد واصلت الضفادع نقيقها حتى غلبني النوم بعد سـهري العادي الليلي مع أعـمال المزواة وكتـابة الملاحظات. لقد وقع معظم زملائي منذ لحظة وصولنا إلى عينة بإغـراء الماء الوافر لهم، وكان صيام رمضان خـلال الأيام القليلة الماضية قـد تمَّ الالتزام به ليس بإطاعته وإنما بـخرقة.

---

(١) دخلت إلى بيش، مـا بين فم دفا وفم اللحجـة، ما لا يقل عن (٢٥) رافـداً هي: الجانب الأيمن: أبخ، وثريان، وحرشو، والفرع، وشرحـان، وردوم، والعوراء، وملتف، وثلثين والقراً. ومن الجانب الأيسر: صلاح (مسـيلان) وروايح، ورنقه، ولجة، واوسط (ثلاث مسـائل) وحيلة، ورشدة، ومشـامة، والنقيل، وعتبة، وغرف، ورجل. (المؤلف).

ويبدو أن الأهالي المحليين لا يأخذون الصيام مـأخذ الجد، إذ إنهم يشربون متى ما أحسوا بالحاجة لذلك[١]. لم يكونوا يشربون من المياه الجـارية، بل كانوا يحفرون الرمل للحصـول على بركة طازجة ومـاء أشدّ برودة، وتراهم وقد انبطحـوا أرضاً يلعقـون السائل بشفـاههم، يحمل النسوة أوانـي القرع ويشربن منهـا. لقد توقف القائمون على رعي الجـمال عن الصيام، وهم رجال من الحوط، كـانوا قد صاموا فوق الهـضبة مع ذويـهم، كما منح سـعد نفسـه رخصة إفطـار المسافر في شـهر رمضان. ولقد حافظ على الصيام حقيقة كل من فرج، وابن هذيل - وهو طباخنا النجـدي والذي يسـاعد في كل شيء - بالإضـافـة إلى اثنين من رجـال الجمـال وشخصي، كما بقيت من الشهر أيام قليلة.

رافقنا في هذا المعسكر شخص آخر اسمـه جابر أيضاً، وهو من ناحية النسب خال لأحد مـرشدينا، وبالرغم من أننا سنختار مرشـدين جدد في كل أرض تابعة لقبيلة مختلفة، فقد قرر مرشدانا السابقان أن يظلا معنا، وقد ذكر جابر - مرشـدنا السابق - أنه لم يغادر إلى خارج بلده لأبعد من قرية الحقو، وهي أولى قرى سهل تهامـة الحقـيقة، بالقـرب من الموقع الذي ينبـعج فيه وادي بيش وهو يـنحدر من المرتفعـات. كانت سلسلة بيض المـتدة على مجـرى العوراء هي الحدود الغـربية لجوب. ينتـمي الجانب الأيمن لبيش من هذا الموقع وتجـاه الغرب وأراضيه المرتفـعة إلى قسم آل الشام (بنو معراج، وبنو مأجور وعسكر وأقسام أخرى)، وينتمي قسم شحران لأرض تمنية، والذين يكوِّنـون فرعاً جانبياً لبني شحـر الذين يتمركزون في

(١) هذا تعميم خاطئ لأن ما يقوم به بعض الأفراد لا يعني أن الجميع كانوا يقومون به، كما أن الجهل الديني ربما كان منتشراً بين كثير من الناس؛ لهذا فهم لا يدركون خطورة ما يفعلون. (ابن جريس).

الشمال من أبهـا في جبال السراة[١]. يقع الجانب الأيسر لبيش، وأراضـيه المرتفعة حتى الحقو نفسهـا ناحية الغرب - من عند دفا إلى أسفل - وداخل أراضي الريث التابعين إلى آل خزيم وآل حسن، وغيرهما من الأقسام.

كان مرشدانا الجديدان قد حضرا لمقابلتنا هنا بعد تعينهما بتوصية من دليم ابن دليم، ويتبعان أصل الريث، وهما بالاسم: يحـيى بن مسرع وهو شيخ آل خزيم، وموسى بن حمدان[٢]، وهو شيخ آل حسن. كان موسى مميزاً وعلى الرغم من أنه رجل بالغ في السن وله لحية وكل ذلك، إلاَّ أنه لم يكن مختوناً. إن تأخير الختانة هو التقليـد المتبع بين قبائل تهـامة وهم يعتبـرون عملية الختـان اختباراً للشـجاعة الشخصية والاحـتمال، ويحتفلون بها في مواكب عظيمـة وتشريفات. ولا يتزوج الرجال إلاَّ بعد ختانهم وللعـروس المختارة الحق في رفض الرجل الذي يحجم عن هذه العملية، والتي كانت ذات طبيعة قاسية وأكثر الأعمال وحشية. يشتمل الختان في هذه القـبائل على إزالة الجلد مـن عند المعدة من جـانب إلى آخر إلى مـا يلي السرة ثم على جانبي الوركين وما بينهما بنزع الجلد منها كلها وتكون البقعة المتأثرة بهذا هي المعـدة، الحوض، والقضيب، والصـفن، وأسطح الأرجل الداخلية والتي تكون كلها مسلوخة. إنهـا حقيقة عملية سلخ جـزئي لكائن حي ويقال إنَّ العديد من الشبان يستسلمون لهذه العملية. لقد منعت الإدارة السعودية هذا العمل بصفته من مخلفات العصـر الوثني القديم، وهو أمر مخالف لتعـاليم الإسلام غير أنه في هذا الوقت، لا يزال يطبق وبدقة، وسيستغرق الأمر وقتاً طويلاً للتخلص من عادة

(١) لقد خلط فيلبي بين شهران وبـني شهر عندما قال:ـ «قسم شهران لأرض تمنية... يكونون فـرعاً جانبياً لبني شهر»، وهذا غير صحيح؛ لأن قبائل بني شهر المنتسبة إلى حجر بن لهنوء الأزدي تختلف في نسبها عن شهران التي تنسب في قبائل خثعم. (ابن جريس).

(٢) موسى بن حمدان ربما أن اسمه موسى بن همدان. (ابن جريس).

تعمَّقت في التقاليد القبلية[١]. يتطلع موسى لتجربته الشخصية لهذه الطقوس الوحشية وكل أمله أن يجعل فتاته فخورة به.

وقد لاحظت أمراً آخر بين هؤلاء الناس، وذلك أنهم يلجؤون إلى محاكاة أصوات الحيوانات للفت الانتباه في مناداة الأصدقاء الذين يصلهم هذا الصوت. أطلق جابر مثلاً أثناء سيرنا وعلى فترات، صوتاً يحاكي صوت طائر البوم، كما سمعت صوتاً آخر خلال هذه الأيام يحاكي الخشخشة أو البقبقة يكرر ثلاث أو أربع مرات. كانت البندقية التي يحملونها هنا من النوع الإيطالي المعروف والذي يسمى أبو كسوة، والذي يشبهون علبة ذخيرته خماسية الخرطوش بكيس الصفن لعضو الذكر، كما يعكس الخيال المحلي. تستعمل هذه البنادق بكثرة في اليمن ويمكن الحصول على واحدة في هذا الوقت بسعر (٣٠) ريالاً.

خلال الساعتين الأوليين من بداية مسيرتنا - لنقل خمسة أميال داخل الوادي - صباح اليوم التالي (٩ ديسمبر) كون السفح الشديد الانحدار لكتلة بيض الجانب الأيمن لبيش، الذي تباين عرضه بين (١٠٠) و(٢٠٠) ياردة، وقد تشرح على جانبه الآخر بالمرتفعات العالية البعيدة لنظام جبل الريث - بما في ذلك القمَّة العالية لجبل صماد - الذي كان رأس مسيله يتكون مما لا يقل عن (١٨) رافداً[٢] لبيش

---

(١) كان في أجزاء عديدة من جنوبي البلاد السعودية العديد من العادات السيئة، وإلى عهد قريب، ولكن مع انتشار التعليم الديني والثقافي بدأت تختفي قليلاً قليلاً، حتى صارت لا توجد إلاّ في المواطن الوعرة والموغلة في الصعوبة. ولا زال هناك حملات دعوية من مراكز الدعوة والإرشاد، وكذلك من المؤسسات التعليمة لاجتثاث تلك العادات وبخاصة ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية السمحة. لمزيد من المراجع التي ذكرت بعض تلك العادات، انظر: فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص ١٢٥ وما بعدها، محمود شاكر. **عسير**، ص ٦٢ ـ ٧١ (ابن جريس).

(٢) هذه الروافد هي: قنا (مسيلان)، وحلوة، وخبرة، وزهوة، وخبير، ويحاضر، ومواجي، وعده، وقوارة، وقوار، وطلبير (وادي كبير) ومسمة، وورثة، وحضلو، ويخرف، ومسيلان تسميان غليفة (المؤلف).

تنحدر إلى أسفل إلى حيث مقر معسكرنا للمساء المقبل عند مشقة، التي تقع قليلاً إلى خارج السفوح المجاورة لسهل تهامة. وقفت كتلة بيض سداً منيعاً أمام مصرف تمنية، والذي كان يغـذي الوادي الرئيس عبر جانبه الأيمن، غيـر أنه يمون كذلك ما يزيد عن النصف من الروافـد الثانوية بما في ذلك بيـضو[١] وهو أكبـرها وأولها. انحـدرت الروافد، فـيـما يلي الجـزء الغـربي لسلسلة تمنيـة بما في ذلك الجبـلان العظيمان وهما يدا وواعر.

كما كـان هنالك ما لا يقل عن (١٤) من هذه الجبـال تقع بين الطرف الغربي لبيض ومشقة[٢]. ولقد كان البطن الضيق للوادي في الجزء الأعلى (بطول ٨ أو ٩ أميـال) مكسواً بنبات الحلفـاء في غزارة، وغطاء نبـاتي آخر، إلى جانب أشـجار الدوم التي كونت في بعض الأجزاء أجمات كبيرة. ثم بدأ الوادي يتسع إلى عرض (١٠٠٠) ياردة بين تلال تنخـفض تدريجـيـاً، ليـصل ارتفاعـهـا إلى (٥٠٠) أو (٦٠٠) قدم وكنا نحن نقترب من طرف السهل، غير أن الغطاء النباتي ازداد كثافة مع اتساع الوادي وظلَّت أشجـار الدوم واقفة في خطوط كثيفـة على جانبي السهل الأوسط حيث نبـات الحلفاء مع الكثـير من نبـات الشار وغطاء نبـاتي آخر والذي ينتشر من خلال تعرج الجدول بين ضفتين رمليتين منخفضتين. انحدرت العديد من الروافد عبر أفواه قد خنقتها نباتات الحلفاء وأشجار الدوم لبعض المسافة. لم نسمع أو نر الكثير عن القرود خلال يوم أمس في الممرات الضـيقة، غير أنها ظهرت إلى أسفل، في السـفوح الكثيفـة الأشجار في الوادي المتسع، ونادراً مـا كنا بعد ذلك

---

(١) كانت بقية الروافد هي وانسل (مسيلان)، وعجيرة، وضنبة، وشضيبة. (المؤلف).

(٢) هي بالاسم: ركان، ويسرة، ورجة، وحريثة، وصريث، ورثمة، وبعو، وأبو القمعان مخيرف، ورفضه (واديان) وملحة، وحسارة ومسيلان أيضاً. (المؤلف).

بعيدين عن مدى سماعها أو رؤيتها. ولقد كانت رائحتها قوية برغم وجود النباتات العطرية التي كانت أسراب الفراشات تحلق بكثافة حولها.

كانت الحياة البشرية تدب بصورة متقطعة. فقد مررنا بقطيع كبير من الأبقار والجمال بعد بداية مسيرتنا بقليل، وهي تقاد ناحية مرعى باتجاه أعلى الوادي، ومن خلفها امرأة تسوق جملاً محملاً بكل مستلزماتها المنزلية. ثم أقبلت امرأة أخرى بعدها من ورائها وهي تحمل رضيعها في مهد مصنوع من جلد البقر وقد عُلِّق من فوق كتفيها وعلى ظهرها. كما مرَّت بنا امرأة، وذلك أثناء توقفنا القصير لجمع الفراشات والطيور التي نتج عنها الإمساك بأول عينة من وقواق تهامة، وكانت هذه المرأة في طريقها مع اتجاه أسفل الوادي في صحبة زوج من الجمال. لم تذهب بعيداً بل جلست بجوار الجدول لتشرب من القرعة التي كانت تحملها ولتغتسل. كانت قد اكملت وضوءها حينما واصلنا مسيرتنا فإذا بها تلتحق بعفوية مع قافلتنا، وهي تمشي مجهدة بجانب جمليها وتشارك في محادثة متقطعة مع مرشدينا. لقد كانت تحمل قرعة وزوجاً من صندل مصنوع من الحصير (القصب) في يديها، وكانت تسير حافية متوشحة مئزراً يصل إلى قدميها مطويّاً عند الخاصرة. كان الشال ساقطاً على كتف واحد تاركاً الكتف الآخر عارياً، غير أنه كان يغطي ثدييها تماماً ومعظم ظهرها. كانت المرأة تلبس على رأسها قبعة من القش مغطاة بقطعة من الصوف البني، التي بدورها كانت مغطاة بقناع موسلين أسود. لم تكن المرأة صائمة بالتأكيد وذلك لأنني كنت قد شاهدتها وهي تشرب، واعترف مرشداي بأنهما لا يلقيان بالاً لرمضان[١].

---

(١) عدم صيام المرأة ليس دليلاً على عدم اكتراثها بالصيام، بل قد يكون لها عذر شرعي يبيح لها عدم الصيام مع أننا لا ننكر أن الجهل الديني كان متفشياً بين الناس، وذلك لقلة الدعاة وطلبة العلم الذين يفقهون الناس في أمور دينهم. (ابن جريس).

أصبح معروفاً لديَّ أن هذه المرأة تنتمي بقرابة مع مرشدي موسى، وذلك لأن شقيق والدته كان والدها. كانت متزوجة ولكن زوجها ظل غائباً عن البلدة، وهي الحقيقة التي أمكنتها من مرافقتنا -علماً بأنها لم تخلف منه أطفالاً- إلى معسكرنا التالي وإلى ما يليه في اليوم التالي. لقد كانت على أية حال متجهة في اتجاهنا نفسه، وذلك لأن جمليها سيعودان وهما محملان باحتياجات أسرتها من عند القرية التي تقع عند طرف تهامة. لا يمكن وصف وجهها بأنه جميل، غير أنه يكون كذلك حينما تبتسم، مع نقرة جذابة في وسط الذقن. كانت المرأة نحيلة البنية على الرغم من صدرها الكبير التام النمو، وكانت تتحرك برشاقة تحمل بندقية مرشدنا موسى من حين لآخر. لقد كانت حقيقة، أنموذجاً كاملاً لأنثى النوع البشري وقد كان الرجال أيضاً ذوي جمال غير طبيعي من الطراز الحسي الشهواني، كانت التقاطيع - فيما يبدو لي - سامية. كان مهر الزوجة عند قبائل بيش هذه - كما قيل لي - مرتفعاً إلى حدود (٢٠٠) ريال أو حتى (٣٠٠) ريال، بالمقارنة مع (١٠٠) ريال فقط للجمل، وهو سعر عالٍ في المتوسط بمستوى الهضبة العادي.

يتَّصل مع وادي بيش من نقطة أعلى رافد يخرف الذي ينحدر من جبال الريث، الذي يقع أمامنا الآن منظر رائع له لكل امتداده من الشمال إلى الجنوب، فوق السلاسل المنخفضة والتلال لما أصبح الآن أرض سفوح جبلية، وقد اتَّخذ الوادي الآن اسم «مشقة» وسيظل يحتفظ بهذا الاسم إلى أن يتَّمثل بالسهل. لقد تأخر الوقت كثيراً وكادت الشمس أن تغرب، على الرغم من أننا لا نزال بعيدين عن الموقع المحدد لمعسكرنا. كنت أرغب في أن نواصل السير دون توقف لتناول الإفطار، غير أن جابراً بدأ يشتكي من العطش، لأنه كان صائما أيضاً، وكان يلح على أن نتوقف حينما حسم الأمر بواسطة زوج من الصقور عاد ليعشعش في

شجرة الدوم في اللحظة نفسها التي كنا نعبر فيها. لقد التقطت بندقيتي التي كانت بارزة من حقيبة السرج على جانبي حينما صعد الطائران العظيمان بانزعاج وأطلقت رصاصة مجازفة. كانت الخراطيش من النوع السباعي غير أنَّ رصاصتي أصابت الهدف واخترقت الجناح المنتشر لأحد الطائرين والذي سقط بدوره بارتطام عظيم على أرضية الوادي. وكان لا يزال حياً وقادراً على الطيران، إلاَّ أنه لم يستطع ذلك. لم أشأ أن أفسد العينة برصاصة أخرى، ولذلك كان توقفنا قد وفّر لجابر كل الوقت ليطفئ عطشه ويتناول إفطاره بينما انصرفت أنا ومعي فرج للإمساك بالطائر وإزهاق روحه ببطء. كان الطائر الآخر يحلق فوقنا، غير أنه لم يحاول الإنقاذ. لقد كان صقراً أسود داكناً ويسمى علمياً باسم صقر بتلير.

لقد سعدت كثيراً بهذه الجائزة غير المتوقعة التي كان ثمنها بعض التأخير في الوصول إلى المعسكر الذي يقع على الجانب الأيسر لوادي مشقة، فيما يلي موقع دخول رافد غليفة من عند جبل الريث عبر أجمة كثيفة لأشجار الدوم. بدأت السحب تتجمع في السماء من جهة الشرق، غير أنني استطعت أن أتحصَّل على ملاحظاتي حول النجوم. تناولنا الإفطار في هذه الأثناء وتعشينا بلحم ماعز وبالعصيدة، ولم أنس احتياجات السيدة الوحيدة المرافقة لهذا الفريق. كانت هي والمرشدون قد استقر ثلاثتهم على مسافة منا، وقد ذهبت ناحيتهم لأسأل السيدة ماذا تفضل أن تتناول في العشاء. فأجابت أنها ترغب اللبن واللحم. لقد كان لدينا الكثير من اللحم، غير أنه لم يكن معنا لبن. ولم ترغب هي في العصيدة. لقد تعشَّت السيدة على اللحم فقط؛ ذلك لأن الحارسين كانا قد التحقا بنا لتناول العشاء معنا. ولقد نام ثلاثتهم معاً، في كوخ الأجمة وبملابسهم التي كانوا يرتدونها، ولم يكن على الرجال إلاَّ القليل منها. كانت ليالي تهامة دافئة، وكانت

درجة الحرارة (٧٢) درجة غير أن الارتفاع فوق سطح البحر كان فقط (٩٠٠) قدم. يحتوي هذا الجزء من مشقة على انبعاج عريض يكون رأس الدلتا التي عن طريقها يشق الوادي طريقه عبر آخر مجموعة للسفوح الجبلية ليجري آخر مراحله لمسافة ٣٠ ميلاً عبر السهل. كانت الساعة الثانية صباحاً قبل أن أذهب إلى النوم غير أن البعوض كان وافراً ومزعجاً وقد نلت القليل من النوم قبل أن أصحو لتناول وجبة السحور. لقد كان هنالك ندى كثيف أثناء الليل.

لقد انتهينا الآن من أمر الجبال ولا يتبع الطريق بعد الآن وادي بيش وإنما كان قد ابتعد عن جانبه الأيسر فيما تبقى من سلاسل لسفوح جبلية فيما يليها ليحتضن حافة الأراضي المرتفعة حول قرية الحقو. كان معسكرنا على جانب الطريق على بعد (٣٠٠) ياردة من حافة الوادي في وسط سهل حجري ضيق. قمت بتسلق هضبة منخفضة في الصباح قبل مغادرة المكان، كان ارتفاعها حوالي (٢٠٠) قدم وذلك للمسح النهائي للمنظر. يدور الوادي هنا ناحية الجنوب، وكنت أستطيع رؤية مجراه عبر وفيما يلي السفوح الجبلية الخارجية ولمسافة الميلين تقريباً. ويتَّصل به عند نصف تلك المسافة مسيل صخري يسمى شعيب قفل الذي ينحدر من التلال الواقعة إلى يسارنا. لم تكن قرية الحقو نفسها مرئية لنا، غير أنها تقع ناحية الجنوب الشرقي، كما نستطيع رؤية السلسلة المنخفضة والهضبات التابعة لمحاسل على مسافة في السهل. كان هنالك جبل مرتفع مرئياً لنا إلى البعيد ناحية الشمال الغربي عند أعلى السلاسل للسفوح الجبلية، بينما تقع السفوح الثلاثة لكل من واعر ويدا ناحية الشمال، وتمتد بقية تمنية في جوارها في سلسلة طويلة ناحية الشمال الشرقي. وقفت كتلة بيض ناحية الشمال الشرقي، بينما أمكننا رؤية جبل القهر بعيداً ناحية الشرق ومعه قمته الصباعية في سلسلة جبل الريث التي تقوم

القبائل فيها بزراعة -كما قال موسى- ليس فقط القمح ولكن أيضاً البن. تبدو يدا الآن وهي واقفة أمام سلسلة تمنية واعر إلاً أنها تقع أعلى من السفوح الجبلية، والتي تتمركز في سلسلة عالية تمتد شمالاً من الجانب الأيمن لبيش وتسمى ضهره -ينطقونها لهره-. كما أمكننا رؤية القليل من أرض الخبت -أرض منخفضة- كما يسمون تهامة، وذلك بظهور ضباب خفيف فوق المنظر.

الفصل الخامس والعشرون

منطقة صبيا[1]

يكوِّن شريط رافد يخرف حدوداً قبلية ثانية، إذ هو الحد الشرقي لأرض شهران التي تتضمن امتداد بيش من ملتقى يخرف إلى نهاية السفوح الجبلية، وجميع الأراضي الجبلية جنوباً بين يخرف وتهامة. كانت العلامة الحدودية الفعلية بين كل من الريث وشهران تقع على تل يسمى لقمه على بعد (٣,٥) أميال ونصف الميل من مشقة وعلى الجانب الغربي من يخرف، بينما تتبع الأطراف الخارجية للسفوح الجبلية للحقو، وهي متضمنة لكل من الحضر والبدو. لم تكن أرض شهران واسعة هنا وقد تم تقسيمها إلى أربعة أقسام قبلية كانت أقصاها، ناحية الشرق، حول ركان ويسكنها آل عسكر، وإلى غربهم بني معراج، ثم بني مأجور وأخيراً وايلة. ويتضح من ذلك أن التلال من عند يخرف إلى أسفل، وعلى كلا جانبي بيش تتبع لأرض شهران (الشام).

بدأتُ مسيرة اليوم ماشياً. وأوصلنا الطريق عبر مسيل قفل قليلاً قبل دخوله إلى بيش وعبر مقابر شهران على الجانب البعيد، إلى مدفنه تتكون من مقابر متطاولة معلمة بعناية بحافة من الحجارة وموضوعة فوقها الحجارة إلى ارتفاع قدم واحد أو قدم ونصف القدم. مررنا في تماس فيما يلي هذه مع جانب بيش المكسو بأشجار الدوم، وانحرفنا داخله فوراً داخل غابة خفيفة من أشجار الطلح

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن منطقة صبيا انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢، ص ١٧٢ ــ ١٧٤، العقيلي، **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية، مقاطعة جازان**، ص ٤٦ . (ابن جريس).

وشجيرات البشام، التي تستخلص من عصارتها مادة بلسم مكة القيمة (بلسم جليد). ضربنا على الطريق إلى الخلف الآن داخل السفوح الجبلية من الدلتا لنصل إلى مضيق لسلسلة الحلة التي منها يطلق على الطريق اسم درب (أو طريق) الحلة، وهو واحد من الطرق الرئيسة التي تؤدي من تهامة إلى الهضبة. لقد التقطت أول منظر للحقو من هذا المكان، أو بمعنى آخر من الهضبة التي تسيطر عليه من حافة التلال، والتي تتعرج بقلعة تسمى قشلة السيد -يعني الإدريسي-، وذلك لأننا الآن على حافة ملك الأدريسي التقليدي[١] -. لقد أمكننا الآن من ناحية الجنوب الشرقي رؤية البركانين الخامدين التوأمين واسمهما (العكوتين)[٢] وهما يسيطران على قرية الحسينية المهمة كما تقع السلسلة البركانية لجبلين إلى البعيد ناحية اليمين وتقع محاسل شيئاً ما ناحية الجنوب الغربي. تكون هذه السلسلة، حدوداً خارجية للسفوح الجبلية الحقيقية مع غطاء نباتي منخفض وتقع بلاد السافانا بينها، وقد تجرحت بالمسايل الصخرية التي تجري من حافة السفوح الجبلية تجاه بيش أو المصارف التي تقع ناحية الجنوب أكثر. تفصل عدة هضاب منفردة، بيننا وبين الحقو منضرة إلى الأمام عند حافة السفوح الجبلية والتي فيما يليها نستطيع رؤية نظم قمم كل من برم (تنطق برا)، حقو ورضى في نظام الريث. كما كنا لا نزال نشاهد النقاط الأساسية في كتلة تمنية ناحية الشمال.

---

(١) للمزيد عن تاريخ الإدريسي في منطقة تهامة خلال القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري، انظر: عبدالمنعم الجميعي، **الأدارسة في المخلاف السليماني وعسير (١٣٢٦ ـ ١٣٤٩هـ / ١٩٠٨ ـ ١٩٣٠م)**. (خميس مشيط: دار جرش للتوزيع، ١٩٨٧م) ص ٦ وما بعدها، محمد العقيلي. **تاريخ المخلاف السليماني** (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) جـ٢، ص ٦٢٠ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) العكوتان: جبلان يقعان في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة صبيا، وهما العكوة الجنوبية والعكوة الشامية. للمزيد عن تاريخ هذين الجبلين في بعض كتب التراث، انظر: محمد العقيلي. **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية، مقاطعة جازان**، ص ١٦٦ ــ ١٧٢ (ابن جريس).

سلكنا سفح الجانب الأيمن لغليفة الثالث، على الجانب البعيد من سلسلة الحلة، في وسط كثافة لأشجار الطلح وأشجار الدوم المبعثر، وسرعان ما عبرناه على مسافة ١,٥ ميلاً إلى أسفل قبل اختفائه في السهل وعلى مسافة تعادل بعده من موقع التقائه مع بيش. ارتفعت السفوح الجبلية على يسارنا، الصف تلو الصف، إلى الخلف ناحية الريث، بينما يشق المجرى الأسفل لغليفة طريقه فوق سهل متموِّج بلطف، وهو كثيف الأشجار، سفحي، يتجه ناحية بيش. كان عبور المجرى التالي عند شقبان الذي يجري فوق أرض مشابهة يتكون سطحها من الشست الرمادي الشبيه بالألواح، والذي يميل على زاوية ٤٥ درجة من ناحية الشرق إلى الغرب. كنا نشاهد من حين لآخر لمحات من أشجار الدوم معلمة لوادي بيش الذي يمر إلى الشمال من سلسلة محاسل في طريقه إلى البحر. كانت الظروف المناخية في السهل المكشوف، مقارنة بمسيرتنا خلال أيامنا الأخيرة في الوادي المنحصر، لطيفة جداً وقد هبَّ علينا نسيم بارد من جهة الجنوب الغربي وكان جواً مثالياً لمواصلة المسيرة. كانت أشجار الدوم كثيرة في المعبر التالي وهو مجرى عكاث ومن بين أشجاره شجرة جديدة بالنسبة لي وتسمى الضبر (تنطق لبر). لقد عبرنا ثلاثة مجارٍ أخرى خلال نصف الساعة التالي وكانت كلها ذات خصائص مماثلة وكلها روافد لبيش - وهي سدينة، وضبيرة والعقيد - لنصل من بعدها إلى هضاب منضرة على الحافة الشرقية لأرض واسعة لحقول الدخن تمتد بعيداً ناحية اليمين وكان هذا أول العلامات الجادة لنشاط زراعي شاهدناه منذ مغادرتنا الهضبة. تعتمد هذه الزراعة على الري بواسطة السيول، وجزئياً من شعيب العقيد وجزئياً من شعيب الملاح، وهو مجرى سيل آخر يقع إلى ما يلي الهضاب التي كان وادي غيلها ظاهرياً وكأنه مستديم. كانت البلاد بصفة عامة

عارية وجافة ومـتموِّجة في لطف غير أن زراعة الذرة قـد ازدادت من حيث المسافة والكثافة ونحن نقترب من الحقو.

قررت أن نتـوقف قليلاً قبل الوصـول إلى الموقع الذي ستنتـهي إليه الرحلة، وذلك لننال بعضـاً من الراحة عند الظهيـرة بالقرب من أجمـة أشجار العـبال في وسط حقول شاسعة للدخن (دخن وذرة)، والسمسم (جلجلان) الذي يزرع بكثافة في هذه الأجزاء حيث توجد عصارات الزيت. تعرف هذه الأراضي التي لا تحتوي على مناطق مأهولة، والتي تمثل الأطراف الخارجـية للحقو، باسم الملاحي واتضح لنا أنها موقع لطيف جداً. تركت رفاقي يعـملون ما يرغبون وذهبت بمفردي أبحث لنفسي عن سـرير مريح فوق قطعة من نبـاتات الدخن الصغير وتحت ظـل شجرة علب لأستلقي، صحوت بعد نومة طويلة ومنعشة لأجد قرعة ماء بجاني بلا تفسير كـيف وصلت إلى هنا، ذلك لأنه لم تكن لـدينا أوان منزليـة من هذا النوع. ربما رآني أحـد عمـال الحقـول وأنا نائم هنا وترك لي الماء لأجل الوضـوء قبل صـلاة الظهر، لم يكن الماء للشرب وذلك لأننا لم ننته بعد مـن رمضان، وبالمناسبة، لقد تركتنا السيدة ذات القرعة ورفيقـاها عند منتصف الطريق أثناء مسيرة الصباح حيث توجه ثلاثتهم لبعض قـرى بيش. كنت آسفاً لفقد صحبتـهم، وكنت قد جازيتهم بكرم أكثـر، بأمل أن المرأة التي ليس من السهل تقـديم المكافأة لهـا مباشـرة، قد تستفيـد هي أيضاً. وأثناء مغادرتهم وعلى لسانهم كلمـات الوداع البسيطة، أزالت المرأة الشال تماماً عنها لتعيد ترتيب وضعـه من جديد وحينها كنت قد التقطت آخر لمحة لي لفينوس الريث.

تقع الحقـو على مسـافة نصف سـاعة سيـراً على الأقدام فـيمـا يلي المجرى العريض الصخـري لوادي طفشه والذي عند وسطه وصلنا إلى بئر الحـقو وهو بئر

جيد البناء في الحوض الحجري للمجرى وبه كمية كافية من المياه على عمق (٤,٥) قامات ونصف القامة. والذي بجواره كان هنالك حشد كبير من الرجال والنساء يقومون بسحب الماء لغرض احتياجاتهم المنزلية المسائية في رمضان. وكان معظمهم من أصل زنجي، وكانوا مرحين ودودين. كنت مهتماً في هذه اللحظة بطائر اللقلاق الذي كان يحلّق من قريب ثم قرر الذهاب إلى موقع آخر يقضي فيه الليل، وذلك لأننا لم نره بعد ذلك. لقد تمكنا من إدخال عدد من الدجاج الحبشي إلى حقيبة العينات المتحفية، وذلك خلال بقائنا ليوم واحد قصير في الحقو، والدجاج الحبشي طائر شائع في كل بلاد الجبال السفحية هذه غير أنها كانت المرة الأولى التي أقابله فيها! كما تمكنت من الحصول على طائر الباز وبعض الطيور النساجة الصغيرة إلى جانب طائر الصرد وبعض الحمام. بدت البلاد السفحية الغزيرة الأشجار وحقولها المزروعة بيئة مناسبة جداً لحياة الطيور بالمقارنة مع وادي بيش، وقد كانت طيور الحدأة والغداف التي تحلّق فوق الحقو ومحيطها هي الفيلق الرئيس.

أقمنا معسكرنا في بعض حقول الدخن التي تم حصادها على حافة أرض ذات شجيرات إلى ناحية الغرب من القرية التي تتألف من عشش وأكواخ مصنوعة من القصب والأعواد الخشبية على شكل حزم القش الموجودة لدينا؛ وتشبه التكل الأفريقي. لقد كانت في الحقيقة قرية أفريقية في إطار عربي وذلك لأن سكانها كانوا عنصراً زنجياً[1]، نقياً بالإضافة إلى أهل شهران الذين ينتمون إلى قسم عبس،

---

(١) لقرب منطقة جازان من الحدود اليمنية من الناحية الجنوبية، وكذلك من ساحل البحر الأحمر من الجهة الغربية، مما جعل كثيراً من العناصر البشرية الإفريقية واليمنية تتدفق إلى هذه البلاد إما للعمل في كثير من المهن والحرف المحلية، أو للتسول والشحاذة في القرى والأرياف والمساجد وعلى فوهات الطرق والممرات المختلفة. (ابن جريس).

الذين يكوِّنون الطبقة العليا، بينما يقوم الزنوج بالأعمال الزراعية والوضيعة للمجتمع. كشفت ملامح بعض أهل عبس عن علامات للمزج العنصري، بما في ذلك سمات الشيخ المحلي غانم بن مفرح، الذي -على الرغم من أن العنصر الذي يدخله كان خفيفاً جداً ولربما كان بعيداً- كان رجلاً مسنّاً جذّاباً يزيد عمره عن (٦٠) عاماً وهو شخصية محلية عظيمة، ورجل ودي المعاملة، ناعم الحلاقة، ووجهه طويل نحيل، يعد أنموذجاً لعرب نجد. وبرغم أنه الشيخ المحلي لهذه المنطقة، إلاّ أن إدارتها كانت تحت إشراف موظف كانت قد عينته الحكومة السعودية، كونه أميراً ورئيساً للشرطة، وذلك لأهمية الحقو كأحد المنافذ الرئيسة التي تقود إلى داخل البلاد. كان هذا الموظف هو عبدالرحمن البواردي، وهو من مواطني شقراء البعيدة، وهو رجل لطيف طيب الحديث وشاب، كنا قد اجتمعنا معه لتناول طعام الإفطار وطعام العشاء، الذي تضمن الدجاج كطبق إضافي. رحبنا به إلى جانب الغذاء البسيط الذي كنا قد اعتدنا عليه. كانت هذه أول وظيفة مستقلة لمضيفنا في خدمة الحكومة، وقد مضى عليه حتى الآن أربعة أشهر، وتحت إدارته عشرون رجلاً ملحقون بمركز الشرطة وعدد قليل من الكتبة يقومون بالأعمال الإدارية العادية. لقد احتلت مراكز أدائه عمله وأداء عمل الشرطة سلسلة من العشش في مجمع متعرج مسوَّر بأعواد الخشب. كان رجلاً قنوعاً بهذا النمط من الحياة وبمجموعته وكان يشيد بأعلى صوته بالطقس الممتاز الذي يعم المكان وبغياب البعوض. لقد اعتمدت كل مزارع الدخن وغيره من المحاصيل على الأمطار أو السيول الموسمية، ولا يوجد ري بماء الآبار، وكان القليل من هذه الآبار لغرض الشرب. كان أبرز الأشياء هنا هو الغياب العام للمياه الراكدة وإنتاجها غير المحبوب ألا وهو البعوض.

جاء عبدالرحمن إلى معسكرنا للاستماع للراديو، حيث استمعنا منه إلى حديث السيد بولدون الإذاعي حول قرار الملك بالتنازل عن العرش وإفساح المجال لشقيقه ليصبح ملكاً لإنجلترا. لم يثر هذا الحدث الذي هزّ الأرض اهتمام مجموعتي، وأدركت أنّ عبدالرحمن كان لا يعرف شيئاً -لدرجة مدهشة- عن شؤون العالم الغربي والشخصيات المهمّة من وراء الأحداث في بلاد مثل فلسطين والعراق. لم تمتد اهتماماته أو تطلعاته إلى أبعد من احتياجاته الخاصة[1]. لقد احتفل أطفال الحقو، في هذه الأثناء، بليلة رمضان بألعابهم النارية المزعجة وغير المثيرة وواصلوا إلى وقت متأخر من الليل. تجمّعت السحب عند الفجر في السماء، وكانت الليلة خالية من الندى، على الرغم من أنه كانت هنالك لمسة رطوبة في الهواء. كانت درجة الحرارة الدنيا هي (٦٥) درجة وكان ارتفاعنا فوق سطح البحر لا يزال هو (٩٠٠) قدم.

لم تكن القلعة التي تقع فوق التل مأهولة -والتي ذكرناها سابقاً- وكان اسم القلعة الثانية هو «ماغص» وعلى الرغم من أنها تحظى ببعض العناية والاهتمام والصيانة عند الحاجة، تقف هذه القلعة على ارتفاع (١٠٠) قدم فوق القرية، وتسيطر تماماً عليها، وتحتوى القرية إلى جانب العشش على عدد قليل من المباني وحيدة الطابق، مع وجود شريط مزدوج من حجارة بيضاء كضرب من الزخرفة للجانب الخارجي الكئيب[2]. لقد أمكننا رؤية قرية مسلية من هذا الموقع، إلاّ أنّ

---

(١) مما يظهر من كلام فيلبي أن أهل السروات كانوا على علم بما يحدث في العالم من صراعات مقارنة بأهل تهامة. وهذا ليس قول فصل، فالناس آنذاك في هذه الأوطان كانوا يعيشون في عزلة عن العالم لعدم توفر وسائل الإعلام عند كل الناس، وإن وجدت كالراديو مثلاً فلا توجد إلا عند الأمراء وربما بعض الأغنياء. بالإضافة إلى انعدام التعليم والمؤسسات التعليمية التي يمكن من خلالها تثقيف الناس وتوسيع مداركهم ومعارفهم بما يدور في عالمهم. (ابن جريس).

(٢) غالبية البيوت والمنازل في تهامة كانت من القش والأخشاب وسعف النخل وما شابهه، ويطلق على مثل هذه المنازل اسم «العشش» ومفردها «عشة»، وإن وجدت أبنية من الحجارة فهي قليلة جداً مقارنة ببلاد السراة. (ابن جريس).

الضباب كـان يحيط بها، وتقع إلى ما يلي الجـانب الأيمن لوادي بيش أثناء مروره ناحية النهاية الشمالية لسلسلة محاسل.

تتصل كل المجاري الصـرفية التي كانت قد اعتـرضت طريقنا من الحقو، إلى الضبيـرة مع بيش وعلى فترات أعلى هذا الموقع، غيـر أن كلاً من العقيـد وطفشه وقُرى تنحدر جميعاً إلى أسفل للتقابل بالقرب من النهاية الجنوبية للسلسلة نفسها، ثم تمضي كلُّها عبر السهل لتتصل مع المجرى الرئيس لبيش بالقرب من وإلى أعلى من قريتـه الرئيسة التي تسمى أم الخـشب، والتي أحياناً تسمى بيش. كـما أمكننا أيضاً رؤية قرية عشش، وهي ليست بالبعيدة وتتـبع بئر العصبة على الجانب البعيد لشعـيب قرى وبئـره التي تقع وسط المجرى. كـانت هذه البئر وبئـر الحقـو، هما البئـران الوحيـدان في هذه المقاطعـة. تقع إلى ناحية الـغرب من موقـعنا السلسلة الطويلة المنخفـضة التي تسمى غبر بعـيداً في السهل. لا يزال الحبيـل مرئياً لنا من جهـة الشمال الغـربي، ولكننا لا نرى قمم تمنـية، بينما يمكن رؤية مـعظم سلسلة جبل الريث ناحـية الشرق، حـيث تكَوِّن سلسلة جعوين العـالية الحدود الشرقـية لعبس. يحد هذا القـسم من ناحية الجنوب وادي ضمد وهو مصـرف جبلي يشابه بيش وهو بمثابة حدود القسم من ناحية الشمال، بينما تنغلق عليه من ناحية الغرب سلسلة الحدبـة على امتداد طرف السـهل. وتقر عبس بـصفتـها قسم من شـهران بالحكم المطلق لسعيد بن عبد بأنه الشيخ الرئيس للقبيلة وهو يقيم في شمال أبها.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حينما بدأنا مسيرتنا جنوباً عبر سهل تهامة. وكانت كل الأرض بين مجرى طفـشة ومجرى قرى مغطاة بالأشـجار، مع الكثير من مزارع الدخن المبـعثـرة في أراضٍ مقطوعة الشـجر، في وسط خليط لأشـجار الطلح والأراك والسيـسال والرين ونباتات أخرى. اسـتغرق وصولنا إلى البـئر في

شعيب قرى حوالي الساعة والذي يهبط من أطراف جبل الريث. كانت البئر نفسها مبنية من مواد بناء بدائية في البطن الحصوي للمجرى، وكان عمق مائه أربع قامات، ويجري بقربه غيل محدود الطول وغالباً ما تكون قد أنتجته السيول الأخيرة. لقد خلدنا إلى الراحة هنا ساعات قليلة قبل أن نضرب على الطريق مارين بقرية العصبة في سهل سافانا واسع، والذي التقطنا طريقنا من فوقه مصادفة وذلك لأنه لا يوجد ممر مطروق عبر الغابة.

كانت كل من أم الخشب، والملحاء والعصبة نفسها في هذه المنطقة لغابة السافانا -في الأيام الخالية وحتى وقت قريب- مواقع للإغارة على العبيد من أبناء الزنوج وبناتهم الذين كانوا يرسلون إلى نجد عن طريق بيشة. لقد منع هذا النشاط الآن[1]، وكان من مهام نقطة الشرطة في الحقو تطبيق المنع لهذه التجارة. وصلنا إلى مجموعة قليلة من البروزات الصخرية التي تقع وسط الغابة والتي كانت مملوءة بطيور الشقراق، والعجلة وغيرها، وتسمى مكسر، وإلى ما يليها يجري الوادي العميق المشجر الصخري، المسمى شعيب لحف الذي يمتد مسافة طريقنا كاشفاً له في جانبه عن الشست التحتي الملون بعروق الكوارتز. وجدنا فيما يلي هذا طريقاً مطروقاً فوق أرض صخرية مكسرة، لا تزال تكسوها الغابة، وكانت فيها أشجار البشام تفوق أشجار الطلح وتمتد إلى الفرع الثاني لمجرى لحف. عبرنا بعد ذلك سهلاً متموّجاً في لطف من حصى كوارتزي تكسوه غابة سافانا كثيفة بينما كان يميل تدريجياً للاقتراب من مجرى مصرف معتبر ينحدر ناحية الجنوب. كان هذا هو وادي شهدان، وهو رافد لشعيب قرى، مثله مثل فرعي لحف، ومنه إلى بيش

---

(١) تجارة الرقيق كانت نشيطة في معظم حواضر شبة الجزيرة العربية، ولكن منذ بداية النصف الثاني من القرن الهجري الماضي بدأت تختفي قليلاً قليلاً حتى تم القضاء عليها وتلاشت تماماً. (ابن جريس).

نفسه. لقد كنا نسير فوقه مسافة على اليسار، وكذلك مسافة (١,٥) ميل ونصف الميل إلى البعيد، وكانت سلسلة جبلين تقع على يميننا على بعد نصف تلك المسافة حتى البقعة التي عندها يخترق المجرى السلسلة. توقفنا هنا لفترة في بطن الوادي الكثيف الأشجار الذي يبلغ عرضه هنا حوالي (٥٠٠) ياردة بالقرب من منبسط صخري مرتفع من الأرض، - ربما بقايا سلسلة - في وسطه.

تتبعنا الوادي عندما واصلنا المسيرة، مدة نصف ميل قبل أن نضرب صعوداً إلى خارجه إلى السافانا فيما يليه وعبر وادي أم كحل الممتلئ بالشجيرات. لقد غربت الشمس ولم تكن معنا قطرة ماء تساعدنا على تخفيف الظمأ ولا أمل في وجود الماء في هذا المكان إلاَّ في الحسينية، التي لن نصلها إلاَّ بعد أربع ساعات وذلك بسبب الصعوبة التي واجهتنا في العثور على طريقنا عبر المتاهة المتشابكة للغابة، وعبر بطون السيول المعترضة لنا في الظلام. لقد أفطرت على دخان الغليون وعلى قليل من التمر والفجل الذي جلبناه معنا من الحقو، غير أننا لم نضيع وقتاً كثيراً إذ واصلنا مسيرتنا على أمل أن نجد ماءً في أحد المجاري العديدة التي كان علينا أن نخترقها. كان أول هذه المجاري واسمه أم الخشب جافاً كأنه العظم، غير أن المجرى الثاني قد أسرَّ قلوبنا من على البعد، ذلك لأن شعيب الملحاء -وهذا اسمه- كان مملوءاً بالبرك الصخرية. اتضح لنا أن كل ما رأيناه على البعد كان سراباً. كان وجود الماء هنا حقيقة، وكان هنالك الكثير منه على امتداد كل الشريط لكل البرك التي في طريقنا، غير أنه كان ماءً مالحاً كماء البحر، وحتى جمالنا أزاحت وجهها عنه في امتعاض. انهارت كل آمالنا لأن شعيب وساع كان جافاً أيضاً. ولكن بينما كنا على وشك أن نفقد الأمل في البحث ونهيء أنفسنا لمصيرنا المحتوم حدث ما لم يكن في الحسبان، لقد كانت في مجرى الضبيرة -

وهو الرابع - بركة كـبيرة لمياه السيول، تقع في بطنه الرملي وكـان كل شيء بعد ذلك على ما يرام. لقد شربنا حتـى اكتفينا وأخذنا معنا مؤنة كافيـة للطريق بتعبئة قـربة أو قربتين من الجلد. لقـد أظلمت الدنيـا تماماً عندمـا عبـرنا الجانب الثـاني لضبيـرة، مما جعل ملاحظة التفاصيل لمعـالم البلاد التي نعبرها أمراً صـعباً، كنت منتبـهاً بعبـور الوادي العريض إلى مـا يلي هذا الموقع وبدخولنا إلى أرض واسـعة لزراعة الدخن حـول قرية ريجة. كانت الحـقول ممتدة من هنا وإلى ما بـعد، وقد شقڤنا طريقنا المتعرج بينها حـتى دلّـنا كل من نباح الكلاب وأضواء الحسينية[1] في نهاية الأمر إلى معسكرنا.

ترتفع الحسينية إلى (٤٠٠) قدم فـوق سطح البحر، غير أن الليلتين اللتين كنا قد قـضيناهما هنا كـانتا باردتين بشكل منعش، إذ كـانت درجة الحرارة الصـغرى (٦١) درجة مع رطوبة خفـيفة في الهواء، علماً بأنه لا يوجد ندى للمـرة الثانية، ربما بسبب أنَّ السماء كانت مليئة بالسحب جزئياً. كان لي سببان للتراخي في هذا الموقع. كنت متطلعاً في المقام الأول لزيارة بركـان العكوتين، وأن أقوم بجمع عينة من التربة البركـانية إلى جانب مسح البلاد من عند ارتفاعـها المسيطر على المنظر. كما أنني كنت أحس بالضعف، في المقام الثاني، خلال اليوم أو اليومين السابقين، ويعزى هذا جزئياً إلـى صعوبة الصوم في رمضان وجزئيـاً أيضاً بسبب أن دمي لم يتعاف بعد تماماً من التسمُّم الذي حدث له في الهضبة، فأنا مرهق ومعتل الصحة.

---

(١) الحسينية:ـ قرية في بلاد صبيا، وهي تقع شرق جـبل عكوة الشمالية، وقد استوطنها الإدريسي واتخذها عاصمة لحكمة في تهامة خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري. (ابن جريس).

مهما كان الأمر فقد قضيت لـيلتين هنا، وعند تمام الساعة التاسعة صباحاً من اليوم الأول بدأنا رحلتـنا على ظهور الحمـير، التي أمدنا بهـا الرئيس المحلي وفي رفـقتي مـرشدان؛ وذلك لزيـارة البركـان الشمـالي الذي يقع ناحـية الغـرب من معسكرنا.

بينما كانت القمَّة الجنوبية تقع ناحية الجنوب ويجري بين الموقعين مجرى وادي نَخْلاَنْ الذي على جانبيـه تقوم الأكواخ المبعثرة وحقول الدخن في الحـسينية. كان الطريق يخترق أول الأمر الحقول، وهي تتضمن مساحات معتبرة من السمسم، إلى أن وصلنا إلى موقع انـتشار الأرض البركـانية، وكانت ذات لون أحمـر وعارٍ من النبات وكان الـطريق صعباً ويمتد على طـول قاعدة السلسلة ويعتـرضه خط صرف جار أحمد بن حسين الذي ينساب إلى أسفل من طرف القمة الشمالية، ويتصل مع وادي نخلان الذي هو رافـد لوادي بيش، ويصله على مسـافة أسـفل موقع تدفق وادي أم الخشب، الذي تتجمع فيه المجـاري المختلفة التي كان قد ورد ذكرها والتي تقع بينه وبين وادي ريجـة، ليمر من بعـد ذلك إلى الخارج على الجانب الشـمالي للعكوتين.

كانت المسيـرة صعبة فوق الحمم، غـير أنه لم يمض وقت طويل حتى وصلنا إلى مضيق منخفض عند الطرف الجنوبي لنتوء صخري يجري إلى أعلى ناحية قمة البركان التي وقفت على ارتفاع (١٠٠٠) قدم فـوق مستوى سطح البحر و(٦٠٠) قدم فوق مسـتوى القرية. كانت الفوهة التي تكسَّرت وكانت تفـتح ناحية الغرب، قد أحاطت بها جـدران الصخور البركانية الشديدة الانـحدار على الجوانب الثلاثة الأخرى، وكانت أعلى بقـعة فيها تقع على الطرف الشرقي. لا ندري مـتى خمد البركان، غير أن الحمم تشير إلى أن الفوهة كانت حديثة التكوين مثلها مثل غيرها

من المخاريط البركانية في منطقة تهامة، مما يغري بالتفكير في أن انفجارها كان معاصراً لتدفق براكين المدينة المنورة، حوالي عام ١٢٠٠م، غير أنه لا يوجد إثبات لدعم هذه الفكرة وأن الاحتمال الأكبر هو أن اضطراب تهامة عسير كان قد حدث في بداية العصر المسيحي، حينما كان هنالك نشاط بركاني واسع، ومن النوع المدمِّر الذي حدث فوق مستوطنات سبأ بما في ذلك مأرب.

كان المنظر عند فوهة البركان مثيراً للاهتمام أكثر منه مهيباً، فقد رأيت -ولأول مرة- منظر صبيا عاصمة الإدريسي[١]، وفيما يليها جازان على ساحل البحر الأحمر وقليلاً ناحية الجنوب الغربي. كما تقع ناحية الغرب قرية الملحاء الكبيرة التي كان المسجد المحلي ذو البناء المطلي بالجير الأبيض أبرز ما فيها إلى جوار أعشاشها المبنية من الوتل.

وقفت كتلة فيفا بقممها المختلفة واضحة ناحية الشرق من قرية الحسينية إلى جانب بئرها ومسجدها الأسطواني ذي السراديب، وبعض مبانٍ قليلة مدمرَّة كانت قد انتشرت فوق مساحة معتبرة على امتداد الوادي. تقع قرى كل من الحرف والعقبة وهيجة أم الرقع ناحية الشمال الشرقي أكثر وناحية الشمال، وكذلك الحقول الممتدَّة -والتي كنا قد سافرنا خلالها أثناء ظلام الليل حين وصولنا- على امتداد جانب وادي فسوة الذي ينحدر إلى شعيب وساع وهذا بدوره عبارة عن رافد لبيش عبر وادي الملحاء الذي يحتوي على البرك الصخرية المالحة. وقف البركان التوأم الواقع في جنوب عكوة -وليس بعيداً-، ناحية الجنوب، وعلى الجانب

---

(١) صبيا يطلق عليها قديماً أبو دنقور، ثم اختطت في القرن العاشر الهجري، وكان الذي اختطها هو الأمير/ دريب بن مهارش الخواجي عام (٩٥٨م). انظر: العقيلي. **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية، مقاطعة جازان**، ص ٤٦ . (ابن جريس).

الآخر من نـخلان، ويبدو أنه مـشابه للبـركان الذي نقـف عليه الآن. يفـتح كلا البركانين ناحية الغرب إلى جانب وادٍ من الصخور البركانية الواسع يبرز إلى البعيد في السهل على ذلك الجـانب، وينساب مـجرى نخلان في الفـجوة التي تقع بين الاثنين وهو في طريقه للاتصال مع وادي بيش.

اكتـشفـت أن رفاقي كـانوا قد غـادروا المعسكر بعـد عودتي من القـرية عند الظهيرة، وذلك للحصول على ما قـد يجود به سكان العشش في الجوار مما يساعد على الوقاية من الشـمس، ولم ينسوا أن يهيئـوا لي سقفاً لراحـتي، ولقد وجدت بالفعل عشة واسـعة شديدة النظافة ومريحة جداً تحت تصـرفي، كان شكل العشة على هيئـة خلية النحل، مـبنية على قاعـدة من طين والذي يكون سطحه أرضـية العشة وكـان مضغوطاً وأملس، لقد امـتدت طبقة الطين حـول العشة من الداخل وإلى ارتفاع قليل على الحافة وذلك ليمنع دخـول الماء من الأرض الخارجية، بينما كان بقـية التـركيب من أعواد الشـجر وهي مـرتبة بأناقة لتكسـب الجدار الداخلي سطحاً مستوياً، والذي تمَّ فيه غرز أوتاد خشـبية لتثبيت الأواني المنزلية. كان القش على الجانـب الخارجي للعشـة قد تماسك بواسطة الـعديد من الحبـال التي اتَّصلت معتمدة على قمة العشة، وهي نفسها متـماسكة فيما بينها بحبال أخرى ممتدة أفقياً حول محيط البناء وعلى مسافات[١].

تبايـنت العشش كـثيراً فـي ارتفاعهـا، غيـر أن هذه العشـة لابد وأن يكون ارتفاعها عشرين قدماً أو أكثر من الأرضية إلى القمة. لقد أعجبتني درجة نظافتها،

(١) لمزيد من الإيضاح عن طريقـة بناء العشة أو (العشش) في الأجزاء التـهامية من جنوبي البـلاد السعودية، وبخاصـة منطقة جازان انـظر: غيثـان بن جريس. عسـيـر ١١٠٠ ـ ١٤٠٠هـ، ص ٤٩ ـ ٥١ . (ابن جريس).

إلى جانب الزخرفة والتأثير الذي عكسه ترتيب الأواني المنزلية في مجموعات على الجدران. لقد كان على الأرضية ثلاث أو أربع لفات من الحصير المحلي لتقوم مقام المفارش أو السجاجيد حسب الحاجة، ذلك لأنهم كانوا ينامون على الأرض في هذه الأنحاء، وعلى الرغم من أنني قد شاهدت أسرَّةً من الحبال ذات أقدام خشبية قصيرة في مناطق أخرى من تهامة. لقد تدلَّت من على الجدران صفوف القرع والقدور الخشبية ذات الأحجام المختلفة، وعدد من السلال المصنوعة من القصب أو السلال الجلدية. كان الأخير منها يشابه الأعمال البدوية في السودان. وقد وقفت عند زوايا الجدار جرار للماء كبيرة الحجم متنقلة من الفخار[1]. كانت هذه هي الخلفية التي قضيت الظهيرة عندها مستمتعاً بالراحة. ولقد لاحظت وأنا أتجوَّل في وقت لاحق أن القش الخارجي للعشش كان قد تم تجديده بأعواد جديدة وقد كان هذا ضرورياً لتخليص التركيب من الحشرات والأقذار. وكان المسجد كبيراً وشبيهاً بالبرميل ولكنه بيضوي الشكل، وكانت جدرانه وأرضيته ليست من الطين، وكان قشُّه أكثر خشونة مقارنة بالمساكن الخاصة، وقد تمَّ ربط القش ببدائية على أغصان الأشجار. تفخر الحسينية ببئرها الوحيدة وبمياهها الممتازة التي يصل عمقها إلى ثلاث عشرة قامة. ولا تروى المحاصيل هنا كما في أماكن أخرى بمياه البئر، إذ إنها تعتمد على مياه الأمطار والسيول، غير أنه يقال إنَّ المياه هنا جيدة بالدرجة التي دفعت الإدريسي المسن لأن يرسل عبيده وحميره من صبيا لجلب المياه من هنا لاحتياجات منزله.

---

(١) معظم مدن منطقة جازان، وبخاصة صبيا، وسامطة، وأبو عريش وغيرها تشتهر بصناعة الأواني الفخارية المختلفة في الأشكال والأحجام. (ابن جريس).

ويبدو أن المكان يحتوي على (٢٠٠) إلى (٣٠٠) عشة، ربما كان عدد سكانه حوالي (١٠٠٠) نسمة،وكلهم زنوج من أصل إفريقي وقد استقروا هنا فترات طويلة. وكانوا دائماً يتحدثون عن السيد الإدريسي بحب واحترام. لم يكن للناس هنا اهتمام بشؤون العالم، ولم يكن لهم إلاَّ اهتمام قليل بشؤون الجزيرة العربية بصفة عامة، والقليل جداً مما يقع خارج حدود حقولهم وقرى أسواقهم. يستدل المرشد الذي اصطحبته معي إلى العكوة على جبل فيفا بالمشاهدة وبالاسم، أما حكمه على بقية الجبال التي تقع داخل مجال رؤياهم كل يوم فهي بالنسبة لهم ليست قمماً فردية، ولكنها مواقع المأوى الباهتة لهذه القبيلة أو تلك، أو لأحد أقسام جيرانهم العرب، الذين حضروا ليقايضوا البن والموز، بالدخن والسمسم. ويطلق على السمسم اسم جلجلان ويرسل عادة إلى عصارات الزيت في صبيا[1]، وبنسبة أقل إلى عصارات (أبو عريش) وأم الخشب لاستخلاص الزيت، غير أن القرى الصغيرة لا تمتلك عصارات زيت خاصة بها. وإلى جانب قليل من الجهد للبذر وحصاد المحصول، ذلك لأن الحرث ليس ضرورياً هنا، وأن أمور الري هنا ميسرة والناس هنا وفي الحقو قد جذبوا انتباهي بكونهم أكثر ازدهاراً وأكثر حرية تجاه اهتماماتهم بالحياة مقارنة بأولئك الذين يقطنون الهضبة، والذين كان عليهم أن يكافحوا بشدة لأجل البقاء. لقد كانت المساحة المخصَّصة لمحاصيلهم محدودة جداً، تحكمها ظروف الطقس في كل سنة، وكان لديهم الكثير من الأبقار التي تؤمن لهم اللبن بالإضافة إلى الدخن الذي يُكوِّن غذاءهم البسيط.

---

(١) عصر السمسم في الأجزاء التهامية، وبخاصة في المناطق الممتدة من محائل والبرك والقنفذه شمالاً إلى سامطة وأحد المسارحة في منطقة جازان جنوباً، يتوافر بكثرة، بل يعد في بعض هذه النواحي من السلع التجارية الهامة التي تصدر إلى الأسواق المحلية في جنوبي البلاد السعودية. (ابن جريس).

لقد ثبطت المناشط المنزلية في ليالي رمضان أي إغراء بزيارة الناس لمعسكرنا للاستماع للراديو، ولذا لم يزعجنا أحد، إلاَّ من نباح الكلاب طيلة الليل وتجولها حول معسكرنا بحثاً عن عظام تلعقها. لقد لاحظت كذلك بعض القطط التي ربما جذبتها رائحة الطيور فأقبلت من القرية، وقد كنت جمعت الكثير من هذه الطيور أثناء النهار بما في ذلك الحمامة الحبشية وزوج من طائر اللقلق وأنواع مختلفة من طائر الباز، كما كانت هنالك أيضاً طيور السنبيرد النيلية والأبلق الصحراوي وحمام الصحراء العادي. ثم جلست بعد فراغي من ملاحظة النجوم حتى الساعة (١,٣٠) صباحاً لأستمع إلى كلمة وداع الملك إدوارد لشعبه. كان الحدث وكأنه قد وقع إلى البعيد، غير أنني هنا في الصحراء عند سفح هذه البراكين الشابة، كنت أحس في قرارة نفسي بأن صدعاً ما قد حدث، وأن النظام القديم قد ذهب ليحفظه التاريخ. ولعله كان من المناسب وأنا أجلس تحت النجوم أنتظر هذه اللحظة الموعودة، أن يشغل الراديو القدس هذه الفترة من الاستراحة بأنغام من موسيقى كانت تبث من فندق الملك إدوارد، ثم أدرت المؤشر بعدها إلى برامج مسرح المنوعات الذي كان يبث من نيويورك. لقد ضحك العالم ورقص حينما رحل الملك عن العرش. لقد كنت سعيداً أن أكون بمفردي هنا في كاتدرائية[١] ليل الصحراء العظيمة.

كنا بالطبع قد أرسلنا ما يفيد بأمر حضورنا إلى صبيا، ولقد حضر الأمير عند الساعة التاسعة صباحاً في اليوم الثالث عشر من ديسمبر، شخصياً ومعه عربتان لترافقنا إلى العاصمة القديمة. كان اسمه عبدالرحمن الغنيم وهو أحد موظفي

---

(١) الكاتدرائية: كلمة يونانية تعني كنيسة الكرسي الأسقفي. (ابن جريس).

الخدمة المدنية السعودية، وكان حسن النية إلى حد ما، غير أنه كان شخصاً لا يهتم بشيء خارج حدود روتينه اليومي. لقد بدأ السفر سريعاً على ظهر السيارتين المثقلتين بالحمل على امتداد نخلان، الذي عبرناه على مسافة (٥٠٠) ياردة لنسلك الجانب الأيسر في براري من عشب الثمام المتكتل، التي تتخللها مساحات مزروعة وشرائط من غابات الطلح. لقد ركب خمسة منا في سيارة الأمير ووقف أحد العبيد بصورة خطرة على جانب السيارة وهو يتمايل نحو هذه الناحية أو تلك ليتجنب الأغصان الشائكة للأشجار والجنبات التي شققنا طريقنا خلالها بالسرعة التي يسمح بها الطريق الوعر. لقد كان مجرى نخلان يبتعد تدريجياً عن ممرنا ناحية اليمين داخل مجرى تكسوه جنبات قصيرة وكان طوله (١٠٠٠) ياردة مكوناً دهليزاً بين بركاني العكوة. ثم وصلنا سريعاً إلى طرف طريق الصخور البركانية وسلكناه، وقد انتشر إلى الخارج من عند المخروط الداخلي وليبرز إلى ما يليه إلى وادي سافانا واسع والذي بدوره كان قد أفسح الطريق إلى الصحراء ذات الأشجار القصيرة.

تقع فيما يلي هذه قرى صبيا بمزارعها الممتدَّة إلى البعيد، والتي وصلنا إلى طرفها بعد عشر دقائق. لقد كان اسم أولى هذه القرى هو الحسيني، وهي منطقة زنوج من المجموعة نفسها التي كانت قد سكنت في الحسينية، وكانت تحتوي على عدد كبير من العشش التي تشبه خلايا النحل وتقع على مسافة ميل واحد إلى الجنوب من طريقنا وعلى الجانب الأيمن لوادي صبيا، والذي يشق طريقه إلى البحر في استقلالية وقليلاً ناحية الجنوب من دلتا بيش العريضة. ثم وصلنا بعد دقائق

إلى قرية الخواجيه[(١)] الصغيرة التي تقع على جانب الطريق ومنها إلى صَلْهَبَة على بعد نصف ميل إلى ما يليها على جانب الوادي. ويتفرع الطريق بعد ذلك ليذهب ناحية اليمين إلى بيت السيد وهي قرية منفصلة من بيوت مبنية من مواد البناء، مكونة مقر سكن أسرة الأدارسة، ثم إلى ناحية الشمال إلى صبيا الجديدة التي كانت محطة الوصول المباشرة. لقد اكتملت المجموعة بالقرية الشبيهة بخلية النحل لمستوطنة قديمة، تسمى صبيا البالية، التي تقف قليلاً إلى الخلف ناحية الجنوب الغربي في الفجوة التي تقع بين صبيا القديمة وبيت السيد. ويمكن اعتبار كل هذه القرى أنها مكونة لبلدة صبيا التي تمتد على هذا الأساس فوق مساحة معتبرة يقدر عدد سكانها محلياً بحوالي (٢٥٠٠٠) نسمة[(٢)].

لقد واصلنا سفرنا عبر حقول الدخن بعد أن توقفنا لمسح المنظر من مفترق الطريق، ثم دخلنا صبيا الجديدة بالقرب من إحدى آبارها الخارجية، ويقع قريباً منا وعلى يميننا المسجد الرئيس للبلدة، وهو من مواد بناء قوية ومزخرف بالجبس من الداخل والخارج. ثم وصلنا إلى قرب مركز البلدة، بعد أن شققنا طريقنا عبر ممرات متعرجة بين قرى القش الكثيفة جداً إلى حيث يوجد بناء كبير مطلي بالجير

(١) يعود نسبة قرية الخواجية إلى الأمير. دريب بن مهارش الخواجي، الذي اختط مدينة صبيا عام، (٩٥٨م). (ابن جريس).

(٢) يقدر فيلبي عدد سكان صبيا عام (١٣٥٠هـ) بحوالي (٢٥٠٠٠) ألف نسمة، والعقيلي في عام (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) يقدر عدد قراها بـ (١٢٧) قرية، وعدد سكانها حوالي (٥٧٢٨٢) ألف نسمة، وصبيا تعد من كبريات محافظات جازان التي بلغ عدد سكانها في المدن والقرى والأرياف من السعوديين فقط في عام (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) حوالي (٩٦٨٤٨٦) ألف نسمة. انظر: العقيلي، **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية**، ص ٢٥، محمد صبري محسوب وآخرين، **دراسات في جغرافية المملكة العربية السعودية** (القاهرة: مكتبة رشيد، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) جـ٢، ص ٢٣٣ . (ابن جريس).

الأبيض ومزخرف بالجبس يملكه التاجر الرئيس المحلي واسمه أحمد البهكلي[١]. وتقع بجوار هذا مجموعة من مبان مماثلة كانت في السابق مقراً لسكن الإدريسي، غير أنه يشغلها الآن الحاكم السعودي، لتضم سكن أسرته ولتضم أيضاً مكاتب الحكومة التي كان من أهمها مكتب المحكمة الشرعية، وأقسام مالية الدولة[٢]. لقد خصصت لنا مجموعة من العشش بالقرب من هذه لتكون مقراً لنا، ولقد كانت عشتي نظيفة لطيفة وواسعة الأبعاد بالنسبة لي مع مسطبة من الطين للجلوس أو النوم عليها خارج العشة، وتقف كل عشة في حوش خاص بها تسورها الأعواد وتبلغ مساحتها ما يزيد على الأكر الواحد.

لقد نمت مستوطنة صبيا الجديدة بأسلوب متقطع متناثر حول مقر سكن الإدريسي الذي كان نفسه قد شيد على أساس التجربة كسكن يلجأ إليه صيفاً لقربه من الوادي أكثر بدلاً من القصر الرئيس (بيت السيد). لقد تحول المكان إلى خراب بعد حربه مع القوات السعودية أثناء المتاعب الحديثة نسبياً مع الإدريسي وقد تم هجره مؤقتاً، وبرغم أنه قد عاد إلى الحياة مرة أخرى بسرعة مدهشة، وبدا مظهره وكأنه قد أسس منذ زمن. كانت البلدة القديمة التي كان يقضي الأدارسة صيفهم فيها، تقع على جانب الوادي، إلى الأسفل، وكان يهددها تآكل السيول لها، وقد تمَّ هجرها تدريجياً في استحسان لصبيا الجديدة[٣]. لا يزال هنالك بعض السكان

(١) أسرة آل البهلكي من الأسر العلمية العريقة في بلاد جازان، بالإضافة إلى أنه ظهر منهم تجار ووجهاء وأعيان برزوا في مجالات عديدة. (ابن جريس).

(٢) لا زال بعض آثار هذا المبنى ماثلة للعيان، بل إن منطقة صبيا يوجد بها العديد من الآثار المتنوعة في أشكالها وأماكنها وعصورها، وهي جديرة بالدراسة حبذا لو تصدى لها بعض طلاب الدراسات العليا في إحدى الجامعات السعودية. (ابن جريس).

(٣) الخوف من أمطار الوادي يعد من الأسباب الرئيسة إلى نقل الأدريسي عاصمته من مقرها القديم إلى المقر الجديد (بيت السيد) في الحسينية. (ابن جريس).

في صبيا القديمة إلاَّ أن عددهم كان قليلاً. ولا تزال صبيا الجديدة تجد مؤنتها المائية من الآبار، غير أن مصدر مـائها الرئيس كان صهريجاً موضوعـاً في مجرى السيل ومدعـماً ضد السـيول ببناء مـثبت بالأسمنت، ومـثبت كذلـك من الداخل حتى مستوى الماء الذي كان على عمق (١٠) أو (١١) قامة إلى أسفل. ويشرف المجتمع كله على هذه البئر وتقوم عـصبة من العبيد بسحب المياه منهـا وصبها في الجرار أو العلب التي تحضـرها الفتيات على ظهـور الحمير من المنازل المخـتلفة مقابل نـسبة صغيرة من الحـبوب لأجل الصيانة. يكون كل من هذه البئر وبطن المجـرى موقعاً للترفيه والنزهة خاصة عند الظهيرة ولكل السكان، ولقد كان في مثل هذه الأوقات بؤرة لمنظر مرح، وفـيه يسـمح للصبيـان وللفتيـات المحليين باللقاء ولكبـار القوم بمناقشة مناشط اليوم والأخبار القاصية والدانية.

يكوِّن القطن هنا إلى جانب الدخن والـسمسم محصـولاً مزدهراً ويزرع على مساحات واسـعة على مستوى متبـعثر. كما يزرعون أيضاً نـباتاً يسمى الحور وهو مصدر صبغة النيلة المشهورة في مساحـة كبيرة أيضاً بما في ذلك الهضبة. ويستديم المحصول الذي ينتج عن البذرة لهذا النبات مـدة خمس سنوات قبل استعادة بذره، ويماثل في ذلك برسيم نجـد الذي يظل حصاده متكرراً مدة تـتراوح من خمس إلى ثماني سـنوات. لقد تم تثبـيط زراعة النيلـة حديثاً وذلك بسـبب اجتياح أصـباغ الأنيلين الأوروبية، ولعل مما يؤسف له أن النيـلة الآن صناعة تحتضر. كـما يجب زراعة بذور الدخن الصغير متكرراً عاماً بعد عـام لكل محصول، غير أن محصول الذرة يحصد أربع مرات في السنة في بلاد تهامة هذه من بذر مرة واحدة. ويجلب الموز الأخضـر الممتاز الشديد الحـلاوة بكميات كـبيرة من جبل الريث ومن الجـبال الأخرى التي تنتج أيضاً عنباً ممتازاً.

يقال إن صلهبة التي تقع عكس التيار بالنسبة لصبيا الجديدة كانت النواة التي تطورَّت في نهاية الأمر لتكون صبيا. وتقع على جانبها القريب أطلال قلعة قديمة تعود إلى زمن الأشراف، أو إلى فترة ما قبل الحكام الأدارسة، والتي بدورها سبقت النظام التركي من عام ١٨٧٢م وما يليه. وتقع قرية الحسيني تجاه أعلى الوادي وإلى البعيد، بينما تقع على مسافة الميلين مع اتجاه الوادي، غرب صبيا الجديدة، قرية العدايا الكبيرة الشبيهة بخلية النحل وبأراضيها الزراعية التي تمتد تقريباً إلى قرب الكثبان الرملية على امتداد ساحل البحر. لم تكن صبيا نفسها بعيدة عن البحر وهي ترتفع قليلاً جداً فوق مستواه (حوالي ٥٠ قدماً) وقد كانت جازان مرئية لنا في غير وضوح تام وبها قلعتها المنظرانية التي تقف فوق قمة التل ناحية الجنوب الغربي. ويمر الطريق هنا فوق حقول مزروعة من على الجانب الأيسر لوادي صبيا، وإلى حدود بئر وقرية الغراء في أجمة لأشجار علب وغيره، تبطن هذه البئر من عند قمتها إلى سطح مائها باللبنات وتتوج بفم واسع مثبت بالإسمنت وتعمل هذه البئر عن طريق مجموعة من العجول المخصية وهي تقوم بسحب المياه عند عمق (١١) قامة. كما توجد بئر أخرى بين كل من الغراء وصبيا وعلى طريق جازان -وهو اليوم طريق سيارات مزودٌ بخط تليفون-. تسمى هذه البئر باسم (بئر لزكري) وتقع داخل أجمة أشجار بينما تكسو جوانب وادي صبيا التي تبعد عنها إلى الخلف بحوالي نصف الميل مجموعة من أشجار العلب. تبعد الغراء التي توجد بها آبار أخرى إلى جانب تلك التي تقع على جانب الطريق على مسافة نصف ساعة سفر بالسيارة من صبيا الجديدة، أو قل حوالي خمسة أميال.

كان العضو الرئيس في المجموعة التجارية لصبيا -كما ذكر من قبل- هو أحمد بهكلي، صاحب مؤسسة، وقد استقرت أسرته منذ زمن طويل في جازان.

ولقد حضر إلى هنا، ليس بدافع شخصي ولكن للعناية بمصالح شخص اسمه محمد يحيى الباصهي، الذي كان والده قد أعدم قبل ست سنوات بواسطة الإدريسي، وذلك بسبب تعاطفه مع النظام السعودي. لقد خلف والده أملاكاً واسعة هنا، من منازل وأراض زراعية ومصالح تجارية معينة، لأمر عناية ابنه، ولذا فقد استقر محمد يحيى هنا لإدارتها[١]. كانت صبيا شعلة من الضوء في تلك الليلة التي كنا نتمنى أن تكون الأخيرة لرمضان. غير أن ذلك لم يكن، إذ لم يشاهد الهلال الجديد. ويواجهنا تبعاً لذلك يوم آخر للصيام وقد سهر أهل صبيا بالولائم حتى الساعات الباكرة من الصباح، بينما ابتهج أطفالهم بالألعاب النارية والمفرقعات وارتفع نهيق الحمير، وصياح الديوك وشارك حتى الأطفال الرضَّع إذ أضافوا مساهمتهم للضجيج العام وذلك بالبكاء المتواصل خاصة ذلك الطفل الذي يقع -بجواري والمريض جداً- في التكل. كانت المراجيح والدوارات لا تزال تكسو ساحة السوق، حينما مررت عبر المكان بعد أيام في طريقي إلى فيفا، وكانت هذه الألعاب قد نصبت لإبهاج الأطفال خلال فترة الإجازة، كما قد بدأت شوارع البلدة وحياتها تدب عائدة إلى طبيعتها[٢].

إن صبيا مركز مهم لصناعة الزيوت (زيت السمسم)، ولقد رأيت واحدة أواثنتين من معاصرهم البسيطة وهي تعمل. كانت خشبة اللوحة المستوية للمعصرة مكونة من وعاء شبيه بالهون الذي توضع فيه البذور بينما يطوف حوله جمل وقد

---

(١) يحيى باصهي: يعد من وزراء الإدريسي الرئيسيين، وعند ظهور الحكم السعودي شكى الأدريسي في نوايا باصهي، وميله لابن سعود فقتله وأحرق منازله ومزارعه. وقد شاهدت في صيف عام (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م) بعضاً من بيوت باصهي وعقاراته مدمرة ويظهر عليها أثر الخراب والحريق. (ابن جريس).

(٢) هذه من العادات الاجتماعية، والمهن الاقتصادية التي لا زالت تمارس في أجزاء من منطقة جازان حتى اليوم. (ابن جريس).

غُطِّيت عيناه، ويقوم أثناء طوافه بتحريك اليد التي تدير حجر الرحى. يقي السقف المصنوع من الأعـواد الحيوان من حـر الشمس، غـير أنني أحس بالشفـقة ناحـية الحيوان بسـبب حركته غـير النهائية في تلك الحلقـة الصغيرة المفـرغة، التي يصل قطرها إلى ضعف طول جسمه[١]. تجاور المقبرة طريق الحج الرئيس الذي يقود إلى مكة عند الضـواحي الخارجـية للبلدة وكـانت مجـموعـة قبـورها بائسة، وبالـية وصغيـرة، وقد برز من بينها قبر واحـد، هو ضريح بسيط ولكنه كبـير وله سقف محدودب قليـلاً، مبني من الخرسانه، والذي تسجـى بداخله البقايا للسيد مـحمد الإدريسي، الذي توفي عام ١٩٢٢م. لقـد كان هو أول وآخر حـاكم إدريسي مؤثر على تهامة عـسير[٢]، كما أن ابنه قـد خلفه من بعده واسمـه علي، الذي كان قد أبعد عام ١٩٢٦م وذلك عند إنشـاء قاعدة حماية سـعودية على البلاد تحت الحكم الاسمي لأحد أعمامه واسمـه الحسن الذي كان قد أبعد آخر الأمر إلى مكة وذلك عندما ألحقت تهامـة عسير[٣] آخر المطاف إلى المملكة العربيـة السعودية، ولم يتم هذا بدون العصيان الذي ورد ذكره عام ١٩٣٠م.

كان لكل قسم من أقسام صـبيا هذه مقابره الخاصة به غير أن مـقبرة الحسيني التي تقع أعلى المجرى كانت كبـيرة بصفة خاصة، وتملؤها قبور عـديدة منخفضة، ومنتشـرة فوق كل المساحة التي انتـشر فوقهـا حصى صغيـر كوارتزي أبيض، ربما ليكسب الموقع لمسة مرحة.

---

(١) هذه من العادات الاجتـماعية، والمهن الاقـتصادية التي لا زالت تمارس في أجزاء من منطقـة جازان حتى اليوم. (ابن جريس).

(٢، ٣) إطلاق فيلبي على هذا الجزء اسم (تهامـة عسير) غير صحيح، وإنما تسمـى (تهامة جازان) أو (منطقة جازان) أو (منطقـة صبيا)، مع العـلم أن الإدريسي مد نفوذه لبعض الـوقت إلى تهامة عسـير، بل وإلى مرتفعاتها. (ابن جريس).

الفصل السادس والعشرون

جازان[1]

يدخل طريق جازان، فيما يلي مزارع الدخن الواسعة الانتشار وحقول السمسم الغراء، والتي تعترضها سدود (مساطب) عديدة لتنظيم السيول التي يقال إنها متكررة وغزيرة، إلى شريط عريض لصحراء ذات شجيرات قصيرة وتكثر بينها شجيرة العلقاء والحشائش المألوفة والتي تآكلت كتلتها بحركة السيارات خاصة خلال حملة عام ١٩٣٤م.

وصلنا إلى غابة أشجار السلم الكثيفة بعد سفر نصف ساعة من عند صبيا، وكانت هذه الأشجار تملأ تماماً المناطق السفلى الشبيهة بالدلتا لوادي ضمد، الذي ينحدر مخترقاً السهل من عند قاعدة كتلة فيفا. ثم يندفع الطريق عبر هذه الغابة ماراً ببئر تُسمى سلمة داخل مساحة واسعة مكشوفة داخل الغابة؛ وهي عبارة عن بناء صهريجي مستدير إلى مستوى الماء عند عمق خمس قامات، ثم يبرز الطريق إلى ما وراء الجانب الأيسر لمجرى ضمد ليتجه إلى سبخة واسعة مستوية، ينمو عليها العديد من لافندر البحر، ويبدو أنها كانت خليجاً صغيراً تابعاً للبحر، أو ربما كانت مجرى قديماً لضمد نفسه، ذلك لأن السيول الجبلية فوق هذا السهل الواسع المستوى قد تفعل الكثير وبأسلوبها الخاص. كانت كل هذه الأرض المستوية صلدة وقوية بما فيه الكفاية لتسمح بسرعة حركة ممتازة للسيارات، غير أن سلسلة من

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن جغرافية وتاريخ منطقة جازان، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص ١٣٧ ــ ٢٠٣، محمد العقيلي، **تاريخ المخلاف السليماني**. جزءان. (ابن جريس).

كثبان رملية -تدعى قوز، قيزان- منخفضة تقع قليلاً إلى الأمام، كانت قد اعترضت بين طريق السيارات وبين البحر، الذي بدأ لونه الأزرق العميق يشاهد فيما يليها. لم يكن هذا المسطح الصغير من الماء هو البحر نفسه، بل خليجاً كبيراً يسمى قوز الجعافر والذي يجد الحماية من الجانب البعيد بواسطة نتوء طويل مستوٍ ومقوس من الرمال ومبطن من الجانب الداخلي بشريط طويل من مستنقعات أخدودية.

يعبر الطريق الآن بين كثيبين رمليين مرتفعين يسميان بيبان جازان (البوابات) ثم يصل إلى سلسلة رملية طويلة منخفضة تسمى المنجارة وهي تطوق آخر المسطحات الملحية التي تفصلنا عن النتوء الصخري لجازان نفسها. كانت هذه هي دلتا وادي جازان، وتقع داخلها إلى البعيد، على يسارنا وعكس اتجاه أعلى الوادي، كل من بئري الحفائر وعمير[1] إلى جانب ما لا حصر له من جمال القوافل ذهاباً وإياباً بينهما وبين البلدة التي تسحب كل حاجتها من المياه منهما، ذلك لأنه ليس بالبلدة آبار حلوة الماء. كانتا هاتان البئران محروستين بعدد من القلاع، تسمى إحداهما قلعة السبخة التي تحرس مدخل جازان عبر المسطح الملحي. وينحدر تل جازان فيما يلي ذلك إلى أسفل حافة البحر، حيث يوجد عرن يسمى المطلع، والذي يكون خط دفاع داخلي طبيعي.

لم يمض وقت طويل حتى كنا عند عتبة باب مقر سكن الحاكم، وذلك لتحية محمد بن مهدي قبل توجهنا إلى مركز القيادة الذي كان قد أعده سكناً لنا. لقد كان مقره بناءً حديثاً عند قاعدة محط السفن الوحيد الذي كان قد تم بناؤه بغرض

(١) تعرف حالياً بالعميرية، وهي نسبة إلى اسم حافرها ويدعى عمير. للمزيد انظر: محمد العقيلي. **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية**، ص ١٧٥ . (ابن جريس).

أن يستخدمه الكتبة المراجعون لمصلحة الجوازات والجمارك، والذي أصبح الآن مقراً لإقامتنا المؤقتة في جازان، وسرعان ما قمت بتنصيب نفسي وممتلكاتي في غرف الطابق الأعلى، تاركاً الطابق الأرضي لرفاقي بينما ذهب رجال الجمال والمرشدون المحليون إلى أصدقائهم المختلفين أو أقاربهم في الأقسام الشبيهة بخلية النحل داخل البلدة. انتشرت هذه المساكن بصفة عامة من عند الجزء الرئيس للبلدة وإلى أعلى التل مكونة ضاحية كبيرة متعرجة، بينما شغلت المباني الحكومية والمستودعات الخاصة ومكاتب التجار وما شابه ذلك المنطقة المنخفضة التي تقع على واجهة البحر، وقد كانت كل المباني من الحجارة المغطاة بالجبس من الداخل والخارج.

كانت كل المباني متداعية والبناء الذي نشغله ليس بأوفر حظاً. إلاَّ أن موقعه كان مثالياً. لقد سيطرت نوافذ البناء في الطابق الذي كنت أشغله على منظر شمولي للميناء وخط الساحل الجذاب عند حافة التل الناتئ وإلى قمته. كان يرسو بالميناء في حينها حوالي (٣٠) من السنابك من أحجام مختلفة في المرسى أو كانت معلقَّة للصيانة كما كانت هنالك صناعة آلات صيانة للسفن نشطة في هذا الميناء. لقد ترتبت أكياس الدخن وبالات أوراق الدوم والقصب في أكوام على صدر الساحل في انتظار الشحن، ومعظمها كما يبدو كان في طريقه إلى عدن. وكانت مصوّع ميناء آخر على البحر الأحمر والتي تتعامل معها جازان تجارياً، وذلك بشحن حوالي (٢٥٠٠) جوال من ثمار الدوم كل سنة لأجل صناعة العاج المزيف. كما كان الدخن الذي رأيته هو آخر شحنة تغادر الساحل العربي ذلك لأن الحكومة السعودية قد فرضت حظراً يمنع تصدير كل الحبوب.

قدمت الحكومة أيضاً أموالاً لبناء مدرسة جميلة على ساحل البحر، تقع بعيدة عن الميناء، داخل تجويف رملي لطيف مكوناً انبعاجاً في الدائرة[1]. لقد كان هذا هو أول انطباع لي عن جازان، وبعد أن نلت قسطاً من الراحة التي كنت أتطلع إليها وبعد أن قمت بالسباحة في البحر عند نهاية الرصيف، جلست في ردهة الحجرة أراقب الدقائق الأخيرة لشمس رمضان، وهي تتوقف ناحية أفق البحر الصافي ثم تغوص في بطء من خلفه مع انطلاقة ختامية للشعاع الأخضر المألوف. لقد انتهى اليوم وانتهى كذلك شهر رمضان. ولقد صمنا فقط (٢٩) يوماً بدأت في (١٦) ديسمبر، في ذلك اليوم حينما استيقظنا في سيل غربان وسرنا إلى الحُرَجَةَ، غير أن الناس هنا في تهامة قد صاموا ثلاثين يوماً.

ما أروعه من هدوء حينما يوقظ المرء في الساعات الباكرة ليس لأمر ضروري ومهم، ولكن لتناول طعام غداء غير مرغوب! وياله من كرم أن يجد المرء براد الشاي بجوار سريره حين يستيقظ من نومه، ويجد غليوناً ليدخنه في سلم وأمان قبل أن يعد المرء نفسه لمناشط اليوم التي بدأت في حالتي بغطسة في البحر. لقد اختفت كل الأحاسيس بالتعب التي كانت قد تراكمت خلال الأيام الماضية وبلمسة عصا سحرية، ولقد كان من الممتع أن يرتدي المرء أزياء نظيفة من قماش اللينن مرة أخرى. ثم توجهنا عند الساعة السابعة صباحاً من يوم الأحد، أنا ورفاقي، وقد كنا في أجمل ملابسنا ضمن الحشد المتعدد الألوان المبتهج إلى موقع التجمع بجوار

---

(١) جازان لا تخلو قبل منتصف القرن الهجري الماضي من بيوتات علم وفكر وأدب، لكن المدارس النظامية لم تفتح في منطقة جازان وغيرها من مناطق جنوبي البلاد السعودية مثل: ـ أبها، وبيشه، والظفير في بلاد غامد إلا عام (١٣٥٤ ـ ١٣٥٥هـ). للمزيد انظر: غيثان بن جريس. **تاريخ التعليم في منطقة عسير ١٣٥٤ ـ ١٣٨٦هـ**. جـ١، ص ٥٢، ٦٤. (ابن جريس).

المصلى، أو مكان صلاة العيد للشكر لله على إتمام صيام آخر قد أضيف إلى سجل حسنات المرء. كان المكان واسعاً ويقع بين الحدود الخارجية للعشش الشبيهة بخلايا النحل ومناجم الملح المحلية.

وكانت الأرضية من رمل أبيض، ولا يدل على الغرض من هذا التجمع الذي يحدث مرتين في السنة إلاَّ وجود محراب الصلاة المبني والمنبر[١]. وانتهت الصلاة القصيرة، بخطبة طويلة حتى الإملال، كان قد ألقاها القاضي المحلي، وهو رجل طويل، كثيف اللحية، جميل المحيا، بصوت مريح وموسيقي، وكانت المناسبة عظيمة لكل الأطفال الحاضرين، وهو أول حضور لهم لصلاة جماعة بعد أول تجربة لهم مع الصيام. إن الإسلام رؤوف بالأطفال ولا يصر على صيامهم أو الالتزام بأوقات الصلاة المفروضة، ولكن عندما يبدؤون هم بدافع ذاتي، أو طاعة لوالديهم فلا عودة بعد ذلك، وعليهم أن يتصرفوا بصفتهم رجالاً في كل أمور الطاعة الدينية. إن تأكيدهم للعقيدة بمحض رغبتهم المستقلة، يضع على عاتقهم الالتزام الذي يجب ألا يتم تجاهله بغرض الإفلات من العقوبة. كانت ملابس كل الأطفال قد تزينت بألوان قوس قزح، وهي مصنوعة من الحرير أو الستن إلى جانب أغطية الرأس الجديدة وكان كل الرجال قد ارتدوا أحسن ما لديهم، على مستوى الأمير وأتباعه في منتصف الصف الأمامي، إلى أفقر عامل في الموانـي أو معادن الملح[٢].

(١) من السنة في صلاة العيدين أن تكون في أرض مكشوفة خارج القرى والمدن إلاَّ في حالة وجود عذر قاهر يمنع ذلك كالأمطار والحروب وما شابهها. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على مزيد من العادات والأعراف المختلفة في جنوبي البلاد السعودية، انظر: غيثان بن جريس. **عسير ١١٠٠ ـ ١٤٠٠هـ**، ص ٣٥ ـ ١٠٨، محمد العقيلي. **الأدب الشعبي في الجنوب** (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) (جزءان) (ابن جريس).

أشرف الأمير بعد الصلاة على مراسيم الاستقبال الرسمي للكل، وذلك في الفناء الواسع في مقر سكنه المتداعي. لقد احتلّ القاضي موقع الشرف بجلوسه على يمين الأمير، بينما جلس إلى يساره أحد سادة الأدارسة. ثم قدمت فناجين القهوة وأكواب الشاي بالطريقة المألوفة عبر التاريخ وكانت المحادثات متقطعة، غير أن أكثر الفقرات التي كانت قدمت أثناء التجمع قد قوبلت باستحسان، كانت قصيدة جيدة فوق المعتاد، ألقاها الشاعر علي السنوسي الذي ربما كان ينتمي بقرابة بعيدة إلى أسرة السنوسي. ثم دعا الأمير كل الحضور بعد ذلك لتناول وليمة العيد التي تألفت من لحم ضأن ممتاز وأرز وقد وضعت في أنحاء الغرفة في حوالي عشرين من الأطباق ذات الأرجل. انتهت بذلك المهمة الرسمية، ويستطيع كل الحشد أن يتجول بحرية متنقلاً من منزل لآخر في زيارة الأصدقاء أو الموظفين للتهنئة بهذه المناسبة العظيمة ولتذوق ما لديهم من قهوة وحلوى.

قمت بزيارات لعدد من الموظفين الرئيسيين، كان من بينهم عبدالعزيز الضميري، وهو رئيس مصلحة المالية المحلي، وصالح بن إبراهيم النفيسي، مدير الشرطة، وعبدالله البسام وهو صديق قديم لي من أيام مكة ويشغل الآن وظيفة ضابط الميناء وهي وظيفة مهمّة، ثم قمت إلى جانب هؤلاء بزيارة حسن البهكلي، وهو رئيس الشركة، والذي كنت قد ذكرت ممثّله في صبيا من قبل، كما رأيت وصول قافلة صغيرة من الحمير أثناء وجودي في منزله في السوق. وقد جلبت معها المؤنة اليومية من نبات القات الطازج وقد تمّ لفها في أوراق أشجار الموز الباردة[1]. وستكون لي فرصة أخرى للحديث عن هذا المخدر المحلي الجبلي

(١) شجرة القات من الأشجار المرغوبة عند أهل جازان، يؤكل ورقها بحجة أنه يضفي على من يأكلها الاسترخاء والانبساط العقلي والنفسي والجسمي. ويتم الحصول عليها من منابتها الرئيسة في جبال فيفا وبلاد اليمن. والدولة تسعى جاهدة إلى محاربة استخدامها لما ينتج عن أكلها من أضرار جسدية واقتصادية، وربما أخلاقية. مع العلم أن هناك بعض الدراسات المعمولة حول هذه الشجرة وأضرارها، ولكن في رأيي لا زلنا نحتاج إلى دراستها من جميع الجوانب. (ابن جريس).

بتفاصيل أكثر. لقد اكتفيت هذه اللحظة بتذوق قطعة منه، ولم تكن مثيرة للاهتمام، وقد وعدني مضيفي أنه سيمنحني الفرصة ذات يوم لحضور جلسة للنادي المحلي لآكلي القات وذلك لكي أمنح العشب القيم جداً، التجربة الصحيحة تحت الظروف المناسبة لذلك. لقد تحدثنا حول هذا الموضوع أثناء اجتماعنا بالأمير، حينها أعلن القاضي بدون تقيد، أن النبات ليس محرماً ويمكن تعاطيه دون إخلال ديني. لقد كانت كل السفن رافعة أعلامها لأجل مناسبة العيد، وكان بعضها قد رفع أعلامه إلى علو عظيم، واكتسى البعض الآخر منها بأقمشة بهيجة تصنع منها الرايات إلى جانب الأعلام المختلفة الوطنية التي ترفرف فوق مؤخراتها. كما تحمل معظم السنابك العلم السعودي ويرفع غيرها العلم الأحمر اليمني، كما قد رفع القليل منها ولعله من مصوَّغ العلم الإيطالي، ثم أطلقت المدافع التي تقع بجوار القلعة من فوق الجبل تحياتها وعلى فترات وذلك بعد صلاة العيد ثم واصلت ذلك أثناء اليوم وعند مواعيد الصلاة. لقد كان صباحاً مرحاً وممتعاً بالنسبة لي، وقد خذلني شيء واحد، هو البريد الذي كنت أظن أنه قد تراكم بانتظاري، ولكنه لم يصل بعد.

قمت بمرافقة مدير الشرطة لزيارة القلعة التي تقع على رأس التل بعد أن نلت شيئاً من الراحة كما قمت بإطلاق النار على طيور النورس وغيرها من طيور البحر التي كانت تملأ صدر البحر والميناء. لقد تمَّ بناء هذه القلعة قبل أربع سنوات تحت إشراف الحكومة السعودية، حسب التصميم الذي أعده خالد القرقني وهو من أبناء طرابلس والذي ظلَّ على رأس العمل عند ابن سعود مدة طويلة يشغل وظيفة وزير بلا وزارة، وشارك في التصميم مهندس نجدي يسمى القفيدي. وتحتل القلعة موقعاً مسيطراً على قمة التل بلا شك، وقد بنيت من الصخر المحلي الذي كان قد قطع من جوارها، وهي عموماً بناء جيد التركيب مفصلة من الداخل بأجنحة مريحة

للحامية الدائمة إلى جـانب حوض كبير منحوت في الصخر لتـخزين مياه الشرب التي يتم جلبهـا من آبار عمير التي قـيل إنَّ مياهها أكـثر حلاوة من ميـاه الحفائر. تتألف قـوة الشرطة التي يرأسـها صالح النفـيسي من (٥٠٠) رجل منتـشرين في مساحات كبيرة من بلاد تهامة، منخفضها ومرتفعها. لقد كانت فرقة شرطة جازان مكونة من مئة من الضباط والرجال، وقد تبادل أداء الواجب في هذه القلعة حوالي ثلاثين منهم. كـما كانت هنالـك مراكز أخـرى تحتوي علـى قوة من ٢٠ إلى ٣٠ رجلاً، والذين كانوا يتـرددون على جازان لأجل التغيير من مراكـز القيادة في كل من الحقو وصـبيا، والعارضــة، وفيفا، والموسم، وصامطة، وبـني مالك، وجبل حريص، وأبو عـريش، وجزر فرسان، ووعـتان، والخوبه، وبلغازي، والشـقيق، وقنا وعل البحر والقحمة، التي تقع إلى البعيد ناحية الشمال على الساحل.

لا تعد قوة شرطة مكوَّنة من (٥٠٠) رجل كبيرة لمثل هذه البلاد الواسعة غير أنني أعتقـد أن مهمتهم كـانت سهلة في حفظ الأمن وذلك لأن سمعـة ابن سعود وحدها كانت كافية لإسكات المخطئين. إلاَّ أنه قد تحدث برغم ذلك بعض المشاكل وقد علمت أنه خلال شهر رمضان قد تمَّ قطع رأسي رجلين من رجال القبائل وتمَّ ذلك علناً في جـازان وبحكم القاضي، وذلك لعـلاقتهـما بجـريمة قتل كـانت قد وقعت في جبال تهـامة. ينتمي صالح نفسه إلى أسرته المشهـورة في القصيم وكان موطنه هو قرية الخضـراء بالقرب من بريدة وهو حفيد لعبـدالله النفيسى الذي كان وكيلاً لابن سعود في المجالين الدبلومـاسي والتجاري في الكويت مدة امتدت إلى ثلاثين عاماً. إنني أتذكره على أي حـال في عام ١٩١٧م وهو هناك، وذلك عندما تدعمت ثقة مليكه فيها.

يبدو أن أصل النتوء الصخري لجازان هو من قبة ملح مثله مثل كل الظواهرالمماثلة في جنوب الجزيرة العربية ولربما كذلك في جزر فرسان التي كانت أعمدة الملح فيها تغوص إلى أعماق بعيدة[١]، كما لاحظ ذلك مهندسو شركة شل حينما كانوا يبحثون عن النفط بإذن من الإدريسي قبل قدوم الحكم السعودي. كما يقع شريط من الجبس فوق طبقة الملح هذه في هذا النتوء الصخري، ويبدو أنها تمتد إلى القمة، وتكون بالقرب منها صخرة صلدة تصلح لعمليات البناء. لم يزد ارتفاع التل عن (١٠٠) قدم فوق سطح البحر، ويشغل مساحة تقدر بـ (٢) إلى (٣) أميال مربعة.

ولم تكن تلك القلعة السابقة التي كان قد أنشأها الإدريسي[١] على القمة ولكنها منفصلة وتقع قليلاً إلى غرب القلعة السعودية، ويقود إليها طريق جيد من البلدة، والذي لا بد أن يكون قد استخدم لنقل إحدى المدافع الإيطالية في يوم ما إلى موقعها هناك خارج أطلال القلعة التقليدية، حيث لا تزال موجودة لتكون تذكاراً لنظام قد انطوى. كما توجد على أي حال قلعة ثالثة إلى أسفل، عند قاعدة التل وقريباً من مستوى البحر على بعد (٢٠٠) ياردة من حاجز الماء. كانت هذه هي القلعة الأصلية التي أسسها الأشراف[٢]، وكانوا هم الحكام الفعليين للمنطقة حين وصول الإدريسي الأول من إفريقيا بين عامي (١٨٤٠م) و(١٨٥٠م)، والتي كان قد احتلها الأتراك حينما قدموا إلى عسير واليمن بعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ[٣]،

---

(١) للمزيد عن جزر فرسان، انظر: إبراهيم عبدالله مفتاح. **فرسان بين الجيولوجيا والتاريخ**. (مطبوعات نادي جازان الأدبي، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م)، ص ٥ وما بعدها (ابن جريس).

(٢، ٣) لمزيد من الإيضاح عن تاريخ منطقة صبيا وما حولها من بلاد جازان منذ عهد الأشراف إلى عهد الأدريسي، انظر: **تاريخ المخلاف السليماني**، للعقيلي. حـ١، ٢٦١ وما بعدها. (ابن جريس).

وكان ذلك نتيجة طبيعية لافتتاح قناة السويس. لقد كان محيط جازان مبرقعاً بمراكز المراقبة الصغيرة إلى جانب هذه القلاع المركزية العظيمة، وذلك عند كل مناطق النقاط الرئيسة. وكان واحد منها يقف على مطلع عرن، وآخر يحرس معادن الملح، كما كان آخر يسيطر على تقاطع الطريق عند الدلتا (قلعة السبخه)، كما كان هنالك اثنان لحراسة آبار كل من الحفائر وعمير، ويوجد آخر على الكورنيش (قلعة بحرية) وأخيراً تقع قلعة العشيما على الجانب الداخلي الجنوبي للنتوء. لقد كانت جازان جيدة الحماية، بينما توجد إلى مسافة ناحية الجنوب وعلى طريق اليمن وعند قرية المضايا قلعة أخرى تعود إلى أيام الإدريسي.

كان اسم مؤسس نظام الإدريسي في جازان هو أحمد الإدريسي[١] الذي قدم إلى الجزيرة العربية -ويجب تذكُّر هذا- من قارة أفريقيا، ولم يأت وهو غازياً وإنما جاء بصفته رجل دين مشهوراً ومدرساً. لقد كان نظامه في عزلته الاختيارية روحياً مستديماً في صفته ولم يكن دينياً مؤقتاً، غير أن البلاد كانت حينها بلا قائد وكانت غير متماسكة مما دفع الناس إلى أن يقوموا بزيارته لإقامة العدل بينهم وبين قبائلهم وقد أخذوا يندفعون إليه أفواجاً بسبب تفوقه الروحي، وقد أحاطته هذه التوجهات بالضرورة، وبمرور الوقت بزخارف من السلطة شبه المؤقتة. ولم يحاول الإدريسي الأصل أو ابناه الاثنان بالرغبة في تحدي السلطة المؤقتة للأشراف، إلاَّ أن النظام التركي كان هو الذي أزاح الأشراف عن السرج، تاركاً للإدريسي سلطته الروحية وهيبته دون تدخُّل. لقد استمرَّ هذا الوضع حتى عام ١٩٠٨م أو ١٩٠٩م حينما

---

(١) هو من أتباع الطريقة الصوفية الأحمدية من مدينة القيروان، استقرَّ في صبيا سنة(١٨٢٩م)، بعد فترة طويلة من التنقل بين مصر ومكة واليمن. أما عن علاقة الأدارسة مع اليمن وعسير والدولة السعودية فيمكن الرجوع إلى كتاب: **«تاريخ المخلاف السليماني»**، لمحمد أحمد العقيلي، جـ٢، ص ٦٢٠ وما بعدها، عبدالمنعم الجميعي، **الأدارسة في المخلاف السليماني وعسير**، ص٩ وما بعدها (ابن جريس).

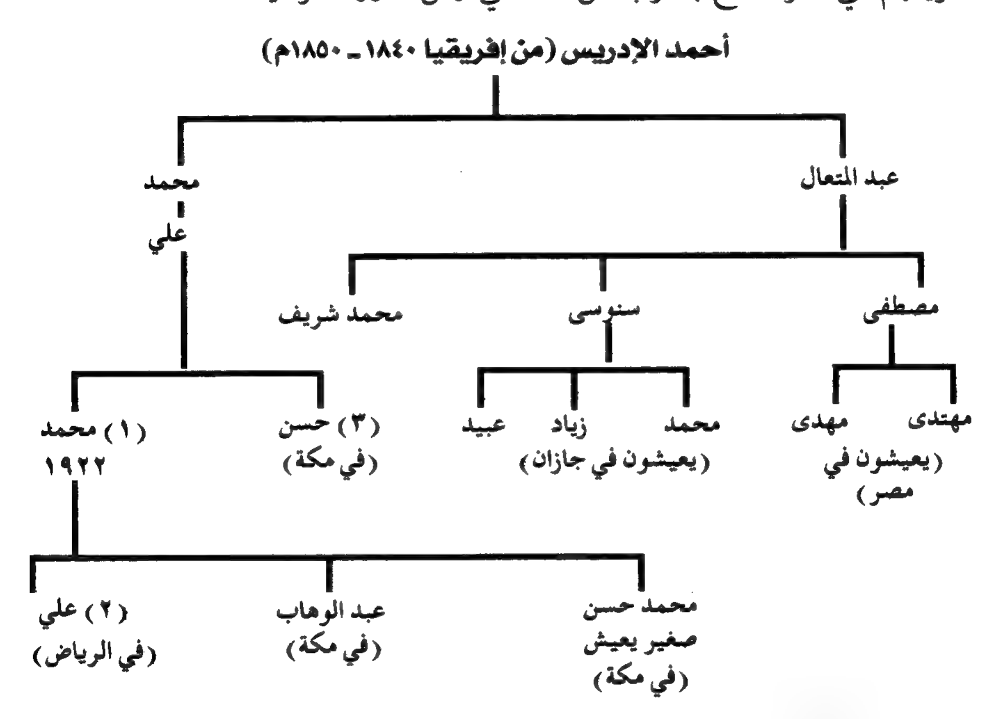
أصرَّ الأتراك على تحجيم أمور الشرع أو القانون الشرعي في محاباة لقوانينهم الوضعية، وقد قاد هذا إلى الكثير من المتاعب في كل من اليمن وعسير. لقد اضطرَّ الأتراك للانسحاب مؤقتاً من عسير في وجه التمرد الذي وقع، وانتهز محمد ابن علي -وهو الحفيد الأكبر لأحمد الإدريسي- هذه الفرصة التي أتاحها هذا الموقف لإقامة دولة مؤقتة كان هو أول حكامها. ثم توصَّل سريعاً إلى تفاهم ما مع الأتراك كما ساعد مادياً على دخول الشريف حسين إلى أبها لنجدة الحامية التركية هناك، ولم يكن هذا إلاَّ التصاقاً جسدياً صعباً، وذلك لأنه خلال الحرب العظمى -وبعد ثورة الحجاز- قام الإدريسي بإعلان الحرب على الأتراك ونال اعترافاً بريطانيَّاً بوصفه حاكماً مؤقتاً على المخلاف السليماني أو جازان. ثم الاعتراف بالإدريسي سيداً على كل جنوب تهامة حتى الحديدة، وكان ذلك عندما ترك الأتراك الجزيرة العربية عام ١٩١٩م وإلى الأبد تحت شروط الهدنة.

لم يكن هذا الترتيب مريحاً للإمام يحيى، الذي -في غياب القوات البريطانية لحماية مرشحهم- لم يجد صعوبة في إخراج الإدريسي من الحديدة وإلى خارج تهامة اليمن إلى موقعه الصحيح شمال ميدي. لقد حدث هذا عام ١٩٢١م، وقد توفي محمد الإدريسي في العام التالي(١)، تاركاً عرشه غير الثابت لابنه الشاب عديم الخبرة واسمه علي، الذي كنت قد أشرت إلى خبرته من قبل. لقد استمرَّت سلالة الإدريسي، وبرغم كل السلطة التي استمتعت بها لأكثر من (٧٠) عاماً وذلك بسبب اعتبارهم الديني، استمرت لمدة (١٧) عاماً فقط في السيطرة الفعلية على القوة السياسية. لقد فقد الأدارسة الآن كلاً من الظل والأصل للسلطة وأن من تبقى من أفرادها الذين قد سمح لهم بالسكن في جازان، مثل سيد العابد،

---

(١) محمد بن علي الإدريسي توفي عام (١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م)، وولادته كانت في عام (١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م). (ابن جريس).

والذي كنت قد قابلته في حفل العيد الذي أقامه الحاكم وقابلته مرة أخرى في منازل أخرى، فإنهم يتصرَّفون كمواطنين عاديين دون عمل مدني أو ديني وعلى معاش تدفعه لهم الحكومة السعودية. كان بقيتهم بالطبع يقيمون في المنفى، ولربما كان من المفيد أن نسجل للتاريخ الأجيال التي خرجت من صلب الإدريسي الأول الذي كان قد عاد لزيارة أرض أسلافهم الذين هربوا من الجزيرة العربية بعد هزيمتهم في معركة فخ بالقرب من مكة في زمن هارون الرشيد[١].



ملحوظة: الأرقام (١و٢و٣) تشير إلى الحكام السياسيين في هذه الأسرة. لقد أبعد رقم (٢) عام ١٩٢٦م وعين مكانه رقم (٣) الذي أبعد عام ١٩٣٠م لقد أدى السيد مصطفى دوراً مهماً في المفاوضات بين البريطانيين والإدريسي أثناء الحرب العظمى وهو يعيش حالياً في مصر، وقد توفي هناك قبل عام ١٩٣٦م.

---

(١) موقعة فخ لم تقع بالقرب من مكة المكرمة في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، وإنما حدثت عام (١٦٩هـ/ ٧٨٥م) في عهد أخيه الأكبر (الهادي)، انظر: الطبري. **تاريخ الأمم والملوك**، حـ٨، ص ١٩٢ وما بعدها. (ابن جريس).

كانت الصناعة الرئيسة في جازان، إلى جانب بناء السفن ومناشط ذات علاقة بالبحر، هي بالطبع معادن الملح. ويتكون كل الجزء الأسفل من النتوء الجبلي من صخر ملحي ممتاز. وقد أقيم فيه معدن ضخم تحت سيطرة وملكية الحكومة. كما يوجد بالقرب من مداخل مواقع العمل، مخزن متداعي يحتوي على ما مقداره حمولة حوالي (٧٠) جملاً من الملح المعبأ الجاهز للتوزيع. ويحتوي كل كيس على حوالي (٩٢) عق (٤٠٠) درهم أو (٢,٥) رطلين ونصف الرطل بالتقريب، وتتكون حمولة الجمل من كيسين، أو ما يعادل (٤٦٠) رطلاً، وقد تم صنع الأكياس محلياً من الحصير الخشن. وتقوم الحكومة ببيع الملح مباشرة للتجار بسعر ثلاثة ريالات للحمل الواحد زائداً نصف ريال لاستخراج شهادة البيع، بما يعادل ريالاً واحداً لكل (١٤١) رطلاً وعلى المشتري أن يحاول الحصول على أفضل الأسعار في الأسواق المحلية التي يستطيع الوصول إليها.

يكون هؤلاء السماسرة من البدو الذين يعملون في نقل الأحمال على جمالهم، وكانت هنالك مجموعة منهم شاهدتهم أثناء زيارتي هذه، من قرية المسارحه[١] مما يلي أبو عريش وهم يقومون بتحميل جمالهم بما كانوا قد اشتروه. ولا يوجد تصدير لهذه المادة عن طريق البحر. كما توجد غرفة عليا أعلى المخزن يعمل فيها الكتبة الذين يدونون هذه المعاملات، إلاَّ أن هذه الغرفة قد هجرت منذ زمن، مفضلين عليها عشة من الأعواد تقع قريباً من الموقع وتؤمن وقاية أفضل من حرارة الشمس.

---

(١) قرية المسارحة تقع جنوب جازان بحوالي (٥٥كم)، ويطلق عليها أحد المسارحة، وربما أطلق عليها اسم (الأحد) فقط. (ابن جريس).

كان المعدن الفعلي عبارة عن حفرة كبيرة أبعادها ما بين (١٠٠) إلى (٤٠٠) ياردة ويختلف عمقها ما بين (٣٠) إلى (٤٠) قدماً، وتمثل أسلوب التعدين الذي كان متبعاً لعدة أجيال ولعدة قرون. كان عمق التربة المكشوفة حوالي (٢٠) قدماً وتعلوها طبقة من الرَمْل ذات لون بني داكن، ولربما كانت هذه تمثل طبقة الجبس المتآكلة السفلى، والتي تكون إلى مسافة أعلى، صخرة جميلة صلدة شبيهة بالرخام. ينتمي كل من الملح والجبس إلى العصر الميوسيني[١] مع عدد من الصدوع يخترق الحنبرة كما تأكدت من ذلك لاحقاً من جهات متخصصة. ويتم تفكيك السطح الملحي باستخدام أصابع الديناميت التي توضع داخل ثقوب تعد بالمثقاب، ثم تجمع بعد ذلك الكتل المكسرة من الصخر الملحي داخل الأكياس دون أي محاولة لتشذيبها. ويكون الناتج الثانوي للمعدن هو نوع من الملح الخشن الذي تكون بعامل التبخُّر في قاع الحفرة بعد الأمطار أو السيول. وكان هذا الناتج يباع في السابق بسعر ريال واحد مقابل ثماني صفائح عبوة أربعة جوالين جازولين فارغة، لمناطق تمليح وتجفيف الأسماك غير أن الحكومة السعودية أوقفت هذا التعامل مع الملح الرديء لتدفع بمجففي الأسماك أن يشتروا الصخر الملحي المرتفع الثمن الذي تقدر مبيعاته الشهرية بحوالي (٥٠٠) جمل أو (١٠٠) طن تقريباً، ويكون دخله لمصلحة المالية حوالي (١٧٥٠) ريالاً.

يمثل إنتاج كل من الكلس (النورة) وجبس الجص (جبس) من خام الجبس المحلي صناعة أخرى مهمة في جازان. وتستخدم هذه المواد في معظم الحالات

---

(١) عصر جيولوجي يمتد من حوالي (٢٥-٣٠) مليون سنة وخلاله انفصلت الجزيرة العربية عن القارة الإفريقية، (ابن جريس).

محلياً في الميناء نفسه وفي كل من صبيا وأبو عريش ومراكز أخرى. كانت اليابان هي المورد الرئيس لمعظم واردات البلدة، وخاصة البضائع التي تباع بالقطعة، والخردوات الرخيصة والمواد الغذائية مثل الأناناس المعلَّب - بسعر (٩,٥) ريالات لصندوق يحتوي على (٤٨) علبة عبوة رطل واحد-، ولبن الكرميلة - (٧) أرطال لكل (٣,٧٥) ريالات -، والترامس اليابانية - بسعر (٢,٢٥) ريالين للترمس الواحد- غير أنها لم تكن جيدة الصناعة مقارنة بالمواد الرخيصة من المصدر نفسه، التي تباع في مواني حضرموت.

حافظت الحكومة السعودية -كنوع من التنازل على سبيل الاتفاق، وكتقليد قديم، وإحساساً بحالة السكان الفقراء- على نظام الضرائب أو الجمارك القديم والذي يعادل (٨٪) من القيمة، مع تحديد نسب خاصة تتراوح ما بين (١٠٪) و(١٢٪) على البضائع الكمالية مثل مواد الحرير، وبين (٢٠ - ٢٥٪) على التبغ والسجاير حسب أنواعها. على أن يدفع الفرق بين الجمرك المحلي وبين التعرفة السعودية على كل البضائع التي يعاد تصديرها من جازان إلى منطقة الحجاز أو منطقة أبها، وذلك عند مراكز المراقبة في منطقة رجال ألمع أو في أبها أو في مواني الحجاز طبقاً للحالة. وتمر كل البضائع التي تأتي عن طريق البحر إلى جازان عبر عدن ويتم تخليصها هناك على ظهر بواخر صغيرة بواسطة وكلاء للتجار المحليين. ولا تستطيع السفن الكبيرة الوصول إلى ميناء جازان؛ وذلك لوجود حيد بحري رملي يكون بارزاً فوق سطح البحر، وذلك عند انخفاض المد ويمتد شمالاً عبر المدخل عند الطرف البعيد للنتوء؛ كما توجد فجوة في هذا الحيد تسمح للقوارب الصغيرة بالعبور ويبلغ عرضها (٥٠٠) ياردة وهي جزء من اللسان.

ويتعرض البحر على امتداد هذا الساحل إلى حركة عنيفة للمد والجزر وقد يصل الفارق من أدنى مستوى للماء والخط الذي يحدد أقصى حد للمد بحوالي

(٤٠) ياردة. يكون جانب من حاجز الماء وذلك عندما ينخفض مستوى الماء، مرتفعاً وجافاً أو تحيط به مياه ضحلة جداً، وحتى عند الطرف البعيد، حيث كنت أستحم عند مدرج الهبوط، فقد كان البحر ضحلاً مع وجود طين متين في القاع وعليه بعض الأعشاب البحرية. كانت ذروة المد في هذا الوقت تقع عند غروب الشمس وكانت أدنى درجات الجزر تحدث بعد (١٢) ساعة لاحقة.

جذب صخب شديد انتباهنا ناحية البلدة، عندما كنت أنا وصالح النفيسي عند القلعة عصر يوم العيد مستندين على حاجز السقف نراقب صفوف الجمال غير النهائية، وهي تعمل بنشاط بين البلدة وبين الآبار على رأس المجرى. ويعود سبب الصراخ إلى اشتعال النيران في مجموعة من العشش التي تقع على الجانب القريب من البلدة ومن أسفلنا، وسرعان ما انتشرت النيران والدخان في كل الموقع. ولم يستغرق وصولنا إلى موقع الكارثة وقتاً كبيراً، ولعل النار قد شبت من شرارة انطلقت بإهمال من أحد المطابخ، وحينما وصلنا إلى هناك كان ما لا يقل عن (١٢) عشة قد تدمًر بينما يحاول حشد كبير من الناس وقف انتشار الحريق. لقد كان الوقت لا يزال عند بداية المساء لحسن الحظ.

وقد خمدت النيران تدريجياً داخل فجوة يغطيها جدار من اللبن، ولم يحدث ضرر كبير، غير أنني علمت أن تكلفة بناء هذه العشش الشبيهة بخلايا النحل كانت في حدود (١٠٠) إلى (١٢٠) ريالاً للعشة الواحدة وكان إجمالي قيمة ما قد فقده هؤلاء الفقراء هو (٦٠٠) إلى (٧٠٠) ريال. لقد تم تحذيرهم في الروايات الشعبية من عدم عقوقهم والامتناع عن ميلهم بالاعتداء المتكرر على أطراف المقبرة المهجورة التي تقع على جانب التل، وقد استمعت خلال هذا الحشد إلى من يقول بالرأي بأن ضحايا هذه الكارثة قد نالوا ما يستحقونه من عقاب

إلهي. كما كان هنالك التخوُّف من أن النيران قد تمتد إلى محطة اللاسلكي الحكومية في قلعة الأشراف المهجورة، وإن حدث هذا فإن مخزون الوقود لن يؤدي إلى تدمير المحطة فقط ولكنه سيزيد بشكل خطير حجم انتشار النيران. ولقد أمكن تجنب ذلك الخطر المحتمل، ولم تفقد أية أرواح ، غير أنني لم أكتشف ماذا حل بهؤلاء القوم الذين باتوا بلا مأوى ولو مؤقتاً.

وصلتني الدعوة في اليوم التالي، التي كان قد وعدني بها حسن البهكلي لحضور جلسة القات. لقد وجدت مضيفي وقد وجَّه الدعوة أيضاً إلى عدد كبير من الشخصيات الكبيرة في المجتمع المحلي لتناول وجبة الغداء التي كانت قد تأخرت، وذلك حين وصولي لمنزله، حيث وجدت شقيقه معه وقد حضر من صبيا. كانت وجبة الطعام قد انتهت عند الساعة الثانية ظهراً وبدأ اجتماع الأعضاء الكبار لنادي القات بحزم عند الظهيرة. كان عدد الحضور حوالي (٢٥) شخصاً وقد ضمتهم غرفة الاستقبال الطويلة الرئيسة التي انتشرت فيها سرائر الحبال المنخفضة ليجلس عليها الجمع. كما انتشرت النارجيلة[1]، وكان يوجد حوالي الدستة منها، وكانت من أحجام مختلفة داخل الغرفة وذلك لاستخدام الضيوف لها، وقد وقع اختياري على واحدة خفيفة منها ومن الطراز الحمي بدلاً عن الطراز الثقيل (الجراك) وهي خليط من التبغ القوي إلى جانب عدد مختلف من النباتات العشبية العطرية. لقد انتشرت كذلك جرار المياه بالإضافة إلى الأسرة والنارجيلة في مواقع ملائمة ووضعت بجوارها الأكواب والكؤوس، وقد خصصت لي جرة معينة من مياه صبيا، التي يقال عنها إنها أفضل وأحلى من مياه آبار عمير. هكذا كان الإعداد لجلسة القات.

(١) النارجيلة :ـ هي ما يعرف اليوم بـ (الشيشة). (ابن جريس).

لقد تم إحضار لفائف الموز الضخمة وتم كشفها بينما كنا نتحادث ونحن جلوس فوق الأسرة. وقد تم فحص المحتويات بدقة وحذر. ثم قدم إليَّ طقم من الأوراق التي كانت قد اختيرت بعناية، وقد نال كل شخص آخر نصيبه منها ثم بدأت عملية المضغ. لم تكن هنالك مراسيم للحفل وكان كل فرد يتحرك على مزاجه، ويتحدث مع جاره أو أن يلزم الصمت برغبته، كان هذا هو الروتين اليومي لنادي القات، الذي كان يجتمع ظهر كل يوم عند الساعة الواحدة أو الثانية ظهراً حتى غروب الشمس. وكان كل عملهم هو فقط مضغ الأوراق العصارية وقد وُضِّحت لي كيفية ذلك. وينصح بتناول جرعات صغيرة من الماء من حين لآخر ليظل الحلق رطباً وأثناء ذلك تدور فناجين القهوة على فترات، ويساعد هذا على إخراج الخصائص المقوية الكامنه للنبات. ويظل المرء وهو يمضغ الورقة باستمرار، ويبتلع العصارة ثم يلفظ على فترات الأنسجة المستهلكة في المبصقة. ويقال إن مدمنوا القات يدخلهم إحساس بالابتهاج أثناء هذه العملية، ويتبعها إحساس لاحق بالكآبة. ومضغ القات عادة تتملك المرء لدرجة أنه إذا لم يتعاطاه في أحد أوقات الظهيرة يدفعه هذا الحرمان إلى التوسُّل للحصول عليه، كما في حالة مدمن الحشيش. وبحكم الإجماع العام فإن هذه العادة خطرة، وسيئة على الأعصاب وتنتهي بصاحبها إلى الضعف. وكنت قد مارستها لمدة ساعتين في ذلك اليوم دون أي رغبة في الخوض في التجربة مرة أخرى ودون أن أحس بأي شعور قوي من أي نوع كان لذيذاً أم لا. يبدو لي أن مضغ القات هو كمضغ الحشيش وهذا هو كل ما يمكنني أن أدلي به نتيجة لتجربة واحدة والتي لا رغبة لي إطلاقاً في تكرارها[١].

---

(١) فيلبي جرب أكل شجرة القات وذكر عدم جدواها وأنني أنادي جميع من يتعاطاها أن يترك استخدامها ويدرك مضارها الصحية والاقتصادية والاجتماعية. (ابن جريس).

لقد أصبحت أحداث الجلسة فاترة فانتهزت فرصة غريبة لأعتذر وأنسحب لأداء مناشط أكثر فائدة. لقد كنا جلوساً بهدوء لمضغ القات حينما وقع ضجيج فجأة وضوضاء بين النساء في الجوار. لقد اعتقدت بناءً على التجربة السابقة أنه قد شبَّ حريق مرة أخرى، غير أن الأمر لم يكن كذلك، لقد كان الأمر أسوأ من ذلك فقد تم إحضار جثة لصبي على التو وسلمت إلى والدته في عشة مجاورة. وكانت هي التي بدأت الصراخ حينما رأت ابنها الميت، وفي لحظة التقطت كل امرأة على مدى السمع الصراخ، واشتركت كل امرأة في كورس النياح. لقد أصبح منزل تلك المرأة المنكوبة منذ تلك اللحظة قبلة أنظار لكل امرأة في البلدة. ويتواصل الصياح مع وصول كل وفد من الزوَّار، وبقوة شديدة وكأنما قد واجه العالم كله نهايته السيئة. لقد كان الأداء مدهشاً ولا بد أنه كان محنة كبيرة على والديِّ الصبي، واللذين سيكونان قد لحقتهما إهانة بالغة إذا تركا لمصيبتهما يحتملانها في سلام. لقد أحضر الصبي وهو ميت. وكان قد ذهب في الصباح في صحبة الجمال لإحضار الماء من الآبار، ووجد ميتاً على جانب الطريق. كان هذا هو كل ما في الأمر. ولا يوجد ما يكشف عن كيفية حدوث ذلك، ولا يوجد ما يمكن عمله غير دفن الصبي على أنغام عويل جماهيري. وكان كل ما يمكن إيضاحه هو أن الصبي قد يكون قد سقط من على ظهر جمله، ولا يوجد طبيب في جازان للقيام بتشريح للجثة لمعرفة السبب الحقيقي للوفاة[(١)].

ذهبت لأداء صلاة الجمعة (١٨ ديسمبر) في أول أيام إقامتي القصيرة في جازان في الجامع، وهو مبنى كبير ورائع وقد تم إنشاؤه حديثاً، وتكفلت أسرة

(١) عادات النياحة على الميت تتفاوت من مكان لآخر، وكانت في الغالب تمارس بنوع من المبالغة لعدم وجود الوعي الديني بين الناس، ولكن بعد انتشار التعليم والتفقه في الدين أدرك الناس حرمتها فتركوها، واعتدلوا في مراسيم جنائزهم. (ابن جريس).

البهكلي بذلك. يقع المسجد عند منتصف المسافة بين حاجز الماء وقلعة الأشراف القديمة وكان بناءً كبيراً، ويتم الدخول إليه عن طريق أبواب على جانبيه الشرقي والغربي والتي كانت تقود المصلين إلى ساحة مكشوفة تحتل ما يقدر بثلث البناء. كانت بقية البناء مغطاة بصف من الأعمدة الجذابة، مكون من خمسة أروقة تمتد طولياً مرتبة من الشرق إلى الغرب، ومن أربعة أروقة في العمق مرتبة من الشمال للجنوب، مع وجود قبة عريضة تعلو كل رواق. ولقد كانت كوة المحراب عند الجدار الخلفي على الجانب الشمالي، ويوجد بها منبر خشبي مترنح للخطيب. كان المسجد هو البناء البارز في البلدة بلا شك والتي كانت منازلها المبنية آيلة للسقوط وليست ذات قيمة فنية معمارية. إن جازان في شكلها المعاصر، هي مدينة حديثة، برغم أنها كانت قرية لصيد الأسماك، ومركزاً لصناعة الملح عبر القرون حينما كانت العشش الشبيهة بخلايا النحل كافية لإيواء السكان. كان أقدم مبانيها هو قلعة الأشراف، وحتى هذه فهي الآن في حالة مدمرة وكثيرة الرقع، ولربما لا يزيد عمرها عن القرن الواحد بينما يعود تاريخها إلى بداية القرن التاسع عشر(١).

يقترح العالم المحلي تفسيراً غريباً لاسم جازان والذي ينطق أحياناً جَيْزان. ويعتقدون حسب رأيهم أن جازان نطق أفسد الكلمة الأصلية جازان، والتي تسجل حقيقة إنشائها بواسطة مجهول ومشكوك فيه، وبطل من أبطال الماضي الذي «جا» ثم «زان» والتي يكون لشرحها لتعني «هو جاء وهو بنى»، ويبدو الأمر بسيطاً، ولربما خيالي تماماً، ذلك لأن الاسم قابل لاشتقاق آخر أكثر قرباً من الطبيعة. تغطي ساحل البحر على جانبي النتوء تلال رملية وسلاسل رملية من الطراز الذي يسمى «قوز»، ويحفظ العديد من هذه التلال الرملية بهذا المعنى كجزء من

---

(١) المقصود بالقرن التاسع عشر، أي (الميلادي)، الموافق القرن الثالث عشر الهجري. (ابن جريس).

أسمائها، فمثلاً «قوز المنجارة» عند حافة مسطح الملح في الدلتا. و«قوز» يجمع على «قيزان» وتخفيف «القاف» الثقيل إلى «جيم» الخفيف هو ظاهرة مألوفة في الجزيرة العربية مثال ذلك «خرج» بدلاً من «خرق» و«جاسم» بدلاً عن «قاسم». وعليه، تكون جازان بدلاً عن قيزان وتحل بذلك المشكلة. لقد عرضت هذا التفسير على الأمير وعلى غيره، إلا أنني لست متأكداً تماماً بأنهم قد اقتنعوا به[(١)].

يرجع أصل الأمير محمد بن ماضي إلى قرية الروضه في منطقة سدير التابعة لنجد. لقد كان رجلاً عظيماً ضخماً ذا سمات مستبشرة، وهو رجل عمل أكثر منه فيلسوفاً، وكثير الشفقة تجاه الفقير والضعيف، ويبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً وقد كان حاكماً من قبل على ضبا التي تقع على ساحل الحجاز الشمالي، حيث خلفه هناك شقيقه تركي، حينما تم نقله هو إلى جازان وذلك حوالي عام ١٩٣٦م. لقد كان سلفه واسمه شويعر[(٢)] قائداً لقسم من جيش الأمير فيصل، وذلك أثناء الحرب اليمنية عام ١٩٣٤م وقد تم تعيينه بعد ذلك ليكون مسؤولاً عن هذه المنطقة الحدودية المهمَّة، وقد توفي وهو يشغل هذه الوظيفة، مخلفاً زوجته وطفله الصغير. لقد قام محمد بن ماضي في سبيل التخلص من أسرة سلفه هذه وذلك بزواجه من الأرملة وتبني الطفل، وبذلك حل لنفسه مشكلة السكن واستقرَّ في منزل مريح بمجرد وصوله. لقد وجد أن هذه الترتيبات كانت مقنعة جداً كما حافظ على مستوى مائدة ممتاز، والتي كنا نتردد عليها عند كل مواعيد الوجبات الرئيسة اليومية خلال فترة إقامتنا هنا. لقد كان محمد يعامل الطفل الصغير

---

(١) لمزيد من التوضيحات عن تاريخ المخلاف السليماني (منطقة جازان) خلال العصور الإسلامية المختلفة، انظر: العقيلي، **تاريخ المخلاف السليماني**. (جزءان) (ابن جريس).

(٢) شويعر: الاسم الصحيح هو حمد الشويعر، انظر: عبدالرحمن السبيت. **رجال وذكريات مع عبدالعزيز**، ص ١٨١، ١٨٢ (ابن جريس).

وكأنـه ابنه، وكم سـرني إحساسه وقلـقه على سلامة ورفـاهية هذا الطفل، الذي كان جذاباً وفاتنا.

كان كل من محـمد والقاضي كثـيري المساعدة وفائقي اللـطف نحوي ونحو فرقتي، وكـثيراً ما كنت أجد مـحمداً وهو على استعداد بما لـديه من خطط لتنفيذ تجولاتي بينما أصـبحت جازان هي مركز الرئاسـة لي. لم يسمح محمد بالتـأكيد للعشب أن ينمو تحـت قدميه ولم أكن مسـتقراً في جازان - التي جئـتها في ثلاث مناسبـات فقط - مدة أطول تجعلني أملّ البـقاء فيهـا. لقد كنت مقيـماً، في المرة الأولى مثلاً في هذا المكان مدة خمس ليال فقط، حينما كانت كل الترتيبات جاهزة للمرحلة التالية للعمل، وفيما يخص هذا العمل فقد كانت لدى الأمير التوجيهات الكاملة من الرياض. كـما لا توجد مـزايا محددة في مـحمـد بن ماضي، إلاَّ أن فطرته السليـمة في الحكم على الأشيـاء كانت مثيرة للإعـجاب. يبرز هو ومـعه إبراهيم النشمي التابع لنجران في شريط ذكرياتي للطفـهما ولكفاءتهما، ولقد كان كرمهـما خارج إطار اللوم، وكثـيراً ما كنت أعجب لما عليـه ترتيباتهمـا المالية مع الحكومة. إذ إن مرتب الحاكم - حسب ما استطيع من تأكيد له - لمحافظات مهمة مثل أبها ونجران وجازان يصل إلى (١٦٠٠) ريال - (٨٠) جنيهـاً استرلينياً ذهبياً- شهـرياً، والتي عليه منهـا أن يتحمل التكاليف المـالية لحاشـيته التي يتـراوح عدد أفرادها بين (٢٠) و (٣٠) رجـلاً، بينما يتـحصل الرجـال على (٢٠٠) ريال في السنة كمرتب لكل فرد، إلى جانب ما يحرك أسنانهم[1].

---

(١) لمزيد من المعلومات عن رواتب مـوظفي الدولة في جنوبي البلاد السعـودية خلال عصر الملك عـبدالعزيز، انظر: غيـثان بن جريس. **عسير في عصر الملك عبدالعزيز**، ص١٨١ ـ ٢٤،ابن جريس أيضاً «قـراءة في مخصصات مقـاطعة جيزان وملحقاتها من الموازنة العامة للمملكة عام (١٣٦١هـ) في أثناء حكم الملك عبدالعزيز» **دراسة منشورة في مجلة بيادر الصادرة من نادي أبها الأدبي** عدد رمضان (٢٥) (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م) ص ١١٥ ـ ١٣٩، كمـا نشرت هذه الدراسة في كتاب:ـ **دراسات في تاريخ وحضارة جنوبي البلاد السعودية**. (جدة: دار البلاد للطباعة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م) ص ١٦٣ ـ ١٨٦ (ابن جريس).

قمت بزيارة الأشقاء البهكلي وأهله في منزلهم للوداع، وذلك في عصر اليوم السابق لبداية رحلتي إلى فيفا. وقد وجدت من بين المدعوين السيد عبيد الإدريسي. وكانوا قد اجتمعوا لحفل القات. لقد تحدثنا عن زيارة روزيتا فوربز (Rosita Forbes) إلى جازان قادمة من السودان بواسطة الدهو -مركب شراعي- عام ١٩٢٢م، حيث أعدَّت لها مقابلة مع محمد الإدريسي قبل وفاته بأشهر قليلة. ويبدو أن هذه المقابلة قد تمت في الميناء، إذ أنها لم تقم بزيارة أيّ من صبيا أو «أبو عريش». كان هذا هو كل ما تذكره مضيفي على أي حال، وغيره من الذين كانوا يتذكرون سفرها بحراً إلى ميدي. لقد جاء السيد ماكسويل دارلنج (Maxwell Darling) أثناء استكشافاته الخاصة بالجراد، عبر صبيا إلى جازان في مارس ١٩٣٦م، بينما وصل إلى جازان عبر صبيا أيضاً مهندسان تابعان لشركة الزيت العراقية، وهما السيد بايك (Pike) والسيد والفورد (Walford)، وهما في طريقهما إلى جزر فرسان وكان ذلك أثناء زيارتي لهذه الأجزاء، وذلك لقيامهما بدراسة لكل الطريق على محور البوصلة دون أن يتأكدا من صحة أسماء الأماكن في البلاد التي قد قاموا بمسحها. لم يتغلغل أي رحالة أوروبي إلى أعماق تهامة عسير مطلقاً قبل نهاية الحرب العظمى. وكما لوحظ مما قد ورد أعلاه، فإن الزوار الأوروبيين للمنطقة لم يكونوا كثيري العدد خلال فترة الجيل الماضي، غير أن إنشاء طرق السيارات وحركة مناشط مهندسي المعادن[١] قد يتوقع منها أن تجعل هذه المناطق النائية للجزيرة العربية معروفة أكثر مع مرور الأيام[٢]. ومن المناسب الإشارة إلى زيارة كانت قد تمت إلى جازان قبل قرن من الزمان من وقتنا هذا.

---

(١) قام بزيارة المنطقة العديد من الخبراء الأوروبيين والأمريكيين في ذلك الوقت. (المؤلف).

(٢) وهذا فعلاً ما حصل، فلقد أصبحت جازان وغيرها من أجزاء جنوب المملكة العربية السعودية معروفة وهامة، لما تمتاز به من غطاء نباتي جيد، وما يتوفر فيها من موارد زراعية واقتصادية أخرى، بالإضافة إلى أنها صارت من أكثر أجزاء المملكة العربية السعودية تأهيلاً بالسكان. (ابن جريس).

لقد وصل إلى جازان -عن طريق البحر- في الرابع من مارس (١٨٣٥م) فرنسيان هما إي. كومبس (E.Combes) (وم. تاميزيه) (M.Tamisier) إلى محافظة أبو عريش الصغيرة[١]. لقد انخفض حجم التجارة، التي كانت ذات اعتبار كبير، منذ أن أسس محمد علي باشا نظام احتكار السلع على كل المنتجات العربية، خاصة السنا والبن. لقد احتلت البلدة برغم صغرها، مساحة كبيرة تغطيها مبانيها المبعثرة. يوجد في الناحية الجنوبية حصن مهيب تحيط به مبان عديدة مدمرة. وكانت المساكن في هذا الوقت من عشش مستديرة ذات أسقف هرمية وغطاء طيني كثيف من الداخل، وكانت مؤثثة فقط بالأسرة والفخار المنزلي. ويحيط بكل مجموعة من العشش سور من الأعواد الخشبية مكونة عالماً بحاله.

لقد كان حال نساء البدو اللاتي يقمن بزيارة جازان مختلفاً كثيراً عن أولئك اللاتي كنا قد عرفناهن في أماكن أخرى، فالنساء هنا غير محجبات ويرتدين أسماقاً زرقاء وقبعات من القش على رؤسهن. وكانت نسوة البلدة أيضاً غير محجبات، وكن يرتدين أزياء كتلك التي ترتديها النساء في القنفذة، وكان القليل منهن يضعن قميصاً إضافة إلى القماش الطويل والعباءة والقناع كما هو الحال في تلك المنطقة. وكن يقمن بتصفيف شعورهن إلى أربع خصلات رشيقة تصل إلى الكتف، ويضعن أكاليل الأزهار والأعشاب العطرية على جباههن. كان الرجال يرتدون أغطية رأس صوفية ويصففون شعورهم بعناية كبيرة وبالكثير من الدهن. كان السوق المحلي مكوناً من متاجر شحيحة البضائع تقوم ببيع الدجاج بأسعار

(١) لا ندري ما هو السبب في إطلاق فيلبي اسم (الصغيرة) على محافظة أبو عريش. فهي من المدن الرئيسة في منطقة جازان، وتبعد عن مدينة جازان ناحية الجنوب بحوالي (٣٠) كم، وكانت المقر الرئيس لحكومة الشريف حمود بن محمد أبو مسمار التي ظهرت في أوائل القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي). للمزيدا انظر: العقيلي، **تاريخ المخلاف السليماني**، جـ٢، ص ٤٤٧ وما بعدها. (ابن جريس).

منخفضة جداً وأحياناً تقوم ببيع الفاكـهة والسمك. وكانت الحدود الحجازية اليمنية في هذا الوقت عند رأس حلي.

كما لوحظ أن الأمطار الموسمية في اليـمن تسقط في الفترة من منتصف يونيو وحتى نهاية سـبتمبر. وكان هنالك ندى كـثير خاصة على الساحل. كـما اشتمل إنتاج اليمن على الدخن والشعير والبن والتبغ والمر والبخور... إلخ. كانت حمير اليمن كـبيرة الحجم وقويـة، وكانت الحيوانات المفـترسة نادرة، وحيوانـات الصيد متـوافرة. كـانت هنالك معـادن للحديد والملح الصـخري، والكبـريت، والرخام السماق. وكان الخشـب شحيحاً[١] وأما بعر الإبل فيسـتخدم وقوداً للنار[٢]. لقد أمضى المسافران الفرنسيان سـاعات قليلة في جازان، ثم واصلا رحلتهما إلى بندر اللحية اليمنية التي تقع شمال الحديدة.

---

(١) الخشب ربما كان شحيحاً في الأجزاء الساحلية من جنـوبي الجزيرة العربية، أما الأجزاء المرتفعة، والممتدة من الطائف حتى صنعاء فإنها من أغنى أجزاء الجزيرة العربية بالأشجار والنباتات المختلفة. (ابن جريس).

(٢) استخدام بعـر الإبل في الوقود عادة عرفت عند سكان الجزيرة العربيـة منذ القدم، وهذا الأمر يحدث إذا لم تتوفر الأخـشاب الصالحة للوقـود، وهي عادة غالباً مـا تكون عند أهل البوادي أكثر من أهـل تهامة، وذلك لتوفر الإبل عندهم بأعداد كثيرة بعكس السهول والسواحل البحرية. (ابن جريس).



الفصل

السابع والعشرون

جبال تهامة



الفصل السابع والعشرون

جبال تهامة[1]

لقد استعدت صحتي بخلودي للراحة، وبتناول الغذاء الجيد وبالاستحمام في البحر في جازان، وذهب عني إرهاق رحلة رمضان الطويلة، وأستعد الآن لمغامرات أكثر. لقد أخذت حمامي المعتاد عند نهاية الرصيف صباح اليوم التاسع عشر من ديسمبر، وذهبنا جميعاً لتناول وجبة الفطور في منزل الحاكم، وقد بدأت بألذ أنواع الكيك، الذي قامت بصنعه مضيفتنا. ثم طلبنا الإذن بالسماح لنا بالمغادرة من كل من محمد بن ماضي ومن الموظفين الآخرين الذين كانوا قد دعوا معنا للفطور، وعدنا لنضع اللمسات الأخيرة للاستعداد للمغادرة إلى فيفاء. وضع الأمير سيارة وشاحنة تحت تصرفنا للمرحلة الأولى من الرحلة حتى السفوح التلية إلى قرية العَيْدَابي، حيث تمت الترتيبات هناك بتجهيز الحمير والجمال لبقية الرحلة. لقد تجاوز الوقت الظهيرة حينما انتهينا من فرز العفش الذي سيصحبنا من ذلك الذي سنتركه خلفنا.

تتبعنا الطريق الرئيس حتى صبيا، وكنا نأخذ الأمور على علاتها، ونتوقف مراراً لمراجعة اتجاهات البوصلة السابقة، ولذلك فقد استغرق وصولنا إلى منزل ابن غنيم ساعتين كاملتين، حيث كنا قد تلكأنا في شرب القهوة والشاي مدة نصف ساعة قبل أن نواصل السير. وواصلنا سيرنا على طريق الحسينية حتى مسجد الخواجية فيما يلي مفترق صبيا الجديدة - بيت السيد، ثم استدرنا مباشرة على

(١) لمزيد من الإيضاح عن مرتفعات تهامة التابعة لمنطقة جازان انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢، ١٧٧ ـــ ١٨٥ . (ابن جريس).

طريق السيارات إلى اليمين وهو يمتد فوق صحراء عارية إلاَّ من عشب الثمام ناحية النهاية الشمالية لقرية الحسيني، وهي مجموعة معتبرة من عشش على هيئة خلايا النحل وتغطي مساحة ميل مربع. ثم انحدرنا تدريجياً فيما يلي هذه إلى أرض صعبة ناحية الضفة اليمنى لوادي صبيا، وتتبعناه من خلال الأشجار الكثيفة من الطلح والعلب والأراك والطرفاد، وغيرها من الغطاء النباتي البري لنمر بجوار مستوطنة خمين الصغيرة المبنية من القش. كان هناك الكثير من مزارع الدخن على جانبي المجرى الكثيف الأشجار، والذي بدا لنا أحياناً كأنه غابة وليس مسيلاً للوادي. كان علينا أن نبتعد ما استطعنا عن مسلكه لنتحاشى تلك المعوقات ووصلنا دون تأخير كثير إلى قرية الجخيرة التي انتثرت عششها بين أجمة أشجار الدوم المتعرجة، وقد رأيت كتلاً من أعواد الدُّخن مكدَّسة في وسطها.

واتصلت حافة حقل الحمم البركانية لعكوة مع حافة القرية عبر الأزمان، على شكل جلمود ارتفاعه (٢٠) قدماً يمتد من الشرق إلى الغرب، وقد تراكم الكثير من الطمي بينها وبين الضفة اليمنى للوادي، الذي يبعد مسافة (١٠٠٠) ياردة، وشقَّ طريقنا سيره فوق هذا حتى وصلنا إلى المجرى مرة أخرى عند الموقع الذي يلتف فيه الجلمود البركاني ليكون ضفته اليمنى، على ارتفاع (٣٠) قدماً ويكسوه شريط كثيف من أشجار الأراك والطلح، ينحني الجلمود سريعاً ناحية الشمال ماراً بقرية صغيرة تسمى جرّ مسعود في وسط الكثير من الروابي الطينية التي يكسوها الغطاء النباتي النموذجي. كان الطريق في أحد أجزائه تالفاً بسبب الأمطار والسيول، للدرجة التي اضطرتنا للتوقف لإصلاحه قبل مواصلة السير.

تعرف هذه الأرض التي يكسوها الطمي والروابي الصغيرة والغابات باسم **الحَروجَه**. وقد كان سطحه رملياً غير أن السير فيه كان صعباً فوق ممرات ضيقة بين

الروابي الصغيرة، بينما انتشرت حقول الدخن والسمسم في المنطقة مما زاد من هذه الموانع في طريق تقدمنا. وصلنا نهاية الأمر إلى موقع ملتقى مجاري سيل يسمى المجمع غالباً، وقد سمي بذلك لأنه تجتمع فيه أودية صبيا ودامس وقصي وتكوِّن مجرىً واحداً. ويتصل في هذه البقعة وادي قِصِي، الذي يأتي من ناحية الشمال الشرقي مع وادي صبيا، الذي يقبل من ناحية الشمال ماراً بقرية أم الغلف الصغيرة التي تقع على بعد (٥٠٠) ياردة، تجاه أعلى الوادي. ثم صعدنا في جهد إلى أعلى البطن الحصوي لوادي قصي بعد أن عبرنا موقع اللقاء، ثم خرجنا منه إلى ضفته اليمنى لنشق طريقنا من خلال أرض شجرية تكسوها أجمات الأراك، وتعترضها حقول متفرقة، ذات مدرجات وسدود للدخن. بدأ الطريق يدور الآن فوق سهل حصوي متموج بين مجريين، وأهم ما يميزه هو وجود مقبرة واسعة ذات قبور محاطة بالحجارة المنخفضة، التي يبدو أنها تخدم القرى الصغيرة التي قد ورد ذكرها إلى جانب قرية أخرى تقع أعلىَ وادي صبيا على ضفته اليمنى، واسمها (سَمْرَة). بدا سطح الأرض يرتفع تدريجياً الآن، وكان السير فوقه أصعب بكثير مما سبق فوق الحصى، وقد غطت أشجار الطلح والبشام والصبار – من نوع السيسال – الأرض، دون الحديث عن الحشائش التي تنمو في كتل بين كتل الطمى والرمل. ألقينا نظرة من هذه الأرض المرتفعة على الشرائط الكثيفة للأشجار والشجيرات التي تعلّم مجرى واديين على كل جانب وتفصلهما مسافة ميل واحد.

بدأت أسطح البلاد تتفكك تدريجياً ونحن نقترب من أطراف السفوح التلية التي يمكن رؤيتها أمامنا وهي تطوق خط تقدمنا على اليمين. لقد كانت البلاد أرضاً عارية متموجة، ذات غابة شحيحة الأشجار وقد تشققت بالعديد من خطوط الصرف التي تسمى في جملتها رقبة مسيحلة، وقد انتشرت فوقها أعداد كبيرة من

أشجار نخيل البَلْميط[١]. ثم يبرز بعد قليل لسان بازلتي على امتداد سلسلة طولها ميل واحـد، تسمى تلعة تُربة من الـسفوح التليـة إلى مسارنا ثم اتجـه إلى السهل المتموج الذي كان قد تخـطط بشرائط منخفضة من البازلت في موجات مـتعاقبة. كان أول سلسلة السفوح التلية الخارجيـة التي علينا صعودها غير معروف، ويغلب على الظن أنه (جبل المشاف)[٢] الذي كانت قمـته المنخفضـة حوالي (٦٠٠) قدم فوق سطح البـحر. يقع وادي قسي الآن بعيـداً عن طريقنا، وهو الوادي الذي في وسط التموجات البازلتية التي تقع أمامنا، قد عبره مجرى لحجة عَضَد الذي ينحدر ليتـصل به مرة أخرى بعـد عدة أميـال ناحية الجنوب الشـرقي. لم نعد نرى وادي صبيـا الذي دخل السفوح التـالية إلى الخلف منا. ويقع منبعـه -فيما يُعتـقد- في مكان ما على جانبي جبل الريث.

بدأنا نمر بقطعان الضأن على ضفة لحجة عضد الكثيف الأشجار، الذي تتبعناه إلى بعض المسافة، وكـان هذا بشيراً لنا بأن المناطق المأهولة ليست ببعـيدة عنا وقد تأخر الوقت كثيراً. لاحظت أن العديد من أشجار الطلح هنا مصابة بنموات غزيرة لنبـات الهدال الطفـيلي. ثم وصلنا سـريعاً إلى مـزارع العَيْـدابي وحقـول الدخن الصغيـرة، وقد تلاحقت فيـها المدرجات جزئيـاً عند السفوح السفلى وجـزئياً في أحواض صغيـرة عند القاعدة. وتتكون القرية نفسـها التي ترتفع إلى (٩٠٠) قدم فوق سطح البحر وهو -تقريباً- نفس مستـوى ارتفاع الحَقو، من ثلاث مجموعات منفصلة من أعشاش مصنوعة من الأعواد، وقـد استقر بنا المقام بجوار واحدة منها - كانت تتكون من ثماني عشش صغيرة مـحاطة بسور من أعواد ومن عشة واحدة منفردة تقع إلى خارج الـسـور - لقضاء الليل. ويسكن القرية الصغيـرة جماعة آل

(١) نوع من النخل قصير مروحي السعف، وهذا النوع من الأشجار تتوافر بكثرة في السهول التهامية الواقعة بين سفوح جبال السروات الغربية وبين ساحل البحر. (ابن جريس).

(٢) جبل المشاف: هو الاسم الصحيح وليس (المشاث) كما أورد فيلبي. (ابن جريس).

بلغازي، وهم قسم من خولان، الذين يسكنون كذلك قرية الحناية الأكبر حجماً والتي تقع على مسافة منا ويبدو أنهم يرتبطون بقرابة مع اليَهانية (خولان)[١] قسم من فيفاء. وتحتل المستوطنات المبعثرة في العَيْدابي -والتي يبدو أن هذه القرية كانت أكبرها- حوضاً ضحلاً يفصل أرض الحباطة البازلتية المرتفعة التي كنا نعبرها من عند تلعة تربة إلى الأمام عن السفوح التلية الفعلية التي تبدو وكأنها من الشست.

كان اسم الرجل العجوز الذي أشرف على إرشادنا من صبيا هو عبدالله خبَّاش من الجخيرة. لم تكن معرفته بالبلاد واسعة، غير أنه يغطي هذا النقص الخطير. كان قد أحضر لي قطعة من صخر أسود وذكر أنه يوجد في جيوب صغيرة بين سلسلة الحباطَة ويطلق عليه محلياً اسم (كُحْل)[٢] ويستخدم في تجميل العيون. لقد بدا لي هذا الصخر الأسود وكأنه الماغنيزيوم. لقد كان رئيس بلغازي المحلي - أو عسكر جندي كما يحلو له أن يسمي نفسه ويدعى يزيد، ولقد استرقت السمع إليه وهو يلقن عبدالله أسماء العلامات الأرضية المختلفة لينقلها هذا بدوره إليَّ، ومنها اتخذت قراري بأن أتحصل على المعلومات مباشرة من فم الحصان كما يقولون. ولقد استغنيت عن خدمات عبدالله مقابل ريال واحد لأتعابه أعيد إلى أهله مع السيارات التي عادت، بينما وافق يزيد في تطلع على أن يحل مكانه. ثم قمت بإرسال ابن هذيل لشراء بطارية جديدة لجهاز الراديو الذي لسبب ما - ربما الارتجاج الشديد أثناء السفر- رفض أن يؤدي وظيفته حينما وصلنا إلى

(١) لمزيد من التفصيلات عن هذه القبائل ومواطنها انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ . (ابن جريس).

(٢) هذا النوع من الكحل كان يستخدمه كثير من الناس في أجزاء عديدة من الجزيرة العربية وحتى أواخر القرن الرابع عشر الهجري، وربما بعض كبار السن في البوادي والأرياف لا زالوا يستخدمونه إلى اليوم. (ابن جريس).

المعسكر. لقد كان هذا أمراً خطيراً، إذ أنه في غياب الدقة في معرفة الوقت فإن المرء لا يستطيع أن يعمل في تثبيت المواقع، وقد كنت أرغب في تثبيت موقع فيفاء بدقة شديدة، وذلك لأن فيفاء علامة أرضية مهمة جداً. لقد كان عليّ أن أستفيد من الظروف السيئة هذه، حتى لو تمكن ابن هذيل من العثور على البطارية في جازان، فهو لن يصل إليّ إلاّ بعد عدة أيام.

صحوت على صوت عويل مرتفع ينبعث من ناحية المعسكر المجاور لنا، وذلك في الصباح الباكر، حينما كانت الشمس تحاول الظهور من فوق كتف القمة البعيدة لجبل العُرّ، ناحية الجنوب الشرقي. وقد أوضحت الاستفسارات أن امرأة متقدمة في السن جداً قد ماتت، وتواصل النواح لساعة كاملة، ويبدو أن الموضوع ما هو الا استعراض لولولة منظمة لا يصاحبها إحساس. كنا - مع ذلك - بعد قليل على الدرب مرة أخرى تاركين القرية لجنازتها، ولم يبد يزيد أيّ رغبة - لحسن الحظ - ليبقى من أجل التشييع.

بدأ مجرى عَضَد كأنه مسيل صغير، ينحدر من انطواء في السفوح التلية الخارجية، وسرعان ما وصلنا إلى وادي قصي مرة أخرى، بعد مغادرتنا للمعسكر، والذي تتبعنا ضفته اليمنى في اتجاه الشمال الشرقي بين كثافة الغطاء النباتي السفحي من نوع صبار الشيمة ذي الأشواك والأزهار الصفراء، وكذلك شجرة العَدَن الغريبة الشكل ذات الأزهار الوردية، وهي مصدر للبخور، وتنمو إلى ارتفاع (٦) إلى (١٢) قدماً ويضيق ساقها إلى أعلى عند قاعدة منتفخة درنية. ويجري غيل عنيف في الوادي نفسه فوق بطن حصوية، ويستمر لمسافة إلى حيث قرية صغيرة تسمى الحمى، تقع عند حافة أرض الحباطة المرتفعة. تتبع هذه المستوطنة قوم عبس (قحطان)، الذين يرتبطون بصلة قرابة مع أهالي الحقو. لقد

كانت غابات قصي مملوءة بالطيور من بينها العجلة، وتسمى هنا أبو معول، وفي كثافة، كما كانت في وفرة كذلك طيور القنبرة طويلة الذيل والتُّمَيْر الأسود، كما لاحظت بعض طيور أبو مطرقة وهي بجوار الماء، وشاهدت أحد أعشاشها الضخمة على إحدى الأشجار[١]. يقول يزيد إن وادي قصي ما هو إلا استمرار لوادي الجَوّة[٢]، الذي ينبع من الجرف الذي شاهدته عند ممر عَلبين[٣].

نحن الآن داخل منطقة السفوح التلية، وسرعان ما عبرنا قصي وغديره المرتفع الذي يبلغ عرضه (٢٠) ياردة وينحدر ماؤه فوق الجدول الحصوي، متجهاً إلى حقول قرية أم الرماد، وهي مستوطنة أخرى تتبع بلغازي. ويقع قسم آخر من القرية الصغيرة إلى يسارنا وبه مسيل عميق نسبياً ترتفع ضفتاه إلى ١٠٠ قدم، ويفصلهما الشست الذي من فوقه يقع طريقنا الذي أخذ يرتفع تدريجياً إلى حيث مضيق في سلسلة منخفضة في بلاد عارية وجافة. ثم تركنا وادي قصي الآن من خلفنا، وتواجهنا سلسلة من جبال وهضاب تقع على مسارنا الشرقي ناحية وادي عَيْبانَ. كما يوجد عدد من القرى المتفرقة فوق قمم السلاسل، كان من بينها كَدَرَة عافية وهي على بعد (٣) أميال، وغلفة، وهي مستوطنة كبيرة، إلى البعيد وتقع على يميننا وتطل على مجرى عيبان. كنا قد أرسلنا مسبقاً الجمال والعفش في صحبة سعد للسعي الجاد، للوصول إلى موقع لنهاية الرحلة حيث سنقضي الليلة،

(١) هذه المناطق التي يتحدث عنها فيلبي في هذه السطور الوسط بين سهول تهامة وسفوح جبال السروات الغربية؛ ولهذا فهي تجمع صفات البيئتين من حيث تنوع الأشجار وتنوع الطيور المختلفة في ألوانها وأحجامها. (ابن جريس).

(٢) أعالي وادي الجوة يتبع لقبائل قحطان في بلاد السراة، وتخترق هذا الوادي طريق متوسطة الصعوبة تسلكه السيارات من السراة إلى أراضي تهامة. (ابن جريس).

(٣) ممر علبين أحد المنافذ بين السعودية واليمن في بلدة ظهران الجنوب لقبائل وادعة. (ابن جريس).

غير أن قافلة حميرنا قد رسمت لوحة جميلة وهي تنطلق في طريقها من فوق ومن بين سلاسل السفوح التلية المنخفضة. يشير تركيب هذه الأرض إلى تجمع كبير من القباب الكبيرة ذات الأحجام المختلفة مجتمعة معاً في شيء من الفوضى وتفصلها عن بعضها البعض سلسلة مسايل تنحدر إلى وادي عيبان. يسمى واحد من هذه باسم شعيب معروك وبه بعض الزراعة التابعة للحناية على ضفتَيه، بينما ألقينا نظرة من قمة السلسلة إلى ما يليها حيث شبكة وادي عيبان الذي تصب كلها فيه.

يمكن رؤية ما يقارب نصف دستة من القرى، على مساحة يبلغ نصف قطرها ميلين، وهي تقع على رؤوس السلاسل والهضاب، فوق السفوح الجبلية ونحن نطيل النظر إلى الخلفية الرائعة للجبال الكبيرة، وقد بدت قريبة منا وشامخة من فوقنا، وعندما كانت تعبر السماء سحب متقطعة. تقع قرية غلفة ناحية الجنوب أسفل كتلة صخرية هرمية الشكل ومعها كدرة عافية. لقد تعرجت أكبر هذه القرى من أمامنا ناحية الجنوب الشرقي، على حافة منحدر للشاطئ البعيد لعيبان، وتسمى الحناية، وتقع قرية خطوة الحجوة الصغيرة بينها وبين معتقة وهي مستوطنة مهجورة على قمة تل هرمي صغير. وتقع قريتان صغيرتان إلى ناحية الشمال الشرقي، وهما الحرف وثاهر الغدير من فوق سلسلة تبعد حوالي ثلاثة أميال إلى الخلف منا، وتقع شهران على سلسلة أخرى مع بعض المدرجات المعدة للإمساك بمياه الأمطار، التي تزرع عليها المحاصيل. لقد كانت معظم مساكنهم أكواخ من الحجارة مع بعض العشش المصنوعة من الأعواد وتكون مبعثرة فيما بينها. ويقع سوق هذه الأرض السطحية التلية في عيبان ويسمى سوق عيبان أو سوق الخميس والذي - للغرابة- لا يقع في وادي عيبان ولكن يوجد أسفل كتلة فيفاء في وادي جوراء. ويتصل وادي عيبان، مع المجرى الكبير فيما يلي حافة السفوح التلية إلى

أعلى موقع التقائه مع وادي ضمد، الذي كما قد رأينا يجري إلى البحر قليلاً إلى الشمال من جازان. ولا يرتفع عيبان إلى أكثر من سلسلة الحرف، بضفافه العميقة وأشجاره الكثيفة ومجراه الذي يبلغ عرضه (٣٠) ياردة. ثم هبطنا مجراه، وبعد أن وصلنا إليه عبر مسيل ضحل شجري، حيث توجد بئر واسعة الفم مبنية تقع على الضفة اليسرى واسمها الغاوية ثم صعدنا مرة أخرى إلى الحناية.

لقد أكرم الشيخ المحلي وفادتنا هنا، وكان اسمه مفرح أم جرو، ويزعم أنه الشيخ الأساسي لقبيلة بني الغازي، والتي تعادلها في الأهمية يَهَانِية فيفاء، وبني حرَيص، وبني مالك، وأقسام أخرى ترجع من خولان. لقد وفرنا تَزوّدنا بالبن مقابل وجبة الطعام -وهذه بضائع نادرة في القرى الفقيرة- وذلك في داخل خيمة من القضبان التي يبدو أنها كانت مركزاً اجتماعياً، وكانت باردة ممتعة. ويطلقون على المدرجات الزراعية هنا لفظ دموم (وجمعها دمامين)، ويتم بناؤها على مجاري مسايل صرف صغيرة كانت قد تكونت بواسطة انطواءات التلال[1]، وكثيراً ما تكون منظرية، بأكواخها الحجرية المدورة المنعزلة أو التي قد تتجمع من اثنتين أو ثلاث لسكن مراقبي المحصول.

كان الجو حاراً عند الظهيرة، وقد واصلنا -وفي مشقة- صعودنا إلى التل وهبوطنا حتى وصلنا إلى طريق مستو وعريض يقود إلى أسفل، إلى وادي جوراء عند معتقة التي تبعد عنا الآن مسافة نصف ميل ناحية اليسار، والتي كانت أطلالها

---

(١) هذه الأجزاء الواقعة عند سفوح جبال السروات الغربية توجد بها الأراضي الزراعية الكثيرة التي تكثر فيها المدرجات الزراعية المبنية بالحجارة كما عند أهالي السروات الممتدة بلادهم من صنعاء حتى بلاد الطائف. وفائدة هذه المدرجات أنها تحفظ تربة المزارع من الانجراف، كما أنها تفصل المزارع بعضها عن بعض فتصبح كل مزرعة معروفة بحدودها ومعالمها الأرضية. (ابن جريس).

عبارة عن مركز حربي قديم لـلإدريسي. كانت الضفة اليمنى لجوراء في هذا الموقع منحدرة باعتـدال إلى جرف ارتفاعه (١٥٠) قدمـاً، وبه ممر يقود إلى أسفل الوادي العريض، والذي في بطنه يجري غدير ذو اعتبار تحفه ضفاف معشبة منحدرة ناحية كتل الآجمات. لـقد وصلت جمالنا مؤخراً لهـذا المكان على الرغم من أنها كانت قد سارت قبلنا بفترة طويلة، وأننا قد تباطأنا في الطريق. لقد قررت أن نتوقف في هذا الموقع اللطيف، لنهيئ للجمال فترة راحة لبداية تالية للسفر، وكان معنا مفرح الذي رافقنا من الحناية. لقد كان مفرح هذا رجلاً مُرْهَقاً ويبدو عليه المرض، ولربما كان ضـحيـة لمرض السل، على الرغم من أنه يعزي حـالته الصـحيـة إلى الحُمَّى الواسعة الانتشار في هذه القرى، التي تعتـمد على مياه الغيل الجارية في أوديتهم. بدا مجرى جوراء وكأنه ذو امـتداد كبير، وقد احتلَّ كل المساحـة التي حللنا فيها. لقد انتهزت هذه الفرصة المناسبة واغتسلت جيداً في مياهه الباردة المنعشة، ثم أدينا صلاة الظهر فوق أرض معشبة خضراء على حافة الغدير.

كانت السـاعة الرابعـة مساءً حـينما امـتطينا حمـيرنا، وواصلنا سـيرنا أعلى الوادي، وقد انحدرت السفوح العظيمة لكتـلة فيفاء إلى أسفل المجرى على جانبنا الأيمن. أينمـا نظر المرء فإنه يجـد آثار الناس ومساكـنهم، التي بدت وكأنهـا قلاع صغيـرة أكثر منها منازل، وعادة مـا تكون منتصبة منفـردة على بعض الهضاب أو القمم العـالية، وأحياناً أخرى تكون فـي مجموعات صـغيرة حين يسمح مـستوى الأرض بذلك. لم أر مثل هذا المشهد من قبل. إن فيفاء مدينة جبلية، وقد انتشرت مساكنها فوق مـساحة واسعة في كل موقع ملائم، بينما مُلئت الفـراغات المعترضة بحقول ذات مدرجات، المدرج تلو المدرج من القاعدة إلى القمة. ويُعْتَقد محلياً أنه يوجد في فيـفاء حوالي (٦٠٠٠) مسكن من هـذا القبيل، وأعتقـد أن هذا تقدير

صحيح وأن عـدد سكانها يبلغ (٢٥٠٠٠) نسمة. لقـد كنا على ارتفاع (١٢٠٠) قدم فوق سطح البحـر عند مياه غيل جورا، ويرتفع سوق عـيبان بحوالي (٢٥٠) قدماً فوق ذلك، بينما تقع قمة فيفاء على ارتفاع (٥٧٠٠) قدم فوق سطح البحر. ويقدر طول محـورها الرئيس من ناحية الشمال الشـرقي إلى الجنوب الغربي، من نهري جوراء وضمد بحوالي خمسة أميال ويصل أعرض موقع له إلى ثلاثة أميال. ويقدر أن نصف المساحة الإجمالية للمنطقة تشغله مساكن أو مدرجات زراعية[١].

لقد كنا نسـير أحياناً في الوادي، وأحيـاناً أخرى عبر الألسنة البـارزة لقاعدة فيفاء، ثم مـررنا بحافة جلمود سلسلة معتقة علـى اليسار والتي من عندها ينحدر المجرى إلى الخلف داخل منعطف حاد بين ضفتين مـرتفعتين. ثم مررنا بقرية المَرْمَا الصغيرة بعد ذلك، وتقع فوق نتوء على الضـفة اليسرى، وبحقول ذات مدرجات وبقصر جيـد البناء وببعض الحصون التي تحرس نهاية فيـفاء. ظل النهر الجاري في رفقتنا كمـا وقفت بعض المنازل لقرية خطوة على ضفته اليـمنى قليلاً إلى الأمام، بينما تقع قـريتا سرأم القـرع على الضفاف المقـابلة فيمـا يليه. لقد كـانت معظم حقولها إلى الأسفل وداخل المجرى، إلاَّ أن القريتين نفسيهما تقومان فوق سلاسل تطل عليه -ربما لتـحاشي مرض الحُـمّى (سَدَمْ) المنتشر في هذه الأودية ذات مـياه الغيل. وكانت هنالك امـرأة تقوم بسحب الماء من بركة نحتـتها من داخل الرمل، وبعيـداً عن الوادي وذلك لأغراضهـا المنزلية، وكنت قد توقـفت لأشرب من الماء الذي احتـفظت به في القَرْع[٢] التي كانت تسـتخدمـها لملء القـربة الجلدية، لقد

---

(١) للمزيد عن تاريخ وجغرافية بلاد فيفاء، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، حـ٢، ص ١٨٠ ـ ١٨٥ . (ابن جريس).

(٢) تسمى هذه الأداة محلياً بـ (الشقِفَة) وتصنع من القَرْع واليقطين بعد تجفيفه وتجويفه. (المراجعون).

ناولتها ريالاً مقابل كرمها هذا، ثـم واصلتُ سيري لأصل سريعاً إلى حقول سوق عـيـان -وهي أحواض ذات حـواجز بنيت من طمى الوادي، وبهـا حقـول ذات جدران حجـرية متسلقة فوق السفـوح على الضفة اليمنى، ومن خلفهـا على هيئة المدرجات. لقد كانت قرية كئيبة ذات منازل وحيدة الطابق، ومبنية من الحجر فوق مسطبة مـسطحة ترتفع إلى حوالي (٣٠) قدمـاً فوق وادي جوراء عند الزاوية التي تكوِّنها ضفتها مع الضفة اليمنى لمسيل شعيب القات، الذي يهبط من سلسلة خَدُور المجاورة، والتي من ورائها ارتفعت سلسلة مَصِيْدَةُ ذات القمم الثلاث وكتلة صُماد المنعزلة. كانت أكواخ سوق عيبان منتـشرة في مجموعات صغيرة من (٤) أو (٥)، وكانت كلهـا مسـتديرة الشكل وكان السـقف فيـها مسطحـاً ومن اللبن ومدعـماً بالأعمدة. ويشـتمل السوق على ساحة صغـيرة مكشوفة تقع بين القرية الصـغيرة وسفح التل، وهو مؤثث بصفيَّن طويلين للأكشاك وتفصلهما حواجز من الحجارة، وكانت كلها ذات سـقف من القش المدعم بأغصان العلب والبشـام العطري. كما كانت جوانب التل مغطاة في كثافة بشجرة تسمى المظ ثمارها عنبية.

ينحدر مسـيل بَيْضَان الذي يجري مقـابل القرية من سفح فيـفاء، ليصب في جوراء داخل دلتا واسعة كثيفة الشجيـرات، وقد تم إعداد معظم مساحتها للزراعة وجهزت بالمدرجـات، كما انحدر العديد من المسـايل الأخرى إلى هذا الموقع الذي ينتهي على مساحة نصف ميل أعلى القـرية داخل منحنى حاد ناحية اليمين وحول صخرة بارزة. لقـد حجب ضباب خفيف من ناحـية الجبال قمم فيـفاء عن مجال الرؤيا، غـير أنه يبـدو أن كل بقعـة في كل مكان صـعوداً إلى أعلى قـد شغلهـا مسكن. لقد كان الوادي إلى أسفل هادئاً وساكناً ورطباً وموحلاً، ذلك لأننا كنا قد انحبـسنا كلية بين السلاسل على الضـفة اليمنى والجوانب العـالية لفيفـاء. وكانت أدنى درجة حـرارة ليلاً هي (٦٣) درجـة، غير أن درجـة الحرارة في الليلة التـالية

بلغت (٦٨) درجة، ولقد كان علينا قضاء اليوم التالي كله هنا وذلك بسبب عدم وصول فريق الحمالين من فيفاء لنقل عفشنا.

لم يكن زوار سوق عيبان مثيرين للاهتمام، غير أننا ابتعنا منهم جَدْياً للعشاء، وعدداً من الدجاج (خمسُ دجاجاتٍ بريال واحد) لعشاء الليلة التالية. وكان يزيد الذي رافقنا من العيدابي، قلقاً يفكر في الذهاب إلى وطنه، لحضور مأتم المرأة العجوز، التي كانت قد توفيت في ذلك الصباح ولاستقبال التعازي من الزوّار المتوقَّعين. لم ينتظر يزيد لتناول العشاء معنا وذهب بمبلغ الريالين بدلاً من الريال الواحد الذي كان يتوقعه. تناول طعام الغداء معنا كل من مفرح والرجل الآخر، الذي أقبل من قرية الحناية، ولم يكن أي منهما مفيداً لنا، وقبل أن يستأذنا، فقد أخذ كل منهما ريالاً مقابل خدمات اليوم. كما وجدت ولدهشتي وسروري أن جهاز الراديو استعاد عافيته دون أن أحسب لذلك أي حساب، بعد ما كان عليه في الليلة السابقة، وبدا الاستقبال بصورة طبيعية.

تمكنت من استقبال أخبار العالم كالعادة، أثناء قيامي بتحزيم وإلصاق الرقع على ما تحصلت عليه اليوم من عينات، والتي تضمنت أول عينة من طائر الفردوس، صائد الذباب الذي كان الذكَر منه ذا ذيل طويل جداً، وطائر الصرد الذي لم أشاهده من قبل. كما تحصلت أثناء النهار على طائر الحجل الصخري العربي العادي، وعلى طيور أخرى عديدة. كما قمت بجمع كمية وافرة من المجموعة النباتية الغنية، والتي- ومن الغريب جداً - بدا أن الناس في هذه الأنحاء يعجبون ليس باستخداماتها العملية، أو الرعوية أو الطبية، وإنما بتأثيرها الزخرفي. لقد رأيت العديد من الرجال أثناء النهار، وهم يضعون أكاليل أعشاب عطرية خضراء على رؤوسهم أو ينسجونها في شعورهم، بينما يرتدي آخرون قبعات

مهيبة من سعف النخيل مع ريش طيور كبيرة قاتمة[١]. وكان ذلك هو عامل الأناقة الذي ينعدم في ساكني الصحراء. يعد وادي جوراء من سوق عيبان حتى قرية بَيْضَان إلى أعلى قليلاً وفي مقابل الوادي محدداً الحدود الجنوبية لبلغازي. ويبدو أن حدودهم شمالاً كانت عند وادي قصي وسلسلة مصيدة، والتي من عندها إلى سوق عيبان تمتد الحدود الشرقية[٢].

في الصباح كانت هناك طبقات كثيفة من السحب تغطي فيفاء، امتدت إلى حوالي (١٠٠٠) قدم من الوادي، وقد اهتزت حواسي بفعل صوت مزمار راعٍ يعزف لحناً رقيقاً من جانب الجبل، كنا نتوقع وصول فريق الحمالين عند الفجر ولم ننتبه للحقيقة المهمَّة أن اليوم كان يوم الاثنين، وهو يوم السوق في فيفاء نفسها. لم يحضروا على أي حال، ولما كان كل النقل فوق الجبال محصوراً للحمَّالين من البشر، وذلك بسبب صعوبة النقل بالحيوانات فوق الصخور الشديدة الانحدار، كان علينا أن نلزم الصبر. لقد تم تنبيهي - بالمناسبة - بأن معظم الحمَّالين سيكونون من النساء، وكنت أفكر إن كنَّ سَيَكُنَّ في كفاءة أخواتهن في جبال الهملايا، حيث تستطيع النسوة هناك رفع أثقال مدهشة. لقد اشتمل فريق الحَمَّالين حين وصوله في صباح اليوم التالي على عدد متساو من الرجال والنساء - حوالي درزن من كل جانب- وكان بعض النسوة متناهيات في الصغر لا يزيد طولهن عن ثلاثة أقدام ونصف القدم. ارتدى كل النسوة ثياب خارجية فضفاضة تصل إلى

---

(١) هذا النوع من اللباس لا زال منتشراً ومستخدماً عند بعض سكان تهامة وبخاصة القاطنين في المناطق الجبلية الريفية من سفوح جبال السروات الغربية. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن سوق عيبان، والمعروف بـ (سوق الإثنين) في بلاد بلغازي، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص ١٨١ ـ ١٨٢ . (ابن جريس).

أسفل الركبة، بينما ارتدى الرجال ما يغطي العورة فقط. وعندما جاء موعد التقسيم، كان جهاز الراديو وواحدة أو اثنتين من المعدات الثقيلة، من نصيب الرجال. في الواقع لم أعتقد أن أياً من هؤلاء النسوة يمكنها حمل هذه الأشياء، إلاً أنهن وتحت ثقل احمالهن كنَّ يمشين مشية متأرجحة نشطة. لقد كنَّ متسلقات جبال ماهرات.

عموماً، فقد أمضيت يوماً جميلاً في التجوال حول المكان، ومعي بندقيتي وشبكة صيد الفراشات، مكتشفاً بعض الأماكن من أعلى الوادي ومسيل بَيْضَان الكثيف الشجر، والذي استمتعت فيه بإغفاءة القيلولة بين أشجار الأراك المتداخلة مع نبات الغَلِفْ [1] الذي ينمو بازدهار في كل مكان. ذكرتني كتلة فيفاء الضخمة بجبل هرمون، ولكن بدون قلنسوته الثلجية، وهي قمة مهيبة، أو هي هضبة مدعمة من كل الجهات بكتوف ضخمة من صخر شديد الانحدار. فيفاء عموماً، عبارة عن أحزمة متتابعة من المدرجات التي أدهشتني، كانت هذه المدرجات متقطعة في السفوح السفلى، بينما تكون متقاربة لدرجة الالتحام عند ارتفاع (٣٠٠٠) قدم. وقد كشفت هذه المدرجات عن حب المغامرة والصناعة عند أهل هذه الجبال مقارنة مع أهل وادي بيش الكسالى، وقد أدهشني فشلهم التام في الاستفادة من وادي جوراء نفسه ومياه غيله المستديمة الوافرة، وكان تفسيرهم لذلك أنهم لا يستطيعون مواجهة السيول الموسمية التي كانت تنهمر بكميات هائلة، فتجرف كل شيء في طريقها إلا ما امتنع. وحتى الآن لا أستطيع أن أتخيل أنه في يوم ما،

---

(١) الغَلِفْ: شجر متسلق إذا وجد ما يتسلق عليه وإلا زحف على الأرض، أوراقة خضراء في حجم راحة الكف، وقد تكبر أو تصغر، ويؤكل مطبوخاً، وفي طعمه بعض الحموضة، وكذلك كان يستخدم لتضميد الجروح، وللمزيد عن نباتات بلاد تهامة والسراة، انظر: **كتاب النبات للدينوري**، وبخاصة الجزءان الأول والثاني، كما انظر: غيثان بن جريس، **صفحات من تاريخ عسير**، جـ١، ص ٣١ ــ ٤٣. (ابن جريس).

ربما في المستقبل غير البعيد، سيكون في مقدور الحكومة السعودية ترويض هذه الأودية الجبلية العظيمة في مشاريع كبيرة لري منخفضات تهامة -وهي أرض في حجم الدلتا المصرية-.

لقد كانوا أناساً محبين للاستطلاع، هادئين، مختلفين تماماً عن كل الآخرين في الجزيرة العربية. يمكنهم الوقوف دون حراك، وأن يطيلوا النظر ناحيتي وأنا أعبر غير أنه إذا توقفت مثلهم وأطلت النظر ناحيتهم، فإنهم يتململون كالأطفال ويذهبون في حال سبيلهم وكأنهم قد نسوا شيئاً ما، يحمل معظمهم هراوات طويلة، ويحمل بعضهم بنادق بدلاً عنها - بشكل أفقي فوق الكتفين من خلف العنق - ويدلون أذرعتهم من فوقها إلى الأمام(١). كما كانوا يغطون الجزء الأعلى من أجسامهم مع برودة الصباح بقطعة من القماش، وعندما تشتد الحرارة يلفونها حول الأُزُر التي تغطي عوراتهم.

لقد استيقظت مبكراً عند وصول الحمالين، في الثاني والعشرين من ديسمبر. تبدو قمم فيفاء الآن واضحة وصافية في حزام من الهواء الخالي من الضباب الذي يقع بين طبقة سميكة من السحب، وبين جداران من ضباب كثيف بدأ يصعد إلى أعلى الجبال من الأودية على الجانبين. ثم اختفى هذا المنظر فجأة باتصال السحب مع الضباب، ولم نكد نر شيئاً من الأجزاء العليا للجبل، حينما بدأنا الرحلة عند الساعة (٨,١٥) صباحاً، كانت هنالك لمسة رطوبة واضحة في الجو غير أن الندى لم يكن كثيفاً أثناء الليل. يوافق هذا اليوم بداية الشهر الثامن لجولاتي، وفي أحوال كثيرة فقد جلب لي تجارب فاقت كل تجاربي السابقة. لقد تم حمل الشنط

---

(١) هذه العادات كانت منتشرة بكثرة في أجزاء عديدة من جنوبي البلاد السعودية، مع العلم أن بعض البدو وكذلك سكان الأرياف والرعاة لا زال بعضهم يمارسها حتى الآن. (ابن جريس).

على الأكتاف بين الكثير من الصراخ والجهد، وانطلقنا تاركين الجمال والحمير لتسلك طريق وادي جورا، إلى موقع تم تحديده لها حيث سنقابل الجميع هناك بعد يومين.

سلكنا الشاطئ الجانب للمجرى مدة عشرين دقيقة، عبرنا خلالها فم مسيلين هما قَعْصِنْ وجَيْران، عبر عشب وغطاء نباتي لا يزال مبتَّلاً بالندى، ثم استدرنا عند مسيل السَرِبْ، وهو مسيل ثالث أوصلنا خلال نصف ساعة قضيناها في صعود شاق إلى البرك الصخرية العظيمة في الوغرة[١]، تتكرر كلمة الوغرة كثيراً في هذه المنطقة! تعني بركة صخرية يضاف إليها اسم المسيل التابع لها - وذلك عند الضرورة - لأجل تحديد أيٍّ منها هو المقصود. وتقع هذه البرك الصخرية - العميقة والشفافه والممتلئة بالأسماك الصغيرة، - فوق وأسفل جرف كبير، يبلغ ارتفاعه (١٠٠) قدم، وعرضه (٥٠) ياردة عبر الوادي. تتصل هذه البرك بواسطة انسياب خفيف لشلال يمر إلى أسفل من على واجهة الصخر الشديد الانحدار - والمكوَّن من الشست الذي قد أملسته المياه وبلونه الأزرق الساطع، والذي تنحدر المياه من فوقه، خاصة أثناء السيول كأنه صورة مصغرة لشلالات نياجارا[٢]. لقد كان وهداً صغيراً جميلاً كثيف الشجر، وكانت أشجاره ضخمة قد تقطّرت الرطوبة من جذورها العارية، ومن السراخس ومن غطاء نباتي آخر، بينما انتشر فوق أغصانها المتشابكة أوراق نبات والهدال[٣]. ثم انسدَّ طريق مرورنا إلى أعلى

---

(١) الوغرة: هي الاسم المحلي للعين الحارة. انظر: العقيلي، **المعجم الجغرافي**، ص ٧٦ . (ابن جريس).

(٢) شلالات نياجرا: هي الشلالات الموجودة في كندا والقريبة من حدود الولايات المتحدة الأمريكية من الجهة الشمالية. (ابن جريس).

(٣) الهدال:ـ نبات يحمل ثماراً بيضاء صغيرة، ويستخدم للزينة، وكذلك غذاء لبعض المواشي مثل الأغنام والماعز. (ابن جريس).

المسيل، بواسطة الجرف الذي كنا قد استدرنا من حوله، لنصل إلى الجانب الأيمن لمضيق السرب الذي يجري شرقاً ناحية الجبال.

ويسلك طريقنا السَرِبْ إلى فترة ما، ثم يتخذ الطريق بعد ذلك ناحية مسيل مروة الرافد، الذي تركناه بدوره لنتبع السبجة، وهو مسيل آخر ناحية الشمال الشرقي. كنا لا نزال على السفوح السفلى المنخفضة لفيفاء، وكنا على حوالي (٣٠٠) قدم فوق وادي جوراء، بعد مسيرة ساعة كاملة متقطعة. لقد كانت الغابة الكثيفة الشبه مدارية ممتلئة بالطيور والفراشات وعدد من حشرات أخرى، غير أنني رأيت فوق كل هذا مجموعة صغيرة فقط من قردة البابون في منطقة فيفاء، وربما يعزى هذا لوجود حركة الإنسان.

لقد صعدنا الآن هذا المنحدر الذي يقع بين مردة والسبجة لنصل إلى قرية السَرْبَة الصغيرة، وهي عبارة عن مجموعة من الأكواخ المدورة المسقوفة بالطين يبلغ قطر الواحد منها عشرة أقدام، وتقع على قمة سلسلة تطل في انحدار شديد على المسايل من الجانبين على عمق (٢٠٠) قدم أسفل منا. وتنقسم مردة نفسها من عند مسيل الجَرْفَة بنتوء مماثل، وهي موقع لالتقاء كل هذه المصارف أعلى شلال الوغرة، التي تكوِّن بعد ذلك مجرى السَربْ. ومن خلال هذه النتوءات المتجاورة والمنخفضة قليلاً عن مستوى ارتفاع القرية الصغيرة، يعترض الشست بواسطة حزام - سمكه حوالي (١٢) قدماً - من المَرْمَل[١] الأصفر والبنفسجي، والذي كنت أعتقد أنه يشبه ترسبات المغر (البوكسيت) التي كنا قد قابلناها في أجزاء أخرى من هذه البلاد التلالية. لقد كان واضحاً أنها نوع من بعض الصخور المتحولة، وربما

(١) المَرْمَل: نوع من الطين يستعمل كالسماد في بعض الأحيان، ويوجد في أجزاء عديدة من مناطق جنوبي البلاد السعودية. (ابن جريس).

كانت عـرقاً من الرخـام يقع تحت جرانيت رمـادي وفوق الشست الـذي يبدو أنه ينتهي عند هذه المرحلة.

ينتهي نتوء السـربة عند صخرة عالية، على ارتفـاع (٢٤٠٠) قدم فوق سطح البحر، إلى الشـرق من القرية الصغيرة، الذي نظرنا من فـوقه إلى أسفل في خط مسـتقـيم إلى شلال الوغـرة، ونقطة بداية انطلاقنا عند سـوق عيبـان. وتقع إلى الجنوب منا وعلى حـافة حـرف أسود يطل على مـسيل الجـربة إلى أسفل، قـرية صغيرة بالاسم نفسه بحقولها ذات المدرجات الصاعدة والتل من ورائها. لقد رأيت ناحية القرية النسوة الحاملات لعفشنا وقد سلكن طريقاً مختصراً لتصل إلى الطريق الرئيس أمامنا بالقرب من الجَرَبَة. واصلت النسوة الحمالات سيرهن وهن يغنين ولا يبـدو، أنهن يفكرن في أمر حـملهن، بينمـا لا يزال الرجـال بأحمـالهم الثقـيلة مـتـخلفين إلى الوراء. كنا لا نزال نصـعـد فـوق الطريق الملتـوي، الذي لم يكن منحدراً وذلك لأنه كـان يصعد مـن مستـوى إلى آخر. كانت هنالك حـقول ذات مـدرجات عند هذا الارتفـاع على كلا الجـانبين، إلاَّ أنه فـقط، حينمـا نصل إلى ارتفـاع (٣٠٠٠) قدم فـوق سطح البحـر، يكون الطريق الذي سلكناه قـد دخل بالفعل في منطقـة الزراعة بالمساطب والتي تبـدو أنها مرتبطة مع وجـود الجرانيت اللين للسـفوح العليـا. كان عـرض المساطب التي كـانت تتبع الخطوط الـكفافـية للتلال، بضع خطوات بينما ترتفع الجدران المدعمة التي تفصل الواحد عن الآخر، بين قدمين إلى أربعة أقدام. وقد تكون الحقول ذات المدرجات أحياناً عريضة ويصل ارتفاع الجدران من (٨) إلى (١٠) أقدام. وتعتمد هذه الـعوامل -كما يعتقد- على صفة السفح.

توقفنا لالتـقاط الأنفاس عند صخـرة ضخمة ناتئـة ترتفع إلى (٣٧٠٠) قدم فوق سطح البحـر، حيث ينتهي نتوء السَرْبَة عند سفح كـتف ضخم يمتد إلى هذا الموقع من جـهة الجنوب الشـرقي. ثم تطلعنا من هذا المـوقع ناحيـة الجنوب على امتداد جوانب فيفاء، وفوق قرية عين مبراه الصغيرة ومساطبها، وتليها قرية أخرى صغـيرة، عبارة عن مـجموعـة من المراحيض حول مسكن جـميل يشبـه القلعة، ويسمى حصن القَهبَةَ. كمـا توجد قرية مماثلة وسط الحقول عند الموقع الذي توقفنا فيه بجوار ضريح مـبني كبير، ارتفاعه قدمان ونصف القـدم وعرضه قدمان، على جانب الطريق، وتسـمى هذه القرية دحبة. وصلنا بعـد قليل إلى قرية سلعي وهي عبـارة عن مجمـوعة من نصف دستـة من الأبراج الأسطوانية، عند حـافة بعض المدرجات حيث كان الناس حـينها يقومون بالحراثة لبذر محصـول الشعير التالي. وقفت على مسافة إلى أعلى طريقنا عند ارتفـاع (٤٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، قرية حيدرة المنظرية، مظللة بأبراج كل من المحماة وغاوي، قليلاً إلى أعلى السفح ناحية الجنوب، بينما شمخت ناحية الشرق أبراج كل من الغَارب والعَبْسية.

بدأنا نقتـرب الآن من منطقة القمة الـتي كانت عبارة عن كـتلة من المدرجات والمباني المبعثرة المتباينة الشكل، تتفاوت أشكالها من هيئة الكوخ إلى القلاع المهيبة. لقد بدت المدرجات تعج بالبشـر في الدواير التي ترتفع حوالي (٤٦٠٠) قدم فوق سطح البحر، وذلك أثناء اقـترابنا منها، وسرعان مـا اتضح لنا السبب وراء ذلك؛ وهو أن كل السكان في المنطقة قد حـضروا لاستقبالنا، وقـاموا بإطلاق النيران من بنادق المسكت المخـتلفة الطراز بواسطة حـرس الشرف الذي اصطفَّ على المسـطبة السفلى للقلعة، من وراء الشيخ المحلي واسمه جابر، الذي تقدم إلى الأمام لمبادلتنا التحيَّـة ولإدخالنا في مملكته. لقد أمكننا الآن أن نرى العـديد من القرى التي تقع

على قمم التلال التابعة لـبلاد بني مالك، فيما يلي فيفاء ناحـية الشمال الشرقي، والتي سنقوم بزيارتهـا عما قريب. كـانت قرية ختيبـه، من بين هذه القرى، ذات أهمية لأنـها كانت موقعـاً لمركز شرطة بني مـالك. لقد رأيت من عند هذا الموقع أيضاً أول شجرة بن في فيفاء، بينما بدأ العرعر الآن في الظهور.

ثم عبر الطريق موكب من اليراسيع من صف واحد، يصل طوله إلى قدمين، ويقال إنها تطلق وهجاً فسفورياً بالليل - بينما كوَّن حرس الشرف، -وحقيقة، كل السكان المتفرجين- موكـباً آخر منافساً، من خلفنا ومن أمامنا لمرافـقتنا عبر الطريق الملتوي، من خلال قطع الأرض التي يملكونها، وهم يغنون أثناء مشيهم على إيقاع نغم حزين يـكاد يكون جنائزياً. كانت المرحلة التـالية هي قلعـة النقيل وهي أكـبر القـلاع بين هذه الحقـول ذات المساطب وتقع عند ارتفـاع (٥٠٠٠) قدم، حـيث تقابلنا هنا مـرة أخرى مع الحشد السكاني ومع حـرس الشرف المكون من (٢٠٠) رجل، والذين أطلقوا عدة قذائف للتحية وذلك حيـنما تقدَّم شيخهم للترحيب بنا وهو الشيخ علي بن يحيى، واحد من الرؤساء الرئيسين لفيفاء وقد أشار إلى موقع منزل أسرته، وهو بناء يشبه القلعة يسمى المروح، ويقع عند الطرف الشمالي لقمة فيفاء، والتي كانت مبرقعة على طول امتدادها بمبان أخرى مماثلة.

التفَّ الموكب الحشدي الجـديد حول أجسامنا النحـيلة من كلا الطرفين، وقد تدعَّم بالشيخ وبعض حاشيته، ثم واصلنا متـابعة الممر المتعرج، والذي يجري عبر المدرجات التي تقع من فوقنا ومن تحتنا. لقد تحرك الموكب في صفين طويلين وهم يغنُّون أناشيـدهم الجماعيـة حتى وصلنا آخر الأمـر إلى مركز الإمارة عند السـاعة الثالثة مساءً ويقع فوق الهضبة العريضة للقمة، وهو ليس بأي حال عند قمتها التي تقع ناحية الشمال الشرقي على بعد نصف ميل، وتعلوها أطلال قلعة قديمة تسمى

العَبْسِية. يتكون مركز الإمارة الذي يصل ارتفاعه إلى (٥٢٠٠) قدم فوق سطح البحر، من قلعة نموذجية ملحقٍ بها العديد من المراحيض، ومبان مستقلة، وتتجمع كلها تحت الظل الوافر لشجرة البانيان (الأثبْ)، وتسمى هنا التَّالق، وعليها كتل من الجذور المتدلية في الهواء من أفرعها الضخمة سميكة الأوراق. لقد كانت القلعة في موقع مسيطر وتطل إلى أسفل على المدرجات المتراكبة، التي خصصت في هذا الإقليم المرتفع لزراعة البن والقات والموز، بينما يزرع في الحقول السفلى كل من القمح والشعير. كما تزرع كذلك فاصوليا عريضة الأوراق، ممتدة الساق فوق جدران المدرجات وتتعلق عليها كما يفعل العنب، ويُحد فراغ مستوٍ بالقرب من مركز الإمارة من أحد جوانبه المقبرة، بينما يتم حجز بقية المساحة لمناشط سوق الاثنين المحلي، وقد أعدت له أكواخ قليلة العدد تقوم مقام المتاجر.

كان عبدالهادي -وهو رئيس المركز- مثله مثل محمد بن ماضي في جازان، مواطناً من أبناء الروضة في سدير[(١)]، وهو رجل نشط، جاد التفكير، وشاب، ويبدو أنه على تفاهم تام مع هؤلاء الناس، في هذا المركز النائي المنعزل البعيد، وسط قبائل حاشدة. وبناءً على الاعتقاد المحلي، فإن هؤلاء الناس ينتمون إلى مذهب الإمام الشافعي السني، غير أن عبدالهادي الذي كان حاذقاً وحازماً في

(١) من الملاحظ أن معظم رجال الإدارة في أجزاء عديدة من جنوبي البلاد السعودية أثناء زيارة فيلبي لهذه المناطق كانوا من نجد وربما من الحجاز. ومن يتتبع أسماء وتاريخ جميع رجال الدولة في هذه الأجزاء يجد أن أعداداً كثيرة منهم هم من فئات المتعلمين، من أصول شامية، أو مصرية، وربما عراقية وسودانية وهندية وغيرها. وهذا الموضوع جدير بالدراسة من قبل الباحثين وطلاب الدراسات العليا في الجامعات السعودية. للمزيد انظر: غيثان بن جريس «التعليم وحركة التحول التاريخي في منطقة عسير خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)». **دراسة منشورة في مجلة بيادر الصادرة من نادي أبها الأدبي**. عدد (٢٠) (١٤١٨هـ / ١٩٩٧م)، ص ٢٩ ـ ٤٦ . (ابن جريس).

أمور الدين، يرى غير ذلك، وأفتى بأنهم زيديون (شيعة)، وذلك بناءً على طقوسهم الدينية(١). ويجادل عبدالهادي، بأنهم مثلاً، يصلون منفردين مثل الزيود وليسوا جماعة، ويحتوي أذانهم على فقرة مؤثمة هي: حيى على خير الأمل، بدلاً من حيى على خير العمل(٢)، وأخيراً فهم يصلون حسب الوقت الذي يلائمهم على مستوى الفرد بدلاً من الالتزام بمواعيد الصلاة، ويجمعون بين صلاة الظهر والعصر، وبين صلاة المغرب وصلاة العشاء(٣)، وهذا يسمح به عند السنة أثناء السفر فقط.

ربما كانت الحقيقة أن أهل خولان لا يأخذون أمر دينهم مأخذ الجد، ويبدو أنهم لا يزالون يحتفظون ببعض الطقوس الوثنية لأسلافهم ولعل انبهارهم الذي يشبه الزاغ الزراعي نحو الأشياء البراقة بعض من بقايا هذا الاتجاه، قد يكون لإكليل الأعشاب العطرية الذي يضعونه فوق رؤوسهم، كما تم وصفه، يقبل التفسير على أسس صحية شخصية كمطهرات مثلاً، غير أنه لا يوجد سبب مقنع يمكن أن يفسر أساليب تزيين الشعر التي كنت قد لاحظتها في هذا الجزء الأعلى من فيفاء. لقد كانوا يستخدمون أي قطعة من قماش براق اللون أو خرقة لذلك، كما تستعمل ورق صناديق سيجار البحاري المقوى الأصفر اللون والأغطية الملونة للكراميلة للغرض التزيني نفسه.

---

(١) المذهب الشافعي كان السائد في الأجزاء التهامية، وأجزاء من المناطق الجبلية، أما المذهب الزيدي فكان منتشراً في بلاد صعده وصنعاء وما حولهما. (ابن جريس).

(٢) هذا قول غير سليم، وبخاصة في الأجزاء التهامية فهم منذ ظهور الإسلام إلى اليوم وهم يؤذنون بالأذان المعروف عند أهل السنة والجماعة. وربما يكون بين سكان هذه البلاد من كان على المذهب الزيدي المنتشر في صعدة وصنعاء، ولكن مع هذا كله فهم قلة قليلة، مقارنة بأهل صعده وما حولها فهم يذكرون عبارة «حي على خير العمل في أذانهم» لأنهم على المذهب الزيدي (كما ذكرنا). (ابن جريس).

(٣) وهذا الجهل بأمور الدين يعود إلى الأمية المنتشرة في هذه البلاد، وإلى عدم وجود الدعاة والمؤسسات العلمية التي تنور الناس في أمور دينهم. (ابن جريس).

شيء آخر من مخلفات الماضي البعيد، يمكن الإشارة إليه بما يمكنني أن أصفه بأنه الأسلوب المحلي لأداء لعبة الكريكت المحترمة. كنت قد شاهدت مباراة حية أثناء فترة ما بعد الظهيرة، يستخدم رجل المضرب عصى طولها (٣٠) بوصة، ثم يرمي إلى أعلى بقطعة صغيرة من خشب - (٤) إلى (٦) بوصات طولاً - ثم يضربها فتنطلق مندفعة في الهواء ناحية اللاّعبين، والذين كان هدفهم هو الإمساك بالكرة بقطعة من قماش، تمسك مكشوفه بكلا اليدين، ويعيدونها بأسرع ما يمكنهم إلى رجل المضرب، وإذا فشل هذا في إصابتها بالعصى فإنه يخرج حينئذ من اللعبة. تكثر أمثال هذه الألعاب الأثرية بين أطفال الجزيرة العربية، وربما حافظت لنا هذه الجزيرة على أصول ألعاب أكثر تعقيداً، فلقد كان أصل لعبة البولو هو الشام أو الصين، وكان من المثير للدهشة أن نقابل مثل هذه اللعبة في قمة هذا التل النائي. تسمى هذه اللعبة مزَاقَرَة[1].

لقد أشرت إلى أهل فيفاء بأنهم مجموعة اليهانية من خولان، غير أن هذه المجموعة تشتمل على أكثر من ذلك، وتتضمن كلاً من بني مالك، بني حريص، وبني جماعة، بالإضافة إلى أهل فيفاء. وينقسم أهل فيفاء إلى قسمين رئيسين هما: آل عبيد، ويقطنون في القسم الشرقي من الجبال، وآل عطا يتملكون الباقي[2]. وينقسم هؤلاء إلى أقسام عديدة وأسر، وتحمل أسماؤهم الأبراج

---

(١) للمزيد عن الألعاب الرياضية ووسائل التسلية قديماً في جنوبي البلاد السعودية، انظر: غيثان بن جريس. **عسير ١١٠٠ ـ ١٤٠٠هـ**، ص ١٠٨ ـ ١١٦ ، وكتاب: **أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية**، ص٢٦٤ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) تنقسم قبائل فيفاء إلى قسمين رئيسين هما: آل عبيد وآل عطا، وينضوي تحت كل قسم عدد من القبائل، وكل قبيلة تنقسم إلى عدة أفخاذ. وجبل فيفاء بصفة عامة ينقسم إلى قسمين شمالي ويسكنه آل عبيد، وجنوبي ويسكنه آل عطا، ويعد نَيْد الضالع حداً فاصلاً بين القسمين، للمزيد من الإيضاح عن بلاد فيفاء، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص ١٨٠ ـ ١٨٥ . (ابن جريس).

والقرى الصغيرة التي يعيشون فيها، حيث يشير الاسم إلى رابطة، وحسب ما أستطيع تأكيده، فإن تحت القسم الوحيد الذي يزعم بأن له اعتباراً خاصاً هو الذي يتكون من مجموعة بني حكم التابعة لآل عطا، والتي تحتل القمم الثلاث الشرقية من فيفاء، وهم يتمتعون بموقع مسيطر[1] مما يؤهله بمرور الوقت ليصبح قسماً. ولا تبدو هنالك أي فكرة حول شجرة نسب قبائل أهل فيفاء، ولم أكتشف أي شيء فيما يخص كلاً من عبيد أو عطا، اللذين تمت التسمية عليهما لهذين القسمين.

يعود نسب الشيخ علي نفسه إلى أربعة أجيال إلى الوراء عبر أسرته الخاصة، وهو: علي بن يحيى بن شريف بن جابر بن علي. ومن هؤلاء قفز النسب عبر القرون إلى سنحان بن فرحان، ثم قفز عبر قرون أكثر إلى خولان بن عامر وهكذا. كما لم يكن لديه إثبات لموقع كل من عبيد وعطا في شجرة النسب، سوى أنهما أبناء أحمد، كما أنه لا يبدو عليه الاهتمام بالموضوع؛ لقد كان رجلاً طاعناً في السن، جذاباً برصيد كاف من كياسة العالم القديم، التي تقوم الحضارة الحديثة في كل مكان بطردها من آخر معاقل دفاعها، وذلك بظهور أجيال جديدة لا تعرف من هو يوسف. وعلى الرغم من سنوات عمره، فمازال علي سليماً معافى يسير معنا وبخطوته الخاصة، على رأس حرسه الخاص من النقيل إلى عند مركز الإمارة، ثم رافقني فيما بعد إلى العبسية بعد وجبة الطعام الممتازة التي كان عبدالهادي قد أعدها لحضورنا، وعلى الرغم من أننا قد وصلنا بعد الظهيرة لنستمتع بها، فقد توقف علي في جمود، حينما اقترحت عليه بأن كلانا قد تقدم به السن، وكلانا لا يقدر على الإسراع في السير على هذه التلال، فالتفت ناحيتي يسألني عن حقيقة عمري، ولما عرف بأن عمري خمسون عاماً علّق بأنه يكبرني

(١) إن هذه القمم الثلاث تقع في الناحية الجنوبية الشرقية من فيفاء. (ابن جريس).

بعشر سنوات، إذ إن عمره كان ستين سنة، كان عمره بالتأكيد سبعين عاماً وربما أكثر، وهو رجل عجوز عظيم ويحكم رعاياه كأنه بطريرك.

قمت بمقابلة جابر شيخ كل السوق (مركز الإمارة) العَبْسِية وكان رجلاً شاباً وأقلَّ جاذبية، وبناءً على قول عبدالهادي، فهو شخص غير مُرْضٍ خلال التعامل معه، ذلك لأنه كان ينفر من اقتحام الحكومة لهذه المرتفعات الفطرية. لقد قام جابر هذا بمساعدة السيد عبدالوهاب[1] وبعض متمردي الإدريسي أثناء حرب اليمن، حينما تطلَّبت مقاطعة فيفاء مراقبة دقيقة لمركز محتمل للاضطراب.

أراد عبدالهادي أن يأوي مجموعتي داخل وحول مركز الشرطة، حيث يجد هو الحماية من ضباب الليل الجبلي، ولقد شرحت له الأسباب الجغرافية لرغبتي في أن نعسكر في القمَّة نفسها، وقد استجاب في سهولة بعد أن اتفقنا على أن نهبط إلى مركز الشرطة لتناول وجبات الطعام. كانت الساعة الخامسة مساءً حينما صعدنا لنجد مسطبة نموذجية لنعسكر عليها؛ تقع أسفل القمة بحوالي (٥٠) قدماً (٥٨٠٠ قدمٍ فوق سطح البحر) والتي كانت عبارة عن مجموعة من حجارة متساقطة من القلعة الأصلية التي ربما يرجع تاريخها إلى فترة الإدريسي، كانت القلعة مربعة الشكل وذات تركيب ضخم، مبنية من حجارة جرانيت وكانت تقف داخل مساحة مسوَّرة بجدار، إلى جانب حصون مستديرة عند الزوايا. لقد كانت بالطبع مهجورة تماماً وقد نمت فوقها الأعشاب الضارة.

---

(١) هو عبدالوهاب بن محمد بن علي الإدريسي، وكان أحد قادة ومعرفي الجيش اليمني الذي احتل فيفاء في سنة (١٣٥٢هـ). للمزيد انظر: محمد العقيلي. **تاريخ المخلاف السليماني**، حـ٢، ص ٦٦٢ وما بعدها (ابن جريس).

ما كدنا نستقر في المعسكر حتى تجمَّعت فوقنا السحب حاجبة كل شيء. لقد استقرت السحب في وقت لاحق من المساء، في شريط سميك قليلاً إلى أسفل من مستوى القمة التي كانت واضحة، وكذلك السماء من فوقها. كانت شرائط السحب الكثيفة من حولنا وكأنها تتحرك في كل الاتجاهات. فالتي كانت تقع قريباً منا تتجه جنوباً والتي تبعد ناحية تهامة تتحرك في الاتجاه المعاكس. ويبدو لنا وكأننا نسبح في بحر من السحب تسوقها الرياح في كل اتجاه. لقد ارتفع الضباب سريعاً ليطوقنا بطبقة رقيقة من القناع المائي الذي عمَّ كل شيء، بينما ظل الراديو جيد الاستقبال، علمت من خلاله بفوز انجلترا في المباراة الثانية في استراليا. كانت الأرض والأسرّة وكل شيء مبتلاً بالماء في الصباح وكان الهواء رطباً بارداً، كانت درجة الحرارة (٥٧) درجة فهرنهايت ثم انخفضت إلى (٥٢) درجة أثناء الليل، غير أنها ستكون دافئة عما قليل، ذلك لأنني كنت أطل ناحية الشمس وهي تصعد من خلف قمم الجبال ناحية الجنوب الشرقي، لتطفو فوق شريط طويل مستقيم من الضباب الذي غطى كل السفوح المرتفعة والأودية إلى أسفل. تُسَمَّى مثل هذه الكتل المطوقة من السحب محلياً «عماة»[1] ذلك لأنها تحجب كل العالم عن الرؤيا البشرية.

ثم حجبت السحب مرة ثانية -بعد يوم صافٍ- كل المنظر ومدة ساعة قبل الغروب، بينما شمخت في وقت لاحق من الليل القمم العظيمة، بما في ذلك العبسية وكأنها جزر فوق بحر هادي من سحب بيضاء تتلألأ في ضوء القمر، الذي

---

(١) عماة: أوردها فيلبي باسم (عماية) والمقصود بها الضباب. ولفظة (عماة) تكاد تكون كلمة دارجة عند معظم سكان جنوبي البلاد السعودية. وتظهر العماة (الضباب) على الأجزاء المرتفعة من بلاد السراة الممتدة من الطائف حتى بلاد قحطان ونجران خلال فصل الشتاء وأحياناً في فصلي الخريف والصيف. (ابن جريس).

يقتـرب من كمالـه. أستطيع أن أرى وبوضوح سلسلة الجـبل الأسود تدور ناحـية الكتل العاليـة لكل من النظير ورازح، وهي نقاط جـبلية يمنية خارجـية تطل على سفوح الحدود، بينمـا نهضت على الجانب الآخر الكتل الضخـمة لكل من الحشر وبني مالك. ثم ذهبنا إلى مركز الإمارة لتناول العشاء بعد غروب الشمس مباشرة، وعدنا ومعنا عدد من الزوار كانوا يرغبون في الاسـتماع لأخبار العالم، وكان أبرز ما فيها تلك الليلة هو انتهاء اللجنة الملكيـة من مهمتها في استطلاع الرأي المحلي، والإشارة إلى موعد مغادرتها الذي اقترب.

قضيت النهار مـتجولاً بين المدرجات الزراعية، حيـث رأيت الكثير من نبات القطن وقد نما بصـورة متقطعة، إلى ارتفـاع يعادل الأشجار الصغـيرة. ويتم جني هذا القطن للاستخدام المحلي، غير أن النباتات تظل نامية لأعوام ويبدو أنها تزدهر في مثل هذا الطقس. كمـا كانت نباتات زراعة التبـغ وافرة أيضاً، على الرغم من أنها مـثبطة رسمـياً. كما كـانت أشجار العـرعر في كثافـة وكذلك شجـرة السرو (السَنَعْبِر) ذات الأغـصان العطرية. كما كانت هنالك أيضاً بعـض أشجار الخوخ، وهي ليست كـثيرة العـدد إلاَّ أنها مزهـرة الآن، كما أن حـجم ثمرة الموز المحلي صغـير، وغليظة صـفراء وهي من درجة مـتدنيـة مقارنة مع الموز الطـويل الرفيع الأخضر، الذي يستورد بـكميات كبيرة من النظير وما جاورهـا. وتشتمل الحبوب هنا على الدخن والشعير وبعض القـمح الذي تتلقى الحكومة منه عائداً سنوياً يقدر بـ (١٢٠٠) ريال على حـساب نسبـة العشر، وهـذه هي الجملة النهائيـة التي يتم استلامها بعـد تسديد تكلفة الجمع التي تأخذ شكل نسبة مقربة مـخصصة لمختلف الناس، الذين تكون لهم علاقة بمراحل المبايعة المختلفة.

وتقسم الحبوب إلى عشرة أكوام، تحت إشراف الخراصين، ويقوم الرئيس المحلي (تحت قسم) لكل منطقة، باختيار كومة للحكومة، ويشرف على مراجعة هذا العمل الشيخان الرئيسان لكل من آل عبيد وآل عطاء واللذين بناءً على تقريرهما، يتم رفع نصيب الحكومة إلى المخزن الرسمي مع تخفيض (١٠٪) للشيخ الرئيس و(١٠٪) أخرى للرئيس المحلي، و(٥٪) للذين يقومون بالتقدير. ويكون نصيب الحكومة تبعاً لذلك هو (٧٥٪) من عشر كل محصول الحبوب[١]، ولما كانت هذه الكمية مقيَّمه على (١٢٠٠) ريال، فإن قيمة كل المحصول في المتوسط في العام ستكون (١٦٠٠٠) ريال، وهذا المبلغ ليس بالكبير على عاتق سكان يبلغ عددهم (٢٥٠٠٠) نسمة. كما توجد إلى جانب ذلك بالطبع، محاصيل أخرى، غير أن محصول البن ليس كبيراً ويدعم خزينة الحكومة بما يعادل (٥٠) ريالاً فقط في السنة، أما الفاكهة فهي معفية من الضرائب[٢].

يبدو الأمر غريباً أن تعاني منطقة مثل فيفاء من شح المياه، وبصورة متكررة على الأقل في مرتفعاتها العليا حيث لا توجد آبار أو حتى أحواض للإمساك بمياه الأمطار. وتعتمد إمدادات المياه على نشاط النسوة اللاتي يجلبنها من الشقوق المختلفة والبرك في الأجزاء العليا من المسايل العديدة، ويحملنها في قرب من الجلود ليقمن ببيعها مقابل ثُمن الريال للقربة الواحدة، وهو السعر الذي كان سائداً أثناء زيارتي، أو بأكثر من ذلك في الموسم الجاف، حينما يضطررن للذهاب إلى

---

(١) للمزيد عن الأوضاع المالية والإدارية في منطقة تهامة وأجزاء من جنوبي البلاد السعودية، انظر: مبارك المعبدي. **النظم المالية والإدارية في تهامة عسير**، ص ٣٩ وما بعدها، غثيان بن جريس، **عسير في عصر الملك عبدالعزيز**، ص٨٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) إعفاء الفواكه من الضرائب يعود إلى نص شرعي عند فقهاء المسلمين الأوائل. (ابن جريس).

مسافات بعيدة إلى أسفل، حيث توجد برك الوُغْرَة التي لا تنضب. وقد يقفز سعر القربة الجلدية الواحدة في بعض هذه المناسبات، عند القمة إلى نصف ريال.

تختلف أنماط مباني السكن في فيفاء، فمنها ما هو عشة صغيرة، من طابق واحد، تكون مستديرة أو مربعة ويكون سقفها من الطين. أو تكون برجاً صغيراً مستديراً من طابقين أو تكون ما يشبه القلعة من طابقين أو أكثر مبنية من الحجر. يبدو أن هذا الطراز الأخير خاص بهذا الجزء من البلاد، ويستحق أن يوصف. يستدق البناء الدائري من قاعدة عريضة إلى سقف ضيق. يتم سقف الطابق الأرضي الكبير بالطين ويقوم على أعمدة مع وجود فتحة عند إحدى الزوايا تقود إلى أرضية الغرفة التالية عبر سلم أو درجات من الطين تبرز عند الجدار. ويكون سقف كل من الطابقين الثاني والثالث حيث غرف المعيشة لصاحب الدار وأسرته مسقوفاً جزئياً، بمعنى أن يكون وسيلة لدخول الهواء والضوء دون الأمطار. ويعزز من غرابة هذا الترتيب حقيقة أن الحجرتين تفتحان في اتجاهين مختلفين، وذلك بهدف السماح للسكان باستخدام أي منهما عند الحاجة حسب حالة الطقس في أي وقت أو أي يوم. فإذا كانت الشمس متألقة في الغرفة العليا مثلاً، تكون الغرفة السفلى مظللة، وإذا كانت الأمطار تضرب في إحداهما، تكون الأخرى جافة، لقد كان من آثار هذه السمة الغريبة للفن المعماري المحلي، أن تتخذ هذه المباني مظهراً ملتوياً أو حلزونياً وهو مظهر جذاب في خلفية الحقول ذات المدرجات. ويكون الطابق الأعلى المكشوف جزئياً مسقوفاً بالأعواد أحياناً، ويكون في حالات أخرى مبنياً من الطين. كانت كل المباني من الحجارة غير أن الطموحة منها تكسوها طبقة من طين سميكة وخارجية، وتعد النوافذ بصفة عامة غير ضرورية.

يجري محور رأس فيفاء وقممه الرئيسة الخمس من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، بين الأودية العميقة لكل من جوراء وضمد، وهما يصرفان

صفحاته من كلا الجانبين. ولا يصل أي من هذين الواديين إلى جرف السراة، ذلك لأن منبع كليهما كان على الجنبات أو في السفوح التلية لجبال بني مالك، وإلى ما يليها، ويجري وادي دَفَا إلى أسفل من الجرف ليتصل ببيش. ويتكون وادي جوراء من مسيلين عظيمين هما عرقين وطية، وينحدران من الزاوية التي تنحصر بين جبال بني مالك وجبال الحشر (بني حريص) ومن الأطراف الشمالية لجبال الحشر. ويقع مكان التقائهما لتكوين جوراء على مسافة أميال قليلة ناحية الشمال من موقعنا عند العبسية بالقرب من قاعدة الطرف الشمالي لفيفاء. ويبدأ وادي ضمد في سلسلة منخفضة نسبياً وضيقة تفصل رأسه عن مجرى وادي دفا الذي سنصل إليه في وقت لاحق. كما ترسل الأطراف الخارجية الشديدة الانحدار، من الرف المرتفع العظيم بالقرب من قمم بني مالك، روافد عديدة تضخ في وادي ضمد إما مباشرة أو عبر مجرى معتبر يسمى الفِرَعْ، وذلك عن طريق مسايل عديدة منها: الجنِّية، والجوَّة، والخَبْيَة، وغيرها، وكلها تقوم بتصريف التلال السفحية الجنوبية لبني مالك إلى داخل منحنى ضمد الذي يدور حول العِزَّة الطويل البارز. يتلقى ضمد أيضاً تصريف مياه تلال حاجزية أعلى مثل كتفه وغيره، على جانبه البعيد على الحدود اليمنية، ويلتقي كل من جوراء وضمد في نهاية الأمر في مكان ما على سهل تهامة، إلى ما يلي الطرف الجنوبي الغربي لفيفاء[1].

تغطي قمم بني مالك وهي: العليلي وحبس وآل سلمى وجبل الحشر وهرم هجيدة العظيم خلف الفجوة بينهما، مسافة الربعية في البوصلة عبر الشمال بينما

---

(١) لمزيد عن بلاد ضمد وواديها انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٥٢، ١٧١ . (ابن جريس).

تجـري من ورائهم ومكوناً الجـانب الأيمن لدفـا سلسلة ثهـران العـاليـة التي تمتـد وتتواصل مع سلسلة الرَّبوعة، الـتي تمتد من الشمال إلى الشمال الشـرقي. وامتدَّ إلى البـعيـد يمين هذه - وتقع إلى مسـافة إلى الخلف - جـرف مرعـة ذو السطح البركاني المستوي، الذي لوحظ من الجـانب البعيد جنوب ممر علبين. وتقع سلسلة جبل أسـود إلى البعيد أكـثر ناحية الجنوب الشـرقي، وينتهي ذيلها ناحـية كل من رازح النظير، بينما امـتلأت الفجوة الواسعة بيـنهما بسلسلة كتفة الحـدودية العالية التي تستمر عبر كل من منبه، والعُر، وسلا، إلى حافة تهامة.

ويتواصل خط بني مالك - الحشر، على الجانب الآخر (الشمالي) مع كل من مُنْجِد والقُرْنَةُ والريث ومصيدة ونقاط أخرى لتكمل حزام فيفاء الجبلي عند السفوح التلية لتـهامة. وتتبع هجـيدة إلى أرض بني الغازي، بالرغم من أنهـا منفصلة عن الكتلة الرئيسة كـما ورد وصفها، بينما يحتل كل من ثهـران (ظهران حسب النطق المحلي)[١] والربوعة، وآل تليـد، وهم قسم من آل جُماعـة يتمركز مـعظمهم في الجنوب في أرض يمنية. كما أستطيع رؤية قرى الصـيَّابة ناحية الجنوب من موقعنا، وهي تنتمي إلى قسم منعزل من بني حريص على شاطئ وادي جازان وعند ملتقاه مع شعيب الفَرْشَـة الذي ينطلق من مضيق منخفض يحمل سفحـه القريب شعيب الهَيْجَة[٢] إلى أسفل ليتصل مع وادي ضمد إلى الجنوب من موقعنا. ويقف بركانا عكوة لتكملة الصورة التي تشاهد من فيفاء في بروز ناحية الجنوب الغربي، بالرغم من أننا لم نستطع رؤية كل من الحسـينية وصبيا أو أي جزء من البـحر. وتقع قرية

(١) ثهران هو النطق السليم لجبل ثهران في بلاد فيـفاء، وهو يختلف عن جبل ظهران أو بلاد ظهران الجنوب في بلاد وادعة من أرض قحطان في أعالي السروات. (ابن جريس).

(٢) والهيجة تنطق محلياً أيضاً باسم (أمهيجة). (ابن جريس).

العَيْدَابي ناحيـة اليمين قليلاً من شريط عكوة، وقريبة جـداً من موقعنا، والتي كنا قد زرناها حديثاً.

كان منظر فـيفاء كـما وصفنا. وكـان هدفنا التالي هو مـجموعـة من القرى السفلى التابعة لكتلة بني مالك حول القهـبة، التي لم تكن هي نفسها مرئية لنا من العَبْسيِـة، بالرغم من أن العديد مما يجاورها قد كان واضـحاً فوق رؤوس تلالها. كان من بين هذه كل من خاشرٍ، والثاهر، وذراع، وحصيبة. كانت مجموعة فريق الحمالين الموصى عليها، والتي تشتمل على الرجال فقط، من جهة عبدالهادي، قد بدؤوا يتوافدون، وذلك أثناء الليل بينما جـففت الشمس ممتلكاتنا التي بللها الندى في صباح يوم عيد ميلاد المسيح. كـانت أجرة الرجال والنساء الذين حملوا عفشنا إلى القـمة، من سـوق عـيبـان هي نصف ريال للفـرد، ولخـجلي من ذلك فقـد ضاعـفت لهم الأجر عندما وصلنـا. وتكون أجرة الحمـار في هذه البلاد، بما في ذلك خدمات سـيده، ولمدة يوم كامل، نصف ريال فقط، ويكـلف الجمل ضعف ذلك وعليه فلم تكن تكاليف السفر في هذه البلاد عالية.

تقدمنا الشيخ علي متـوجهاً إلى قلعته في المَرْوَحْ، ليعد لنا مـراسم الاستقبال الترفيهيـة. ثم بدأنا المسيرة ومعنا الحمالون أسفل نتوء ينحـدر تجاه الشمال الشرقي من عند العبـسية، وكـان يفصل بين رأسي مسـيلين هما ذَبُوبْ والفَرُع، وكـلاهما يصرفـان جوانب فيفـاء إلى داخل كل من ضمد والجـوراء بالتوالي. لقد استـغرق وصولنا نصف سـاعة لنصل إلى مَرْوَحْ بعـد جهد، وكـانت قلعتهـا بارزة وكذلك مسجدها، في شكل جـميل على آخر قمم أعلى فيفاء عند نهايتـه الشمالية، وتقع إلى أسفلنا قرية رَحْبان على حافة جانب الخبية الذي يفصل فيفاء عن بني مالك. انتشرت قـرية رَيْدَة الكبيرة (غالبـاً تسمى ريدة العزة لتميـزها عن ريدة أخرى تقع

فيما يلي ضمد)[١] فيما يلي الجانب البعيد للخَبْيَة وعلى أولى سلاسل بني مالك، بينما تقع قرية الجِنِـيَّة الصغيرة إلى أسفلـنا على حافة مسيلهـا، بينما يأتي رَوْحَان على سلسلة من ورائه، وقرى أخرى تابـعة لبني مالك قد ورد ذكرها من العبـسية على يمينه. لقد كان في رفقتنا في هذه المسـيرة كل من عبدالهادي رئيس الشرطة، وجابر شيخ قـبيلة آل عطا حتى وادي الجوراء، حـيث سيتم انتقـالنا إلى كرم بني مالك. أبدى الشـيخ علي رغبته أن يحتـفظ بنا في مروح لتناول وليمـة، غير أننا اعتـذرنا لارتباطنا مع رؤساء قـبيلة بني مالك، لقـد تأخرنا في مروح مدة سـاعة اجتمعنا خلالها مع الشيخ علي في غرفته العليا النصف مكشوفه[٢] التي من عندها أشار إلى الـعديد من العـلامات الأرضيـة للبلاد والـتي توافقت بصـفة عـامة مع المعلومات، التي كنت قد جمعتها من مرشدي في العبسية.

لقد حكى لي قصـة غريبة وغامـضة أثناء تناولنا القهوة والمشـروبات المنعشة، بغرض أن أتمكن من تفسـيرها له بما لديّ من اهتمامات بالطيـور. ذكر لي أنه كان جالساً في سريره المصنوع من الحبال في أحـد أيام شعبان أو قبل شهرين، في هذه الحجرة نفسها التي نحن فيها الآن، حينما شاهد من بعيد طائراً في السماء قال إنه نسر، وهو اسم يطلق على الصقر أيضاً[٣]، وهو يحلق فوق قلعته. ثم هبط الطائر في بطء، وفي ضربات مائلة واسعة ودخل إلى الغـرفة وحطّ على السرير بجانبه،

---

(١) ريدة: اسم مكان يطلق على أكـثرمن مـوقع في منطقة عسـير، ومنطقـة جازان وأجـزاء أخرى من بلاد اليمن. وأشهـرها ريدة تهامة عسير التي قـتل العثمانيون فيـها الأمير محمـد بن عائض عام (١٢٨٩هـ/ ١٨٧٣م). (ابن جريس).

(٢) الغرفة المكـشوفة فوق المنازل يطلق عليـها أسماء محليـة عديدة مثل: ـــ العليـة، والمشراق، والمشراح أو المشرحة. وهي عبـارة عن مكان استرخاء واستراحة في الليل، أو مع شـروق الشمس في الصباح. (ابن جريس).

(٣) النسر والصقر من الطيور المعروفة عند سكان البلاد، والنسر أكبر حجماً من الصقر. (ابن جريس).

في صورة حبية وسرية. ثم اتخذ الطائر سلوكاً عدائياً حينما حضر الخدم استجابة لدعوته لهم لرؤية ما يحدث، ورفض الطائر اقترابهم. ثم استطاعوا مع تدعيم أكثر لهم من التمكن من إبعاد الطائر عن السرير ولاحقوه إلى البلكونه، غير أنه بعد فترة طار لحال سبيله، وهو لا يزال يحلق ويدور حول المنزل حتى اختفى عن الأنظار. ولم يظهر بعد ذلك. لقد كانت رواية غريبة ويمكن لمثل هذه الخرافة أن تشير إلى شيء واحد. ولما لم أكن ممن يؤمنون بالخرافة، ولما كان الرجل العجوز لا يزال حياً وفي صحة ممتازة، فقد كانت إجابتي أنه من وجهة نظري فإن الأمر غريب ولا مغزى له.

ثم استأذنا من علي، وبدأنا الهبوط فوق طريق منحدر متعرج، ويكثر على حافته من حين لآخر نبات الصبار (كراث) ذو البراعم البنية المحمرة وتملؤه مادة لبنية ذات خواص تؤدي إلى الهرش. ويقال إن الأزهار تُكسب عسل فيفاء نكهة لطيفة. ثم وصلنا إلى قرية ومزارع الغالّة الصغيرة بعد حوالي (٨٠٠) قدم أسفل المروة. حيث كانت توجد مزارع كثيرة للبن والعديد من أشجار الموز. وقد وقفت صخرة بارزة على جانب الطريق على واحدة من هذه المدرجات، وكانت بارزة بما فيه الكفاية ليكون لها اسمها الخاص وهو قمع شفيان. لابد وأنها قد سقطت من أعلى منذ عصور بعيدة ولربما كانت شيئاً يُعبد في أزمان الوثنية، بما أن ليس للقرويين هنا علاقة بها. ثم أوصلنا هبوط متعرج إلى (١٠٠٠) قدم إلى أسفل إلى مسيل المقطر الذي ينحدر من السفوح العليا لفيفاء إلى مجرى الجُوَّة الذي يقع أسفلنا وعلى اليسار. وقد لاحظت الكثير من الحصى على جانبيه الصخريين وهي كثيرة الشبه مع حجارة القمر، غير أنه لا يبدو أن هنالك تجارة تهريب لحجارة شبه كريمة في هذه الأنحاء على عكس ما هو حادث في اليمن.

ثم سلكنا المسيل إلى أسفل، لنصل إلى جرف يعترض بطنه، الذي يبلغ عرضه (٥٠) ياردة وتوجد به برك ممتلئة بالمياه حتى الحافة. ثم استدرنا حول هذا المانع لنصل إلى برجين متماثلين تابعين إلى قرية حبيل الرزم الصغيرة عند موقع التقاء كل من المقطر والجُوَّة. وكنا الآن على ارتفاع (٢٧٠٠) قدم أسفل قمة فيفاء وكان مستوى الأرض مريحاً للجمال التي وجدناها في انتظارنا في الموعد المحدد. ثم دفعنا إلى الحمالين من أهل فيفاء أجورهم، وامتطينا الجمال على الطريق إلى مجرى الجوة وإلى موقع التقائه مع باتِع الذي ينحدر من سفح فيفاء ناحية الجنوب، ويسمى المجرى المشترك الآن باسم المَيْثَة وهو ينساب ناحية الشمال الشرقي حتى موقع تدفق مسيل حَزمران ثم ينحني في عنف ناحية الجنوب الشرقي في طريقه ليتصل مع مجرى الفَرِع.

ويكون شريط حزمران والميثة من هذه النقطة خط الحدود بين مقاطعة فيفاء ومقاطعة بني مالك، وتستمر الحدود ناحية الشمال الغربي مسافة أعلى حزمران، إلى سلسلة الكرمة ونحن نتبعها إلى مضيق يكون رأس شعيب الكرمة. ثم هبطنا من المضيق إلى أرض بني مالك بين جلاميد شستية وقد كان المجرى الكثير الشجيرات يعج برعاة بني مالك، وبقطعان كبيرة من الماعز. ويقع في بطنه ثقب الماء المسمى خطوة حماحمة وكان عمق الماء قدمين داخل بركة مبطنه بالبناء، قطرها (٣٠) بوصة. وتقع بالقرب منها أطلال قلعة تسمى أمعكيدة على سلسلة منخفضة خلف مسيل معجلة التي تجري فيها الحدود القبلية، وتقع أمعكدة على جانب بني مالك من الخط. ويجري وادي الكرمة من هنا ناحية الشمال الغربي ليتصل مع وادي جوراء، بينما استدرنا نحن ناحية الشمال على مسيل رَفاث[1] إلى مضيق بين جلاميد كثيبة والذي من عنده ينحدر مسيل آخر بالاسم نفسه، إلى وادي الجوراء الذي يمكن رؤيته الآن إلى البعيد ناحية الشمال.

---

(١) رفاث يطلق عليه أيضاً اسم (ذرفات). (ابن جريس).

لقد قوبلنا بحرس شرف بعد عشر دقائق، وقبل وصولنا إلى الوادي الرئيس إذا بجمع يتألف من أهل بني مالك، الذين أطلقوا رصاصة واحدة من بندقية تحية لنا، وكنت أثناءها أسير على قدمي، بالرغم من أنهم قدموا إليَّ جملاً لأركبه إلى داخل المعسكر. رفضت هذا العرض مع الشكر، ذلك لأن المسافة كانت قصيرة وفي خلال عشر دقائق وصلنا إلى مجرى جورا لنجد الأمير وعدداً من الشيوخ المحليين إلى جانب مئة شخص آخرين في انتظارنا. لقد كنا هنا بالفعل عند رأس وادي جورا الذي اتبع مسيل عرقين ومسيل طية ليتصل مع شعيب اهراين عند السلاسل السفلى حول خَاشْرٍ. لقد قمت بالتقاط صورة تذكارية للشيوخ ورجال القبائل بعد انتهاء مراسيم الاستقبال الرسمية. واستقرينا في المعسكر في بطن الوادي. لقد كنا هنا عند ارتفاع (٢٣٠٠) قدم فوق سطح البحر، وحوالي (١٠٠٠) قدم فوق سوق عيبان الذي من عنده هبطنا بعيداً عن وادي الجوراء لزيارة فيفاء.

يقع مركز إمارة بني مالك في قرية القهبة، في السفوح التالية للسلسلة الرئيسة، حيث قام بمقابلتنا عبدالله بن شرقة القائد العام وممثل الحكومة، لقد كان عبدالله رجلاً نشطاً، محبوباً وشاباً، وله ميل واضح نحو الحماسة الدينية، وينظر إلى نفسه بأن له رسالة نحو الوثنيين لدعوتهم إلى الطريق السوي. لقد كان عبدالله في هذا المجال أكثر حظاً من ذلك الذي يقابله في فيفاء، حيث تكون المساجد في حكم النادرة أو غير واضحة، ربما بسبب تشتت المناطق المأهولة وغياب الحياة الاجتماعية على أي مستوى كانت. لقد كان بنو مالك منظمين بشكل مختلف في قرى ذات حجم معقول، وفي قرى صغيرة ذات قصور تكون منعزلة من حين لآخر. وكان أبرز بناء في كل القرى، صغيرها وكبيرها، هو المسجد الذي يصر

التقليد المحلي على طلائه باللون الأبيض عند بداية شهر رمضان. لقد يسرت مساجد القرى، من وجهة نظري علامات أرضية لا تخفى لأغراض المسح. وهكذا بالرغم من أن الشعائر الدينية بصفة عامة لبني مالك ذات لمسة زيدية كما في فيفاء، إلاَّ أنه يوجد هنا التزام أكبر باتباعها[١].

يبدو أن بني مالك، إلى جانب ذلك، مسلحون بدرجة أفضل من جيرانهم، ويحمل كل رجل بندقية من طراز ما. لقد كانوا هذا هكذا للدرجة التي أنه حينما جلسنا حول طبق العشاء تلك الليلة، لتناول وجبة ممتازة من جدي مغلي وخبز محلي، كان كل واحد من الرؤساء - والذين قد وجهت إليهم الدعوة لينضموا إلينا، قد برهن بأنه رجل خندق ممتاز، إذ جلس وبندقيته على مفصل ذراعه الأيسر وهو يغرف بالطعام إلى فمه بيده اليمنى[٢].

لقد كانت الصورة مُبَهْرِجَة، غير أنه أثناء تناول أطراف الحديث، حينما اعترضت على اصطحاب السلاح على طاولة العشاء، تدخَّل عبدالله بن شرقة للدفاع عن التقليد المحلي. وأوضح لي أن سلاحهم هو زينتهم. ولقد كاد أن يقول إن سلاحهم هو ملابسهم، بالرغم من أن هؤلاء الرجال القادة، وخاصة في مناسبة مثل هذه، كانوا يرتدون معاطف قصيرة مكشوفة فوق أجسامهم إلى جانب الخرقة التي تغطي العورة، وكان أتباعهم لا يرتدون شيئاً غير البنادق والخرق التي تغطي

---

(١) لا يستبعد ذلك؛ لأن حكومة الأئمة الزيدية في صعدة كانت تسعى جاهدة إلى نشر المذهب الزيدي في عموم جنوبي الجزيرة العربية، وبخاصة الأجزاء التهامية، ولكن نجاحهم كان محدوداً؛ لأن المذهب الشافعي كان الأكثر انتشاراً في معظم البلاد التهامية. (ابن جريس).

(٢) هؤلاء معذورون؛ لأن حياة الناس قبل ظهور الحكم السعودي كان يسودها الخوف بسبب انتشار الفوضى والاضطرابات، وعدم وجود الأمن الذي يحفظ للناس أرواحهم وأهليهم وأموالهم. (ابن جريس).

عوراتهم، إلى جانب حزام الخراطيش حول خصورهم. لقد دعوت الشيوخ بعد العشاء للحضور لسماع الراديو، وجاؤوا ومعهم كل حاشيتهم، لقد كان منظراً رائعاً أن ترى هؤلاء الرجال المئة كلهم تقريباً عراة، جاثمون في حلقة كبيرة وقد ارتكزت بنادقهم على كتوفهم العارية في لمعان باهر في ضوء مصباحي. لقد كانت فلسفة الحكومة في هذه البلاد المرتفعة وبحق، هي عدم التدخل في أساليب حياة الناس، شريطة أن يحفظوا السلام فيما بينهم. وقد حافظوا على تقاليدهم العدوانية دون تغيير، وكما قد لاحظت ذلك بنفسي، خلال هذه الأيام، فإن العدائية الزعامية لقلاع هذه المرتفعات ينتقلون في أنحاء البلاد يصحبها حاشياتها الكبيرة من رجال مسلحين فقط بسبب أن ذلك هو الشيء الذي يجب عمله وكان يعمل دائماً. كان الفارق الوحيد أنهم الآن لا يهاجمون بعضهم بعضا بمجرد الرؤيا، غير أنه إذا كانت لديهم حزازات يودون التعبير عنها، فإنهم يرفعونها إلى ممثل الحكومة. ويستطيع المرء أن يتخيل أن حياة هؤلاء الناس قد اختلفت قليلاً عن حياة القبائل الأسكتلندية القديمة[1].

تنقسم قبيلة بني مالك، وهم فرع من خولان -على الرغم من أنهم لا يرون أنهم جزء من اليَهانْيَة- إلى ثلاث قبائل رئيسة. لقد كانت القبيلة الأولى هي آل كثير التي تحتل قمم السلسلة الرئيسة وتنقسم بدورها إلى أربعة أجزاء: (أ) العليلي[2] تحت رئاسة جابر الذي تقف قلعة مقر سكنه واضحة فوق قمة تسمى طَلاَّن، التي تحتلها قرى قسمه. (ب) آل حبس تحت رئاسة الشيخ فرحان بن

(١) والآن أصبح عموم الناس في هذه الأجزاء، وفي غيرها من أجزاء المملكة العربية السعودية يعيشون حياة تسودها المحبة والإخاء وخدمة الدين والبلاد. (ابن جريس).

(٢) العليلي: يطلق عليهم أحياناً اسم (آل علي). (ابن جريس).

داهمة وتحتل قمم رميح. (جـ) آل سلمى في التلال السفلى للذاري الأغبر[١] والجزء الشرقي من الجرف الذي يطل على آل ضمد ورئيسهم جابر بن يحيى آل سلمى. (د) إن آل يحيى تحت رئاسة الشيخ حتروش في منطقة الحدود لوادي ضمد. ثم تأتي في الدرجة الثانية من حيث الأهمية، قبيلة آل سعيد برئاسة الشيخ علي بن فرحان، الذي يكون مقر رئاسته في قرية منصية على جرف ضمد إلى الغرب من مقاطعة آل سلمى. وتأتي أخيراً القبيلة الثالثة وهي آل خالد، برئاسة الشيخ يحيى بن شريف بن كبيش الخالدي، وهو مضيفنا المباشر، ومراكز قيادته في قرية خاشر التي عندها تنتشر قبيلته في التلال السفحية مائلة الزاوية بين السلسلة الرئيسة والجرف حتى حدود فيفاء غرباً.

ويزعم شيوخ بني مالك بأن قبيلة آل حريص هي واحدة من قبائلهم، ولربما كان هذا صحيحاً عن طريق الرابطة عبر اليهانية، التي وردت الإشارة إليها، غير أنهم -وباعتراف الجميع- مستقلون تماماً عن هذا الاتحاد ومنقسمين إلى جزأين: حريص الحشر (وهم أهل مرتفعات ويحتلون جبل الحشر شمال بني مالك) وحريص الجنوب[٢] (أهل المنخفضات حول العارضة جنوب فيفاء وفيما يلي ضمد). ولقد تم الاعتراف باستقلاليتهم، وذلك بوجود مركز حكومي منفصل إمارة على كل من الحشر والعارضة. وتكون أقصى قمم سلسلة بني مالك الشمالية، لويات السنين، جزءاً من مقاطعة العليلي ويكون رأس عرقين في الانطواء الذي يقع بينه وبين الحشر ويؤدي دور الحدود بين بني حريص وبني

---

(١) الذاري الأغبر ربما يطلق عليه أيضاً اسم (الذاري أمغبر) (ابن جريس).

(٢) تعرض رواية أخرى هذين القسمين لبني حريص بأنه لا علاقة بينهما إلاَّ في الاسم فقط، وتشتمل على المجموعة الجنوبية في اليهانية، مع بني مالك وأهل فيفاء وبني جماعة، بينما يعترفون لبني حريص الشمالية برتبة الاستقلالية. (المؤلف).

مالك. وتشتمل بلغازي إلى الغرب من الحشر على آل جنادة، وسليماني، بني عبد وآل أمزرعة. ويكون الاتحاد القبلي الرباعي لكل من بلغازي، بني منبِّه، وأشر ونفيسة مجموعة تسمى فَرود، تقارن مع مجموعة اليهانية التي تربط بين فيفاء وبني مالك وبني حريص[١]. كما يتبع كلا المجموعتين قبيلة خولان.

إن مجرى عرقين مجرى مهيب ببطنه الرملي وهو يقترب من موقع التقائه مع أهراي الذي سنعسكر فيه. ويتوقف غَيْلَه الذي يقال إنه ذو طول معتبر، فجأة على مسافة (٥٠٠) ياردة أعلى الملتقى، ولا يظهر غيل جورا فوق السطح إلاَّ على بعد نصف ميل أسفل الحوض، حيث تتقارب سفوح الجبال من كلا الجانبين لتكوِّن ممراً ضيقاً. ليس أهراين مياه غيل ويحمل المياه فقط أثناء موسم السيول كما يندر وجود الماء في خاشرٍ والقرى المجاورة وسفوح السلسلة الرئيسة، كما كان الحال في فيفاء، حيث يقومون هنا بزراعة محصول خريفي للدخن، ومحصول ربيعي لكل من القمح والشعير كما هو الحال في فيفاء. ينتج البن في كل من تلال بني مالك وعلى الحشر. كما لا يوجد نظام للري، وتعتمد كل الزراعة على الأمطار.

يسيطر موقع معسكرنا على منظر شمولي لطيف لكل البلاد من حولنا، وقد ألقت الشمس المشرقة الصاعدة من فوق قمة فيفاء العظيمة هالة من الضوء الذهبي، الذي قد فاض فوق قمم بني مالك إلى عمق (١٠٠٠) قدم إلى أسفل وأضاء المساجد والقلاع التي تقف على جروفها. لقد اتجه زوار بني مالك منذ الساعات الباكرة ليوم الأمس (الخميس) إلى سوق عيبان، من أمام معسكرنا المنتشر وهم في طريقهم إلى قراهم قادمين من أعلى وادي الجوراء ومعهم حميرهم

---

(١) ذكرت لي أسماء مجموعات أو أقسام أخرى في أوقات مختلفة بأنها تنتمي إلى فرود، إلاَّ أنه من المحتمل أن تنسب إلى واحدة أو الأخرى من هذه المجموعات وهي: الشيخي، والدَّوشي، والعِرِّي، والقَهَري، والعيَّاشي، والبطيني، واليزيدي، والخولي. (المؤلف).

وجـمالهم وهم ينشـدون متـحفـزين لإثارة انطلاق أغنيـة يؤديها رجـال القبـائل المعسكرون معنا. لقد قطع معظمهم رحلتهم هنا لتـحية شيوخهم الكبار الذين معنا ولتبادل أخبار الإشاعات. لقـد استمعت مساء الأمس إلى ترانيم بيت لحم، وكنت أتمنى لو كانت لديَّ وسيـلة لتسجيل الأغاني الشـعبية الإيقاعـية لهؤلاء الناس[1]، الذين كنت أجلس معهـم الآن، كان من خواص كلامهم أنهم لا يسـتطيعون نطق حرف «د» المنفرد، ويضيـفون إليه نغمة حادة «إي» كـما في «ديفا» بدلاً من «دفا» وتنطق جفعه ومن «عندي الله» بدلاً من «عند الله».

لقد مشيت على قدمي بالأمس كل المسافـة من فيفاء إلى رأس الجوراء، وكان هنالك الكثير من اللغط حول إرسال الحمـير لتنقلنا نحن، والجمال لتنقل العفش، بحجة أنه توجد هنا كل وسائل المواصـلات، وسرعان ما واصلنا الرحلة إلى أعلى وادي أهراين، مخترقين مسـاحة لأحواض صغيرة غير مزروعة وقـد شيدت حولها الجدران للإمساك بميـاه الأمطار. ثم تركنا أهراي بعد عشرين دقيـقة لمجراه الصعب إلى اليسـار، وتتبعنا مجـرى رافد اسمه قلحـة، كان بطنه الجاف الحجـري مغطى بالشجـيرات المنخفـضة، وبعض أشجـار العلب الجيدة. ثم يضـيق المجرى ونحن نواصل السيـر فوقه مارين ببـئر مبنيـة تسمى فقـوة قلحة، وهي مشيـدة حول نبع ضئـيل ومنه وصلنا إلى قرية حيـد أمحمـر الصغيرة المـنظرية وهي وطن سالم بن شريف، أحد الشيوخ الثانويين الحاضرين معنا.

---

(١) إن الفنون الشعبـية والأغاني والأهازيج المتنوعة في جنـوبي البلاد السعودية جديرة بالدراسـة والتحليل، وذلك لعدة أسباب منها:-

(أ) جودة إيقاعات هذه الأغاني والفنون لما تحتويه من عبارات جميلة وحكم وأقوال قيمة.

(ب) أنه لا توجد هناك دراسات علمـية حول هذا النوع من المعرفة، والحقـيقة أنها من مسؤولـيات أقسام علم الاجتماع في الجامعات السعودية. (ابن جريس).

لقد كان الوادي صعباً للنقل بواسطة الحيوانات بعد هذا الموقع وعليه فقد تم نقل عفشنا إلى فريق الحمالين من البشر. تسيطر قرية خاشرٍ من موقعها هذا البارز على التل، على رأس قلحة الذي يتكون من عدة مسايل تتقارب من شبكة السلاسل التي تكون هذه المساحة من الأرض. ثم تسلقنا منحدراً شديداً لأحد هذه السلاسل إلى قرية الشعيث الصغيرة، وواصلنا السير من فوق القمة النحيلة ووصلنا سريعاً إلى أول مدرجات القهبة. لقد كانت المدرجات الزراعية هنا أضيق من المدرجات العادية في فيفاء وتدعمها جدران عالية يصل بعضها إلى سبعة أقدام. كانت المدرجات السفلى الآن عارية، وقد أصبح الدخن جذامة بعد حصاده، غير أن المدرجات العليا كانت مكسوة بشجيرات البن والموز. لقد كان ارتفاعنا هنا حوالي (٤٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. وهذا بالتقريب أدنى ارتفاع يمكن أن تنجح زراعة البن عنده في هذه المرتفعات.

تقف قلعة القهبة التي تستخدم الآن مقراً لقيادة الحكومة ومركزاً للإمارة، في شموخ فوق صخرة ضخمة من الشست الممزق ويبرز على هيئة خطوط لألواح عمودية والتي تم استخدامها في ذكاء عبقري لتكون بعض جدران البناء مما جعل القلعة تبدو كأنها نامية من جوف الصخر. كانت القلعة ذات حجم معتبر، منتشرة فوق سلسلة السفوح في هيئة مراحيض عديدة، وتمتد فوق عرن القمة المسطَّح، والذي يمثل جزءاً من المقبرة، بينما يكون الجزء المتبقي مكان غربلة الحبوب، وقد يستخدم مصلى في العطلات العامة. لقد تم تزويده - لهذا السبب - ببناءٍ به كوة للقبلة ومنبرٍ بدائيٍ للخطيب.

لقد أقمنا معسكرنا هنا، وكانت خيمتي الخاصة تقع عند حافة اللسان وتطل على منظر صافٍ إلى أسفل ناحية المسايل على الجانبين. تنتشر من حولنا قرى بني

مالك العديدة، وهي قائمة على امتداد سلسلة وفوق كل عرن وفوق كل هضبة، لقد كان المنظر بدائياً غير أنه مريح. يتم جلب المياه إلى القهبة من نبع يسمى متر يقع على بعد (٣٠٠) قدم إلى أسفل جانب التل الشديد الانحدار داخل مسيل امتلأ بأشجار التين وغيره. وتقف قرية الجران الصغيرة على مستوى موقعنا تقريباً على الجانب المقابل. لقد كانت مباني القرى ذات قيمة معمارية أو زخرفية قليلة، وحتى القبور في المقبرة كانت تحمل لمسات نهائية أنيقة، ومبنية من طبقات متبادلة من صخر بني داكن وصخر أبيض (كوارتز). لقد كانت المنازل - بالرغم من أنها مبنية من مواد محلية غير مشذبة تماماً - ذات تركيب قوي وقد استخدمت فيها أخشاب العرعر الطويلة المستقيمة، وأعمدة مرتبة في أناقة، غير أن الغرف كانت صغيرة جداً وقذرة، وكانت أبوابها منخفضة جداً وكانت السلالم خطره إلى حد بعيد، بارزة من داخل الجدران بين الأرضيات. ويجب على المرء أن يكون حذراً وهو يتنقل بين الغرف ليتحاشى أن يصطدم رأسه بالسقف أو بالمداخل[١].

وصلنا بعد مسيرة قصيرة جداً إلى هذا الموقع، عند وقت الظهيرة. لقد طلبت من سعد أن يحضر لي علبتين عبوة أربعة جوالين من الماء الساخن، وذلك بعد أن ألقيت نظرة من على سطح القلعة على البلاد المجاورة، وذلك أثناء ما كان مطبخ القلعة يعد لنا وجبة الغداء، لأجل أن آخذ أول حمام لي منذ أن غادرنا جازان. لقد ارتديت أحسن ملابسي بعد ذلك، وعدنا كلنا مرة أخرى إلى القلعة حيث كان الأمير ينتظرنا على رأس وليمة تستحق جهد هذا اليوم مكونة من شاة مطبوخة وهي كاملة فوق أرز جبلي، ومعالجة بالزبيب والبهارات ومن عدد من الدجاج

(١) لا يظهر الارتفاع الكافي لأسقف وأبواب المنازل قديماً، وفي الأجزاء التهامية تكون اسوى من المرتفعات والبلاد السروية. (ابن جريس).

موضوع في أطباق محاطة بحسائها دون ذكر شيء عن الخبز القمحي اللذيذ. لقد شارفت الساعة على الرابعة مساء حينما فرغنا من الدعوة وما تبعها من تناول القهوة والشاي، وقضاء الوقت في الحديث، غير أنني استرخيت إلى نومة القيلولة تحت جدار مسطبي مرتفع ونمت لمدة ساعة كاملة. لقد بدأت السحب تتجمع من حولنا عند الغروب وقد غاصت الشمس من وراء ضباب كثيف من خلف براكين عكوة التي كانت واضحة لنا، كما حجبت السحب عني رؤية لمحة من البحر، الذي قيل إنه يشاهد من هنا في الأجواء الصافية.

لقد أدى الأمير معنا صلاة المغرب وقد أمَّنا، ثم تحركنا إلى منزل نائب القائد لقوة الإمارة واسمه قتمان وهو من مواطني وادي الدواسر وقد أقام منذ زمن طويل في تربة، حيث التحق بخدمة الحكومة. كان الحديث، أثناء هاتين الوجبتين، يدور حول الحدود التي كان عليَّ أن أفحصها بالتفصيل، وأدهشني الغموض وعدم التناسق في مساهماتهم أثناء النقاش، علماً بأن معظمهم كان قد زار منطقة الحدود خلال فترة خدماتهم. وتكمن المشكلة في أن الحدود على هذه الأرض تمتد على طول سلسلة جبلية عالية ليس بها سكان أو ماء، وقد لا يكون أي من الحاضرين قد رأى بالفعل أعمدة حدودية بها، على الرغم من أن معظمهم قد اشترك في أنشطة اللجنة المشتركة للحدود. لقد دعوت كل المجموعة معي وذلك للاستماع لجلسة الراديو، إلاَّ أنه ولسبب ما كان الاستقبال رديئاً ، واختفى الجمع كما اختفت جدران الضباب، الذي نهض في كتل عظيمة من الوادي المجاور، وانطبق على سلسلة القهبة.

ثم جلست هناك، وحدي بين السحب، ومعي مصباحي الساطع الذي يحيطني بهالة كبيرة من الضوء، والتي كنت لا أرى شيئاً فيما يليها. لقد خطر

بذهني أن زملائي قد انتهزوا هذا الغطاء الشامل وتوجهوا إلى منازل أكثر راحة، بينما في حالات نادرة حينما تصفو السماء جزئياً، كنت أنصرف إلى مزواتي. لقد كان القمر محاطاً بهالة ضخمة متعددة الألوان، وحينما فرغت من أعمالي، جلست أستمع إلى موسيقى رقصة عيد الميلاد، وكانت تبث من فندق الملك داود من إذاعة القدس.

كانت السماء خالية من السحب عند منتصف الليل، ولفترة من الزمن على الرغم من أن غطاءنا الضبابي استمر ثابتاً في مكانه خلال الليل، وسرعان ما عادت السحب بعد ساعة أو قريباً من ذلك متطايرة مرة أخرى. كانت الليلة برغم كل هذا دافئة ودرجة الحرارة الدنيا (٥٦) درجة، ووجدت سريري وكل ما حولي جافاً في الصباح الباكر، وكان هذا معجزة. بدأت رياح باردة تهب ناحيتنا وتحمل معها ضجيج قرى بدأت تصحو من نهيق حمار أو عواء كلب أو صياح رجال ينادي بعضهم بعضا. لقد كان هذا واحداً من إنجازاتهم، وهو أن يحادث بعضهم بعضاً على مسافات بعيدة فوق المرتفعات. يمكنهم من القهبة أن يطلقوا رسائلهم وأصواتهم (واستيعابها) إلى البعيد في كل من البِقْعَة[1] وضرع بالقرب من قمة طَلاَّن، على ارتفاع (٣٠٠٠) قدم، وعلى مسافة لا تقل عن الميل أو الميلين، في خط مستقيم. وكانوا يتبادلون الإشاعات بالأسلوب نفسه، من خاشرٍ إلى أهلهم عند قمة فيفاء، كنت أستطيع رؤية ما يقارب العشرين قرية كبيرها وصغيرها داخل إطار نصف قطر طوله نصف الميل من عند القهبة، وإلى جانب عدد آخر إلى البعيد، تقوم على سفوح الجبل من الحشر إلى قمم بني مالك إلى نيد الشق عند النهاية الشرقية لجرف ضمد، حيث يجري ممر إلى أسفل رافد الوادي.

---

(١) البِقْعَة: ما يعرف في بلاد الشام بالضيعة، وهي تضم عدة بيوت ومزارع، وربما يطلق عليها مصطلحات أخرى مثل:ـ الديرة، أو الناحية، أو البلدة وغيرها. (ابن جريس).

تحركنا مبكرين في الصباح أكثر من العادة، وقبل الساعة الثامنة صباحاً. ثم صعدنا، بعد أن مررنا بقرية نيد الحقو الصغيرة، إلى قرية جميلة شبه مدمرة تسمى الدفين (حوالي (٤٣٠٠) قدم فوق سطح البحر) تقع في أرض بساتين ذات مدرجات واسعة تنحدر إلى أسفل إلى الوادي.

لقد تميزت هذه القرية أيضاً بأن بها صهريجاً مبنياً بالأسمنت على جانب التل بجانب الطريق، وبرغم أنه كان خالياً من الماء في هذا الوقت وذلك لأنه يعتمد على مياه الأمطار التي تنحدر في جداول ضحلة إلى حافته. ثم مررنا فيما يلي هذا بمنزل منعزل على جانب الطريق إلى قرية الشملا الصغيرة عند كتف صخرة كبيرة والتي من فوق قمتها تقع قلة آل قطيل القتيل فوق الجرف. وتبدو قرية الشملاء وكأنها مهجورة، بالرغم من أن واحدة أو اثنتين من عششها لا تزالان تستخدمان، وقد شاهدنا عدداً قليلاً من الناس في ذلك الموقع، ثم صعدنا الطريق الصعب القصير المنحدر لنصل إلى ممر نيد الشق (ممر الشق أو الصدع)، الذي تتم حراسته من جانب الجلمود على ارتفاع (١٠٠) قدم أعلى من موقعنا، بواسطة برج مراقبة منعزل شبه مدمر. كنا لا نزال عند ارتفاع (٤٣٠٠) قدم فوق مستوى البحر، إلاَّ أننا نسيطر الآن على منظر واسع عبر وادي ضمد العريض، حتى التلال والسلاسل فيما يلي الحدود في أرض يمنية.

ثم يتبع الطريق الأسفل من هذا الممر، مسيل القَزْعَةُ الصخري إلى حيث قرية حبيل النقعة، والتي فيما يليها يطلق على المجرى اسم أهراين ثم يمتد إلى أسفل ليدخل ضمد في موقع يبعد حوالي ميلين من موقعنا ناحية الجنوب الشرقي، لقد برز تل العر الهرمي الرائع في الشريط نفسه، فيما يلي المجرى الرئيس، على ارتفاع (٥٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، وتقع قمم كل من عيَّاش والسقاء بعيداً

إلى يساره. لقـد أمكننا رؤية قرية مـدينة جاوى داخل وادي عريض ضـحل، يمتد جنوباً بين هاتين القمتين وبين السلسلة التي تتذيل بعـيداً منهما، وهي مركز إداري يمني محلي وهي أيضاً السوق الرئيس للمنطقـة. يشبه أهل بطين التابعين لتلال بني عياش، وآل يزيد التـابعين للعر تقاطيع سمـات أهل فيفاء، وإلى درجة أصـغر ما هما فرعان لأهـل منبه التي كما قد رأينا تنتمي إلى اتحـاد فرود في خولان. وتقع كل هذه المنطقة على الجـانب اليمني للحدود، حيث يمكن بالكاد رؤيـة كتف جبل النظير العظيم البارز، والمسـجد الصغير الأبيض اللون الذي يقف في قمـته العالية إلى ما يلي العر.

لقد وصلنا إلى قلة آل قطيل بعد مواصلة مسيرتنا فوق أرض منحدرة، مارين ببرج المراقبـة وصهريج مبني من الأسمنت وخالٍ من الماء وتملؤه أعـشاب مزدهرة، وهي مقر مضيفنا، يحيى بن شـريف. لقد ارتفعت القرية إلى (٥٠٠٠) قدم فوق سطح البحـر عند النهاية الغربيـة للجرف، مواجـهة لوادي ضمد ناحـية الجنوب، ومسيطرة على التـلال السفلى والسلاسل التابعة لأرض بني مالك ناحـية الشمال. لقد كانت قـرية مهيبة ذات منازل كبيـرة جيدة البناء، ومستديـرة ، غير أن أهم ما يميزها هو وجود نفـق واسع يقع أسفل الفجوة بين اثنين من أكـبر هذه المباني وهو مفتوح على الطرفين. ويبدو أن هذا هو المركز الاجتـماعي المحلي. وقد قضينا فيه مدة ساعة في جو بارد بعد مسيرتنا المرهقة. لقد التحق بنا كل سكان القرية لمناقشة شؤون العالم مع تناول القهوة والشاي، وذلك لأن مـثل هذه الرفاهيات كانت غير معروفة لديهم. ولرد الجميل نحو إكرامنا لهم، فـقد قدموا لنا معلومات كثيرة عن البلاد التي تمتد أمامنا في بانوراما رائعة.

نستطيع الآن رؤية وادي جلة حجام وهو يهبط إلى ضمد عند موقع يبعد حوالي ميلين ناحية الجنوب الشرقي، عند السرج المنخفض الذي يربط بين كل من عياش والسقاء. لقد كانت الغابة العظيمة التي تغطي سلسلة كل من العريف والكتف هي أكثر المعالم لفتاً للانتباه وعلى رأس كل منهما تجري الحدود إلى ممر نيد خرمة، ثم تنحدر إلى وادي جحام، ثم تمر على مستوى أدنى على الجانب القريب من كل من السقاء وعياش والعر. وتقع قمة فيفاء الآن ناحية الجنوب الغربي من موقعنا، وتوازن العر ناحية الجنوب الشرقي، بينما وقفت قمم بني مالك العظيمة قليلاً ناحية الشمال الغربي. كما وقفت ناحية الشرق من موقعنا وعبر ضمد كتلة جلحة حول نيد خرمة، وتنتشر قرية شَهْدَان الكبيرة، وهي مقر رئاسة حتروش التابع لآل يحيى، إلى أسفل فوق السفوح الشديدة الانحدار بالقرب من القمة. ويقع جزء من معقد جلحة بما في ذلك قريته في أرض يمنية. ويحمل مسيل سرمه[1] الذي يفصل قسمي الكتلة الصخرية، جانباً من الحدود إلى قرية أيحام.

لقد كانت مسيرتنا متقطعة، وقد استغرق وصولنا إلى القرية التالية نصف الساعة، وهي قرية نعامة ولا تبعد بأكثر من الميل الواحد فوق الجرف، ثم عبرنا ما بين هذا الموقع وقرية عَثْوان التي وصلناها خلال ربع الساعة، وعبرنا الحدود بين قسمي آل خالد وآل سعيد، ووجدنا أنفسنا في آل سعيد ونحن ضيوف على الشيخ مدة ساعة كاملة، واسمه علي بن فرحان، وكان ينتظرنا عند باب منزله وبرفقته حشد منظري لأفراد قبيلته. لقد كان كرمه وافراً أكثر منه مشهياً ولم أكن راغباً في

---

(١) سرمة: - أحياناً تلفظ (حرمة) والاسم الصحيح هو (سرمة). انظر: عبدالله القباع. **العلاقات السعودية اليمنية**، ص ٤١١ . (ابن جريس).

تناول ما احتواه طبق العصيدة الضخم الذي يسبح السمن من فوقه[١]، والذي وضعوه أمامنا لفتح شهية مجموعتي، لقد تركتهم لها واستأذنت من علي لأقوم بمسح المنظر العام من فوق السطح، حيث ألقيت نظرة على الحشد البشري الضخم، الذي تجمع حول المنزل لتحية هذه المناسبة، لقد كان هنالك الكثير من أشجار العرعر فوق هذه السلسلة العالية، غير أنها كانت في معظمها في مجموعات مبعثرة، بينما كان تركيب السلسلة نفسها من شسث شبه الألواح مع عروق متكررة من الكوارتز.

ثم تنحدر السلسلة إلى وادي ضمد مع عدد من العرنات التي يتكرر بروزها، كما توجد بعض القرى الصغيرة في وسط المزارع المسطبية التي يطلقون عليها اسم حَيْفَة (جمع حياف) بينما تطلق على الحقول المستوية فوق القمة اسم ضربة[٢]. لقد شاهدت عدداً كبيراً من النسوة، أثناء سيري، وهن يخرجن من بين جوانب التلال ويحملن حزماً ضخمة من نبات يسمى الشث، واسع الانتشار في كل هذه التلال ويكثر أيضاً في جبال الحجاز وفي الطائف. ثم يقمن بسحق الأوراق لعمل صبغة للمصنوعات الجلدية المحلية[٣]، وكن حينها متجهات إلى سوق السبت المحلي، في الفَرَحَة التي تقع أمامنا، بينما كان هنالك جمع آخر من وادي دَفَا عائدين إلى منازلهم بما اشتروه من بضائع حينما وصلنا نحن إلى السوق.

---

(١) العصيدة:- من الأطعمة الرئيسة عند سكان جنوبي البلاد السعودية، وهي منتشرة بشكل أوسع عند سكان جبال السروات، ولها أسماء عديدة مثل:- العصيدة، أو المشغوثة، أو العيش، أو اللهيدة وغيرها. (ابن جريس).

(٢) ضربة:- ربما يطلق عليها أيضاً اسم (ثاهرة). (ابن جريس).

(٣) أشجار الشث يتواجد بكثرة في المرتفعات الممتدة من الطائف حتى نجران، ويعد من المواد الرئيسة في دباغة الجلود. (ابن جريس).

لم نتوقف في أي من القرى التي تلي عثوان. ثم تركنا قرية منصية وهي جانب منعزل من عثوان وتقف على طرف الجرف، وتتبعنا طريقاً على امتداد الجانب الجنوبي لسلسلة تمتد في اتجاه الشمال الشرقي، لنصل إلى قريه الرقبة الكبيرة، غير أننا عبرناه إلى الجانب الآخر عبر مضيق، وواصلنا سيرنا في محاذاة قرية الأثبة الصغيرة التي تواجه التلال الشمالية. لقد تجاوزنا بذلك كلاً من الرقبة نفسه وقرية سوق الفرحة وما هي حقيقة الا امتداد له، وتقع مثل منصية، على حافة الجرف الذي كان ينحدر إلى أسفل الوادي، عند موقع يتقابل فيه ضمد مع رافد من كلا الجانبين. كان ممر رحارح العظيم على جانبيه، وهو ينحدر رأساً إلى أسفل بزاوية حادة بين صخور مسننة، بينما أقبل من جهة الجنوب وادي المديره متعرجاً فوق سفح سهل، بعد خروجه من السفوح التلية لسلسلة الحدود. ويتكون هذا الوادي من عدد كبير من المسايل تتلاقى داخل الحاجز لتكون مجراه، غير أن منبعه يقع في الانطواء الذي تكوَّن بالتقاء كل من سلسلة كتفه وكتلة جلحة. ثم انشقت سلسلة الجرف فيما يلي الرقبة إلى فرعين، وقد وقفت قريتا الحدفة (الحَجفَة) و(النَّشَمَةُ) على قمة الفرع الداخلي أو الشمالي، فيما يلي مسيل عميق يفصل بينهما.

تستطيع رؤية خط جرف مرع، بعيداً ناحية الشمال الشرقي، فيما يلي السلسلة الحدودية، بينما نهضت قمم القهري، قريباً منا بجوار منحنى لوادي دفا، وهي تقع على الجانب اليمني للحدود. ثم واصلنا سيرنا فوق السلسلة بينما ينحدر مسيل الرقبة ماراً بالقهبة ومنها إلى الجَوَّة ومن ثم إلى الجوراء إلى اليسار، ووادي ضمد إلى اليمين وفي عمق، إلى أن وصلنا إلى تلال معقدة تصل بين القمم الرئيسة وسلسلة بني مالك وسلسلة الجرف الخارجية، ويتعرج الطريق هنا بين شبكة

نيد وقع الذي تنحدر على جـانبه الأيمن التلال الخارجيـة في عنف في طريقها إلى وادي ضـمد، الذي يتكون رأسـه من سلسلة من المسـايل تجـري داخل وحداتها المستقلة، كما يجري وادي حريص إلى اليسـار وإلى أسفل ليتصل مع الرقبة كرافد نهائي الجوراء، بينمـا أمكننا رؤية لمحات لمجرى دَفَا، من أمامنا إلى ناحـية الشمال الشرقي وهو يدور حول قاعدة ثهران التي تشمخ أمامنا بكاملها.

ثم سلكنا الممر الخطر عند المضيق الذي تم قطعـه داخل جرف شديد الانحدار مكوناً رأس مسـيل عشوش داخل دائرة واسعـة. ويكون هذا المسيل الرأس الرئيس لوادي ضمـد الذي يفصله حزام ضـيق من تلال منخفضـة عن مجرى دفـا. لقد أمكننا أن نرى فيـما يلي دفا بعض قرى ومـزارع عراب المسطبية في مـسيل ثهران وذلك أثناء هبوطنا التدريجي من المستوى العـالي للجرف إلى التلال السفلى حول مضيق نيد أم أثبـة الذي مهد للوصول لرأس ضمد ومـجرى دفا. ويسكن آل تليد قرية عرب، وهي القرية الوحيدة في كتلة ثهران، وتكون دفا الحدود بينها وبين بني مالك، غـير أن لبعض عناصر بني مـالك (بني حبس) الحق في استـخدام المراعي والغابات (للوقود والخشب) في منطقة ثهران. ويقع مضيق أثبة، وتوجد عليه عشة واحدة غير مؤجرة بجوار صهريج صغير فارغ مبني على ارتفاع (٥٥٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر، وحوالي (٥٠٠) قدم أسفل الممر العالي لنجد وقعه. لم ننته بعد من الهبوط إلى أسفل، فسرعان ما وصلنا إلى ممر آخر، اسمه نيد الرزمة الذي يربط بين وادي ضمـد ووادي دفا، والذي وصل ارتفـاعنا فيـه إلى (٤٧٠٠) قدم فقط فوق مـستوى سطح البحـر. ويجري مسيل غابس من هنـا إلى عشوش على جانب واحد من البـداية الفعلية لضمـد، بينما يجري على الجانب الآخـر شعيب قعيتمان لمسافة نصف الميل ليدخل في دفا.

كنا لا نزال نواصل هبوطنا غير أن الهبوط أصبح لطيفاً ولمسافة (٥٠) قدماً إلى أدنى نقطة في الخط الفاصل بين الواديين العظيمين. كان هذا هو نَيْد العَقَبَةَ وكان الممر ممتازاً، وهو من أكثر الممرات استخداماً بواسطة الناس الذين يعبرون من أحد المجريين إلى المجرى الآخر. لقد هبطنا بذلك حوالي (١٣٥٠) قدماً من الممر الذي يعلّم أعلى بقعة في الطريق على امتداد سلسلة الجرف. والذي صعدنا فوقه من عند ممر نيد الشق (٤٥٠٠ قدم) إلى قلة آل قطيل عند ارتفاع (٥٥٠٠) قدم. لقد كان صعودنا متّزناً، من قلة آل قطيل إلى نيد على ارتفاع (١٠٠٠) قدم. ويوجد نيد داخل بلاد ذات سفوح تلالية منتظمة مكسوة بالغابات، خاصة أشجار القرظ الذي كان جافاً جداً.

لقد تجاوز الوقت زمن الغروب، وكانت بقية مسيرتنا سهلة إلى وادي دفا، الذي عسكرنا فيه عند الساعة ٦,٣٠ مساءً بالقرب من الثقوب المائية ومن مياه غيل الفقوة، وعلى ارتفاع ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وعلى ارتفاع ٢٣٠٠ قدم فوق موقع التقاء دفا مع وادي بيش، ولربما كانت المسافة حوالي ٢٠ ميلاً على امتداد الوادي المتعرج، الذي يجري في اتجاه شرق الجنوب الشرقي إلى غرب الشمال الغربي ولمسافة الميل الواحد على جانبي الفَقْوة لينحرف بعدها في اتجاه الشمال الغربي حتى غاب عن أعيننا في انطواءات التلال. لا أستطيع أن أرى مجراه الأعلى عند الموقع الذي يقترب منه من أعران ثهران الجنوبية، غير أنه يبدو وكأنه يجري ناحية الشمال الشرقي إلى الموقع الذي يتكون عنده رأسه وذلك باتصال مسيل مريسيقة مع مسيل الجوه، كما كان قد شوهد عند عقبة عَلْب.

لقد وصلنا الآن إلى ختام مرحلة كاملة من رحلاتنا، وذلك لأننا قد عدنا مرة أخرى إلى الحدود وغداً سنبدأ العمل الشاق لترسيمها إلى الخلف ناحية سهل

تهامة. لقد كان يومنا طويلاً هنا وعلى الرغم من تناول غـذاء العصيدة في عثوان، فقد كنا على استعداد لتناول العـشاء الفاخر من الأرز ولحم الماعز، الذي تم إعداده لنا على وجـه السرعـة. لقد كـان معـسكرنا في بقـعة جـميلة فـوق بطن الوادي الحصوي، وتشـمخ الجبال العظيمة من فـوقنا. وكانت مياه الغيل منقطعـة غير أن الثقوب المائيـة كانت مستديمة، بينمـا امتدت شجيـرات خفيضة مـزدهرة وأعشاب عطرية. لقد كان الضباب كثيفاً أثناء الليـل، كما كان كل شيء مبتلاً في الصباح، عندما استـيقظنا لأداء صلاة الفجـر عند الساعة السادسـة والنصف، ثم بدأ رجال قبيلة بني مالك في الإنشاد والرقص، بعـد أن فرغنا من العشاء المتأخر الذي أحس كل فـرد منا بأنه قـد اكتـفى منه وارتاح، واسـتمـر الغناء إلى وقت مـتأخـر من الليل[١]. كمـا أطلقت بعض الطلقـات من البنادق، وأضفت على الجـو الراقص حيوية، واسـتمر الرقص في إيقـاع مرتفع حتى أدركهم الانهـاك، فصمتـوا فجأة واستغرقـوا في نوم كنوم القائم بالعدل. لقد كان غناؤهم منسـقاً، غير أن الرقص كان مملاً.

---

(١) إن عادات السمر والاجـتماعات الليلية قديماً كـان يتخللها بعض القصص والحكايات الشعبـية، بالإضافة إلى بعض الأهازيج والأغاني والرقصات الشعبية، والهدف من هذا كله هو التسلية والترويح عن النفس. (ابن جريس).

الفصل الثامن والعشرون

حدود المرتفعات[١]

كان علينا مراجعة كل شيء قبل أن نبدأ المرحلة التالية من الأحداث. كان عبدالله بن شرقة، الذي رافقنا لبعض الوقت ومعه شرطته، مسؤولاً عن كل الترتيبات وكنت مرتاحاً أن أترك له حرية عمل كل شيء. لم يكن عبدالله فقط كفئاً، بل كانت له أساليب لطيفة للتعامل مع الناس، كان يمزج الحزم في كل الأمور الجادة مع التسامح تجاه الخطأ الذي يمكن الصفح عنه، لقد كان حقيقة يستطيع العزف على اللحن المناسب في تعامله مع هؤلاء الشيوخ وأتباعهم.

كان من العرف المتبع لدينا أنه يقع على عاتق الشيخ الرئيس لأي مقاطعة يحتمل أن نعبرها في الطريق، أن يقوم بمقابلتنا على الأقل عند حدود أرضه ويظل مرافقاً لنا ما دمنا داخل مملكته[٢]. لقد استطعت بهذه الطريقة أن أكتسب معرفة العديد من شيوخ القبائل وأن أقيِّم أهميتهم النسبية على المستوى المحلي، ذلك لأنه يجب أن يذكر بأن كل رئيس قبلي يستمتع بمكانته التقليدية وهيبته، إلاَّ أن شخصيته الذاتية ومقدرتها، تعني الكثير في الإطار الديموقراطي. لم أدخل أراضي آل العليلي[٣] في أي مرحلة من مراحل مسيرتي عبر منطقة بني مالك، ولم يكن

---

(١) لمزيد من التوضيحات عن مرتفعات منطقة جازان، وهي المقصودة في هذا الفصل باسم (حدود المرتفعات)، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص١٧٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) إن حسن الترتيب والاعتناء الجيد الذي ناله فيلبي من الملك عبدالعزيز آل سعود ورجال حكومته خلال هذه الرحلة، من أهم وأعظم الأمور التي أنجحت هذه الدراسة حتى تخرج لنا في هذا السفر الكبير. (ابن جريس).

(٣) العليلي أو آل علي، وكلا الاسمين صحيحاً. (ابن جريس).

من الضروري أن يتفقد جابر، شيخ قبيلة العليلي، تقدم ترحالنا، غير أنه وبدافع إرادته المحضة قد قام بإرسال حفيده أسعد بن حسن ليرفع تحياته إلينا وليقوم بمرافقتنا. لقد رافقنا من جورا، غير أنه لما كانت أراضيه تقع خارج إطار منطقة فحص الحدود، فقد منحته إذناً رسمياً بالانصراف مع هدية مناسبة لأتعابه ورسالة شكر لخاله. لقد غادرنا أسعد أثناء الليل بعد أن تناول معنا وجبة العشاء. كنا بالفعل داخل بلاد حبس أو على حدودها في الفقوة. التي كنا قد دخلناها من أرض قبيلة آل سعيد من نَيْد. لقد التحق بنا فرحان بن جبار أمداهمة[١]، وهو شيخ قبيلة آل حبس في عثوان، غير أنه برهن على عدم فائدته لنا، وطاعن في السن وقد سمحنا له أو شجعناه على الانصراف أثناء الليل، تاركاً ابنه جبران يشرف علينا ممثلاً له حتى ننتهي من أرض حبس التي -كما ورد من قبل- تندلق فوق تلال ثهران وتمس الحدود على جانبي ضمد. كما غادرنا يحيى الخالدي، راجعاً عندما وصلنا إلى عثوان على أن يلتحق بنا في وقت لاحق حينما تعود بنا رحلتنا مرة أخرى إلى حدود أرضه على امتداد ضمد، لقد كان رجلاً طاعناً في السن وجذاباً. وقد ظل في مرافقتنا علي بن فرحان، وهو شيخ قبيلة آل سعيد حتى قرية الفقوة، غير أنه لا حاجة لنا به وقد سمح له بالعودة.

لقد انتهينا بذلك من الأقسام الشمالية لبني مالك. ولا يزال الشخص الذي نرغب في لقائه غائباً. كان ذلك الشخص هو رئيس قبيلة آل يحيى، حتروش بن سلمان، الذي قد أُرسلت إليه رسائل مستعجلة تطلب منه اللحاق بنا دون تأخير، وذلك لفحص حدود أرضه. لقد كنا في حاجة إلى بعض أتباعه خاصة أولئك

---

(١) أمداهمة: اسمه أيضاً فرحان بن جبار بن داهمة، أو (الداهمة). وجميع هذه الأسماء صحيحة مع اختلاف في بعض الحروف للاسم الأخير. (ابن جريس).

الذين عملوا من قبل في وضع أعـمدة الحدود، لم تجد رسائلنا أذناً صـاغية، ولم يحضر حتروش أو أيّ شخص آخر من أتباعه لمقابلتنا، وفي الفقوة يبدو هذا الأمر غريباً وقد احـتار عبدالله بن شرقة في تفسـيره. ثم انتهى كل شيء على ما يرام، وذلك بحضور حتروش في الصباح الباكر إلى معسكرنا ومعه حاشيته الكبرى. لقد كان حتروش شخصية لطيفة ومسيطرة، لقد أدهشنا حضور يحيى الخالدي لمرافقتنا، ويبدو أنه قد غيَّر رأيه، أو أنهى ما كان يؤديـه من عمل كان يشغله، وقد شجعت عودته هذه علي بن فـرحان على البقاء مـعنا. كان لدينا بذلك جمعـاً منتظماً من القبائل تحت تصرفنا، بينما ازداد حشـد الموهوبين المحليين بإضافة متعب بن جابر، شيخ آل تليد وخبير الحدود.

بدأت العمليات لهذا اليوم بحضور كل هؤلاء، بزيارة إلى هضبة منخفضة في سفوح التلال التي تطل على الفقوة (أو فقوة الريم، لإكـساب الثقوب المائية اسمها كاملاً) وذلك بغرض مسح أَوَّلِيٍّ للمنطقة التي سنكتشفها.

يتاخم وادي دفا، الذي ينحنـي ناحية الغرب أعلى الفقـوة، ومن على جانبه الأيسر، شريط من تلال سفحية تفصـله عن رأس ضمد، ويبلغ عرضه ميلاً واحداً مع انحدار (٢٠٠) قدم إلـى المجرى، ويقيده من جانبـه الأيمن ذلك الجلمود الذي يرتفع إلى (٤٠٠) قـدم من سلسلة تفصله عن قـدم ثهران الفـعلية. وتطل بـقايا أبراج قرية الحِسِي القديمة على الجانب الأيسـر من عرن منخفض ينساب من إحدى قمم قلحـة التابعة لأراضي التـلال السفحيـة، وتقع نيد إلى جنوب غرب مـوقعنا وتكون نيد إلى ناحـية الجنوب الغربي أيضـاً، بينما يقع وادي عَرَب داخل مـسيله ناحية الشمال الغربي.

لقد شمخ هرم هجيدة العظيم، إلى أسفل مع اتجاه الوادي، وعلى الجانب الأيسر في مقابل العرنات الشمالية لثهران يسمى (صرمان) ربما يقصد بها سليماني بلهجة تليد)، ومعه السفوح الشديدة الانحدار لبني مالك، التي يصعب تحديدها منفردة من موقع المشاهدة هذا من ناحية اليسار. لقد تكونت في اتجاه أعلى الوادي انحناءة الوادي، بواسطة سلسلة عارف الطويلة، وعقدة القمم السفلى لجبال القهر، وقد التفت عن المنحنى الفعلي. وليست هنالك أي إضافات تفصيلية مهمة، ولذا فقد هبطنا إلى المعسكر لنتناول إفطاراً دسماً من اللحوم قبل أن نبدأ العمليات التالية قليلاً بعد الساعة التاسعة صباحاً.

لقد وصلنا إلى الحدود بعد أن سرنا على الأقدام مدة عشرين دقيقة فوق مجرى مياه الغيل المتقطعة والراكدة فوق بطن المجرى الحصوي، والتي تعبر وادي دفا في خط شرق - غرب، قليلاً أسفل انحناءته العظيمة. لقد كانت الحدود الرسمية على الجانب الأيمن تتكون من كتلة صخرة تسمى الرصيفي وارتفاعها ثمانون قدماً وتطل على مسيل رافد على جانبها البعيد، برغم أنه لم تكن هنالك حاجة لوضع عمود حدودي فوق جسم بارز كهذا. ويقف عمود قمع معروب على الجانب الآخر للمجرى، عند مستوى الوادي لتحديد الموقع الذي عنده يجري ذلك الخط داخل السفوح التلية ليصل إلى العمود الحدودي التالي على واحد من قمم القلحة[١] وفي مركزها. ويجب أن نذكر أنه عندما كنا في عقبة عَلْب، كنا قد اكتفينا بإطلالة من بعيد لما لا يقل عن نصف دستة من الأعمدة الحدودية، مثبتة فوق مجرى الجُوَةُ إلى موقع التقائه مع شعيب موتان ليكون رأس وادي دفا (أو

---

(١) قمم القلحة يطلق عليها أيضاً اسم (جبل أمقلحة) (ابن جريس).

وادي الريث كما يسمى أحياناً). لقد كان آخر هذه الأعمدة الذي استطعت أن أراها في ذلك الوقت هو الحُمرة، ويقع في مضيق يعترض العرن الجنوبي لكتلة ثهران، في موقع انحداره إلى مجرى دفا من فوق منحناه[١].

كان أحد مرشدي من منطقة بني مالك، والآخر من آل تليد يجهلان أسم الحمرة للأسف، وأخبراني أن العمود الحدودي التالي، والذي يقع إلى شرق الرصيفي هو نيد جنازة، داخل ممر يقود عبر العرن الخارجي لثهران. لقد استطعت في وقت لاحق أن أرى الموقع من أرض مرتفعة ولأقنع نفسي بأن كلا الاسمين يستخدمان من وجهتي نظر مختلفتين للعمود نفسه.

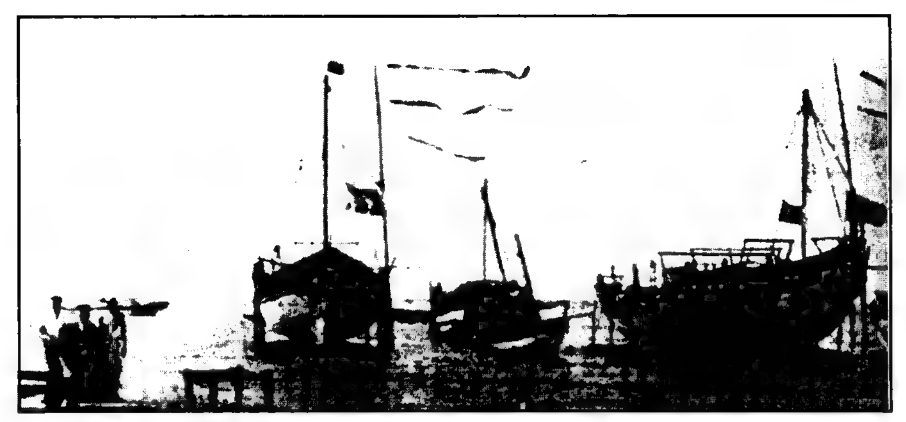
(١) معظم أسماء الأماكن التي وردت في هذه الصفحة توجد على الحدود بين السعودية واليمن، للمزيد من الإيضاح انظر: عبدالله القباع، المرجع السابق، ص٤٠٨ ـ ٤١٠، محمد آل زلفه. **عسير في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ . (ابن جريس).



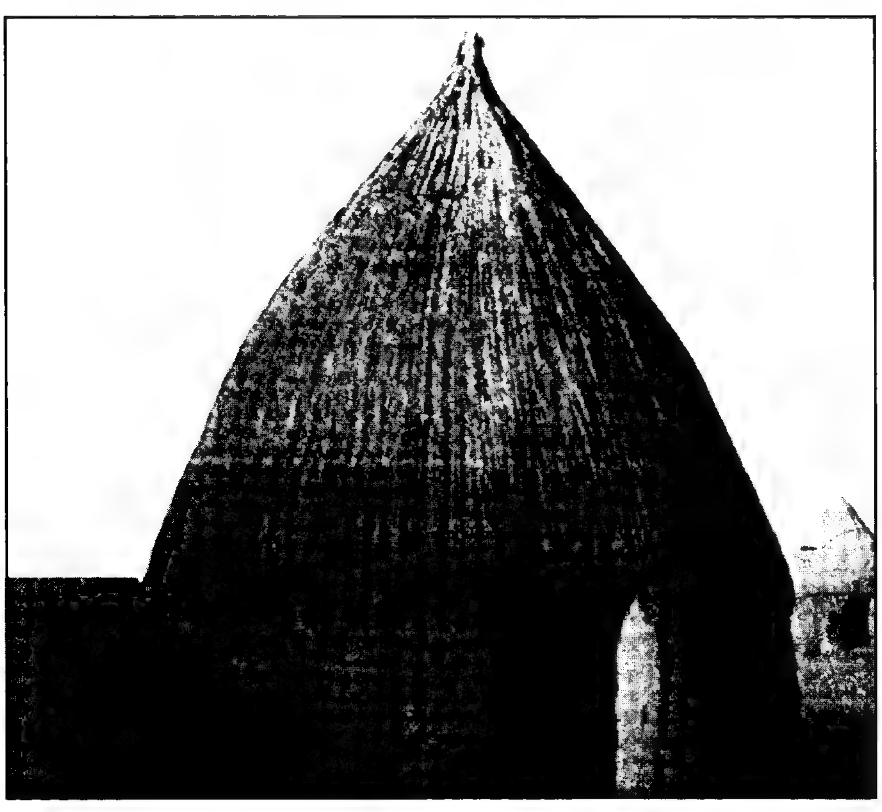
النظر من على جبل في اتجاه الشمال على امتداد عقبة علب



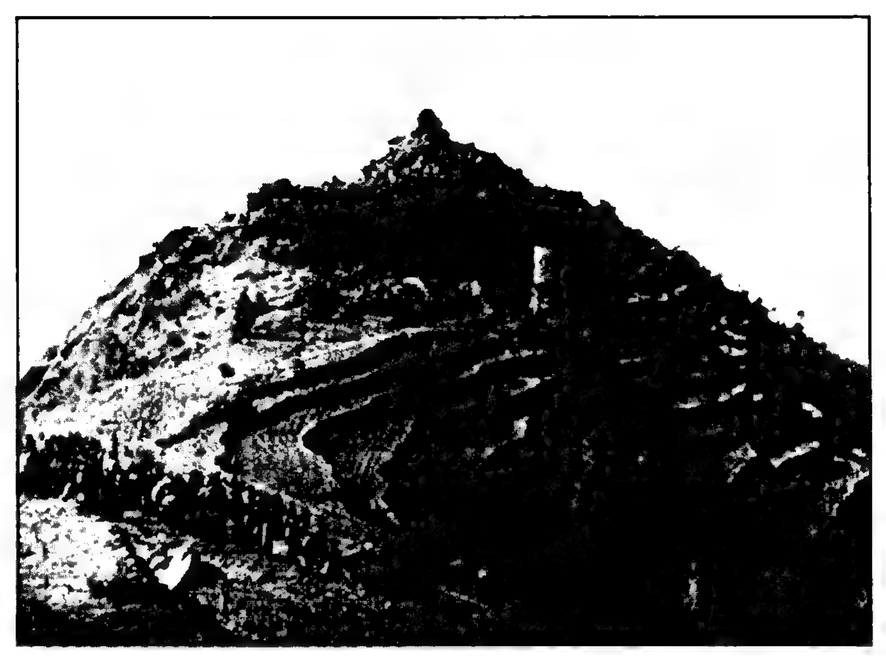
ثهران: دائرة حجرية في اتجاه الشمال الشرقي



جيزان: مراكب الرحو في الميناء مزينة بمناسبة العيد



عشة في الحسينية



فيفاء: قرية أم نقيل ورجال القبيلة يغنون



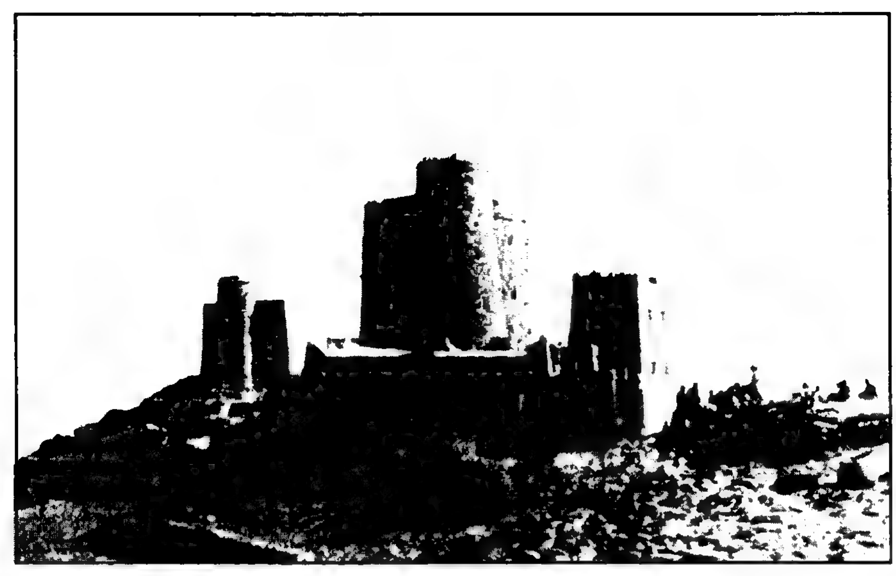
فيفاء: حصون فوق مرتفعات القمة الرئيسة، ويلاحظ منزل الشيخ جابر إلى أقصى اليسار



فيفاء: جيش قبلي في الجبل



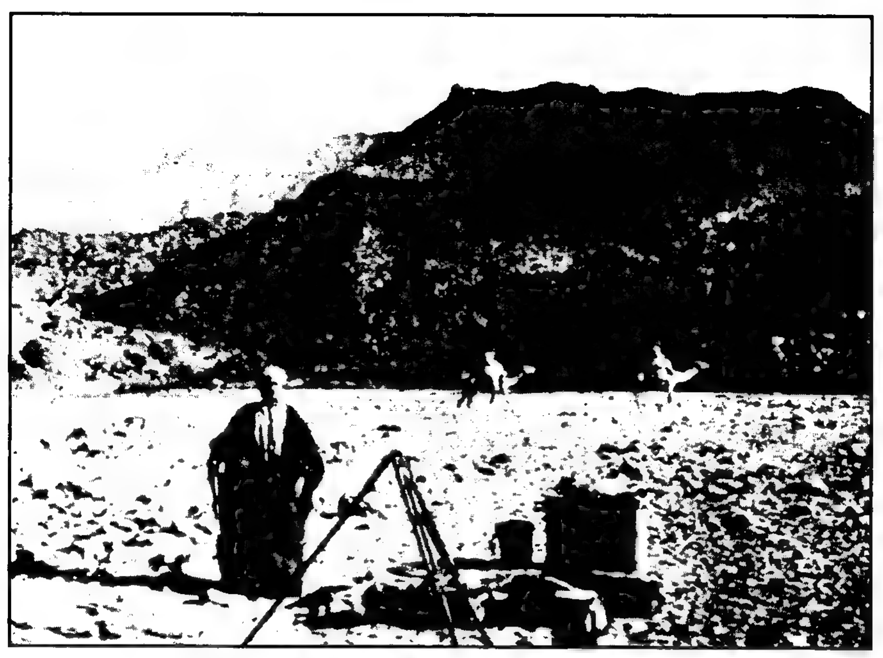
فيفاء: رجال قبائل يسيرون في صفين



فيفاء : حصن ومسجد شيخ علي في مروح



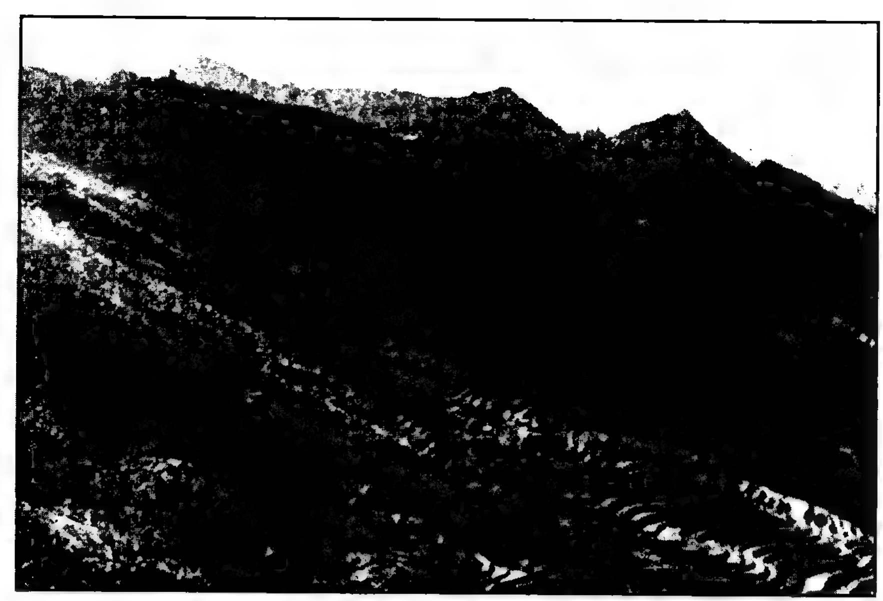
وادي الجوراء ورجال قبيلة بني مالك



يحيى أم شريف من بني مالك في معسكر الجوراء



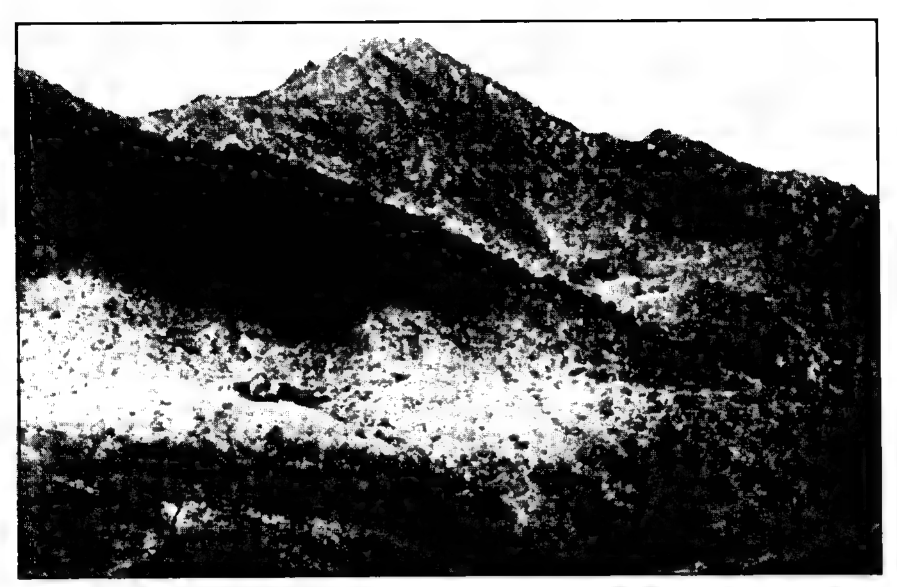
قرى القهبة، هجو، وختم من عند الحمرة



في اتجاه عبر وادي الرقبة، على السلسلة الأولى يلاحظ ذراع أمسودة، والنشمة، والحدجة
وعلى السلسلة الثانية تشاهد ريدة، والثاهر، وخاشر، وخطيبة، وروحام



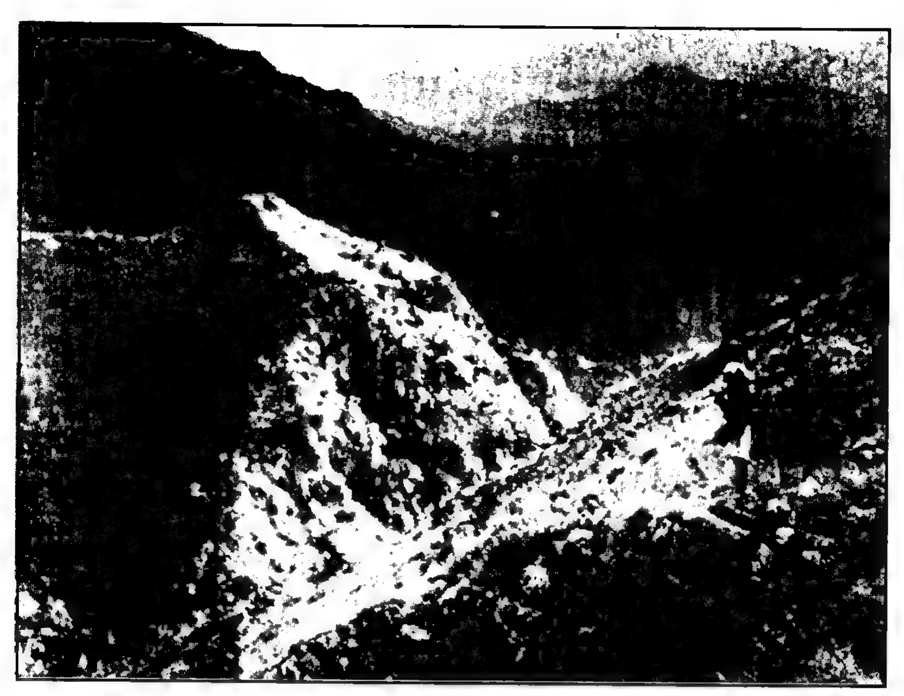
عمود قمع معروب، حتروش ومتعب ويحيى على اليسار وعلي بن فرحان على اليمين



منظر على الحدود إلى قمة القلحة، فوق قرى منظر والصحيف على الجانب اليمني



ممر نيد أمنشمة (النشمة)



في اتجاه إلى أسفل وادي سموعة من عند قلات أمذيور (الذيور)



في اتجاه وادي حربرب من عند عياش



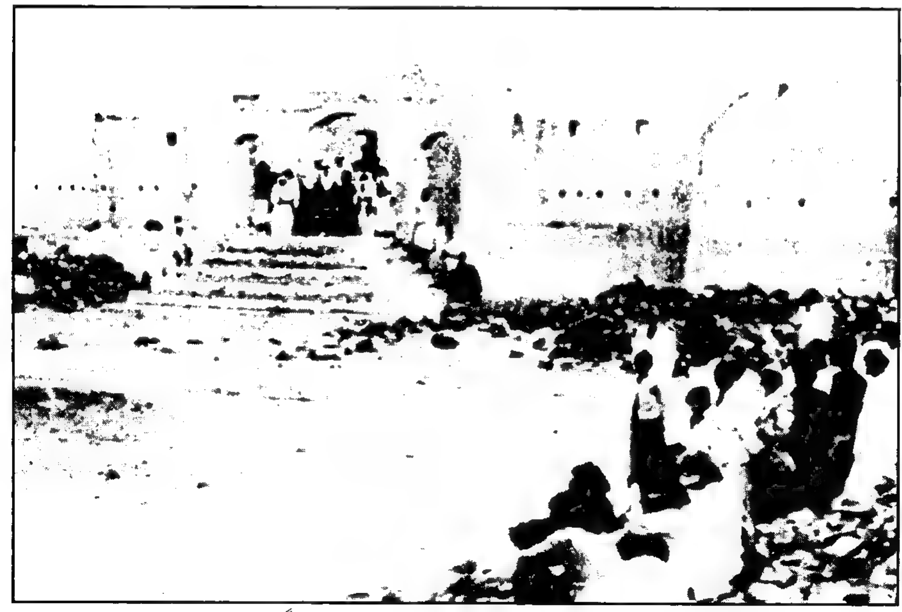
فرن بدو لاستخلاص الراتنج (الصمغ) بالقرب من وادي حربرب



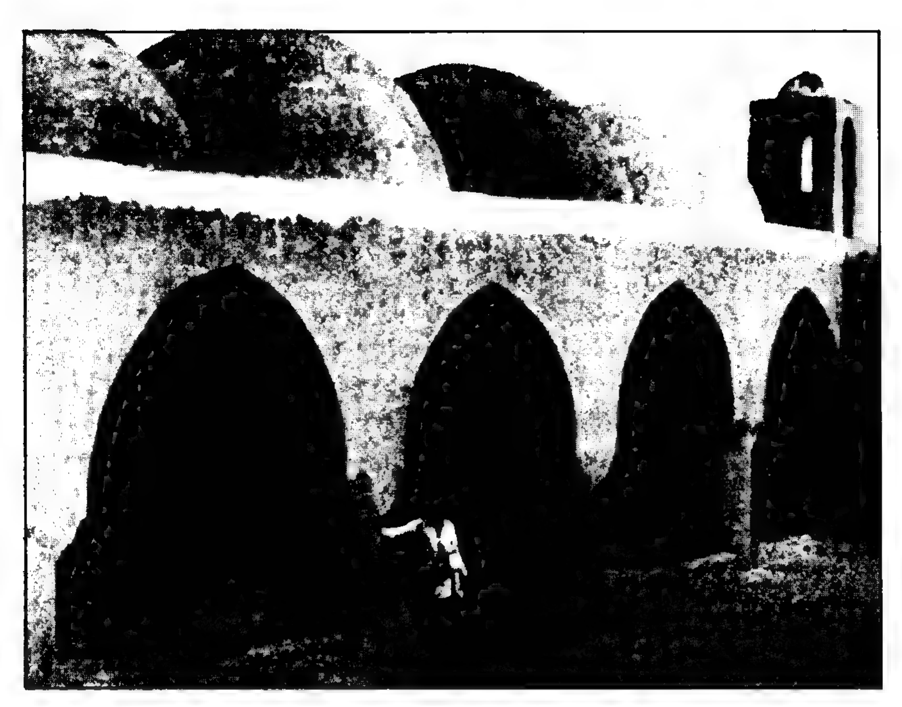
عمود قفلة الحدودي



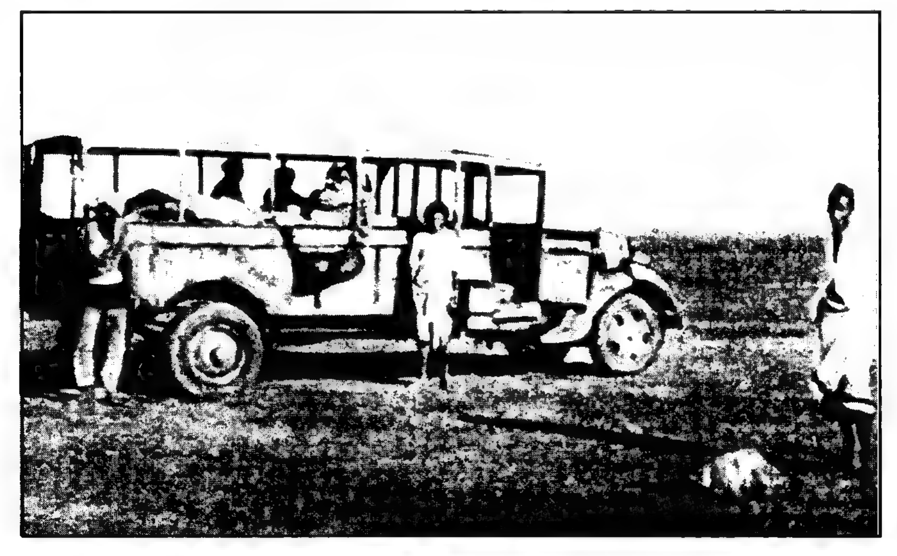
في اتجاه وادي جازان من مدخل



قلعة مدخل القديمة، مصانه جزئياً



الجزء الداخلي من مسجد أشرف في أبو عريش



عمود مقطع الرديف الحدودي على الطريق الساحلي بين جازان وميدي



علي بن نجيب وشريفين محليين بجوار كوخ في الخوبة



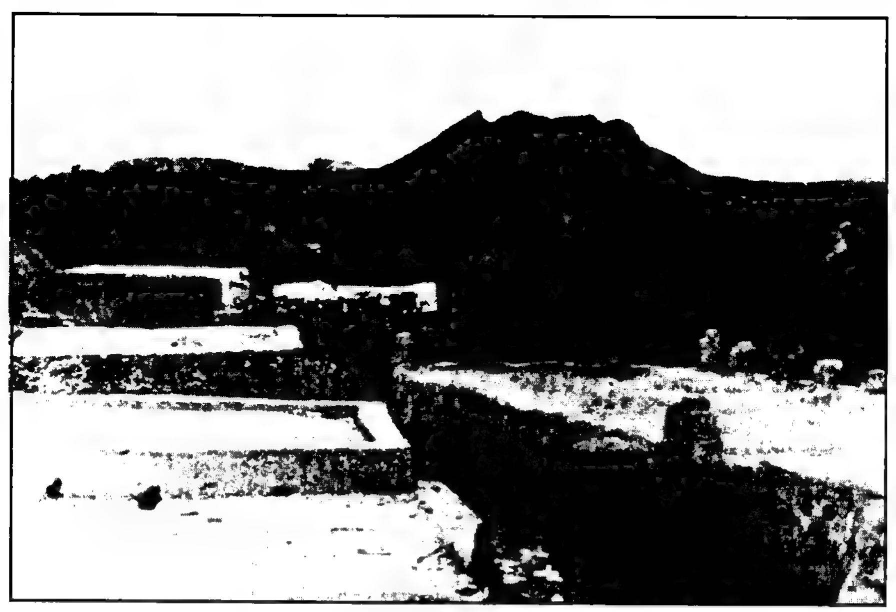
مسلتان (ضريحان؟) في وادي أمغيالة



قرية البيطارية، ناحية الشرق



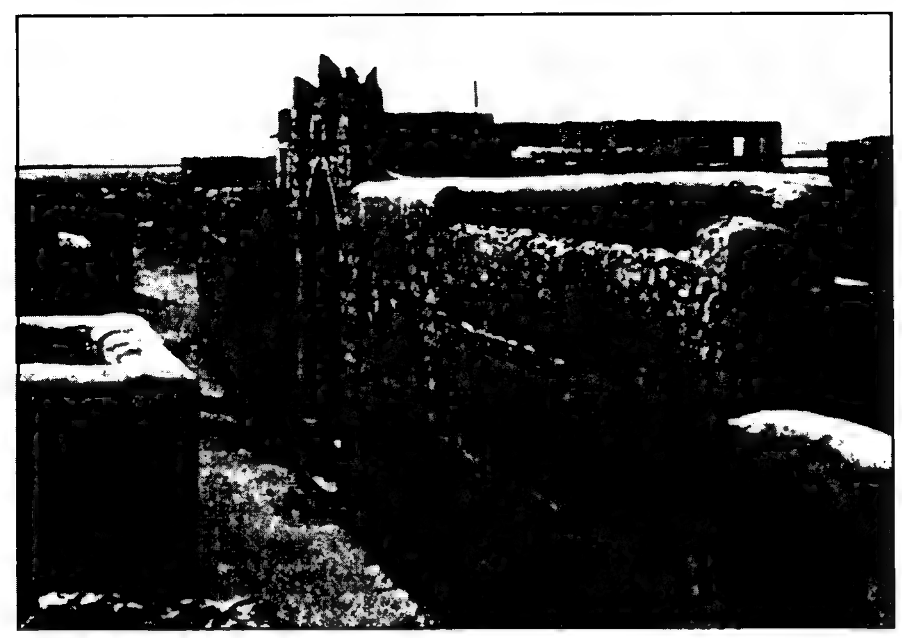
أم الخشب: الشريف حسن والشريف حسين وخداماهما



النظر ناحية الشرق فوق قرية القحمة تجاه الفوهات البركانية لكل من الطفة وخرمة



فجوة في الطريق عبر حقل حمم بركانية، ذات جدار مدعم وبوابة



شارع في القنفذة



وادي الأحسبة أثناء الفيضان، بالشاطئ الأيسر

لقد كـان الموقف متشابهـاً في كل الحالات -كمـا أرى- وقد أيدتني في ذلك اتجاهات البـوصلة وتعريفهـا. وبقبولنا لهـذا الرأي، فقد تم دمج أعـمدة كل من الحمرة ونيـد جنازة تحت الرقم (٤١)، مع احتمـال ضئيل بأنهما مـنفصلان. وهو احتمال على ضوئه أعددت الرقمين (٤١ و٤١ (أ)).. يتخذ جرف الرصيفي الرقم (٤٢) على الحـدود ويكون عمـود الحدود في قـمـة معـروب بالرقم (٤٣) وقمـة أمقلحة بالرقم (٤٤). وكنت بهذا قد ربطـت نهاية الحدود على الفجوة التي كنت قد تركتها من قبل في علبين.

يجري مسيل صغـير اسمه شعيب عرب في مقابل عـمود قمع معروب، إلى أسفل داخل دفا من سلسلة ثهران الخارجـية، وخطر بذهني أن الاسم لهذا العمود يمكن اشتقاقه من هذا وأنه يجب أن يكتب كما يلي «قمع أمعرب». استطعت رؤية قرية الشِـقْرةَ الصغـيرة عند جـرف الرصيفي، داخل مـسيلهـا الذي يحمل الاسم نفسه، في الموقع الذي يدخل من مسـيل الشقرة داخل دفا عند زاوية منحناه. وهو يقع بالطبع، داخل أراضٍ يمنية، وينتمي إلى قبـيلة آل ثابت، وهي من آل جمعة. ويدخل شعـيب جلال، قليلاً من حول المنحـنى إلى دفا، عند ممر يطل على وادي ضمد الأعلى عـلى الجانب البعيد. ويـوجد على هذا الممر عمـود حدودي سنعود إليه عما قريب.

عبرنا في هذه الأثناء للوادي من الرصـيفي، ناحية قمة أمـقلحة اتجاه الجنوب الغربي في وسط التـلال السفحـية. لقد كـانت مسيـرة مجهـدة في بلاد كئيـبة، ومكسرة، وصـخرية، وقد خـرجنا منها بتـسلق قصيـر وحاد لنصل إلى العـمود الحدودي (رقم ٤٤)، يقع عند القمة على ارتفاع حوالي (٥٣٠٠) قدم فوق سطح البحر. وحـوالي (٧٠٠) قدم فوق مسـتوى دفا عند قـدم الرصيفي. لـقد كانـت

لديَّ -لحسن الحظ- برتقالة واحدة في جراب المؤونة، كان قـد قدمها لي عبدالله بن شرقة وقد التـهمتها الآن، شهـية وسط حلقة معجبة من رؤسـاء نجد. لقد كنا من الواضح، أكثر عددية من أن نفكـر في اقتسامها، غير أنـني شعرت بالخجل بأنني كنت أخفف من عطشـي، بينما لم يحضـروا هم حتى زوادة الماء. لقد انتـهى أمر البرتقالة سريعاً -على أي حـال- وعدت لعملي. ونحن الآن تجاه الجنوب الشرقي من معسكر الفقـوة، وكان موقع عمود نيد جنازة واضحاً ناحيـة الشمال الشرقي، على مـسافة خـمسـة أميـال. ويقع مجـرى دفا داخل الزاوية التي يكونـها هذان الخطان، وهو ينحـدر ويدور بينما تمكنا من رؤية قـرية آل ثابت بأبراجها الـسكنية على السفح لمسيل يقع فوق الشـقرة، ويجري خط الحدود من هنا في اتجاه جنوب الشرق على امتـداد سنام السلسلة التي بدأت فوق ممر نيد جـلال إلى حيث جرف كتفه الكثيف الأشجار الذي عنده ينحدر مرة أخرى في اتجاه الوادي.

ثم سرنا على طريـق ممشى ماعز ملتـوٍ إلى منتصف المسافـة، عبر غـابة قرظ كثيـفة، ووصلنا إلى صخـرة شعيب جلال على الجـانب الأيسر، والتي تطل على قرية الصُحـيف الصغيرة التي وقـفنا عندها نزولاً عند رغبة متعـب رئيس قبيلة آل ثابت لننال بعضاً من كـرمه الذي كان قد غمرنـا به، ولتقديمه لنا الماء واللبن والبن من إنتاج مزارعهم الخاصة. لقد ناولته ريالاً ونحن نعد العدة لمواصلة السير، فقبله على مضض صادق؛ إذ إنه لم يرغب أن يجازى على كرمه[١].

(١) الكرم من الصفات الرئيسة عند سكان جنوبي البلاد السعودية؛ ولهذا فلا غرابة أن يمتعض رئيس قبيلة آل ثابت من أخذ عطاء من فيلبي؛ لأنه لم يكرمهم ويقـدم لهم الطعام والشراب بغرض العطاء وإنما هو كرم نابع من ذاته. (ابن جريس).

لقد كانت كل القرى الصغيرة التي تقع على الجانب الأيسر لدفا بالطبع، داخل أراضٍ يمنية وتقع تحت إدارة مقاطعة مجز. وينطبق هذا أيضاً على منظر، التي مررنا بها في طريقنا إلى مضيق وعمود الحدود نجد جلال، حوالي (٥٠٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر. ثم وصلنا هنا إلى انفصال مؤقت للطرق، وسأتجه ومعي في رفقتي حتروش وخبراء حدوده إلى حافة سلسلة الحدود العالية، بينما تتجه بقية المجموعة ويقودها عبدالله بن شرقة إلى مسيل قيف داخل وادي يشق طريقه في الجبال حيث سيكون معسكرنا بين الحقو وبساتين قرية معينة. ينحدر مسيل قيف عند رأس ضمد الذي يعرف محلياً باسم أم صدر، ويقع التقاء المديرة وضمد قليلاً إلى أسفل، بينما يقع موطن حتروش في قرية الولجة أو (ولده) فوق السلسلة الخارجية، بين المسايل التي تغذي المديرة والوادي الرئيس.

لقد كان رقم العمود الحدودي نيد جلال هو (٤٥)، وكان علينا أن نتسلق منحدراً شديداً غير أنه قصير، لنصل إلى العمود الحدودي التالي رقم (٤٦) ويسمى نيد السحايا. وتطل على نيد جلال مسطبة صغيرة كان عمودها الحدودي على مسافة (١٥٠) قدماً أسفل موقعنا، وغير مشاهد لنا، إلاَّ أنه مغطى بعدد كبير من ركام الحجارة، ولربما كانت موقعاً لمقبرة قديمة. لقد أمكننا الآن رؤية رأس ضمد وتحيط به صخرة جلمود مهيبة.

كنا لا نزال نواصل تسلقنا فوق نتوء صخري إلى كوم حجارة حدودي قبلي قديم (غير متضمن في القائمة الرسمية للعلامات، ولربما نصنفه تحت الرقم (٤٦ أ) لرزمة أم حرة التي تقع على حافة سفح شديد الانحدار على ارتفاع (٥٨٠٠) قدم فوق سطح البحر. كما يقع أمامنا منظر رائع لنيد جنازة ويرى فيه مسيل معول، الذي ينحدر من عنده إلى دفا الذي ينحني من عند موقع الالتقاء

إلى الخلف ناحية الغرب وعند قمم القهر، وتقع أمامنا الآن أيضاً مناظر أوسع ناحية أسفل وادي ضمد وحتى كل من عياش والعر جنوباً وفيفاء نفسها ناحية الجنوب الغربي، وتقع القرى المرتفعة فوق سلسلة آل يحيى قليلاً إلى يسار الشريط نحو عياش، وهي: الوجلة، والحدبة، وشهدان، والعصيمة، بينما وقفت منصية بارزة على جرف ضمد في خط واحد مع فيفاء تقريباً.

واصلنا تسلقنا لنصل إلى العمود الحدودي رقم (٤٧) واسمه نيد أمرفصة[١]، ويقع في مضيق بين رؤوس مسايل تتجه جنوباً ناحية وادي ضمد وشمالاً داخل الأراضي اليمنية لتتصل مع وادي حنبة وهو رافد لدفا، والذي يتصل عند المنحنى مع كل من شعيب جلال وشعيب الشقرة.

كان ارتفاعنا هنا حوالي (٦١٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر، وبعد تسلق قصير وحاد على السفح المقابل وصلنا إلى عمود الحدود رقم (٤٨) والمسمى رزمة الرقبة، ولعله يسمى هكذا لأنه يقف في واجهة قرية الرقبة فوق الجرف، كان ارتفاع الجرف حوالي (٦٢٥٠) قدماً، ويقع قليلاً إلى ورائه كوم حجارة رقم (٤٩) لرزمة أم فرحة، التي تقف في واجهة سوق القرية التي تحمل الاسم نفسه على ارتفاع (٦٣٠٠) قدم فوق سطح البحر.

ويتبع خط الحدود في هذا القسم محيط حلقة السلسلة الواسع التي تهبط في انحدار شديد في عدد من المسايل كثيفة الأشجار إلى مستوى وادي ضمد بينما

(١) نيد أمرفصة يطلق عليها أيضاً نيد الرفصة، انظر: عبدالله القباع، المرجع السابق، ص ٤٠٩. (ابن جريس).

يتصل بسلسلة حنبة على الجانب اليمني مع سلسلة حدودية (تسمى العريف تبدأ من نيد أمرفصة إلى الأمام) لتكون رأس وادي حنبة.

ثم واصلنا سيرنا حول طرف الحلقة إلى العمود الحدودي رقم (٥٠) بظهرات (ينطق ثهرات) أمقشعة، وهي على نفس ارتفاع العمود السابق، وقد كان المنظر بصفة عامة هو نفسه لم يتغير إلاَّ في ظهور قريتين على قمة السلسلة (هما ثاهر والسودة) بينما تقع المعينة ناحية اليمين إلى أسفل منا وتكون قرية الدارة الصغيرة وراء السلسلة فيما يليها.

نستطيع أن نرى بقية أفراد مجموعتنا وهم يستريحون في المعسكر بين بساتين معينة، وكانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً. لقد كنا عطشى بعد مسيرة يوم شاقة. وقررنا لذلك إيقاف العمليات لهذا اليوم، وسرعان ما كنا نسلك طريق العودة إلى أسفل عبر ممر شديد الانحدار فوق مسيل كثيف الشجر. لقد هبطنا خلال نصف ساعة إلى (١٠٠٠) قدم لنجد أحد رجالنا يجلس بجانب الطريق ومعه قربة ماء جلدية كنا قد رحبنا بها كثيراً، وتوقفنا عنده قليلاً لنستمتع بشراب الماء منها. كان هذا الرجل قد حضر لنجدتنا بناءً على التوجيهات التي أرسلت له بواسطة الصراخ والصياح من فوق المرتفعات ناحية المعسكر من أحد مرشدينا عند عمود قشعة الحدودي، الذي يقع على ارتفاع (٢٠٠٠) قدم أعلى السلسلة ولمسافة سير على الأقدام مدة ساعة كاملة كما فعلنا (دون احتساب زمن التوقف).

ثم مررنا بعدد من عشش البدو البسيطة التي تشاهد قليلاً أسفل هذا الموقع. ولربما كانت مجرد مواقع وقاية للمسافرين. ثم دخلنا المعسكر بعد غروب الشمس بقليل من فوق أحد حقول المعينة المحصودة ذات المساطب. لقد كان يوماً صعباً

ومرهقـاً، ونحن نحاول أن نتابع حـدوداً سيئـة المعالم في وسط غابة من أشـجار قصـيرة، والتي كنا نـحارب طريقنا خـلالها خاصـة تجاه الغـرب أمرفـصة، عـبر شجـيرات شـائكة وغيـرها من الأجمـات. لقد حاول الـشيخ يحيـى الخالدي أن يتخلف عن المجمـوعة في وقت مبكر، بحجة أنه متـوعك وعزا ذلك بلا خجل، إلى إكـثاره من تناول وجـبة فطورنا، الـتي كانت مكونة من لحم الضـأن والأرز، وأتبعها بالشـراب بشراهة من مياه الغيل دون ذكر شيء عـن المنعشات الأخرى في قرية الصحيف. لقد شعر حتروش بالملل من إجراءات سيرنا وحاول أن يكون سيئ الطبع مرة أو مرتين في محاولة لتقصير مسافة السير، ثم صار معقولاً أكثر وودوداً حينمـا تحقق له أنني مصـرٌ على مواصلة السيـر إلى أقصى مدى ممكن. لقـد كان رجلاً وسـيماً، متـقدماً في السن، مـع ميل عنده ليكون فظاً وعابسـاً وصرح لي متفـاخراً بأنه لم يتعـد حدود أراضي قبيلتـه من قبل إطلاقاً! كمـا رجاني علي بن فرحان، في الختام وكرر ذلك بأن نتوقف، وذلك بـحجة أن المعسكر سيكون بعيداً جداً عنا ولن نسـتدل عليه فـي الظلام، غير أنني كـما ذكرت من قـبل، كنت قد قمـت بتوقـيت كل شيء في قناعة. عندمـا وصل هذا النزاع إلى مـستـوى حرج عمـدت إلى الترمسين المحـتويين على كل من الشاي وشـراب القشر (قـشر البن) بالتتالي، وقد أنعشت هذه المكيفات كل فرد إلى فترة ما، كما أكرمنا علي بالزبيب مما ساعدنا على المضي في السير. لقد استفدت الدرس من كل هذا، وهو أنه وفي المسـتقـبل لا بد أن تكون معنا بعـض المؤن -على الأقل- لصد الجـوع أو العطش حتى لا يكون أي منهما سبباً للنزاع فيما بيننا.

لقد استمـتعت حين وصولنا إلى المعسكر ببراد الشاي، وبمحـتويات علبة من الكرز الياباني إلى حين الإشعار بقدوم وجبة العشاء. لقد كانت هذه أول مرة لأي

من هؤلاء الشيوخ ليقف فوق هذه القطعة من الحدود، وذلك باعترافهم بأنهم ظلوا مع أعضاء اللجنة في الوادي بينـما كانت لجنة الحدود تقوم بجولتـها في الأعالي. لقد أسند عمل بناء العمود الحـدودي -وبعد النقاش من الجانبين حول الموقع- إلى بدو يمثلون القبائل على جانبي الشريط. ولقد قاموا هم أنفسهم بأداء عملهم بشكل روتيني تعوزه الحماسة وتدفعهم رغبة موطدة العزم، وهي العودة لرفاهيات المعسكر بأسـرع ما يمكن. لقـد واجهـتنا هنا المشكلة المتكررة المتـعلقة بالبـحث عن بعض العلامـات بين أجمات الشـجر، وكادت بعض هذه العـلامات تبدو كـأنها تراكم طبيعي للحجارة أكـثر من كونه ترتيباً صنعه الإنسان أو عموداً مبنـياً. كان أكثر ما انطبع في ذهني عن هؤلاء الناس، هو افـتقـارهم إلى العزم وقـوة الاحتمـال أثناء المسيرة. كمـا كانوا كثيراً ما يتوقـفون لالتقاط أنفساهم، ومـتى ما سنحت الفرصة فكانوا يلقون بأجـسادهم تحت الأشجـار أو في ظل الصخور لحمـاية رؤوسهم من الشمس. لقـد كان عرضـاً شائناً، وكان جـهلهم العام بالبـلاد مدهشاً لي أكـثر. يستطيع أي منهم بالكاد، تسمية أي معـلم، حتى القرى التي تقع خارج منطقتهم، على الرغم من أنه قـد كان معـي ممثلون من العديد من أقـسام هذه البـلاد. كان طقس اليوم بارداً بشكل مرض، برغـم أن إجهادنا كان عنيفاً. كـانت الظهيرة ذات سحب في معظم الوقت مع حركة نسـيم لطيف، لقد تراكم السحاب عند الغروب ولم يكن هنالك أمل لي في ملاحظة النجوم. لقد كنت سعيداً بالذهاب إلى النوم مباشرة بعـد العشاء الذي لم يقدَّم لنا الآن عند الساعة الحادية عـشرة مساءً، وذلك لعدم وصول الماعز حتى وقت متأخر.

تقع قرية المعينة الصغيرة على مسافة (٣٠٠) ياردة من معسكرنا وتمتد حقولها ذات المساطب إلى ارتفـاع (٢٠٠) قدم إلى جانب التل إلى مـوقع فم صدع عظيم

ينحدر إلى أسفل الجلمود عند قمة سلسلة عارف. لقد تم حصاد الدخن وبدت المساطب عارية إلا مما تبقى عليها من جذوع، وكانت تتخللها مزارع صغيرة للبن هنا وهناك، كما كانت هنالك الكثير من المساحات من أشجار التين، وكلها عارية من الورق. يتصل كل من صدع حلاحل الذي ينحدر من عند معينة، ومسيل صومال، الذي نزلنا عن طريقه عند قشعة، إلى جانب مصارف أخرى ثانوية، بالقرب من القرية الصغيرة، لتعبر إلى الخارج عبر حواجز التل ناحية ضمد في ممر ضيق صخري شديد الانحدار، وتقف فوق رأسه أطلال السودة في شكل منظري. ترتفع المعينة إلى (٤٥٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر. وكان الطقس دافئاً في الوادي أثناء الليل ولا يوجد ندى. كما شاهدت بعض القرود في الصباح على سفح نتوء عارف، ولم يكن عددها كبيراً في هذه المناطق المأهولة جزئياً.

كان علينا أن نعيد تتبع خطواتنا، التي قادت إلى نزولنا من عمود قشعة الحدودي، وذلك لمواصلة مسحنا المتقطع للحدود. أعلن الشيخ يحيى إصراره على البقاء مع المجموعة من الفرقة التي ستتخلف على مستوى ارتفاع أقل، ولم أر مبرراً في الشجار معه حول هذا الأمر. ثم بدأنا التسلق عند الساعة الثامنة صباحاً ومعنا ما يكفي من مؤن للطريق داخل سلة يحملها أحد رجال حتروش، وكانت الساعة العاشرة صباحاً، وقد سال منا العرق بعد تسلُّق صعب، حين وصلنا إلى نقطة البداية لأعمال اليوم، وتوقفنا مدة ساعة نستطلع المنطقة. ثم تداخلت السحب كثيراً مع الرؤيا ناحية الجنوب وناحية الغرب، غير أنني كنت قد تحصلت في المساء السابق على اتجاهات كل من العر وعياش وجلحاء في الاتجاهين الجنوبي والغربي، وكان جلحاء هو الأقرب إلينا من بين الثلاثة وينقسم إلى كتلتين رئيستين، فالتي على اليمين أرض سعودية وتمتلكها قبيلة آل زيدان من آل يحيى،

بينما الأخرى تحتلها قبيلة خولي اليـمنية، التي تنتمي لاتحاد فرود (ربما كان متطابقاً مع نصيفه ابن خولان).

كان مـوقع ممر نيد جنازة واضحـاً ناحية الشمـال الغربي، بينما يقع العـمود الحدودي في أشقة ناحية الجنوب الشرقي، ويحمل هذا العمود الأخير رقم (٥١)، غير أننا حينما وصلناه عند الساعة الحادية عشرة كانت السحب قد تجمعت بكثافة، وغاب عن أنظارنا العـالم كله، عدا المواقع القليلة القريبـة للسلسلة التي تحدد خط الحدود ولكن بلا أعـمدة. ولقد تم تعليم هذه المواقع لأجل الملاءمـة حين الرجوع إليها بالإشـارة إليها برقم (٥١) (أ- ب - جـ - د - هـ) كما يمكن تجـاهلها كلها في كل الأغراض العملية ما عدا (٥١ أ)، وهي عـبارة عن مضيق حضر الذي منه ينحدر مسيل حنبة إلى أسفل على الجانب اليمني إلى موقع قرية ثهرات على جانبه الأيسر (وتنتمي الحنبة إلى آل جمعة)، ثم يدور ليتصل بدفا في وقت لاحق. وكان هذا المسيل، وكـذلك كل السفـوح والقمم حوله ومـضيق حضـر، مغطاة بكثـافة بأشجار العرعر والشث والقُمرّ، التي تدلّت من أغصانها كتل ضخمة من الأشنات الهوائية تسمى علايين. كمـا يوجد نوع من الصبار يسمى «خدن»[1] بكثرة وينمو من داخل شقوق الصخور. تـلمسنا من هذا الموقع النقاط الأربع الأخرى التي ورد ذكرها، والـتي كان أكثـر ما يلفت الاهتـمام إليـها هو أن مـسيل مسـرب يمر بين الأخيرتين منها إلى أسفل، من ممر يتـصل بعده مع صدع حلاحل، في طريقه إلى المعينة، وهي قرية غير مرئية لنا تماماً وذلك بسبب تراكم السحب. كما نستطيع من حين لآخر التقـاط لمحة لبعض السمـات وذلك من بين طبقات الضبـاب المتحرك،

---

(١) خدن: والاسم الصحيح هو (خَدَمْ) وهو من أنواع الصـبار، مع أن اسم (كراث) هو الاسم المحلي لنبات الصبار. (ابن جريس).

وكان من المستحيل القيام بأي عمل في هذه اللحظة ما عدا تحريك اتجاهات البوصلة من موقع إلى آخر وتقدير المسافات. ويبدو أننا متعلقون إلى البعيد في السماء من فوق العالم داخل غطاء من السحب.

لقد كنا نتلمس طريقنا من خلال الضباب وعبر الغابة التي تتقطر بالمياه، وذلك مدة نصف ساعة حتى وصلنا إلى جرف رأس سويد الذي يعلوه كوم حجارة حدودي قبلي قديم، والذي رفضت قبوله لجنة الحدود كمعلم حدودي عالمي. وربما لم يكونوا مدركين لوجوده، وعلى أي حال، فقد أصدروا توجيهاتهم إلى مبعوثيهم البدو لبناء كومة حجارة في هذا الموقع. وكانت النتيجة نصباً تذكارياً تعيساً من حجارة ومخلفات، كان نصفه قد اجترفته المياه إلى داخل الهوة الفاغرة الفم على عمق (١٠٠٠) قدم إلى أسفل الجرف، الذي وقف في شموخ على ارتفاع (٧٣٠٠) قدم فوق سطح البحر و(٦٠٠) قدم أعلى من أشقة. لقد كونت النقاط العديدة المعترضة التي لمسناها وتراً ضحلاً حول رأس الحلقة التي كانت سفوحها الصعبة والشديدة الانحدار مغطاة بكثافة بغابات العرعر التي امتدت فوق السلسلة الحدودية وهبطت أيضاً من ناحية سفحها الجنوبي إلى الحنبة. لم تكن هنالك، بالطبع، طرق فوق السلسلة، إلاَّ ما كان بعرض الممشى الضيق، فهو يقود من الشمال إلى الجنوب عن طريق المضايق والمسايل، ولكي نعبر الغابة كان علينا بالفعل أن نشق طريقنا شقاً إلى الأمام. ويضيف الضباب المبتل الاسكتلندي الكثير لهذا الاجهاد الشاق إلى جانب أنه ضار في أغراض المسح. وقد تمكنا من التقاط لمحات من حين لآخر ناحية الشمال والشمال الشرقي من خلال فجوات في الضباب. لقد أحاط من حولنا الخط الطويل لجرف مرع وَحَدَّ من مجال الرؤيا، من جبال مدحرجة، الموجة منها تلو الموجة، وسلاسل عالية مكسوة بالغابات.

توقفنا مدة ساعة عند عمود الحدود رقم ٥٢ على الرغم من الهجوم المغيظ لمستعمرة من النمل الحقيقي، يبدو أنها كانت غير راغبة في تطفلنا على خلوتها، وذلك على أمل ضئيل أن يتحسن الطقس. لقد كان سلوك زملائي أفضل مما كان عليه في اليوم السابق، ربما يعود هذا للمؤن الكافية التي أعددناها لأجل غداء النزهة. ولا أعتقد أنهم قد استمتعوا بالضباب مثلما فعلت أنا، ولكنهم على الأقل لم يتذمروا من الحرارة. واصلت السلسلة ارتفاعها في لطف إلى حيث العمود التالي نيد كرب (ينطق شرب، ولعلها تعني شرب أو سرب) عند رأس نتوء حاد يسقط إلى مسيل الثويري، الذي ينحدر فوق السفوح السفلى الصخرية كثيفة الأشجار للسلسلة، ماراً بقرية آل يحيى التي تسمى عثيمة وتقف على رأس عرن من الصخر. كان هذا العمود الحدودي رقم (٥٣) الذي يرتفع حوالي (١٠٠) قدم فوق ارتفاع جبل سويد محاطاً بغابة كبيرة من أشجار العتم مع نمو تحتي كثيف لنبات الشار الذي تواصل فوق قمة وجوانب السلسلة التي ما زالت تصعد إلى جرف قلة شيبان وهي معلم حدودي غير مسجل رقم (٥٣) أ يقع عند ارتفاع (٧٦٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر. وتقع قرية العصيمة ناحية الغرب من هذا الموقع، بناءً على ما قاله مرشداي، واللذان قد أشارا أيضاً عبر القناع الكثيف للسحب إلى ناحية الشمال الغربي إلى موقع معسكرنا الأخير في المعينة. لقد كان إحساسي الخاص بالاتجاهات مشوهاً، بلاد بلا علامات أرضية، واعتماداً على مرشدي، فقد رأيت أنه من الأفضل أن اطلب منهما التصويب بالإشارة إلى ناحية الجسم المطلوب بالبندقية، وأن أقف من وراء أكتافهم ومعي البوصلة لتحديد ذلك الاتجاه.

كان لديَّ الانطباع طيلة النهار بأننا كنا نتجه غرباً، بينما في الحقيقة فإن الاتجاه العام لمسيرتنا من قشعة وإلى الأمام كان ناحية الجنوب الشرقي، ويكون كل

من وادي حنبة والسلسلة فيما يليه (داخل وادي دفا على الجانب البعيد) على جانبنا الأيسر. ثم يتجه مسارنا، مصحوباً بارتفاع ضئيل، ناحية الجنوب الشرقي، مارين بربوة بلا اسم ولا علامة (٥٣ ب) إلى حيث العمود الحدودي التالي فوق الجرف واسمه قلة نبشة رقم (٥٤)، عند ارتفاع (٧٧٠٠) قدم. نحن الآن على ارتفاع يفوق أي ارتفاع آخر، وصله أيّ عمود حدودي آخر، فوق قسم الهضبة من الحدود ما عدا كل من صبحطل (٧٨٠٠ قدم) ورأس شعب القوم (٧٧٠٠ قدم). وتجري الحدود من وعوع إلى علب عند ارتفاع يزيد عن (٧٠٠٠) قدم وقد صار خط الحدود الآن من مضيق حضر (٥١ أ) إلى الأمام على الارتفاع نفسه (٧٠٠٠) قدم، ويعلو إلى (٧٧٠٠) قدم في موقعنا هذا وكذلك عند العمود الحدودي التالي رقم (٥٥) واسمه معقر، وكانت هذه هي أعلى النقاط لهذا القسم من الحدود المرتفعة. وكلما ارتفعنا إلى أعلى، ازداد الضباب، وكانت كل شجرة في نبشة وكل جنبة تتدلى من أفرعها الأشنات ويقطر منها الماء. كانت الحشائش التي تنمو على أرضية الموقع بنيِّة اللون وجافة كأنما قد عانت من الجفاف. وقد كانوا يجمعون الأشنات المتدلية ليصنعوا منها فرشاة لكنس أرضية المطاحن.

يرتد اتجاه الخط الحدودي من نبشة إلى الخلف، في اتجاه الجنوب الشرقي إلى ناحية الشمال الشرقي، ليصل إلى العمود الحدودي المسمى المعقر، وهو كوم بائس من حجارة سائبة ملمومة مع بعضها البعض لتؤدي وظيفة المعلم الحدودي. ولم نر القرود في كل هذه الأراضي ذات الغابات، غير أن مخلفاتها كانت منتشرة فوق السطح ولا بد أن تكون متوافرة في أعداد ضخمة. لم يكن هنالك غياب لثمار العليق البري وغيره من الثمار التوتية التي تتغذى بها القرود. لقد تجاذبنا أثناء سيرنا الحديث حول حرب اليمن، والتي أدى فيها حتروش وغيره دوراً مشبوهاً. ولقد

ساعدوا بالتأكيد وآووا عبدالوهاب ومتمردوه من الإدريسيين. ولقد أخبرني كذلك بأن القوات اليمنية قد تغلغلت إلى كل هذه المنطقة، وعبرت ضمد لتحتل جبال بني مالك وفيفاء نفسها.

لقد وصلوا إلى سوق عيبان واحتلوه لأيام قليلة، ولم يمكثوا لأكثر من شهرين، في المناطق التي تقع إلى الشمال من ضمد. كما وقع معظم القتال الفعلي بين عصابات عبدالوهاب وقوة حملة حمد الشويعر على سفوح وغابات سلسلة هذه الحدود، كما أدمن معظم بني مالك والقبائل المجاورة استعمال ضرب من بدائل التبغ يمضغونه باستمرار، ويسمى هذا الضرب من التبغ (بردقان)[(١)] ويحتوي على أوراق برتقال مجففة، مستوردة بكميات كبيرة من أسواق اليمن، والتي تتلقاها بدورها من مصادر أجنبية، معبأة في بالات مسطحة، تسحق الأوراق إلى مسحوق يشبه النشوق وتضاف إليه مادة تسمى دقدقة، غالباً مستخلصة من الليمون، ثم يحمل الخليط في صرة من قماش أو جلد والذي يستمرون في مضغه، ثم يبصقونه في كتل حمراء، تخلف علامات واضحة على الأرض والصخور ويبدو أن المادة منبهة في لطف[(٢)].

يدور شريط الحدود من معقر ناحية الجنوب الشرقي ليتجه إلى العمود الحدودي التالي واسمه نيد نشمة رقم (٥٦) عن طريق مضيق متعارض غير معلم يسمى شروه (٥٥أ). ثم ينحدر سفح السلسلة، على يسارنا ونحن نتقدم في هذا الاتجاه، عبر غابات كثيفة إلى الجزء الأعلى لوادي حنبة، الذي كانت فيه ثلاث

---

(١) بردقان: هو اللفظ المحلي الذي يستخدمه أهالي جازان، مع أن هذه المادة مستخلصة من قشر البرتقال المجفف. (ابن جريس).

(٢) هذا النشوق، أو الدقدقة لا زال كثير من اليمانية يستخدمها إلى اليوم، ونجدها متوفرة في الأسواق اليمنية وكذلك السعودية القريبة من الحدود بين الدولتين. (ابن جريس).

قرى هي مقره، وذات قسمين هما: حلقوم وخوارج بهذا الترتيب في اتجاه أعلى الوادي، ويقطنها كلها جماعة الحنابة بني حنبة من (بني جماعة).

كما تجري على الجانب البعيد من هذا الوادي سلسلة عقيبة الطويلة، ذات القمم المغطاة بالغابات، والتي تكون حلقة مع كتلة تليه تسمى شعثمي، وتقع بينها وبين سلسلة كتفة، التي تقع أمامنا، على شكل دائرة حول رأس الوادي. ثم هبطنا من المعقر لعمق (٥٠٠) قدم إلى مضيق شروه الذي عنده ينحدر نتوء حاد إلى عمق (٢٠٠٠) قدم إلى مسيل شروه وقرية آل يحيى في أسعر عند ارتفاع (٤٥٠٠) قدم فوق سطح البحر أو (٢٧٠٠) قدم أسفل المضيق، وبالقرب من التقائه مع شعيب اللحاج عند سفوح كتفة. ثم ينساب المجرى المشترك الآن عبر ممر صخري لطيف للسلسلة الخارجية، أسفل المرتفعات العليا لقرية الولجة، ومنها إلى ضمد. لقد بدأ الطقس يصفو، كما اقتربت مناشط يومنا من نهايتها. والساعة تشير إلى الرابعة والنصف، وأمكننا رؤية فيفاء أسفل قلنسوة سميكة من السحب ناحية غرب الجنوب الغربي. كما أمكننا كذلك رؤية قمم الجلحاء وعياش فيما يليها، وتقع قرية نيد قحيف الصغيرة في انطواء لعياش بينما التقطنا لمحات عبر وادي ضمد لبعض قرى الجرف، بما في ذلك الرقبة وريدان العزة فوق العرن الطويل الذي يجري إلى أسفل من ذلك الجانب إلى حافة ضمد، والذي يقع واديه المملوء بكميات وافرة من مياه الغيل، المتلألئة في ضوء الشمس المتقطع مكشوفاً لنا ولأول مرة هذا اليوم، ويجري مسيل نشمة على الجانب الأيسر للمضيق إلى أسفل ليتصل مع وادي حنبة عند حلقوم.

يقع عمود نشمة الحدودي قليلاً ناحية الجنوب الشرقي من موقعنا ويكمل الوتر للسلسلة التي بدأت من المعقر، ثم هبطنا إلى حيث موقعه من مضيق شروه

لنجد أنفسنا عند بداية سلسلة كتفة، التي ترتفع إلى ممر تكسوه الغابات عند نهايتها البعيدة والتي لا يقل ارتفاعها عن (٨٠٠٠) قدم وقد كانت معلماً بارزاً في المنظر الطبيعي الريفي. لم يكن علينا زيارتها كخط حدودي في الوقت الحاضر وهي تمتد على مسافة من عمود النشمة إلى موقع خالٍ من العلامة (٥٦أ) عند ارتفاع حوالي (٧٠٠٠) قدم، ثم ينحدر على حافة نتوء حاد كالسكين إلى قرية اللحاج المزدوجة التي تقع ناحية الجنوب من موقعنا، وقليلاً أعلى أسعر، لقد كانت أسعر هي هدفنا المباشر كما أمكننا رؤية زملائنا وهم يعسكرون من حولها. لقد قررنا أن نتخذ الطريق المباشر إلى المعسكر وقد كادت الشمس أن تغرب، إلى أسفل السلسلة وأن نترك فحص بقية أعمدة الحدود ليوم الغد. كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساء، وكان الظلام دامساً على الرغم من البدر الكامل الذي حجبته السحب، ثم لحقنا بزملائنا في المعسكر على طريق منحدر هبطنا خلاله إلى (٢٥٠٠) قدم.

كانت قرية أسعر تحتل موقعاً جميلاً في محيط تشغله الغابات قليلاً أعلى الجانب الأيسر للمجرى، وأسفل موقع التقاء مسيل كل من شروه وللحاج. ويقف مسجدها بارزاً بلونه الأبيض بين العشش الكئيبة التي تكوِّن المستوطنة، وقد انتشرت حقولها المسطبية التي تم حصادها إلى أعلى وإلى أسفل منها وعلى جانبي المجرى وقد حفتها أشجار التين وغيرها من الغطاء النباتي. لقد كانت هذه البلاد ملائمة لحياة الطيور. وكانت طيور السوَّادية وافرة، وكذلك أسراب طيور الغداف طويل الذيل، وقد رأيت أثناء النهار عدداً من صقور جريفون.

لقد أمضى فرج وقت الظهيرة، بعد وصوله مع العفش، في الصيد بالبندقية، وقد اصطاد غنيمة ثمينة، كانت عبارة عن أنثى لنوع أخضر من طيور الوقواق. كان هذا النوع من الطيور بالطبع جديداً بالنسبة لي، ولم نتمكن من الحصول على

أي عينة أخرى منه خلال بقيــة الرحلة. ولا تملك إناث هذا الطائر العرف الأخضر الجميل للطيور المـذكرة، بل لها منه أثر ملون. واعتقد العلمـاء، حينما تم فحص الطائر بواسطة الخبـراء في المتحف البريطاني في وقت لاحق، مـقارناً بأنواع مماثلة من الحبـشة وغـيرها، بأنه نوع جـديد للعلم، ولكن بعد بحـث مضن في أدراج المتحف اكتشف السيد جي. ل. بتز (G.L.Bates) عينة مطابقة لعينتي، وحينما قام بفـحص الرقعة الملصقـة على العينة اكتـشف أنها -وكانت هي أيضـاً أنثي- قد تم جمعـها قبل ثلاثين عاماً من اليــمن، بواسطة السيد وايمان بري (Wyman Bury). لقد تم فحص ووصف هاتين العينتين بواسطة السيد بتز بوصفه نوع جديد وأسماه: لقد تعرف حتروش على الطائر عندما رآه وذكـر أن اسمه المحلي هو ورقة كما قام فرج بإدخـال ثلاث من طيور السمنة الصـخري وبعض الطيور النساجـة وكانت لا تزال في ريشها الشتوي.

لقــد وجدنا عــبدالله بن شــرقة طريح الـفراش بالحـمى، حينمـا وصلنا إلى المعسكر، وقـد ذهب إلى فراشه بمجرد وصـوله إلى هناك على الرغم من أنه أعلن أنه سيكون مـعافى في الصبـاح لمواصلة المسيرة إلى مـوقع معسكرنا التـالي. لقد حـدث خطأ في نظام ترتيـب المطبخ وقـد قام ابـن هذيل الذي كـان لديه الوقت الكافي لإعداد العشاء، بطبخ الماعز بأسلوب بدائي وبطريقة لا تدفع الشهية لأكله. كمـا تداخلت الشوشرات الكهربائيـة، لزيادة متاعـبي مع استقبـال الراديو، بينما حجبـت السحب الكثيفـة السماء، واستـحالت الملاحظات الخاصة بالنجـوم. لقد كانت هذه نهاية سيئة ليوم كان لطيفاً بما فيه الكفاية وحافلاً بالاهتمامات.

وكانت المســيرة إلى أسفـل من عرن سلسلة النشمـة طويلة ومرهقـة فوق ممر صعب يـنحدر في نتوء حـاد يقود إلى أسـفل إلى حيث مـسيل شـروة على يميننا

ومسيل اللحاج على يسارنا. وينحدر مسيل اللحاج عند الجلاميد التي تحيط بالأسنان الشرقية للسلسلة الرئيسة التي تجري شرقاً من نهاية عرن نشمة، إلى جرف راجل المرتفع ثم يدور مرة أخرى باتجاه الجنوب الغربي إلى النتوء الضخم المسنة حيث يبدأ نتوء آخر مكوناً الجانب الأيسر للحاج. وينتهي النتوآن اللذان يتقاربان بالتوالي في هضاب الضحى البارزة (٥٦ب وبلا علامة) ووعر (٥٧ أ وكذلك بلا علامة) وتتقاربان في السلاسل السفلى على مجرى اللحاج، الذي توجد فيه شجرة عتم تقف فوق جزيرة صغيرة من الصخر تسمى أمقدة التي قد اعتمدتها لجنة الحدود كعلامة حدودية رسمية (رقم ٥٧).

ويرتفع هذا الموقع إلى (٥٢٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر ويقع أسفل سلسلة النشمة بعمق (٢٠٠٠) قدم. ويكون هذا الانبعاج الخارجي للحدود فيما وراء الخط الرئيس للسلسلة نتوءًا لمقاطعة حنبة، ويندلق فوق الصخرة ليشتمل على قرية لحج حنبي المرتفعة التي تقف على الجانب الأيمن للحج، كما تقف في واجهتها وعلى الجانب الأيسر قرية اللحاج يحياوي الصغيرة التي تنتمي إلى قبيلة آل يحيى. ويجري مسيل اللحاج أسفل نقطة أمقدة الحدودية داخل أراضٍ سعودية، من خلال ممر يحيط به جلمود رائع وتقع عند نصف الطريق إلى قرية مطه عند موقع تدفق مسيل أمحشرة من مضيق صوفع شرق ممر مسنة، ثم يبدأ المجرى في اعتراض السفوح المسطبية أسفل الممر، التابعة لمزارع أسعر. لقد سلكنا طريق التجارة الذي يصل أسعر عن طريق مضيق نشمة وحلقوم التي تقع إلى أسفل أيضاً مع المناطق الواقعة تحت سلطة الرئاسة اليمنية في مجز، والتي تبعد مسيرة يومين من أسعر. وتنقل مسيرة يوم واحد كما يقولون، المرء من مجز إلى صعدة. كانت الليلة في مجز بلا ندى وكانت دافئة.

واصلنا برامجنا بعد أن تحسنت صحة الأمير، وبدأت مجموعة المسح السير عند الساعة التاسعة صباحاً، متتبعين طريق الهبوط الذي سلكناه أمس حتى أمقدة، حيث توقفنا لالتقاط الأنفاس بجوار بركة صخرية تقع تحت حاجزها الذي يبلغ عرضه خمسين ياردة عبر المجرى. كان هنالك حجر واحد، موضوع عند موقع تفرع ساق شجرة العتم، وهو السند الوحيد للاستشهاد بأنها ذات أهمية خاصة كنقطة حدودية. سلكنا الآن النتوء الحاد الذي يقع على الجانب الأيسر لمسيل اللحاج إلى هضبة وعر (٥٧أ) ومروراً بعلامة حدودية بدوية قديمة (بين آل يحيى والحنبة) التي تقع على هضبة ضاري ضاحي (تاحي) وهي في خط واحد مع ممر مسنة (٥٧ب) الذي كنا قد وصلناه عند الظهر.

كان ارتفاعنا هنا حوالي (٦٩٠٠) قدم، ولسبب ما لم يكن من الضروري تعليم الموقع بعمود. كانت السلسلة هنا مغطاة بالحشائش الطويلة وكانت كلها جافة، مع وجود جنبات قليلة. كان كل من العمودين الحدوديين التاليين وهما صوفع (رقم ٥٨) وفرثية (أمفرثية) (رقم ٥٩) مشاهدين لنا عبر الهوة العميقة لمسيل أمحشرة، الذي طفنا من قبل حول وتر صخرته، بجوار مضيق (رقم ٥٧جـ) عند رأس الأسنان الصخرية لنصل إليها. كان الطقس هنا -بالمناسبة- لا يزال لطيفاً وصافياً، وقد تمكنا من التقاط منظر ممتاز من مسنة، متضمنا القمتين البركانيتين لعكوة إلى البعيد في سهل تهامة مروراً بالكتف الأيمن لفيفاء. كنا نستطيع كذلك رؤية العلامات الحدودية من خلفنا، لكل من المعقر ونبشة، ونستطيع رؤية قرى تلال الجلحاء إلى الأمام منا.

هبطنا بمقدار (٣٠٠) قدم من عند مسينة إلى رأس مسيل يسمى سواد وهو أحد روافد اللحاج، ثم صعدنا من هناك مرة أخرى على حافة الجلمود الذي كان

ينساب من صخوره الماء، على ارتفاع (٧٢٠٠) قدم. استمرَّ صعودنا إلى مضيق أمحشرة على ارتفاع (٧٦٠٠) قدم فوق سطح البحر حيث استدرنا حول المنحنى تجاه العمود الحدودي المسمى نجد صوفع والذي كان على ارتفاع (٨٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. لقد بدأ الضباب الكثيف يتجمع -لسوء الحظ- ويطوقنا، وقد وجدنا أنه من الصعوبة بمكان أن نشق طريقنا فوق هذه السفوح الشديدة الانحدار والخطرة جداً، عبر غابات العتم والعرعر. لقد كان كل من هاتين الشجرتين مثمراً الآن، ويقال إنهما الغذاء المفضل للقرود المحلية، والتي على أي حال لم نرها بعد إلاَّ أننا كنا نسمع تردد صياحها مع الصدى ومن خلال صدى السحب. وكان طائر الحجل متوافراً هنا، كما قد كنت قد لاحظت في مسنة صقراً يطارد سرباً كبيراً من حمام داكن اللون، ولربما كان الحمام الحبشي، علماً بأنني لم أتمكن من الحصول على عينة منه للتعريف العلمي.

لا يزال وادي حنبة يمتد على يسارنا وهو هنا يقترب من موقع رأسه، حيث يمتد مسيل عمقيه الذي ينحدر من على بعد ميلين من نيد صوفع في سفوح كتفة الشمالية الكثيفة الأشجار، ليتصل مع مسيل القويد المنحدر من سلسلة عقيبة. ومن هذه النقطة تقع قرية القويد الصغيرة في الزاوية التي يكونها الجانب الأيسر للمسيل مع الجانب الأيمن لعمقية، ويطلق على المجرى اسم وادي الحنبة على اسم آل جماعة الذي تنتمي إليه كل قرى هذه السفوح، بما في ذلك أمقربة وقليلة التي تقع قليلاً أسفل موقع الالتقاء، وكذلك أمهللة، قليلاً إلى أسفل على الجانب الأيمن للمجرى، يجري وادي حنبة داخل دفا فيما يلي جبال القهر عند منحناه العظيم. وكان جزء كبير من غابة العرعر التي تمتد من عند خط سيرنا من نجد صوفع إلى العمود الحدودي التالي في أمفرثية شرقاً وإلى الجنوب الشرقي فوق السلسلة التي

تغلق رأس حنبة، كان عبارة عن حطام أسود لجذوع غير مورقة وأغصان وذلك بسبب الحريق العظيم الذي عم الغابة قبل سنوات. لقد كان هنالك الكثير من الغطاء النباتي الجديد النامي في الموقع، غير أن العرعر كان ميتاً تماماً، جذوع ضخمة وأغصان عارية متآكلة. ويقع عمود أمفرثية الحدودي على مسافة (٥٠٠) ياردة جنوباً (قليلاً ناحية الغرب) من نجد صوفع، وقد تحقق لنا أنه التالي في العلو والارتفاع في كل الحدود إذ بلغ ارتفاعه (٨١٠٠) قدم. ويبدو أن مضيق أمحشرة يكوّن الخط الفاصل بين سلسلة العريف الحدودية وسلسلة كتفة الأصلية.

تكون السلسلة، من فرثة، النتوء الجنوبي الذي ينتهي عند كتف صخرة عظيمة تسمى مروح[1]، تغطس أسفل جلمود شديدة الانحدار إلى حيث مسيل صمعة الذي يقع رأسه عند قمة التسنن التالي للسلسلة عند ممر نيد أم رزم الذي تم تعليمه بواسطة العمود الحدودي التالي (رقم ٦٠). ويقع هذا العمود على مسافة تقل عن الميل الواحد من أمفرثية ناحية الجنوب الشرقي، ولكي نصل إليه كان علينا أن نهبط بمقدار (٤٠٠) قدم، ونحن نشق طريقنا فوق النمو التحتي الكثيف لأرضية الغابات وعبر الضباب الكثيف. لقد اختبر هذا التوافق في توارد المواقع رباطة جأش حتروش إلى حد الانفجار. لقد لعن حتروش بصوت مرتفع هذه الأرض واعترض عليه حسن حسين، دليلنا اليحياوي وخبير الحدود، وأسقط اللعنة عن البلاد وألحقها بالضباب وردَّ عليه حتروش ألاَّ يكرر قول ذلك الكلام. ويعد من السلوك المنافي للمعتقدات في الجزيرة العربية أن يلعن المرء الماء أو المطر بأي شكل، إذ إنها شريان الحياة للبلاد[2].

---

(١) مروح ربما يطلق عليها أيضاً (قلة أمروة). (ابن جريس).

(٢) نعم لا يجوز شرعاً لعن الماء أو المطر، أو أي شيء من مخلوقات الله عز وجل، وقد نهى الرسول عن ذلك. (ابن جريس).

يرتفع مضيق نيد أم رزم إلى (٧٨٠٠) قـدم فوق سطح البحر ويقع عند رأس طريق يقود إلى أعلى، إلى قـرية خرمة التي تقع أسـفلنا عن طريق مسيل صمـعة ويتجه إلى قرى حنبة ومنها إلى مجز، وينحـدر شعيب خرمة نفسه من فوق جرف وجلامـيد قلة أمذيور وهو البروز التـالي للسلسلة الرئيسـة، بينما يمتد مسـيل آخر اسمه صمعة فيما يلي خرمة إلى أسفل، عند الانطباق الذي تكون بالجرف الرهيب لكل من مقعـد كتفة وجلحاء التلي، ثم تلتقي هذه المجـاري الثلاثة في ملتقى يقع إلى البعيد أسفل قمة السلسلة، ومن هناك يمتد الوادي على انحدار سهل ماراً بقرية خرمة على جانبها الأيمن، ومنها إلى الجرف العظيم الذي يسمى موفار والذي فيما يليه يدخل إلى ضـمد. ويقع الجـزء الشمالي من كل من صـمعة والخـرمة داخل الأراضي السعودية من الحدود، غير أن جنوب صـمعة يقع في أرض يمنية ويجري خط الأعمدة الحدودية إلى أسفل نتوء منحدر يفصل بين صمعة والخرمة حتى موقع الالتقاء الثلاثي.

يقود هذا النتوء إلى بقعة فوق سلسلة كتفة إلى مسافة فيما يلي موقعنا الحالي على مضيق نيد أم رزم، كـانت الساعة تشير إلى الخامسة مسـاءً حينما فرغت من أعـمـالي هنا، وقـررنا أن ذلك يكفي لهـذا اليـوم. ولم نكن نأمل الوصـول إلى المعسكر قـبل حلول الظلام. كمـا لم يطلع القمر هذه الليلة ليـلقي بضوئه وذلك لانخفاض السحب. ثم أسرعنا، على هذا الأساس للعودة بأن نسلك الجزء الأكثر انحداراً من المسيل الأعلى، ولم يكن ذلك سهلاً، لنصل قبل غروب الشمس. لقد كان كل شي بعد ذلك عبـارة عن محنة مع الظلام المطبق، إذ كنا نصارع الطريق، فنكون حيناً فـي بطنه وحينا فوق سـفوحه الخطرة وحـيناً آخر على الجـانبين. لقد تضاعفت الغابات الكثيفة مع الظلام الدامس، وأصبحنا نسير بلا هدى إلى الأمام.

ويقودنا الطريق عند موقع الالتقاء الثلاثي للمسايل إلى قرية السودة الصغيرة التي تقع على رأس سلسلة بين مجرى كل من صمعة والخرمة. لقد كان الظلام شديداً للدرجة التي كنا بالكاد نستطيع رؤية الأكواخ التي تتألف منها القرية، غير أننا قمنا بتحية من قابلنا من السكان ثم استرحنا لفترة داخل فناء مسور بالأعواد، بينما انهمك الأهالي في إشعال الأعواد ليوصلونا إلى موقع المعسكر، ثم بدأت مسيرة حملة المشاعل - منظر متوهج تمنى المرء رؤيته في كل مكان - وسرنا معهم ربما مسافة ميل واحد فوق الممر الصخري الذي كان هو كل ما يمكن رؤيته. مررنا بعنزة قد وضعت مولودها في منتصف هذا الممر، وقد قام علي بن فرحان بالتقاطه وإحضاره معنا، معلقاً بأنه يشفق عليه من أن تأكله ذئاب الغابة. وقد تبعت العنزة الأم موكبنا كأنها مقدرة شاكرة ومعتادة على مثل هذا الاهتمام.

لقد اكتشف علي، عند وصولنا إلى السودة أن قدمه تؤلمه وطلب المكوث هنا لقضاء الليلة. وكنت اعترض على مثل هذا القرار مما جعله يرضخ ويواصل السير. لقد ذهب هو ومعه حتروش تحت غطاء الظلام، بمجرد أن وصلنا إلى المعسكر، إلى قرية الخرمة، لقضاء ليلتهما مع أقاربهم دون أن يمكثوا حتى لتناول العشاء معنا. كما لجأ إلى القرية كذلك كل من يحيى وشريف، برغم أن مسيرتهم في صحبة العفش كانت مريحة وقصيرة، ولم يعودا إلا في صباح اليوم التالي. لقد كانوا مجموعة بقلوب العصافير يتحاشون التعب وعدم الراحة كتحاشيهم للسم الزعاف. وقد شكا كلهم بالفعل من برودة المرتفعات، على الرغم من أنني لم أحسّ بتلك البرودة ما عدا فترة قصيرة؛ وذلك قبل وصولنا إلى السودة، وحينما أضاف هطول المطر إلى مصاعب السير في الظلام، كما أمطرت السماء مرة أخرى ونحن في المعسكر ولكن لم يدم ذلك طويلاً.

لاحظت للأسف أن الأمير قد عاودته الحمى بمجرد وصولنا، وقد رفض تناول العشاء ومع ذلك فقد أصرّ على بقائه معنا في المعسكر، وهو موشح بالبطاطين تحت وقاية أشجار التين التي تسور الموقع. ثم أعلنت لهم، باعتبار كل هذه الأحداث، وتقديراً للجهد الكبير الذي بذله كل من كان قد رافقني في أعمالي في هذه المرتفعات، أن يوم الغد سيكون عطلة عامة لاسترداد العافية. كان هذا اليوم هو اليوم قبل الأخير لعام ١٩٣٦م، وهو العام الذي برهن على أنه أكثر أعوام استكشافاتي نجاحاً وأكثرها أهمية في الجزيرة العربية، وقد كنت أيضاً أحتاج لبعض الراحة. لقد تجوَّلت أثناء يوم العطلة هذا ومعي بندقيتي والبوصلة لمراجعة أخيرة حديثة للنتائج. وقد كان هنالك الكثير من الطيور، ليس من بينها ما يثير الاهتمام غير طائر الشادي الأصفر الذي كنا نعرفه من قبل في اليمن فقط. وتحصلت كذلك على طائر السمنة وعلى طائر الجشنة الشائع. وكان أكثر الطيور انتشاراً في هذه المناطق هي طيور السوَّادية والغداف إلاَّ أنني لم ألاحظ طائري: الحجل الذي كنت أتوقعه في هذه الجبال.

يقع معسكرنا عند منتصف الطريق بين القرية وفم ممر موفار، وهو مجرى صخري يمتد بين جلاميد عالية وبه قلعة قديمة مدمرة، ربما كانت مخفراً متقدماً للإدريسي، واقفة على جانبه الأيمن وكانت تعرف باسم فثة، ولم أتمكن من الحصول على معلومات عن تاريخها. وكانت قريتا السودة والخرمة، وهما بالتأكيد وبالاعتراف يقعان داخل أراضٍ سعودية، إلاَّ أن سكانهما كانوا من بلاد حنبة والمعروف عنهم أنهم مواطنون يمنيون. ويقوم العنصران السعودي واليمني، بزراعة الحقول، كما هو الحال أيضاً في وادي صمعة إلى أعلى وعلى سفوح كتفة حيث الزراعة المشتركة بين كل من حنبة وبني خولي هي الرائجة. لم تكن النسوة في كل

من الخرمة والسودة بالجميلات وكان يبدو عليهن الإرهاق والتقدم في العمر برغم أن بعضهن لم تكن طاعنات في السن، لقد كانت كل هذه المنطقة غنية بالأبقار وهي حيوانات ذات سنام ومتوسطة الحجم، كما يوجد أيضاً الكثير من الضأن والماعز، وكان لون الضأن أبيض أو أرقط وكان لون الماعز بنياً أو أحمر.

ثم انتهت عطلة اليوم واستيقظ الجميع مبكراً وتبدو عليهم روح نشطة، وذلك لبداية عمل آخر وأصعب يتعلق بمسوحات الحدود، والتي بدأت عند الساعة السابعة صباحاً لهذا اليوم ولم نعد منها إلى المعسكر إلاَّ عند الساعة الثامنة مساءً. لم تكن هنالك حاجة للعودة للعمود الحدودي نيد أم رزم، وذلك لأنني كنت قد تمكنت عنده من رؤية وتثبيت الموقع التالي على قلة أمذيور. ويقع طريقنا، بناءً على هذا أولاً على وادي خرمة الذي ظهر الآن في ضوء النهار ويسهل السير عليه مقارنة بمعاناتنا فوق طريق صمعة. وتقع قرية حنبة التابعة إلى قرية أمتويلقة (أيضاً داخل أراضٍ سعودية وقريبة جداً من خط الحدود) في مواجهة السودة على نتوء تويلقة على بعد (١٠٠) قدم منذ مغادرتنا للمعسكر، بينما وصلنا بعد نصف ساعة أخرى ترافقها زيادة للانحدار إلى البرك الصخرية التي تسمى جو أمعين وتقع داخل خليج ضيق صخري في الوادي على ارتفاع (٦٥٠٠) قدم فوق سطح البحر. ثم صعدنا إلى (٤٠٠) قدم، خارج الوادي، على سفح منحدر على جانبه الأيسر، حينما أدركتنا الشمس من وراء الكتف الأيسر لقلة أمرقاق[1] على السلسلة الرئيسة. كان الطقس بارداً، برغم حركة سيرنا العنيفة، داخل هذا الوادي المظلل، وتوقفنا مدة عشر دقائق للتدفئة قليلاً، ثم وصلنا بعد عشرين دقيقة لاحقة

---

(١) أمرقاق: هو الاسم الصحيح لهذا المكان ويطلق عليه (قلة أمرقاق)، أما فيلبي فقد ذكره باسم (قلة الدقاق)، وهذا غير صحيح. (ابن جريس).

إلى السلسلة الرئيسة، حيث كتف بارز في قوة ناحية الغرب من قلة أمذيور وعمودها الحدودي (رقم ٦١) عند ارتفاع (٧٣٠٠) قدم.

كان الجزء الأخير من الصعود، من الموقع الذي افترقنا فيه عن المسيل، صعباً يمتد فوق ممر أقل ما يوصف به أنه ممشى للماعز. وكان مع ذلك طريقاً سريعاً، ووجدنا عند قمة الصخرة قرية الضيور الصغيرة التي كانت في يوم ما محطة استراحة في الطريق إلى المركز الإداري اليمني الذي يسمى قتبة. لقد استرحنا هنا مدة نستمتع بالمنظر الخالي من السحب، ونتناول طعام إفطار بسيط ولكنه كان وافراً مكوناً من الشاي والخبز المحلي، كان هذا هو يوم سوق قتبة، سوق الخميس، غير أنني لا استطيع القول إنه كانت هنالك حركة كثيرة فيه على هذا الفرع من الطريق، والذي يتصل مع الطريق الرئيس في وادي خرمة، فيما يلي مضيق نيد أم رخم وهي رأس المسيل، بينما ينحدر رافد يسمى قرآ من بين كل من قلة أمرقاق وثاهرة (أمرزم) الكتفة ليتصل مع جانبه الأيسر عند منتصف الطريق إلى نتوء خرمة.

لقد أصبحت قتبة الآن أكثر قليلاً من مجرد سوق، وقد كانت مكاناً ذا أهمية في تاريخ العصور الوسطى لليمن. كما ورد في مؤلفات عمارة وغيره من الكتاب العرب المهتمين بالعصور القديمة[١]. إلى جانب ذلك فهي مركز إداري ثانوي، يقال إنه يمكن الوصول إليها من خرمة خلال مسيرة يوم واحد، ومنها إلى صعدة خلال يومين. يتبادل الطريق موقعه فوق قمم السلسلة من حافتها الشرقية وحافتها الغربية، إلاّ أنه يقع بشكل أساسي في فجوة بين سلسلتي شعثمي[٢] وعقيبة ثم

(١) لمزيد من التوضيحات انظر كتاب: نجم الدين عمارة اليمني. **تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها** (صنعاء: المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، د.ت) ص ٢٠٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) شعثمي يلفظها السكان المحليين باسم «شعثمن». (ابن جريس).

يخترق هذا الجـانب من المجرى تلك الغابة المحترقـة التي ورد ذكرها، والتي يعزى تدميـرها إلى إشعال مـتعمـد للنار -أصاب النمـو التحتي- بواسـطة البدو الذين يرغبون في تحسين مراعيهم دون أي اعتبار للنتائج التي يمكن أن تقع.

لقد اغتنمنا مدة نصف الساعة التي كنا فيها على عارض أمذيور لالتقاط المنظر الواسع، الذي كان قناع السحب يمر من فوقه. ونستطيع رؤية القمم الثلاث، لأول مرة إلى البعيد ناحية الجنوب، لكل من رازح وحـرم والنظير، وكلها شامخة كأنها حصون من فوق المرتفعات وتطل على سفوح تلال تهامة وسهلها. كما برزت قمم كل من العُر وعـياش، قـريباً منها وناحـية اليـمين من خط توضعـها، وتقع تلال الجلحاء بيننا وبينهما وهما بارزتان على زاوية قائمة عـند كتف كتفة، بينما امتدت سلسلة بطين إلى البعـيد ناحية الشـمال من العر وخلف عيـاش، بما في ذلك قراه العديدة، من بينها العاصمة مسلان، وهي مركز إداري يمني.

كان المنظر بعـد ذلك مألوفاً كـما كان خـلال الأيام القليلة الماضية، غـير أن السحاب قد استـقرَّ الآن فوق فيفاء. كان معظم المنظر، حـينما وصلنا إلى العمود الحدودي - الذي لم يـكن سوى مجـموعـة من ركام حجـارة معظمـها قد نـقلته السيـول من موقعه- على قلـة أمذيور (رقم ٦١) على ارتفاع (٧٦٥٠) قدمـاً، قد لفها الضـباب الصاعد ما عدا ناحـية الغرب والشمال. وقـد رأيت بعض الأجسام المنقطعة في الجزء الشمالي لجرف الهضبة ومن خلفها لاحظت قمة مستديرة، والتي أغرتنـي بأن أعرفهـا بأنها شـثاث بالقـرب من ثهران. لم يكن لدينا إلاَّ مـواصلة السيـر، مؤملين تغـييراً في الطقس وعليـه تتبـعنا حافة السلسـلة، هابطين حوالي (٢٠٠) قـدم إلى مضـيق يعلم واحـداً من رؤوس وادي خـرمـة الذي عنده كنت أستطيع رؤية معسكرنا الآن. كان هذا المضـيق هو نقطة حدودية بلا عمود، ويمكن

للملائمة أن نرمز إليها بأنها (٦١ أ). ويقع فيما يليها وعلى المستوى نفسه العمود الحدودي رقم (٦٢) الذي يسمى نيد أمرخم، وهو نتوء ليس بذي مغزى، ويعلم رأساً آخر لمسيل خرمة والذي عن طريقه يدخل طريق قتبة الرئيس. كان الموقعان الأخيران متقاربين من بعضهما، بينما من عند الثانية منهما وعبر صعود طويل خلال غابات كثيفة وصلنا، في مدى نصف الساعة، إلى عمود حدودي فوق أرض تسمى قلة أمرقاق على ارتفاع (٧٩٠٠) قدم (رقم ٦٣).

لقد أحاط بنا الضباب تماماً ولا نكاد نرى ما مداه خمسون ياردة في كل الاتجاهات. ثم واصلنا سيرنا فوق السلسلة ذات الجوانب الشديدة الانحدار والحافات التي في حدة السكين، فوق ألواح شستية موضوعة طولياً في زوايا قائمة، دون وجود حتى طائر واحد يكسر من ملل هذه الأرض المرتفعة المغلّفة بالضباب. ثم خرجنا في هذا الجزء من طريق قتبة الذي استدار إلى البعيد من الأرض الصعبة ليتبع حافة وادي حنبة، غير أننا سرعان ما عدنا إليه ونحن نقترب من العمود الحدودي (رقم ٦٤) المسمى رزمة الكتفة (أو ثهرات الكتفة). كان هذا بالتأكيد هو آخر عمود حدودي فوق الأراضي المرتفعة، وكان أيضاً أعلى عمود في كل المنطقة الحدودية، إذ يبلغ ارتفاعه (٨١٥٠) قدماً. كان من المناسب لنا أيضاً أن نتوج آخر أيام العام المحتضر بإنجاز يصوره وصولنا إلى القمة الحقيقية للحدود. لقد برز الظهر العريض لكتفة من هذا الموقع وناحية الجنوب من أمامنا وحتى قمته على النهاية البعيدة التي كنت قد قدرتها على ارتفاع (٨٥٠٠) قدم فوق سطح البحر وكانت تقع كلها، وهي مغطاة بأشجار العرعر الكثيفة، وتندلق على السفوح إلى مجرى كل من حنبة وصمعة، داخل أراض يمنية، وتمتد الحدود بين الدولتين أسفل النتوء الحاد الشديد الانحدار الذي يفصل بين مجرى كل من الخرمة وصمعة.

كان ما يطلق عليه اسم العمود الحدودي ذا مغزى شكلي بنسبة معاكسة لأهمية الموقع كنقطة تحول للشريط، ويتكون العمود -حقيقة- من قطع صغيرة لايتجاوز عددها الثلاث من الكوارتز ترتب مع بعضها فوق مربع طبيعي من شست قاعدي.

لم يكن في مقدورنا العثور عليه لولا أن حسن حسين، كان أحد المندوبين - فقد كان الآخر راعياً يتبع قبيلة بنو خُولي، ويمثل المندوبين اليمنيين المسؤولين عن وضعها في مكانها هذا. وقد أوضح حسين، وبإحساس من الظلم، أن كلاً من علي بن فرحان وشخص يدعى سعيداً من قبيلة الزرانيق -وكان ضابطاً في الجيش اليمني- واللذين كان عليهما على الأقل زيارة الموقع الحدودي ممثلين لحكومتهما، للتأكد من أن كل عمود حدودي قد تم وضعه تماماً وفي دقة في موقعه، إلا أنهما فضلا شرب القهوة في المعسكر في الخرمة، وأرسلا بدلاً عنهما مبوعثيهما البدويين اللذين قاما بصعود التل وقمته لتحديد الخط. فلا غرابة إذاً في أنهما كانا يتعجلان الانتهاء من هذه المهمة ليسرعا في العودة تحاشياً لهذه الارتفاعات العدائية. كان عمود كتفة الحدودي أيضاً موقع لقاء ثلاثي بين كل من آل يحيى من الجانب السعودي، وكل من حنبة وبني خولي من الجانب اليمني.

كان الضباب قد حجب كل المنظر، كما هبَّ نسيم لطيف بارد دافعاً الرطوبة في وجوهنا ونحن جلوس هناك. لم يكن هنالك ما يمكن رؤيته غير ثلاث قطع من حجر الكوارتز وشجرة عرعر تبرز من حين لآخر كالشبح عبر الضباب، لم تكن لنا حاجة بالمكوث أكثر من ذلك في هذا الموقع. كانت الساعة (١,٣٠) ظهراً عندما بدأنا الهبوط أسفل السفح الشديد الانحدار والكثيف الأشجار متجهين نحو بداية نتوء خرمة الحاد، وقد كان هذا أصعب جزء من التسلق اجتزناه خلال كل

هذه الرحلة. لقد كـان الضباب يضرب وجوهنا كـأنه رذاذ المطر، وكنا لا نستطيع رؤية شيء غير الأرض من تحت أقدامنا وغير جنبة أو اثنتين كانتا بالقرب منا. لقد كان من الصعب علينا حتى أن نرى بعضنا، وكان هنالك الكثير من الصياح لبعضنا مع بعض دون أن نرى أشخاصنا، وكنا نتلمس طريقنا فـوق صخور لزجة وعشب مبتل وكنا نواجه من حين لآخر بنتوء شـديد الانحدار، ونعود متسلقين إلى الخلف مرة أخرى للبحث عن طريق بديل يقود إلى أسفل. وقد استغرق هبوطنا تحت هذه الظروف إلى عمـق (٤٠٠) قدم حوالي (١,٥) سـاعة، إلى حـيث يوجد رف أو عرن للصخـرة يحمل مجمـوعة الحجارة الكورتزية الحـقيرة التي أشار إليـها حسن حسين بابتهاج بأنها العمود الحدودي الذي يسمى رزمة سيلام (رقم ٦٥).

يعزي الوصول إلى هذا العمـود إلى حسن حسين تحت كل هذه الظروف، إذ إنه ملم بخصـائص بلاده بصورة جيـدة. لقد كنا على ارتفاع (٧٧٥٠) قدمـاً فوق سطح البحـر ولم ننته بعد من الجبال، ذلـك لأننا كنا على مشارف هاوية عمـيقة تكون رأس بشران وهو مسيل يتصل مع جنوب صمـعة قليلاً أعلى من موقع التقاء بشـران مع خرمـة. وكان عليـنا الآن أن نتحـسس طريقنا أسـفل الجانب الشـديد الانحدار لهـذا المسيل، وكثيـراً ما وجدنا أن السيـر صار أصعب بكثيـر مما سبق، وذلك بتكرار ظهور النتوآت الحادة التي كانت تملي علينا تحويل المسار والاتجاه. كما لا يزال الضبـاب يطوقنا في شراسـة، ولكن بفضل المثابرة والقـيادة الجيـدة لحسن حسين فقد قطعنا مسافة الـ (٣٥٠) قدمـاً الأخيرة إلى العمود الحدودي واسمه نيد المخطف (رقم ٦٦)، عند ارتفاع (٧٤٠٠) قدم، كـان العمود عبارة عن مجـموعة من كومة من حجارة بائسة، إلاَّ أنها كانت قائمة بما يشبه الكومة المبنية[1].

---

(١) للمزيد عن هذه الحدود، انظر: عبدالله القباع. **العلاقات السعودية اليمنية**، ص ٤١٠ . (ابن جريس).

كان اتجاهنا العـام هو ناحية الغرب منذ أن كنا في رزمـة كثيفة وقد اسـتمر بنا المسيـر عليه على امتـداد الطريق إلى الخلف، وأصبـحت أسوأ مواقع الهـبوط من خلفنا الآن، على الرغم من أن مسيـرتنا لا تزال صعبة فوق النتـوء الحاد كالسكين الصخـري، الذي يفصل بين مسـيلي كل من قرآ وبشران. ثـم وصلنا عند ارتفاع (٧٢٠٠) قدم على هـذا النتوء إلى العمـود الحدودي المسـمى حرف أمشـينه (رقم ٦٧) في وسط غابات كـثيفة غطت العـرن. ثم بدأنا نلتقط لمحات من العـلامات الأرضية المختلفة من فوق من أسـفل غطاء من السحب، وواصلنا مسيرتنا في يسر أكثر عبـر أرض أشجار غير جذابة، وكنا نهـبط باستمرار حتى وصلنا بعـد مسيرة ساعة من آخر عـمود حدودي إلى العمود الحدودي الذي يسـمى نجد فاسح (رقم ٦٨) على ارتفـاع نقص (٩٠٠) قـدم ووصل إلى (٦٣٠٠) قـدم. بدأ لنا هذا العمود وكأنه كان ذات يوم بناءً، إلاَّ أن قطع الصخر الكبيرة التي كان قد شيد منها قد انتشرت على الأرض. ويقود طريق الماعز من هنا إلى أسفل في يسر إلى حيث العلامة الحدودية التالية بجوار الحدبة الشامخة التي تسمى قلة أمسحامي (رقم ٦٩) عند ارتفاع (٦٠٥٠) قـدماً، وواصلنا على المستوى نفـسه إلى الأمام حيـث كومة حجـارة قبلية قديمة، وهي نقطة عـلى الحدود لا يعترف بهـا كعلامة رسـمـية رقم (٦٩ أ). لقد كـانت نصباً تذكارياً أحـسن حالاً من كومة الحـجارة الرسـمية غـير المرئية، وقد وقفت في بروز في الإطار العام[١].

كانت الساعة الآن السابعة مساءً وقد انتـشر الظلام. ثم توجهنا مباشرة ناحية المعسكر. تاركين ما تبقى من هذه الجبهـة الحدودية إلى الغد. لقد أرسلنا صيحات

---

(١) للمزيد عن هذه الحدود المذكورة هنا انظر، القباع، المرجع السابق، ص ٤٠٩ ــ ٤١٠، محمد آل زلفه، **عسير في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ . (ابن جريس).

إلى رفاقنا في المعسكر لإرسال مصباح، بعد أن عبرنا عقبات على امتداد الصخور، وجلسنا في انتظار وصول المصباح نراقب تقدمه الصعب والمطمئن إلى أعلى التل حيث كنا. كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساءً حينما وصلنا إلى المعسكر بمساعدة المصباح وكنت سعيداً حينما علمت بأن العشاء كان جاهزاً. لقد استغرق العمل -مع توقفات عند النقاط المختلفة- ست ساعات ونصف الساعة لنصعد ارتفاع (٣٠٠٠) قدم وقد كانت هذه هي أسوأ تجاربي في الجبال العربية[١]. لقد شكا حسن حسين دليلنا الجذاب الكفء، بالمناسبة، من إرهاصات الحمى، وذلك حينما وصلنا إلى العمود الحدودي في كتفة وقد قام بإشعال النار لتدفئة جسمه في وسط هذا الضباب الرطب، ثم جاهد بعد ذلك بشجاعة على امتداد ذلك السفح المخيف، وكان يقودنا في دقة ممتازة من عمود حدودي إلى الآخر، حتى وصلنا إلى كومة حجارة البدويين عند أمسحامي وقرر حينها التوقف نهاية لعمل اليوم. وكنت لا أدري إن كان إحساسه بالحمى ذلك يعزى للبرودة الفجائية أثناء الليل، أم مجرد الإحساس بالراحة بعد الجهد، غير أنه إنهار في اللحظة والتو، كان يلتوي في ألم وكان غير قادر على الحركة.

صرفنا ناحية قرية مجاورة لعلها تويلقة لأجل المساعدة، وتركنا أحد الرجال من حاشية حتروش ليقوم بالحراسة عنده حتى تصلنا المساعدة، بينما واصلنا نحن

---

(١) فيلبي له رحلات كثيرة في الجزيرة العربية، وقوله: إن رحلته في بلاد فيفاء وما حولها من «أسوأ تجاربي في الجبال العربية»، ربما يعود إلى بعض الأسباب منها:ـ

أ ـ صعوبة أرض فيفاء، فالصعود إليها والنزول صعب جداً، وهذا مما جعل فيلبي يعاني من السير في هذه البلاد.

ب ـ انغلاق أهل فيفاء وما حولها على أنفسهم، ربما كانت سبباً آخراً حتى جعلت فيلبي يجد صعوبة شديدة في التعامل مع سكان تلك البلاد. (ابن جريس).

مسيـرتنا. لقد كنت منزعجاً جـداً حينما لم يصل حسن إلى المعـسكر، إلاّ أنه قد تبين لنا أنه تم نقله إلى القرية، التي كانت أقرب كثـيراً إليه من معسكرنا، وقد نام بها وذهبت الحمى عنه وظهر بعد ذلك في الصباح وهو في أحسن صحة.

لقد كنا نعمل مـدة ثلاث عشرة ساعة هذا اليوم، وأحسُّ الآن بالتـعب. كما أنني لم التـزم برغبتي في الجلوس حـول الراديو للاستـماع لإذاعـة القدس، وهي تنقل مراسيم احـتفالات رأس السنة. لقد كان اسـتقبال الراديو ضعـيفاً، على أي حال، خـلال المساء، ولذا قررت أن أجلـس إلى منتصف الليل بالتـوقيت المحلي الذي كان متقدماً على توقيت فلسطين سـاعة كاملة، وخرجت ومعي حسن صباح اليوم التالي لتكـملة الجزء غير المكتمل من الحـدود حتى هذا الموقع. لم يكن هذا الجزء ذا أهمية كبيرة ويمكن أن نغطيه في وقت قـصير. لقد استرجعنا خطواتنا إلى حيث الموقع الذي انتهينا عنده في المساء، عند كومة حجارة البدويين في أمسحامي التي بالقرب منها دهشت لوجود بقايا لقرية قديمة مهجورة على الطريق الذي يؤدي إلى نجـد فـاسح وما يليـه، وكـان العـمود الحـدودي التـالي (رقم ٧٠) ويسـمى المجدار[١] العليا يـقع على مسافـة (٣٥٠) قدمـاً إلى أسفل السفح ناحـية مـسيل صمعة، وقد كان -لدهشتي- نصباً تذكارياً مهيباً.

كمـا واصلت مجمـوعة من القرود المتـشاجرة، داخل الغـابات ومن حولنا، صياحها بإلحاح، غيـر أنني استطعت رؤية واحد أو اثنين منها هنا وهناك. لقد كان حولها مـا يكفي من الضباب في المستـويات العليا التي كانت تقـوم بزيارتها مراراً

(١) جدار العليـا، هكذا ذكرها فيلبي مع أن الصـحيح هو (جبل المجدار)، وهذا الحـد يقع بين آل يحيى من بني مالك (فيفاء) السعودية، وبين آل جلحاء من بني خولي (اليمن)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٠. (ابن جريس).

وتكراراً، وقد نزلت الآن للبحث عن الطعام بالرغم من قربها للعديد من القرى الصغيرة. كان العمود الحدودي التالي (رقم ٧١) هو المجدار الأسفل. عند ارتفاع (٥٣٠٠) قدم وهو كومة من حجارة فوق صخرة ارتفاعها (٢٠٠) قدم تطل على موقع التقاء مجريي كل من بشران وصمعة.

ثم يستمر الشريط من هنا على امتداد الجانب الأيمن للمسيل المشترك (صمعة) على ارتفاع (١٠٠) قدم فوق بطنه إلى حيث العمود الحدودي (رقم ٧٢) واسمه نيد أمغطيط عند ارتفاع (٥٢٠٠) قدم[1]، أسفل قرية خولي الكبيرة التابعة للوح الشرقي على ارتفاع (٥٠٠) قدم على جانب جبل الجلحاء، الذي يكون الجانب الأيسر لصمعة وجانب ممر موفار ويستمر بعد التقائه مع وادي خرمة. لقد جاء إلى هنا بعض الزوار من قرية صمعة الصغيرة، أعلى الوادي، بما فيهم شرطي بزيه الرسمي يتبع للإدارة اليمنية، وذلك لمعرفة ماذا كنا نفعل في الحدود، لقد كانوا ودودين جداً ولربما كانت زيارتهم فقط بدافع الفضول.

استمرّ خط الحدود على امتداد الجانب الأيمن لصمعة، إلى موقع التقائه مع الخرمة حوالي (٢٠٠) ياردة إلى أسفل (٧٢ جـ)، وهكذا إلى أسفل أكثر لمجرى متحد لمسافة (٣٠٠) يارد حيث توجد صخرة كبيرة في وسط الوادي وقليلاً فوق مدخل ممر موفار على ارتفاع (٤٨٠٠) قدم. وكانت هذه هي نقطة الحدود الفعلية، ولكن، بما أن الصخرة قد تطغى عليها مياه السيول، فقد تم وضع العمود الحدودي لرزمة التفة (رقم ٧٣) على الجانب الأيسر وتم وضع كومة حجارة

(١) نجد غتيت، هكذا ذكر فيلبي اسم هذا الحد مع أن الاسم الصحيح هو (ساقية أمغطيط)، وهو من الحدود بين آل يحيى (السعودية)، وآل جلحاء من بني خولي (اليمن). (ابن جريس).

صغيـرة أخرى على الجانب الأيمن لتحديد الخط الصـحيح. كانت الصخرة نفـسها هي الالتـقاء الثـلاثي القبلي بين خـولي على الجانب اليـمني، وكل من يحـيوي وزيداني على الجانب السعودي. كانت جدران الممر نفسه من جرانيت وردي اللون تتخلله عروق سوداء من شست كالألواح، وتترابط قليلاً إلى أسفل الحدود بحاجز طبيعي من الصخر بانحدار ثلاثين قدماً. لم يكن هنالك ماء يعبر من فوقه في هذا الوقت، غير أنه كـانت توجد برك في بطن المجرى عند قدمـه والتي منها يسحب القرويون المحليـون الماء. يطلق عليها اسم أم خـرق وعلى أحد جانبي الحـاجز تم وضع ممسك خشبي ليساعد على الوصول إليها.

يصعد خط الحدود من هذا الموقع إلى أعـلى جانب الجلحاء في اتجاه الجنوب الغربي ناحية ممر نيد أم خرمة، الذي يفصل بين أرض خولي وأرض زيداني. وقد كان بالفعل صعوداً صعباً فوق السفح الشديد الانحدار إلى أول الأعمدة الحدودية، الذي كان عبـارة عن قطع صغيرة من صخـر تم وضعها في فـجوة بين جلمودين ضخـمين من جرانيت رمـادي، يطلق على هذا الموقع رزمـة أمخالـفة (رقم ٧٤) وترتفع إلى (٥٠٠) قدم فـوق الوادي وإلى (٥٣٠٠) قدم فوق سطح البـحر. ثم وصلنا بعد تسلُّق حـاد آخر على السفح إلى العمـود الحدودي (رقم ٧٥) خزانات الهيجة على حافة شلال بلا ماء يسقط من نتوء صخري بارتفاع (٥٠) قدماً.

وكان ارتفاعنا هنا حوالي (٥٧٠٠) قدم فوق سطح البحر، ثم واصلنا التسلق لارتفاع (٣٠٠) قدم أخرى إلى كومة حجارة صغيرة أخرى (رقم ٧٦) تسمى أضرا السيال، تقع على طريق جـيد جداً بين قرى خولي على يسارنا ومـستوطنة زيداني الكبيرة الـتابعة لشهدان، ثم واصلنـا الصعود أكثر فـوق طريق أسهل بعض الشيء

لنصل إلى الموقع الرئيس لنيـد أم خرمة، وهو ممر يسيطـر على المدخل إلى منطقة السفـوح التلية ووادي ضـمد من مرتفـعات بني مـالك، ويقف العمـود الحدودي بجانب الطريق على ارتفاع (٦٣٠٠) قدم فوق سطح البحر، تحت ظل كتف مهيب لصخرة ضـخمة تقع على جانبه الأيـسر. وكانت هذه الصخرة هي مـوقع العمود الحدودي (رقم ٧٧) والتي تهيئ نهاية مناسبة لهذا الفصل[١]. وسترد قصة الحدود داخل التلال السفحية في الفصل التالي.

---

(١) كان من مهام فـيلبي في هذه الرحلة هو رسم الحدود بين اليمن والسعودية، وقـد شاهدناه فعل ذلك في الصفحات السابقة، وبخاصة في الأجزاء الجبلية، أمـا الصفحات التالية فسوف يكمل الحدود في الأجزاء التهامية والساحلية. (ابن جريس).



الباب السادس

منخفضات تهامة

الأول من يناير إلى الثامن عشر من فبراير ١٩٣٧م



الفصل التاسع والعشرون

حدود السفوح الجبلية[١]

اتجهت الحدود السعودية - اليمنية، على العموم، ناحية الشمال الغربي حتى ممر علب، وقد بدأت عند حافة الصحراء بالقرب من نجران. تمتد الحدود من هناك وحتى المنحنى العظيم لوادي دفا ناحية الجنوب الغربي، بينما يكون اتجاهها العام على امتداد ضلع جبلي العريف[٢] وكتفة ناحية الجنوب الشرقي، ثم استأنفت اتجاهاً نحو الغرب من عمود كتفة، ويقع ممر نيد خرمة قليلاً ناحية الجنوب الغربي من هذا الموقع وشيئاً ما ناحية الجنوب الشرقي من أعمدة منحنى دفا، وكان عمود المعقر ناحية الشمال من خرمة. يتجه الخط منا المعقر إلى البحر ناحية الجنوب الغربي.

يقف العمود الحدودي لنيد خرمة (رقم ٧٧) على طريق خولي - شهدان على قمة جبل جلحة، مشكلاً مجمعاً للمياه بين وادي خرمة من ورائنا ووادي الخلص أمامنا، وكلاهما رافد لوادي ضمد. كانت منطقة خولي هي أعلى جزء في هذه الكتلة الصخرية وتقع غرب الممر، والذي تحيط به النتوآت العالية لجرف خرمة. يوجد على الجانب الآخر، مرتفع خفيف كثيف الأشجار لأرض شهدان المرتفعة، والذي توجد فيه قرى زيدان. تكون كتلة الجلحاء بروزاً عظيماً ناحية الغرب من

(١) لمزيد من الإيضاح عن حدود السفوح الجبلية في منطقة جازان، انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٧٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) العريف: يطلق عليها أيضاً اسم (أمعريف) (ابن جريس).

الضلع العالي لكل من العـريف وكتفة، والتي تستـمر عبر أرض الصفـراء المرتفعة لتتصل مع سلسلة بطـين السفلى والتي تكون أكتافهـا الرئيسة الغربية جبـال عياش والعر المرتفعـة البارزة، والهرمية الشكل، ويبلغ ارتفاع كل مـنهما (٥٠٠٠) قدم. تطل حـافة الممر، إلـى أمامنا أو قل ناحـية الغرب، عـلى أخدود واسع وعـميق وكثيف الأشجار تكون على جانبيـه أقسام كل من خولي وزيداني التابعة لجلحاء، وتنحدر في هذا الوادي مصارف الدائرة في مسـيلين رئيسين، هما أمشرح ورضا، ويتحدان تحت اسم أمشرح (الشرح) قليلاً فـوق آبار بئر أمشرح التي سوف نعسكر بالقرب منها لقضاء الليلة على ارتفـاع (٣٠٠٠) قدم أسفل الممر، ويدخل المجرى -مع إضافـات تدخله أثناء سيره- إلى وادي جـلحاء جحام الـذي ينشأ في الزاوية بين كتـلتي الجلحاء والصـفراء، وبدوره يتـصل مع وادي الخلص الذي يمكننا رؤية اتصاله مع ضمد إلى البعيد عند مركز السوق مضنب باحة (سوق الأحد)، شيئاً ما ناحـية الجنوب الغـربي من الممـر. وينبع مـجرى الخلص مـن سلسلة بطين داخل الممر، والذي يمتد مصـرفه من الجانب البعيد عبر سهل مـدينة جاوى، وهي مركز إداري مهم على الجانب اليمني.

كانت قرية سورم الكبيرة هي المركز الرئيس لمحافظة منبه التي تتألف من قرى بطين وعياش والعـر، وكانت سورم هي مقـر الرئاسة لأمير المنطقـة. كانت سورم واضحة لنا، على الرغم من أنها تبعد عنا بعض الشيء، ناحية الجنوب. كان أبرز القـرى التي نراها قرى الطـوال على خط الأفق لسلسلة البطين، والدوشـة وتقف على نتوء حاد بالقرب من قمة العُر. كانت القرى عديدة وقررت أن أترك أسماءها

للمحلق[١]. وقف جبل فيفاء بارزاً بكل عظمته قليلاً ناحية الشمال الغربي، فيما يلي وادي ضمد، الذي إليه انحدر الجانب المنحدر والواسع لصفحته الضخمة، بينما قليلاً اتجاه أعلى الوادي كان الوادي محاطاً بمنحدر بني مالك والقرى التي تقع على قمته والتي كنا قد عبرناها قبل أيام. يقع موضع لقاء وادي خرمة مع وادي ضمد - عن طريق مجرى المديرة - قليلاً ناحية الشمال الغربي من نيد الخرمة[٢].

لاحظ حردان، دليلنا الزيداني، حينما وصلنا إلى الممر، بعض رعاة بني خولي وهم ينتهكون حرمة الحدود السعودية مع قطعانهم وهي حالة لو لوحظت رسمياً ستجعلهم مكلفين بدفع ضريبة الضأن أو تصادر حيواناتهم. ولربما أشعلت حرباً قبلية في الأيام الخوالي الجميلة. تركناهم وحالهم! ومررنا عبر طريق يشق الغابات على حافة نتوء يقود إلى قرى زيدانية منها: العرقوب والفدنه والشباب وحضن وغيرها مقامة في المرتفعات وتقع أمامنا على قمة شهدان. لقد نسيت بإهمالي أن أعبئ لفافة التبغ لهذه المسيرة ولما أخبرت حردان بذلك طمأنني بألاَّ أنزعج. ثم رفع عقيرته ينادي القرى في الأعالي التي من أسقف منازل بعضها، ظهر بعض الأشخاص يستجيبون لندائه، وطالت بعد ذلك المحادثة بين الجانبين، وتفصل بينهما مسافة الميل الواحد على الأقل، والتي لم أفهم منها إلا ما يصدر من طرفنا، وتشتمل على توجيهات لتسليم التبغ الذي نحتاج إليه في بقعة في

(١) انظر: ملحق (جـ). (المؤلف). لقد أورد فيلبي أربعة ملاحق في نهاية الكتاب، ولكنها لم تترجم وتلحق بالنسخة العربية؛ فالملحق رقم (١) يذكر قائمة بأسماء الأعمدة الحدودية بين السعودية واليمن. والملحق رقم (٢) يذكر المسافات التي قطعها فيلبي باستخدام السيارات. والملحق رقم (٣) التسلسل النسبي للداعي المكرمي في نجران. والملحق رقم (٤) والأخير، يذكر قائمة بأسماء القرى في عسير والمناطق الحدودية. (ابن جريس).

(٢) نيد الخرمة: ـ يطلق عليه أيضاً اسم (نيد أمخرمة). (ابن جريس).

مكان ما إلى الأمــام. واصلنا سيرنا بــعد ذلك نبتــعد تدريجيــاً عن الطريق أسفل السفح المكون من صــخور جرانيــتية مــتناثرة وشجــيرات متــشابكة منحدرة ناحــية الأخدود. هبطــنا بهذه الطريقة إلــى (١٠٠٠) قدم أسفل الممــر خلال ســاعة من زحف خطر جداً، حينما وصلنا إلى الرأس الحقيقي لمسيل رضا الذي يعلمه العمود الحدودي (رقم ٧٨) والــذي يعرف باسم رزمــة أم دوشة[١] لسبب بــسيط، هو أن قرية قمه العر التي تحمل ذلك الاسم كانت مرئية لنا.

هبطنا أكثر في مــسار حاد على امتــداد الجانب الأيمن الصخري لمسيل مــسافة (٨٠٠) قدم إلى حيث الرأس العظيم للجدار الجرانيتي الأحمر، وهو قطعة ضخمة منطبقــة من الصخر ممتدة عبــر المجرى من الجانب إلى الآخر في دفــعتين أو ثلاث دفعات، إلى مجموعة من البرك الصخرية عند سفحه على مسافة (٣٥٠) قدماً إلى أســفل. لم يكن هنالك مــاء مندلق فوق الجــدار هذا الوقت، وبلا شك ســتكون الصورة جميلة جــداً أثناء السيول. كان يعلوه جلمود ضخم مــستقل من الجرانيت يسمى حــياض أم رضا[٢]، وعلى الرغم من أنه غير مــعلَّم، إلاَّ أنه يكون العلامة الحدودية بحكم حــقه في ذلك (رقم ٧٩). تعلم البرك الصخــرية التي توجد عند ارتفاع (٤١٠٠) قــدم فوق سطح البحر و(٢٢٠٠) قــدم أسفل ممر خرمة، قــياس التفاوت في الارتفاع للوادي عند التقائه مع شعيب شرح.

كانت مــوقعاً محــبوباً للذين يهــوون المعسكرات الليلية من رعــاة بني خولي وقطعانهم بسبب وفرة المياه فيهــا، غير أن حردان علَّق قائلاً: إنَّ مثل هذا الأمر لا

---

(١) رزمة أم دوشة، يطلق عليها أيضاً اسم (رزمة الدوشة). (ابن جريس).

(٢) حيد أم رضا، يطلق عليها أيضاً اسم (حيد الرضا). (ابن جريس).

يمكن مجرد التفكير فيه في الأزمان السابقة، وذلك بسبب الخصام المستديم الذي يميز العلاقات بين خولي وزيداني ويحياوي. كان الأخيران حليفين في مثل هذه المشاجرات، لأنهما في عرف القبيلة أخوال. التحق بنا الآن علي سلمان، رئيس الزيدانيين -إلى جانب دليلنا حردان- غير أنه يميل إلى الإذعان لحتروش، الذي كان بلا شك من أهم شخصيات المنطقة. إشارة إلى هذا الموقع الحدودي ليحياوي، فيبدو لنا أن هذا القسم يؤدي دوراً سائداً في سياسات بني مالك. برز يحيى أم شريف من الخالدين في المقام الثاني من حيث الأهمية، إلاَّ أنه كان كائناً ضعيفاً ولا يزال حتى الآن يعاني من انهيار صحته -أشك في أنه يتمارض- ليجد العذر في عدم مرافقتي في أعمالي اليومية الشاقة- كان يفضل الالتصاق مع قافلة الأمتعة التي يرافقها أيضاً عبدالله بن شرقة، الذي بحق قد تملكته الحمى للدرجة التي لم يستطع الخلاص منها.

قد يكون من المناسب استرجاع التركيب العرقي لليحياويين مرة أخرى طالما سنودعهم عما قريب ونغادر بلادهم، وخاصة مآثرهم الحربية. كان من المؤكد أن مالكاً هو السلف المؤسس لبني مالك، كان مثل جماعة فيفاء وبني حريص الشماليين من الأصل اليهناني (أو اليهاني). كان له ولدان: كثير ومغامر، وولد مغامر خالد وسعيد؛ السلف الأول لقسمي بني مالك الحاليين: خالدي وسعيدي. كانت شجرة نسب آل كثير أكثر تعقيداً وذلك لأنه كان لكثير أربعة أولاد، علي[1] ويعلي، ورايم، وحريص. كان عليل هو سلف آل علي، وهو قسم ثالث على قيد الحياة، بينما كان يعلي هو الجد الأعلى لقسمين كنا قد قابلناهما من قبل، وهما آل سلمى وآل حبس. أعطى حريص بدوره اسمه إلى بني حريص (شمال).

(١) علي أو آل علي يطلق عليهم أيضاً (العليلي). (ابن جريس).

وكان لرايم ثلاثة أولاد: يحيى وهو الجد الأعلى لليحياويين، وزيدان، الجد الأعلى للزيدانيين ونخيف الذي لم نقابل أياً من نسله، ولربما توفى ولم يكن له أبناء[١]. يتضح من هذا أن كل عناصر بني مالك، ما عدا الخالديين والسعيديين ينتمون إلى فرع آل كثير. يعتبر تل غويفر على ضمد جنوب منصية هو الحدود بين الخالديين والسعيديين، برغم أن تحت قسم العزة -الذي يقع في العرن جنوب أرض الخالديين- هو أيضاً من أصل سعيدي.

وصل إلى مكان جلوسنا بجوار البرك الصخرية -ونحن نستجم بعد هبوط مرهق- شخص من قرية الشباب ومعه نصف جوال من التبغ المحلي وسبيطة من موزهم المنتج محلياً. لم يكن هنالك مجال لدفع الثمن، إلاَّ أن الرجل كان قد سرَّ جداً بالريال الذي أعطيته له لكرمه ومشقته وقضائه الليلة معنا. كان التبغ قد تم تجفيفه في بدائية تحت حرارة الشمس وكان أخضر، غير أنه أدى الغرض منه في غليوني الوحيد المتبقي، وحتى هذا القصور قابله علي بن سلمان بإعطائي بري مستعمل وهو غليون من النوع الذي يصنع في صعدة، وبه تجويف كبير من الطين متصل بسلسلة صغيرة إلى أنبوب خشبي طوله ست بوصات. أدى التبغ المحلي وظيفته بصورة أفضل في الغليون المحلي.

تقع بركة الرضا على أرض يمنية (بني خولي)، ويمتد الخط الحدودي على الجانب الأيمن لمسيل الرضا والشرح[٢] المشترك إلى حيث العمود الحدودي التالي

---

(١) نخيف بن الرايم خلف أولاد من عقبة ويعرفون اليوم باسم آل نخيف القاطنين في بلاد شريج والعين. (ابن جريس).

(٢) الشرح، هو عمود حدودي بين السعودية واليمن ويطلق عليه اسم (بئر الشرح) وأحياناً يلفظ (بئر أم شرح) أو (بئر أمشرح). (ابن جريس).

(رقم ٨٠) واسمه رزمة أم شقرة[١]، الذي صعدنا إليه عبر حقول دخن - محصود الآن - ذات مساطب تتبع لقرية محشف التابعة لقبيلة بني خولي، الذين يقومون أيضاً بزراعة الجانب الأيسر للمسيل، يقف العمود الحدودي على ارتفاع (١٠٠) قدم فوق مستوى الوادي، و(٤٠٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر، ويتحرك الشريط من هذا المستوى نفسه إلى صخرة شديدة الانحدار، تنهض من بين الحقول المسطبية المزروعة على جانب المجرى. كانت توجد فوقها كومة من الحجارة، تعرف أدبا بأنها عمود حدودي (رقم ٨١) وتسمى رزمة الخزانات الجميلة، وتعني صخرة «الخزان الجميل». وصلنا خلال خمس دقائق، ونحن لا نزال عند المستوى نفسه، وفوق حقول المحشف المسطبية التي تقع أسفلنا إلى اليسار حتى العمود الحدودي رقم (٨٢)، واسمه رزمة طور آل مرة، الذي انتهت فيما يليه الحقول المسطبية، التي تنتمي إلى قرية الشرح أسفل كتلة الجلحاء، في مواجهة حاجز صخري يمتد من جانب إلى آخر في المسيل الضيق.

تعثرنا في سيرنا فيما يلي هذا عند وقت الغسق، فوق بطن سيل وادي الشرح المغطاة بقطع من الصخور، إلى أن وصلنا إلى آبار بئر أم شرح داخل غابة لطيفة واستقرَّ معسكرنا بها وكنا مرتاحين لما بذلنا من جهد في هذا اليوم. كنت أعتقد أننا قد أنهينا أعمالنا في الجبال عندما كنا في نيد أم خرمة. غير أن تسلقنا على صخور هذه المنطقة الكثيفة الأشجار والصخور الصارفة للمسيل مهّدا لعمل صعب ما كنا نقوم به في أماكن أخرى، وكان هذا بداية طيبة للعام الجديد الذي احتفلت به بتناول وجبة عشاء ممتازة من لحم الضأن والأرز والموز المحلي ومحتويات علبة من

---

(١) رزمة أم شقره تنطق أحياناً (رزمة أمشقرة) أو (رزمة الشقرة). (ابن جريس).

الكمثرى اليابانيـة. لقد أتلف العمل الصعب خلال الأسبـوع الماضي طبقة المشمع العليا لحذائي المطاطي، وتحـولّت إلى شرائح، وقررت أن أستخـدم نعلاً جديداً - هو الأخير لديّ - خاصة ونتوقع مسيـرة سهلة. لن أنسى بسهولة أشواك وصخور وادي الشرح. قد بدأ الطقس يتحسن بصفة عامة وكانت بدايات الأيام في الصباح لطيـفة، غيـر أن السحب تـتكاثر عند أوقات الظهـر وتسقط زخـات من المطر في أوقات المساء، التي تـطورت عند الساعة الخامســة صباحاً إلى رذاذ مـتواصل حتى شروق الشمس، وحـينها كل شيء لدينا قد تبلل بدرجة أخرت بداية مـسيرنا إلى الساعة العاشرة والنصف صباحاً. كـان صباحاً، بائساً وكل ما كنا نفعله أو نحاوله أن نظل بعـيداً عن البلـل باللجوء إلى الأشـجار ومن فـوقنا البطاطين وقـد بدأت وكأنها الخيام لنبعد عنا قطر المياه.

تمثل بئـر أم الشرح علامــة حدودية قـبلية قديمـة بين قبيلتي خـولي وزيداني ومعلمة من كـتلة كوارتزية مغروسة في ثبـات في شق شجرة أثاب (تين بري) في وسط مجرى السيل، نامـية من بين مجموعة من الصخـور على بعد نصف المسافة بين الثقـبين المائيين أسفل كل من جـانبي المجرى. كـان العمـود الحدودي الدولي عبارة عن كومة من حجارة ملقاة مع بعضـها فوق الصخور نفسها تحمل رقم (٨٣) وعلى ارتفاع (٣٣٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر، ظل الثقب المائي الذي يقع أسفل الجانب الأيسر معطلاً لبعض الوقت، إلاّ أن انسياباً للماء من نبع أسفل كتلة الألواح الشستية على الجانب الآخر، جعلت (بركة) الزيداني ممتلئة بالماء للقطعان، كانت المســافة بين ثقـبي الماء (٤٠) ياردة فقط، ويكوّن وسط المجـرى الحدود إلى مسافة حـتى العمود الحدودي رقم (٨٤)، الذي يسمى مسنة، مـعلماً موقع دخول حوض ضـحل بالاسم نفســه، من جانب التلال المتـموجة التي تـقع على الجانب

الأيمن، ويتجه من هذا الموقع وادي الشرح ناحية اليسار، ويدخل أرضاً يمنية ليدخل مجرى أكبر يسمى جلحاء حجام. كان معسكرنا على الجانب الأيسر، وعليه فهو فوق أرض يمنية، ووجدنا بين أشجاره عش حمامة، وكانت به بيضة واحدة عرَّفها حتروش بأنها بيضة حجل.

وصلنا إلى العمود الحدودي بعد (١٥) دقيقة من بداية مسيرتنا التي تأخرت هذه المرة على المجرى، ويسمى مسنة (رقم ٨٤) على ارتفاع (٣١٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر، وتقع فوق ممشى حمير واضح على ارتفاع عشرين قدماً فوق مستوى الوادي عند منحناه الأيسر.

هبطنا من جانبه البعيد إلى حوض هرمة الضحل وهو يمثل الحدود الآن، فوق أرض سفوح جبلية متموجة كثيبة مع بعض الأشجار القليلة الجافة وبعض الأشجار الخفيضة، وتقود إلى العمود الحدودي التالي عند منحناه الأيسر ناحية مجرى حجام يقع عمود نيد أم سرمة[1] – رقم (٨٥)، وعلى ارتفاع (٣١٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر، وهو موقع لقاء ثلاثي بين كل من خولي على الجانب اليمني، وزيداني وسعيدي على الجانب الآخر، وتمتد الحدود الداخلية بين زيداني وسعيدي إلى مسافة نصف الميل على امتداد جدول رافد إلى مضيق ينحدر من سرمة ليتصل بضمد.

خرجنا بذلك تماماً من منطقة قبيلة يحياوي (زيداني) إلى داخل تلك التابعة إلى سعيدي التي دخلناها أول الأمر من عثوان، يمتد الشريط الحدودي الدولي الآن

---

(١) نيد سرمة، ربما يطلق عليه نيد (أم سرمة) أو (نيد أمسرمة)، وهو عمود حدي بين بني خولي من اليمن وآل زيدان المالكيين من السعودية. للمزيد انظر: عبدالله القباع. المرجع السابق، ص ٤١١ . (ابن جريس).

ناحية الغرب فـوق سلسلة عرق الضعاف الحجرية الجـافة غير المشققـة والمتموجة، والتي فوق قمـتها وقف العمود الحـدودي رقم (٨٦) - على ارتفاع (٣٦٠٠) قدم فوق مستـوى سطح البحر -، أو كان المفروض أن يقف فوقـها، وذلك لأنه يوجد في موقعـه حجر واحد فوق كـومة مبنية فوق صـخرة ارتفاعها عـشرة أقدام. ربما نقلت السيول بقيـة الحجارة أو نزعها لأجل التسلية أحد الصبـية الرعاة العاطلين؛ الذي لم يجد ما يمكنه فعله أفضل من ذلك.

كان هنالك تصعيد تدريجي في الارتفاع لهذه السلاسل المتتابعة المعترضة التي واجهـتنا بعدها، بعد هبـوطنا إلى الحوض فيـما يلي ضعف بتـسلق رئيس للسفح الجبلي المـكسو بالأشجـار بصورة جـيدة للسلسلة التي لا تزال تمثل قـمة السـفوح الجبلـية لهذه البـلاد، يسمى هذا الموقـع بدوة -أحياناً تـسمى القرعـة- وهو بروز شسـتي للسلسلة يحمل العـمود الحدودي (رقم ٨٧) عند أعلى مـوقع به، ويرتفع إلى (٤١٥٠) قدمـاً فوق مسـتوى البحـر، ويسيطر على منظر ممتاز بمـعنى الكلمة للمحيط المجـاور. يمكننا أن نرى إلى البعيد سهل تهامـة عبر فجوة واسعـة تركتها الصفحات الهـابطة لكل من العر وفيفاء لأجل أن يمر عن طريقـها ضمد. لم يكن السهل -للأسف- واضحاً وهو بلا سمات بارزة، وكان ضبابياً مما لم يسمح برؤية البحر فيما يليه وليست به خصائص لافتة للنظر.

كان هنالك ما يمكن رؤيته في أي اتجاه آخر، غير أننا توقفنا طويلاً هنا لتناول وجبة الغداء ولمناشط أخرى، كنا نستطيع رؤية بئر الشرح ناحية الشرق، وكان جبل فيفاء نفـسه ناحية الجنوب الغربي على الشريط العـام نفسه الذي سنسلكه من هذا الموقع على الحدود. حجبت كتلة العُر العظيـمة مجال الرؤيا ناحية الجنوب وكانت قمتها تقريباً ناحية الجنوب، بينمـا نستطيع رؤية ممر نيد جلال -قليلاً ناحية الغرب

من العُر-. وأستطيع تسجيل الاتجاهات لبقية المعالم التي كنت قد ذكرتها خلال الأيام القليلة الماضية -قبل أكثر من أسبوع- عبر القطع الناقص لمسيرتنا من عند فيفاء إلى منحنى دفا والعودة الآن إلى مستوى فيفاء. لقد كان من أكثر المناظر شمولية التي تمكنت من رؤيته منذ زمن، وأمكنني ذلك من تكوين فكرة عن الكثافة المدهشة للسكان فيما يمكن وصفه بأنه حوض ضمد. تقع مدينة جاوى ناحية الجنوب الشرقي من موقعنا ويمتد واديها إلى أسفل، ليتصل فيما بعد بمجرى وادي جازان الذي يقع داخل الجبال.

واصلنا مسيرتنا بعد الساعة الثانية ظهراً على قمة العرن لسلسلة القرعة لنصل طرفه النهائي إلى العمود الحدودي رقم (٨٨) والمسمى طور أم لبيدة عند ارتفاع (٣٧٥٠) قدماً فوق سطح البحر. لم يكن العمود موجوداً حقيقة غير أنه قيل لي وبكل تأكيد إنه كان واقفاً ذات يوم على صخرة كبيرة عند نهاية العرن، تقع ناحية الغرب من موقعنا وعلى ارتفاع (٣٠٠) قدم أسفل من موقعنا هذا، عند أسفل الهبوط الشديد الانحدار مجموعة كبيرة غير منتظمة من الحجارة تؤدي وظيفة العمود الحدودي (رقم ٨٩) نيد الوقر[١] في حوض يفصل هذه السلسلة المرتفعة من التي تليها.

تم تكريم صخرة تقع فوق هذا العمود لكونها موقع لمعركة قديمة بين رجال قبيلتي بني خولي وسعيدي، والتي كانت من نتائجها مقتل شخص واحد فقط، يعد هذا الحوض الضحل ممراً مطروقاً لأراضي قبيلتي سعيدي وخولي أوعياش،

---

(١) نيد الوقر، عمود حدي بين آل سعيدي (بني مالك) (السعودية)، وبين آل عياش من اليمن. انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١١، آل زلفه. **عسير في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٧٣ . (ابن جريس).

ويكون العمود الحدودي موقع لقاء ثلاثي لهذه العناصر الثلاثة، يقع العمود الحدودي التالي على المستوى نفسه بعد ارتفاع قصير من الحوض على سلسلة طور موباد، وهو عبارة عن كومة من الحجارة تم الاعتراف بها رسمياً كعلامة حدودية قبلية جيدة تفصل بين سعيدي وعياش، تحمل الرقم تسعين في السلسلة. كانت هنالك -بين هذين الموقعين الآخرين، وإلى ناحية الغرب- علامات واضحة لطريق واسع والغرض منها يصعب تعليله، ولا يوجد أثر أو تقليد محلي لحركة سيارات في هذه المناطق النائية. ويبدو أنها تكوِّن خط ربط من هذه السلاسل -على زوايا قائمة- للمواصلات العادية بين المحافظات على امتداد الأحواض التي تفصل بينها.

يوجد عمود حدودي على قمة سلسلة حظوة القرية، على مستوى الارتفاع نفسه (٣٤٠٠ قدم) (ويحمل الرقم ٩١)، بالرغم من أنه ولسبب مجهول، كما يقول الشيوخ الذين يرافقوني، ولربما عن طريق الخطأ، فإن هذا العمود لم يسجل رسمياً بواسطة المؤتمر التأكيدي الذي عقد في ظهران بعد الفراغ من تعليم الحدود. وصلنا بعد مسافة عشر دقائق سيراً على الأقدام إلى العمود الحدودي (رقم ٩٢) على المستوى نفسه تقريباً، وعلى السلسلة التالية، واسمها ظهر موباد، وهو نصب جيد البناء شبيه بذلك الذي شاهدناه في بدوة ولكنه أقل منه إعداداً. وصلنا خلال عشرين دقيقة بعد أن واصلنا السير على الطريق المتعرج لهذه البلاد العارية المتدحرجة إلى مضيق يفصل مسيلين ضحلين يجريان في اتجاهين متضادين، هما سيل شعيب ملصة ويتجه جنوباً ناحية وادي جحام، ومسيل شعيب منمتين ويجري إلى أسفل إلى ضمد، يسمى هذا المضيق نيد الغرو، وقد تم تعليم الحدود البدوية القديمة بعناية فوقه بصف من قطع الصخر مثبتة وهي قائمة في التربة.

كانت توجد على إحدى الصخور خدوش لأثر الرصاص، وإلى جانب ثلاث علامات وسم متشابهة، ربما يشير ذلك إلى عدد الضحايا الذين سقطوا في معركة في هذا الموقع. يصعب رؤية العمود الحدودي الرسمي (رقم ٩٣) وذلك لأنه قد وضع في فجوة في الشريط القديم وبدأ كأنه جزء منه، كان هذا العمود على مستوى أقل مقارنة مع أعمدة موباد التي سبقته وذلك لأن المضيق كان في حوض ضحل يفصل السلاسل المعقدة عن التالي والذي يقع إلى أعلى قليلاً، ويسمى القرية والذي على قمته توجد هذه الأكوام التعيسة من الحجارة التي تم تسجيلها رسمياً كعمود حدودي باسم رزمة القرية وتحمل الرقم (٩٤)، وتقع على ارتفاع (٣٤٠٠) قدم فوق سطح البحر، وقليلاً ناحية الغرب من نيد أم خرمة.

تقف كومة من الحجارة على موقع أعلى بالقرب من وسط السلسلة ولا تعلّم هذه الكومة حدوداً قبلية أو دولية، إلاً أنها تشير إلى الطريق الذي يؤدي إلى مشرب الوغرة على حافة ضمد. أمكننا رؤية موقع عمود نيد جلال الحدودي إلى البعيد ناحية الشمال من موقعنا، كما بدأنا نطل على حوض وادي الخلص، وتوجد به قرية ضربة الصغيرة المدمرة (ثربة) فوق هضبة صغيرة في موقع بروزه من تلال البطين ثم يدور بعنف ناحية اليمين، واصلنا سيرنا غرباً إلى أسفل على امتداد عرن سلسلة القرية ووصلنا خلال ما يزيد على نصف الساعة من مسيرة صعبة إلى كومة حجارة أخرى مكسرة في مضيق منخفض على ارتفاع (٢٦٠٠) قدم فوق سطح البحر، يسمى نيد أم ثوع ويفصل بين مجريين هما أم رضة وينساب أسفل إلى ضمد، وشعيب بلا اسم يجري إلى أسفل إلى وادي الخلص أو جحام، كانت مجموعة الحجارة التي وضعت في شكل غير مشرِّف بما يجاورها من أكوام حجارة البدو العديدة على رأس التل والتي يتكرر ظهورها ونحن نقترب من موقع

المشرب، هي العمود الحدودي (رقم ٩٥). نستطيع رؤية غيل شعيب جرعة، وهو أحد روافد الخلص، الذي يمتلك فيه علي بن فرحان حقاً عرفياً تم تسجيله له بواسطة لجنة الحدود، لأجل سقي قطعانه منه برغم أنه يقع داخل أراضٍ يمنية.

توجد مجموعة من العشش الحجرية الدائرية الجيدة البناء على الجانب المحجوب من الرياح من السلسلة التالية فيما يلي القرية، وتقع قريباً من هذا الموقع ويبدو أنها غير مأهولة تنتمي إلى البدو في أرض يمنية. مررنا بها ناحية اليسار ونحن نهبط فوق أرض متموِّجة، عارية، حجرية إلى العمود الحدودي التالي الذي تم تسجيله رسمياً باسم نيد أمضراط -رقم (٩٦)، على ارتفاع (٢٥٠٠) قدم فوق سطح البحر-. لقد فرض هذا الاسم الغريب على هذا العمود وبالمناسبة لم يكن العمود موجوداً بالرغم من أن ابن فرحان أسرع في وضع عدد من الحجارة مع بعضها، وكان يظن أن أحداً لم يره لتحديد الموقع - وذلك بسبب حادثة مشؤومة. ذلك أن أحد أعضاء لجنة الحدود قد أخرج ريحاً (ضرط) وقد خرق ذكاء البدو اتفاق اللباقة -وهو أمر خطير في المجتمعات العربية العالية، التي تسمح وتشجع القذف- بهذا الاسم المرتجل.

تعلّم كومة الحجارة موقع التقاء ثلاثي بين أرض عياش على الجانب اليمني وأرض سعيدي وخالدي على الجانب السعودي. تتبع الحدود بين قسمي بني مالك، حوضاً ضحلاً، يتعمق تدريجياً ويضيق في ممر تحفه جلاميد ويعبر من خلال الينابيع الحارة لوغرة ليتصل مع وادي ضمد بعد مسافة معتبرة فيما يليها، كادت الشمس أن تغرب الآن، وتركنا أعمالنا الخاصة بالحدود في الوقت الحاضر لنسلك هذا الطريق لنعود إلى زملائنا، الذين قد استقروا منذ فترة في المعسكر الذي يقع فوق مروج خضراء، على حافة بريكة في وادي ضمد على ارتفاع

(٢٢٠٠) قدم فـوق سطح البحر، و(٣٣٠٠) قـدم أسفل نيد أم أثـبة، التي يمكن اعتبارها رأسه المؤثر.

أخذت مـعي بعض الملابس النظيـفة بعـد أن استـرحنا قليلاً في المعـسكر ثم توجهت إلـى ينابيع الوغرة لأسـتحم، وكررت ذلك في الـصباح. تسـيل الينابيع الحارة من داخـل قاعدة صـخور جـرانيتـية في الممر وربمـا من موقع اتصالـها مع الصخـري الشستي التحـتاني، على بعد (٥٠٠) ياردة من فم الممـر، حيث تكون المياه لا تزال دافـئة وهي تنساب إلى ضمـد لتكوين الغيل الذي يجري إلى مـسافة معـتبرة أسـفل المجرى. ينتـهي غيل أعلى يسمى جـزومه قليـلاً فوق المروج التي نعسكر فوقها حيث كان بطن الوادي الحصوي جافاً تماماً.

تنساب المياه الساخنة من بركة داخلية أبعادها (١٠ X ٥) ياردات ويبلغ عمقها أربعة أقـدام، وتعلوها من الخارج كتلة صـخرية ساقطة من الجرانيت، وقـد كانت مثقوبة بواسطة نفق طبـيعي يقود إلى بركة ضحلة أكبـر، والتي يخرج منها جدول ضيق عـبر الممـر إلى ضمد. كـانت درجة حرارة الجـو في الصبـاح (٧٠) درجة فهرنهايت، وكانت درجة حرارة الماء (١١٣) درجـة. يخصص هذا الجانب لسباحة الرجال، بينما تم حجـر البركة الخارجية للنساء. واللاتي يجـدن في الغابة اللطيفة للمـمر درجـة من الخصـوصيـة. يقوم بزيارة هذه البـرك عدد كـبيـر من الزوار، معظمهم من اليمن، علاجاً للروماتيزم والأوجاع المماثلة.

كنت فرحاً بالحمام الذي أخذته في المساء بعد مسيـرة مرهقة وصعبة ومتعرجة فوق سلاسل السفوح الجـبلية، كانت الصفة العامة للصخـرة متماثلة مع تلك التي اعتدنا عليـها في الجبال، ما عـدا اتجاه توضع صخور الشسـت التي أصبحت تميل

نحو الوضع الأفقي بدلاً من العمودي. ثم تصير مسطحة تماماً كما في مجرى ضمد، بينما أدت بعض الاضطرابات الصخرية المحلية في ممر الوغرة إلى حدوث الينابيع الحارة، وإلى توضع صخور الشست على النظام العمودي مرة أخرى. كان الجرانيت الأحمر أكثر انتشاراً أثناء مسيرة النهار ويكون أحياناً فوق الشست كتلاً ضخمة وأحياناً يكون متداخلاً معه. كانت الجلاميد في ممر الوغرة من الجرانيت وكان الشست من خلفها على الجانبين.

وجدت إشكالاً يتنامى في المعسكر عند عودتي من حمام المساء بنشوب شجار قديم كان بين سعد وفرج، لقد كنت طلبت من فرج أن يقوم بتسديد كل فواتير المواد التي تجلب إلى المعسكر، ويصر سعد الآن أن فرج كان يدخل المال لجيبه الخاص وأنه لا يقوم بتسديد أسعار الضأن وأشياء أخرى لم يسدد قيمتها. كان هذا أمراً خطيراً لا يمكن تجاهله، ولذا قمت بتحقيق فوري بمعاونة عبدالله بن شرقة ورؤساء القبائل. اتضح تماماً أن تلميحات سعد لا أساس لها، وتأكد لي تماماً أن كل شيء قد تم تسديد قيمته. كان سعد خجلاً تلك الليلة. لقد خدمني سعد لعدة أعوام غير أنه كان هو نفسه عدو نفسه السيء الوحيد، كان دائماً يختلق المتاعب وكان بصفة عامة سيئاً في عمله، كسولاً، وغير كفء، ولا يمكن أن استغني عنه كخبير تصبير الحيوانات. لقد قمت هنا وفي مواقع أخرى في التلال، باكتشاف طائر التفاحية الجذاب اليمني، وأصبح طائر الجنة صائد الذباب شائعاً هنا وجميلاً كعادته، كانت غابات الوغرة مليئة بالبلابل، وكانت طيور أبي مطرقة متجمعة تصيد أسماك المينو من مياه الغيل.

صعدت مع المرشدين وذلك قبل انطلاقنا لأداء عمل اليوم، لصباح الغد، إلى قمة الجرف الذي يطل على المعسكر من أعلى فم ممر الوغرة، لفحص الأرض التي

سنتعامل معـها في مسيرتنا التالية. كانت ينابيع وغـرة الحارة داخل أرض سعودية بالطبع غير أننا في نيـد أمضراط وصلنا إلى موقع، كان فـيه الخط الحدودي ولأول مـرة في كـل مـداه، موضع شك ونزاع بين القبـائل على الجانبين - عـياش وآل خـالد - وللحكومـات التي هم من رعايـاها. لم تتمكن لجـنة الحدود من إنهـاء الأمـر، بل قامت بتـعليم الشـريطين بالأعمـدة الحـدودية وأن تترك الحل والقـرار النهائي، لموافقة الحكومتين، بالأسلوب القبلي العـادي. لقد واجهتنا حالة حدودية مماثلة من قبل، فيما يتعلق بمقـبرة ثعلة عند ملتقى وادي مروان ووادي العرض في قطاع نجران، ولقد قضي في أمر هذا النزاع في الموقع نفسه بواسطة ممثلي الحدود، حينما أحضر المدعون من وايلة خمسين شـاهداً قاموا بأداء القَسَم بأن المقبرة تحتوي على رفات موتاهم، وأنها كانت كذلك وظلت كذلك.

كان جزء كبير من أرض المراعي، في الحـالة الحالية هذه، على الجانب الأيسر لضمد مـتضمنًا، وكانت عملية تجـميع المعلومات الضرورية والإثبات مـعقدة جداً للتخلص السريع. انقضى أكثر من عام ولا يزال الموضوع معلقاً مع وجود أرض لا مالك لها بين المجمـوعتين المتنافستين، كان المبدأ الذي تم تبنيـه للحل النهائي لهذا الموضوع بسيطاً.

يقوم الخالديون وقسم آل عزة من السعيـديين شراكة باستعمال الأرض موضع النزاع -لا يتضـمن أي قرى للرعي في الواقع-. يبقى على المدعين وهم قـبيلة آل عـياش، أن يتـحملوا عبء الإثبـات بأن لهم الحق في اسـتعـمال الشـريط الذي يزعمونه. كـان كل ما عليهم فعله هو إحضـار خمسين رجلاً من قبيلتـهم الخاصة لأداء القَسَم أن هـذا هو الحق. يبدو الأمر سـهلاً، غـير أنه ليس كـذلك إطلاقاً، وذلك لأن المدافعين الخالديين لهم الحق في اختيار خـمسة من بين الخمسين شاهداً التابعين لآل عياش، ولابد أن يكون القَسَم بالإجماع.

يمكن لمعارض واحد من بين الخمسين أن يسقط القَسَم، ويكون القرار في صالح المدافعين. لقد اختار الخالديون رجالهم الخمسة منذ فترة، إلاَّ أن العياشيين لم يجمعوا بعد الخمسة والأربعين المتبقين، بينما وافق الخالديون بلا تحفظ على قبول الشريط - أحد الشريطين المتنافسين - بشهادة أداء الخمسين بكاملهم للقَسَم. يوضح قصور قبيلة عياش أن مطلبهم لا يقوم على حقيقة قبلية، سأتبنى من حيث المبدأ الخط الذي يتزعمه الخالديون لغرض وضع الأرقام على الأعمدة مع طقم محتمل لمزاعم عياش.

عدنا على أعقابنا فوق مسيل الوغرة في اتجاه عمود نيد أمضراط الحدودي، وذلك بعد أن ألقينا نظرة من الجرف وحددنا كيفية العمل.

وصلنا وعبرنا مجرى شعيب دهنة بعد مسيرة أربعين دقيقة، وقد هبطنا من سلسلة قرية متجهين نحو وادي الخلص، الذي وصلنا إلى جانبه الأيمن أعلى موقع الالتقاء خلال دقائق قليلة، ثم وصلنا في وقت لاحق وعلى مسافة (٥٠٠) ياردة أعلى الوادي إلى فم ممر شاهق والذي من عنده يجري الوادي من سلسلة البطين في غدير جذاب صغير. يطلق على الممر اسم نقيل الغنم أو «ممر الغنم» ووقف عند فمه، على حافة الصخرة العمود الذي وضعه الخالديون لإبراز حقهم. كان رقمه هو (٩٧س) (س تعني سعودي) عند الموقع الذي يجب أن تعبره الحدود في خط مستقيم من عمود نيد أمضراط الحدودي، كان الارتفاع هنا (٢٣٠٠) قدم فوق سطح البحر، وكانت صخور وجلاميد الجرانيت الشديدة الانحدار وجلاميد الشست تأوي أعداداً كبيرة من الأرانب الأوروبية، وقد رأيت العديد منها وهي تهرب إلى جحورها الصخرية في أعلى الصخرة، وذلك أثناء قدومنا، كان المنظر لطيفاً عند فم الجرف، كانت جدرانه منقرة ومحفوراً بها العديد من المناطق المنعزلة

المظللة، وقد تحولت إلى تعريشات حقيقية بغطائها النباتي المزدهر مدعمة بالمياه المستديمة. يقع الموقع التالي الذي يطالب به الخالديون ناحية الجنوب الغربي من الممر عند هضبة تسمى حدَّة -كانت قمتها ترتفع إلى ٢٥٥٠ قدماً فوق سطح البحر- وتطل على مجرى شعيب حدّة الذي ينبع من سفوح هرم عياش وينساب تجاه الغرب ماراً بهذا التل ليتصل مع وادي الخلص على مسافة نصف الميل إلى أسفل -سنرقم هذه النقطة بالرقم (٩٨س)- ويمتد منها الشريط الخالدي ناحية الجنوب الغربي إلى الموقع التالي وهو أم فرحة[١]، على مسافة منا.

يتضح من هذا المطلب أن كل وادي الخلص من أسفل الجرف إلى موقع اتحاده مع ضمد عند مجنب أمبحا[٢] -إلى الغرب من هضبة حدَّة- هو ما يُنادى به من العربية السعودية، ويحدد مطلب قبيلة آل عياش خط الحدود بأنه يمتد مباشرة من نيد أمضراط[٣] إلى شجرة التين البرية الضخمة رقم (٩٧ ي) (ي تعني يمني)، عند المجنب وأمبحا بالقرب من فم وادي الخلص، تاركاً بذلك كل وادي ضمد للخالديين، إلاَّ أنه يضع كل مجرى الخلص تحت ملكية العياشين. سلكنا -بناءً على هذا- طريقنا من حدَّة إلى وادي الخلص وتتبعنا مجراه إلى أسفل إلى مجنب أمبحا على مسافة نصف الميل من موقع الاتحاد -حوالي (٢٢٥٠) قدماً فوق سطح البحر- عند أسفل موقع اتصال مياه غيل الخلص مع الجدول الجاري لضمد. كان سوق الأحد في ذروته أسفل شجرة تين ضخمة ويقال إن معظم من حضروه كانوا

---

(١) أم فرحة: يطلق عليها أيضاً (الفرحة) وتلفظ أحياناً (أمفرحة). (ابن جريس).

(٢) أمبحا: تلفظ أيضاً (البحا). (ابن جريس).

(٣) سكان تهامة وبخاصة في منطقة جازان يقلبون حرفي (ال) التعريف إلى حرفي (أم)، مثلا (الشرح) يقال (أمشرح) و(البحا) إلى (أمبحا) و(السرمة) إلى (أمسرمة) و(الخرمة) إلى (أمخرمة) وهكذا. (ابن جريس).

من مجموعات فرود واليهانيــة، وتشتمل الفرود على عناصر من كل من آل عياش والبطين والعر، كلهم متوحشو الشكل، نصف عراة وهم يمضغون مخلوط البرتقال ويبصقون فوق المكان.

تحركنا بعيــداً عن السوق بعد أن تفقدنا أكــشاكه الفقيــرة المحتويات، وجلسنا أسفل صخرة من الشست مائلة ذات ظل بارد تكون الجانب الأيمن لضمد. سرعان ما أحــاط بنا حشــد كبيــر وركزوا اهتــمامــهم علينا بدلاً من اهتمــامهم بســوقهم وأصبحت نصف المساحة فارغة. لم يكن لديهم ما يقولونه، بل جلسوا بقناعة في الظل يراقبوننا ويمضغون ويبصقون.

لم نمكث هناك لأكثــر من نصف ساعة وســرعان ما كنا نتحــرك على جانب الغدير مــتوجــهين ناحية الموقع التــالي الذي يطالب به العيــاشيــون. تركنا الجدول والمروج العشــبية لــضمد لنصل إلى ذلك الموقع فــوق أرض صخــرية على الجانب الأيسر لضمد الذي قد جرَّحته أعــداد كبيرة من المسايل الصرفية إلى أن وصلنا إلى البرك الصخــرية الرائعة التي تسمى الحنكر[١] في ممر لطيف مفتــوح ينحدر ناحية ضمد. كانت أرضية الممر من صخر جــرانيتي قد أملسته حركة السيول وفي بعض المواقع قد تحفّر إلى برك ذات أعماق مختلفة كانت ذات مياه مستديمة.

يطالب العياشون بأكبر هذه البــرك وأعمقها بأن تكون هي نقطة الحدود -رقم (٩٨ ي) على ارتفاع (٢١٥٠) قــدماً فوق سطح البحر-، تاركــين عدداً من البرك الصغيرة داخل أراضيهم والبرك السفلى تابعة للخالديين.

---

(١) الحنكر عمــود حدودي بين آل عــزة وآل خالد من (السعــودية) وآل عيــاش من (اليمن)، انظر: عــبدالله القباع. المرجع السابق، ص ٤١٢ . (ابن جريس).

تأخرنا هنا لما يزيد عن الساعة، جالسين على حافة السفوح العظيمة الملساء الجرانيتية حول البركة الرئيسة التي كانت مليئة بالأسماك الكبيرة، التي لا يقل وزن العديد منها عن الرطل الواحد، وقفزت كلها في هجوم عنيف على فتات الخبز الذي كنا نسقطه في الماء ونحن نتناول غداءنا، تأسفت إذ لم تكن معي سنارة صيد السمك، ذلك لأن الأسماك كانت أكثر مكراً من أن تدخل في شبكة لصيد الفراشات والتي كنت قد استخدمتها مرة أو مرتين بلا فائدة للحصول على عينة. يعتقد أنها من نوع القَرْخ، وهو النوع المستوطن في هذه الأنهار العربية. أزعج قدومنا إلى هذه البرك عدداً من البط، بينما كان على رأس الشجرة الوحيدة النامية بجوار السطح المائي الكبير عش كبير لطائر أبي مطرقة مبنياً على مستوى منخفض جداً، برغم أن هذا الموقع لا بد أن يكون مصيفاً مطروقاً للرعاة.

وصلنا إلى رأس مسيل بطنه صخري عند موقع التقائه مع شعيب كحلة[١] ناحية الشرق من شعيب محد ناحية الجنوب الشرقي، تتبعنا مجرى محد وهو يدور إلى الأمام فوق مسار متعرج وبه العديد من البرك الصخرية على فترات، وكان هنالك نبع يسيل بلطف من داخل الصخر الشستي بين زخم من نباتات كزبرة البئر وغيره من السراخس.

تحركنا مع المجرى بعد مسافة إلى أعلى لنعبر سلسلة منخفضة من جرانيت رمادي تقع في محور الشمال الغربي والجنوب الشرقي عند أقصى نقطة بها، لتكون النواة للعمود الحدودي التالي على الشريط الذي يطالب به الخالديون إذا تم

---

(١) شعيب كحلة: – اسمه الصحيح (قرن مكحلة)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٢ . (ابن جريس).

تدعيمه، كان هذا الموقع هو الفرحة عمود حدودي محتمل (رقم ٩٩ س) عند ارتفاع (٢٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، وقليلاً ناحية الغرب من آخر موقع على هضبة حدَّة. كان المنظر كئيباً بصفة عامة، برغم كثافة أشجاره، وهو فوق أرض متموجة سفوح جبلية، وتقع قمة جبل العر ناحية الجنوب وتسيطر على المنظر، ويجر فيفاء أذياله ناحية الغرب إلى أسفل ناحية ربوات وسلاسل منخفضة على الجانب الأيمن لضمد. يقع جبل عياش ناحية الشرق، وتربطه سلسلة متواصلة مع العُر الذي كانت هذه السفوح الجبلية هي الوجهات الخارجية له والتي تتدحرج إلى أسفل إلى ضمد.

يجري مسيل جبرية من سلسلة أم فرحة (الفرحة) إلى أسفل حول الحاجز الجرانيتي لشعيب محد الذي دخلنا مرة ثانية إلى جزئه الأعلى لفترة، ينحدر الشعيب من سفوح عياش، غير أننا تباعدنا عنه على طريق أقصر لنعبر العرن المنخفض الذي يمتد من قاعدة العُر. يطالب الخالديون بالممر الذي يوجد عند قمته بكونه موقع نقطة حدودهم الرابعة المتنازع عليها (رقم ١٠٠س) وتسمى نيد أم رزم على ارتفاع (٢٥٠٠) قدم فوق مستوى البحر، وبداية انطلاقه شعيب ملصة الذي تتبعناه إلى أسفل فوق مسيل ضيق غير مثير للاهتمام تنمو فوقه بكثافة شجيرات خفيضة جافة وبعض شجيرات الطلح، إلى حيث العمود التالي غير موجود الذي يطالب به السعوديون، لقد كان هذا العمود مثبتاً على الجانب الأيمن للمسيل لتحديد الموقع إلاَّ أنه تحلل تماماً. كان هذا هو العلامة رقم (١٠١س) على ارتفاع (٢٣٥٠) قدماً فوق سطح البحر، ويقع ناحية الجنوب من نيد أم رزم.

تتبعنا الآن انحناءة المسيل ناحية الجنوب الشرقي، حيث اتصاله مع المجرى الحصوي العريض لوادي ضنبة، الذي ينحدر من القسم التابع لقبيلة آل يزيد على

سلسلة البطين. يعلّم هذا الالتقاء بشجرة طرفاء كبيرة وهو معترف به كعلامة حدودية (رقم ١٠٢س)، ويكون رأس وادي حربرب على ارتفاع (٢٢٥٠) قدماً فوق سطح البحر، ويزعم أن كل المجرى من هنا وإلى أسفل - حسب قول الخالديين - يقع داخل الجانب السعودي للحدود. تم وضع كومة حجارة بائسة على نتوء على الجانب الأيسر، وقيل لي إنها عمود حربرب الرسمي المعترف به الذي قبله الطرفان لحل المشكلة.

لا يزال يحيى أم شريف[١] في تمارضه برفقة قافلة العفش، غير أنه توفر لي دليل لمثل هذه النقاط المتنازع عليها وهو الشيخ عزة (سعيدي) واسمه الشيخ يحيى ابن جبران، وموطنه قرية ربيعة بالقرب من ريدة العزة، كان ناصحاً في شرحه لتفاصيل النزاع وأبرز شريط العياشين بأوضح صورة كمطلب خاص به. تمكنا من تضييق الخلاف إلى نقطة يمكن الاتفاق عليها، غير أن الشمس كادت تغرب حينما فرغت من عمود حربرب وقررنا أن نتحرك إلى أسفل الوادي لنعسكر بالقرب من التقائه مع ضمد. لقد كان المجرى صخرياً حصوياً مع مساحات متفرقة من مياه جارية على فترات، تنبثق من نبع عنيف في وسط جلاميد متكومة بالقرب من آخر الأعمدة الحدودية، اتَّسع المجرى إلى أسفل إلى ممر كثيف الأشجار يقع بين صخور عالية داكنة من الشست، سرنا فوقها نازلين مع الظلام الدامس متوجهين ناحية ضوء مصباحي المشع في المعسكر. كانت الساعة السابعة مساءً حينما وصلنا، لنجد رفاقنا في انتظارنا فوق رف خشبي عريض على الجانب الأيسر للوادي في موقع يدور فيه في انحناءة حادة جنوباً فوق موقع التقائه مع ضمد. كنا هنا على ارتفاع (٢٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. وكانت الليلة لطيفة ذات سحب، وكانت هنالك

---

(١) يحيى أم شريف يطلق عليه أيضاً اسم (يحيى الشريف). (ابن جريس).

رطوبة خـفيفـة في الهواء، وكـانت درجة الحـرارة الدنيا (٦٢) درجـة، ولم يكن هنالك ندى، تميز كل اليوم بالنسيم اللطيف مـقارنة مع يوم الأمس الذي كان حاراً ورطباً.

لقد كنا هنا في أمـر مهم في تجولاتنا هذه، والآن وبعد أن فـرغنا من النقاط المتنازع عليهـا، فلا بد من وقفة لفـترة، شغلناها بالنظر إلى النظام العـام للسفوح الجبلية وهي تقترب من سهل تهامـة، ذهبت إلى ربوة مناسبة في الصباح قريبة من معـسكرنا، كان مـجرى حـربرب، يلتوي ويدور في أجـزائه السفلى خـلال غابة جميلة يكثـر فيها طائر العجلة الغامض، وطائر صـائد الذباب الفردوسي والبلابل وطيور الشقراق الحـبشي وطيور السوَّادية، وطيور أخرى عـديدة، يصب في ضمد عند موقع يبعد حوالي ميلين من معـسكرنا، وعلى مسافة تقارب الميل الواحد فوق موقع دخول وادي عـفرة، الذي ينساب على الجانب القـريب للسلسلة التي تحمل الاسم نفسه وينتهي في مـوقع اللقاء مع جدول جارٍ (غيل) يسمى حـجفًا. يخرج ضمد إلى آخـر مجموعـة من التلال السفحـية بين الطرف الشمالي لسلســلة عفرة والأطراف الخاصــة لعرنين، منخـفضين يجريان خـارج قاعدة فـيفاء همـا روحان والشرحاء. كـان هذا هو ما أمكننا رؤيته من ضمـد، باستثناء ضبابيـة الغيوم التي تحلق فوق سهل تهامة فيما يلي التلال.

تقع كتلة العُر الآن ناحية الجنوب الشـرقي من موقعنا، يقع جرف بارز يسمى القعبة على النهاية الغربية للسلسلة، وهي سلسلة مرتفـعة وتنحدر سفوحها الكثيفة الأشجار إلى جانب وادي حربرب الأيسـر. نستطيع الآن رؤية شريط الحدود وهو يجري من عمود حـربرب إلى جرف القعبة ثم يعبر سلسلة عـفرة بالقرب من قلعة جور (قـور) أم وضف. لا نستطيـع رؤية أي شيء فيمـا يلي ذلك، غيـر أننا في

موقع تتداخل فيه المساحات القبلية على الجانبين في شرائط معقدة. يفصل عمود ملصة الحدودي -مثلاً- بين الخالديين والعزاويين على الجانب السعودي، وبين عنصر البطين التابع لبني منابة، وظل العياشين إلى الخلف من وراء نيد أم رزم، والتي هي نقطة لقاء ثلاثي. وتفصل علامة حربرب الحدودية ومعها العمود الحدودي لقرن مكحلة بين الخالديين والعزاويين على جانب وبين عناصر العُر التابعة لبني منبة على الجانب الآخر، لا يبدو أن هنالك خطاً أرضياً يفصل بين الخالديين والعزاويين.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف صباحاً (١٤ يناير) عندما بدأنا نسترجع خطانا إلى وادي حربرب لمواصلة مسح الحدود. يتصل الوادي على مسافة الميل الواحد تجاه أعلى الوادي مع العُر عن طريق مسيل واسع لشعيب كفر والذي بعده بقليل تركنا المجرى، لنعترض مخترقين أرضاً ذات سلاسل كثيفة الأشجار ومتدحرجة تمتد من الخلف من جانبه الأيسر، مساحة غير منسقه ذات شست مائل، يترتب على زاوية (٢٥) أو (٣٠) درجة من ناحية الغرب إلى ناحية الشرق. وصلنا إلى العمود الحدودي قرن مكحلة، وذلك بعد أن تتبعنا القمة لإحدى هذه السلاسل الجبلية، سالكين مسيل الخرش (أيضاً من العُر) الذي يمتد على طول قاعدة الجانب الشرقي، يقع عمود قرن مكحلة إلى الجنوب الغربي من عمود حربرب الحدودي، الذي يوضع بأسلوب مماثل على الجانب الأيمن لشعيب اللهب بالقرب من التقائه مع الوادي الرئيس.

لقد أوضحت من قبل أن عمود حربرب معترف به رسمياً من كلا الطرفين عند إحدى نهايات الأرض المتنازع عليها تماماً كما تم الاعتراف بنيد أمضراط على النهاية الأخرى. بناءً على العلامات على الشريط التي يطالب بها الخالديون، فهي

تحمل الرقم (١٠٣س)، مع وجود علامتين معترضتين فقط في كل من المجنب وأمبحا (البحا)[1] والحنكر، فهي بالرقم (٩٩ ي) في حساب اليمن. لقد اخترت الرقم الأكبر للملاءمة في مواصلة التسلسل العددي مع الحذر بأنه إذا تم قبول مطلب بني منبة، سيكون هنالك أربعة أرقام يتم إسقاطها من العدد الإجمالي لعلامات الحدود. مهما كان ذلك، فإن قرن مكحلة، التي ترتفع إلى (٢٥٥٠) قدماً فوق سطح البحر، تصبح هي العمود الحدودي الذي يحمل الرقم (١٠٤).

دخلنا الجانب الأعلى من شعيب كفر بعد أن هبطنا من السلسلة على الجانب الغربي. ثم واصلنا السير فيه حتى مجراه العريض، وكنا في صعود وارتفاع متواصل. مررنا هنا بتركيب بنائي غريب. اتضح فيما بعد أنه فرن بدوي أو المقوجة التي يستخدم لاستخلاص الراتنج بحرق شجيرات مختلفة في هذه البلاد كثيفة الغابات. يستخدم الراتنج لعلاج جمالهم من الجرب وغيره من الأمراض الجلدية. يمتد المجرى الآن من قرن مكحلة إلى حيث ينحدر مجرى جيف ويتحد معه على طول الخط الحدودي، الذي يمتد مباشرة من قرن مكحلة عبر البلاد وإلى أعلى سفح القعبة إلى قمته (رقم ١٠٥) والتي فوقها لم تر لجنة الحدود ضرورة لإقامة عمود حدودي، وضح السبب لذلك حينما بدأنا التسلق للسفح الكثير الأشجار، على شريط مسيل جيف. كان شديد الانحدار وصعباً لأبعد الحدود،

(١) فيلبي ذكر هذا العمود الحدودي باسم (مجنب أمبحا) وهو المعنى نفسه لاسم (مجنب البحا)، ولكن بعض المصادر التي دونت الحدود بين السعودية واليمن ذكرته باسم (مجنب البحار). ثم أثناء تجوالي في هذه المناطق الحدودية في شهر المحرم عام (١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م) وجدت بعض الرواه يذكرون هذا المكان كما ذكره فيلبي فيقولون (البحا) وليس (البحار)، مع أن هذا الاسم أيضاً وجد في بعض الوثائق الحدودية باسم (مجنب البحار)، ولكن سوف نبقى على ذكره كما ذكرها فيلبي، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٢، آل زلفة، **عسير في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٧٣ . (ابن جريس).

وكدت أن أقنع نفسي بالتوقف عـن الصعود إلى أعلى أكثر للقمة الفـعلية، حينما وصلنا إلى مضيق عند قـاعدتها، حوالي (٢٠٠) قدم أسـفل القمة وعلى السلسلة التي تربطه مع عرن العُر الكبير وتنحدر من طرفه الشمالي وكان المضيق نفسه على ارتفاع (٣٣٠٠) قدم وعليه تكون القمة من فوقه حوالي (٣٥٠٠) قدم.

تقع القعـبة ناحـية الشمـال الغربي من العُـر، وتنحدر انحـداراً شديداً على الجانب البعـيد من المضيق مع ميل شديد الانحدار، ويـتفلطح عند قاع الدائرة التي تكونها السلسـلة في واد عريض قصـير يسمى شـعيب مجنة. يتـصل هذا المجرى قليلاً أمامنا وناحية الجنوب الغربي، مع آخر يقبل من العُر ويسمى شعيب القمحة، ليكون وادي عفرة، الذي، كما ذكر أعـلاه، ينساب إلى قاعدة السلسلة التي تحمل الاسم نفسـه ليتصل مع ضمـد. تكون سلسلة عفرة هذه الحـدود بين بني حريص الجنوبية علـى جانبهـا الجنوبي، والخالدي إلى الشمـال ثم إلى قلعة جـور الودافة المدمرة، بينـما تكون على الجانب نفـسه الحـدود الجنوبية لأهل العُر (بـني منبة). تكون الأطلال تبعاً لهذا هي موقع لقاء ثلاثي بين كل من حريص وخالدي والعر. يسمى الاتصال الفعلي بين القمحة ومجنة لتكون عفرة باسم أمثميلة[١]، تشتق من حقيقـة أنه موقع شرب، وكان هذا هو مكان معـسكرنا لقضاء الليل، على الرغم من أنه بقي علينا الكثير من العمل قبل أن نستقر أخيراً لننال الراحة.

يقع العمودان الحـدوديان التاليان أسفلنا وعلى جانبي رأس شـعيب مجنة عند قاع مـسيل شديد الانحدار يهـبط من المضيق، ويبتـعد الخط الحدودي بينهـما عن

(١) أمثمـيلة تسمى (تبري أمثـميلة). انظر: القباع، المرجع السـابق، ص ٤١٢ مع أن ابن زلفة أوردها باسم (شري أم شميلة)، والصحيح هو (أمثميلة)، حيث هـي من الحدود الواقعة بين قبائل أمشيخ اليمنية، وآل خالد وآل غـزة السعودية. انظر: ابن زلفـة، المرجع السابق، ص ٢٧٣، بالإضافـة إلى جولاتنا في هذه المناطق الحدودية في شهر المحرم عام (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م). (ابن جريس).

الجزء الأسفل للوادي في أرض الخالديين ويكون الجزء الأعلى تابعاً لمقاطعة العُر في اليمن. وصلنا بعد هبوط يعادل (٥٠٠) قدم أسفل المسيل، في طريقنا إلى مجنة، إلى بقايا عشة دائرية مبنية من الحجر، بقيت منها طبقتان فقط -ولربما كانت برج مراقبة أو مركز حراسة- إلاَّ أنه لا حاجة لها الآن لإنذار وتحذير سكان قرية مجنة أسفل السفح بالخطر الذي يترصدهم به الأعداء.

كانت قرية صغيرة من عشش حجرية أو من القش (الوتل) وتسمى القفلة وتسكنها عناصر شبه بدوية من الخالديين والعزيين وآل أمشيخ (بني منبة)، كلهم يعيشون معاً في وئام فوق أرض العُر. تقع على ارتفاع (١٠٠٠) قدم أسفل المضيق وتشتمل فقط على حوالي (١٢) عشة، وقد قوبلنا هناك حين وصولنا بكرم فياض في التعبير عن التقدير أبداه لنا امرأتان وبعض الأطفال -ذلك لأن كل الرجال كانوا غائبين في أعمالهم، وقد أحضرتا لنا أباريق القهوة وقحفاً كبيراً مملوءاً باللبن الرائب، ونحن جلوس تحت ظل شجرة كبيرة وتحيط بنا الماعز والضأن وكلاب القرية، قمت بدفع أثمان ما قدم لنا من كرم في وقت متأخر من اليوم بحرية في الدفع أكبر لقاء المواد التي أرسلت إلى المخيم -لم نضيع الوقت تحت الظل، بل سرعان ما واصلنا السير تتبعنا الكلاب النابحة إلى مسافة، والتي كانت صامتة حينما كنا بالفعل داخل القرية، وذلك بمتابعتها لنا فوق سفح منحدر صعب، على الجانب الأيمن لنتفقد عمود حرف أم عبادة، وهو عبارة عن كومة تعيسة من حجارة في حوض ضحل يجري فوق قمة العرن الذي ينحدر من سفح القعبة.

كان هذا هو موقع العمود الحدودي رقم (١٠٦) عند ارتفاع (٢٧٠٠) قدم فوق سطح البحر وحوالي (٤٠٠) قدم فوق مستوى القرية. يقف إلى الجنوب من موقعنا، وعلى شريط يترك القرية إلى اليسار - داخل أرض يمنية -، العمود

الحدودي التالي فوق جرف من شست أسود يطل على القرية ويسمى غباس، وهو الذي يحمل الرقم (١٠٧) وارتفاعه (٢٥٥٠) قدماً.

لم يكن هنالك ما يثير الاهتمام في هذين الموقعين اللذين قمنا بزيارتهما بعد مشقة. تعرج بنا شعيب الخرق[1] أثناء هبوطنا من الموقع الثاني، وهو رافد من روافد مجنة حتى وصلنا إليه وتسلقنا إلى قمة الربوة المرهقة في أكثر المناظر بؤساً لجبال سفحية حرقت الشمس صخورها. هبطنا حوالي (٢٠٠) قدم من غباس إلى المسيل ثم صعدنا أعلاه إلى (١٠٠) قدم إلى أسفل التل الذي شمخ إلى ارتفاع (٢٩٠٠) قدم فوق سطح البحر، وجدنا عند قمته بعد زحف خطر، ضرباً من الزريبة من بقايا الحروب القبلية القديمة ولم نجد عموداً حدودياً. لقد ثبت بعد التحري أن لجنة تعليم الحدود التي عهد إليها بمهمة تعليم الحدود، حين وصلت إلى المنظر الجميل لمجنة اكتفت بالنظر من بعد، وللزريبة اكتفت بذلك أيضاً ورأت أنه يؤدي وظيفة العلامة ولا ضرورة للعمود. ولم يكلفوا أنفسهم حتى بإرسال أحد الرعاة ليبني بعض أكوام الحجارة، وعليه فقد تم تسجيل الزريبة وتحمل الرقم ١٠٨ في قائمتي.

لقد ذكرت لجنة الحدود هذه كثيراً في صيغة المجموعة، ولعله من المفيد للتاريخ أن أذكر أسماء الأفراد. كان لكل قسم من الحدود بالطبع طقمه الخاص به من المسؤولين عن تحديد الحدود، غير أن أولئك المسؤولين عن هذا الجانب بالذات الممتد من بئر أمشرح إلى سهل تهامة كانوا: من الجانب السعودي أبي مسمار من الشرطة، والذي كنا قد قابلناه في ظهران[2]، كممثل رسمي، وعلي بن فرحان

---

(١) شعيب الخرق، عمود حدي بين قبيلة آل أمشيخ اليمنية وآل خالد وآل عزه من بني مالك السعودية. (ابن جريس).

(٢) ظهران: يقصد بها ظهران الجنوب في بلاد وادعة الواقعة إلى الشمال والشمال الغربي من بلاد نجران وهي اليوم محافظة من محافظات منطقة عسير، وتبعد عن أبها حوالي (١٣٠ ــ ١٥٠كم). (ابن جريس).

من آل سعيد، ويحيى بن جبران من آل غزة، وعلي بن يحيى (ابن يحيى أم شريف) من الخالديين، وأحمد بن حسن أيضاً من الخالديين، وحسين بن سالم من آل قطيل (خالديين) وعددهم ستة، ومن الجانب اليمني، جارالله بن جمعان من سحر، ومفرح بن سليمان من العُر، (بني منبة)، وعلي بن حسن أبو طاقة من آل أم شيخ وفرحان بن عياش من عياش (بني منبة) وعددهم أربعة. لا يمكن القول بأنهم لم يضعوا خط الحدود في وضوح تام من النهاية إلى الأخرى غير أن الأسلوب الذي أدوا به العمل، مع تحاشي العمل إلى أقصى حد والإزعاج، لا يستحق الإطراء.

لقد استمتعنا بالنسيم البارد الذي هبَّ من ناحية الجنوب الغربي، إذ كان تسلقنا غير مريح فوق هذه التلال، نتعرج في التجاويف وبينها، وكنا نتوقف على قممها، بينما إلى البعيد في سهل تهامة، وقد بدا لنا وكأن عاصفة رملية كانت تهب هناك، كان الضباب كثيفاً مما حجب الرؤية في ذلك الاتجاه. كان المنظر في التلال من حولنا بصفة عامة مألوفاً، ومن هذا التل تمكنت ولأول مرة من رؤية قرية داخس الجميلة إلى يسار تل (طوالة) على سلسلة البطين، ومسجدها البارز الأبيض اللون. كان اتجاهنا إلى الجنوب من عمود غباس الحدودي، بينما كان عمود جور الودافة الحدودي، بجوار القلعة المدمرة، التي سنقوم بزيارتها غداً، يقف فوق سلسلته ناحية الجنوب الغربي. تجاوزت الساعة الخامسة مساءً حينما فرغنا من مسحنا من الخرق وهبطنا إلى أرض الخشن المتموج الصخري الذي يفصله عن مجرى وادي القمح.

لقد استغرق وصولنا إلى قمح نصف الساعة وكان مجراه رملياً، عريضاً، وكثيف الأشجار، وهبطنا من عنده إلى العمود الحدودي التالي وهو عمود ضبرة

(ثبرات) أمضس (رقم ١٠٩ على ارتفاع ٢٢٠٠ قدم). كان هذا الوادي مميزاً بوفرة غطائه النباتي وبحجم أشجاره، معظمها آصم وسرح غير أن أشجار الضبر عند عمود حدودنا كانت عظيمة ذات ظل يعقد تحتها مجلس القرية أو يرتاح فيه قطيع أغنام. كان العمود نفسه مسلة جميلة يرتفع فوق كومة حجارة واضحة المعالم، وكانت هنالك عشة راعٍ منفردة على الجانب السعودي للحدود وقريبة جداً من الشجرة.

لاحظنا، قبل وصولنا إليها، مجموعة صغيرة غير أنها تثير الشكوك من البدو التابعين لفرود وهم يتجولون بجوار مسيل جانبي، كأنما كانوا ينتظرون حلول الظلام لتنفيذ أمر سيء يجول في نفوسهم. انزعج كل من يحيى بن جبران ويحيى أم شريف، اللذين هبطا معي هذه المرة للمشاركة في مسيرة هذا اليوم، لهذا الظهور غير المتوقع الذي لا نرحب به، وذلك أثناء ما كنا جلوساً تحت الشجرة، ورجاني كلاهما ألاَّ أتجول بمفردي دون حراسة، كما كانت عادتي في المعسكر ومعي البندقية وشبكة صيد الفراشات.

لم يكن هنالك شك في هذا المساء، وذلك لأن الظلام قد أطبق بالفعل، حينما وصلنا إلى فم وادي مجنة واستدرنا لنلحق برفاقنا في المعسكر فوق أرض خضراء لطيفة مطعمة بأشجار العلب ويقع بين الجانب الأيسر لمجرى السيل الفعلي، والذي لا يزال مبللاً في بعض أجزائه بسبب الأمطار الأخيرة والسيول، وبين السفح الكثيف الأشجار لعرن القعبة، الذي نهض فيما يليه إلى أرض السفوح الجبلية التي نتجول فوقها الآن. كنا هنالك على ارتفاع (٢١٠٠) قدم فوق سطح البحر وكان الندى كثيفاً أثناء الليل، إلى جانب أن فمه يصب في وادي قمح ليكوِّن وادي عفرة، فإن وادي مجنة، الذي لا يزيد طوله عن الميل الواحد محاط

تماماً بسفوح القعبة الكثيفة الأشجار وذات العرنات التي تبرز على الجانبين. كانت مساحة تشبه الكمثرى في الشكل، وكانت نهايتها السميكة تجاه أعلى الوادي، وكما يدل عليها الاسم، فهي عبارة عن جنة صغيرة مليئة بالطيور. كانت طيور الماء توجد بوفرة في السفوح الكثيفة الأشجار، وقد تمكنت من الحصول على طائر السمنة الصخرية، وطائر الصرَّد المحلي وطائر أبيض العين. وكانت طيور الثرثار والبلابل توجد بوفرة أيضاً وكانت نداءات طيور الماء في الصباح الباكر شجيةً.

كان معسكر مجنة مركز لقاء لتغيير المرشدين وجمال العفش. لقد أرسلنا الرسائل، قبل ليلتين من معسكرنا عند ينابيع الوغرة الحارة إلى أمير العارضة، نخبره بموعد وصولنا وطلبنا منه إرسال ممثلين لبني حريص الذين سندخل أراضيهم، وحيوانات جديدة لحمل العفش. أصابنا الفزع حينما وصلنا ولم نجد أحداً في استقبالنا، وبدا لنا أننا سنمكث هنا لفترة غير محدودة. قمت بوداع كل من حتروش وعلي بن سلمان والشيخ زيداني وحردان في معسكر حربرب. لقد كانوا لطافاً ورفاقاً مثيرين للاهتمام وكنت أسفاً أن أراهم يذهبون، غير أنهم كانوا سعداء بأن يجدوا حرية عودتهم إلى أوطانهم، وكنت أتمنى أن يكونوا مقتنعين كما يبدو عليهم، بالمكافآت التي يستحقونها؛ مقابل خدماتهم التي لا تقدر بثمن.

لم يظهر أحد في الصباح. وكسبت الوقت وخرجت ومعي بندقيتي وشبكة صيد الفراشات إلى الغابات من حولنا على مسافة أسفل وادي عفرة، لم تظهر شخصيات الأمس المشبوهة حياة أو نشاطاً، وكان كل ما قابلته في أثناء تجوالي هو مجموعة من الصبية الخالديين، يقومون بمراقبة قطيع مختلط من ضأن أبيض وماعز أحمر اللون حول مشرب نبع في جرف كثيف الأشجار، منحدر صخري يدخل إلى الوادي من سلسلة جور الودافة. جلست أتجاذب معهم الحديث لفترة

واكتشفت أن لديهم معلومات كثيرة. لقد أخبروني -كمثال- بأن سفوح العُر وسلسلة البطين المجاورة مأهولة بجماعة آل يزيد، ومشهورة بينابيعها العديدة، غير أن قرى بقية البطين وقرى عياش يعتمدون على مياه تخزن في أحواض، حفرها الناس في الصخر. ذكروا لي أن هذه المناطق تزرع البن والموز والتبغ بكميات كبيرة إلى جانب المحاصيل الحبوبية العادية من دخن وقمح وشعير في حقولهم ذات المساطب. كان مشرب الماء هذا مكوناً من بركة صخرية كبيرة أسفل نتوء تظلله شجرة فرفار ضخمة، والتي كانت على أفرعها واحدة من الأعشاش الضخمة لأبي مطرقة. يحمل كل من الجرف ومشرب الماء اسم موارد.

كان مريحاً لنا جداً بعد الأيام الصعبة المرهقة، أن نقيم هنا في هذا الموقع الجميل للبلاد بلا عمل معين. رأيت وقد اقترب الوقت من الظهيرة أن أعود إلى المعسكر لتناول وجبة الغداء. أخذتني الدهشة وأنا أخرج من داخل الغابة عند الجرف إلى المجرى أن أشاهد ثلاثة نصف عراة وهم يحملون بنادقهم بالطريقة المعروفة، أفقياً فوق الأكتاف ومن خلف الرقبة.

انصرف تفكيري مباشرة إلى رجال الأحراش في الأمس ولم يكن هنالك مفر من مواجهتهم. وتجلى الأمر، لراحتي، حينما علمت أنهم طلائع القافلة التي جاءت إلينا من العارضة ومعسكر بني حريص، رأيت خلال دقائق الحمير التي كانت في المقدمة من المنحنى إلى البعيد مع اتجاه أسفل الوادي، وأسرع جمعنا وكنا أربعة أشخاص إلى المعسكر لنبلغ رفاقنا بالأنباء السارة. ثم الإسراع بإعداد الطعام وما هو بالوقت الطويل حين دخلت قافلة الحمير إلى وادينا ووصلت إلينا محملة بشحنات ملأتني سروراً.

كان هنالك صندوقان لشحن البارافين وهما ممتلئان بالبريد الخاص بي، والذي كنت أنتظره بشغف -وأشياء أخرى- تسعة أسابيع من بريد الوطن تغطي الفترة من منتصف سبتمبر إلى منتصف نوفـمبر، خطابات وصحف وافرة وشحنة مدهشة من سجائر برما وتبغ الغليون. يبدو الأمر كأنه لا يصدق بعد كل فترة الانتظار الطويلة هذه، كما ازداد سروري أنني أرحب بعودة ابن هـذيل، الذي غادرنا قبل اسبوعين مما دعـاني لإحضـار بطارية للراديو، الذي منذ تلك الحـادثة الوحيـدة التي تعطل فيها، ظل يعمل بصورة طبيعية حتى اليوم.

كان كل شيء أكثر مـن جيد الآن، وقررت أن أحتفل بالمناسـبة بالإجازة ليوم واحد، وذلك بتـأجيل مغـادرتنا إلى الغد ونسترخي للظهيـرة والمساء وإلى وقت متـأخر من الليل لألتـهم بريدي مع شاي وسـجائر برما، ولا بد أنـني قد دخنت نصف علبة في ذلك اليوم، لأظل نشيطاً. ارتكبت خطأ خلال هذه الفرحة بأن قد فات عليَّ أن أملأ نابض ساعة الكرونوميتر، وكانـت النتيجة أنني اكتشفت أنها قد توقفت عند الوصـول إلى المعسكر في المساء التـالي. كان هذا خطأ صغـير، ذلك لأن إذاعة القـدس كانت تذيع شـارات الوقت مما وضع الأمـور في نصابهـا، كان هنالك الكثير من الحديث بين الأصدقاء القدامى والجدد في معسكرنا، غير أنني لم انتـبه لـذلك، بل تناولت وجـباتي بمفـردي لكي أواصل قـراءة خطابات الأسـرة والصحف. لم أكن في عصر ذلك اليوم وفي مـسائه وليله في الجزيرة العربية، لا يمكن أن يحس بمتعة مثل هذا الحدث من لم يمر بالتجربة ذاتها.

صحـوت عند الصباح على صـوت طيور الماء في الغابـات بالقرب منا، ولم نضيع كثيـراً من الوقت في إعداد الحيوانات الجديدة لحملها وأسيـادها فيما يخص

أسرار نقل العفش الثمين، الراديو، والمزواة، وأدوات أخرى، سيرافقنا شيوخ الخالديين والعزيين حتى المعسكر التالي؛ وذلك لأننا لم نفرغ تماماً من مناطقهم، غير أن الأمير عبدالله بن شرقة سيغادرنا ليعود إلى أعماله في القهبة، والتي تغيب عنها مدة أسبوعين. لم يفكر إطلاقاً، على الرغم من صراعه المتواصل مع الحمى في الابتعاد عنا أو في الانهزام للحمى وكنت بالتأكيد شديد الأسف لوداعه. لقد انطبع في ذهني كحاكم مثالي بأخلاقه الشجاعة المتواضعة، يتولى الإشراف على هؤلاء الأفظاظ المتوحشين الذين يتصرفون كالأطفال أحياناً، وكان تدينه العنيف يعزز من سلطته عليهم. يبدو أن بني مالك كانوا تحت السيطرة تماماً وكانوا خاضعين برغم كل شهرتهم السابقة بكونهم مزعجين ويصعب التعامل معهم.

لا بد أن يعزى نجاح ترويضهم للحاكم في تعامله معهم بأسلوب لطيف وباستثناء حتروش، فلا أحد من الشيوخ الذين كنت قد رأيتهم يبدو أنه مبرز. كان كل من علي بن فرحان ويحيى أم شريف، ويحيى بن جبران وشقيقه محمد ناعمين بلا مقدرة على الاحتمال، يرغبون دوماً في الراحة حتى في قمة مسيرتنا الساخنة، يرجفون من البرد في إحدى الدقائق ويهرعون للاختباء من الشمس في دقيقة أخرى كأنهم مجموعة من الأرانب، ودائماً يستجدون الطعام، لم أشعر بالأسف بأن هذا هو آخر أيام مرافقتهم لي، وكنت سعيداً أن أراهم يغادرون المعسكر في الساعات المبكرة من صباح الغد غير أنه، مع كل المآخذ التي أبدوها، فلم يكن بمقدوري أن أفعل شيئاً بدونهم ورافق كلمات وداعي لهم شيء أكثر صلابة يحملونه معهم في حقائبهم. لقد كانوا رفاق جولاتي مدة أسبوعين أو أكثر فوق هذه الجبال، ونحن الآن نفترق بلا مجال للقاء بالتأكيد.

ضرب فريقنا مسيرته فوق وادي قمح إلى أعلى السفح الشديد الانحدار للعرن الصخري الكثيف الأشجار الذي يقود إلى أسفل إلى سلسلة عفرة بين مسيلي موارد، على يميننا، ومليح على يسارنا، بينما اتجهت قافلة العفش لتسلك طريقها المناسب، لتصل إلى موقع معسكرنا التالي في الوادي. يرتفع رعن مسلة هذا إلى (٧٠٠) قدم إلى قمته على حافة رف يرتفع فيما يليه إلى قمة عفرة، التي وصلناها بعد تسلق استمر ساعة ونصف الساعة عند العمود الحدودي لجوار جور الودافة (رقم ١١٠) على ارتفاع (٣١٥٠) قدماً فوق سطح البحر. يصل خط الحدود مباشرة إلى هذا الموقع من علامة ضبرة أمضس على جانب وادي قمح، وتكشفت الأطلال، التي كنا قد رأيناها على بعد، حين وصولنا إليها عن ثلاثة أبنية تشبه القلعات المحطمة، بنتها قبيلة بني حريص لحراسة حدودهم، والتي تساير حدود الخالديين غرباً إلى هذه النقطة ومع العُر (بني منبة) شرقاً.

تتكون قمة السلسلة على جانبها من شريط من ألواح شستية شبيهة بالمنشار موضوعة على زاوية (٤٥) درجة من جهة الغرب ناحية الشرق. لم تكن العلامة الحدودية بجوار الأطلال عموداً بل شريطاً من ألواح طولها (١٢) قدماً وبارزة إلى قدمين فوق السطح. تنحدر السفوح أمامنا إلى أسفل إلى وادي كثيف الأشجار تحفه على الجانب البعيد سلسلة كل من حيران والمشرَّق ولكنه ينفتح إلى الخارج ناحية الشرق، ويكشف عن لمحات من الجانب الجبلي من وادي جازان، وهو يجري بين سلسلة عالية تسمى المشوي على الجانب البعيد وقريباً من سلسلة فسوة السفلى وتقف في الاتجاه نفسه قمة فضّة التي يوجد فوقها عمود حدودي عند مضيق سلسلتها التي تنحدر إلى أسفل إلى وادي جازان.

ألقينا نظرة على التركيب القبلي المتباين الذي يقع أمامنا الآن ويختلف عن الذي وراءنا، وقد أشار مرشديَّ إلى سمات عديدة في أراضي كل من قبائل العبادل وآل مظهر وقيس، ويمانية ومجموعات أخرى، دون ذكر شيء عن الكتف اليمني العظيم المكونة من قبائل رازح وحرم والنظير. أمكننا أيضاً رؤية أجزاء من العُر، لم نكن قد رأيناها من قبل، وبعض القرى الجديدة. استطعت أن أتعرف في كتلة هذا الجبل الوحيد على ما يقارب (١٦) قرية مميزة ولا بد أن يكون هنالك أكثر من هذا العدد على السفوح المعاكسة وفي الانطواءات الجبلية وفي العرنات. كما ذكرت لي أسماء ما لا يقل عن (١٢) قرية تابعة لقبيلة عياش، وأكثر من ذلك على سلسلة البطين، وكان انطباعي العام أنه يوجد ما لا يقل عن (١٠٠) قرية كبيرة وصغيرة في مرتفعات بني منبة ويقدر عدد السكان بحوالي (٥٠,٠٠٠) نسمة. ويعتقد التراث المحلي أن قمة جبل العُر يسكنها الجن.

زارنا بعض الرعاة حينما كنا جلوساً بجوار أطلال جور الودافة، ربما كانوا من منطقة فيفاء. كانت قصتهم أن أحد أقربائهم قد توفي حديثاً وكان يزمع أداء فريضة الحج إلى مكة، غير أنه لم يتمكن من ذلك لا بنفسه ولا عن طريق الوكالة لعدة أسباب. وأصبح الآن ميتاً، ويود أصدقاؤه أن يتأكدوا من دخوله الجنة بترتيب زيارته بعد وفاته إلى مكة عن طريق الوكالة. كان هذا في عرفهم مسموحاً به، ولست متأكداً من الموقف الشرعي لمثل هذه الحالة[1]، غير أن مذهب الشيعة يبدو

(١) الصحيح أنه يجوز لغير القادر على أداء فريضة الحج أن ينيب عنه من يقوم بذلك، أما الحكم لشخص بدخول الجنة من عدمه فهو راجع لله سبحانه وتعالى واسع الرحمة. وعدم انتشار التعليم أو من يقوم بتوعية الناس في أمور دينهم على المنهج الصحيح، يجعل عامة الناس يقعون في مثل هذه الأخطاء الشرعية. (ابن جريس).

أكثر تسامحاً في هذه الأمور، ولا يوجد أي شك في العلاقات الضرورية بين قبائل تهامة هذه وبدع الزيديين. قام أصدقاء وأقارب المتوفى بجمع بعض الأموال لتسديد أتعاب الوكيل نيابة عنه، عرفوا أننا قد قدمنا من مكة وسنعود إليها وعليه كان حضورهم إلينا لمناقشة المسألة. نوى يحيى بن جبران أن يؤدي فريضة الحج هذا العام على أي حال لشخصه هو، ويمكنه أن يتعامل مع أكثر من عدد من الوكالات كما يحب شريطة أن يصير لكل حالة المراسيم المطلوبة بدقة باسم الشخص الذي ينوب عنه[1]. وتمت المعاملة في يسر، وأدى يحيى القَسَم للقيام بالشعائر المخلصة لمهمته هذه في الحال فوق سلسلة جور الودافة. أخذ يحيى وهو ممسك بيدي رئيس وفد الرعاة وبناءً على ما يمليه عليه هذا الرئيس يكرر القَسَم تلو القَسَم بكل ما يقدسه هؤلاء القوم البسطاء بأنه سيفعل كل ما هو مطلوب في حجته التالية - والتي تبقى لحلولها شهران - وبعد الفراغ من أداء هذا القَسَم، سلمت إليه صرة من الفضة، تحتوي على المبلغ المقدر في حدود (٤٠) ريالاً، وقد قام بِعَدِّ ما فيها من ريالات، للتأكد بأن السعر الكامل قد تم استلامه. وعاد الرعاة وهم مسرورون لمواصلة أمور حياتهم.

تمتد سلسلة عفرة من جهة الجنوب الشرقي لتتصل مع عرون العُر، ويستمر خط الحدود فوق قممها، ودائماً على المستوى نفسه، إلى حيث العمود الحدودي التالي، أو بالأحرى، كومة من ألواح ملقاة مع بعضها البعض فوق كتلة مائلة من الشست بجوار بقايا حصن مبنى من ألواح مماثلة. كان هذا هو الذي يحمل الرقم (١١١)، وكنا عند ارتفاع (٣٢٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر. كان التسلق

---

(١) من يتوكل للحج عن شخص ما فإنه يحج فقط لهذا الشخص المتوكل عنه، ولا يستطيع أن (يتعامل مع أكثر عدد من الوكالات) كما ذكر فيلبي. (ابن جريس).

فوق السفوح من الوادي عملاً صعباً، إلا أنه كان لطيفاً فوق هذه السلسلة مع نسيم لطيف وسحب كثيرة من حول المرتفعات المجاورة. هبطنا الآن على السفح البعيد وسرعان ما وصلنا إلى رأس مسيل معجمين وتجري بجواره الحدود إلى بركة غدير حصر أم غيشانية، مسطح مائي كبير على هيئة النجمة في خزان طبيعي عميق من جرانيت رمادي، تآكل حتى أصبح أملساً، عند موقع انحدار إلى (٢٠٠) قدم من الشست، والذي لا بد أنه يقوم بعرض شلال رائع خلال السيول. لم تكن المياه هنا مستديمة لأنها تعتمد على تكرار السيول وكذلك حال برك أخرى صغيرة في المسيل، وبالرغم من أنه لا يوجد عمود حدودي هنا فإن هذه البركة قد تم الاعتراف بها كعلامة حدودية، وأعطيت الرقم (١١٢) في التسلسل. وتقع على بعد (٨٠٠) قدم أسفل قمة عفرة وحوالي (٢٤٠٠) قدم فوق سطح البحر.

يواصل المسيل اتجاهه ناحية الجنوب الشرقي لما يزيد على الميل الواحد، ليتصل مع خطوة القفلة[١] وهو مجرى ينحدر من العُر إلى وادي أجبه الذي هو رافد لوادي جازان. يُكَوِّن شريط سلسلة عفرة من العُر وغرباً فاصلاً مهماً بين وادي ضمد وجازان. كان هنالك عدد من الرعاة التابعين لأم شيخ مقيمين بجوار هذه المياه، عند مرورنا الذي كرهته كلاب رعيتهم.

يقع المجرى بالكامل في الأراضي اليمنية، إلى أسفل البركة، ويعتلي خط الحدود سفوح سلسلة نصيب إلى قمتها بارتفاع (٣٠٠) قدم ومن ثم إلى قمة بقرة المنخفضة التي تطل على المجرى من الغرب، ثم تتجه الحدود بمحاذاة الجانب الأيمن باتجاه مجرى القفلة. لا يوجد عمود حدودي على هذه القمة الذي يمكن، إعطاؤه

(١) خطوة القفلة: نقطة حدودية بين بني حريص (السعودية)، وآل أمشيخ (اليمنية). (ابن جريس).

الرقم (١١٢) أ، على ارتفاع (٢٧٥٠) قدماً فوق سطح البحر. عبرنا القمة عن طريق مضيق على الجانب الأيمن، حيث هبطنا من مجرى بقرة إلى شعيب شوامي، ويعد الأخير امتداداً لقفلة أسفل العمود الحدودي عند نقطة تقاطعه مع معجمين والأخير، وكذلك مجرى آخر من الجانب البعيد يدعى الجحيرة. وهكذا يشكل وادي شوامي، أسفل القفلة، الحدود الدولية وكذلك الحدود القبلية بين بني حريص (سعودي) وأم شيخ (يمنى)، كما يشكل معجمين الحدود بين سلسلة عفرة والقفلة. توجد على مدخل بقرة قريتان صغيرتان، هما صبران ومقام على جانبي مجرى شوامي، التي يسكنها عناصر من أم شيخ اليمنية، على الرغم من أن صبران تقع في الأراضي السعودية.

توجهنا إلى عمود قفلة الحدودي رقم (١١٣) بعد أن قمنا بفحص هذه الترتيبات المعقدة المتشابكة للقبائل والأنهار، ويعد عمود قفلة الحدودي واحداً من أفضل الأعمدة في كل الشريط، ويشمخ إلى ارتفاع ستة أقدام فوق هضبة هرمية بارزة فوق وادي شوامي على رأس نهاية انحناء على شكل حرف (S) - انحناء مزدوج - للمجرى، يجري مسيل بقرة إلى المجرى عند نهايته السفلى. كان هذا كومة حجارة حدودية قديمة وقبلية، وقد تم تحسينه كثيراً وتم بناؤه بصورة متينة بأمر لجنة الحدود، التي تستحق أن يشاد بها حينما يكون لذلك مبرر كافٍ. هبطنا هنا إلى ارتفاع (١٩٠٠) قدم فوق سطح البحر، وهذا هو أول موقع في كل الحدود يقل ارتفاعه عن (٢٠٠٠) قدم. قمت بتصوير العمود الحدودي احتفالاً بهذه المناسبة ويقف بجواره ثلاثة أعضاء رئيسيين. وهم عبدالرحمن العسيري ممثل الحكومة الرسمي الذي أوفد من العارضة، وبالمناسبة فهو من دماء عربية تركية مختلطة، وذلك لأن والده قد خدم تحت نظام الأتراك في أبها وتزوج من امرأة

محلية، وموسى بن مفرح من قبيلة آل عمر تحت قسم بني حريص، ومحمد بن علي من قبيلة أم شيخ.

يحمل منحنى الوادي غيلاً لطيفاً جارياً كان ينساب في بطء، حينها فوق بطن رملي حصوي. كان مملوءً بالأسماك الصغيرة وقد قيل لي إن هذا الوادي قد بدأ من مسافة بعيدة في المجرى. توقفنا قليلاً هنا للاغتسال لأجل صلاة الظهر، قبل مواصلة المسيرة إلى أسفل إلى العمود الحدودي التالي رقم (١١٤) عند مدخل مسيل الحوك من المرتفعات على يسارنا على مسافة (١٥٠) قدماً أسفل من موقعنا. لقد كان مجموعة صغيرة من كومة حجارة متوضعه فوق جرف من جرانيت رمادي يبرز قليلاً فوق الوادي من الجانب الأيسر للوادي قليلاً أعلى من موقع الالتقاء. واجهتنا مرحلة صعود صعبة بعد أن عبرنا الرافد، على السلسلة المقابلة في طريقنا إلى عمود الدقيقة[١] الحدودي الواقع فوق قمتها ويطل على مسيل سلحات على الجانب البعيد، الذي ينحدر من سفوح فضة العالية الكثيفة الأشجار. يقف عمود الدقيقة الحدودي رقم (١١٥) فوق مستوى الوادي عند ارتفاع (١٩٠٠) قدم فوق سطح البحر ولكنه لا يسيطر على منظر شمولي. تأخر الوقت كثيراً وأسرعنا أسفل السفح البعيد إلى داخل مجرى سلحات وسرعان ما وصلنا إلى موقع لقائه مع وادي ثروة المهم -أيضاً ينحدر من فضة- على ارتفاع (١٦٠٠) قدم فوق سطح البحر.

وصلنا بعد مسيرة عشر دقائق فوق مجرى ثروة إلى موقع التقائه مع وادي شوامي ليكوّن أجبة، وهو الموقع الذي اخترناه لمعسكر الليلة. كان رفاقنا قد

---

(١) عمود الدقيقة الحدودي: هكذا سماه فيلبي مع أن المراجع والوثائق التي أشارت إلى هذا العمود سمته (رأس الدقيقة)، ولهذا سوف نستخدم ما ورد في الوثائق والمراجع. (ابن جريس).

استقروا بالفعل هناك، وقد اختاروا للمعسكر موقعاً جميلاً على سفح جانب الوادي عند موقع الالتقاء أو قليلاً أسفل منه. هبطنا الآن إلى ارتفاع (١٥٥٠) قدماً، وهو أدنى ارتفاع وصلناه عند موقع سوق عيبان فيما يلي فيفاء.

تغذي كتلة جبل العُر التي ترسل مجاريها إلى أسفل على جانبي سلسلة عفرة، كلاً من وادي ضمد ووادي جازان اللذين يجريان مستقلين عبر الجبل والسهل وينتهيان معاً في الدلتا نفسها أعلى ميناء جازان. يعد شوامي واحداً من الروافد المهمة لنظام جازان، والذي ينبع أصله الرئيس إلى الخلف في الجرف العظيم لمقاطعة صعدة، ويعرف في جزئه الأعلى باسم وادي معبر حتى ما يلي التقائه مع وادي عِنا وحينها يصبح اسمه جازان. تكوّن أجبة الاستمرار لمجرى شوامي بعد تدفق ثروة. يذوب غيل شوامي الجاري في هذا الموقع، الذي كان متواصلاً من أعلى القفلة في الرمال، ويصبح المجرى العريض المسطح جافاً وهو يخرج من مساره المحاط بالصخور، ويدخل فراغ أجبة الذي يشبه الدلتا، التي يوجد فيها وعلى جانبي الوادي عدد من القرى الصغيرة التابعة لبني حريص يقع أسفل معسكرنا، على الجانب الأيسر للوادي قسمان من قبيلة محشرة، بينما تقف أطلال داود على الجانب الآخر منه بجوار تل المشرَّق.

لم تكن قشعة وهي على الجانب نفسه غير مجموعة من عشش البدو، بينما على الجانب نفسه تعلّم قرية عوراء موقع تدفق شعيب عورا داخل أجبة وكان شعيب العوراء هو الطريق الذي سلكته قافلتنا وما هو إلاَّ مجرد استمرار لشعيب البقعة، الذي ينبع من الصفحة القريبة من عفرة، وينحدر عبر موقد من تلال منخفضة، المشرَّق، جازان.. إلخ التي تفصلنا عن وادي ضمد. لم يكن أي من

هذه القرى أو التلال ذا أهمية، غير أن انكشاف الجبال يدل على أننا لسنا بالبعيدين من حافة سهل تهامة، كما يوجد اختلاف بيِّن في الصفة العامة للسكان في هذه البلاد المنخفضة. لقد مضى اللطف وأحياناً الإزعاج والتبجح الذي اتصف به ساكنو المرتفعات وحل مكانه إحساس بالضجر والكآبة. ويعيش الناس في بيوت بائسة وقد بلغ بهم الفقر مداه.

كان يوماً ممتعاً بصفة عامة. كانت البلاد كثيفة الأشجار وبها الأشجار النموذجية والنمو التحتي للسفوح الجبلية وكثيراً ما كنا داخل مدى رؤية أو سمع القرود، وهي تبحث عن الثمار التوتية بين جنبات أشجار المظ والغلفة. كان مسيل بقرة مميزاً بأشجار التمر الهندي (الحمرة) الجيدة النمو إلى جانب برك شوامي الممتلئة بأسماك المنوة. كان المرشدان التابعان لبني حريص ومعهما شيخهما، موسى بن مفرح، غير واضحين بصفة عامة فيما يخص جغرافية بلادهم بالرغم من أنني استطعت أن استخدم رجلاً من قبيلة آل أمشيخ - واسمه محمد بن علي - من بين الرعاة عند بركة حصر لأجل التعويض عن قصورهم، وقد وجدت لذلك ما يبرره، وذلك لأن المنطقة التي نتابع حدودها كانت بالفعل خالية من أي عناصر تابعة لبني حريص، وكانت مخصصة للرعي لآل فيفاء، وبني مالك، وقيس، وأم شيخ.

بعد أن استقر بنا المقام في المعسكر، حيث لحق بنا علي بن شنتوف، شيخ قسم أكاوين الذي لم يلحق بنا في مجنة غير أنه حضر بصحبة قافلة العفش، ناقشنا الموضوع بصورة هادئة. يقف معي هنا الشيخان الرئيسان لقبيلة بني حريص، ويرجواني أن أرفع توصية إلى الحكومة السعودية باستبعاد كل هذه المنطقة

التي تقع بين سلسلة عفرة ووادي جازان من إطار سيادة قبيلتهم ومسؤوليتها. لقد أخبراني أن شيوخهم جميعاً ولمدى ثلاثة أجيال قد غسلوا أيديهم بالأمر الواقع، عن الموضوع كله الخاص بهذه المنطقة الحدودية ولا يرغبون في أن تكون لهم صلة بها. لقد أحسوا بالحزن حينما كان موضوع الحدود الدولية تحت دائرة النقاش والمحدودية، إن هذه المنطقة قد تمت إضافتها إلى المملكة العربية السعودية، بحجة أنها كانت تاريخياً، وحسب الروايات المحلية أرضاً تابعة لبني حريص.

كان يمكن لمثل هذا القرار أن يكون غير مهم حسب وجهة نظرهم لولا حقيقة أن الحكومة السعودية، تبعاً لسياستها القبلية، قد أصرَّت على أن شيوخ بني حريص هم المسؤولون عن كل الأحداث المشاكسة فيما كان يعرف بالأرض التي لا يملكها أحد. كانوا يرغبون في التخلص منها تماماً، ولا يهمهم إن كانت قد سُلمت إلى الخالديين أو نقلت إلى اليمن أو اقتسمت بين الاثنين.

كانت حالة غير طبيعية بلا شك، ومطلب غريب يعرض في أمر حدود دولية. لا علم لي بنتيجة هذا الموضوع، غير أنه من غير المحتمل أن تكون فكرة تسليم هذه المنطقة المزعجة إلى اليمن قد أعجبت الحكومة السعودية. سيكون تسليمها الفوري حدث فريد في تاريخ العلاقات الدولية. غير أنه لا شك لديَّ أن شيئاً ما قد تم فعله ليخفف عن رؤساء بني حريص مسؤوليتهم عن منطقة هم حقيقة لا يتحكمون فيها ولا يستعملونها، وسيكون موسى العلي، تحت نظام الحكم السائد في ذلك الوقت، هو المسؤول عن إحضار القاتل أو دية الدم، فمثلاً يتم قتله بواسطة شخص من الخالديين، والعكس بالعكس. كان الشيوخ الخالديين يحسون بالاطمئنان في هذه الأرض أكثر من موسى وقد تعرضوا لغضبي الشديد

عند بركة حصر بإصرارهم على رعاة آل أمشيخ الفقراء أن يعدوا لهم وجبة طعام. نهضت في اشمئزاز وذهبت ماشياً ناحية التل، بعد أن رأيت ما قد حدث، وكان يرافقني موسى ورجال قبيلته، غير أن يحيى أم شريف قد تخلف ليستمتع بطعامهم.

واجهنا حادث مؤسف آخر في معسكر أجبة، وذلك بغياب شيوخ قيس، الذين أرسلنا إليهم رسائل نوضح فيها حاجتنا إلى مرشدين وحمَّالين، لأننا سندخل جانبهم الحدودي الذي سنبدأ العمل فيه في اليوم التالي، كما أرسل إليهم أمير العارضة رسائل مماثلة، ويبدو أنها بلا فائدة، وقد دار الهمس في المعسكر أن الرجال لن يحضروا. كانت قبيلة قيس حقيقة في متاعب مع السلطات السعودية في العارضة، لم يسددوا زكاتهم ويبدو أنهم لا يرغبون في دفعها. هاجرت كل القبيلة من المناطق التي يمكن الوصول إليهم فيها في أرضهم ولجؤوا إلى الجبال، ربما عبر الحدود، حتى يكونوا خارج نطاق جامعي الزكاة والشرطة المرافقة لهم. كانوا حقيقة مضربين وبسلبية شديدة، وأعتقد أنهم سيقاومون أي محاولات لإجبارهم. كان هنالك أمر آخر لم يهدأ بينهم وبين الحكومة سببه عدد من جرائم القتل التي وقعت في أرضهم والتي على ضوئها أُمروا بدفع دية الدم التقليدية في موعد محدد، وقد انتهى منذ زمن بعيد. كان الموضوع غير مقنعٍ من وجهة نظر الحكومة وحينما تم إرسال أحد الأفراد للتأكيد لجابر بن جبران بن حتلان أن زيارتي المزمعة لفحص الحدود لا شأن لها بمطالب الحكومة في أمر الزكاة والدية، عاد الرجل ليقول إنه لم يجد إلاَّ النساء والأطفال فقط في القرى والمعسكرات، ووضَّح أنه سيكون عليَّ أن أتوقف عن دراسة هذا الجزء من الحدود في الوقت الحاضر. كان أمراً مزعجاً ولكن لا مفر منه.

انصبّ حديثنا أثناء المسيرة وفي المعسكر على أسلوب تنظيم القبائل في هذه المنطقة. ويتكون الجزء الجنوبي من قبيلة بني حريص من قسمين رئيسين هما: أكاوين تحت رئاسة علي بن مفرح بن حسين بن شنتوف، وقسم آل عمرو تحت رئاسة موسى بن مفرح بن علي العمري. كان كلاهما موجوداً معنا. زعما بأن قبيلتهما تكون جزءاً من مجموعة اليهانية والذي اشتق من أصل مشترك يدعى يهنوي، المنحدرة من خولان بن عامر. واعترفا في الاتحاد الكونفدرالي بكل من بني مالك، وبني حريص الشماليين وآل فيفاء، والعبادل، وقيس، وآل تليد، وآل جماعة، وآل سلا - وتتكون تحت أقسام الجابرين والسفيانيين والوداعيين والمعنين والحريصيين -. ثم صنفا قبيلة قيس إلى ثلاثة أقسام هي: آل محتم تحت رئاسة حسين بن كردام، وآل علي تحت رئاسة شريف بن جبران بن دخنان، وآل فيضة، تحت رئاسة جابر بن جبران بن حتلان. وتقع طبقاً لقولهما، إلى الغرب من قيس كل من آل سلا والعبادل. واعترف خبيرا حريص فيما يخص الفرود بما يلي مكوناً للاتحاد الكونفدرالي: بلغازي، والحساب - وشمال بلغازي - بني آل أمشيخ (الشماليين) والصهاليل وهروب والريث - وتقع الأربعة الأخيرة فيما يلي، شمال شرق بني حريص - وآل أمشيخ، (الجنوبية)، بني منبة - وتتكون من آل أمدوشه[١]، وآل عامر وبني كثير، وآل سوار، وبني خولي، وعياش وآل اللهب - ، وآل غمر (اليمنين)، ورازح وسحر. ويبدو أن هنالك الكثير من التساهل في التفسير المحلي للتقارب النهائي للعديد من هذه القبائل، وعامل النفوذ متداخل في معظم الحالات.

---

(١) آل أمدوشة: هكذا ذكرهم فيلبي ويطلق عليهم أيضاً اسم (آل دوشه)، والاسمان صحيحان. وهم يسكنون في وادي الخرش ويشاركهم في مواطنهم آل اللهب. (ابن جريس).

بدأنا عمل اليـوم دون أن ننتظر فريق قبـيلة قيس، تاركين أحمـالنا للمواصلة فوق مـجرى أجـبة إلى الموقع المحـدد للالتقاء في وادي جـازان. تتبـعنا خطواتنا السابقة التي تقودنا إلى موقعنا مساء الأمس في وادي ثروة، مارين بالتقاء سلحات ووصلنا، قليـلاً بعد ذلك، إلى المـوقد أو فـرن حرق الراتنج، ويسـمى موقـد أم حيدر، وهو معترف به رسميـاً علامة حدودية تالية رقم (١١٦) يلي علامة دقيق. كان ارتفاعنا عند هذه النقطة (١٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، وواصلنا السير على الوادي الذي يكون الحدود، ويفصل بين بني حريص وآل أمـشيخ. مررنا بعد ذلك بمجموعة صغيرة من بيوت البدو المبنيـة من الحجر وتبدو غير مأهولة إلاَّ أنها تنتمي إلى عناصر من قيس آل أمشـيخ، غير أنها على الجانب السعـودي (اليسار) لمجرى الوادي، ويطلق عليهم اسم حجاف ثروة.

ثم وصلنا بعد قليل إلى مـاء ثروة وهو ثقب مائي في الرمال، محـمي بحافة من بناء مـفكك. صعـدنا الآن إلى ارتفاع (١٦٥٠) قـدماً، وواصلنا ارتفـاعنا مع الوادي، ثم مررنا بموقع تـدفق شعيب وجـخة وهو مسـيل ينحدر من سفح فـضة على يسارنا عند ارتفاع (١٩٠٠) قـدم، ثم تركنا المجرى يدور إلى أعلى إلى رأسه عند فضة، وتسلقنا سفحاً سهلاً غيـر أنه كثيف الشجر إلى مضيق نيد أم ثروة فوق عرن ينحدر بشـدة من قمة فضة عـبر الحدود. وجدنا هنا العـمود الحدودي (رقم ١١٧) عند ارتفـاع (٢٠٠٠) قدم وتقع قـمتـه على يسـارنا حوالي (٥٠٠) قـدم فوقنا. يحمل امتداد عرن فضة على يسـارنا اسم صبة، وينتشر فوق أرض مرتفعة واسعة تجاه زاوية أجبة – جازان. وينحدر أمامنا تماماً ناحية الجنوب الشرقي، مسيل صخري شديد الانحدار، يسـمى ثِروة، إلى وادي جازان إلى البعيد من هنا والذي رأينا لمحة منه لأول مرة.

كان شمال وادي ثروة موقعاً جذاباً يميل في لطف فوق أرض شبه غابية، تكثر فيهـا النباتات العطرية التي تحلق فوقها الفـراشات بأعداد كبيـرة. كان الجو هنا في الأسفل خانقاً وساخناً وبلا هواء، وسعدنا براحـة قصيرة على الممر وقد هبَّ علينا نسـيم لطيف أمكننا رؤية كـتف كل من رازح العظيم والنظيـر على بعد وتفـصلنا عنهما سلسلة من تلال منخفضة يقال إنها تكون الحدود، وفي بعض الأجزاء عليها بعض الأعمدة الحدودية.

لقد سجلت أسماءها للرجوع إليها مـستقبلاً، وذلك لأننا سنترك هذا الجانب من الحدود دون فحص في هذه المرة بسبب السلوك الرديء لقبيلة قيس، الذين في أرضهم تقع كل من حبرة وتلين باسم ملغوب ومن أحدهما ينحدر شعيب الخويرمة ليتصل مع وادي يمنًا قبل اتصاله مع معبر لتكوين وادي جازان.

يواجهنا الآن مجرى ثروة الجنوبي، وهو مختلف تمامـاً عن اسمه. كان جرفاً محاطاً بالصخور، شديد الانحـدار، به العديد من البرك المائية ينحدر في شلالات إلى أسفل السفح. وصلنا بعد زحف فوق أرضه الصعبة على جانبه الأيمن استغرق عشرين دقـيقة إلى بيوت للبدو مبنيـة من الحجارة، ومبانٍ أخرى على هيـئة خلية النحل تكون قرية خية شوكان الصغيرة، وهي مهجورة وتمتلكها قبيلة قيس، وعلى الجانب السعودي للحدود، التي تجري إلى أسـفل الجرف، وتفصل قبيلة آل أمشيخ اليمنية عن قبيلة بني حريص، كما فعل ثروة الشمالي.

تجمعت أسفل هذا مـرة أخرى عشش شط ثروة، وهي مستوطنة تابـعة لقبيلة قيس وهي مهجورة، وتقع على جانبي بركة مـستديرة في الجرف، بينما إلى البعيد وعلى ارتفاع (١٧٥٠) قـدماً فوق سطح البـحر - و(٢٥٠) قدم أسـفل المضيق -

توجد شجرة ابراه كبيرة تنشر ظلها فوق ملتقى مسيل ثحلة فضة مع جرف ثروة. كانت هذه الشجرة -وقد قيل لي ذلك- هي العلامة الحدودية الرسمية وهي أيضاً موقع التقاء ثلاثي بين كل من آل أمشيخ (اليمن) وقيس وبني حريص (كلاهما سعودي). كانت الحدود أيضاً دولية بين الاثنين الأولين هي مسيل ثحلة، ينبع من مضيق يفصل كتلة فضة الرئيسة عن ربوة بارزة تقوم فوقها قرية غينة القيسية. وتمتد ديار قيس أيضا، كما قيل لي، فوق الحدود داخل أرض آل أمشيخ، بين ثحلة ومسيل معض، الذي يدخل ثروة من سفح فضة قليلاً أعلى وادي ثروة.

يستمر جرف ثروة إلى أسفل ليفصل بني حريص عن قيس حتى مجرى جازان. تشمخ فوق هذه الشجرة العظيمة عند الملتقى الثلاثي، هضبة من صخر ذات ممر صعب يقود إلى أعلى. خطر بذهني أن أتسلق لأرى منظراً أفضل للبلاد من هذه القمة، وعلى الرغم من احتجاجات زملائي، فقد بدأت التسلق. ووجدت بمحض الصدفة، عند القمة العمود الحدودي الممتاز (رقم ١١٨) عند ارتفاع (١٩٠٠) قدم فوق سطح البحر. كان شيوخ بني حريص مستغربين مثلي لهذا الاكتشاف، وأبدوا بصدق عدم علمهم بوجود هذا النصب المهم. كان عليّ هنا وبكل أسف أن أقنع نفسي بإطلالة من بعيد إلى العمود الحدودي التالي (رقم ١١٩) فوق مضيق نيد فضة. لم يكتب لي حقيقة زيارته، وذلك لأن قبيلة آل قيس ظلوا متمردين طيلة فترة زيارتي لهذه الأنحاء.

كان موقع لقاء المسايل مملوءاً بالبرك، بعضها في مساحات رملية، وبعضها في الصخور، وكلها مملوءة بالأسماك الصغيرة. واصلنا مسيرتنا على امتداد الجانب للجرف لنصل إلى قرية منفض الصغيرة (منفث) وقد انتشرت بصورة جميلة فوق الصخور حول بركة كبيرة نسبياً وجميلة وكانت أفضل بركة رأيتها. كانت عميقة

في تجويف طبيعي في الصخر، وينساب من فوق شفتها البعيدة شريط من الماء إلى داخل هوة حقيقية إلى أسفل، يسكن في العشش القليلة لهذه المستوطنة بعض آل بني معن وهم تحت قسم لقبيلة السلا، وقد أكرمونا خلال وقفتنا القصيرة عندهم بالمنعشات من لبن رائب وخبز دخن وقد شاركناهم في هذه الوجبة شاكرين. وقد أفادونا بأن قرى قيس الصغيرة الواقعة إلى أعلى، عادة ما تكون مأهولة، إلاَّ أنهم قد هجروها الآن خوفاً مما ستقوم به الحكومة ضد المضربين. تنحدر الهوة فيما يلي البركة إلى عمق (٨٠) قدماً، عمودياً إلى أسفل إلى وادي جازان، الذي وصلناه الآن بعد هبوط شديد الانحدار.

كان ارتفاعنا عند هذا الموقع (١٦٠٠) قدم فوق سطح البحر، وتوجد عند نهايته السفلى عند انحناءة ثعبانية رشيقة للوادي، من حول الصخرة الكبيرة على جانبه الأيسر، حيث يوجد جدول سريع الانسياب عند مرتفعات حقيقية يدور بعيداً فوق بطن الرمل والحصى المتداخلة مع بروزات جرانيت أملسته السيول. يقع على مستوى الوادي عند موقع الالتقاء عدد قليل من البيوت الحجرية لقرية المصنعة الصغيرة، وهي مستوطنة قيسية إلاَّ أنها مهجورة. يعد وادي جازان من هذا الموقع وإلى الأمام هو الخط الفاصل بين قبيلة قيس على الجانب الأيمن، وآل سلع على الجانب الأيسر حتى فم عِنا الذي بدوره يفصل بين آل سلا على جانبه الأيسر وآل جملة، وهم قسم من قيس انفصل من الجسم الرئيس بمجرى معبر. يكون الوادي إلى أسفل مع اتجاه أسفل الوادي، هو الحدود بين آل سلا وبني حريص، على الرغم من أن عناصر من سلع تحتل حوالي ثلث كتلة سلا عند النهاية الغربية، وتجتمع معاً لأغراض إدارية مع آل سلا. وصلنا إلى بعض العشش (التابعة لقيس)

بعد نصف الميل أسفل الوادي الملتوي -وتسمى قشعة- من المسيل الذي يدخل الوادي عند هذا الموقع من مرتفعات سلا على اليسار.

واصلنا سيرنا ونحن نلف وندور مع الجدول الهائج مرة على هذا الجانب ومرة على الجانب الآخر، مسافة ميل واحد، إلى مدخل شعيب مرقوع من مرتفعات صبا على اليمين. يحاط الوادي في كل هذه المناطق بجلاميد الشست الشامخة بينما برزت العديد من النتوءات الجرانيتية من بطنه. كان كل الوادي وعلى مسافة ميل واحد أسفل فم مرقوع مغلقاً بكتل ضخمة من الصخر، وجلاميد عظيمة مما اضطرنا إلى أن نسلك ممشى ضيقاً كممشى العنز، لارتفاع (٥٠) قدماً إلى أعلى الجانب الأيسر حتى نتقدم بأي شكل كان.

لم يتأثر الجدول بهذه الموانع وجاهد في طريقه وله هدير مرح فوق الصخور أو خلالها، ويبدو أنه يزداد قوة كلما تقدم. كان الجدول مسدوداً جزئياً إلى أسفل بواسطة جدار جرانيتي ليكون بذلك بركة ضخمة، والذي ظل يصب منها فوق شلال أعلى مجراه العنيف. كان أحد طيور البلشون يقف بجوار هذه البركة ونحن نقترب منه إلاَّ أنه طار وأنا أحاول الإمساك به. توقفنا لفترة للوضوء وأداء صلاة الظهر، لنواصل مسيرتنا أسفل المجرى المتعرج غالباً حتى قرية الموشم الصغيرة التابعة لبني حريص، عند ملتقى مسيل حشرة على اليمين. وصلنا فيما يلي هذا الموقع بعد مسيرة متعرجة مسافة ميل واحد تقريباً، إلى موقع التقاء وادي أجبة، حيث انتشر الوادي الأصلي في مجرى واسع مستقيم من رمل وحصى. تقع قرية حجفة الصغيرة على جانبه الأيسر - تتبع لبني حريص -، بينما توجد مستوطنة القرعة، على جانبه الآخر فوق ربوة على كتلة الملتقى، ومعها موقرة، وهي مجموعة عشش على الجانب المواجه عبر الوادي.

تقع كتلة من صخور جرانيتية فـيما يلي أجبة بين قرعة ووادي الشرحة، الذي يدخل إلى وادي جازان نفســه على مسافة نصف الميل أو أكـثر إلى أسفل. وصلنا الآن لنرتاح في المعسكر أسفل جـرف قرعة. تسمى هذه المساحة الشبـيهة بالدلتا، على الرغم من أنها منفصلة عن سهل تهامـة، بسلسلة حنقة مداخل، لتعلم التقاء هذه الخطوط المصرفية الرئيسة داخل حاجز السفوح الجبلية قبل مواصلتها لتبرز إلى الخارج داخل الـسهل تحت مسـمى واحد هو وادي جـازان. كان ارتفـاعنا هنا هو (١١٥٠) قدماً فقط فوق سطح البحر.

التمس علي بن شنتوف العذر بسـبب الصداع الذي أصابه لكي لا يرافقنا في رحلة اليوم الصعبـة، كما لم يكن موسى رفيقاً مسليـاً أو مفيداً على الرغم من أنه والمرشدين التابعين له قد أبدوا الرغبة في مـواصلة العمل أكثر مما أبداه جماعة بني مالك. يبدو أن مجموعة بني حريص كانوا من الدرجة الثانية. كانوا كالباقين دائماً مسلحين، ولـم تكـن بنادقهم تفارقـهم لحظة حتى في أوقات الـطعام، بالرغم من أنني لم أشجع هذا العمل حينما كنت أقاسـمهم الطعام. كانت كل البنادق إيطالية الصنع بالفعل[١]، وكان الـطراز أبو خصـوة هو المحبـوب ولابد أن يكون هنالك الألوف من هذا الطراز في هذه المنطقة. تنتمي كل القرى الصغيرة في هذه الأرض إلى بني حريص، الذين يملـكون الكثير من الزراعة المـسطبية فوق سـفوح الوادي وفوق المسايل الثانوية، مثل مسـيل أوكان، الذي هو مملوء تماماً بها من جانب إلى آخر وهو ينحدر من سلسلة مشرق المنخفضة إلى موقع قريب من معسكرنا. كانت الأودية الكبيـرة بالطبع، معرضة للسـيول الضخمـة، إذا عوملت بالطريقة نفـسها

(١) الطليان كان لهم علاقة حسنة مع إمارة الإدريس في منطقة جازان، وبخاصة صبيا، ولهذا انتشرت السلع الطليانية في بلاد تهامة، وعلى رأسها أدوات السلاح مثل البنادق وغيرها. (ابن جريس).

وكان مضيق جازان العظيم، الذي دخلنا عن طريقه، خال بدرجة مدهشة من الغطاء النباتي. تنتشر المياه أثناء اندفاع السيل من الجانب إلى الآخر وتجرف كل شيء أمامها عدا الصخور. كانت هنالك مساحات من الرمال المتحركة التي تغوص فيها الأقدام والتي لا ينصح بالمشي فوقها.

انتهينا الآن من المرتفعات ونمت تلك الليلة وأنا على علم بأننا سنكون فوق السهل المنخفض في صباح الغد. يحس المرء بذلك في الهواء، غير أن الليلة كانت باردة لطيفة وكانت درجة الحرارة الدنيا (٦١) درجة مع ندى خفيف.



الفصل الثلاثون

سهل تهامة[1]

كانت المدْخال هي البوابة للبلاد المنخفضة، وقبل أن نعبر من خلالها في الصباح، صعدت إلى قمة منخفضة للتلال السفحية بالقرب من معسكرنا، لأطل على البلاد. كما توقفنا لفترة وجيزة، بعد أن بدأنا مسيرة اليوم بقليل وعلى مسافة ميلين من المعسكر، عند مضيق آخر فوق السلسلة الخارجية للغرض نفسه. تقع قمة فيفاء الآن ناحية الشمال من موقعنا، بينما تقع العارضة والتي نرى قلعتها من المضيق، ناحية الجنوب الغربي، كما كان العُر ناحية شرق الشمال الشرقي. وتقع قمة فضة فوق مضيقه وبه العمود الحدودي الذي لم نقم بزيارته ناحية الشرق. كانت منطقتا حرم والنظير اليمنيتين المحصنتين تقفان ناحية الجنوب الشرقي. ويمثل الخط الذي يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي عبر مراكز الملاحظة الخط الفاصل بين المرتفعات والمنخفضات. كانت المرتفعات تفيض فوق المنخفضات إلى مسافة، غير أن سلسلة سلا التي تمتد من مجرى جازان في اتجاه الجنوب الشرقي، تمثل جداراً فعلياً من جرانيت مرتفع يميل ناحية السهل. يكون الجانب الشرقي للسهل رفاً منخفضاً من قاعدة المرتفعات وعدداً من السلاسل المنخفضة الخارجية التي من خلالها تمر خطوط الصرف الرئيسة داخل السهل الساحلي الحقيقي.

يمكن مناقشة تفاصيل المنظر المباشر الذي يقع داخل هذا الإطار في إيجاز. كانت خاصيته المركزية هي بالطبع وادي جازان، داخل دلتا المدخال، والتي فيها

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن سهل تهامة انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٣٧ ـ ٢٦٥ . (ابن جريس).

تتلقى معظم روافده، وفيما يلي القشرة الرفيعة للسلسلة التي يمر خلالها، ليبدأ سيره فوق السهل. يتصل وادي أجبة، من سلسلة عفرة، مع وادي جازان على جانبه الأيمن، في الموقع الذي يخرج فيه من مضيقه إلى داخل الدلتا. يتصل به أوكان من المشرّق على الجانب نفسه، قليلاً إلى أسفل، بينما يمتد وادي الشرحة، من حرين والشرحة في التلال السفحية عند قاعدة فيفاء، على امتداد سلسلة مكتف المنخفضة، ليتصل مع الجانب الأيمن لجازان قبل مروره خلال السلسلة إلى داخل السهل. تقف أطلال قلعة قديمة عند طرف السلسلة في هذا الموقع، ويطلق عليها اسم الحصن. يخرج عرن من الجانب الآخر لهذا المنفذ، من عند الصفحة الشمالية لسلا يحرس دلابغ إلى داخل جازان فوق جانب السهل من المنفذ.

تقف قلعة السرير التابعة لبني حريص بالقرب من رأس دلابغ على جانب الجبل، بينما تقع قرية إيسان الصغيرة عند موقع تدفقه داخل الوادي الرئيس، على الجانب الأيمن لدلابغ مع بعض العشش المبنية من الأعواد حول شجرة نخيل تمور واحدة، عند مدخل شعيب المضرب من جهة الشمال، قريباً من غيل جازان الجاري الذي يظهر مرة ثانية عند منفذه من التلال ويستمر إلى مسافة إلى أسفل. تقع قرية بياضة الكبيرة التابعة لبني حريص قليلاً أسفل هذا الموقع وعلى الجانب نفسه، وهي مركز سوقهم الرئيس. يفصل دلابغ من الزاوية الشمالية الغربية لسلسلة سلا، بين بني حريص وآل جابر (التابعين لا آل سلا) وحتى مجرى جازان الذي يصبح بعد ذلك هو الحدود، ويكون قبيلة آل حريص إلى الشمال وحتى الوصول إلى بلاد المسارحة في جوار سلاسل منخفضة هي حدج، والمدرة وخلوة، وصقبان والتي ينساب وادي جازان عن طريقها إلى الخارج نحو البحر. كان لبني

حريص مستوطنة أو مستوطنتان هما الوعرة وقعدي على الجانب الأيسر لمدخال، ولكن في الحقيقة، باستثناء هذه المنطقة الصغيرة، فإننا لم نر إلاً القليل من بلادهم ما عدا الجزء الذي يرغبون في عدم حاجتهم إليه. رجانا ابن شنتوف أن نسمح له بالانصراف ولما كان قد قدم الكثير من الأعذار لكيلا يرافقني في التلال، فقد تركته يذهب دون مكافأة.

نظرنا ناحية بلاد آل سلا من مضيق معول إلى سلسلتها الجميلة ذات التلال المواجهة للسهل وأخاديدها الجرانيتية الملساء. وارتفع عندها عدد من القمم البارزة، الواحدة تلو الأخرى، على امتداد الجبهة كلها وهي - سلا الحقيقية عند الطرف الشمالي، ومتلاع، والمصيدة (أمصيدة)، والمشبة (أمشبة)، ونجيدة، وقفرة وهلابيهو - اسم غريب - والضبر. وقفت إلى البعيد في سهل تهامة ناحية الجنوب والجنوب الغربي للقمة البارزة المزدوجة الرأس التي تسمى العاصم[١] وتكون سلاسل كل من غراب وشهرين إلى الغرب منها، ويقال إنها تتبع بلاد المسارحة. قادنا مسيل صغير من مضيق المعول عبر غابة كثيفة إلى رأس مجرى يسمى الزُغْبَة، يجري إلى الأمام على طريقنا، إلى مسافة وقد ملأته حقول الدخن المسطبية التابعة لقريتي الجحيرة ومسبة المحليتين. وتقع، بعيداً داخل السهل، وقريباً من مجرى جازان قريتا عرقد وغوية الصغيرتين. وصلنا إلى نهاية هذه المزارع مع تضييق للوادي بين سلاسل صخرية بعد مسيرة صعبة استمرت نصف ساعة. كنا نمشي وذلك لأنهم قد أرسلوا لنا جمالاً لنقل العفش بدلاً من الحمير التي تحملنا كما توقعنا. كان بطن الوادي

---

(١) العاصم تلفظ في اللهجة الحلية (أمعاصم). وهناك ألفاظ كثيرة جداً تقلب فيها (ال) التعريف إلى (أم). (ابن جريس).

متخللاً بالبرك الفيضية أو الغيلية وعلى فترات. انفتح المجرى مرة أخرى على مسافة (٥٠٠) ياردة إلى أسفل على مزارع كثيفة على كلا الجانبين تتبع قريتين صغيرتين يكونان مسبة على الجانب الأيسر.

اعترضتنا مجموعة من قرى الجوابرة حينما كنت أرصد بعض الاتجاهات عند ربوة وإلى جواري شبكة صيد الفراشات وبندقيتي وكان رفاقي جلوساً في الظل إلى أسفل. وقد تقدموا ناحية مجموعتي وهم يحملون إليهم الخبز دون إلقاء التحية إليَّ، أو حتى لم يكونوا منتبهين لوجودي. تجاهلتهم لفترة، حتى إذا ما استقر جمعهم حول الطعام، أرسلت بصوت مرتفع بعض التعليقات البذيئة حول إدراكهم للكرم والضيافة. أسرعوا بعدها نحوي بزخم من الاعتذارات، وقد أحضروا معهم سلة خبزهم ووضعوها أمامي وقد أعيد تكوين الحلقة من جديد حولي لمواصلة أحاديثهم في وهج الشمس. قدمت إليهم من جهتي فناجين شراب قشر البن من أحد ترامسي وكنت دائماً أحمل معي ترمساً ممتلئاً لرفاقي، وآخر غير محلّى وبلا حليب لشخصي. وقد عبروا عن أقصى دهشتهم بأن الشراب كان ساخناً. قضيت معهم ساعة زمان وأدركت أنهم كانوا لطافاً. كانوا أول الأمر خجولين، وكانوا خائفين حينما شاهدوا شبكة صيد الفراشات التي لا بد وأنها بدت لهم وكأنها أحد أعلام الحرب. كانوا يقدرون البندقية حتى بندقية صيد الطيور الصغيرة هذه، وقد كانت هي كل السلاح الذي حملته على أنه سلاح، غير أن الشبكة حيرتهم، وقد سبق لي أن لاحظت نفس التوقع الساخر هذا حولها بين أهل المرتفعات الذين كنت أقابلهم عرضاً خلال جولاتي.

أقبل شعيب دومة على مسافة الميل الواحد إلى أسفل ومن ناحية اليسار، وأقبل شعيب لحج بن جعار من جهة اليمين ومعهما المساحات الشاسعة للحقول التي بدأ فيها الدخن الصغير، ثم مررنا بقريتي السودة وحابل المالكيتين الصغيرتين على جانبين متقابلين وكانت قرية الملحة الكبيرة على مسافة الميل الواحد إلى أسفل وعلى الجانب الأيمن. كان بطن الوادي الرملي مشبعاً بالماء الذي يقع على عمق بوصات قليلة تحت السطح، الذي كان منقراً بثقوب مائية ضحلة، امتدَّ الوادي، من هذا الموقع وحتى العارضة نفسها، على مسافة الميل، على سهل مستوٍ، مستنقعي مع مساحات كبيرة لحشائش الحلفاء التي تحتل مساحات في حجم حقول الدخن والتي وجدنا فيها نهراً جارياً واحداً.

لم تكن المسيرة طويلة فقط مدة ثلاث ساعات مشياً على الأقدام، إلاَّ أن الطقس صار ساخناً ولزجاً، ولذلك فقد احتفلت بعودتي إلى حضارة نسبية بالخلود مباشرة وبلا مقدمات، إلى إغفاءة القيلولة داخل عشة باردة نظيفة على هيئة خلية النحل مبنية من القش. كان ذهابي للنوم عند الساعة الثالثة مساءً ولم أصح إلاَّ عند الساعة الخامسة والنصف مساءً وقد انتعشت كثيراً بهذا النوم العميق وبالتجربة غير العادية بالنوم فوق سرير. غادرنا جازان قبل ستة عشر يوماً وباستثناء قيادتي للسيارة إلى العيدابي، فقد كنت أمشي على رجلي معظم الطريق، وفوق أصعب البلاد. لم أتحقق من شدة تعبي إلاَّ بعد أن استرحت من أعمالي.

كان أمير العارضة، عبدالله البشري مجازاً في هذا الأثناء، غير أن مندوبه كاتب الدخل الحكومي جاء لزيارتي بمجرد أن صحوت من النوم ليقدم لي كرمه ويريني معالم أرضه. لا أستطيع وبالكاد أن امدحه على الترتيبات التي قام بها

لأجل أن أقوم بعملي في الحدود، أو حقيقة، لراحتي، كان قلقاً حين علم بحقيقة أنني قد سرت على قدمي كل الطريق من عند المدخال، لأعبر عن احتجاجي لفشله أن يؤمن لنا الحمير. توصلنا إلى نقاط ودودة سريعاً، ولكي يساعدني في جغرافية البلاد، فقد جمع حشداً من الخبراء المحليين على الشرفة المفرجة للبناء الشبيه بالقلعة التي تؤدي وظيفة المركز الإداري وثكنات الشرطة. تناولنا كلنا معه وجبة العشاء بعد ذلك، وناقشنا أمور العالم بعد جلسة استماع للراديو خارج عشتي. اتفق معي على موقف بني حريص، ويبدو أنه يعتقد أن كل القبائل في منطقته فقيرة خاصة قبيلة قيس التي سببت لي الكثير من المتاعب. يمضغ بنو حريص، صمغاً محلياً، هو راتنج البشام (البلسم) وهي شجرة شائعة في التلال السفحية المنخفضة وفي الأجزاء العليا من السهل. كان سوق البرتقال والدقدقة المستوردين، وقد أراني كميات للبيع بالجملة وصلت حديثاً إلى سوق العارضة، خارج استطاعتهم، ويذهب معظم هذه المواد إلى ساكني المرتفعات. يشبه الدقدقة في رأي، الجبس، بينما تم شحن أوراق البرتقال التي يسمونها سرت وهي مسطحة، في بالات.

تقع العارضة على ارتفاع (٨٥٠) قدماً فوق سطح البحر وهي قرية كبيرة ممتدة تتكون من عشش على هيئة خلية النحل ولا توجد بها مبان، ما عدا القلعة[١]، وهي بناء رباعي الزوايا تم إنشاؤه حديثاً من الصخر المحلي وتكسوه طبقة من الجبس ومزود بفتحات الرمي للدفاع. ومعظم سكانها من عناصر زنجية

(١) للمزيد من الإيضاح عن بلاد العارضة انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٧٩ . (ابن جريس).

الأصل، وعناصر عربية مختلفة، مثل آل سلا، إلخ. تندلق القرية فوق مساحة كبيرة على الجانب الأيسر لوادي محته الذي ينحدر من بين قمتي نجيدة وقفرة ليتصل مع زغبة أسفل القرية داخل مساحة من الحلفاء شبيهة بالبراري الشبه مستنقعية. يتجه المجرى بعد ذلك ناحية الجنوب إلى سلسلة متقطعة تسمى ثاهرة على بعد الميل الواحد ناحية الغرب ثم يتصل في نهاية الأمر مع منخفض كبير مشجر ويكسوه نبات الحلفاء، يمتد ناحية الشمال الغربي ليتصل مع وادي جازان عند الطرف الشمالي للسلاسل الخارجية (لحدج.. إلخ) التي قد ورد ذكرها. كانت مجموعة تلال أمعاصم (العاصم)، ناحية الجنوب، الواقعة في السهل معالم أرضية بارزة، وأكثر بروزاً هو طحنان وهو أيضاً أعلاها. يقع مركز الخوبة الإداري إلى اليسار منها بالقرب من منفذ وادي خلب عند التلال، غير أنه كان بعيداً جداً ومنخفضاً جداً مما جعل رؤيته صعبة. كان شدع[١] هو الوحيد البارز داخل حافة الجبل، وبه برج مراقبة على قمته، وبجواره قرية ذات حجم معقول. ارتفع بجوارنا وفي الاتجاه نفسه مرتفعات كل من هلابيهو وضبير ويفصلهما وادي كفاف الذي ينحدر من المرتفعات، بينما كان وادي الدحن هو الخط الفاصل بين ضبير، وشدع وينحدر من رأسين في التلال عبر مسيل كل من رجاف واملحي[٢]. أمكننا رؤية حدبة جحفان، إلى الخلف وإلى البعيد، ناحية الجنوب الشرقي، والتي سنقابلها مرة أخرى حين نواصل فحصنا للحدود.

---

(١) شدع: هكذا كتبها فيلبي مع أن بعض السكان المحليين ينطقونها بضم الشين أو فتحها. (شُدى) أو (تشدي). (ابن جريس).

(٢) أملحي: يطلق عليه أيضاً اسم (الملحي). (ابن جريس).

لم تكن العارضة مكاناً مثيراً ولم أكن آسفاً لمغادرتها قبل ظهر اليوم التالي، وأنا مسافر على شاحنة كانت قد أحضرت لي بريدي من جازان. وقد انتظَرتْ بتوجيهات من محمد بن مهدي لتقلنا جميعاً إلى هناك. كانت مناسبة للتغيير جميلة مقارنة بوسائل النقل العديدة التي كنا قد اعتدنا عليها، غير أن هذه الفرحة قد أزالتها حالة الطريق الذي سافرنا فوقه- وهو الطريق الرئيس من أبي عريش[1] إلى جازان. كان الجزء الأول منه جيداً كبقيته غير أن عبور حوض العارضة خلال مسافة الميل الواحد الذي يفصلنا عن سلسلة الشاهرة كان صعباً ووعراً، كانت السلسلة نفسها عبارة عن بروز لميكا شستية مع عروق كوارتزية التي غطت قطعها المتآكلة السفوح. كان الاتجاه العام للطريق، فوق بلاد تلية سفحية نموذجية مغطاة بغابات جيدة، ناحية الجنوب الغربي، داخل أو على امتداد حوض محتة العريض الذي انتشرت من حوله المزارع معظمها حقول تم حرثها لمحصول الربيع من الدخن. تسمى أرض الغابات والوادي باسم بثان ويبدو أنها تكون جزءاً من حوض أكبر يتضمن مجرى جازان إلى الشمال، والذي كان شريطه الفعلي مميزاً باستمرارية ما يحفه من شجيرات وأشجار. توقفت الشاحنة مرة أو مرتين أثناء السير الصعب هذا، غير أن السفر تحسن حينما اقترب الوادي المشترك من سلسلة متعارضة منخفضة والذي عبرناه من خلال ممر مكشوف. كان علينا أن نطوف حول هذه السلسلة مارين فوق سهل من حصى تكسوه غابة حتى طرفه الجنوبي حيث توقفنا لمراجعة الموقف. لقد غطينا خلال خمس وأربعين دقيقة مسافة لا تزيد عن عشرة أميال فقط حتى هذا الموقع، كما أن عداد قياس السرعة لم يكن يعمل.

---

(١) وللمزيد عن بلاد أبي عريش، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص١٧٠ . (ابن جريس).

يمتد أمامنا وادٍ عريض كثيف الأشجار، يقع بين مجرى جازان على مسافة نصف الميل على يميننا ووادي المشرف، وهو استمرار لكفاف، على مسافة الميل الواحد على يسارنا، ماراً ببروز منعزل لصخور جرانيتية تسمى دقم. استدار مجرى المشرف وأصبح أمامنا، ووصلنا خلال عشرين دقيقة إلى جانبه الأيمن حيث توقفنا، بينما بحث مرشدانا عن الطريق داخل الغابة والذي كانت السيول الأخيرة قد أزالته. يتصل المشرف مع وادي جازان فوق ممر فقع صقبان، التي يجري مجراها الرملي العريض بين مروج الحلفاء التي تحفها الغابة على الجانبين. يتعرج كل من الغابة وطريق السيارات صاعدين سفحاً لطيفاً لسلسلة حدج وصقبان إلى حيث ممر فتوة. تقع الوغرة أو الينابيع الحارة لمشرف، على بعد ميلين مع اتجاه أسفل الوادي على الجانب الأيمن، والتي توجهنا إليها بالتجول سيراً على الأقدام، تاركين الشاحنة لتعبر المجرى حينما يجد الرجال الطريق وأن ينتظرونا على السفح. تباعد النبعان اللذان يكونان المنتجع المائي المعدني الذي يؤمه الناس على مسافة (٣٠٠) ياردة عن بعضهما البعض فوق مساحة تكسوها نبات الحلفاء وبعض أشجار العدن الجيدة النمو والكثير من أجمات الغابة الخفيضة. يفور الماء على شكل فقاقيع، كأنها مرجل فوق مساحات من طين أسود لزج ينتشر حول المركز في بريكات مزعجة وتحوطها ترسبات الملح. كانت المياه شديدة السخونة في المركز ولم يكن معي مقياس الحرارة حينها لقياس حرارتها، والتي لا بد أن تكون أعلى كثيراً من حرارة مياه ينابيع ضمد، لأنه من المستحيل أن يضع المرء يده داخلها لأكثر من ثوانٍ معدودة. كانت المياه مالحة إلى درجة شديدة ويستخدمها الزوار فقط للغسيل والاستحمام، وليس للشرب.

عبـرنا المجرى ثم اختـرقنا الغابة لنصل إلى الطريق، حـيث جلسنا في انتظار الشاحنة التي علقت في الرمال بعد أن وجدت الطريق. لـقد استغرق انتظارنا مدة ساعتين، غـير أننا قد استفـدنا من هذا الوقت. وحينما وصلتنا الشاحنة اسـتغرق وصولنا إلى ممر فتوة خمس دقائق فـقط وهو على ارتفاع (٧٥٠) قدماً فوق سطح البحر. تكـوَّنت الغابة هنا من أشجار البـشام والطلح، وهي قزميـة وبائسة، وقد تعلَّم الطريق خلالها بأكوام من حجارة، واكتشفنا بعد مسافة أن الطريق قد تم سده من الجانب إلى الآخر بجذع شجرة كبـيرة وثلاث كتلات من الصخر بواسطة البدو على سبيل الدعابة. اقتربنا تدريجياً من مسيل يحرا، الذي ينحدر من سفوح حدج على يسـارنا، وتوقفنا لأداء صـلاة الظهر في وادي أمـعاين وهو اسـتمرار لمـسيل يحرا، بالقرب من مسطح مائي كبير في بطنه. يخترق هذا المسيل أرضاً بركانية من سلاسل وفوهات إلى الغرب من سلسلة حدج وصقبان، وكـان السفر فوقها صعباً إلى درجة بعيدة، ونحن نسـير على حافة قاعدة الحمم. كانت الفـوهتان الرئيستان الهرميتان هما القرعة الشامية والقرعة اليمانية[١] ويرتفعان حوالي (١٥٠ - ٢٠٠) قدم فوق السـهل. مررنا إلى جنوب القرعة اليـمانية فوق طريق نظيـف جزئياً في حقلها البـركاني، وعبرنا إلى الجانب الأيمن لأمعـاين الذي يدور هنا ناحية الجنوب ليتصل مع وادي أملح وهو في طريقه إلى البحر عند مضية.

واصلنا سيرنا خلال غـابة البشام الكثيفة متجهين إلى الـسهل الحقيقي، الذي بدأ لنا من هذه الأرض المرتفعة أنه مستـو ويكسوه غطاء لطيف أخضر. وصلنا بعد نصف ساعة لأولى القرى على الطريق عند حافة الحرة (أرض بركانية). كانت هذه

(١) القرعة الشامية والقرعة اليمانية تنطق أيضاً محلياً (أمقرعة الشامية وامقرعة اليمانية). (ابن جريس).

هي قرية راح[١]، قرية صغيرة من (٣٠ - ٤٠) عشة من الأعواد، تسكنها مستعمرة من آل أبو عريش وقد بدأت مدينتهم الأم ظاهرة للعيان من هنا ناحية الغرب. تقع قرية راح على ارتفاع (٤٠٠) قدم فوق مستوى البحر، وتمتد في السهل الذي يفصلها عن أبو عريش بالعديد من القرى التي تماثلها في وسط أرض واسعة لزراعة الدخن. لقد تمكنت من حصر سبع من هذه القرى باسمائها، وتعد هذه القرى مجرد ضواحٍ للمدينة العظيمة وتتجمع كلها تحت اسم عريشية[١]. برز زوج من توأم بركاني إلى البعيد ناحية الجنوب ويسمى قمتين. ويبدو أن هذين إلى جانب مخروطي القرعة والعكوتين على حافة رف تهامة الداخلي تمثل خطاً لاضطرابات بركانية حديثة. وتوحي الينابيع الساخنة في المشرف بنشاط كامن تحت السطح.

نحن الآن على مقربة من أبي عريش وأن الأهالي الزراع المحليين لديهم إحساس ضيق باحترام أشياء مثل الطرق، ولا مانع لديهم من سد الطرق أو الحفر عبرها في خدمة الزراعة. لم تكن متاعبنا محدودة ونحن نشق طريقنا عبر الحقول، وليتم تتويج كل هذا، فقد انقلبت الشاحنة فوق مسطبة ضيقة على بعد خمس دقائق من المدينة. كانت صدمة سقوطه غير المتعمد قد عطلت نظام استهلاك البنزين في الشاحنة خارج إطار العمل، وكان علينا أن ننتظر حتى تتم صيانته قبل الدخول إلى مدينة الأشرف. كانت الشمس قد غربت تماماً حينما تحركنا بالشاحنة مروراً بجوار المسجد الكبير لنمر من خلال صفوف العشش التي تشبه خلايا النحل

---

(١) قرية راح: تسمى أيضاً (قرية راح الحجاجة) والحجاجة اسم عشيرة من بلاد المسارحة. (ابن جريس).

(٢) عريشية: يطق عليها محلياً أيضاً اسم (قرى أمعراشية). (ابن جريس).

إلى حيث المكاتب الحكومية التي تم حجز مكان لنا أمامها لإقامة معسكرنا. كان الضغط علينا شديداً أن نقبل الضيافة داخل بناء واسع تم تنظيفه وكنسه وتلميعه لاستقبالنا. رفضت هذه المداهنات، وذلك لأنه سيكون من الواضح أن النوم أسفل النجوم أفضل في ليالي تهامة اللطيفة. وأحاط بنا حشد كبير، مئات الرجال والنساء والأطفال من داخل المدينة، وبرغم الظلام فقد استقروا حولنا يلحظون تحركاتنا باهتمام شديد. اعتذر لنا الأمير لعدم استطاعته مقابلتنا في الطريق، واعترف بأنه كان منزعجاً جداً حين علم بأنه لم يكن في استقبالنا حرس شرف ليحيينا حين قدومنا، ولا حتى فريق شرطة يراقب مرورنا من خلال العشش الكثيفة التي تشبه خلية النحل التي تكون معظم المدينة. تصافى الأمر بيننا وبينه سريعاً واحتفيت بالأمير ورفاقه، دون ذكر الحشد الكبير، بالاستماع إلى الراديو، للأخبار والموسيقي بينما كانت المطابخ تعمل بنشاط لإعداد وجبه عشائنا. جلسنا بعد ذلك نتحدث ومدة طويلة حول أبو عريش حتى الساعة الثانية صباحاً، ثم عمدت إلى فراشي لأنام بعد أن سجلت ملاحظاتي حول النجوم واعتقد أنني أول أوروبي يضع قدمه في هذه المدينة.

ترتفع أبو عريش إلى (٢٥٠) قدماً فوق سطح البحر[١]، وقد كانت لها أيامها الأفضل في الماضي، وحكماً بحقولها الواسعة المدمرة، فلا بد أنها قد غطت مساحة أكبر كثيراً مما هي عليه حين زيارتي لها. أعتقد في تقديري أن طول المدينة يصل إلى ميل واحد، في اتجاه شمال الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشرقي، وكذلك عرضها في أوسع مواقعه ويشبه انتشارها الطائرة الورقية. كان جانباً من

(١) لمزيد من التوضيح عن تاريخ وجغرافية أبو عريش، انظر: محمد العقيلي، **تاريخ المخلاف السليماني**، جـ١، ص ٤٤٧ وما بعدها، عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص ١٧٠ .(ابن جريس).

هذه المساحة تمثله الأطلال، غير أن معظم الأطلال تقع خارجها على كل الجوانب وكلها مهجورة تماماً. يقدر عدد سكان المدينة رسمياً بحوالي (٣٠٠٠) رجل بالغ، وهذا يعادل عدداً إجمالياً يقدر بـ (١٢٠٠٠) نسمة معظمهم يقطن في عشش من أعواد الشجر، ذات شكل خلية النحل أو غيره من الأنماط. ومن حولها فناء من سور من أعواد الشجر (عريش، جمع عرايش)[١]. كان أربعة أخماس المساكن من هذا الطراز، وكانت البقية مبنية ذات واجهة من الجبس في نقش جميل جذاب. لاحظت هذه الظاهرة في صبيا أيضاً!.

كانت كل المساجد من بناء معظمه من البازلت، وقد وُضِع في بلكات خشنة دون أسمنت وفي طبقات متبادلة من لونين أحدهما شاحب والآخر داكن، بأسلوب جذاب. كانت بها ثلاث أو أربع قبب فوق الأعمدة، كان للمسجد الذي دخلنا المدينة من جانبه قبتان لهما أبعاد كبيرة، إلاَّ أنه لم يكن المسجد الرئيس. كانت الفخامة تعود للمسجد الجامع الذي تم بناؤه في القرن الحادي عشر الهجري (الذي يوافق القرن السابع عشر الميلادي) وقد بناه الإمام منصور بن عماد الدين، وهو سلف الإمام يحيى إمام اليمن. كان هنالك مسجد ثالث مهم هو مسجد الأشرف، يقف في المدخل الغربي للمدينة في وسط حقول واسعة مدمرة ولا يزال تؤدى فيه الصلوات. كانت صلابة هذا المسجد أيضاً سمة بارزة له. كانت جدرانه الخارجية ضخمة، وكان فناؤه المكشوف للسماء، ذا أبعاد أصغر، وكانت أرضيته ملمعة وهي من الجبس والأسمنت. تمتد على جانبه الشمالي أعمدة منخفضة من ثلاثة صفوف سميكة مبنية من طوب مجفف مكونة ست مسافات، وتحمل فوقها

---

(١) للمزيد عن طريقة بناء العشش في منطقة جازان وما حولها، انظر: غيثان بن جريس. **عسير (١١٠٠–١٤٠٠هـ)**، ص ٤٩ ــ ٥٢ . (ابن جريس).

(١٨) قبة تقف فوق أقواس شبه معلقة. تقع بجوار هذا المسجد قلعة الأشرف القديمة وتسمى دوجاني، مدمرة تماماً مثلها مثل كل القلاع الصغيرة التابعة للفترة الزمنية نفسها، فهي عبارة عن أكوام من حجارة. يوحي انتشار الركام والحجارة المنتشرة في هذا الموقع وفي مواقع أخرى بفكرة تدل على اتساع المدينة أيام أوجها، وقد قيل إنه كان بها ما يقدر بمئة وستة مساجد ومئة وستة آبار، والتي بقي منها (٣٠) و (٢٥) بالتوالي، بلغ عمق الآبار في المتوسط سبع عشرة قامة في أبو عريش والقرى المجاورة.

تم تدمير معظم المدينة وتم حرقها، وكانت هنالك محاولات لإعادة البناء، بدأت في بطء وتوقفت تماماً هذه الأيام. استولت الحكومة على قلعة الأشرف القديمة التي صمدت أمام الحرائق لتجعل منها مقر الرئاسة. لقد تم تطويرها لكي تستخدم بواسطة الموظفين والشرطة وكانت بناءً مهيباً بحصون زواياه. كان معظم أهل أبو عريش مزارعين، يقومون بزراعة الدخن والسمسم في الحوض الواسع الكبير الذي يقع بين وادي جازان ووادي الأملح ويبعد كل منهما حوالي ميلين من المدينة. كانت صناعة الناس الوحيدة هنا هي إنتاج الزيت، والذي توجد لإنتاجه العديد من المعاصر ذات الطراز البدائي، تديرها جمال معصوبة الأعين. يسمى الدهن الذي يستخلص من السمسم في الأسواق باسم سليط[١]. كان التجار الرئيسيون في أبو عريش من أصل حضرمي كما كان البهكليون في جازان.

كان العمدة المحلي، أو شيخ البلد، هو هادي سعيد، وهو الرجل الرئيس لعنصر المسارحة الكبير في مجموعة السكان. كان رجلاً طاعناً في السن ولطيفاً

(١) مهنة عصر السمسم لا زالت من المهن التي تمارس في المنطقة الممتدة من القنفذة شمالاً حتى جازان جنوباً. (ابن جريس).

وله اتجاهات في الكرم والضيافة جذابة جداً، جاء بشخصه بمجرد وصولنا ويصحبه إناء ضخم مملوء باللبن الرائب وحزم ضخمة من الموز. وجاء مرة أخرى عند الصباح ومعه سرب من الخدم يحملون أطباق الخبز والبيض والعسل وقحاف من اللبن الطازج واللبن الرائب، كان يبدو وكأنه يفتقر للحاسة الجغرافية تماماً، وكان جاهلاً بدرجة مدهشة للأسماء حتى أسماء القرى المجاورة، دعك عن العلامات الأرضية التي تبعد عنه. غير أنه عوّض عن كل هذا بمعلوماته الموسوعية عن تاريخ المدينة، والذي أوصى علينا بقراءة كتاب عنه بعنوان «نفح العود في تاريخ ابن سعود». الذي نشر في بداية القرن التاسع عشر (١٢١٨هـ) بواسطة الشيخ محمد ابن عبدالرحمن البهكلي، ولعله من أهل جازان[١].

تنتمي كل هذه المقاطعة في الأصل إلى بني سفيان (التابعين للحجاز) والذين تم إبعادهم بواسطة آل حرث القحطانيين، وأبعد هؤلاء بدورهم، بواسطة المسارحة، الذين لا يزالون يحتلونها، ولربما جاء هؤلاء المسارحة من الشمال من حول المدينة. لم تظهر أبو عريش للوجود إلاَّ في القرن الثالث عشر الميلادي (القرن السابع الهجري)، حينما كانت قحيفة، ذات الـ (٥٠٠) معصرة للزيت، على شواطئ وادي جازان، وحينها كانت هي عاصمة المقاطعة، حين احتلها الزيود اليمنيون الذي جعلوا من كل المناطق في تهامة بين وادي بيش في الشمال ووادي تعشر في الجنوب محافظة إدارية تحت اسم المخلاف السليماني. هاجر إلى هذا الموقع، وقد شعر بالملل، الشيخ أبو شملة من علماء قحيفة، وأسس لنفسه

---

(١) الصحيح أن اسم هذا الكتاب هو (نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود) من تأليف عبدالرحمن بن أحمد البهكلي، وفي آخره تكملة العلامة الشيخ الحسن بن أحمد عاكش، تحقيق محمد أحمد العقيلي من منشورات دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤٠٢هـ (ابن جريس).

ولاسرته «عريشة» واحـدة في هذه القفار، وبدأ يستقبل التلامـيذ للدراسات الدينية على مذهب الإمـام الشافـعي على ما يعـتقد والذي لا يميل إلـيه الزيود. ازدادت شهرة اسمه وجاء تلاميذه مع أسرهم واستقروا من حوله، وأصبح اسم القرية التي تكونت (أبو عريش). لا يزال يعيش هنا نسل المقيـم الأول وقد أوضحوا لي موقع عريشـته الأولى وتبعد حـوالي (٣٠٠) ياردة من مبنى الحكومة. لقـد نهضـت أبو عريش كما نهـضت صبيا في الأزمان الحديثة، لتكون مـدينة عظيمة حول نواة عريشة العالم، وسقط كلاهما في هوة النسيان تحت ظلال الشريعة.

ظلت أبو عريش ومقاطعتهـا تحت سيطرة الزيود، دون حوادث أو تميز، لعدة قرون، ويعزى أهميتها إلى أحد حكام تلك الممالك في القرن السابع عشر، كمركز محافـظة، ثم تجميلها بالمبـاني الضخمة، الديـنية منها والعسكرية. يبـدو أن تأثير الزيود قد انحـسر خلال الجزء الأخـير من القرن الثـامن عشر وذلك حينمـا تحدى الأشراف الزيود - الذين استـقروا هنا غير أنهم أصلاً قدموا من الـيمن - وانتزعوا منهم الحكم. كان على رأس ثورة الأشـراف الناجحة الشـريف محـمـد بن أحمد آل خيرات، الذي نصب نفسه أميراً على المخلاف السليماني وعاصمته أبو عريش. وخلفه ابنه حمود[١] الذي حكم في نهاية القرن وحـارب السعوديين في أولى أيام القرن التـاسع عشـر تحت القيادة الذكـية لسعـود العظيم[٢]. خلف حمـود عمه الشريف علي بن حيدر، الذي جاء بعده ابـنه حسين، وجاء بعد حسين ابنه حسن

---

(١) حمود بن محمد بن أحمد الشريف من أسرة آل خيرات، كان تحت لواء آل سعود في دورها الأول ثم ما لبث أن انقلب عليهم، وهو المعني مـن كتاب عبدالرحـمن البهكلي المسمى: (نفح العـود في سيرة دولة الشريف حمود). للمزيد انظر: محمد العقيلي. **تاريخ المخلاف السليماني**، جـ١، ص ٤٤٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) يقصد بـ (سعود العظيم) أي الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود. (ابن جريس).

الذي انتقل منه الحكم إلى خاله الأول حسن بن محمد بن علي. احتفى معظم هؤلاء الحكام بذكرى فترة حكمهم بإضافة مبان ذات مغزى ديني أو دنيوي لعاصمتهم النامية.

جرى كل شيء على أحسن حال بالنسبة للبلاد وللحكم، حتى عهد حسن ابن حسين حينما وقع التمرد داخل البيت الأميري ورفع حسن بن محمد السلاح في وجه خاله. تدمرت خلال القتال إحدى القباب الثلاث التي تميز المسجد الزيدي الكبير، وسقط الأمير الحاكم في المعركة. اعتلى المغتصب العرش في ١٨٦٩م ليستمتع به لوقت قصير. كانت قناة السويس قد تم افتتاحها لحركة النقل، ومن خلالها جاء الأتراك في عام ١٨٧٢م لاحتلال عسير واليمن. استمر حكمهم حتى الحرب العظمى حينما سيطر الأدارسة بخروج الأتراك حتى خرجوا هم أنفسهم بدورهم بواسطة ابن سعود. انحدر في عام ١٨٧٠م محمد بن عايض، حاكم مرتفعات عسير من التلال للهجوم على المغتصب حسن بن محمد، وقد تدمر جزء كبير من العاصمة خلال العمليات، إلاَّ أن حسن ثبت في موقعه وفشل الهجوم. استولى الأتراك على المدينة من الأشراف ويبدو أن الأتراك قد اختفوا بين طيات النسيان. ولم تقابلني أية آثار لهم بالتأكيد[١].

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن تاريخ أبي عريش خلال العصر الحديث، انظر: العقيلي، المرجع السابق، حـ١، ص ٤٤٧ وما بعدها، محمد بن عبدالله آل زلفه. **تطور الأوضاع السياسية في جنوب غرب الجزيرة العربية: إمارة أبي عريش وعلاقتها بالدولة العثمانية ١٢٥٤ ـ ١٢٦٥هـ / ١٨٣٨ ـ ١٨٤٩ (دراسة وثائقية)** (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٧هـ) ص ٢٩ وما بعدها، علي بن حسن علي الصميلي. **العلاقة بين أمراء أبي عريش وأمراء عسير في القرن الثالث عشر الهجري (١٢١٧ ـ ١٢٦٧هـ / ١٨٠٢ ـ ١٨٤٧م)** (الناشر ومكانه غير معروفين، ١٤١٩هـ) ص ٦٧ وما بعدها. (ابن جريس).

هكذا كانت القصة الحزينة لـ (أبو عريش). غادرناها ظهر العاشر من يناير وتركناها خلفنا، منطلقين من مسجد الأشرف فوق حزام واسع لصحراء قاحلة تمتد شمالاً وجنوباً بين الواديين. تعطلت السيارة بسرعة وتأخرنا مدة ربع الساعة. ثم مررنا بعشش القويعية على اليمين وتوقفنا قليلاً لنفحص البئر الجميلة، بئر مروخة التي تقع بجوار الطريق، وعمقها سبع عشرة قامة. أحاط بفوهة البئر إطار من بلكات بازلتية لحمايتها من التلوث. كان أعلى البئر مربع الشكل، مبنياً من طوب نحيل صغير، بينما أسفل الفوهة كان الصهريج مستديراً، وكانت جدرانه مغطاة بالأسمنت. تعطلنا مرة أخرى بسبب خلل في السيارة مدة نصف الساعة ونحن نقترب من قرية مخاضرة[١] -يسمى بحرة أيضاً-، في حضن حقولها في وسط غابة على جانبي أحد فروع مجرى جازان. كانت البلاد على الجانب القريب عارية، مسطحة، ورملية، قفر به شجيرات خفيضة قليلة جرى من خلالها الطريق.

كنا نقترب من قرية الخشابية الكبيرة وبعد مرورنا بقرية عسيلة الصغيرة على يسارنا، حينما نفد البنزين وتعطل السير. لا يمكننا مواصلة السفر بلا بنزين، وكان علينا إرسال رسول إلى القرية لاستئجار حمار نصل به إلى جازان. ولكي أعوض سهري لوقت متأخر من الليل في (أبو عريش)، فقد عمدت إلى إغفاءة في الصحراء العارية صحوت منها عند الساعة الثالثة والنصف بوصول قافلة من الحمير. لم تكن هنالك حدود لكرم ساكني قرى هذا السهل. استجابوا بعفوية

---

(١) مخاضرة: ليس اسم قرية، وإنما هي صفة تطلق على مجموعة من الناس يخرجون من قراهم الأساسية إلى قرى أخرى بها بعض المحاصيل الزراعية فيعملون مع أصحابها مقابل الحصول على بعض الأجور من ناتج المحاصيل. (ابن جريس).

وقد أخافتهم فكرة قضائنا الليلة في الصحراء، وبمجرد أن علم سكان الخشابية بأحوالنا من رسولنا، حتى قاموا بجمع حميرهم من المراعي وأرسلوها لنا لإحضارنا إلى القرية لقضاء الليلة. قررت ألاّ أغادر السيارة، مع شكري لدعوتهم هذه، وذهبت الحمير لتعود لنا بالماء والطعام. تمكنا الآن من قضاء الليلة، وتناولنا غداءً ممتازاً من سخاء القرية، متضمناً شاة وخبز الدخن. هبّ نسيم جنوبي غربي وحمل الرمال بصورة غير مريحة في وقت متأخر من الظهر، غير أن الليلة كانت لا تزال باردة وهادئة، وكان الإحساس مثيراً أن ينام المرء مرة ثانية فوق رمال حقيقية. قام على العناية بنا وفد قروي كبير، ومعهم المؤن واقترحوا بكل الجدية أن تدفع الشاحنة بالأيدي إلى حيث الحماية لها داخل عششهم، كانوا جمهوراً لطيفاً، جذاباً، ارتدى الكبار منهم الطربوش الناعم النسيج الذي جلب من مكة ومدن تهامة فوق رؤوس مقصوصة الشعر، أما الشباب من الرجال فقد كانوا كاشفي الرؤوس، وبدت شعورهم المجعدة كثيفة الدهن(١).

كنت نائماً حينما وصلت إمدادات البنزين على ظهور الحمير عند الساعة الرابعة صباحاً. كان هذا عرضاً مثيراً للدهشة للكفاءة من كل الأبعاد. لم تكن بداية رحلتنا مبكرة وذلك لأن الشاحنة تحتاج إلى صيانات أخرى. قمنا بإزالة كل الشمعات وغمرناها في البنزين ثم أشعلناها للتسخين، تناولنا خلال هذا الوقت طعام الإفطار تحت ستار من نسور، كانت تنتظر انصرافنا لتلتقط العظام العارية المتبقية من وجبة مساء الأمس. واصلنا سفرنا خلال سحابة من دخان أسود

---

(١) إن الحياة الاجتماعية، وبخاصة العادات والتقاليد، ونمط العمران، واللباس والزينة، والطعام والشراب في منطقة جازان جديرة بالدراسة العلمية الأكاديمية الجادة. ونحن نعوّل على المؤرخين والمتخصصين في العلوم الاجتماعية أن ينجزوا مثل هذه الدراسات العلمية القيمة. (ابن جريس).

ووصلنا القرية خلال خمــس دقائق، لنتقدم بالشكر لمضيفينا ولـنوزع عليهم بسخاء مقابل كل ما نلناه منهم.

نستطيع من هذا المـوقع رؤية القلعة[١] على رأس تل جازان. بينمـا حصرت وسجلت مـا يصل عدده. إلى الدرزن (الدستة) من القـرى كلها داخل نصف قطر طوله ميلين لهذه المستوطنة الرئيسة. كانت كلها تنتمي إلى قبيلة المسارحة[٢] إلاَّ أنه يوجد فيهـا عنصر أفريقي يعد داخل الكثافـة السكانية. امتدت مساحـات شاسعة للدخن من حولنا فيما يلي الحاجز الرملي الذي كنا قد تركناه من ورائنا، ولم يكن هنالك خيار آخر للشاحنة غير أن تشق طريقها داخل الحقول والنباتات الواقفة التي حجبت الطريق تماماً.

لا يمكن مقاومة المصاطب من الأمام، غير أن السائق مدرك للحيلة التي تجعله يدخل إلى المصاطب على نحـو مائل دون تخفـيف السرعة للدرجـة التي تعرضنا خلالها لأكثر من مرة لخطر الانقـلاب. أدت إحدى المصاطب إلى تعطلنا، غير أننا تمكنا من مواصلة السيـر عبرها، وسرعان ما وصلنا إلى قريـة وسيلي وقد أحاطت بها توابع عديدة في حـوض حفرته السيول، ويمسك فـي بعض أجزائه ببرك مملوءة بالمياه. كـنا الآن على ارتفاع (١٠٠) قدم فـوق سطح البحـر. وكانت المحـاصيل وافرة كعـادتها، متضـمنة نسبة معـقولة من الدخن الصغـير. كان مسجـد وسيلي جمـيلاً يقع بين عـشش من القش وكانت نـسبة سكانـها من الأطفال هائـلة وقد

(١) هذه القلعـة معروفـة عند أهل جازان بـ (قلعـة الدوسرية)، نسـبة إلى قائد جـيش جاء إلى جـازان عام (١٣٧٥هـ) وسمى (محمد الدسوقي الدوسري). (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن بلاد المسارحـة، أو أحد المسارحة، انظر: عبدالرحـمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٦٩ . (ابن جريس).

خرجـوا ليشاهـدونا ونحن نعبر، ويحـيوننا دون انتـباه بأن سيـارتنا -التي تنطلق بصورة جنونية لتحاشي المطبات- هي مصدر خطر حـقيقي. كان كل الصبية عراة، وارتدت الفتيات -وهن فـي نفس الكثافة العددية- خرقاً حـول خصورهن. كانت طيور بلشون البقـر بوفرة داخل المحاصيل وقد أثارها ضجـيج مرورنا فطارت لفترة في سرب ضخم.

خرجنا بعد مسافة ميل واحـد فيما يلي هذه المجموعة من المناطق المأهولة من منطقة الزراعة، ودخلنا صحراء ذات شـجيرات خفيفة، متمـوجة الرمال، تتخللها أشـجار الأراك إلى جـانب المتاريس ونبـات العلقـاء، وهو عشب فـاقع الخضـرة وأزهاره صغيرة صفراء. وصلنا فيما يلي هذه إلى قرية عجيبية الصغيرة وبئرها التي يبلغ عمقهـا ست قامات ذي الصهريج الدائري المبني بالأسمـنت وقد اشتركت في زراعة أرض متقطعة مع قرية بخشة على بعد. كانت القفار التي تعوي هي التالية، وقد تكسرت بلا نظام بالعديد من التلال الرملية التي تكسو قمتها الأجمات ونبات السواد الداكن الخـضرة في مجمـوعات كبيرة في الأرض المـنخفضة. كانـت قيادة السيارة هنا مـرعبة ونحن نمضي إلى الأمام وندور لنتحاشى كـتل النبات وقد أطلق راديتور السـيارة الذي يغلي سحـابة من البخار. توقفنا مـرة لتجديد مـياه المكينة، وتوقفنا مرة أخرى، لانغرازنا في الرمل. لا نستطيع زحزحة السيارة، فذهبت سيراً على الأقدام ناحية مبانٍ ليست بالبـعيدة على أمل أن أدبر نجدة بالحمير توصلنا إلى جازان.

وصلت إلى المكينة وقد اكتـسبت اسمها هذا من مضـخة معطلة وبيت المكينة تابع للنظام التركي بـجوار البئر الذي غـمرته الرمال. كـانت الفكرة أصلاً هي أن يضخ الماء من هنا إلى جازان لتـوفير العمل الضـخم الذي يتطلبه نقل الماء بواسطة الجمال والحـمير، إلاَّ أن المشروع فـشل لسبب ما، أكثـره احتمالاً أن المضـخة قد

أنضحت البئـر حتى جفّ، وتم ترك المكينة لتواجه مصيـرها. رفعنا أعيننا، ونحن جالسين نتوقع أن نسـير على الأقدام إلى جازان. ورأينا ثلاث سيـارات قادمة من ذلك الاتجاه اتضح أنها تتبع مجـموعة عبدالله بن الوزير[١] حاكم الحديدة وتهامة اليمن، الذي كما كنت قد سمعت في العارضة وأبو عريش أنه سيقوم بزيارة نظيره في جازان ليقنع نفسه وحكومته بأن السلطات السعودية تنفذ اتفاقية ١٩٣٤م متوقعاً أن كل القلاع التي تقع داخل مسـافة (٥) كيلومترات من الحدود على الجـانبيين قد تم نزع السلاح منها. رأيته آخر مرة في الطائف في صيف عام ١٩٣٤م حينما كان ممثلاً لحكومة اليـمن لمحادثات السلام التي نتجت عن حرب الأسابيـع الستة. كان على علم -بلا شك- بنشاطاتي فيمـا يخص رحلتي لكل من شبوة ونجران ومسح الحدود. كان لدينا الكثير لنناقشه خلال الأيام المقبلة في جازان.

تبادلنا في هذه الأثناء التحايا الودية وصرح لي بأنني قد كبرت كثيراً منذ آخر مرة رآني فـيها. ربما عـزاءً منه بلا وعي لنوعيـة الحياة التي كنت أعـيشهـا خلال الثمـاني أشهر الماضـية. يرفرف العلم اليـمني الأحمر فوق سـيارته الجمـيلة فورد سيدان ذات الثمـانية قطع سلندر وعلى غطائها السيف وخمس نجـوم، كما عرض عليَّ في كرم شديد أن استخدم إحدى الشـاحنات لنقل شخصي وفرقتي والعفش، كلنا، إلى داخل جازان. قبلت العرض، وتركته ليقوم بحـملته التفتيشية، وانطلقنا تجاه الوطن.

---

(١) قاد تمرداً عام(١٩٤٨م)، بعد خدمة سنوات طويلة واحترام للإمـام يحيى، ضد سيده الذي اغتيل بصورة بشعة. نصب عبدالله نفسه ملكاً على اليمن، غير أنه لم يجد إلاَّ القليل من الدعم من شعبه. سحق ولي العهد سيف الإسلام أحـمد المؤامرة وألقى القبض على عبدالله بن الوزير ومعـاونيه الرئيسين وتم شنقهم جميعاً. (المؤلف).

لاحظت جمال جازان وهي قادمة متجهة إلى الآبار، أثناء سيري، عابرة الدلتا الملحية الواسعة، جاهدة أنفسها خلال السراب الذي انعكست صورتها مقلوبة فيه. لم يمض كثير وقت حتى مررنا بها لندخل مرة أخرى البوابات الكريمة لمنطقة ابن ماضي[١]. صرفت معظم أوقات اليوم، باستثناء تناول غداء متأخر في مقر سكني القديم وعشاء مع الأمير في المساء، في قراءة بريد الوطن الضخم. كان بريداً متأخراً، أرسل لي من جدة في الثالث من سبتمبر، لأستلمه في نجران، وأعيد إرساله من هناك ليعاد لي مرة أخرى هنا، بواسطة السيارة التي سأستقلها في وقت لاحق للسفر إلى جدة ومكة. انكسر المحور الخلفي للسيارة -للأسف- وكانت قليلة المنفعة لي، غير أن هذا كان في هذه اللحظة، من هموم المستقبل. يرجع تاريخ بريدي إلى شهري يوليو وأغسطس المنصرمين. ثمانون رسالة من أفراد أسرتي فقط، غير أنني حينما فرغت من قراءتها أصبحت على علم بأخبار الأسرة حتى منتصف نوفمبر.

استغرقت هذه الرحلة من المرتفعات إلى جازان (٢٣) يوماً، ورحال الزمن تمضي سريعاً، إذ كان عليَّ أن أعود إلى مكة للحج. بقي لدي الكثير لأفعله قبل أن أبدأ رحلة العودة، ولا أستطيع إضاعة الوقت في جازان. كان لدى ابن ماضي توجيهات من الرياض بلا شك لتحاشي أي تأخير في إكمال عملي، وهو ليس بالرجل الذي يترك الأعشاب تنمو تحت قدميه. تعرض في ذلك المساء الذي وصلت فيه إلى موضوع مغادرتي، وأخبرته بأنني مستعد للبداية مرة أخرى بمجرد أن يعد لي الترتيبات الضرورية. كنت في هذه الأثناء مشغولاً بالرسائل وإعداد كل شيء للبريد الصادر.

---

(١) لمنطقة ابن ماضي:- يقصد بذلك (ابن ماضي) أمير منطقة جازان آنذاك. (ابن جريس).

أوضحت رغبتي في رؤية عبدالله بن الوزير الذي زرته ثلاث مرات لحديث طويل خلال الثلاثة أيام لإقامتي المؤقتة في جازان. كان أسلوب تعامله ودوداً وخفيفاً كالنسيم، يفكر ويتكلم بما يشبه القفز، ولم يكن لديه الرغبة لمناقشة أي موضوع ليصل لنهاية له. لا يزال يؤكد بأن شبوة جزء من اليمن، ومعلناً أن الأطلال التي كنت قد رأيتها عند بئر حمد كانت بقايا مدينة أسسها يمني اسمه أحمد بن حسن بن قاسم في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي). كانت المتاعب الحقيقية أنه ليس للأهالي في شبوة أو المناطق المحيطة بها، أية رغبة أن يكونوا تحت حكم الزيود. كان بالطبع مهتماً جداً بنتائج رحلتي، إلاَّ أنه تشكك في إدعائي بأنني زرت مأرب. لم أدخل بالطبع القرية -سيكون ذلك من المستحيل تحت الظروف السائدة- غير أنني قد رأيتها وبوضوح من إحدى الربوات المجاورة وسجلت كل التفاصيل بدقة كافية لوضعها في خريطة أفضل من المتوافرة الآن[1]. كان هو نفسه في مأرب عام ١٩٣١م للقضاء على تمرد محلي، وهو على علم بالبلاد. كان على عبدالله بن الوزير أن يظل مدة أطول في جازان إلاَّ أنه دعاني بحرارة لزيارة بلاده. أجبته بأنني يسرني ذلك إذا جاءتني الدعوة من الإمام، غير أن الدعوة لم تتحقق مطلقاً كما لم تحن الفرصة لمثل هذه الزيارة إطلاقاً. كنت مسروراً بعد عام أو عامين، أن أرسل نسخاً من كتابي إلى عبدالله وسيده الملك، الخاص بجولاتي على الأطراف الشرقية لبلادهم إلى جانب الخريطة التي نتجت عنها، وقد شكرني على هذا الأمير اليمني سيف الإسلام حسين بن يحيى، الذي حضر مؤتمر فلسطين في لندن في ربيع عام ١٩٣٩م ممثلاً لوالده.

---

(١) عالج فيلبي هذه الجوانب بشكل جيد في كتابه: **بنات سبأ:- رحلة في جنوب الجزيرة العربية**. (الرياض: مطبوعات العبيكان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م) ص ٢٨٥ وما بعدها. (ابن جريس).

كان الاستحمام في البحر في جازان ممتعاً كعهدي به، غير أن المد كان منخفضاً جداً في الصباح الباكر وما بعد الظهيرة، وهما الوقتان الملائمان للاستحمام. أخبرني ابن ماضي عند وصولي أن اثنين من الجيولوجيين التابعين لشركة النفط العراقية قد قضيا الليلة الماضية هنا، وغادرا في الصباح عن طريق المركب الميكني الحكومي إلى جزر فرسان[١]. توقفت الموجة المتوسطة في الراديو من قبل يوم أو يومين وقد سلمت الجهاز إلى رجل اللاسلكي في جازان، عبدالله قاضي، على أمل أن يقوم بعمل شيء تجاهه. لم يستطع إصلاحه. وقد أستطيع الحصول على إشارات التوقيت وعلى الأخبار باستخدام الموجة الطويلة، على الرغم من أن هذه ليست مقنعة، وحتى هذه توقفت بعد قليل. أصبحت بكل الأبعاد بلا راديو، وليست لدي إشارات توقيت زمنية مع أهميتها لي، ودام ذلك طيلة الشهر الأخير من جولاتي.

كانت معجزة أن يظل جهاز الراديو يخدمني طيلة الثمانية أشهر التي غطاها أصعب ترحال دون أي مراجعة له غير تلك التي قام بها اليهودي في نجران، والذي كان علاجه لمزواتي قد أمكنني أن استفيد من الراديو لأكثر من شهر كامل. لم يجد الراديو أي عناية إطلاقاً حتى ذهبت الموجة المتوسطة.

لاحظت ثلاثة من شيوخ فيفاء الثانويين وهم جلوس على الحصير، وذلك أثناء حضوري مجلس الحاكم الصباحي لهذا اليوم. لقد أمضوا الليلة في السجن

---

(١) للمزيد عن جزر فرسان، انظر: إبراهيم مفتاح. **فرسان بين الجيولوجيا والتاريخ**، ص ٥٣ وما بعدها. (ابن جريس).

المحلي، وقد أطلق سراحهم، شريطة حضورهم في الوقت المحدد لمقابلة أمير فيفاء وذلك فيما يتعلق بجريمة القتل التي تورطت فيها بعض أقسام قبائلهم. كان عليهم أن يدفعوا الدية ومقدارها (٥٠٠) ريالٍ وغرامة إضافية (نكال)[١] بنفس المبلغ إذا لم يتمكنوا من تسديد الدية خلال الموعد المحدد لذلك.

تناولت طعام الغداء مع مدير الشرطة ووجدت عنده موظف الدخل الحكومي عبدالعزيز جميل، وبذلك تمكنت من مناقشة وترتيب احتياجاتي المالية. لقد نفدت النقود بالفعل خلال هذه الرحلة الأخيرة، في اليوم الذي يسبق وصولنا إلى العارضة. وقد اضطررنا إلى إسقاط اللحم من وجبة العشاء لتلك الليلة. أعدّ لنا عبدالعزيز جميل في اليوم الثالث (١٤ يناير) وجبة غداء لوداعنا وقد شارك فيها شقيق الأمير، مشاري بن ماضي، الذي ودعنا على جانب الرصيف لبداية المرحلة التالية من رحلتنا إلى الجنوب هذه المرة وعلى ظهر الشاحنة، والتي فحصها بعناية بعد مغامراتها الأخيرة. تجمع حشد كبير للمناسبة، وكان لدى معظمهم العديد من الأسباب للسفر إلى المضايا أو غيرها في الجنوب كان علينا أن نتجاهل توسلاتهم لنقله الطريق، كانت الشاحنة بالكاد تكفي لنقلنا وعفشنا.

استدرنا حول الجانب الداخلي للعرن أثناء قيادتنا عبر البلدة خارجين منها عن طريق عرن متلع كنا نسير في سرعة فوق الدلتا الطينية المسطحة المتينة، أسفل قلعة

(١) النكال: هو نوع من العقوبة المادية تفرضها القبيلة على أفرادها الذين يرتكبون بعض الجرائم أو الأخطاء المعينة. وهذه العادة تمارس منذ القدم، ومعظم القبائل في الجزيرة العربية تمارسها، وتدون بينها بعض العهود توضح طريقة الاتفاق على تلك المواثيق، ثم العقوبات التي تطبق على من يتجاوز ما تم الاتفاق عليه. وللمزيد من الاطلاع على هذا النوع من العقوبات وتلك العهود، انظر العديد من النماذج في كتابنا: - **صفحات من تاريخ عسير** (الجزءان الأول والثاني) (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م) (ابن جريس).

العشـيما فوق عرن تـل جازان على ارتفاع (١٠٠) قدم من فـوقنا. كنا نبحث في الطريق عن البديل لمصرف عـميق توجد به السدود على الجانبين، أقـامها الأدارسة منفذاً يحصر البـحر بعيداً عن جازان نفسـها حينما تغمر مسطـح السبخه الماء بالمد العالي في مواسم السنة المختلفة.

انطلقنا بنشـاط فيـما يلي هذا المانع فـوق أرض منخفـضة رمليـة من كثـبان تكسوها شجيـرات خفيضة، تمتد إلى مسافـة إلى الداخل من ساحل البحر، الذي كان يحـفه شريط واسع من مسـتنقع المانجروف. أصبح المنظر كـئيباً ونحن نتـقدم بسرعـة (٢٠) ميلاً في الساعـة، وتخلى ما كان يوجـد من غطاء نباتي من الموقع لأمواج الرمال تتدحرج إلى البعيد ناحـية البحر. تسمى هذه الأرض الرملية مغاثر وقد تكسرت حافاتها المواجهة لمستنـقعات المانجروف (شورة) بالعديد من التشرخات لأسطح طينية عارية تكون أحياناً مبتلة جداً. لم تواجهنا مشاكل فوق هذه الرمال، إلاَّ في موقع واحد، وبعد ساعة من مغادرتنا لجازان وصلنا إلى قرية المضايا الكبيرة الشبيهة بخلية النحل[١]، والتي يوجد بها زوج من الأبنية الحجرية، وقلعة متوسطة الحجم، وسـمات أخرى، لم نتـوقف لفحصـها في هذه المناسـبة وذلك لأننا كنا نرغب في الوصول إلى منطقة الحدود قبل غروب الشمس. جذبت وقفتنا القصيرة هناك لتجديد ميـاه الشاحنة حشداً ضخماً من القرويين، خـاصة الأطفال، والتفوا من حولنا، ووجـدنا صعوبة شـديدة في التخلص منهم حـينما رغبـنا في مواصلة الرحلة. جرى حـشد الأطفال وهم يقـفزون من جانب إلـى آخر من ورائنا ونحن

---

(١) للمزيد عن قـرية المضايا وما حـولها من البلدان، انظر: عـبدالرحمن الشـريف. المرجع السابق، جـ٢، ص١٦٨، ١٧٠ (ابن جريس).

نطوف القرية فوق حفر خطرة، وسرعان ما تركناهم كلهم من ورائنا وانطلقنا فوق الصحراء الرملية التي تطعم هنا وهناك بأشجار الأراك واقفة فوق قمم الكثبان.

نقف الآن في منطقة الدلتا في مصرف أملح الذي انتشر على مراحل فوق الرمال وعبر مسارنا مع بروزات كالأصابع عريضة ومسطحة من الطين ممتدة إلى البحر. كان بعضها متيناً لقيادة السيارة من فوقه وذلك لوجود نبات خزامى البحر فوق سطحها، غير أن العارية منها كانت مبتلة وخطرة. كان أول متاعبنا هو توحلنا في مجاري آثار حركة سيارات سابقة غمرتها المياه. اقتربنا من الساحل للتخلص من هذه الموانع وكانت التلال الرملية على يسارنا فوق هضبة عالية وكانت مستنقعات المانجروف على يميننا. عبرنا سبخة وادي حمير، كما قيل لي إن هذا هو اسمه، فيه بعض الصعوبة ولكن بدون حوادث. غربت الشمس ونحن لا نزال نحاول السير ولا نزال بعيدين من محطة الوصول، وقد قررنا العمل لرخصة الحاجة والضرورة، بأن نعسكر لقضاء الليلة فوق مساحة لطيفة للكثبان الرملية، وقد جمعنا الكثير من أعواد الأشجار الخفيضة لإشعال النار، وجمعنا كذلك أجمل الرمل للنوم عليه. كنا نرى نيران معسكرات صيادي السمك طيلة الليل على حافة المانجروف، وكان مصدر قلقي الوحيد هو الراديو الذي فيما يبدو، قد رفض أن يعمل مطلقاً. استرخيت مع ألغاز الكلمات المتقاطعة في جريدة التايمز ونمت عند الساعة الحادية عشرة ليلاً.

وصل إلى معسكرنا أثناء المساء أحد شيوخ قيس واسمه حسن بن سهل - من بني مروان - وقد أحضر معه أحد الأشخاص ويدَّعي أنه ملم بالكثير من المعلومات حول البلاد. لم يكن لدينا مرشدون في جازان وكان علينا أن نتحصل عليهم في الطريق، غير أنني قمت باستيعاب القادم الجديد، تحوطاً للحوادث، وقد

أفاد كثيراً بتعرفه بسرعة على الوادي الذي عبرنا قبل قليل بأنه الجزء الأسفل من وادي تعشر. خرجنا بذلك من حدود المخلاف السليماني القديم. تجولت في الصباح بحثاً عن الطيور داخل وعلى امتداد المانجروف واستغربت أن أحد السطوح الطموية وقد تنقرت بآثار الغزلان. تذهب الغزلان في كل بلاد تهامة هذه وشمالاً حتى جدة إلى البحر للشرب. ربما ذهبت للملح أكثر منه للماء حيث لا توجد مواقع لعق محلية ترجع إليها عند الحاجة. لم يكن لدينا من الماء ما يكفي لطبخ العشاء ولذلك اكتفينا بشرب الشاي والقهوة وتناول الخبز والموز. تناولنا غداءنا في وقت متأخر في جازان ولم نكن في حاجة إلى وجبة ثقيلة. كان هنالك ندى خفيف أثناء الليل، يكفي لربط حبات الرمل. كانت هنالك كتل من الأعواد فوق السطح الطيني في صدر الشاطئ وبعض المواد الطافية التي جلبها المد، والذي تعلم أعلى مستوى له بشريط مستقيم من حطب طاف.

كان مستنقع المانجروف الذي كنت أخوض فيه إلى الركبة، مملوءاً بطيور الكروان، والزقزاق الكنتشي وطيور سواحل أخرى، وطائر هرار يبحث عن فريسته. كانت طيور الحدأة والغداف متوافرة بأعداد كبيرة تحلق فوق الأماكن التي باشر فيها الصيادون تقطيع حصيلة صيدهم من الأسماك، مخلفين وراءهم الفضلات وبقايا أخرى. بنى الصيادون لأنفسهم عششاً مؤقتة أثناء قيامهم بهذه العملية من أعواد من أشجار المانجروف ومسقوفة بالأعشاب البحرية. تكون من حولهم عادة حلقة من الأجزاء المرفوضة من الحبار طويل الذيل وغيره من الأسماك. وجدت حين عودتي إلى المعسكر أن كلاً من سعد وفرج لم يحاولا تنظيف البنادق، والتي لم يهتم بها أحد لعدة أيام، وتأخرنا تبعاً لذلك حتى يتم هذا. كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف حينما ركب الجميع الشاحنة

وتحركت بنا فوق السبخة على الشريط الساحلي، والتي كانت جيدة للسير، برغم أنها كانت رخوة في بعض الأجزاء. كان مستنقع المانجروف على يميننا عبارة عن غابة من أغصان جافة ذات اتجاهات غريبة بارزة من داخل الماء، بينما يمكن رؤية بعض قرى صيادي السمك إلى البعيد على اليسار.

ابتعدنا تدريجياً عن ساحل البحر وقد حجبه عنا شريط من تلال رملية. واصلنا السير مسافة بلا حوادث حتى بدأت، فجأة وبدون مقدمات، الشاحنة وكأنها قد انفلقت إلى جزأين. اتضح أن الأمر أقل خطورة مما اعتقدنا، ذلك لأن الجزء الخلفي من الشاحنة الذي كان مربوطاً بالحبال، قد انفصل عن الجسم العام وسقط في الطريق. كان علينا جمع الأجزاء المختلفة وشحنها فوق الجسم الرئيس للشاحنة وواصلنا رحلتنا وقد فقدنا فقط عشر دقائق. واصلنا قيادة الشاحنة فوق المسطح الطيني إلى أن وصلنا إلى فم وادٍ ينحدر من كثبان رملية مرتفعة شيئاً ما وتكسوها نباتات الأراك، والقضب والعراد.

لا أحد يعرف اسم هذا الوادي وقد أصابني الاشمئزاز من هذه الجولات التي لا يصحبني فيها مرشد مما دفعني للإعلان بأنني سوف أتوقف هنا إلى أن نعرف اسم الوادي. لم يكن هناك أحد على مد البصر، وبعد ساعة تقريباً جاء رجل وهو شبه عارٍ ويمشي مجهداً ويحمل رمحاً ومحفظة من الجلد. كان في اتجاهه من وادي ضمد إلى ميدي وأخبرنا بأن هذا المجرى ليس بالوادي وإنما هو مجرد منخفض بين الرمال. يسمى هذا المنخفض وفتحات مماثلة إلى الأمام في الحاجز الرملي خبت المغشوش من مجموعة من الثقوب المائية التي سنصلها إذا تقدمنا قليلاً. كافأت الرجل دون شعور مني بمبلغ أدهشه وواصلنا سيرنا لنصل خلال خمس دقائق إلى الثقوب المائية التي تجمَّع حولها عدد كبير من الرعاة يسقون قطعانهم. كانوا من

قرية المُوَسَمّ وهي محطة وصولنا، والتي كانت على مرمى حجر إلى الخلف في الرمال.

كان لدينا الكثير من الوقت صرفنا بعضه مع هؤلاء الناس الذين كشفوا لنا عن بعض تعقيدات المسميات المحلية. يطلق اسم الموسم على المحافظة، ويطلق مراراً على قريتها الرئيسة، والتي يكون اسمها الحقيقي هو ظاهر الجمل[1]. لم يكن خبت المغشوش بأكثر من الاسم الذي يطلق على فم وادي حرض الذي ينحدر من التل وقرية بالاسم نفسه على الجانب اليمني من الحدود، بينما يطلق على الثقوب المائية أمعتم (معتم). علمنا أيضاً أن مختلف الأودية التي عبرنا بها إلى هذا الموقع، كانت تسمى الأملح عند المضايا، وخلب الذي وصلنا إليه، وأخيراً تعشر، الذي قضينا فيه الليلة. ويبدو كل ساحل تهامة في هذه المنطقة وكأنه دلتا متصلة. تكون مياه هذا المكان مالحة ويقوم الرعاة بتعبئتها في قرب الجلود أو أحواض جلدية ويستخدم القرع وقد تم تقطيعه إلى نصفين كأكواب واسعة. ذكروا أنه توجد مياه أفضل على الجانب الجنوبي من الموسم، وواصلنا تقدمنا بعد أن قمت برصد كل هذه المعلومات، فوق أرض واسعة لحقول ذات حواجز فوق رمال متدحرجة، ووصلنا القرية خلال عشر دقائق.

تختلف قرية الموسم (أو ظاهر الجمل) عن غيرها من قرى تهامة التي رأيناها في أن مساكنها دائرية ومبنية من الطين إلى ارتفاع ستة أقدام، ومسقوفة بالوتل على هيئة خلية النحل. كانت تبدو متينة برغم أن العمل كان بدائياً. ينتمي سكان

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن الموسم، الذي يقع في وادي حرض على الحدود بين السعودية واليمن، انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص١٦٧ . (ابن جريس).

القرية والمقاطعة إلـى قبيلة بني مروان ومن أربعة أقسام منـها هي: عريبي وعواجي وازيبي وقـيس. يرأس نقطة الشرطة إبراهيم بن حـمد النفـيسى، وهو خـال لمدير جازان ومن مواليد حـائل، دمث الأخلاق يتحدث بكثرة وميال للمـساعدة ويسر. اتضح لي أنه لن يمكنني أن أتقدم في عملي إن لم أحصل على مرشدين أكفاء لهم إلمام حقيـقي بالبلاد. كانت خطوتي الأولى هي الاستغناء عن خـدمات فرج الذي رجوته في جازان أن يحضر لي مرشدين حقيقيين، ولـم يفعل شيئاً، وكانت النتائج كما قد وصفت. لقد وجـدت شاباً مناسباً عند الآبار إلاّ أنني رأيت أن أتطلع إلى رجـال تسندهم السلطات. رفـضت كل عـروض الكرم والضـيـافـة وأعلنت أنني سأرجع إلى جازان لأرسل تلغراف احتجاجاً إلى الملك[1]. حركهم هذا القول كما يفور النحـل في خليته، وسـرعان ما تـقدم رجلان طاعنان في السـن ومحتـرمان ومعهم الأوامر لمرافـقتنا. لم أقبلهم دون اختبار لحسن الحظ، وكـشف الاختبار أن كليهما كان أعمى لا يستطيع أي منهما رؤية ما هو أبعد من القرية، وقد اختلفا في عفوية حول تعريف العلامات الأرضية التي أشرت إليهما نحوها.

كان هذا فوق احتمالي وأنا أحتج حيال غياب الجدية من جانب مدير الشرطة والرؤسـاء المحليين، وعليه فـقد أصـدرت الأوامـر لإعادة كل شيء إلى الشـاحنة لرحلة فورية ثم غادرنا الموسم بعد ساعتين من دخولنا لها، وخلال عشر دقائق كنا عند آبار أعتم لنـسحب بعض الماء للّيلة. رأيت بلدة ميـدي من الموسم وهي على

(١) أن مساندة الملك عبدالعزيز ودعمه لإنجـاح رحلة فيلبي كان له الأثر الكبير في جميع المناطق التي زارها. ونلاحظ على جميع صفحات هذا الكتاب أن أمراء المناطق ومشائخـها وأعيانها كانوا على أهبة الاستعداد في تقديم العون والمساعدة لفيلبي، وهذا ناتج عن توجيهات الملك عبدالعزيز لهم وحثهم على فعل كل ما يسهل مهمته. (ابن جريس).

الساحل ليست بالبعيد ناحية الجنوب من موقعنا، وبها قلعتها الرئيسة التي تسمى المنصورية إلى الداخل قليلاً. كانت هنالك قلعة أخرى تقع قريباً من موقعنا تسمى قلعة الجوبا. رأيت كذلك تلال حرض على مسافة ناحية الشرق ومعها القرية والتلال التي تحمل الاسم نفسه وهي محتضنة في انطواءات عند رأس الوادي، الذي يدخل ماراً بالجانب الشمالي للموسم يروي حقولها. أصبحت لدي فكرة تطبيقية للحدود في الجوار المباشر. طفنا من عند الحافة حول التلال الرملية حتى وصلنا إلى مقبرة كبيرة قديمة على حافة مسطح سبخي واسع. تسمى النصايب والاسم مشتق من نتوء من قبابها المحطمة ويعزى وجودها لبني هلال. كان حجم بعض القبور فوق المألوف ومبني من بلكات كبيرة من صخر مرجاني ويتجه شرق-غرب، وكان طول أكبرها الذي قمت بفحصه يصل إلى عشرة أقدام وعرضه خمسة أقدام.

يمكننا رؤية الميناء الصغير الذي يسمى المرسى والعشش المهجورة. لقرية كميلة الصغيرة. يجري الطريق مباشرة إلى ميدي وبه عمود حدودي، وعلى الرغم من أنني قد تجولت في شكل دائري حول الساحل لفحص كميلة ونهاية الحدود الدولية البحرية، فإنه يكون من الأفضل أن احتفظ بالوصف لها للفصل التالي فوق حدود السهل. لقد فرغنا من مدن السهل على أي حال في الوقت الحاضر.



الفصل الواحد والثلاثون

حدود السهل

يقع أكثر الأقسام خطورة بين المملكة العربية السعودية واليمن ولكونه غير حصين بين ميناء كميلة الصغير للصيد والتلال الواقعة إلى الخارج من الحاجز الجبلي الرئيس حول قرية حرض اليمنية المحصنة. وقعت حرب الأسابيع الستة فوق هذا القسم من الحدود في عام ١٩٣٤م حين اندفعت القوات السعودية بقيادة الأمير فيصل داخل اليمن ومعهم بنادقهم وحركة نقلهم الآلية في طريقهم إلى ميناء الحديدة، التي دخلوها دون صعوبة. كانت بقية الحدود، التي على جانبها الشرقي رمال الربع الخالي المهيبة، صعبة الاختراق لأي من الطرفين، بينما كانت الجبال المركزية احتمال ميئوس منه لكي يُحاول جانبه.

واجه جيش الأمير سعود في الشرق، فوق الطريق الصعب لوادي نجران وروافده، مأزقاً بسبب أن العدو كان متمكناً من المداخل القليلة الحيوية التي تقود إلى داخل البلاد. إلى جانب صعوبة إمداداته فوق هذه المناطق الصعبة، على الرغم من أن بعض السيارات قد وصلت حتى الحدود عبر طريق الفيل، لم أكن قد قمت برحلتي من نجران إلى شبوة ومقاطعة الجوف حينها، وكانوا يعتقدون خطأ أن محاولة عبور قوات محمولة على السيارات على امتداد شرق الجبال ستنتهي بالفشل. نعلم الآن أنه يمكن للأمير سعود أن يصل بسهولة إلى الجوف ومأرب وتسنده قوة آلية، إلاَّ أن عمليات عام ١٩٣٤م وجدته قد وقع في شراك الجبال المستحيلة، بينما كان شقيقه الأصغر يكتسح السهل الساحلي بنصر سهل. كانت

مشكلته الوحيدة هي اختراق الحدود نفسها على شريط وادي ميدي وهو المجرى أقصى الجنوب بين المجريين الذي ينقسم داخله وادي حرض في الانبعاج من الجبال إلى السهل. يخترق المجرى الآخر أرض المملكة العربية السعودية، ويمر إلى الشمال من الموسم ويدخل البحر، كما سبق أن ذكر، عبر مصب المغشوش. ورد ذكر القلعة في حرض عند رأس هذا الوادي، وربما تعد عقبة كأداء، بينما وقفت عند النهاية البحرية للمجرى قلعة الجوبا، على بعد نصف الميل إلى الغرب من المنصورية، بالإضافة إلى أن بلدة ميدي تشتمل على عدد من القصور يعود تاريخها إلى أيام حكم الإدريسي. يطلق عليها بصفة عامة اسم قلعة السيد لهذا السبب. توجد قرية محصنة في وسط مجرى وادي ميدي تسمى مشابية تنتمي إلى قبيلة بني مروان، أو المراونة. عبر الأمير فيصل في الحقيقة، عن طريق جانبي، هذه النهايات المحصنة لخط الدفاع هذا واخترق قوات العدو التي كانت تحرس المجرى بعد معركة حادة. انعزلت قريتا حرض وميدي بهذه الطريقة، واستسلمتا بعد أيام قليلة.

يجري هذا الجانب الحساس من الحدود عبر السهل من البحر إلى التلال مسافة تقارب العشرين ميلاً، منها تسعة أميال تجاه الشرق، وخمسة أميال تجاه الشمال، وستة أميال إلى الحدود السهلية عند بنر، وخمسة أميال تجاه الشمال الشرقي من حرض. كان هذا الترتيب بناءً على المعاهدة المشروطة لعام ١٩٣٤م، التي تمنع إقامة تجهيزات عسكرية أو تحصينات داخل مسافة خمسة أميال من الحدود. تركت قرية ميدي في موقعها، على الرغم من أنها الأقرب إلى الحدود، وللحاجة إليها لأسباب أخرى، ولما كان من المستحيل الإصرار على تدمير حرض، وهي مركز إداري مهم، فقد نقلت الحدود حولها لتتوافق مع اتفاقية السلام.

يمتلك هذا الخط الحدودي، إلى جانب أنه متلوٍ وفي بعض الأجزاء يصعب التعرف عليه، ضرراً آخر هو أنه يفصل أرض قبيلة واحدة بين دولتين، لم يكن ثمة مفر من هذا في حالة ميدي ووواديها وقد تركتا لليمن. يتكون قسم قبيلة بني مروان الواقع داخل الجانب السعودي من الحدود في جهة الغرب، العجيبي (العجيبية) في الوسط، وقيس (جمع قيوس) بعيداً ناحية الشرق، بينما تقع على الجانب اليمني أقسام بني زيلع ومغفلي (مغافلة) بهذا الترتيب من الغرب إلى الشرق، ويكون قسم بني حدَّاد بعيداً ناحية الشرق وفيما يليهم يكون قسم الجعادرة. توجد مجموعات مبعثرة في هذه الأجزاء الشرقية لتهامة عند مفرج حوض وادي حرض هي: آل حوضان في حرض نفسها مثلاً، وآل علي في قرية وعلان السعودية.

كما يوجد عنصر يسمى مخلوطة في بعض قرى الجانب الشرقي من أرض مروان على الجانب السعودي، غير أنني لست متأكداً إن كان هذا ولاء قسمي أم ولاء وصفي، يعني أناس من سلالات خليط[١]. يستخدم اللفظ حرضي على الجانب اليمني ليعني أناس من حرض ولا يعني القسم القبلي أو تحت القسم. يوجد عنصر آخر يسمى حبة جرح ويجاري الجعادرة على الجانب اليمني، قد يكون تحت قسم الجعادرة إن لم يكن قسماً مستقلاً. وأخيراً يبدو أن أقصى قسم شرقي لقبيلة بني مروان، على الجانب السعودي وإلى الجنوب من تعشر. إنه ينتمي إلى التنابكة والتي قد تكون تحت القسم الوحيد داخل قبيلة قيس. تكون قبيلة المروانيين على أساس الأرض، أهمية، ولما كان الدم أكثف من الماء، فمن الواضح

(١) يقصد بذلك:– أي أقوام خليط من عدة عشائر مختلفة، ولهذا سموا بهذا الاسم. (ابن جريس).

أن فصلها بناء على الولاءات، ربما يكون في بعض الحالات محرجاً لواحدة أو الأخرى من الدولتين.

تحتل الجبانة[١] التي ورد ذكرها في الفصل السابق مساحة كبيرة، مررت خلالها بأطلال بناء كبير، استخدمت في تشييده بلكات كبيرة من الصخور المرجانية. ربما كانت قلعة قديمة تسيطر على الطريق الساحلي الذي تحف صفحاته كثبان رملية متدحرجة، ويحفه على الجانب الغربي مسطح سبخي واسع، والتي لا بد أن يكون البحر قد شغلها في الأزمان القديمة.

يوضح كل ساحل تهامة هذا كيف أن البحر قد دُفع إلى الخلف بواسطة الطمي المتقدم الذي جلبته الأودية العديدة من الجبال، والتي سأقوم بزيارة مناطقها العليا في الأيام القادمة. يصعب التمييز بين القبور والمباني الأخرى، ما عدا القلعة الكبيرة، إلاَّ أن كل المنطقة كانت مغطاة بالقطع المكسرة، ويتضح أن هذا الموقع كان موطناً لمجتمع كبير، ربما كان يعيش في عشش الوتل والأعواد المألوفة هذه الأيام. وقد تكون موقعاً مبكراً مهجوراً لقرية ميدي نفسها أو لقرية الموسم، عند حافة البحر، والتي تقع الآن على مسافة خمس دقائق سيراً على الأقدام من مرسى كميلة. وجدنا في هذا الموقع عششاً قليلة مبنية من الأعواد لقرية صيد صغيرة وكانت توجد بجوارها أكواماً من بلكات مربعة من الحجارة قد تم جمعها -ربما حديثاً- لأجل بناء حاجز للماء داخل المياه الضحلة لملاءمة الصيد وللقوارب الأخرى التي تتعامل مع الموسم.

يحتوى الميناء على مواقع رسو ملائمة للسنابك المحلية، وذلك لأنها محمية من البحر بواسطة جزيرة صغيرة يكسوها مانجروف مزدهر (شورة) إلى عمق

(١) الجبانة: يقصد بها المقبرة. (ابن جريس).

(٥٠٠) قدم. يفصل مجرى ضيق بين هذه الجزيرة وجزيرة الدويّمة ويصل طوله إلى ثلاثة أميال. تبعد نهايتها الشمالية إلى مسافة نصف الميل من قرية كميلة وينتمي نصف سطحها الرملي أو المغطى بالمانجروف إلى العربية السعودية والنصف الآخر إلى اليمن. تعلم نهايتها الجنوبية بقلعة قديمة تغطي المرسى النظير الذي يقع بين طرف الجزيرة والأرض الرئيسة. ويطلق عليه اسم المرسى، كما توجد قرية صيد صغيرة على الأرض الرئيسة في مواجهتها تسمى خور تمتد من الخليج الذي يجري إلى الشرق من جزيرة الدويمة إلى أحد أحواض الموسم. يكوّن كل من هذا المنخفض والخليج الحدود الفعلية وبها أولى الأعمدة الحدودية على الشاطئ الشمالي. لا يوجد عمود حدودي على الجزيرة، والتي لا فائدة ترجى منها لأي أحد.

وصلنا سيراً على الأقدام من مرسى كميلة وعبر المسطح السبخي إلى الطريق عند الحدود الفعلية، ومعلّم دون وضوح كافٍ بحجر واحد شكله غير منتظم ويرتفع إلى تسع بوصات، موضوعاً فوق سطح السبخة بجوار الطريق. كان هذا هو العمود الحدودي (رقم ٢٣٨) ويطلق عليه اسم رزم دخلة بن زهير تكريماً له، وقد كرمناه بدورنا باختيارنا لموقعه لنعسكر فيه لقضاء الليلة، وذلك لأنني لازلت أحتاج لفحص العمود الوحيد الذي يقع ناحية الغرب على حافة مجرى الدويمة. سأقوم بوضع أرقام تسلسلية فوق كل الأعمدة الحدودية من هذ الموقع وشرقاً إلى الخلف حتى يتوفر لدينا حساب لكل هذه العلامات من الرقم (١١٩) (نيد فضة) والتي من عندها أوقفت فحص الحدود لأقوم بزيارة جازان.

لم يكن الوصول سهلاً إلى العمود الحدودي إلى أقصى الغرب من الشريط وذلك لأن البحر كان قد غمر حديثاً لهذا الجانب من المسطح الملحي، والذي كان

مستنقعاً غاصت فيه أرجلنا إلى مستوى الركبة أثناء سيرنا فوقه على الأقدام. لتجنب خطورة التحول، فقد أفادني حسن الطيب، شيخ قبيلة عريبي، الذي كان مرشداً لي، أن الحجر الذي يوجد على جانب الطريق كان أول عمود حدودي يتم نصبه. لم أصدقه، وكان لديه من الإحساس بالخجل ما جعله يرافقني عبر المستنقع الملحي، واعترف بخطئه والشاهد يقف أمام حواسنا. أخبرني بعد ذلك، بأن هذه العلامة الحدودية تحمل الاسم الرسمي مقطع الرديف (رقم ٢٣٩) من فرع الخليج الذي تقف عند حافته مجموعة من حجارة كبيرة مرصوصة مع بعضها في كومة، كانت تقع تجاه الشمال من قلعة المرسى فوق الجزيرة، بينما تقف قلعتا ميدي الرئستين في بروز ناحية الشمال الشرقي، وتقع البلدة نفسها قليلاً إلى يمينهما عند النهاية البحرية لسلسلة منخفضة تقف فوقها قرية المنصورية. يبدو أن البلدة تواجه البحر من فوق صخرة منخفضة، وكنا نستطيع رؤية أعمدة الأشرعة للسنابك تدخل المرسى في الميناء. ويقع حاجز البحر الطبيعي ناحية الشمال الغربي بينما يجري خط الحدود إلى العمود التالي، بالقرب من معسكرنا، قليلاً ناحية الشمال الشرقي. تمكنا الآن من الحصول على منظر أفضل لجزيرة الدويمة، وسلسلة مرتفعة من الرمل تجري من مرسى إلى نقطة المنتصف، بينما يمتد بين موقعنا وبين المجرى الذي تمتد فوقه مانجروف كثيف.

سرنا فوق الطين اللزج والمالح أثناء عودتنا للمعسكر الذي يبعد فقط مسافة (١٧٥) ياردة لم يكن لدينا لوجبة العشاء غير الأرز، وعلى غير عادتي فقد تعشيت بمفردي تعبيراً عن عدم ارتياحي لحسن الطيب وزميله شيخ العريبيين واسمه إبراهيم، اللذين يبدوان وكأنهما يعوقان عملي بدلاً من دفعه إلى الأمام فوق الحدود إذا كان ذلك العمل يتضمن إجهاداً لهما. توقف جهاز اللاسلكي، ليزداد

الأمر تعقيداً، بعد خدمة طويلة ممتازة امتدت على مدى ثمانية أشهر، ولم أكن معتاداً على التحرك والانتقال دون الاستماع إلى الأخبار، كما افتقدت ملاحظاتي للنجوم. لم يكن هذا الاعتبار الأخير ذا أهمية الآن، وذلك لأن معظم النقاط المهمة على الساحل قد تم تثبيتها بصورة مقنعة في خرائط إمارة البحر، ومن هذه اللحظة وإلى نهاية رحلتي فلن نكون بعيدين عن البحر. كان أهم حدث قد وقع ظهر اليوم هو الاكتشاف المدهش لقطع من قشور بيض النعام وسط دبال من أصداف البحر، نتجت عن تجارة أسواق أم اللآلئ في مصوع وهي صناعة محلية في هذه الأنحاء. كان أكثر أنواع الصدف شيوعاً هو الكوكيان، ويتم شحنه من الشمال عبر البحر بكامله وبداخله اللحم المتحلل. معرفة كيف وصلت بيوض النعام إلى هذا الموقع يظل سراً، ومن الواضح أن وجودها هنا كان بواسطة الإنسان، ربما من أفريقيا. لا تزال الشاحنة معنا وكذلك السائق الذي يسره أن ينادى باسمه شهرين.

وصلت في الخامس عشر من يناير إلى أقصى المواقع الجنوبية للحدود، وأحسست بأن رحلاتي تقترب من نهايتها. وحينما يتم اتصالي مع النقطة الخارجية البعيدة للحدود من جانب الاتجاه المعاكس، أكون حينها في طريق العودة إلى جازان للمرة الأخيرة، ومنها إلى الوطن تجاه مكة. أشرق الصبح والسماء ملبدة بالسحب ناحية الجنوب والجنوب الشرقي، والغرب، مع نسيم بارد لطيف. كان هنالك ندى أثناء الليل، غير أن منخفض السبخة الذي كان علينا أن نعبره لنصل إلى العمود الحدودي التالي كان مبللاً ومستنقعياً، وقد استفدت من تجربة الأمس فخلعت حذائي ودخلت السبخة وأنا حافٍ يرافقني كل من حسن الطيب وإبراهيم، بينما سافرت بقية المجموعة بالسيارة على الطريق الذي يجري في موازاة الحدود.

وصلنا إلى عمود سديد الحدودي (رقم ٢٣٧) عند حافة تل رملي منخفض يجري من ناحية الشمال الغربي مسافة ميل واحد، ويدور على الجانب البعيد من المنخفض - لا يزال هو خور الرديف - ومن ثم إلى معسكرنا. كان العمود الحدودي عبارة عن كومة صغيرة من بلكات مرجانية كبيرة يكسوها ملح السبخة. أمكننا رؤية قرية الموسم الآن ناحية الشمال الشرقي، بينما انتشرت سلسلة رملية عالية تسمى الحافية ناحية الشرق بعد مسافة. ربما كان هذا هو «التل الرملي» الذي ظهر في خريطة إمارة البحر. وتقع فيما يلي هذا مجموعة تلال حرض.

يتكون العمود الحدودي التالي واسمه السكين (رقم ٢٣٦) من أربعة أو خمسة بلكات من المرجان، مدفونة إلى وسطها في الرمل ويصعب العثور عليه بين شجيرات الصحراء يشار إليه أحياناً باسم المقاطعة «أضراع الحشية»، وتنتمي إلى منطقة كانت زراعية ذات يوم (دخن) فوق فرع مهجور منذ زمن طويل لوادي حرض المغشوش. أخبرني رفاقي من الموسم بأن الجبالية ويعنون بهم الحكومة اليمنية، أو بصفة عامة رعاياها قد أقاموا سداً في الوادي الرئيس إلى أعلى، وكانت النتيجة، أن المجاري في الأرض السعودية نادراً ما تتلقى مياه السيول. كان مواطنو الموسم، في المواسم الجافة، يهجرون مساكنهم وينتشرون بحثاً عن سبل الحياة في مكان آخر. يفيد نمو كثيف لنبات الغضا والعراد في مجرى حشية بوجود مياه، أو أثر رطوبة تحت التربة، غير أن هذه بطبعها نباتات صحراوية ولا تموت إلاَّ بتعاقب سنوات متتالية من الجفاف. كان عرض هذا الوادي (٥٠٠) ياردة وقد سدّت سلسلة رمال الحافية جانبه الأيسر.

اتجهنا الآن ناحية الجنوب الشرقي في اتجاه الحافية، وقد علمها العمود الحدودي الذي يسمى الحافية اليمانية (رقم ٢٣٥) في وسط أرض رملية منخفضة

تسمى نشر وتنمو فوقها الكثير من حشائش الجليل والثمام على الحافة الجنوبية للسلسلة الرئيسة على بعد ميل ونصف الميل. تمكنّا الآن من رؤية أفضل لقلعة المنصورية التابعة لميدي، على بعد ثلاثة أميال فقط ناحية الجنوب. كانت بناءً حجرياً متطاولاً وعلى زواياه حصون دائرية وبناء بارز مرتفع يرتفع عليه ساري العلم في وسط فنائه. يقف العمود الحدودي التالي في هذا الخبت الرملي نفسه، ويسمى رديف القراد (رقم ٢٣٤) وآخر بالاسم نفسه (رقم ٢٣٣) على بعد (٣٠٠) ياردة من الطريق الذي يناسب السيارات ويقود من طريق الساحل إلى داخل البلاد. نما إلى علمي أن لجنة الحدود قد جاءت بأشخاصها واجتمعت في هذا الموقع لتقرر الموقع الصحيح للعمود لأجل أن يكون الطريق داخل الأراضي السعودية تماماً. تم وضع الأعمدة الأخرى، عند ذلك الذي يقع بجوار معسكرنا وحتى هذا الموقع، بواسطة البدو بتوجيه من اللجنة، لربط العمودين الأساسيين دون إثارة مشاكل قضائية حول الطريق الذي يقود في نهاية الأمر إلى قرية صامطة[1] الكبيرة على تعشر، رئاسة قبيلة بني شبيل.

يتجه شريط الحدود حتى هذا الموقع ناحية الجنوب، غير أنه استدار الآن ناحية الشمال الشرقي، وبمتابعة هذا الاتجاه وصلنا سريعاً إلى طريق السيارات وسلكناه مسافة ميل واحد، إلى حيث منخفض واسع كثيف الشجيرات يسمى خبت تفاريد يمتد مسافة شمالاً وجنوباً عبر الطريق، يحتل شريطه العريض المغطى بشجيرات القضب والذي يبلغ عرضه (١٠٠٠) ياردة وسط السهل المنخفض أكثر من

(١) صامطة:- أحياناً تكتب وتلفظ بحرف (الصاد) وأحياناً أخرى بحرف السين (سامطة)، والأكثر شيوعاً واستخداماً هو لفظ (صامطة). للمزيد عن بلاد سامطة، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ . (ابن جريس).

منخفض، وبرز كشريط أخضر لطيف ثري ليكسر الملل الذي تجلبه الأرض العشبية المتقطعة على جانبيه. تعد هذه المنطقة منطقة مراع جيدة خاصة بعد الأمطار، غير أنه تبدو من مظهرها أنها لم تصبها الأمطار لفترة زمنية طويلة. وقفت كومة حجارة حدود تفاريد (رقم ٢٣٢) في وسط هذا الشريط الأخضر وعلى مساحة تزيد قليلاً عن ميل واحد من جهة قرى عريبي الشمالية وحتى مشابية في وادي ميدي. توقفنا مدة ليست طويلة تحت ظل شجرة قضب لتناول الشاي وللتدخين ولنعطي الماكينة فرصة لتبرد وهي تحت شريط أخضر آخر مملوء بشجيرات تسمى قزي. وصلنا مباشرة بعد هذا إلى العمود الحدودي الذي يسمى يمنى المجاحف وهي منطقة خبت عارية يكسوها عشب ميت. كان هذا هو العمود الحدودي (رقم ٣٣١) وأمكننا عنده رؤية خط الأشجار التي تعلّم مجرى الموسم أو المغشوش وبه قريتا غويرة[١] (العريبية) ودخيلة (الازيبية) على جانبه القريب.

ذهب حسن الطيب على رجليه إلى دخيلة ليعلن عن اقترابنا من بلاد العريبي وإعداد المرشدين الضروريين وذلك لأن هذا العمود الحدودي هو آخر الأعمدة داخل أراضي الازيبيين. استقر بي المقام في هذه الأثناء لإغفاءة الظهيرة تحت شجيرة قضب، تلك التي جذبت نحوها ألوف الفراشات بيضاء عروق الأجنحة وقد تدلّت خادراتها في أعداد ضخمة أيضاً من الأوراق والأغصان. عبرت قافلة صغيرة الموقع أثناء استراحتنا وقد خاطبها بعض رفاقي، ويبدو أنهم كانوا يتساومون بشدة حول سعر شاة لوجبة المساء. مرّت بنا مجموعات صغيرة من الناس بعضهم

---

(١) غويرة: ــ يطلق عليها اليوم اسم قرية الغوره، وسكانها يطلق على الواحد منهم الغويري وليس العريبي أو الازايبي كما ذكر فيلبي. (ابن جريس).

على قدميه وبعضهم على ظهور الحمير وبعضهم على ظهور الجمال، وعلى فترات، سالكين على ما يبدو أنه طريق سريع حقيقي يربط بين دخيلة ومشابية. ولا يوجد ما يدعو إلى القول بأنهم لا يلتزمون بالشكليات الحدودية وهم في ترحالهم من وإلى، في مناسبات قانونية. وجدتُ قطعة أخرى من قشر بيض النعام، بالقرب من عمود تفاريد الحدودي، وكنا نشاهد على مدار اليوم، خاصة في المساحات السبخية، آثار حوافر الغزلان مقبلة أو مدبرة من البحر حيث تشرب. يبدو أنها تعجب بالملح والسائل معاً، غير أن شرب مياه البحر هو خاصية ثابتة لغزلان تهامة. لقد شاهدنا قطيعاً صغيراً منها في الخبت بعد بداية مسيرتنا بقليل.

كان هذا عند الساعة الرابعة مساءً، وهو الوقت الذي أدركنا فيه حسن السهل، شيخ القيسيين ومعه شخص آخر مشهور بأنه خبير للجغرافيا المحلية. على رغم من كل هذا، فقد طال بحثنا مدة ربع ساعة، عن العمود الحدودي التالي الذي يتألف من ثلاثة كتل من الحجارة ملقاة معاً ويصعب تحديد موقعها في قفر تزعق فيه الرياح ويكسوه عشب ميت. كانت بقعة كئيبة بحق ويسمى العمود الحدودي عضير الحب (رقم ٢٣٠). أمكننا رؤية قرية مشابية التابعة لبني زيلع إلى جنوب عضير الحب، وليست بالبعيدة، وهي على حافة شريط طويل من شجيرات تعلّم مجرى وادي ميدي، وهو الفرع الجنوبي لوادي حرض، والذي يمكن أيضاً رؤية رأسه فوق السرج الذي يقع بين تلّين مرتفعين إلاَّ أننا لم نر قلعة القرية. أمكننا أيضاً رؤية قرية القمبور التابعة لقبيلة عزيبي وهي على يمين دخيلة، وكذلك قرية رمثة التابعة لقبيلة قيس، وهي عبارة عن عشش من الأعواد ليست بالبعيدة وإلى شمالنا. يطلق على تلَّي حرض اسما حرض وخوفار بالتوالي ويطلق على

السرج اسم أم فج. تعرفت على تلال طحنان وعاصم وعسلة بعيداً إلى الشمال، غير أن مرشديَّ لا علم لهما بأشياء بعيدة كهذه. استطاعا على أي حال التعرف على سلسلة بنر وتلال محمر وجحفان وشقدم التي سنصلها في وقت لاحق. تقع ميدي ناحية الجنوب الغربي وهي واضحة ومعها قلعتان باسم قلعات السيد مرتفعتان في بروز فوق مباني البلدة الأخرى.

كان العمود الحدودي التالي (رقم ٢٢٩) واسمه مثعن سهلاً، وما هو إلا جذع شجرة وضع على الجانب ليعلم الحدود. قررنا أن نقضي الليلة هنا، وفرشت سريري فوق الحدود لأنام في دولتين. خرجنا الآن من الأقفار العشبية إلى داخل سهل واسع من أرض طينية تنتشر فيه الشجيرات وبعض الأشجار ذات الحجم المتوسط، وكانت قطعة من البلاد جذابة ولا ترتفع عن ساحل البحر بأكثر من (١٠٠) قدم. وتتويجاً لارتياحنا العام بخروجنا من الأرض الميتة من ورائنا، فقد أرسل لنا أمير الموسم حملاً هديّة للسلم، بينما أرسل أمير الخوبة، على مسيرة بعض الأيام ناحية الشمال الشرقي، ممثلاً له؛ ليقابلنا ومعه مرشد ليوجه خطواتنا. وصلتنا إمدادات الماء من القمبور واجتمعنا كلنا في تناسق واضح لنفي لحم الضأن حقه.

لاحظت بعد فترة صوت خفقان في الجو، بينما كان الضجيج الذي جلبه أزيز الحصاد وحشرات أخرى مقدمة ملائمة لهذه البلاد الغريبة الشكل. لقد ارتفعنا خطوة عن طرف الساحل، على الرغم من أننا لا نزال على مسافة من السفوح الجبلية، والتي فيما يليها، على أي حال التقطنا منظراً لعدد من القمم لسلسلة الجبال الرئيسة متضمنة حرم والنظير وارتفاعان بلا اسم متصلان بمرتفع آخر، وحاجور وحماطة وجريز - كلها على ارتفاع (٧٠٠٠) قدم أو أكثر فوق سطح

البحر، وتمتد على شكل وتر من الشمال الشرقي إلى الشرق وفي الترتيب الذي ورد. تمتعت بمنظر عظيم لهذه البانوراما الرائعة حينما صحوت من نومي حوالي الساعة السابعة صباحاً، وكانت الليلة خالية من الندى، ولم يمض وقت طويل حتى حجب الضباب والسحاب معظم المنظر بقية اليوم، تاركة فقط السفوح الجبلية في مجال الرؤيا وتسمح من حين لآخر بلمحات من الجبال العملاقة من ورائها. كانت الدرجة الدنيا للحرارة أثناء الليل (٦٤) درجة، وسجل مقياس الحرارة الدرجة القصوى عند العصر وهي (٨٤) درجة. كانت الظروف مثالية لمثل هذا السفر.

حضر إلى معسكرنا أثناء الليل رجل شرطة يسمى حامد، كنت قد رفضت خدماته في جازان، حينما كان يقضي إجازته، وفي الموسم حينما سبقنا في طريق العودة إلى عمله في الخوبة، وألحق نفسه مع مجموعتنا شئنا أم أبينا، تركت الأمر عند هذا الحد إعجاباً بمثابرته. بعد أن دعمنا أنفسنا بإفطار جيد بما تبقى من لحم الحمل والأرز من عشاء الأمس، وبدأنا المسيرة بروح عالية للمرحلة التالية من استكشافاتنا، رفضت السيارة، على أي حال، أن تتحرك بسبب البرد وسرنا ببطء على الأقدام يسبقنا مرشدونا منتشرين بحثاً عن العمود الحدودي التالي. وصلنا إلى العمود خلال خمس عشرة دقيقة، ناحية الشرق من معسكر ليلتنا وفوق الشكل نفسه من البلاد ذات الشجرات الكبيرة وتبعثر طيب لأشجار السرح. كانت العلامة الحدودية تتكون من عدد تسعة حجارة صغيرة في كومة مسطحة، وهي علامة مثعن الثانية، (رقم ٢٢٨) بينما وصلنا العلامة الثالثة (رقم ٢٢٧) وكانت عموداً خشبياً مسطحاً على الأرض يعلّم موقع اللقاء الثلاثي لقبيلة بني زيلع والمغفلي وهما قسمان من قبيلة بني مروان على الجانب اليمني، وقبيلة قيس على الجانب السعودي.

رفعنا العمود مؤقتاً في وضع قائم وزيناه بممثلي قسمي قيس وعريبي المحترمين وذلك لأجل أن أتمكن من التقاط صورة للمنظر. يبدو أن البلاد هنا، وكأنما بدأت تتكسر مرة أخرى بالأمواج المنخفضة للرمال وهي تتعدى تدريجياً السهل الطيني إلى جانب غطاء نباتي من قصب وعشب جاف وشجيرات قصيرة وبعض أشجار السرحة من حين لآخر. تقع قرية العويرض التابعة لبني زيلع على مسافة الميل الواحد، ناحية الجنوب الشرقي.

تنحني الحدود من هذا الموقع بعنف ناحية الشمال وتستمر كذلك لمسافة. وصلنا لما يدل على نشاط زراعي ونحن نقترب من الوادي، حيث كانت هنالك حقول ذات متاريس عالية على جانبي الحدود دون فصل واضح بينهما. تم تصحيح هذا سريعاً بوضع علامة حدود تحتوي على حجرين صغيرين موضوعين على الأرض، إلى خارج حلقة الظل الذي ألقته شجرة سرح كبيرة، وقد استلقيت تحتها، على الرغم من أننا لم نسر مسافة طويلة، لأجل الإغفاءة والراحة. هبت رياح قوية علينا وقل مجال الرؤيا. اعترض شريط من غابات كثيفة بيننا وبين وادي الحفيرة أمامنا، والذي كان يعلّمه شريط أكثر كثافة من أشجار وشجيرات ويحتوي على بئر جلبت لنا منها المياه.

توقفت الزراعة تماماً بالقرب من خط الحدود، وحينما وصلتنا الشاحنة أخيراً بعد الساعة الثالثة مساءً، كان سيرنا خلال طريق تنزهي. يعرف هذا الموقع الحدودي باسم خزن الحاج[1] (رقم ٢٢٦) بينما يسمى التالي له الحفيرة (رقم ٢٢٥)، وما هو إلاَّ جذع شجرة ميتة مغروس غير ثابت في كومة رمل على حافة

---

(١) خزان حج: هكذا ذكرها فيلبي مع أن الاسم الصحيح هو (خزن الحاج)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٧ . (ابن جريس).

الوادي. تقع قرية الحفيرة على مسافة (٢٠٠) ياردة إلى يسارنا، وأمكننا الآن رؤية قرية مثعن على مسافة نصف ميل ناحية الجنوب الغربي من موقعنا. وكانت أكثر القرى بروزاً ومنظرانية هي قرية رمثة، تقف على قمة سلسلة رملية إلى مسافة خلف الحفيرة. كانت أشجار الوادي، الذي يتواصل مع وادي حرض ويتصلان مع وادي المغشوش، مليئة بالطيور النساجة وأعشاشها المعلقة.

أرسلنا الشاحنة تبحث عن طريق أسهل ودخلنا إلى الوادي، وسرعان ما وصلنا إلى مجرى السيل الرملي الحقيقي، وكان عرضه حوالي خمسين ياردة وتحفه بكثافة أشجار الطلح والمرخ وغطاء نباتي آخر نموذجي. كوّن فيما يلي هذا، سهل رملي آخر يكسوه شجيرات خفيضة والكثير من المرخ، وهو لا يزال جزءاً من الوادي، والذي حمل أيضاً مجرى آخر يسمى خريم، وهو بارز جداً ويكسو أرضيته غطاء نباتي فاقع الخضرة، معظمه نبات السنا ونبات العلقا وعدد كبير من أشجار الطلح. يتكون عمود خريم الحدودي (رقم ٢٢٤) من دستة من الحصى الكبيرة ملقاه مع بعضها على المتراس حول شجرة قصب ميتة في وسط المجرى. برزنا على الجانب الآخر فوق مرتفع ضئيل يكوّن عتبة الخبت الواسعة أو ما يشبه البراري تكسوها حشائش محتضرة. تسمى هذه الأرض طرف السر والتي فوق مرتفع آخر لها، ويسمى المطيريه، يقف ما يزعم أنه علامة حدودية، حجران صغيران موضوعان على كومة من الأعواد. سيطرنا من هذا العمود (رقم ٢٢٣) على منظر شمولي لأرض مراعي السر التي لابد أن تكون منظراً جميلاً أثناء المواسم المطيرة، غير أنها الآن صورة للكآبة. قوبلنا هنا بوفد من قبيلة بني حُمد، ويبدو أنه فرع مستقل من قبيلة بني شبيل في صامطة والذين يزعمون أنهم قد قدموا أصلاً من شهرة في اليمن. لا يدركون عن سلفهم غير أنهم يرفضون أي

علاقة لهم مع قبيلة بني مروان والتي يشارك قسمان منها - قيس على أحد جانبي الحدود والمغفلي على الجانب الآخر- معهم نقطة اللقاء الثلاثي عند العمود الحدودي التالي الذي يقع أمامنا، ويسمى الدنقور (رقم ٢٢٢). هبطنا قليلاً من سلسلة المطيرية لنصل إلى هذا الموقع، إلى سهل أكثر استواء من الطين والتربة الخفيفة، وقد غطاه الكثير من شجيرات القضب والسرح مع عدد قليل من هذه، وقد بلغ حجمه حجم الأشجار الصغيرة. يسمى هذا السهل، أو قل منخفضاً فيه، مجحف[١] إلاَّ أنه جزء من أرض السر.

لم يصلنا شيخ قبيلة بني حمد، واسمه طاهر، حتى الساعة التاسعة مساءً غير أنه أقبل ومعه هدايا وقد رحبنا بها، كانت عبارة عن شاتين والكثير من الماء وأغراض أخرى. استأذن مباشرة بعد تناول العشاء معنا ليذهب لينام في منزله تحاشياً لبرودة الليل في هذا المكان المكشوف، غير أنه وعد بالحضور في الصباح. كانت قرية المجنة على بعد ثلاثة أميال فوق رافد أبوصول[٢] لوادي تعشر، بينما يحتل جناحه القبلي المواقع العليا (في تهامة بالطبع) للوادي وروافده في مقابل التضاد مع قبيلة بني شبيل الذين يقعون ناحية الشمال في المرتفعات الوسطى للمجرى نفسه ويمتدون إلى وادي لية إلى الشمال. كان عمود الدنقور الحدودي مضحكاً للدرجة التي لم أستطع مقاومة الإغراء بالتقاطه ووضعه في جيبي وأن آخذه معي تذكاراً. كان العمود يشتمل على ثلاثة أحجار صغيرة جداً موضوعة

(١) مجحف: هكذا ذكره فيلبي مع أن بعض السكان المحليين يذكرونه باسم (محجف) أو (محجن)، وسوف نستخدم في الصفحات التالية اسم (محجف) بدلاً من (مجحف) و(محجن). (ابن جريس).

(٢) أبام صول:- هكذا ذكرها فيلبي مع أن الاسم الصحيح هو (أبو صول)، وهو ما سوف نستخدمه في الصفحات التالية، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٨ . (ابن جريس).

فوق تكوين تحتي كثيف الشجرات لشجرة سرحة، وأُحسن أمر سرقتي هذه باستبدال الحجارة بعلبة أناناس فارغة مستوردة من اليابان. كانت هذه المعلبات تباع وتشترى هنا بأسعار مخفضة لدرجة مدهشة في سوق جازان، وأشهد بأن المحتويات كانت ممتازة.

كانت درجة الحرارة أثناء الليل كمثيلتها في المثعن ولم يكن هنالك ندى. أفسد الضباب والغمام المنظر الصباحي غير أنني استطعت أن أضيف عدداً من القرى الجديدة إلى قائمتي، وكلها كانت تقع شيئاً ما إلى الشمال من موقعنا، وهي الشمهانية وعنطوطة[1] والجزعة والطوال. كان آل بني حُمَّد عصبيين فما يخص معلوماتهم الجغرافية. وقد أرسلوا كشافيهم في وقت مبكر من الصباح لجمع كل الأعمدة الحدودية التي كان علينا أن نقوم بزيارتها اليوم التالي. لا يهتم هؤلاء الناس بمثل هذه الأشياء ولا يستطيعون أن يفهموا لماذا يهتم بها الآخرون.

تتجه الحدود من الدنقور مرة أخرى ناحية الشرق، مع قليل من الانحراف للشمال، ثم يعبر منخفض محجف الضحل عند طرفه الجنوبي، الذي عنده نستطيع رؤية الأشجار التي تعلم منخفض السر الحقيقي إلى شماله والذي تأخذ كل أرض المراعي هذه اسمها منه. تتجمع المياه في كل هذه المنخفضات بعد الأمطار وتظل فيها حتى يتم امتصاصها غير أنها ليست خطوط صرف بأي شكل من الأشكال. استغنيت عن خدمات شيخي العريبين والقيسيين دون أي مكرمة لهما لأنهما لم يقدما لي شيئاً، وذهبنا نحن ومعنا مرشدانا الجدد من المعسكر

(١) عنطوطة: تم تغيير اسمها أثناء إمارة محمد بن تركي السديري على منطقة جازان إلى اسم (الرحمانية). (ابن جريس).

ووصلنا خلال عـشر دقائق إلى عمود مـفجر الضمـار الحدودي (رقم ٢٢١) وكان عبارة عن حجرين كبيرين وحجرين صغيرين وهذه الأحجار ملقاة فوق كتلة عشب جاف. ووصلنا بعد عـشر دقائق أيضاً إلى عـلامة القوباء[١] الحدودية (رقم ٢٢٠) وقد اكتسبت اسمها هذا من المنخفض ذي الشجرات الكثيفة الذي يجري من ناحية الجنوب الشـرقي لمسافـة (٥٠٠) ياردة داخل أرض المغـفلي (باليـمن) ليتـصل مع منخـفض آخر أطول (يسـمى أيضا القـوباء) يقطع الحـدود على زاوية قائمـة عند العمود الحدودي التالي واسمه المراويد[٢] (رقم ٢١٩). يتكون هذا من عدد سبعة أحجار متوسطة الحجم على شكل كومة مسطحة، تعلم الخط الذي تعبر فيه الحدود المنخفضـة، والذي يقع ثلثاه (حوالي الميل الواحد) في الجانب اليمنـي، وجدنا فيه جرادتان منعـزلتان. كـانت الشاحنة لا تزال مـعنا وهي تجاهد في ثقل فـوق كتل الحشـائش غير المريحة في الخـبت وقد استفـدنا من حين لآخر للإسراع بتـقدمنا، برغم أن السير على الأقدام كان أفضل.

برز انحدار لطيف عند المرتفع الخفيف فيما يلي المنخفض وارتفاعه ٢٠٠ قدم فوق سطح البحر فوق سهل واسع بجوار السـفوح الجبلية. وصلنا فيه بالتوالي إلى الأعـمدة الحـدودية. هم أبو الخطاب (رقم ٢١٨)، وخزوة عـسلة[٣] (رقم ٢١٧)

(١) قوبة الحدودية: - هكذا دونهـا فيلبي وذكرتها بعض المراجع التي تحـدثت عن الحدود السعودية اليـمانية، ولكن كثيراً من السكان المحليين ينطقونها (القوباء) وآخرين ينطقونها (القوبة)، ولهذا سوف نستخدم كلمة (القوباء). (ابن جريس).

(٢) المراويد: هذا ما ذكره فيلبي مع أن الاسم الصحيح في بعض المراجع والوثائق هو (كتف المراويد)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص٤١٨ (ابن جريس).

(٣) خزوة عسلة: هذا مـا دونه فيلبي مع إن الاسم الصحيح هو (خـزنة عسلة)، انظر: آل زلفة، **عسـير في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٨٣ (ابن جريس).

وتقع هذه على الحافة البعيدة لحوض ضحل جداً يعترضه خطًّا صرف رمليان يجريان شمالاً وجنوباً. يخترق الطريق من حرض إلى تعشر (صامطة) الحدود قريباً من هذه العلامة الحدودية، والتي بالكاد ترى وذلك لأنها تتكون من عدد ستة أحجار صغيرة بجوار جذع شجرة ميت وساقط. أعطت لجنة الحدود هذه الأراضي الموحشة بعداً واسعاً وتركت الأمر للقرويين المحليين والبدو لتعليمها بأي أسلوب يرغبون فيه حسب تقاليدهم. كنا لا نزال فوق الشريط الذي يفصل بني حُمدّ عن المغفلي، غير أننا أرسلنا رسلاً لتحذير التنابكة (بني مروان) وعناصر الأشراف، الذين يتقاسمون معهم القسم التالي من الأرض السعودية على امتداد الحدود. جلبت لنا المياه، في هذه الأثناء، من قرية مجاورة في جرار فخارية ضخمة تشبه القرع تحملها الجمال. يبدو أنه لا توجد قرى على الجانب اليمني للحدود، لم يثر ظهور سيارة (موتور) غير المتوقع أي صدى اهتمام به أو فضول على الجانب الآخر.

وصلنا سريعاً إلى مجرى الحوسية[١] المليء بأشجار المرخ وعبرناه، وهو أول رافد لنظام تعشر يواجهنا. ينحدر بالقرب من وادي حرض، على اتجاه ناحية الشمال أكثر لنتوء التلال حول قرية حرض. ويقف قليلاً إلى الخلف منها حجر مربع جيد، ارتفاعه قدم، يمثل العمود الحدوي (رقم ٢١٦) الذي يطلق عليه اسم كدف[٢] أم خوبة[٣]. لقد تم حمله بالفعل كل الطريق من بئر في مجرى تعشر

(١) مجرى الحوسية: يطلق عليه أيضاً اسم (مفجر الحوسية). (ابن جريس).

(٢) كدف هذا ما ذكره فيلبي مع أن بعض السكان المحليين ينطقونها (كتف). (ابن جريس).

(٣) أم خوبه أو أمخوبة هكذا ينطقها ويكتبها بعض السكان المحليين، في حين أن البعض الآخر ينطقها (الخوبة)، وجميع الألفاظ وطريقة نطقها سليمة. (ابن جريس).

ليعلم موقع اللقاء لثلاثة أقسام قبلية هي: بنو حمد إلى الشمال والمغفلي وبنو حدَّاد (التابعين لبني مروان) على الجانب اليمني. اشتق الاسم من منخفض على مسافة (٥٠٠) ياردة ناحية الشمال الغربي، والذي يحتوي على أيكة مرخ وشجيرات أخرى تتضاد بغرابة مع السهل الكئيب ذي الحشائش الجافة.

كان العمود الحدودي التالي مدهشاً أكثر من الذي سبقه، كان عبارة عن حجر رملي كبير مستدير، أشبه ما يكون بالقنبلة، وبجواره قطعة صغيرة من المادة نفسها، لا بد أن تكون هذه قد تم جلبها من موقع ترسب قريب للحجر الرملي، والذي تبرز بعض أجزاء منه من حين لآخر فوق المنطقة التي في معظمها من تركيب بركاني. كان هذا أيضاً موقع لقاء ثلاثي حيث تتصل قبيلة الجعادرة -ربما كانوا أيضاً بني مروان- مع بني حداد على الجانب اليمني لمواجهة بني حمد. يقف عمود خرشة الحوسية[1] (رقم ٢١٥) فوق سهل لطيف ذي شجيرات ويحمل جزء كبير منه محصولاً جيداً للذرة (الدخن الكبير) وينتمي إلى قرية الخوجرة (بني حُمّد) التي تقع على مسافة إلى البعيد ناحية الشمال.

واصلنا سيرنا فوق السهل نبحث عن العمود الحدودي التالي، وتوقفنا مؤقتاً عند عدد تسعة حجارة مبعثرة يصعب وصفها ولقد انتابني الخجل، حينما تردد مرشدي للتعرف عليها هدفاً لبحثنا، ولذلك تحركوا يبحثون عن مرشح آخر لهذا الشرف، بينما جلست أستغرب إلى متى ستستمر هذه اللعبة. كأن الأمر كمن يبحث عن المسامير في حقل تبن، تمكنوا من العثور على الهدف على بعد (٣٠٠)

---

(١) خرشة الحوسية: كتبها ونطقها فيلبي كالتالي (حرشة الحوسية) والاسم الصحيح هو ما دوناه. (ابن جريس).

باردة على جانب الطريق الرئيسي الذي يقود من حرض عبر صامطة إلى (أبو عريش وصبيا) كان بلا شك طريقاً سريعاً من أيام الإدريسي. يطلق على العمود الحدودي هذا الاسم نفسه الذي أطلق على العمود السابق، وهو خرشة الحوسية (رقم ٢١٤) وكان يتألف من مجموعة حجارة مبعثرة فوق كتلة حشائش نبت من بينها نبات الطرفاء. لابد وأن تكون الأمطار قد هطلت هنا وذلك لأن حشيشة الثمام انتجت أفرعاً خضراء جديدة بينما تناثرت أعواد من الصبار الصحراوي والتي تبدو وكأنها ميتة أكثر منها حية.

وصلنا الآن إلى نهاية أرض بني حُمّد وجلسنا بصبر ننتظر قدوم ممثلي قبيلة التنابكة الذين تأخروا حتى الآن. بدأت عاصفة رملية متوسطة تهب تدفعها الرياح الجنوبية الغربية لترفع من حماسنا، غير أننا لم ننتظر طويلاً، إلاّ أن الشخص الذي وصل أولاً لم يكن شيخ القبيلة. كان زائرنا هو الشريف محمد بن حمد الخلاص رئيس أشراف وعلان، وهي قرية في أعلى تعشر تقارن من حيث الحجم والأهمية مع صامطة. كان مظهره رائعاً في ملابس عظيمة ورحب بنا إلى أرضه بكل سخاء. لم يعد هؤلاء البقايا من النبلاء القدماء يستمتعون بالثراء والمكانة التي كانت لديهم في الماضي، وأصبحوا في معظم الأحوال فقراء سادة ومزارعين يلتصقون بشراسة فوق أرضهم غير المضيافة. كانت أخلاقهم غاية في الحسن ونبل تربيتهم يشع مع كل حركة.

كانت البلاد أمامنا كثيفة الأشجار بصورة أفضل مما قد رأينا منذ أن غادرنا الساحل، وقد مهدت لنا التربة الطينية قيادة سهلة للشاحنة بتتابع من فرجات بين مجموعات من أشجار الطلح (معظمها سمر) وقطف وبشام متناثر (بلسم) والذي يستخلص منه صمغ ذو رائحة حلوة معروف لدينا باسم بلسم مكة أو بلسم جليد.

لا يزال البشام واسع الانتشار في مكة وغيرها من مدن الحجاز كبخور ولبان يمضغ. وصلنا بعد خمس عشرة دقيقة من هذا التقدم الممتع، إلى منطقة صخرية مكسرة بالعديد من المجاري الصغيرة، ولما صعب على الشاحنة مواصلة السير، قررنا أن نعسكر في هذا الموقع لقضاء الليلة ونعيد ترتيب أسلوب مواصلاتنا. ستعود الشاحنة إلى جازان وستقابلنا مرة أخرى عند نهاية فحص الحدود الذي سيتم بكامله سيراً على الأقدام.

وصل إلى المعسكر قبل غروب الشمس شيخ قبيلة التنابكة واسمه حسن الفقيه، وقد وجهه صوت شاحنتنا من قرية المجروب في منطقة تعشر العليا خلف سلسلة سلال المنخفضة. كان رجلاً نحيلاً، متنسك المظهر، ثري اللبس ويبدو أنه يعرف الكثير عن البلاد أكثر من أي شخص آخر قابلناه من قبل. تمكنت عن طريقه من تخفيض نسبة تضارب أسماء المعالم الرئيسة للمنظر الطبيعي الريفي. والتي كنت أسجلها بصبر على مسؤولية مختلف المخبرين الذين ربما كانوا سعداء أن يقولوا لي مع السلامة بنفس الدرجة التي كنت أرغب أن أراهم يغادروننا. خذلني الشريف العظيم بذهابه لينام في منزله بعد تناول وجبة العشاء، غير أنه عاد في الصباح قبل الساعة الثامنة. واكتفيت ببعض الملاحظات الساخرة حول الكرم العربي. ظل حسن معنا، على أي حال، وقد استمتعت بحديثه وبرفقته.

يخدم هذا القسم من سهل تهامة، مثله مثل بقية بلاد عسير بالأسواق الأسبوعية في مواقع مختلفة وفي أيام مختلفة. تتمتع الخوبة[١]، وهي مركز إداري

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن منطقة الخوبة، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص١٧٨ ـ ١٧٩ . (ابن جريس).

للمنطقة، والتي كنت قد زرتها في وقت لاحق، بالفخر بموقعها وبسوق الخميس. تأتي في المقام الثاني حرض، في اليمن، بسوق الثلاثاء، بينما يكون سوق الأربعاء وسوق السبت بالتوالي في كل من الجما[١] تقع خلف تل خطوة على الجانب اليمني، وحيران، أيضاً في اليمن، ويكون سوق الأحد في المرتفعات الوسطى لوادي خُلَب أسفل الخوية وهو يكمل الحلقة التي تمد السكان في هذه الأرض بسوق في كل يوم من أيام الأسبوع. أمكننا رؤية وعلان على مسافة ثلاثة أميال ناحية الشمال، غير أننا لم نر مجروب بينما كانت هنالك قرى أخرى داخل مجال الرؤيا هي مكمبال (أو أمكمبال) وسكانها خليط مع بني مروان، وخلفة[٢] -قرية صغيرة مخلوطة- ومصفق وهي قرية صغيرة سكانها متنوعون على الجانب القريب من المجنة.

كانت دنيا الطيور مثيرة للاهتمام في هذه البلاد الكثيرة الغابات، مقابل كآبة السهل الصحراوي. كانت طيور الشادي الأورفيي متوافرة إلى جانب صنفين من الصرد والجشنة والقنابر النورفوكية. رأيت الزقزاق الاجتماعي أثناء النهار حول مجرى حوسية. كما كان طائر العجلة الحزين أو (أبو معول) أكثر الطيور المقيمة في هذه المنطقة، كما استمعت لصوت طائر الوقواق التهامي إلاَّ أنني لم أره إلى جانب طائر آخر كان نداؤه «كو – كو- كو» وربما كان صائد ذباب الجنة. برزت عقرب من الصباح تحت فراشي ولم يمض وقت طويل إلاَّ ونسمع ونرى أسراباً ضخمة من طيور القطاة تهبط عند البرك في وادي أبو صول أمامنا. طار أمامنا سرب من واحد وعشرين من طيور اللقلق برشاقة ونحن نقترب من هذا المجرى،

(١) الجما: تنطق أيضاً (أمجما)، وكلاهما صحيح. (ابن جريس).

(٢) خلفه: تسمى أيضاً (أمخلفه) أو (خلفة وعلان). (ابن جريس).

واختفت إلى البعـيد. كانت المسايل الصغيرة التي عـسكرنا بجوارها مغذيات لأول جدول من بين ثلاثة جداول لصرف أبو صول، والتي تتـحد فيما بعد لتكوّن وادي الملح[١] وهو رافـد لوادي تعشـر. يرتفع أبو صـول نفسـه إلى ارتفاع مـرتفعـات الخطوة، وهو معلم تَلّي لمجموعة حرض. كانت هنالك العديد من البرك المائية في بطنه الصخري المغطى بالرمل إلى أعلى وإلى أسفل منطقة عبورنا، ويعد هذا الموقع مكان شرب مستديم ويطلق عليه اسم الملح. توجد مجموعة أخرى من البرك على مسافة (٢٠٠) ياردة إلى أسفل تسمى مسـبح الكلبة بينما يقع على مساحة نصف ميل مع اتجاه أسفل الوادي المشرب الرئيس ويسمى محفور.

تقف مجموعـة صغيرة من الحجارة على جانـب الفرع الثاني من أبو صول، تدل على العـلامة الحدودية التـي تسمى أبو صول (رقـم ٢١٣). هذا المجرى أقل وضوحـاً من الأول، وما هو إلاً انطواء في الأرض الصـخرية التي يكسـوها غطاء نباتي غني بينه نبات الرنفة أصفر الأزهار والطلح العادية والقطف وأشجار العلب. توجد بالقرب من هذا المجـرى عشش قليلة مبنية من الأعواد لرعاة من قـبيلة قيس تحت ظلال أشجار ضـبر كثيـرة. بدت هذه البلاد الصخرية المتدحـرجة المكونه من البازلت والجرانيت والكوارتز وكأنها نهر جليدي يصب منحدراً من الأودية المختلفة الساقطة من التـلال. يجري وادي حرض -كـما قيل لـي- كنهر منساب يخـتفي ليظهر فوق السهل، غـير أنه لا توجد مياه جارية في الحـوسية ولا في أبو صول. كانت هنالك عـلامات لزراعة سـابقة في المنطقـة الأخيرة (أبو صـول) تعزى إلى

(١) وادي الملح: يلتقي شـمال الخوجرة مع وادي تعـشر. أما وادي أملح فيـصب في وادي الخمس، ووادي أملحي يصب في وادي الدحن، ومن الدحن إلى وادي خلب. (ابن جريس).

مزارعين من قبيلة قيس، وهي -بدون شك- ليست حديثة. يتبع شريط الحدود المجرى الأعلى لأبا صول الثاني إلى كومة دقيقة من حجارة صغيرة على الجانب الأيمن في وسط حقول ذات متاريس ويسمى أبو مشنى[١] (رقم ٢١٢). تنتمي هذه أيضاً إلى مزارعي قبيلة قيس وقد رأينا بعضا منهم في المنطقة المجاورة لنا، يرتدون خرقة قماش حول خصورهم وقبعة عريضة من القش تحميهم من الشمس. وصل رجل على ظهر حمار أثناء وجودنا في هذا المكان ومعه جرة ماء ضخمة، واجتمع رفاقي، ما عدا الشريف الذي لم يكن ظمئاً، حول الجرة يشربون دون أن يدعونني لأشاركهم وحينما علقت على هذا التصرف مع الشريف، أجابني بلهجة مرحة: «نحن بدو كما تعلم». أرسلوا على أي حال أحد الرجال على الفور ليحضر لي بعض الماء، وكافأته على ذلك بريال، على الرغم من أنني لم أكن أرغب في الشرب أصلاً.

وصلنا إلى موقع يرتفع فيه الطريق في حدة إلى أرض منخفضة عارية، ونحن لا نزال فوق المجرى الكثيف الأشجار، وقد تجرحت بجداول ضحلة صرفية تتلاقى في أبي صول. تسمى هذه الأرض السفلى الدنديفه[٢] وتحمل ما لا يقل عن أربعة أعمدة حدودية على الشريط الذي يتجه شرقاً إلى سفح التلال الحقيقية، التي تنحدر فجأة إلى العمود الرابع في طبقة بارزة تميل من جهة الشرق إلى الغرب على زاوية (٤٥) درجة.

---

(١) العمود الحدودي أبو مشني يطلق عليه أيضاً اسم (معمال أبو مشني)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٩ . (ابن جريس).

(٢) الدنديفه: أوردها فيلبي (دنادف) والاسم الصحيح هو (الدنديفة). (ابن جريس)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٩ . (ابن جريس).

كان ارتفاعنا عند العمود الحدودي الأول (رقم ٢١١) حوالي (٣٥٠) قدماً وتمكنا من رؤية قرية حسم اليمنية إلى الجنوب والتي يتكون سكانها من جزأين أحدهما من حرض والآخر من قيس من الجانب السعودي. كان العمود الحدودي الثاني (رقم ٢١٠) على ارتفاع (٥٠) قدماً، في خلفية أشجار الضبر يتخللها شجر السلم والسمر على مسافة (١٠٠) ياردة إلى الشرق من الممر الذي يقبل من ناحية حرض عبر حسم ويمر بطريق المجروب إلى الخوبة. كانت أشجار البشام في وفرة وتمد السكان المحليين بالمسواك. بدا لي الناس هنا وهم بائسون العديد منهم يكاد يكون أعمى بأمراض عيون مختلفة، وكلهم مريض، وكلهم آسف، ولهم اعتراض متأصل لأي ضرب من الإجهاد الجسدي أو الإرهاق. كانت دهشتهم مسلية حينما أخرجت الترمس وقدمت لهم أكواباً من الشاي الساخن. كانت العلامة الحدودية الثالثة (رقم ٢٠٩) على ارتفاع (١٠٠) قدم أعلى من السابقة، وكانت عبارة عن كومة من حجارة تم جمعها من السهل وبالكاد يمكن التعرف عليها بأنها من صنع الإنسان. أمكننا من هذا الموقع المرتفع نسبياً، أن ننظر إلى الخلف إلى سلسلة عداية الدغاسة المجاورة لمنخفض القوباء غير أن العلامة الرابعة الدنديفة (رقم ٢٠٨) كان أعلى أكثر، حوالي (٥٥٠) قدماً فوق سطح البحر. كانت تقريباً عند أسفل التلال، وذات حدود واضحة مع السهل، وتجري بالفعل شمالاً وجنوباً في هذا القطاع لمسافة (٥٠) ميلاً.

كان العمود التالي واسمه الدويحي (رقم ٢٠٧) على الارتفاع نفسه كما كان سابقه إلاَّ أنه يقف على العرن الفعلي لسلسلة بنر التي منها كان هنالك هبوط خفيف إلى العلامة الحدودية التالية واسمها امعاين[1] (رقم ٢٠٦) التي تقف على

(١) أمعاين: هكذا ينطقها السكان المحليون، مع أنها تلفظ أيضاً (المعاين). (ابن جريس).

الشاطئ الأيسر لوادي تعشر على ارتفاع (٤٠٠) قدمٍ فوق سطح البحر. قامت لجنة الحدود بزيارة الموقعين وأقرت موقع العمود، وكان سليمان الحمد، حفيد وزير المالية، أحد أعضائها وقد خدم المملكة العربية السعودية، بينما كان ممثل اليمن يسمى عبدالمطلب. لم يكن الخط المستقيم الموصل بين العمودين هو الحدود، والتي -حسب ما تم الاتفاق على ذلك - تعد ممتدة من الدويحي حتى امتداد سنام سلسلة هجرة النمر[1] وهي الامتداد الشمالي لبنر، ثم إلى أسفل إلى الجانب الأيسر لوادي تعشر في أمعاين. عاد عضوا اللجنة، بعد أن أشرفا على حل هذه المعضلة دون أن يحسا بإرهاق التسلق لارتفاع (٨٠٠) قدم فوق الانحدار الشديد، إلى ضيافة وكرم الشريف في وعلان، وفي الصباح عن طريق المجروب، قاما بزيارة أمعاين. طفنا حول السلسلة بعد رصد موقع المجروب، الذي بدأ ظاهراً للعيان لأول مرة على الجانب الأيمن لتعشر الذي يفصل أرض الأشراف عن أرض التنابكة. يقع على يساره في نفس المنطقة العامة، قرية أبو الضبرة وبها سكان قليلون من قبيلة قيس، والتي كانت تخضع لليمن قبل تثبيت الحدود، غير أنها الآن حولت ولاءها.

أشرت إلى الشريف، قبل مغادرتنا الدويحي بأن الوقت قد دخل لصلاة الظهر، وأفادني أنه ليس من الشرع أن يؤدي المرء الصلاة دون وضوء إذا كان الماء متوافراً. كنت أعتقد أن رغبته الحقيقية هي الوصول إلى حماية وكرم قرية أمعاين بأسرع فرصة، وذلك لأن أقرب موقع للماء (وهو وادي تعشر) يقع على بعد ساعة ونصف الساعة إلى الأمام من موقعنا. استغربت أن أجد إجابته غير مستساغة لدى

---

(١) هجرة النمر: يطلق عليها اليوم اسم (جبال النار). (ابن جريس).

بقية المجموعة، بما في ذلك حسن الفقيه، وذلك لأنهم اصطفوا جميعاً للتيمم بالرمل وأداء الصلاة قبل مغادرة الموقع. لم يشترك معنا الشريف في هذا.

تنشق سلسلة هجرة النمر إلى نصف طولها بممر جميل يسمى الغاوية والذي يدخله رافد مسيل لتعشر. كانت الزاوية المحصورة بينهما أرضاً زراعية كثيفة من أسفل السلسلة إلى أعلى السلسلتين الخارجتين وهما منود وصلال واللتان تبدوان على بعد وكأنهما من حجر رملي. تحمل معظم الحقول ذات المتاريس بقايا حصاد المحصول السابق، إلاّ أنه توجد مساحات للدخن الأخضر حول قرية الغاوية الصغيرة. هبت رياح جنوبية متوسطة القوة عند الظهيرة وقد حجب الضباب العلامات الأرضية البعيدة أثناء ما كنا نقترب من معسكرنا في أمعاين. كانت هذه القرية على الجانب الأيمن للوادي بالقرب من قرية أصغر تحمل الاسم نفسه والتي تقع على الجانب السعودي قريباً من خط الحدود الذي يخترق المعسكر.

أمضيت ساعة جميلة بجوار عمود أمعاين الحدودي وذلك قبل أن نعبر الوادي، وقبل الغروب كنت خلالها أقوم بتسجيل ملاحظاتي حول المحيط المجاور. كانت العلامة الحدودية مخيبة للآمال، كالعادة، إلاّ أنها وقفت بجوار عينة ممتازة لشجرة العدن وردية الأزهار، التي يضيق ساقها عند قاعدته الدرنية إلى رأس رفيع يرتفع إلى (١٠) أو (١٢) قدماً، يتم نقش الساق لاستخراج صمغها العطري. تنحدر صخرة شبه شستية رهيبة عارية إلى أسفل وبلا مقدمات من نهاية هجرة النمر إلى موقع يدخل فيه الوادي إلى سهل تهامة.

يأتي هذا الوادي في اتساع من ناحية الشمال الشرقي وفي هذا الاتجاه يكون المجرى مرئياً مسافة ميل واحد.

كان الوادي محاطاً من الجانبين بصخور عالية وتكوِّن تلك التي تقع على الجانب الأيمن جزءاً من التل الشديد الانحدار الذي يسمى مربح أمعاين، والتي إلى جانب ربوة مماثلة تسمى مربح الشام (إلى الشمال) وعلى بعد (٥٠٠) ياردة إلى الشمال منها، وهو موقع معترف به كمكان تعسكر فيه القرود. لقد رأيناها هذا اليوم، في أعداد لا بأس بها، وذلك لأول مرة منذ أن غادرنا الساحل، إنها تقضي الليالي في هذه التلال في تجمعات كبيرة، وتقضي النهار ترعى أوراق الغابات في المواقع الخلفية المنعزلة إلى ما وراء الطرف الخارجي للسفوح الجبلية، أو أحياناً، بين محاصيل القرية.

ينحدر الوادي، خارج مجال رؤيتنا المحدودة إلى أعلى، بين تلي جحير (الجانب الأيمن) ومبعوثة. يوجد جدول جارٍ أو غيل فوق ذلك الموقع، -كما جاء في الروايات المحلية- وعلى امتداد المجرى الذي نراه على جانب الحدود، وهو ينساب بين جانبين تكسوهما الشجيرات ويقال إن انسياب الماء مستديم، على أي حال، حتى وعلان على جانبه الأيسر وقليلاً بعد ذلك إلى ما يليها. قدرت عرض هذا الجدول من موقعي على الحدود، ويجري الجدول الآن أسفل الجانب الأيمن فوق مجرى حصوي. مسافة (١٠٠) ياردة وعمق ستة أقدام في بطن الوادي الرئيس. وتوجد أعلى هذا الموقع في انبعاج كبير للجانب الأيسر حيث يدور المجرى في المنحنى، بركتان بارزتان يطلق عليهما اسم (حجلة أمعاين) ومنهما اشتق اسم العمود الحدودي واسم القرية الصغيرة. لقد أضافتا جاذبية للمنظر كما يرى من هذا الموقع بحلقات مياههما العميقة ذات اللون الأزرق التي يبلغ عمقها (٢٠) قدماً. استمتعت عند الغروب بحمام ممتع في إحدى البركتين وقد وجدت الماء دافئاً بسبب أشعة شمس النهار.

تنحدر الصخور هنا على زاوية (٤٥) درجة فوق طبقات محطمة وملتوية، بينما تكسر جزء كبير من الصخور التي تربط بين جبلي القرود وجرفت السيول جزءاً منهما. كانت تنتشر كِسَرٌ من الصخور في المجرى، بينما توجد على جانبيه، وفوق المنحنى، أكوام كبيرة من صخور وحصى ربما كانت بقايا سد قديم في الأيام السعيدة الخوالي حينما كان عرب هذه المناطق الجبلية مهندسي مياه عظام، وقد وظفوا مهارتهم لري مساحات واسعة من الأرض التي هي الآن مهجورة وقد غطتها الرمال. لقد ذكرت سابقاً أن وادي حرض مجرى جارٍ داخل حواجزه الجبلية، غير أنه جاف جداً، عدا أيام السيول، على امتداد مجراه عبر السهل. ينطبق الأمر نفسه على تعشر، وهو أقصى الأودية السعودية ناحية الجنوب. تصل مياهه إلى البحر فقط في أزمان يكون فيها السيل عظيماً، ويفيض في مثل هذه الحالة الوادي فوق مساحات معتبرة من السهل ويخصبها كلها، والتي يزرع القرويون عليها الدخن ومساحات من القطن. تنتج الأجزاء العليا والوسطى محاصيل جيدة حتى في السنوات ذات السيل العادي، علماً بأن كل الماء يتم استغلاله في قضاء حوائجهم وبالتعامل غير الماهر أيضاً، وذلك قبل أن تصل إلى القطاع الساحلي الذي تبرز مياهه تحت السطحية في مواجهة البحر لتكون المسطحات الملحية التي ورد ذكرها. لن يكون الأمر صعباً بالتأكيد عدا تمويله، لإعادة تشغيل السدود القديمة التي حافظت ووزعت الماء على أسس علمية للصالح العام الذي يعود على البلاد التي تقع إلى أسفل.

ينطبق هذا على العديد من الأودية التي سنزورها في وقت لاحق، وكذلك ينطبق الأمر على مجارٍ مثل وادي جازان، ووادي ضمد، ووادي بيش[١] وربما

(١) وادي جازان، وضمد، وبيش تعد من أهم الأودية في منطقة جازان، ومنابعها تأتي من منحدرات جبال السروات الغربية وتتجه غرباً حتى تصب في البحر الأحمر. (ابن جريس).

أودية أخرى، أعتقد أن مساحة قابلة للزراعة وبها خصوبة كامنة، وفي حجم الدلتا المصرية تنتظر رؤوس الأموال العربية ومهندسي الري في المستقبل. ربما تكون ثروة النفط في شرق الجزيرة العربية هي الوسيلة لإمداد الساحل الغربي بالمياه التي تذهب هباءً بسبب عدم الاستفادة منها حينما تأتي بها السيول. لقد أزعجتني، -بصفة عامة-، حالة الفقر التي يعاني منها الناس في هذه الأجزاء، ويحدوني الأمل بالإمكانيات العظيمة التي ستضع حداً لذلك.

رأيت زوجاً من طيور (أبو مطرقة) أثناء تجوالي في المجرى، وكانت تعشعش هناك، حيث كان أحد الزوجين جالساً فوق العشة الضخمة، وهي مبنية في مكان بارز على الشجرة. كما كانت تحلق طيور سنبيرد وادي النيل في أزياء زفاف رائعة بينما هبط سرب من حمام الصخور إلى الماء قبل حلول الظلام. رأيت وسمعت طائر العجلة، غير أن هذا أصبح الآن شائعاً، ولم ينقص إعجابي به منقاره الكبير المقوّس الذي يقف عند نهاية جسم دقيق نسبياً، ولم ينقص إعجابي بطيرانه الصامت وتشكيه المتوجع. كانت البلابل وطيور البلاكستارت متوافرة أيضاً في الوادي الكثيف الأشجار بجوار الأثل والأراك والسمر ذات الأزهار البيضاء. كما رأيت زوجاً من البط فوق الماء واستمعت إلى أصوات العديد من الدجاج الحبشي في السفوح الجبلية. كنت استحم في الصباح الباكر في واحدة من البرك حينما فوجئت بصوت كأنه أمطار غزيرة. نظرت إلى أعلى لأكتشف أنه كان يصدر من وقع أقدام مئات الماعز وهي تمشي فوق الحصى لتصل إلى موقع الشرب.

كانت درجة الحرارة في الليل كما في الليلة السابقة (أدناها كان ٦٤ درجة)، وكان الجو صافياً في الصباح مما سمح بإلقاء نظرة على الجبال العالية. وأيضاً مما

يدهش له، رؤية براكين قمتين بالقرب من (أبو عريش) حوالي (٢٠) ميلاً من هنا. وقف بناء حسن الفقيه بارزاً بين منازل المجروب[١] على بعد يقل قليلاً عن الميل الواحد. ويعتقد أن بني زين وبني عواجي التابعين لقريتنا، والسرداح الرباح، التي تقع أمامنا وقرى أخرى صغيرة بجوار الحدود، ما هي إلاَّ أقسام لقبيلة التنابكة. تمتد الحدود أمامنا ناحية الشمال وتطوف بالسفوح الجبلية، إلاَّ أننا نستطيع رؤية قمم كل من النقارة[٢] وجحفان (داخل الأرض سعودية) وبينهما تجري الحدود ناحية الشرق فوق مجرى المغيالة[٣]. كان كل ما أمكننا رؤيته من الجانب الأيسر لوادي تعشر، بما في ذلك الغاوية ووعلان تنتمي إلى الأشراف. بدأنا السير على الأقدام فوق مساحة صغيرة من الجذامة تنتمي إلى قريتنا، وسرعان ما وصلنا إلى العلامة الحدودية على الطرف الغربي لتل القرود الشمالي واسمه مرباح الشام (رقم ٢٠٥). كان عبارة عن كومة كبيرة وكسارة لصخور ملقاة بإهمال وبالكاد يمكن تميزها بأنها من عمل الإنسان.

أخذ الزمام على الجانب اليمني قبيلة بني السيل من قبيلة بني حدَّاد، بينما ظل التنابكة في موقعهم غرب الشريط، والذي فوقه وبعد مسيرة (٢٠) دقيقة أو أقل وصلنا إلى بلكات كبيرة من الصخر موضوعة حول تجويف داخلي عند طرف ممر ضيق حجري بين السفوح الصخرية المنخفضة. أخذ هذا الممر اسمه من السلسلة - ضلع المرباح أو باختصار ضلع (رقم ٢٠٤). قُدِّم إليَّ حمار قزم في

---

(١) المجروب: ينطق عند السكان المحليين (أمجروب). (ابن جريس).

(٢) النقارة: يطلق عليها اليوم اسم (جبل النقارة). (ابن جريس).

(٣) المغيالة: ينطقها السكان المحليون باسم (أمغيالة) واللفظ صحيح للاسمين، وسوف نستخدم كلمة (المغيالة) في الصفحات التالية. (ابن جريس).

هذا الموقع ليأخذني فوق طريق على أرض ميتة، منخفضة، صخرية ينمو فوقها نبات خفيف شحيح وشجيرات القطن عديمة الورق. امتدت حقول الجذامة التابعة لمجروب إلى حافة الصخور ولا يبدو عليها أنها مزدهرة. وصلنا على فترات قصيرة إلى علامتين حدوديتين باسم ضلع (رقم ٢٠٣ ورقم ٢٠٢) وتوقفنا قليلاً عند كل منهما نستمتع بالمنظر. رأيت حسناً وهو يتقدم في تلصص ليضيف حجارة قليلة من القفار المجاور ليجعل الحجارة الثلاثة لعموده الحدودي تبدو بشكل أفضل، أما غير ذلك، فإن النقطة المهمة هنا هي قرية حجاج الصغيرة على بعد ميلين وهي ذات بناء جميل يسود على عشش الوتل وعشش الأعواد.

واصلنا سيرنا فوق البلاد الكئيبة على امتداد قاعدة موجة الصخر الغاطسة ووصلنا إلى عمود ضلع رابع (رقم ٢٠١) ووصلنا فيما يليه إلى عمود حدودي له خلفيات تاريخية. كان اسمه مقتلة ناصر (رقم ٢٠٠) وواضح أنه كومة حجارة قبلية قديمة تم تضمينه داخل الحدود الرسمية ويقف تذكاراً للأيام الخالية لمقتل رجل يسمى ناصر من قبيلة بني حُمّد، وقد قتله رجال قبيلة بني مروان. يسمى هذا العمود وكذلك العمود التالي بالاسم نفسه (رقم ١٩٩) ويقفان فوق أرض مناسبة، كان أولهما في وسطها، وكان الثاني عند الطرف الشمالي لسهل كثير الشجر، خاصة أشجارالسمر ذات الأزهار البيضاء، إلى جانب عدد كبير من أشجار العدن. كانت هنالك بعض حقول دخن على الأطراف الغربية لهذا السهل تتبع لأهل المجروب وسرداح الرباح، بينما بدت بالكاد وعلى بعد ملامح قرية القفل الكبيرة على الشاطئ الأيسر لوادي لية[١] وهو رافد مهم لوادي خلب.

---

(١) وادي لية في منطقة جازان يختلف عن وادي لية القريب من مدينة الطائف ناحية الجنوب. ووادي لية جازان يطلق عليه أحياناً وادي سامطة. (ابن جريس).

عبرنا بعد قليـل فيما يلي هذا السهل مجرى وادي المنجـارة الصعب الضيق، الذي يهبط من سفوح جحير ويتصل في نهاية الأمر مع وادي تعشر أعلى صامطة. وصلنا فيمـا يلي جانبه الأيمن إلى عمود المنجارة الحـدودي (رقم ١٩٨) وهو كومة من حجـارة كبـيرة. كنا نصعـد تدريجيـاً دون أن نحس بذلك، ونحن الآن على ارتفاع (٦٠٠) قدم فوق سطح البحر. كـان الوقت ظهراً وحاراً تحت الشمس وقد أحضـروا لنا الماء من قرية عواجي التـابعة لسرداح الرباح، وقد سـرني أن أجدهم هذه المرة يقدمون لي أول كـوب منها. يتصل مسيل من سفـوح شقدام مع المنجارة على مسافة نصف ميل تجاه أعلى الوادي في أرض اليـمن تحت سلسلة عشة سعيد التي تمتد عبر الحدود، التي تجري إلى مضيق منخفض في وسطها وبه علامة حدود توضيحية (رقم ١٩٧).

لم يكن حسن الفـقيه -الذي كـان نشطاً في حرب عـام ١٩٣٤م يحارب مع قوات الإمام في السفوح الجبلية حول عنم، على مسـافة عشرة أميال شرق موقعنا الحالي عند المضيق- سعيداً فيما يخص خط الحدود في هذا القطاع من بنر شمالاً. كـان رأيه أن يعد الخط من أبي صـول إلى الطرف الجنوبي لسـلسلة بنر ومن هناك على امتداد سنام سلسلة السفوح الجبليـة الخارجية حتى هذا المضيق، وألمح إلى أن اللجنة الحدودية بشقيها قد تناولت الرشاوي مـن القبائل اليمنية لتضع الحدود قليلاً ناحية الغرب. لم يكن الأمر يهم كثيراً إلاّ أن لحسن أحزانه الشخصية. كان يمتلك عقاراً في وادي تعـشر تجاه أعلى الوادي بالنسبة للحدود، ولكي ينهـي علاقته في اليمن فـقد باع هذه الأرض. تقع قرية المنجارة الـصغيرة التي يمتلكهـا بني الجراح التابعون للمـروانيين، أسفل من موقعنا في الوادي عـلى بعد (٥٠٠) ياردة وتبدو أنهـا في الجانب اليـمني، بينما تقع قـرية حداد السـعودية (أو رزم السـودة) التي

يسكنها بني حدّاد وتحتوي على بناء واحد بين عشش الوتل، قليلاً على يسارنا على الرافد الصغير الأول والذي يسمى وادي المغيالة.

نقلتنا الحمير الآن إلى السفح العكسي لعشة سعيد إلى حيث العمود الحدودي عطيانة (رقم ١٩٦) وهو كـومة صغيـرة من حجارة على قـاعدة مربعة من صـخر طبيعي فـوق مساحة من أرض صخـرية تزينها العديد من أشجـار العدن التي يبدو أنها تعـيش على أدنى درجات من التـربة. قوبلنا بعـد خمس دقـائق أخرى، عند نهاية حقول زراعتهم بوفد من قبيلة الحكامـية يرأسه شيخهم محمد حسن ضكام. أخذنا طريقنا بتوجيه منهم عبر المتاريس والحفر داخل حقولهم التي يسمونها عطيانة على الرغم من أنهـا تنتمي إلى قرية (أبو الرديف) التـابعة للحكامـية على مسـافة (٥٠٠) ياردة إلى أسفـل المنخفض الضحل الـذي يضم كل القرية. يخـترق خط الحدود، كما قد رأينا حينما وصلنا إلى عمـود التذكار غير الطبيعي الحدودي الذي يسمى فشـالية (رقم ١٩٥) الذي يطل على القرية، المزارع دون كياسة ويتـرك ثلثها داخل الجانب اليمني، وهو امتداد طولي بحوالي (٥٠٠) ياردة إلى قدم تل المحمر الذي ينتج عنه المنخـفض. على الرغم من هذا الوضع الغـريب لشريـط الحدود، والذي كان يمكن رسمه ليتضمن كل مسـاحة القرية في مملكة واحدة، فإن الحصافة الدولية قد تدخلـت لتصدر حكمها بأن الحـقول التي على الجانب اليمني سـتعامل بكل الطرق خاصـة فيما يختص بـالضرائب كأنما هي واقعـة داخل أراض سعودية مثلها مـثل غيرها. ويمر مسـيل (أبو جريدة) الذي ينحدر من سفـوح المحمر، إلى أسفل مباشرة فيما يلي العمود الحدودي إلى ري الحقول الأبعد إلى أسفل.

تقع القرية الصغيـرة ذات البناءين، أحدهما مربع والآخر مستديـر، وعششها المنتشرة على جانبـه الأيمن، إلى مسافة فوق موقع التقـائه مع وادي المغيالة. كانت

قرية تبدو مزدهرة مقارنة بمعظم القرى التي كنا قد رأيناها وترتفع إلى (٨٠٠) قدم فوق سطح البحر.

يقف العمود الحدودي التالي واسمه عشة زبادي (رقم ١٩٤) على السلسلة البعيدة للمنخفض وتطل على بعض الحقول الخارجية التابعة لأبي الرديف. أمكننا رؤية الموقع الذي يخرج منه وادي المغيالة، أمامنا، من السفوح الجبلية ليبدأ جريه عبر السهل، والذي يتصل فيه مع وادي تعشر عند قرية مجر أسفل صامطة. أفصح حسن الذي سئم من المسيرة وتكاسل عن غروره ليخبرني أن مجر على بعد مسافة ميل واحد، علماً بأن موقع لقاء المغيالة وتعشر يجب أن يكون أبعد من ذلك. نستطيع -حقيقة- رؤية قرية أم السلام[1]، على بعد تلك المسافة وأم أمعود في منتصف الطريق إليها، وهما على مجرى أبو النورة[2]، الذي يتصل مع أبي جريدة في طريقه إلى المغيالة. يبدو أن الحكامية[3] من أصل بني مروان وقد لاحظت أنهم وآل مخلوطة في هذه الأنحاء يشبهون البدو في حضرموت باستبدال الكلام بالإشارة. لم أستطع التعود على هذه العادة، برغم أنه ليست هنالك وقاحة متضمنة. لقد وجدتها على أي حال، مزعجة جداً في حالة محمد، شيخ الحكامية، الذي كان شاباً غير جذاب يتعب قبل أوانه. ساورني الإحساس أنه لربما أضاف العجرفة لمآخذه الأخرى إذا تجرأ، وقد أمتعني بصفة خاصة أن أحفظه إلى جانبي كل الوقت خلال تلك المسيرة الكئيبة.

---

(١) أم السلام: تنطق أيضاً عند السكان المحليين باسم (أم أمسلام). (ابن جريس).

(٢) أبو النورة: ذكر فيلبي هذا المصطلح باسم (أبامنورة) وهذا لفظ يستخدمه السكان المحليون، والأفضل استخدام كلمة (أبو النورة). (ابن جريس).

(٣) الحكامية: قبيلة معروفة سكنت أرض المخلاف منذ عهود قديمة، وظهر منهم رجال مشاهير في السياسة والعلم والفكر والأدب. (ابن جريس).

بدأ حسن يضعف تحت الضغط، وقد اعترف لي خلال الظهيرة بأنه لم يحس بمثل هذا الإرهاق طيلة حياته كما حدث خلال اليومين الآخرين. كانت معلوماته الجغرافية -على أي حال- مفيدة لي، وقد تجاهلت استعراضه للكسل ومحاولاته الأخرى ليكون فظاً وقد تضخمت هذه بهيئة فمه المزموم الذي يوحي بالميل للبصاق. أعطيته عشرة ريالات هدية حينما افترقنا في المغيالة صباح اليوم التالي. وقد قبلها مني -لدهشتي- علماً بأنه قد رفض بحزم أن أقوم بدفع ثمن الشاة التي أحضرها لنا لوجبة العشاء تلك الليلة. أبرز هذا الغريزة الحقيقة للكرم، شريطة ألاّ تتعدى حدودها، وقد أعطيت ثمن الشاة على أنه هدية للخادم الذي أحضرها لنا. كان سعرها ريالين أو ثلاثة بعملتنا!.

كانت الساعة الثالثة مساءً حينما غادرنا عشة زبادي، وقد هب علينا نسيم منعش لطيف ونحن نعبر مجرى (أبو النورة) لنصل إلى العمود الحدودي أمطعس (رقم ١٩٣)، وقد اكتسب اسمه من قرية صغيرة بهذا الاسم على مسافة (٥٠٠) ياردة، تتبع قسم بني علي التابع للحكامية. كان العمود صغيراً غير أنه جيد البناء، على الرغم من أنه محاط بتلال منخفضة حجبت منظر المحيط المجاور عنا ما عدا عدداً قليلاً من حقول القرية، لم تكن قد زرعت حديثاً. سرنا من هذا الموقع إلى قرية محجن في انطباق للتلال مع حقول مستوطنتها الصغيرة التي تسمى بني جراح (مروان). يقف بجواره عمود آخر صغير، من مخلفات حدود قبلية قديمة، إلاّ أنه لم يكن ضمن علامات الحدود الرسمية.

حاول العديد من رفاقي، عند هذا الموقع التهرب، مفضلين الراحة في القرية على السير الصعب للوصول إلى عمود محجن الحدودي الرسمي، على مسافة

دون عشر دقائق، غير أنني أصررت على أن يواصل الجـميع المسيرة معي. يخترق خط الحدود مرة أخرى منـخفضاً تمتد في أعلاه مزارع مـحجن إلى حوالي (٥٠٠) ياردة داخل اليمن - غير أن هذه المعضلة قد تم التـغلب عليها بالاتفاق بمعاملة هذا الجانب في كل الأغراض العملية كأنه جـزء من المملكة العربية السعودية. لاحظت أن الحقول التي بدأ بعضها وهو أخضر بمحصول الدخن الجديد، تنتشر فيها الأكوام الحجرية، ليس كمواقع حدودية، بل كفزّاعـات لطرد القرود المتلصصة. كان عمود محجن (الرقم ١٩٢) من تسلسل الحدود ويقع تجاه الشرق لعمود القرية. هبطنا من السلسلة المنخفضة فيما يليه، ناحيـة الشمال، لنعبر وادي القماري، وهو رافد آخر للمغيالة، ينـبع في الأراضي العالية حول النقارة، ووصلنا إلى عمـود عشة الكيال (رقم ١٩١) على الجـانب الأيسر لمجـرى آخر هو وادي ضـبب، ينبع من المنطقـة نفـسهـا. بدت التلال الحـدودية التي تنهض في خطوط كـفـافيـة دائرية هناك من السلاسل المنخفضة المتموجة على جانب السهل، وكأنها قطيع من الدلافين تغطس في بحر هائج.

اسـترحنا هـنا بعض الوقت لتناول بعض المنعـشـات، وقدمت بـعض الخبـز للمجمـوعة، وذهب بعضهم إلى داخل حـقول الذرة وعاد ومعه أكـواز للذرة غير مستوية. كانوا يشوون هذه الرؤوس فـوق نيران أعواد الدخن القديمة، ثم يضربون الرأس على الصخر لاستخراج الحبـوب ويأكلونه نيئاً. تقع قريتا القلقل والمفجر[١] الصغيرتان، ومعهما مساحاتهما المزروعة الصغيرة، على بعد نصف ميل من موقعنا على امتداد ضبب الذي عبرناه الآن لنصعد السلسلة المنخفضة المتعارضة التي تسمى عشة السرير إلى حيث العمود الحدودي (رقم ١٩٠) عند طرفها الجنوبي الغربي.

---

(١) القلقل والمفجر: يطلق عليهما عند السكان المحليين لفظ (أمقلقل وأمفجر). (ابن جريس).

كان اسم العمود التالي هو دمنة السيد[١] (بثرة السيد)، ويقع على الجانب الآخر لمجرى السيد فيما يلي السلسلة، وبعد مسيرة على الأقدام مدة خمس دقائق وصلنا إلى موقع المعسكر على الجانب البعيد من وادي المغيالة نفسه عند موقع خروجه من السفوح الجبلية. استقر حرسنا المتقدم فوق قطعة نظيفة من أرض مسطحة بجوار العمود الحدودي (رقم ١٨٨) على مسافة (٥٠٠) ياردة اتجاه أعلى الوادي من أمنشم[٢] وهي قرية صغيرة تتبع بني حداد (مروان)، وسرعان ما بدأت أستكشف المحيط المجاور. كان كلا جانبي المجرى مغطى بأشجار السمر والضبر والعدن بكثافة إلى جانب نموات أخرى أصغر، وكان بطن الوادي معلماً بشريط طويل من برك صخرية متصلة مع بعضها بواسطة جدول منساب رفيع. كان ارتفاعنا هنا حوالي (٦٠٠) قدم فوق سطح البحر وكانت دنيا الطيور ثرية كما في وادي تعشر. أصبت بالرصاص طائر وقواق أثناء الليل.

كان يعشعش في أغصان كثيفة الورق لشجرة علب. كما تحصلت على درَّسة الصخور. وجدت إلى جانب هذين (أبو مطرقة) وهو يعشعش بينما كانت العجلة بالطبع متوافرة إلى جانب طيور أخرى منها البلابل والشادي الأورفين والبلاكستارت وصنفين من السنبيرد. يلبس أكثر الناس ثراء في هذه الأنحاء معطفاً صغيراً أسود (بلا قميص) فوق الجزء الأعلى من جسمهم إلى جانب الخرقة العادية فوق العورة. ويلبسون فوق رؤوسهم قلنسوة ضيقة من القش أحياناً تلف بعمامة.

(١) دمنة السيد: أطلق عليها فيلبي اسم (دمنة أمسيد) واستخدام اللفظين صحيح، ولكن سوف نستخدم لفظ (دمنة السيد) خلال الصفحات التالية. (ابن جريس).

(٢) أمنشم: لفظ سليم عند السكان المحليين، وهناك من يطلق على هذا المكان اسم (قرية النشم). (ابن جريس).

يكون وادي المغـيالة من هذا الموقع وإلى الشـرق حدود الدولة، بينمـا يفصل خط داخل الجانب السعـودي، ينطلق شمالاً من العمود الحدودي قـبيلة بني حداد تجاه الغـرب عن بني الحرث، في بلاد ذات سفـوح جبلية كثـيفة الأشجـار، كان السفـر منها متـعة، على الرغم من أن المسـيرة كانت أحـياناً مرهقـة، وذلك بعد مسيرتنا الكئـيبة على حافة السهل. لم يصل شيـوخ بني الحرث إلى المعسكر حتى منتـصف الليل، ولم نكن نحن في عـجلة من أمرنا لنبـدأ صبـاح اليوم التـالي. أخذت حماماً جـيداً في إحدى البرك ووجدتها مليئة بالسمك كـان بعضه بأحجام معـتبـرة. تنحدر صخـور الجوانب في طبـقات تميل على درجـة ٢٠، وكان بطن الوادي، وهو أيضاً من الصخر، ينحدر في مدرجات واضـحة أملستها حركة المياه المتواصلة. تكون سلسلة سرير الجانـب الأيسر للوادي، وتكشف عن وجه جلمود يرتفع إلى (٣٠٠) قدم، وينحني بعنف تجـاه الشمال مسافـة نصف ميل تجاه أعلى الوادي من معسكـرنا، على الرغم من أن الوادي يواصل مرة أخرى مجـراه شرقاً ويتلقى على جانبه الأيمن مسيلاً رافداً لينحدر من السفوح الغربية لجحفان.

وجدت تذكاراً صغيراً في منحنى المجـرى، لعله قبر وجيه محلي ويتكون من كتلتين كبيـرتين من صخر تفصلهما مـسافة خمس خطوات وارتفاعهمـا ستة أقدام وثلاثة أقدام ونصف القـدم. يملأ الفراغ بينهمـا صف مستـقيم من فتات صـخور صغيرة، بينما اتصل بهما من جهة الشمال خط مشابه إلاَّ أنه مقوس وكانت المسافة بين الخطين عند الوسط قـدمين أو أكثر بقليل. لم أسـتطع استنباط أي مـعلومات حول هذا الشكل، بالرجوع إلى مرشدي. وصلنا بالقرب منها حيث ينحني الوادي جهـة الشرق إلى صخـرة ارتفاعهـا (١٠٠) قدم من الطين السفـحي على الجانب

الأيمن، ثم إلى العمود الحدودي المسمى مير عليا[1] (رقم ١٨٧). اتسع الوادي من هذا الموقع وتسطح أثناء مغادرتنا للمركز الصلد الخارجي للسفوح الجبلية إلى الخلف، ودخلنا منطقة السفوح الجبلية نفسها، وهي أرض متدحرجة تكسوها غابة كثيفة خضراء وشجيرات وأشجار صغيرة. يدخل إلى هذا المثلث الواسع، وادي ثميرة من الغابة ناحية الشمال عند موقع يعلمه العمود الحدودي (رقم ١٨٦) والذي يسمى أم لبدة وعلى ما يبدو فإنه يعلم النهاية اتجاه أعلى الوادي لوادي المغيالة الجاري بالفعل. لم تكن النهاية مع اتجاه التيار، حسب علمي، أسفل كثيراً من قرية أمنشم الصغيرة، إلاَّ أن الجدول الجاري يعود للظهور على فترات في المجرى مع موقع التقائه مع تعشر.

واصلنا سيرنا فوق مجرى المغيالة، وقد تجمعت القرود من الجوانب من حولنا وهي تشفي غليلها على شجيرات الغابة التوتية الثمار، ووصلنا بعد (٢٠) دقيقة إلى العمود الحدودي جهر العبد (رقم ١٨٥)، على الجانب الأيمن داخل أجمة طلح كثيفة. تقابلنا هنا مع وفد شيوخ عواجي الذين كنا قد غادرنا أراضيهم وراءنا غير أنهم رأوا من الضرورة الاعتذار لنا حول فشلهم في الترحيب بنا أثناء مرورنا خلال أرضهم. كانوا متغيبين في الخوبة، حيث جمعهم ضابط المنطقة لمناقشة أمور محلية مع شخصية مهمة هو عبدالله بن الوزير، حاكم الحديدة وتهامة اليمن، والذي كما ورد من قبل، كان في زيارة في هذا الوقت لحاكم جازان فيما يتعلق

---

(١) مير عليا: هذا العمود الحدودي بين السعودية واليمن ذكره فيلبي باسم (منبر عليا)، مع أن بعض الوثائق والمراجع التي ذكرت الحدود بين السعودية واليمن ذكرته باسم (مير عليا)، وهذا ما سوف نستخدم في هذا الكتاب، انظر. القباع، المرجع السابق، ص ٤٢١ ، آل زلفه، **عسير في عهد الملك عبدالعزيز،** ص٢٨٧ . (ابن جريس).

بأمور منبثقة من المعاهدة. لقد رافقونا الآن إلى معسكرنا التالي وأخبروني أن تل جحفان، الذي تكشف صخوره الصلبة على جانبه الشرقي عن توضيح ممتاز للتكوين الطبقي لهذه التلال الخارجية، يحمل على قمته أطلال قلاع قديمة تعزوها الروايات المحلية إلى قبيلة بني هلال.

كانت نقطة توقفنا التالية هي عمود جاضع أسفل آل أمرحا[١] (رقم ١٨٤)، والذي يدل اسمه الطويل أنه مشتق من قرية رحا إلى الأمام منا، وكان عبارة عن حصى قليل منتشر على هيئة النسر على الأرض، التي تكونه. كان العمود على الجانب الأيمن مثله مثل أعمدة المغيالة حتى الآن، للمجرى المتلوي الحصوي الذي كنا قد عبرناه، ثم أعدنا عبوره عدة مرات لتقويم خط مسيرتنا. أصبحت البلاد مزدهرة أكثر وأكثر ونحن نخترقها وهي الآن غابة من أثل ومظ وسمر وسلم وضبر وأراك ونباتات الغلفة الطفيلية الزاحفة - تجمع عظيم لغطاء نباتي وكثيف ويمكن العبور فقط على مجرى الوادي نفسه. وصلنا بعد (١٥) دقيقة إلى عمود متلع (رقم ١٨٣) أيضاً على الجانب الأيمن وقليلاً أسفل بركة كبيرة في المجرى، وفوقها ثقب مائي مستديم، ماؤه ممتاز. كانت هنالك راعية شابة وصبي صغير وهما ينعشان أنفسهما حين وصولنا، ورأيت في شجرة حمرة قريبة (تمر هندي) زوجاً من الحمام الأخضر.

تمكنا الآن من منظر ممتاز للتل الهرمي البارز الذي يسمى عنم، والذي كان قد أشير لي نحوه في معسكرنا في المثعن. أنه يشرف على كل هذه الأرض الكثيفة

---

(١) آل أمرحا: يطلق عليها أيضاً عند بعض السكان المحليين اسم (آل الرحا)، مع أن المراجع والوثائق التي أشارت إلى حدود السعودية واليمن ذكرتها باسم (مفجر جاضع أم ممرحاء)، انظر. القباع، المرجع السابق، ص٤٢١، آل زلفة، المرجع السابق، ص ٢٨٧ (ابن جريس).

الغابات في عظمة منعزلة وقد ارتفعت سفوحه المغطاة بالأشجار إلى (٥٠٠) قدم فوق المستوى العام. كانت العلامة الحدودية التالية وهي المضَّه (رقم ١٨٢) مجموعة حجارة كئيبة عند قدم ربوة صغيرة تقف على مسافة (٢٠٠) ياردة إلى الوراء من الجانب الأيمن للمجرى، وأهم نقطة لافتة للانتباه هي أن بوصلتي بدأت تعمل بشكل غريب بتأثير البازلت الذي يتخلله الكوارتز الذي يتكون منه التل. عدنا فوراً إلى مجرى مغايلة، ووصلناه عند موقع ثقب ماء أنصار قليلاً أسفل موقع تدفق رافد صغير لشعيب إيحار من سلسلة تحمل الاسم نفسه على مسافة من الجانب الأيمن. رأيت وحاولت الإمساك بطائر الوقواق إلاَّ أنه اختفى بهدوء داخل أجمة أشجار الغلفة. وصلنا إلى مسافة قليلة تجاه أعلى الوادي إلى بركة مياه راكدة عند قدم كوارتز ضيق والذي وقف فوقه العمود الحدودي التالي (رقم ١٨١) وهو كومة حجارة جيدة من كسارة الكوارتز ويسمى المحرم (أمحرم) أم صبايا[١]. انتشرت هذه الربوة وغيرها في الجوار وارتفعت إلى (١٠٠) قدم فوق مستوى السهل.

تقف على مسافة (٥٠٠) ياردة عشش قليلة من الأعواد تابعة لمستوطنة القيم التي يسكنها الرعاة الذين ينتمون إلى قسم بني الجراح التابعين لقبيلة بني مروان، على الجانب اليمني من خط الحدود. توجد هنا ثقوب مائية عديدة في بطن المجرى الرملي مع أحواض طينية ضحلة لتشرب منها الحيوانات. يدخل مسيل شعيب عسمي الصغير إلى المجرى من الجانب اليمني، ويجري من هذا الموقع وإلى مسافة

---

(١) المحرم (أمحرم) أم صبايا: هكذا ذكرها فيلبي مع أن بعض المراجع والوثائق التي ناقشت الحدود بين السعودية واليمن ذكرتها باسم (خلقة محرم صبايا)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤٢١، آل زلفه، **عسير في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٨٧ . (ابن جريس).

أعلى، جدول نحـيل من مياه الغيل وهـو يتقطع مع وجود برك صغـيرة من حين لآخر. كـان مجرى المغـيالة مـبطناً بجدران من الصخـر على شكل الألواح (ربما شستـية) ولونها بصفة عـامة داكن مع شرائط بيضاء أو حمـراء. توقفنا هنا لتناول المنعشـات الاقتصادية المـكونة من الخبز والشاي ولأداء صـلاة الظهر. كانت بقـعة جذابة وتفضّلهـا، فيما يبدو طيـور الدرسّة الصخرية وإلى جـانب هذه فقد رأيت بعض طيور الشقراق الحـبشي. وقف عمود حدود حد الحـميضة (رقم ١٨٠) في الجوار، وعلى مسيرة عشر دقـائق على الأقدام إلى أعلى منه يوجد عمود حدودي آخر واسمه مفجر المحـدق (رقم ١٧٩) عند موقع الانسياب الداخلي لمسيل أم باب الصغـير[١] الذي ينحدر مـن التلال التي تقع إلى الشـمال. كان الجـدول الجاري منساباً، غير أنه استمر إلى ياردات قليلة فوق هذا الموقع.

كان مجرى الوادي منسداً تماماً بكثافة الأشجار والشجيرات، مما دفعنا للذهاب عن طريق شعيب محدق الدائري، وهو رافـد ثانوي على الجانب السعودي والذي كان يوجد في مجراه كثير من الالتواء، ميـاه راكدة غير متحركة إطلاقاً. تركنا هذا المسيل لنتسلق إلى أرض كثـيفة الجنبات وشائكة إلى هضبـات منخفضة والتي عن طريقها رجـعنا مرة أخرى إلى الوادي الرئيس بجوار عـمود الدهشيلة[٢] الحدودي (رقم ١٧٩ أ) إلى الخلف قليـلاً من الجانب الأيمن. كان المجـرى لا يزال مخـتنقاً بالنمو الـتحتي للنبـاتات، ولزمنا الجانب المرتفـع من الأرض، وهي أرض عارية، متدحرجة، إلى أن عبرنا مسيل المفـجر نشافة قليلاً أعلى موقع اتصاله مع المغيالة،

---

(١) أم باب الصغير: يطلق عليها عند بعض السكان المحليين أيضاً اسم (الباب الصغير). (ابن جريس).

(٢) الدهشيلة: هذا العمود الحدودي ذكره فيلبي (دشـيلة)، والاسم الصحيح ما ذكرنا. انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤٢١ . (ابن جريس).

التي دخلنا إليها مرة أخرى فوراً فيما بعد لنسير فوق قسم آخر من المياه الجارية. كان المجرى هنا ضيقاً ويقع بين منحدرات سهلة تكسوها الحشائش والنمو التحتي وبعض الأشجار. رأينا بالفعل بعض الغزلان تنطلق بعيداً ونحن نقترب، وسرعان ما تملكنا الحماس للبحث عن بومتين كبيرتين بنيتين - ربما البوم قصير الأذن - كنا قد أزعجناهما بدخولنا مخبأهما الهادئ. لم ننجح في ذلك. وكان علينا مغادرة الوادي مرة أخرى بسبب الموانع الطبيعية لنبحث عن العمود الحدودي التالي خلفة أم سباقة (رقم ١٧٨) وهو يقف على مسافة نصف ميل إلى الخلف من المجرى. يمكن رؤية عدد من القمم العالية من هذا الموقع داخل وتر واسع كانت قمة عنم أحد نهاياته. وقف إلى جواره محجم وسلسلة كبيرة حادة القمة تسمى شعاراً ولها قمة عند كل من الطرفين. يبدو أن هذا الشريط من الأراضي المرتفعة تكون نظيراً داخلياً في هيئة سلسلة التلال الخارجية، وتبدو البلاد بينهما كما تشاهد من هذا الموقع، وكأنها غابة.

انحرفنا عائدين إلى المغيالة، دخلنا المجرى مرة أخرى لنسلك مياهه الجارية مارين بتتابع من البرك ينحدر من خلالها. أوصلنا هذا المجرى إلى عمود عبادية الحدودي (رقم ١٧٧) وقد اكتسب اسمه هذا من حقول تتبع قرية صغيرة على الجانب اليمني من المجرى. يوجد ثقبان مائيان في بطن السيل الجاف لحياض أم سودة، ولما كان موعد غروب الشمس قد شارف، فقد قررنا أن ننتهز هذه الفرصة ونعسكر بجوارهما لقضاء الليلة. كانت الأرض على الجانب اليمني ملائمة أكثر لإقامة المعسكر، وعليه فقد قضينا ليلة مريحة في تلك الدولة. كان ارتفاعنا حوالي (٨٠٠) قدم فوق سطح البحر ولم يكن هنالك ندى، غير أن المرء يحس برطوبة

واضحة في ساعات الصباح الباكر، ويعزى ذلك بلا شك لوجود الغيل الجاري. تقع في مقابل قرية العبادية الصغيرة وعلى الجانب السعودي، قريتا الحضن والقائم وليستا بالبعيدتين، لا توجد آثار لحياة البشر فيما عدا ذلك، بينما توافرت القرود ويبدو أنها تعيش في هذا الموسم بتناول ثمار المظ التوتية. كانت الحشرات نادرة بشكل مدهش في هذا الموقع كما في مغايلة إذا ما اعتبرنا كمية الغطاء النباتي، غير أن هذا قد يعزى لحقيقة أننا في الليالي ذات القمر المكتمل.

ذهب محمد بن طراد شيخ قبيلة (بني الحرث) بعد غروب الشمس إلى قرية يمنية وعاد ومعه قحف كبير مملوء باللبن خاصة لي ومصحوباً بتوكيد متشدد برغبته في خدمتي بكل وسيلة ممكنة. لقد كان وبكل تأكيد لطيفاً ودمثاً أثناء النهار غير أن أخطر مآخذه أنه يجهل بدرجة مدهشة بلاده. لقد عوّض عن ذلك بأن أحضر معه رجلاً يعرف الأرض جيداً، وأشك أننا كنا نستطيع الوصول إلى كل الأعمدة الحدودية لولا مساعدته، أو حتى أن نستدل على طريقنا حول العقبات العديدة المختلفة التي واجهتنا. يعود أصل الحرّث إلى حارث بن عباد. قيل لي إن هذه حقيقة يدركها كل حارثي منذ مولده، وهذا كان كل ما في الأمر. كانوا يجهلون تماماً أصلهم أو علاقاتهم مع سلفهم، فيما عدا روايات محلية غامضة بأن قبيلتهم قد جاءت إلى هذه الأنحاء من جهة الشمال وليس من اليمن. لذلك من المحتمل أن يكونوا من أصل قحطاني. تنتمي القرى الصغيرة على جانبي الخط الحدودي إلى آل بني مروان. فقبيلة بني جراح تقع على الجانب اليمني، وعبادل تقع على الجانب السعودي. وتشتهر قبيلة ابن جرح بكثرة اللصوص، غير أن الليلة مضت بسلام فيما يخصنا نحن. كانت كما أذكر هذه أولى ليالي الشهر التاسع لرحلاتي،

وأطول الرحلات العربية التي قمت بها، غير أنها تشارف نهايتها الآن[١]. كان اليوم هو ٢١ يناير، وبقى على الحج شهر واحد، أتمنى أن أدركه بالعودة إلى مكة.

تتجه الحدود شمالاً مرة أخرى من هذا الموقع عبر بلاد الغابات عند قدم سلسلة شعار، التي تقع بكاملها في أرض يمنية على يميننا، وتجري سلسلة الجبل الرئيسة شمالاً وجنوباً من ورائه مع قمم أخرى من حين لآخر مثل ذويب الظاهر ومفتاح وقد وضحت شاحبة خلال الضباب.

بدأنا رحلتنا عند الساعة ٩ صباحاً وغادرنا قرية الحضن تاركينها على يسارنا لنصل إلى عمود بمعطب[٢] الحدودي (رقم ١٧٦) في وسط أرض كثيفة الأشجار، والتي كانت صخورها المكشوفة من الشست المايكا مع وجود عروق متكررة وبروزات من الكوارتز. كان العمود الحدودي التالي مرئياً ناحية الشمال بين موقعنا فوق سلسلة مرتفعة إلى حد ما تفصل بين رافدي المغيالة - هما وادي ابن عبدالله من جهة الشرق[٣]، ويتصل مع المجرى الرئيس فوق معسكرنا ووادي سمسري على الجانب الآخر، والذي لا بد أن يكون عمقاً عالياً لمفجر نشافه. يطلق على هذا العمود الحدودي اسم بمعطب الشام (رقم ١٧٥) لتميزه عن العمود التالي واسمه بمعطب اليمن (رقم ١٧٤) فوق سلسلة مماثلة أمامنا. يجري مسيل المهد بين

---

(١) استغرق فيلبي قرابة تسعة شهور في رحلته منذ خرج من بلدة السليل ووادي الدواسر متجهاً إلى مكة المكرمة، ثم عودته إلى مناطق عسير، ونجران، وبلاد حضرموت، ثم عودته إلى نجران مرة أخرى، وواصل سيره إلى جازان وأخيراً عاد إلى مكة المكرمة مرة ثانية. (ابن جريس).

(٢) بمعطب: ذكر فيلبي هذا العمود الحدودي باسم (أبا معطب)، والصحيح ما ذكرنا، انظر: القباع. المرجع السابق، ص ٤٢١ . (ابن جريس).

(٣) وادي عبدالله يسير ضمن وادي حرض، وفي موقع يسمى الفج أو (أمفج) ينفصل هذا الفرع حاملاً اسم (وادي عبدالله)، ويستمر وادي حرض نفسه جارياً في البلادين السعودية اليمانية. (ابن جريس).

هاتين السلسلتين، والذي يجري إلى أسفل ناحية الغرب ليتصل مع سمسري، بينما تبدو سلسلة المسيل الآخر - لقد تسلقنا في هذا الموقع إلى (١٤٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر - مكونة مستجمع الأمطار الذي يقع بين نظام المغيالة وخط صرف وادي لية، الذي أمكننا رؤيته أمامنا وعلى مسافة معتبرة أسفل موقعنا. ينحدر شعيب إيحار وقد ورد أنه رافد المغيالة من هذه السلسلة وينساب ناحية الشمال الغربي حتى تغير اتجاهه انطواءات الغابة غرباً أو ناحية الجنوب الغربي إلى داخل الشريان الرئيس. ينبع شعيب المسيار أيضاً من هذا الموقع وينساب على امتداد قاعدة سلسلة قميره في طريقه ليتصل مع لية عند موقع خروجه من السفوح الجبلية. يقال إن وادي لية نفسه ينبع من جبل مرَّان المرتفع في سلسلة السراة الأصلية ويدخل في نهاية المطاف في سهل تهامة، بين النهاية الشمالية لجحفان والنهاية الغربية للرميح، الذي تكون سلسلته الطويلة الجانب الأيمن لليَّة إلى مسافة إلى الخلف.

من هذا الموقع تمكنت من التقاط منظر شمولي للتركيب الجغرافي لهذه البلاد -خط خارجي من تلال- يتراوح ارتفاعها في المتوسط إلى (١٥٠٠) قدم فوق سطح البحر عند قممها وتجري شمالاً من أسفل حرض، ثم داخل هذا الحاجز تكون التلال الكثيفة الأشجار أحواض الأودية الرئيسة -تعشر، والمغيالة ولية- وتصل إلى قاعدة الحاجز التلي الداخلي الذي يصل ارتفاعه في المتوسط إلى (٣٠٠٠) قدم فوق سطح البحر ويتضمن عنم وشعار وغفير.. إلخ، ومن خلف هذه تأتي كتوف والجدار الرئيس للسراة نفسه، والذي يسمونه هنا ساق الغراب[١].

(١) ساق الغراب: يطلق هذا الاسم أيضاً على المرتفعات السروية الممتدة من نجران جنوباً حتى الطائف. (ابن جريس).

أمكننا التعرف على القمة أقصى الشمال وهي شدى، وبجوارها النظير وحرم على يمينها ثم مران وطلان[١] مع بعض المرتفعات المماثلة والتي لا أذكر أسماءها، ثم إلى أسفل عبر الغولاء ومفتاح إلى ذويب وجريز إلى الشرق من حرض. كما أمكننا رؤية مجرى قصب فيما يلي سلسلة الرميح، وهو رافد للية وينحدر من تل مرتفع يسمى الحماطة على الجانب اليمني من الحدود. يواجه تل دخان الحماطة من الجانب السعودي ويطل على الخوبة.

رغب رفاقي في التوقف في الحضن للشرب بعد عشر دقائق من بداية الرحلة، وقد رفضت ذلك، برغم أن المياه قد أحضرت لنا عند هذا العمود الحدودي، حيث قضيت ساعة أستوعب كل تفاصيل المنظر العام، مع كوب من الشاي وغليون التبغ ككماليات تلائم هذه المناسبة. علمت، بالمناسبة، أن الحرث (أيضاً حوارثه) على الجانب السعودي للحدود يتبعون قبيلة الهزاهيز، بينما قبيلة أخرى منهم وهي أم عقارب[٢] تحتل شعاراً والسفوح الملامسة على الجانب اليمني. كان العمود الحدودي بجوار معسكرنا، حقيقة، نقطة لقاء ثلاثي للقبائل. ويفصل بنو الحرث السعوديين من أخوالهم في اليمن ويفصل هؤلاء عن بني الجراح المروانية. كنت مندهشاً بأمر عمود عتبه الحدودي، لأنه ليس موضوعاً فوق القمة الفعلية للسلسلة، إذ إنه يقف على مساحة (٢٠) قدماً أسفلها. توضيحاً لهذا فقد

---

(١) طلان: اسم جبل في بلاد اليمن، وهو يختلف عن جبل طلان الذي يوجد في ديار بني مالك من أرض فيفاء. (ابن جريس).

(٢) أم عقارب، أو (أمعقارب) تلفظ وتكتب أيضاً (العقارب)، وجميع هذه الألفاظ صحيحة، ويستخدمها سكان تلك البلاد. (ابن جريس).

قيل لي إن لجنة الحدود لم تر أنه من الضرورة التسلق فوق هذه السلاسل العالية، وقد سلكوا الطريق المنخفض بمحاذاة الأودية الداخل إلى مسيار ومنه إلى لية. ترك أمر وضع العلامات الحدودية للبدو الذين رافقهم موظف ثانوي، اسمه عبدالله بن شرقة الذي كنا قد قابلناه في وظيفة ضابط منطقة في بلاد بني مالك.

استغرق وصولنا إلى نهاية السلسلة حوالي (٢٠) دقيقة لنفحص عمود الكامح[(١)] الحدودي (رقم ١٧٣)، فوق هضبة منخفضة تطل على الغابة إلى أسفل، والتي هبطنا إليها بمقدار (٤٠٠) قدم. كان يوماً لطيفاً ذا سحب مع نسيم متقطع، غير أن الزحف أعلى وأسفل السفوح الشستية الصعبة في هذه التلال ذات الغابات إلى حيث عمود قائم بشير[(٢)] الحدودي (رقم ١٧٢) كان مرهقاً. كان العمود يقف في وسط بلاد متدحرجة منخفضة تخترقها خطوط صرف عديدة وتكسوها نموات أدغال مزدهرة متفيئاً نباتاً يسمى ظهية أو رنفة لم ألحظه من قبل. كانت هذه الأرض أرض مراعٍ ممتازة وقد شاهدت مجموعات من الأبقار في الجوار خاصة في حوض شعيب الخويريم الضحل الذي ينحدر من قميرة ويمر إلى الشمال من هذا العمود ليتصل مع شعيب المسيار. يقع بالقرب منا قبر أحد الرعاة، ويبدو كأنه تذكار مبني من ألواح ضخمة من الشست. بادلتنا التحية، أثناء جلوسنا هنا، فتاة لا يزيد عمرها عن (١٢) أو (١٣) سنة ترافقها شقيقتها الصغرى، تركتا أبقارهما ليعاينا هؤلاء الدخلاء ولم تبديا أي علامة من خجل أو خوف. كانتا

---

(١) الكامح: يطلق عليه أيضاً اسم (الكامح أمروي)، انظر: القباع. المرجع السابق، ص ٤٢٢ . (ابن جريس).

(٢) عمود قائم بشير: يسمى أيضاً (عمود نصف قائم بشير)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤٢٢ . (ابن جريس).

تلبسان قبعات عريضة الحافة، عالية التاج من الخوص، وكانت ابتسامة الفتاة الكبرى جذابة، كاشفة عن طقم كامل لأسنان بيضاء، وأضافت طرفة عين ضاحكة. بدت في تناسقها وكأنها تمثال منغولي ذو نظرة محترمة بعيدة. لقد أقبلتا من قرية عرقين اليمنية وتنتميان إلى قبيلة ابن حداد. أعطيناهما خبزاً، وصببت كوب شاي لكل منهما دون تحذيرهما أنه ساخن، كانت دهشتهما شيئاً جميلاً.

عبرنا منخفض برا العريض فيما يلي الخويريم، وهو أيضاً رافد لمسيار الذي كما قالت الفتاتان، ينساب ليس إلى لية وإنما إلى إيحار ومنه إلى المغيالة. لم أقتنع تماماً بما ورد عن هذه النقطة المهمة جداً، واكتفيت بأن أورد كلا الروايتين. وصلنا إلى كومة من بلكات كوارتزية بعد سيرنا فوق سفح كثير الشجر، موضوع فوق بروز من الصخر نفسه، تمثل عمود ضُبَيْرَةُ الحدودي (رقم ١٧١)، وقد اكتسب اسمه من قرية ضبيرة التابعة الهزاهيز على مسافة نصف الميل ناحية الجنوب الغربي بالقرب من الجانب الأيسر لوادي لية. نستطيع الآن رؤية الموقع الذي تم اختياره لمعسكرنا هذه الليلة وقد حدده رفاقنا الذين كانوا في صحبة العفش على الأودية السفلى. كان المعسكر يقع على الجانب الأيمن لوادي لية بالقرب من هضبة منخفضة تسمى جعوة ابن خضرة، ونستطيع رؤية المجرى وهو يدور ناحية الغرب من موقع قريب من ضبيرة، ليتصل مع وادي صامطة الذي يأتي من قدم سلسلة الرميح، قبل أن نعبر إلى السهل إلى الشمال من جحفان. تقع فيما يلي معسكرنا قرية الجراحيات بينما تقع قرية تسمى المعاين[1] على مسافة الميل الواحد إلى الشمال. وصلنا بعد مسيرة (٢٠) دقيقة عبر الغابة إلى مجموعة من برك راكدة

(١) المعاين: فيلبي يذكرها أحياناً (أمعاين)، وكل من اللفظين صحيحين. (ابن جريس).

عند موقع التقـاء شعيب جلامين مع وادي لية، الذي كان به جـدولاً جارياً. كان موقع الالتقاء الفعلي معلّماً بنتـوء يرتفع إلى (٢٠) قدماً من صخر طبيعي، والذي منه ألقيت نظرة على المجريين ناحية الشمـال الشرقي وناحية الشرق بالتوالي. كان بالقرب منه عمـود حشيرو الحدودي (رقم ١٧٠) على قمة الربوة المسـطحة الكثيرة الشجـيرات والتي منها اشـتق الاسم. يبعـد معسكرنا حـوالي (٢٠٠) ياردة وقد وصلناه عند الساعة الخامسـة مساءً بعد نهار قصير ومثيـر. كان رفاقي، مثلهم مثل كل الناس في هذه البـلاد الجبلية، مـدمنين -عادة- مضغ البـرتقال ويمكن متـابعة طريقنا عبر الحدود بيسر بما بصقوه من قطع حمراء أثناء مضغهم.

امتلأت السماء بالسحب وقـد تتابعت قطرات من المطر بالفعل في المساء، ثم تجمعت السحب أكثر في وقت لاحق وأصبحت مهددة لنا. لا بد وأن تكون التلال المرتفعـة تحت المطر، غير أن لـيلتنا قد عبـرت دون هطول المطر، ولم يكن هنالك ندى. لم تكن هنالك حشرات، برغم السحاب، أو أن ضوء مصباحي الساطع لم يجذبها. عوضت حشرة واحدة عن غياب البقية. كانت تلك هي البعوض التي لم تكن موجودة كثيراً خلال هذه الليالي إلاَّ أنها الآن ظهرت بأعداد خيالية وفي حالة شرسة بالفعل. كان من المستحيل الابتعاد عنها حتى بعد إطفاء الضوء وقد واصلت نهبها إلى ما بعد الفجر. تم تعريف العينات الـتي قمت بجمعها هنا فيما بعد على أساس أنها (Anopheles gambiae) التي كانت تعرف مـن قبل في جدة وفي محمـية عدن بكونها حـاملة للملاريا. ولما كان وادي ليـة يقع في منتصف الطريق بين هذه النقاط، فيمكن الافتراض أن هذا النوع يوجد حينما كانت الظروف مناسبة له، على امتداد الطريق إلى أسفل إلى منطقة الساحل.

وقع محمد بن طراد فريسة للحمى أثناء الليل، غير أن هذا لا يمكن أن يعزى إلى ظهور زواره الحالين من البعوض، والتي لا بد أن تكون قد خلفت بعض سمومها داخلي كما سأروي في وقت لاحق. كانت الطيور متوافرة هنا وفي كل مكان وقد تضمنت حقيبة العينات طائر الدج الصخري، والحمامة الصحراوية، والجشنة ودرسة الصخور. كان هذا الأخير متوافراً كما لاحظت، غير أنني لم أستطع صيده، طائر صائد ذباب الجنة. لا تزال من حولنا بكميات كبيرة طيور أبومطرقة والعجلة والشقراق الحبشي، كما اصطدنا طائر السمنة داخل محاصيل قرية صغيرة بالقرب منا.

أعدت قراءة بريدي الذي وصلني من الوطن أخيراً، وما استطعت الاطلاع عليه من الصحف المتراكمة معه، وذلك لاستحالة انشغالي بدراسة النجوم. صحوت من النوم لأجد منظراً طيباً للجبال وقد مرت العاصفة فيما يبدو، وما أن أكملت اختبار رفاقي فيما يخص تعريف القمم المختلفة حتى تجمع السحاب مرة أخرى وحجب الرؤيا. أرسل محمد بن طراد لجلب رجلين من رجال قبيلته مشهورين بأنهما يعرفان الكثير عن الجبال، غير أن المعلومات التي قدماها لي تشير إلى أن كل المعلومات التي كنت قد جمعتها في السابق خطأ، إذا كان ما قالوه صحيحاً. اتضح لي أن الأمر سيستغرق دراسة متأنية حذرة لتصنيف القمم من بين متاهة المعلومات المتضاربة، وقد سجلت في وقتها كما وردت لي، وكل ما أستطيع الإدلاء به أنني غير مقتنع بنتائج أعمالي التي لم تجد طريقها بعد إلى أي خريطة منشورة[1]. سأسرد الآن الأسماء التي قيلت لي دون تعليق وهي: الغولاء، ومفتاح -نقطان فوق كتلة واحدة-، ومرّان -تل مزدوج القمة- وفوت، وبحري،

(١) تم طبع خريطة على مستوى المليون العالمي حديثاً. (المؤلف).

وغمر، وقفرة، وشدى، ورازح، والنظير، والحماطة، وذويب. تمثل هذه القائمة قمماً مشاهدة بالفعل في هذا اليوم بالذت من هذا الموقع بالذات، غير أن الشك يظل يرفرف فوق التسمية الفعلية.

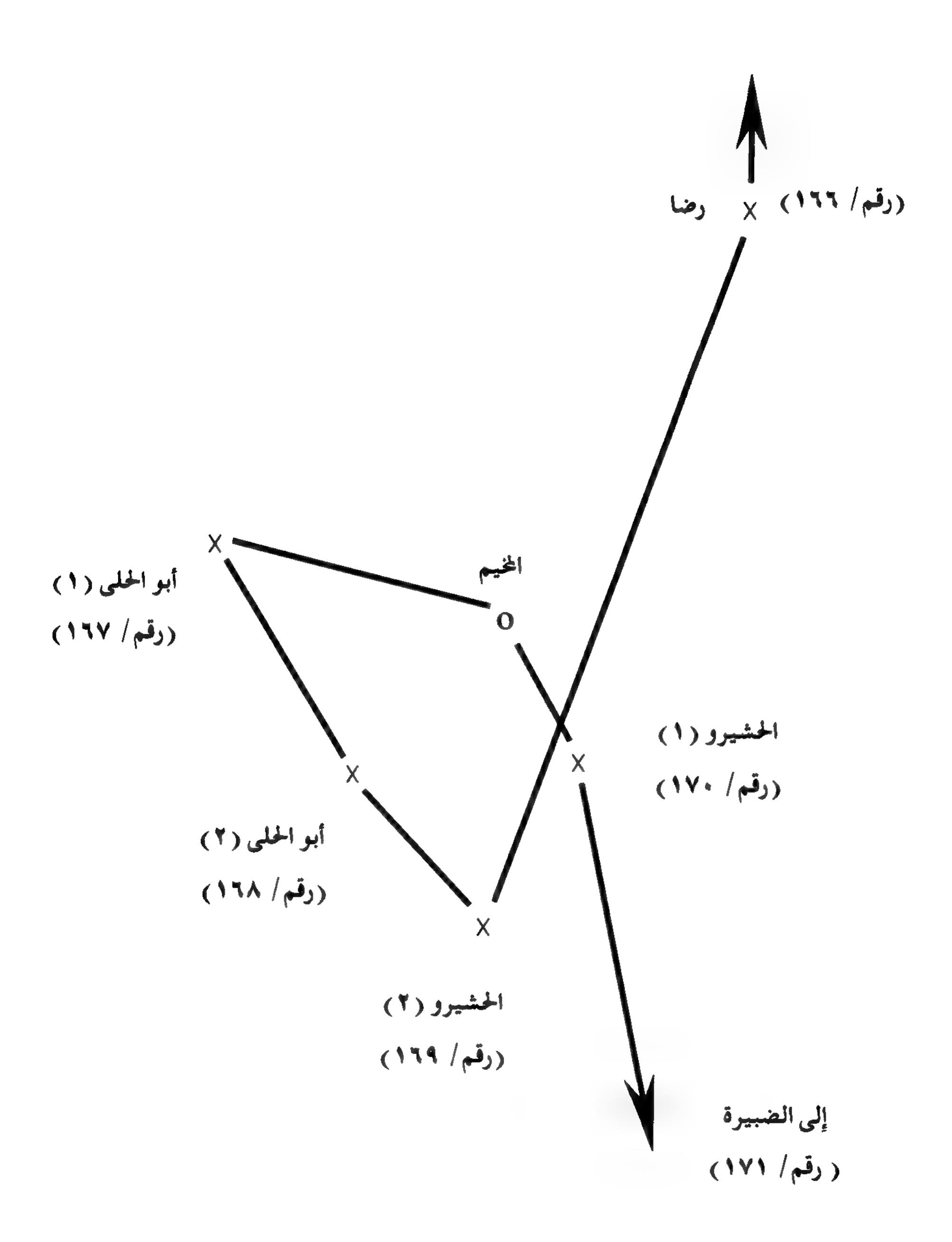
رافق بداية تحركنا من المعسكر على ظهور الحمير رذاذ خفيف توقف سريعاً. كانت الشمس تجاهد لتخترق السحب وكان الجو لا يزال متجهماً. كان ارتفاعنا عند الحشيرو حوالي (١٠٠٠) قدم فوق سطح البحر وواصلنا سيرنا على مستوى الارتفاع نفسه، أولاً عبر أرض ذات شجيرات، ثم فوق سهل عارٍ مسطح به عدد من القرى الصغيرة تحيط بها حقولها ذات المتاريس. يقع عمود أبو الحلي الحدودي (رقم ٦٧أ) وهو كومة حجارة بالقرب من جعوة أو مسطبة من حجر صغير كان يقف فوقه رجل المراقبة لتخويف القرود وطردها إلى خارج المحاصيل. كان من بين القرى الصغيرة، المكندرات[١] ورضا إلى جانب الجراحيات التي ورد ذكرها. وصلنا إلى هذا الموقع وقد كان اتجاه سفرنا هو الشمال الغربي من المعسكر، غير أننا الآن عدنا القهقرى على شريط يتجه ناحية الشمال الشرقي على الجانب الآخر، وهو بروز ضيق جداً للحدود لا أرى مبرراً له. لربما كان التفسير له يعزى إلى وجود عمود حدودي ثانٍ باسم أبو الحلي[٢] (رقم ٦٨أ)، الذي وجدناه في القرية نفسها، التي تسكنها قبيلة العقارب (بني الحرث) الذي يجب أن يكون هو الأول والعكس بالعكس، مع الخط الذي يستمر من الأخير في اتجاه شرق الشمال الشرقي إلى عمود الحشيرو الثاني (رقم ٦٩أ)، غير أننا كنا في هذا الموقع وتقريباً

---

(١) المكندرات: هذا الاسم الصحيح لهذه القرية، مع أن فيلبي ذكرها باسم (الكندرات). (ابن جريس).

(٢) أبو الحلي: هذا الاسم الصحيح لهذا العمود الحدودي بين السعودية واليمن، مع أن فيلبي ذكره باسم (أبام هلي)، للمزيد انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤٢٢ . (ابن جريس).

عند موقع انطلاقة رحلتنا، وأميل للاعتـقاد أن هنالك خلطاً نتج عن إقامة عدد لا ضرورة له من الأعمدة الحدودية فوق أرض ضئـيلة. أستطيع فقط تسجيل الأعمدة الحدودية كما وجدتها وذلك لأنه ليس لدي أمر قـضائي بتصحيح الحدود، غير أن الشكل المرافق ربما يوضح الوضع أكثـر. ويبدو أن الترتيب الصحـيح للأعمدة هو الضبـيرة، والحشـيرو(١)، والحشيـرو (٢)، وأبو الحلي (٢)، وأبو الحلي (١) ثم الرضا. ويوضح الخط المتقطع خط سـيرنا الفعلي، وأيضاً يوضح المسافـة المتضمنة بأنها تابعة للسعودية ولليمن في آن واحد، وهذا مستحيل.



(رقم/ ١٦٦) رضا
أبو الحلى (١)
(رقم/ ١٦٧)
المخيم
الحشيرو (١)
(رقم/ ١٧٠)
أبو الحلى (٢)
(رقم/ ١٦٨)
الحشيرو (٢)
(رقم/ ١٦٩)
إلى الضبيرة
(رقم/ ١٧١)

اتجهنا ناحيــة الشمال الشرقي من هذا العـمود الحدودي، تاركين الخلط الذي حدث وشأنه، إلى قرية أم رضا[1] الصغيـرة التي تورطنا سريعاً في حـقولها ذات المتاريس. تجـمع السكان عند العـمود الحدودي من حـولنا، يزحفـون على باطن ركبهم كحشد من القرود، دون أن يضيـفوا شيئاً لمشكلة الحدود. كان من الواضح أن معسكرنا الليلة الماضية كان فوق أرض يمنيــة، وبالوضوح نفسه أن حقول الرضا امــتـدت عــبـر الحدود في الاتجـاهين، بـالرغم من أن القـرية تقع داخل الحــدود السعودية. يأخذ العمود الحدودي هنا الرقم ٦٦أ من التسلسل، وظللنا داخل مزارع الرضا حتى العمود الحدودي التالي واسمه الموقد (رقم ٦٥أ). تعني كلمة موقد في هذه البلاد «فــرن» مهيأ بقواعــد يقف عليها والذي فـيما يبدو تحرق فـيه كل أنواع الغطاء النبـاتي المحلي لأجل استـخلاص الراتنج الذي يوظـف كمرهم فـي علاج تقرحات الحيوانات والبشر.

مررنا إلى الشمال بقريتين صغيرتين تابعـتين قبيلة الجراحيات لنجد في الأبعد منهما عموداً حدودياً يسمى أسفل الجراحيات (رقم ٦٤أ) ولا شيء غيره ذا أهمية. وصلنا بعـد ذلك إلى الجـانب الأيسر لوادي صـامطة الذي ورد ذكـره رافداً لليـة ومحاط من الجانب الآخر بسلسلة الرميـح الطويلة. يقف عمود مشباح أم رنف[2] الحدودي (رقم ٦٣أ) فوق ربوة من الصخور والتي من عندها استطعنا أن نرى قرية المنزالة -تابعة لقبـيلة العقارب- على بعد ميلين من الحـدود، وكذلك وأقرب إلينا

---

(١) أم رضا: تلفـظ هذه الكلمة بهـذه الطريق، وأحيـاناً تلفظ وتكتب (أمرضـا) أو (الرضا)، وجـميع هذه الألفاظ صحيحة. (ابن جريس).

(٢) مشـباح أم رنف: هذا اسمــه الصحـيح، مع أن فيلبي ذكره باسم (مـسبـاح أم رنف)، انظر: آل زلفه. **عسير في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٨٩، القباع، المرجع السابق، ص ٤٢٢ . (ابن جريس).

كثيراً قرية سيلان التابعة لقبيلة الهزاهيز السعودية. لم نعبر وادي صامطة الذي يقع بكامله في هذا المكان داخل أرض سعودية، إلاَّ أننا تتبـعنا جانبه الأيسر لنصل إلى جدول رافـد يسمى أم لحى -ربما ضحى- والذي تجـري فوقه الحدود إلى العـمود التالي. ينتشر في هذا المجرى، قبل اتصـاله مع صامطة، بالعديد من البرك الكبيرة التي تتـرابط بواسطة غيل جـاري وينحدر الشـاطئان بيـسر في بساط من الـعشب الأخضر وهو منظر أخاذ في المنظر العام والذي أصبح كئيباً بعد مغادرتنا الغابة من خلفنا. يقف عمود جاضع أمحـسن (رقم ٦٢أ) فوق الجانب الأيمن للمجرى داخل الزاوية التي يكونها مـوقع تدفق مسيل صـغير ينحـدر ماراً بقرية سيـلان التي تمتد حقول دخنها إلى أسفل إلى لحي.

يستمر هذا المجرى مؤدياً وظيفة الحدود ماراً بعمود مفجر سار جغله الحدودي (رقم ٦١أ)، فوق ربوة على جـانبه الأيسر ثم عبرنا بعـد قليل إلى الجانب الأيمن، ثم خرجنا وقد أزعجت حركتنا سرباً كبيراً من الدجاج الحبشي. وجدنا أنفسنا مرة أخرى في أرض التلال كـثيفة الأشجـار ناحية الشرق من تل دخـان البارز وليست ببعيدة عنه، واستطالت المساحة تدريجياً من شريط وادي لحي، الذي نستطيع رؤيته من هذا الموقع وهو ينسـاب ناحية التـلال اليمنية المرتفـعة ناحيـة الشرق والجنوب الشرقي من موقعنا. وجدنا عمود أبومض (رقم ٦٠أ) فوق ربوة منخفضة في هذه الأرض وبجوار قرية المعاين الكبيرة على مسافة نصف ميل إلى الشرق وقد انتشرت حقول دخنها المترسة إلى أسفل، ناحيـتا، فوق منخفض ضحل، يمتد خط الحدود على الجانب الشمالي منه. تتبعنا هذا شرقاً ووجدنا عند النهاية العليا للوادي بعض مزارع المعاين، وهي على الجانب الخطأ للخط، إلاَّ أن مثل هذا أصبح الآن ظاهرة مألوفـة. ويحدد موقع الـقرية، وليس حقـولها، غاية ضـرائبهـا. تكاثر الدجاج الحبشي بصورة كبيرة، لعله يقتات على ما يفيده في حقول الذرة.

كنا نرتفع تدريجياً حتى وصلنا إلى عمود خطوة نسرة[١] الحدودي فوق مضيق يفصل بين مسيل روضة المعاين المزروع، والذي كنا نسلكه، عند مسيل غاوية الزروع، ويمتد ناحية الشمال في أرض سعودية في اتجاه وادي خلب الذي نستطيع رؤيته الآن وهو ليس بالبعيد أثناء انسيابه غرباً مع صورة خلفية لكل من شدى والسفوح كثيفة الأشجار الملحمة. يقف تلاً واضحاً وأستطيع تمييز حصونه العديدة المنتشرة -مبان تشبه القلاع- بين سفوحه المترسة التي يزرع فيها الدخن والذرة والقمح والبن والقات والموز وأشياء أخرى عديدة مزروعة. كانت شدى ومواقع أخرى محصنة تابعة للسلسلة الرئيسة، أيضاً مترسة ومأهولة. يقف عمود نسرة الحدودي (رقم ٥٩أ) عند ارتفاع (١٢٥٠) قدماً فوق سطح البحر، وتمتد الحدود ناحية الجنوب الشرقي على امتداد السلسلة التي تنهي مسيل المعاين وبذلك تنغلق في نتوء بارز في أرض يمنية. أمكننا رؤية الخوبة من فوق قمة هذه السلسلة، ناحية الشمال، غير أن طريقنا لا يزال يتجه شرقاً ناحية خفينة، كما تُشاهَد الآن، استقرت الجمال التي تحمل أمتعتنا في المعسكر. كانت قرية الغاوية مرئية لنا على مسافة ميل واحد، عند ملتقى مسيلها مع مسيل آخر يسمى أمجلة أو مردة، وهي تقع في خط واحد تقريباً مع الخوبة وفي سهل مزروع واسع يمتد إلى الخلف حتى مجرى خلب. لقد كان -حقيقة- هو كل جزء من الدلتا التي يتفرع داخلها خلب

---

(١) عمود خطوة نسرة: هذا الاسم الصحيح لهذا العمود الحدودي بين السعودية واليمن. مع أن فيلبي ذكره باسم (خطوه النسر)، وكل هذه المصطلحات صحيحة. للمزيد من التفصيلات عن الحدود بين السعودية واليمن في هذه النواحي، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤٢١ وما بعدها، محمد آل زلفه، **عسير في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٨٨ وما بعدها. (ابن جريس).

عند منفذه من بطن مجراه الضيق في الجبال. يقف عمود أبو لحي[1] الحدودي (رقم ٥٨أ) فوق عرن منخفض للسلسلة نفسها على سفح يواجه حقول مردح وعلى مسافة (٢٠٠) ياردة من قرية لحي الصغيرة ناحية الشمال الشرقي.

كنا لا نزال عند الارتفاع نفسه كما في مضيق نسرة، واستمتعنا بمناظر خلابة للريف امتدت إلى الخلف حتى عنم في الجنوب، بالرغم من أن السحب قد تجمعت مرة أخرى فوق السلسلة الرئيسة ناحية الشرق وناحية الشمال. استطعنا كذلك رؤية المئات من المباني منتشرة فوق سفوح مرَّان والغولاء المترسة إلى جانب سمات جبلية أخرى. بدت حقول لحي مزدهرة بصفة خاصة، وتضمنت محاصيلهم نسبة كبيرة من الذرة الشامي، وقد ظهرت أكوازه ولم تنضج بعد. يسمونها هنا «دخن» ويلحقون بهذا اللفظ كلمة «هندي» أو «رومي» أو «حبشي» لتأكيد أصله الأجنبي. دخل ونحن في هذا الموقع وقت صلاة الظهر، ولاحظت أن محمد بن طراد قد أدى صلاته - وتؤدى الصلوات في هذه البلاد فردية وليست في جماعة كما في نجد - ثم لمس الأرض بكلتا يديه، ثم قبَّل يديه وسحبهما فوق صدره، وبدأ بعد ذلك في تنظيف أنفه.

هبطنا قليلاً لنصل إلى عمود سرام حيحان الحدودي (رقم ٥٧أ) داخل مساحة واسعة مزروعة، معظمها حقول ذرة صفراء في تجويف في التلال قليل الأشجار. بدأ رفاقي في جمع أكواز الذرة الشامية غير الناضجة ليأكلونها نيئة في الموقع، محتفظين ببعضها ليتم إنضاجها على نار المعسكر. تنتمي هذه الحقول، على الأقل جزئياً، لقرية الموقد الصغيرة داخل أراض سعودية. ويسكنها الحرث التابعون لأحد

---

(١) أبو لحي: هذا الاسم الصحيح لهذا العمود، مع أن فيلبي ذكره باسم (أبو أمضحي). (ابن جريس).

أقسام الغاوية. عدنا مرة أخرى لخط وادي لحي، الذي كنا قد غادرناه منذ فترة ووجدناه قد تغير إلى حوض عميق كثيف الأشجار، يقع بين شاطئين يرتفعان إلى (٥٠) قدماً. تعبر الحدود هذا الوادي، وزحفنا إليه وخرجنا منه إلى حيث عمود سر مجدعة[١] الحدودي (رقم ٥٦أ) وهو يقف على الجانب الأيسر على مسافة خمس دقائق سيراً على الأقدام من خفينة[٢]، حيث وصلنا إليها قليلاً بعد الغروب، لنجد رسولاً يرحب بنا حاملاً معه الهدايا من أمير الخوبة بالإنابة. كانت هدايا رحبنا بها كثيراً. وهذه الهدايا هي: حزمتان كبيرتان من الموز المحلي اللذيذ، و(٤) حبات باباي، الذي يزرع في هذه البلاد التلية، وعلبتان من معجون الطماطم وعلبة لشرائح الأناناس. لقد احتفلنا بالوليمة هذه تلك الليلة، وكانت الفواكه الطازجة إضافة ممتعة لهذه المنطقة السفحية التي وصلنا الآن إلى عتبتها.

تقع قرية خفينة -وهي عبارة عن بناء واحد وعدد قليل من العشش المبنية من الأعواد- إلى جانب معظم أراضيها المزروعة داخل أراض يمنية حوالي (٤٠٠) أو (٥٠٠) ياردة إلى الجنوب الغربي من العمود الحدودي (رقم ٥٦ ب). كان معسكرنا قد نصب إلى الغرب منه داخل أرض سعودية. يقع مجرى وادي لحي على مسافة (٥٠٠) ياردة إلى الخلف ناحية الشمال الغربي من معسكرنا، وعليه يكون داخل أرض سعودية، بينما تمتد سلسلة منخفضة من ربوة دواد ثم تنحني بلطف لتكون شبه دائرة من حول القرية ومزارعها، التي يوجد الماء فيها في مسيل

(١) عشة سر المجدعة: هذا هو الاسم الصحيح لهذا العمود الحدودي، مع أن فيلبي ذكره باسم (سر أمجدع)، وهذا غير صحيح، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤٢٢ . (ابن جريس).

(٢) خفينة: اسم صحيح ولكن بعض الوثائق والمراجع ذكرتها كعمود حدودي بين السعودية واليمن باسم (عشاش خفينة)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤٢٢، (ابن جريس).

ضحل يمتد حوالي ربع مساحتها الزراعية داخل الأراضي السعودية. غير أن الترتيبات العادية كانت متبعة وهي أن تعالج أمورها وكأنها داخل أراض يمنية. كانت الليلة لطيفة وصافية ومضيئة بالقمر، ودافئة، وبعد القيام بدراساتي الفلكية، جلست فترة أطالع الصحف ورسائل الوطن، وقد جلبت آخر ما وصلني منها وهو ما لا يقل عن (١٨) خطاباً أسبوعياً من والدتي وكميات مماثلة من أفراد أسرتي الآخرين وبعدها استلقيت لأنام.

كان محمد بن طراد مرة أخرى طريح الفراش بالحمى، ولم يخرج لتناول العشاء، غير أنني بدأت أمله ورجال قبيلته، الذين -وبعد بداية طيبة معهم- انحط أمرهم تدريجياً تحت ضغط الترحال المتواصل وأسئلتي عن المواقع الكثيرة. كانت المشكلة الحقيقية معهم أنهم لا يعرفون الكثير عن محيطهم، ولمثل هذا المرض لا يوجد علاج. كان حديثهم وكلامهم، إلى جانب ذلك، غير منطلق مقارنة مع كلام بعض جيرانهم. كانت الكلمات عندهم ممضوغة وتطلق بلا وضوح، وكان عليّ أن أبذل جهداً كبيراً لأفهم أسماء الأماكن كما ينطقونها. اشتركوا مع جيرانهم في الكراهية الفطرية لأي صورة من صور الإجهاد أو الشدة، وكان من الضرورة أن يدفعوا دفعاً. أعتقد، مع ذلك، أن حياتهم كلها يجب أن تدور في فلك الفقر المدقع والكدح، ومثل هذه لا تقع على معظم الناس في أراضي أكثر ازدهاراً. تَكوَّن لديَّ الانطباع بأنهم قوم يذبلون تحت الشدة وفقدان الأمل في الوجود فوق أرض تجردت منذ أزمان بعيدة من أسباب الحياة. غير أن هذه الأرض نفسها -أرض تهامة عسير- كانت أفضل من ذلك كثيراً في الماضي، وربما تكون مرة أخرى، أفضل مما هي عليه الآن. يبقى -بالتأكيد- على الحكومتين اللتين تخترق حدودهما المشتركة هذه السهول والتلال، أن تفعلا شيئاً لمصلحة رعاياهم سيئي الحظ.

كشف لنا صباح اليوم التالي عن صورة واضحة لمجموعة من قمم للسلسلة الرئيسة حول كل من رازح، التي تقع ناحية الشمال من موقعنا، والنظير وحرم. كانت قممهما وسفوحهما العليا مبقعة بالمباني البرجية الخاصة بالمرتفعات، غير أن أجزاءها السفلى غاصت إلى أسفل تجاه سهل الجرف الرائع. تسمى حرماً أيضاً بني القم من اسم القبيلة التي تكوّن سكانها، والذين انتشرت مساكنهم فوق قممها الثلاث المنفصلة. واصلنا سيرنا على الأقدام عبر حقول خفينة إلى سلسلة غريب حرم المنخفضة على الجانب الأبعد. تسلقنا هذه إلى حيث عمودها الحدودي (رقم ٥٥أ) فوق مضيق منخفض، ينحدر من مسيل صغير منساباً إلى أسفل ناحية الشرق إلى داخل وادي لية، الذي ينحدر مجراه الأعلى في هذه الأرض المرتفعة من مرّان عبر غابة كثيفة الشجر.

نحن الآن إلى الشرق من خفينة ونرتفع فوقها بمسافة (١٠٠) قدم –حوالي (١٣٠٠) قدم فوق سطح البحر– بينما يقع مجرى لية عند أقرب أجزائه على بعد الميل الواحد. واصلنا سيرنا على مستوى الارتفاع نفسه إلى عمود مشبح أمدغوي[1] الحدودي على الجانب البعيد، حيث توجد حقول أمجدعة[2] بالقرب من قرية سعودية بالاسم نفسه على بعد ميلين ناحية الشمال، يعني هذا استدارة حادة في ذلك الاتجاه للحدود التي تخترق هذه الحقول، التي تمتد إلى الجانب الأيسر لخلب. يستمر خط الحدود إلى أسفل، ثم أعلى، مسيل أمدغوي الذي تغلبت عليه أجمة عظيمة من شجيرات المظ، وعاقت تقدمنا بعض الشيء. وصلنا

(١) مشبح أمدغوي: هذا اسم صحيح، مع أن بعض المراجع ذكرته (با أمدغوى)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤٢٣هـ (ابن جريس).

(٢) أمجدعة، أو (المجدعة)، أو (عشة سر المجدعة)، وجميع هذه الأسماء صحيحة. (ابن جريس).

فيما بعد إلى عمود سر أمدعاني[1] الحدودي (رقم ٥٣أ) على الجانب الأيسر للمسيل ومن ثم إلى عمود آخر بالاسم نفسه (رقم ٥٢أ) على الجانب البعيد لحوض سرأمدعاني الضحل حيث أزعج وجودنا سرباً ضخماً من الدجاج الحبشي. كان هذا العمود الحدودي الأخير مجرد كومة من قطع كوارتزية فوق صخرة من المادة نفسها في مقابل المظهر الأفضل للأعمدة القليلة الأخيرة التي واجهتنا.

عبرنا أرض التل فيما يلي هذا الموقع عند قرية مقبص السعودية على يسارنا إلى قرية المشاف اليمنية على بعد ٥٠٠ ياردة على يميننا، ومن ثم إلى الملاحيظ[2] وهي قرية معتبرة على الجانب اليمني. وصلنا بعد متابعة منحدر سهل إلى عمود مشبح الموقد الحدودي (رقم ٥١أ) والذي نظرنا منه على الملاحيظ نفسها، والتي يسكنها الحرث، قسم الجرو، وهم أنفسهم الذين يسكنون في المشاف. التحق بنا هنا شيخ شاب ودود يسكن المشاف، ومعه الماء لإنعاشنا ولاحظت أن أحد العبيد يحمل وشماً غريباً وعلامات للكي على بطنه على الجانبين من السرة إلى مفاصل أضلاعه السفلى. كانت شقوق حمراء فوق جلده الأسود. تعد كل هذه البلاد المتدحرجة الغابية أرض مراعٍ جيدة للمواشي، ويقطعها العديد من دروب البقر غير أن الغطاء النباتي كان كثيفاً بالدرجة التي حجبت عنا رؤية الحيوانات نفسها.

أذكر تماماً، ما قالته لي امرأة قد تحررت من الرق، في مكة منذ وقت مضى، أن موطنها هو قرية الملاحيظ حيث كانت تعيش في راحة مناسبة، مع والدها

---

(١) سر أمدعاني: هذا الاسم الصحيح الذي أوردته الوثائق والمراجع التي تحدثت عن الحدود بين السعودية واليمن، مع أن فيلبي أورده باسم (سر أمودعاني)، انظر. آل زلفه. عسير **في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٨٩، القباع، المرجع السابق، ص٤٢٣ . (ابن جريس).

(٢) الملاحيظ: هم أقوام يعودون إلى العقارب، مع أن فيلبي ذكرهم باسم (الملاحيت) والاسم الصحيح هو ما أوردنا. (ابن جريس).

وأشقائها حتى زار طاعون الحرب ذات يوم بلادهم، وتم قتل كل رجال القرية وسلبت مواشيهم. كانت هي وشقيقتها طفلتين صغيرتين حينذاك وقد أرسلتهما والدتهما للرعي بماشية الجيران، حتى هجمت عليهما ذات يوم عصابة من خاطفي العبيد وهما غافلتان وأخذوهما للبيع في أسواق اليمن، وبمرور الوقت تم إرسالهما إلى مكة وأدخلتا القصر الملكي وكوفئتا على خدماتهما بأن أعتقتا وتم زواجهما إلى خدم الملك، وقد انتهت ذكرى الأيام القديمة التعيسة للمأساة الأسرية والعبودية بحلول سنوات أسعد. دفعتني قصتهما أن أتمنى دائماً زيارة الملاحيظ، وها هي الآن أمامي، وأنا أنظر من الغابة نفسها التي شهدت بالتأكيد اغتصاب فتيات جارو، ربما قبل (١٥) أو (٢٠) سنة، أستطيع تصور المنظر في حيوية كافية، بعد أن رأيت حديثاً الفتاتين الصغيرتين في مثل هذه الأجواء المحيطة عند عمود قائم بشير الحدودي.

يطلقون على هذه الغابة الكثيفة الصعبة الاختراق المكونة من أشجار المظ والغلف اسم الوعش، وهي كلمة تدل على صوت يفيد بالصعوبة في هذا الموقع. كانت هنالك محاولات هنا وهناك لإزالة بعض أشجار الغابة لأجل الزراعة، غير أنني لم أر أي علامة لمحصول فعلي، على الرغم من أن الأفران ذات القواعد، التي كانت تحرق فيها الشجيرات لأجل الراتنج كانت تقابلنا من حين لآخر. كان هنالك واحد من هذه الأفران، أكثر بروزاً والذي اكتسب هذا العمود الحدودي اسمه منه، على السلسلة المقابلة فيما يلي مسيل بروت المتقاطع الذي يجد طريقه إلى أسفل إلى وادي لية. وصلنا في هذه السلسلة إلى عمود حدودي آخر اسمه مشباح الخريق (رقم ١٥٠) على بعد (٢٠٠) ياردة إلى جنوب غرب الفرن الذي كان في أعلى الموقع. تقع أمامنا الآن قريتا المجدعة ومقبص التابعتان للهزاهيز عند

قدم سفح سهل يقود إلــى الحقول. اتجهنا قليلاً ناحية الشمال الــغربي في اتجاههما تاركين الملاحيظ علــى مسافة تزيــد عن الميل الواحد ناحيــة الشمال الشــرقي. ملأ صياح القرود الجـو، غير أننا نادراً ما كنا نلمحها وذلك لأنها قـد حصرت زياراتها إلى المحاصيل التي في طور النضج، أثناء الليل.

عبرنـا حوضاً ضحـلاً يسمى حمررة أسـفل السفح لنصل إلى عمود حـمررة الحـدودي (رقم ٤٩أ) وعلى بعد مـسافـة (٥٠) ياردة كـان هناك عمـود المجدعـة الحدودي (رقم ٤٨أ) على الطريق الجنوبي لأرض زراعية واسعــة، اخترقها الشريط الحدودي دون أي علامة خارجية تميز حقول الملاحيظ إلى اليمين، وحقول المجدعة إلى اليســار. يقف عمود الفـياح[١] الحدودي (رقم ٤٧أ) في وسط الحـقول على مسافة (١٠٠) ياردة ناحية الشمال الغربي ثم يمتد الخــط الحدودي مسافة (٣٠٠) ياردة ناحية الجنوب الغربي إلى علامة مغربي الحدودية (رقم ٤٦أ). ثم تمتد الحدود مسافة (١٠٠) ياردة تجاه الشــمال الغربي، إلى حيث مجموعة من حـجارة صغيرة مختـفية تحت المحاصـيل النامية ويعتقـد أنها العمود الحـدودي (رقم ٤٥أ) واسمه ضومان وهو مـوقع لقاء ثلاثي بين أراضي الملاحيظ على أحـد الجانبين، وأراضي المجدعة ومقبص على الجانب الآخر.

تقع المجدعـة في مواجهة الحدود بحـوالي (٣٠٠) ياردة، ويقدر عمـقها إلى الداخل بضعف هذه المسافـة، ولا تزيد مساحتها عن (٤٠) أكـراً. تمتد مزارع قرية أمرّوي اليمـنية، على الجانب الأيسر لخلب، إلى الحـدود بالقرب من هذا الموقع،

---

(١) عمود الفيـاح، أو (أرض الفياح) هذا اسمه الصحيح في الوثائق والمراجع التي ناقـشت الحدود السعودية اليمانية، مع أن فيلبي ذكره باسم (أمفياحة)، وما ذكرنا هو الصحيح، انظر: آل زلفه، والقباع، المرجعين السابقين، ص ٢٩، ٤٢٣ . (ابن جريس).

غير أن مساحتها لا تزيد عن (٣٠) أكراً، بينما مساحة ملاحيظ تصل إلى (٤٠٠) أكر. تعادل مساحة مقبص مساحة المجدعة، بينما تكون مساحة بتول[1]، التي تنفصل عن مقبص بسلسلة رفيعة منخفضة، بذات حجم مقبص. يبدو أن المساحة المزروعة في هذه المجموعة من القرى حوالي (٥٥٠) أكراً. سرنا ناحية الشمال الغربي من ضومان، عبر المزارع حتى وصلنا إلى عمود أملج[2] الحدودي (رقم ١٤٤أ) أيضًا ينطق (أملي)[3] عند الطرف البعيد للحقول، التي استدرنا حول حافتها الخارجية ناحية الشمال الشرقي إلى قدم السلسلة التي ورد ذكرها. تسمى أمزعين تقود إلى أرض بتول عبر ممر ضيق، بينما يوجد عند نهايتها الشرقية عمود أمزعين الحدودي (رقم ١٤٣أ) الذي يفصل بين بتول وامّروي بصورة ما. كان هذا العمود على مسافة مرمى حجر من الجانب الأيسر لوادي خلب نفسه الذي يعلّمه عمود محول الحدودي (رقم ١٤٢أ) وقد حجبه الغطاء النباتي المزهر.

أقيم معسكرنا بالقرب من هذا العمود فوق مساحة مكشوفة على الجانب الأيسر لمجرى الوادي العريض المطعم بالصخور، والذي كان يجري منه جدول مهيب فوق بطن حصوي يحدث صوتاً أثناء انسيابه. أصبحنا قريبين جداً من الجبال الآن، وقد تحدد أمامنا المنظر الشمولي، غير أن قمم مران أكملت المشهد لوادي خلب الذي تحوطه الصخور، وينحدر من ناحية الشمال بالنسبة لها، من كتلة

(١) بتول: هو الاسم الصحيح، مع أن فيلبي ذكره بثول، وهذا غيرسليم. (ابن جريس).

(٢) أملج: هو اسم صحيح ويطلق عليه أيضاً اسم (خشم أملج) (ابن جريس).

(٣) في بلاد تهامة والسراة كثيراً ما يقلب الناس حرف (الجيم) إلى حرف (الياء) فيقال مثلاً على الجمل (يمل) أو على الجبل (يبل) وهكذا. وكما ذكرنا سابقاً، فإن دراسة اللهجات في هذه الأجزاء من الجزيرة العربية جديرة بالدراسة، ونتمنى أن نرى بعض طلاب الدراسات العليا والباحثين في المملكة يلتفتون لمثل هذه الجوانب العلمية القيمة. (ابن جريس).

متوجة بقمتي كل من بحري وفت. يجري مسيل مض[1]، مباشرة في مقابل معسكرنا، داخل الوادي عن طريق جانبه الأيمن من سلسلة أمحطيمي العالية الكثيفة الأشجار، والتي منها ينحدر أيضاً صدع أبو أمسيالة، الذي يدخل إلى المجرى على مسافة (٣٠٠) ياردة فوق مض. تكون الجانب الأيمن للوادي من صخر ارتفاعه (٥٠) قدماً، بينما مال السهل المزروع على جانبنا، والذي تحفه الغابات، في لطف إلى أسفل إلى مستوى الماء. وقفت قرية بتول الصغيرة على الجانب الأيمن على مسافة الميل الواحد إلى أسفل، غير أن معظم أراضيها الزراعية كانت على الجانب الآخر، وكان الاتجاه العام للمجرى المشاهد هو من الشرق إلى الغرب، وتخترقه الحدود باتجاه الشمال الغربي حتى سلسلة أمحطيمي.

احتفلت بوصولنا إلى هذا الموقع بأخذي حماماً طيباً في مياه الغيل، ثم استلقيت لأنال غفوة الظهيرة والتي تأخرت إلى الساعة (٤,٣٠) وحتى غروب الشمس. غطت السحب السماء وكان القمر -حين ظهوره- محاطاً بهالة تامة، غير أن كل السحب اختفت عند منتصف الليل واستطعت ملاحظة النجوم كالعادة. لم تمنعني حقيقة أن التوقيت الصحيح بواسطة اللاسلكي قد توقف، وأنني كنت أعتمد على ساعات الكرونوميتر، التي لا يعتمد عليها، عند الاستمرار في هذا العمل، غير أنني لم أندهش لأكتشف في وقت لاحق أن الكثير من جهدي قد ضاع.

أضاف أمير الخوبة إلى كرمه السابق، زوجاً من الضأن للعشاء، غير أنه وعند منتصف الليل دبت حركة في المعسكر تفيد بوصول الشيخ إسماعيل، شيخ قسم

---

(١) مض: اسم صحيح ويطلق عليه أيضاً اسم (روس أبو مض). (ابن جريس).

الكعوب التابع لقبيلة الحرث، والذي سندخل منطقته غداً. كان وصوله علامة الانفجار لمحادثات مرتفعة الصوت تدور حول ثبوتية السمات المختلفة التي كان يحوطها الشك أثناء النهار، وبخاصة سلسلة عالية أمامنا ذات قمتين، والتي قد أسماها لي محمد بن أحمد بن طراد بأنها ملحمة. كنت متطلعاً لمعرفة الاسم الصحيح، بسبب أن الرأسين يقعان على جانبين مختلفين للحدود، وأنه يوجد عمود حدودي في السرج الذي يصل بينهما، وقد راهنت محمداً بجنيه ذهبي أن هذا الاسم لا ينطبق عليهما معاً. تكمن هنا الإثارة. كانت الطلقة التي أرسلها الزائر الجديد أن الرأس اليمنى يسمى الملحمة العليا -ربما أم لحمة- والثاني الملحمة الواطية[١] وحقيقة هي الملحمة العليا والملحمة السفلى بالتوالي. كان محمد مسروراً بالطبع لأن معلوماته صادقة، غير أنني أعتقد أنه كان مسروراً بالمستوى نفسه عندما افترقنا في الصباح التالي، حينما أضفت مبلغ (٢٠) ريالاً للمكافأة له ولأتباعه لما قدموه من خدمات.

تداخلت محادثاتهم مع أزيز. البعوض أثناء محاولتي النوم، غير أن للطبيعة مسارها أحياناً، غير أنني اضطررت إلى تغطية رأسي بالبطانية اتقاءً للحشرات الملحاحة الصغيرة. كان لدينا بعض البعوض في خفينة غير أنه لم تكن هذه الحشرات هناك، ولا حتى هنا بشراسة بعوض وادي لية. كانت بقية الحشرات نادرة وذلك لأنها خلال هذه الليالي تكون في التلال وأنا في حيرة تماماً من أمري لتفسير هذه الظاهرة. لا نزال في يناير، وهذه حقيقة، غير أنه في خط العرض هذا فإن الطقس كان دافئاً أكثر من أي فصل صيف في انجلترا، وكانت الطيور معششة. لم تخذلني الطيور -بحق- أثناء النهار وقد تضمنت حقيبتي المتحفية طائر صائد ذباب

(١) الواطية: أي السفلى، وهذه لفظه محلية تستخدم في معظم بلاد تهامة والسراة. (ابن جريس).

الجنة، وطائر الوقواق التهامي، والحمامة الحبشية وهو آخر طائر شوهد في أسراب منتظمة حول المزارع في هذه القرى. لاحظت كذلك سرب قطاة ونحن نقترب من وادي خلب.

لم يكن هنالك ما يدعو لبقـائنا في خلب بعد أن تناولنا الإفطار وقمت بمسح البلاد من حولنا كعـادتي، ولذا فقد ضربنا فوق الطريق عبـر المجرى وتسلقنا عرن مض إلى حيث العمود الحـدودي (رقم ١٤١أ) الذي وصلناه خلال ست دقائق ويقع على ارتفاع (٥٠) قـدماً فوق الوادي وحوالـي (١١٥٠) قدماً فوق سطح البـحر. التقـطنا أفضل مـشهد مـن هذا الموقع لقرية الملاحـيظ، التي تقع في قسـمين إلى الخلف من مجرى خلب. كان الجزء الرئيس للقرية مميزاً بمقر إقامة الشيخ يحيى أم عمـر المهـيب المطلي باللون الأبيض، والشـيخ يحيى هو رئيس قـبيلة بنـي الجرو والحرث. توجد في القريـة أيضاً منازل مبنية أخرى، غير أن مـعظم المساكن كانت عشـشاً من الأعواد، وهي التي تكون أيضـاً القسم الآخر للقـرية. لاحظت خلال وجودنا في المـعسكر أن بعض بني الحـرث يحملون إلى جـانب المعطف الصغـير الأسود القـصير الأكـمام وخرقـة القماش فـوق العورة عـدداً من الخرق مخـتلفة الأطوال، تتباين حسب ظروفهم الاقتصادية، إما ملفوفة حول خصورهم أو ملفوفة حول قـبعاتهم الضيـقة أو رؤوسهم العـارية كعمـامة منفردة أو مزدوجـة. وإذا ما أحسوا بالبرد فإنهم ينزعون أحد هذه الأقمـشة ويلفونها حول أكتافهم ويحدث هذا في الصـباح البـاكر وفي المسـاء المتأخـر الذي يكون عادة بارداً، وحين يجلـسون القرفصاء فإن واحداً أو أكثر من هذه الأقمشة يوظف كملاءة أو بطانية، مغطياً المرء كله من رأسه إلى أخمص قدميه، ضد البرد وضد البعوض. كان فراشي أكثر دفئاً من فراشهم غير أنهم لم يستوعبوا إطلاقاً كيف أنام ووجهي مكشوف تماماً.

يقع جرف أمحطيمي[١] البارز ناحية الشمال الغربي من موقعنا مع سلسلة تصله مع المضيق، أمامنا تماماً على خط ينطلق من معسكرنا ومنه تجري سلسلة متعارضة إلى الخارج لتفصل مسيل مض عن مسيل السيالة[٢]. ينحدر مسيل مض من المضيق، وعلى الرغم من أن اتجاه العمود الحدودي التالي هو ناحية الشمال الشرقي، تجاه السلسلة المتعارضة، إلاَّ أننا ظللنا نسير على الأرض المرتفعة لتحاشي الهبوط إلى أسفل المسيل ثم الصعود علية مرة أخرى. وصلنا السلسلة المتعارضة، بهذا الأسلوب، على يمين المضيق عند ارتفاع (١٥٠٠) قدم فوق سطح البحر وتتبعنا سنامه إلى أقصى ارتفاعه - (١٧٠٠) قدم فوق سطح البحر-، وبذلك نكون قد استدرنا حول جرف أمسيالة إلى جانب سيطرتنا على منظر ممتاز. كان مجال الرؤيا جيداً برغم الضباب الخفيف، وقد قضيت نصف الساعة هنا وأنا استمتع بهذا المنظر البانورامي البديع بينما واصلت القرود صياحها الدائم من حولنا داخل السفوح الكثيفة الأشجار. لمحت الخوبة، وأنا أنظر ناحية الغرب، مباشرة فوق المضيق، وهي واضحة فوق السهل العظيم وعلى الجانب الأيمن لوادي خلب[٣]، تسندها من الخلف على مسافة مجموعة من الربوات المرتفعة تشتمل على طحنان، والديك، وعاصم، وغراب، وغيرها. يقع جرف أمحطيمي إلى ناحية الجنوب الغربي في الخط نفسه مع جحفان البعيدة، بينما كان معسكرنا في وادي خلب ناحية الجنوب. وقف كل من مفتاح والغولاء في وتر من ناحية الشرق إلى الشمال الشرقي، وهما قمتا مران إلى جانب فوت وبحري وغمر. شمخت

---

(١) أمحطيمي: اسم صحيح ويلفظ أحياناً باسم (الحطيمي). (ابن جريس).

(٢) السيالة، أو (أمسيالة) أو (أبو أمسيالة) كلها أسماء صحيحة وتطلق على هذا المكان. (ابن جريس).

(٣) للمزيد من الإيضاح عن وادي خلب، انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٦٩. (ابن جريس).

قمة رازح من جهة الشمــال كاشفة عن مبانيها البرجية العــالية، ويقع النظير بقربها ناحية الشمــال، بينما وقفت كل من الحماطة وشدى وتوجــد في الأخير هذا قلعة الإدريسي عند القمة، وقرية خبتة بارزة على العرن الأسفل - ناحية الشمال الغربي قبل أن نستدير لنصل إلى أسفلهما عن طريق بلاد جبلية والتي أراحتنا ونحن نتابع الحدود- وهي تويلق وذي نمر ومن خلفهما الملحمتان.

هكذا كــان المنظر العــام حول الخــوبة. ويعــد وادي خلب -بالطبع- الوادي السائد في هذه المنطقة ويخــرج إلى داخل السهل فوق أرض طينية شاسعــة منتشرة من الحافة الجنوبية لمزارع المجــدعة وشمالاً حتى الخوبة، حــيث يدخل مجرى آخر مهم هو وادي ذهبــان، من الجانب القريب من سلسلتي تــويلق وذي نمر من منابعه في الجبال العاليــة في مجموعة رازح - والحماطة. يوجــد كذلك خط صرف مهم ثالث في وادي مــجارف الذي ينبع من جــوار كل من غمــر وبحري ويتــصل مع ذهبان عند موقع يبعد ثلاثة أميال من مــوقعنا في اتجاه الشمال الغربي. كانت هذه هي الشرايين الرئيسة الثلاثة للمنطقة، ولا بد أن تكون كــمية المياه التي تحملها إبان السيول ضخمة. تتواصل حــقول الخوبة مع اتجاه أسفل الوادي مع تلك في قوًى، التي تقع على الجانب الأيمن لخلب، والذي توجد في بطنه، قليلاً أسفل قوة ينابيع وغرة الحارة المشهــورة، والتي سيرد عنها الكثير في وقت لاحق. كــما توجد قائم على الجــانب الأيسر لذهبــان، الذي ينحني مجــراه الغربي بعنف ناحــية الشــمال الغربي، وتقع قيمة على جانبــه الأيمن قليلاً أسفل مدخل مجــارف، الــذي على جانبه الأيســر والأيمن تقف قريتا البرمــية والقرقاعي بالتوالي. تــوجد بالطبع قرى أخرى سنذكــرها حينما نصلها، غــير أن مزارع منطقة الخــوبة يبدو أنها تمتد مــعها مســاحات غــابية متــقطعة إلى الخــارج إلى محيط تلال الديك - والــعاصم، التي

يتركها وادي خلب، الذي اتصل به ذهبان، على مسافة طويلة أسفل قوَّى، ليتجه إلى الشمال في طريقه عبر السهل.

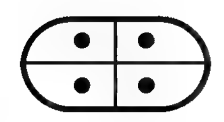
واصلنا متابعتنا لسنام السلسلة من هذه القمة، متجهين شرقاً، تسبقنا بالفعل عائلة مزعجة من القرود التي لمحنا بعضها بين الفينة والأخرى، حتى وصلنا إلى عمود مدبع[1] الحدودي (رقم ٤٠أ) على ارتفاع القمة نفسها. كان هذا هو العمود المئة من الساحل، بمتوسط عشرة أعمدة نقوم بزيارتها في اليوم الواحد. كان اتجاه الخط المباشر بين عمود مض وهذا العمود هو ناحية الشمال الشرقي وقد سافرنا حول جانبي مثلث لنصل إلى هنا. علينا الآن أن نرجع إلى أسفل إلى الوادي شئنا ذلك أم أبيناه، ذلك لأن العمود الحدودي التالي يقع جهة الشمال، ويقع منخفض وادي شعبة الواسع المغطى بالغابات، وهو رافد ينساب من جهة الغرب لمجارف، بين النقطتين. وصلنا إلى أسفل قليلاً من القمة إلى صخرة مكشوفة والتي استغلت مستعمرات النحل شقوقها وتصدعاتها كبوابات للدخول إلى خلاياها بالداخل، كان النحل شديد النشاط قدوماً ورواحاً، ولم تكن هنالك مضايقات من جانبنا نحوها حينما توقفنا بجوار الصخرة ونفحص قلعتها الغريبة الحصينة. كان الأسلوب الوحيد للحصول على العسل هو استخدام أعواد طويلة نحيلة، واتضح لنا أن اللصوص من بني البشر قد ارتادوا هذا الموقع؛ بسبب وجود علامات تدل على نيران الفحم عند المدخل لبعض هذه الخلايا لتخدير الحشرة بينما اللصوص منهمكون في العمل.

---

(١) عمود مدبع: يطلق عليه أيضاً اسم (غارب مدبع)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤٢٣ محمد آل زلفه، المرجع السابق، ص ٢٩٠ . (ابن جريس).

وصلنا بعد هـذا التحول إلى قـاع الوادي زاحفين عبـر الغابة وقـد انغرز في رجلي عود خشبي حـاد، أسفل الكعب. انبثق الدم حين نزعتهـا، بكميات تدعو للقلق، غير أن رفاقي كانوا ذوي معرفة وأحضروا لي كمادة من ورق المظ الأخضر لإيقاف النزيف من الجـرح. توقف النزيف تماماً بعد فـترة وجيـزة، واستطعت أن أواصل السير، بعـد أن لففت قدمي بقوة بالمناديل من فـوق الكمادة، فوق الطريق الصعب المنحدر على الجـانب البعيد. أزعجت حركتنا سـرباً من طيور الحجل في الطريق، غير أنني لم أتمكـن من رؤيتها بوضوح لأتأكد من النوع وغـالباً ما يكون هو (A.melanocepha) عند هذا الارتفاع المنخفض.

وصلت إلى عمـود غارب أمـسوايد[1] الحدودي (رقم ١٣٩أ) مع بعض الألم والصعوبة، فـوق مضيق يطل على وادي مجارف على الجـانب الآخر، اتجاه أعلى الوادي، بالنسبـة لمدخل وادي شعبـة. ويبدو أن كل الصخـور في بلاد التلال هذه من مادة الشست المايكـا الذي ورد ذكره، مع تكشف يزيد أو يقل للكوارتز، الذي كان قليل الظهور مـنذ أن غادرنا حلب. يحرق الشست محليـاً لعمل الكلس لبناء المنازل في الجوار وأيضاً، وبدون شك للآبار، غير أن هذه الحقيقة برزت في ذهني عن طريق الصـدفة. لم أكن أفـهم لماذا لما كنا نتبع الطريق، تـرافقنا على فـترات حجارة أو قطع من الصخر عليها الرسم التالي:



(١) غارب أمسوايد: هذا هو الاسم الصحيح لهذا العمـود الحدودي بين السعودية واليمن، مع أن فيلبي ذكره باسم (عمود سوادي)، وهو اسم غير صحيح. (ابن جريس).

وهو معلم عليها وكأنه طلاء. صرف الشيخ إسماعيل تساؤلاتي بقوله إنَّ هذه العلامـات ما هي إلاَّ مجرد شـخبطة لبدو عاطـلين، على الرغم من أنها بدت لي وكأنهـا -على الأقل- تشيـر إلى الطريق، كمـا كانت وظيفـة أكوام الحـجارة في الصحراء. لقد أدركت أثناء سيري أن عمود مض الحدودي كان موقع لقاء ثلاثي، لكل من الكعوب والهزاهيز على الجانب السعودي، الجرو التابع للملاحيظ والقرى المجاورة في اليمن. كان السوق الرئيس في الظـاهر، أيضاً قرية تابعة للجرو، التي هي أيضاً مركـز الرئاسة الإداري للعامل أو ضابط المحافظة اليـمني. أمكننا رؤيتها بارزة واقفة على التل الهـرمي ويتوجها حصن الحكومة ناحـية الجنوب الشرقي إلى يسار المروي والملاحيظ. كان ارتفاع عمـود أمسوايد الحدودي، (١٦٠٠) قدم فوق سطح البحـر، وكان علينا أن نهبـط بمقدار (٣٥٠) قدماً لـنصل إلى البطن الجاف الحصوي لوادي مجارف - ويبلغ عرضه هنا (٥٠) ياردة - والذي يقف على جانبه الأيمن عمود مفجر الوحش[١] الحدودي، وقد اكتـسب اسمه هذا من غابة المظ[٢] التي تحيط به (رقم ٣٨أ). يتجه الوادي ناحية الغرب، ويكون الحدود وكان العمود التالي ويسـمى مهـد العقم[٣] (رقم ٣٧أ) أيضاً على الجـانب الأيمن، وقد وصلناه خلال عشرين دقيقة سيراً على الأقدام وكان سيراً صعباً.

---

(١) مفجر الوحش: هو الاسم الصـحيح لهذا العمود الحدودي، مع أن فيلبي ذكره باسـم «عمود الوعشة»، وهو اسم غير صحيح، انظر. القباع، المرجع السابق، ص ٤٢٣ . آل زلفه، المرجع السابق، ص ٢٩٠ . (ابن جريس).

(٢) المظ: هذا اسم لشجر، وربما يطلق على اسم مكان وهو (عمود مض)، واسم هذا العمود وجدناه يُكتب بهذه الطريقة في المراجع والوثائق، انظر. القباع، المرجع السابق، ٤٢٣ . (ابن جريس).

(٣) مهـد العقم: هذا الاسم الصحـيح، مع أن فيلبي ذكره باسم (أم عـقم)، وما ذكرنا هو الصـحيح. (ابن جريس).

قابـلنا ثلاثة رجال أثناء هبـوطنا يتـبعـون بلاد الجرو، كلهم مـسلح بالبنادق والأحزمة العريضة. كانوا مـسالمين وودودين غير أن منظر الأسلحة هذا يجعل المرء ينتبه لحقيقة أنه في كل البلاد التي عبرناها من مغادرتنا الساحل، فإن امتلاك ولبس مثل هذه التجهيزات ممنوع بأمر القانون في المملكة العربية السعودية. لا يوجد مثل هذا القانون على الجانب الآخر من الحدود، ومعظم رجال القبائل يمتلكون البنادق، غير أن المرة الوحـيدة التي رأيتهم فيهـا كانت في معسكرنا في العـبادية، حين قام بزيارتنا بعض الناس من قرية يمنية مجاورة.

أرسلت قافلة جمال العفش التي سلكت طريقاً سهلاً إلى موقع معسكر الليلة وفي إحســاس صائب، شحنة من الماء إلينا عند عـمود مفجـر الوحش الحدودي، وقد انتهزت فرصة وصول الحمار الذي يحمل الماء، لأركب عليه من ذلك الموقع، لأن قدمي لا تزال تؤلمني. لاحظت الكثير مـن رسوم الكلس على الصخور وعلى فترات على جـوانب الوادي، بعضها للحـيوانات، وبعضهـا بقايا من رسم للعلم الإنجليزي.

وعلامـات أخرى، وكلها من نوع رديء. إنه لمن السـعادة أن يجد المرء نفـسه راكباً بعد الـتسلق المرهق في الأيام الأخيرة، وليزداد الأمر حـسناً، فقد هبت رياح شماليـة باردة عبر طريقنا تحت سـماء ملبدة بالسحب بما فـيه الكفاية ، لتخـفيف حرارة شمس الظهيرة.

تقف قرية مهد العقم الصغيرة على الجانب الأيسر مقابل كومة حجارة بسيطة تعلم الحدود، كما يوجد ثقـب مائي ضحل في البطن الرملي للوادي الذي يفصل بين الاثنين، ومنه يقوم القرويون بسـحب حاجتهم من الماء. كانت نسبـة كبيرة من

سكان هذه المستوطنات أفريقية الأصل (ربما عبيد أصلا) بينما كان البعض الآخر خليط من دم عربي وأفريقي بدرجات مختلفة. لا يخلو أحد منهم من أثر لذلك غير أن العديد منهم كان جميل المحيا. لقد رأيت فتاة صغيرة آية في الجمال، مكسوة بقماش مصبوغ بالأزرق -صبغة الأندقو - النيلة-، وهي توجه ثلاثة جمال بضربات عنيفة من سوط صغير. تجمع حشد كبير حولنا ونحن نتباطأ لفترة، غير أنهم جاؤوا لإلقاء نظرة هي بالنسبة لهم شيء جديد فعلوه. كانت مهنتهم المحبوبة -فيما يبدو- هي الجلوس، ولم أستطع مقاومة الإغراء بالتقاط صورة لمواطني مهد العقم وهم مشغولون بهذا النشاط المبهج. كانوا كلهم من قسم الهزاهيز وكلهم رعايا سعوديون. أمكننا رؤية قرى البرمية والقرقاعي إلى جانب مهد العقم، على جانب المجرى إلى أسفل، بينما تقع على بعد الميل الواحد فيما يليهما عند موقع التقاء مجيرح مع ذهبان، قرية القيمة كم[١] الصيابة المزدوجة الكبيرة. توجد أيضاً قرية صغيرة تسمى رعشة بين مهد العقم والبرمية بينما تقع قريتا قمبورة ومتالع على الجانب الأيمن لوادي ذهبان أعلى الملتقى. وتقع قرية الحصامة مقابل متالع على الجانب الأيسر داخل أرض يمنية، وهي قرية كبيرة.

تحركنا باتجاه ذهبان ناحية الشمال الغربي على امتداد حافة مزارع القرقاعي، التي تندلق داخل أراض يمنية في أكثر من موقع.

وصلنا بعد ذلك إلى عمود قلة الخميسي (رقم ٣٦أ)، والذي منه أمكننا رؤية موقع التقاء المجريين قليلاً ناحية الجنوب الغربي، وكذلك قرية رحيم التابعة للهزاهيز عند أسفل سفح أمحطيمي ومباشرة أسفل المضيق الذي يقع ناحية الجنوب

(١) كلمة (كم) عند أهل جازان تساوي كلمة (مثل). (ابن جريس).

الشرقي من مـوقعنا ويكوّن الجرف العظيم قليـلاً ناحية اليمين من مـوقعنا. وصلنا إلى الجانب الأيسـر لوادي ذهبان وعمود العـجيبي[١] الحدودي (رقم ٣٥أ) خلال خمس دقائق.

يحمـل المجرى جدولاً جـارياً بطيئـاً متـجهاً إلـى أسفل إلى ما يلـي مدخل مجـيرح، ثم يعـود للظهور بشكل مـتقطع في المرتفـعات السـفلى للوادي، الذي يتصل مع خلـب في جوار سوق الأحـد إلى الخارج تماماً فـوق السهل. تتـشابك حقول القـيمة[٢] أسفل منا وحقـول الحصامة إلى أعلى بطريقة مـربكة على امتداد هذا القطاع من الحـدود، ولربما كان أهم شيء في مـثل هذه الحالات أن القـرويين على جانب الحـدود يعرفون حـقولهم الخاصـة بهم بأسلوب أفضل مما يعـرفون به شريط الحدود الرسـمي. تتبع الحدود خط المجرى إلى حيث موقع دخـول شعيب مضس من الجانب الأيمن في مقابل الحصامـة، ثم يمتد على شكل مسيل إلى عمود مضس الحدودي (رقم ٣٤أ) على جانبه الأيمن، حيث سنقضي الليلة.

أخذت حاجتي من الراحة في المعـسكر، ثم تجولت بين ضفاف ذهبان المغطاة بالأشجـار وعلى امتـداد جدوله، الذي كـان بطنه يحمل مـساحات مـن القصب المنخفض وعشب مـروج غزير من حين لآخر. انتهى بحثي عن الطيـور باكتشاف سرب ضخم من الطائر النساج أحمر المنقار، غيـر أنني مررت بمجموعة من فتيات القرية يقمن بتجـهيز نبات من الصبار يسمى السلب، يشبـه السيسال، لأجل عمل

---

(١) العجيبي: يطلق عليه أيضاً (رومة العجيبي). (ابن جريس).

(٢) القيمة: يطلق عليها أيضاً لفظ (أمقيمة). (ابن جريس).

الحبـال[1]. يشق غـمد أو سـاق النبات ويتـرك في أكوام تحت غطاء من الأعـواد ليجف ويتحلـل. تغمس الألياف -بعد أن يتم ذلك- في الماء ثم تضـرب بالحجارة لإنتاج الخيوط الرفيعة التي يحتاج إليها لصنع الحبال.

يتبع سكـان الحصامـة وآل مهري الذين يـسكنون الزاوية التي يكونها مـجرى مضس ومجرى ذهبان على الجانب اليمني، إلى بني دهلي الحرث وتعيش مجموعة آل الحصـامي في قريتين منفصلتين صـغيرتين يكونان القـرية. تلقيت التحـية عند وصولي إلى المعسكر من أمير الخوبة بالوكالة، الذي جاء من مقر رئاسته وبصحبته مجموعة من تابعيه الأوفياء ليرى ما يمكن عمله من أجل راحتنا. يعد الأمير غريباً عن هذه الأنحاء كـما أعدّ أنا هنا، ذلك لأن علي بن حـسين النجيب هو من أبناء قرية شقراء[2] بالقرب من الرياض، ولكن ضرورات الخدمة المدنية هي التي أرسلته إلى هذا المنفى في جنوب تهـامة. فـعل حسن كل مـا في وسعـه دون التظاهر أنه يحب العمل ولما كان لا يزال شاباً، فقد كانت له رؤيا متـفائلة لخدمة متميزة لمليكه وبلاده. كان هو أول من شغل وظيفة بالإنابـة، إلى جانب ذلك، كضابط منطقة. كـان صاحب المنصب الدائـم غائبـاً في إجازته ولم تـكن الخوبة أسـوأ مكان في العالم. أحضر علي مـعه الشاة التي لا مفر منها لأجل العشاء وقـرعة كبيرة مملوءة بعسل الجـبال اللذيذ، والكثيـر من الفاكهـة، ذكر لي أن الباباي والموز جلبـتا من مزارع شدى المسطبيـة في اليمن، غير أنه إذا كانت الفاكـهة تأتي من الخارج، فإن

(١) لمزيد من الإيضاح عن الأشجار الصالحة لعمل أنواع الحبال، انظر: الدينوري، **كتاب النبات**، وبخاصة تحقيق (برنهارد لفين) بمدينة (بفسبادن)، حيث ورد بهذا الجزء فصل مستقل يشرح الأشجار الصالحة لصنع أنواع الحبال. (ابن جريس).

(٢) بلدة شقراء: على مقـربة من الرياض، أما فيلبي فقد أورد عبارة (قرية شـعراء) وهذا الاسم غير سليم. (ابن جريس).

الوافدين أقبلوا بأعداد كبيرة أيضاً إلى الخوبة للاستمتاع بينابيعها الحارة. كان فخوراً جداً بهذه الخاصيــة لمنطقته وكذلك بإمكانياتها الزراعيــة الواسعة. بدأ رحلة عودته إلى الخوبة بعــد مشاركــتنا العشاء، وتبعــد حوالي (٣) أو (٤) أميــال عنا، وضوء القمــر ساطع، مع وعد مــنه للّحاق بنا في الصبــاح في جابري أو بالقــرب منها، القرية التي يوجد بها أحد مراكز جمارك الحكومة.

لقد تعشيت جيداً تلك الليلة، والتهمت حوالي (١٢) أصبع موز شدى، كما ارتحت لما تأكدت بأن المســمار التــانجستي لمزواتي لا يمكن إصــلاحه. انتشــر حزام عظيم من السحب، عــندما كنت أعد نفــسي للنوم تحت ضوء القمــر الذي كاد أن يكتمل، عبــر السماء من جهــة الشمال الشرقي إلى الجنوب الغــربي. كانت درجة الحرارة الدنيا هنا، كــسابقتها في الليلة الماضية، فــي خلب أيضاً (٥٧) درجة وكان رفاقي يرتعشــون من البرد في الصباح حينــما انضممت إليهم حــول نيران المعسكر لتناول فنجان قهوة.

التقطت مشهــداً عظيماً من هذا الموقع، قبل شروق الشمس حــينما كان الجو صــافيــاً كالبلُّور، لسلسلة الجــبال الحــاجــزة وبالذات كتلة رازح - والنظيــر، التي أصبحت الآن قريبة منا في وتر يمتد من الشــمال إلى الشمال الشرقي. كانت رازح من بين الأقســام الفردية في هذه المجموعــة، هي الأكثر تحدراً، ووعــورة وسكانها أقل. يرتفع النظير -مثله مثل رازح وحرم- إلى (٧٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، ويبدو مهيبــاً جداً وعلى رأسه المسجد الأبيض البارز وقلاعه المحــصنة منتشرة فوق سفــوحه العــريضة. يمتد ناحــية اليمــين صف نظامي للمنازل على امتــداد الجرف الجبلي، الذي يصل جبل الحماطة العظيم حتى السنام التالي لمثلث حُرم.

لا يظهر لنا في كل هذه الحالات الجزء الأكبر من المستوطنات، لانتشارها إلى أسفل على السفوح السهلة الشرقية لهذه الجبال، غير أن بركان، أقصى قمة ناحية الشمال، كانت هي الأجمل والأغرب إذ بها أربع مجموعات من المباني كل منها يكون قرية معتبرة الحجم، تنتشر على فترات على امتداد السلسلة، التي تقع قمتها على ارتفاع (٥٠٠٠) قدم أو يزيد، ويبدو أن شدى، التي يعلوه حصنه، يقع على ارتفاع (٤٠٠٠) قدم ويتقدم على الحاجز الرئيس، كما كان حماطة، حوالي (٣٥٠٠) قدم وقد كانت سفوحه مغطاة بالفعل بالمباني. توجد في كل هذه الجبال، بالطبع زراعة مصطبية واسعة.

واجهتنا سلسلة تويلق[١] وهي في الاتجاه العام لشدى (شمال غرب) وأكثر ناحية اليسار، على امتداد الحدود ونحن في سفرنا عبر غابة كثيفة من أشجار المظ والغلف والأراك وغيرها إلى هضبة منخفضة هبطنا منها في بلاد مماثلة، إلى عمود لحج أموعر الحدودي (رقم ٣٣أ) على الجانب الأيسر لوادي أمجرع الذي يمتد عبر طريقنا من الشرق إلى الغرب عند ارتفاع منخفض على يمين قدم سلسلة تويلق التي تتبعها حتى اندلق في ذهبان. يأخذ العمود اسماً آخر بديلاً هو عقار بلا سبب ظاهر. ويقف عند ارتفاع (١٠٠٠) قدم.

تمضي الحدود من هنا مباشرة فوق تويلق على اتجاه الشمال الغربي بعرن يقع على يمين القمة الفعلية، غير أنه، ولأسباب لا يصعب تحزرها، لا يوجد عمود

---

(١) جبل تويلق: هذا الاسم الذي سمعت السكان المحليين يلفظونه، وكما ذكره فيلبي، ولكن في بعض المراجع والوثائق التي ناقشت حدود اليمن والسعودية ذكرته باسم (جبل تويريق) وأحياناً أوردته باسم (جبل تويرلق)، وأعتقد أن الاسم الصحيح هو ما أورده فيلبي وما ينطقه سكان أهل تلك البلاد. (ابن جريس).

حدودي هنا لا على العرن ولا على أي موقع آخر على أي من السفحين للسلسلة. كان رفاقي يتمنون أن أطوف حول التل في مثل هذه الحالات، غير أنني خذلتهم في هذا، بإصراري على متابعة الحدود كما هي. انتشر أمامنا قطيع من الغزلان، بمجرد دخولنا الوادي، كانت تستريح أو ترعى فيه. لم نتحصل على إصابة صيد منها، على الرغم من حاجتي إلى تضمين عينة لحيوانات المرتفعات هذه، ولا بد أنها من نوع مختلف من غزال الأدمي الشائع في السهل. كان هنالك العديد من القرود والدجاج الحبشي في هذا الوادي الكثيف الأشجار وفي السفح فيما يليه، وأظن أنه في هذا الموقع، رأيت شجرة الإبراه المنتشرة، التي وردت من قبل. سلكنا الطريق الذي يقود إلى وادي دهوان الذي يمضي حتى رأس أمجرع، وعلى جانبه الآخر يقود مسيل مماثل إلى الوادي الرئيس، الذي يوجد فيه عدد من القرى اليمنية وأيضاً الجابري حيث تعبر الحدود. ترجلنا عن الدواب في هذا الموقع لنسير على الأقدام إلى تويلق نفسه، مبتدئين من ارتفاع (١٢٥٠) قدماً، ووصلنا قمة العرن الأول واسمه مثن الصبط عند ارتفاع (١٩٠٠) قدم، بسهولة وخلال (٢٥) دقيقة. تمر الحدود القائمة مباشرة من لحج أموعر من خلال هذا الموقع إلى أبو النكره[1] عند ارتفاع (٢١٥٠) قدماً.

كان هذا الجزء يتطلب تسلقاً صعباً عبر بلاد كثيفة الأشجار وصعبة وقد استغرق وصولنا إليها ساعة كاملة، غير أن هذا يعزى أيضاً إلى حقيقة أنني شعرت فجأة بأنني على غير طبيعتي. لم تكن البقعة التي نهدف إليها بعيدة عنا، فقط

---

(١) أبو النكرة: هذا الاسم الصحيح لهذا الموقع، مع أن فيلبي ذكره باسم (معو النكرة)، وهذا غير صحيح. (ابن جريس).

على ارتفاع (٥٠) قـدماً، كما تحـققت من ذلك حينما عـدت إلى الموقع في اليوم التالي، غيـر أنني لم أستطع فعل شيء فيمـا يلي هذه القمة الثانوية، وعليـه فقد قررت أن أخلد إلى الراحـة. أصابني القيء العنيف بعـد دقائق قليلة وبدأت أحس بآلام الحمى الزاحفة. أعدّ لي رفاقي -وقـد انزعجوا لحالي- فراشاً من أوراق المظ وغيره من النبات، وعليه اسـتلقيت بلا غطاء -ذلك لأن كل عفشنا قد تم نقله عن طريق الوادي إلى حـيث مقرنا المتـفق عليه- وقـد تمكنت الحمى مني تمـاماً. كنت أتلوى وأرتعش وأتعرق من السـاعة الحادية عـشرة صباحـاً وحتى العصـر. خفت الحمى عند السـاعة الخامسـة مساءً وأحـسست بأنني في حالة جـيدة للحكم على الموضع، وبلا شك لم أكن قادراً على مسيرة أخرى.

عزوت القيئ إلى إسرافي في أكل الموز، أما عن الحمى فيتعذر تفسيرها، غير أنني أدركت السبب في وقت لاحق، وهو أن بعوض وادي لية كان قد أدى مهمته بكفاءة عـالية. كانـت هذه هي أولى جرعات الملاريا التي أصـابني بها البـعوض، وسيكون هنالك الكثيـر من الأسابيع قبل أن أتناول الجرعة الأخيـرة، وقد حبسني هذا على سرير المرض في مكة مدة عشرة أيام.

أرسل رفاقي، بعـد تأكدهم من حالتي المرضيـة السيئة، رسـولاً إلى رئاستنا لإطلاعـهم على الوضع، وعـاد الرسول عـند الظهر ومـعـه ثلاث علب من دواء الكوينين. ابتلعت الحبـوب وأكملت الشاي المتوافر في الـترمس وكان من الواضح أنني لا أستطيع التحـرك تجاه رفاقي المستريحين في المعـسكر في قرية الجابري. ولما كان من المتوقع برودة الليل هنا، فقد كانت حـاجتي للغطاء ماسة. وعليه كان من الواضح أن ينتقل رفـاقي إلى موقعي، وبعـد عقد مـجلس حرب، أرسلنا رجلين يحملا أوامر صارمة، بأن الفريق -عن بكرة أبـيه- يجب عليه الحضور إلى موقعنا

على جناح السرعة. بدؤوا سفرهم تجاهنا حوالي الساعة الخامسة مساءً، وأقنعت نفسي بمحاولة النوم مقتنعاً بعدم إمكانية وصولهم قبل منتصف الليل. سمعنا صوت قافلة الحمير عند الساعة العاشرة مساءً وفرحنا، ولم يمض وقت طويل حتى وجدت نفسي مستريحاً تحت بطاطيني الخاصة وفوق فراشي الخاص. كنت أحس بالتحسن وكنت واعياً بالليلة الناعمة اللطيفة في تلك الغابة المنعزلة التي يضئ سماءها قمر يسابق السحب القطنية. لا بد وأنني قد استغرقت في النوم وأني في هذه الحالة القنوعة، غير أنهم أيقظوني من النوم عند الساعة الواحدة صباحاً لتناول العشاء، كنت سعيداً بذلك الآن، وأخلصت لطبق لحم الضأن والأرز، فقد كنت جائعاً، وقد أحضروه إلى جوار فراشي حسب طلبي. ثم نمت مرة أخرى، لم يزعجني غير كلب أقبل من أحد معسكرات الرعاة ليجد ما يكفيه مما أبقيته من عشائي تحت تصرفه.

تحسنت كثيراً غير أنني أشعر بالضعف صباح اليوم التالي، والذي كانت سماؤه كثيفة السحب وعمه ضباب لم يستمر وقتاً طويلاً.

بدأنا بعد الإفطار سيرنا إلى أسفل أولاً من هذه القمة، ثم إلى أعلى حيث قمه قلة الجفرة وهو بروز لصخر عارٍ فوق الغابة الكثيفة التي تغطي سفوحه. اصطدت حجلاً أثناء الطريق من بين سرب صغير، كنا قد أزعجناه خلال عبورنا الغطاء النباتي الكثيف. يقع أعلى موقع في تويلق، ويسمى قلة الحصن على مسافة (٥٠٠) ياردة تجاه الغرب من موقعنا عند ارتفاع (٢٢٥٠) قدماً وكانت تمثله هذه اللحظة كتيبة من القرود يبدو أنها مهتمة بأمرنا كما نحن مهتمون بأمرها.

كان المنظر للمرة الثانية عظيماً. رأيت قرية المضايا الكبيرة، ناحية الشمال، وأنا أنظر إلى أسفل إلى وادي دهوان، ولربما كانت على بعد أربعة أميال في

المرتفعات العليا للمجرى وعلى جانبه الأيسر. تقع على بعد الميل الواحد مع اتجاه الوادي مجموعة من القرى الصغيرة تسمى في مجموعها دهوان إلاَّ أنها أقل أهمية من قرية المضايا، التي هي مركز السوق للمنطقة، وسوقها هو سوق الجمعة[١]. كما تشتهر بين كل هذه المنطقة بأنها المقر التجاري لتجارة الموز.

امتدت قرية ذي نمر، إلى الشمال الشرقي من موقعنا، بلا نظام فوق جزء من السلسلة بالاسم نفسه، بينما تقع قرية غابية اليمنية ناحية الشمال الغربي داخل الزاوية التي يكونها وادي دهوان مع مسيله الرافد الحصر[٢] الذي ينحدر من سلسلة ملحمة[٣]. يتصل مسيل حاسي القادم من تويلق، على الاتجاه نفسه، ومباشرة أسفل منا مع مسيل آخر يسمى شرانة يقبل من ناحية ذي نمر، في موقع يقف عنده عمود أم حاسي الحدودي (رقم ٣٢أ). يمتد المجرى المشترك لهذه المسايل إلى دهوان بالقرب أو عند الجابري. استطعنا رؤية المسارات السفلى لذهبان وخلب، ومعهما قرية الظهر المزدوجة على الجانب الأيمن لذهبان، وكذلك قرية كرس قليلاً فيما يلي موقع التقائهما. استطعنا أيضاً رؤية الكثير إلى البعيد في اتجاه طحنان وبالطبع، معظم القمم المألوفة لسلسلة الجبل الرئيسة. تجري الحدود -من وجهة نظرنا- إلى أسفل حيث مسيل حاسي إلى العمود الحدودي الذي ورد ذكره، وإلى قرية أبو أمعرق القريبة منه، ثم يتبع خط الحدود المجرى إلى أسفل إلى عمود كسير الحدودي (رقم ٣١أ)، أو رزمة أمكسير اتجاه الجنوب الغربي.

---

(١) سوق الجمعة الأسبوع في المضايا من الأسواق الأسبوعية القديمة، وقد اندثر منذ زمن، وأصبح غير صالح للاستخدام. (ابن جريس).

(٢) الحصر: ربما يطلق عليه أيضاً اسم (رأس الحصر اليماني)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤٢٤ (ابن جريس).

(٣) ملحمة: يطلق عليها أحياناً اسم الملحمتين. (ابن جريس).

استغرق بحثنا عن طريق يقود إلى حاسي حـوالي خمسين دقيقة، وهو هبوط يقدر بـ (١٠٠٠) قـدم. كان هنالك عـدد من الثقـوب المائية في بطنه الصـخري المكسو بالرمل لتغـذية القرية. امتطينا حميـرنا الآن لنهبط إلى المجرى، وذلك لأن جانبيـه كانا مغطيين بالأشجـار التي يصعب اختراقـها، كما كانت هـنالك أشجار عاليـة ترفع رؤسهـا فوق الشجـيرات الخـضراء. تركنا الوادي عند علامـة كسير الحدودية لنـشق طريقنا عبر الحـقول -وكـان بعضهـا غيـر مزروع- وتتبع لـقريتي الجابري والمشافين[1]-الأخيرة هذه على الجانب اليمـني، لنصل إلى عمود مشوف الحدودي (رقم ٣٠أ) ومنه إلى كـومة كأنما وضعـها الأطفال من حجارة يـقال إنها علامة الحسكول الحدودية (رقم ٢٩أ)، وبعدها وصلنا إلى مجرى دهوان الذي يقع إلى أسفل في الالتقاء مع حاسي، ثم عـبرناه لنرتفع إلى سلسلة ملحمة عن طريق مسيل الحـسكول. بدأت الحقول بين عمـود كسر ومجـرى دهوان، على الشريط الذي تم توضيحه، التابعة للقرى على جانب الحدود تختلط مع بعضها في فوضى لا سبيل للخلاص منها، غير أن هذا أصبح ظاهرة أكثر من مألوفة لنا فلا تزعجنا. وكنت أتوقع أن تكون لجابري قـرية متوسطة الحجم، إلاَّ أنني وجدتهـا قرية بائسة صغيرة من عـشش على هيئة خلية النحل مبنيـة من الأعواد، تقع إلى خارج خط سيرنا، ولـم أتوقف لتفقد مكتب ضرائبها.

يستحق مجرى دهوان أن يزار ويُرى، وقد أويت إلى صخرة كبيرة على جانبه الأيمن أستمتـع بالمنظر إلى ما يشبه المروج لجدوله المنساب الصـامت. ألقت أشجار

---

(١) المشافين: هكذا ذكرت في بعض المراجع والوثائق، مع أن فـيلبي ذكرها باسم (المشف)، وبعض السكان المحليين ينطقونها باسم (أمشاف). (ابن جريس).

الإبراه ظلالها هنا وهناك على مجموعات من الماشية أو الناس، كما كان انتشار المحاصيل النامية واسعاً، برغم اعتراض بعض الغابات له هنا وهناك.

كانت حياة الطيور زاخرة وقد انتشر صائد ذباب الجنة بصورة غير عادية، وبعضها يجرجر ذيله الطويل الأبيض وهو يخرج من بين الأجمات لصيد حشرة غافلة. أصبت ببندقيتي واحداً منها، ليرتاح الشيخ إسماعيل الذي حكى لي عن خرافة محلية تقول إنَّ مشاهدة هذا الطائر واسمه مخيال وهو يحلق فوق ثور أو بقرة، فإن الحيوان المعني لا بد أن ينكسر ظهره ويموت[١]. لربما كان هذا القول يقصد به – مهما كان السبب – أن هذا الطائر لا يرفرف فوق الماشية.

يدور مجرى دهوان الذي ينحدر إلى هذا الموقع –حوالي (١٠٠٠) قدم فوق سطح البحر– من جهة الشمال الشرقي بزاوية حادة ناحية الجنوب. تقف الصخرة التي أجلس عليها عند الموقع الذي يدخل فيه مسيل الحسكول، ويجري خط الحدود على هذا الميل إلى المضيق الذي يفصل بين قسمي سلسلة ملحمة. كانت هنالك مبان قليلة في أجزائه السفلى، كان أحدها مدمراً ويعتقد أنه كان ضريح أحد الأسياد أو الصوفيين، لا يزال يحمل زخرفة لعابري سبيل وشرائح من قماش أبيض لجلب الحظ. يقف عمود الحسكول الحدودي (رقم ٢٨أ) عند قاع سفح الملحمة على مسافة (٨٠٠) ياردة من دهوان، غير أن المسيل يجري بانحدار شديد من هذا الموقع.

(١) هناك الكثير من الأساطير والخرافات المنتشرة بين الناس إلى اليوم، ورثوها من الأوائل، مع العلم أنه ليس لها دليل مبني على حقائق علمية. (ابن جريس).

كنا نطل إلى أسفل بعد مسـيرة أربعين دقيقة من بقايا مسـاطب زراعية قديمة، على وادي دهوان من علو (٥٠٠) قدم، ثم وصلنا بعد دقائق قليلة إلى قمة المسيل على ضلع من السلسلة يقود على المستوى نفسـه إلى مضيق يقع بين الملحمة العليا والملحمة السفلى. كان هذا موقع مهم للحدود برغم أنه غير معلّم رسمياً. من هنا وعلى أحد الجانبين مسيل حصر وبه قرية رحبان (اليمن) على مسافة (٥٠٠) ياردة إلى الشرق من مـوقعنا، وعلى جانبـه الأيسر، بينمـا يستمر طـريقنا على الجانب الآخر وفي اتجاه الشـمال الغربي، إلى مسـيل أمحميـحمان[1]، بينما تمتد مزارع رحبان حتى رأسـه ومن حوله. أمكننا الآن رؤية وادي الدحن، أمامنا، تسنده من الخلف سلسلة تسمى السودة.

استغـرق وصولنا إلى عمود مـواضلامة الحدودي (رقم ٢٧أ) نصـف ساعة، برغم أن الطريق إلى أسفل كـان سهلاً، ويقع في وسط مسـيل عند قدم سلسلة، وهو هبوط بحوالي (٥٠٠) قدم. ويمكن القول حقـيقة وبدقة إننا وصلنا إلى موقع العمود، الذي تم نصـبه في مساحة لغابة كـثيفة، وأنه لا يخدم غرضـاً نافعاً. قام الجبليـون وهم قاطنو المرتفـعات اليـمنية، بتحـطيم العمود إلى قطـع، ليس لهذا السبب، لـلدرجة التي لا يمكن جـمعه منهـا مرة أخـرى. كان هنالك الكثـير من المتاعب والخلافـات حول حدود القرى وحقـوق الملكية في هذه الأرض من وادي الدحن، وكان الحكـم بواسطة القَسَم هو الذي يتـبع. أثبت القرويون السـعوديون دعواهم بإحضار الأشخاص الخمسين المحترمين ليؤدوا القَسَم بترتيب الحدود، وفي

---

(١) أمحميحمان: هذا الاسم الصحيح لهذا الموقع، مع أن فيلبي ذكره باسم (حميحمة). (ابن جريس).

حالة حدوثه لنزاع حول تغلغل قرويي الدريدية[1] فيما وراء خط الحدود، فإن الأمر قد تم رفعه لكل من أمير جازان والغازي عبدالله بن الوزير، حاكم تهامة اليمن، وكانت النتائج مريحة. كان السبب للإزعاج الغريب في حالتنا هذه في هذه الأرض هو تقلبات وادي الدحن أثناء زمن السيول. لا يجلب الوادي عادة، ما يكفي من المياه لإقامة أراض زراعية، كما أن امتداد الرقعة الزراعية ممنوع. غير أن كل التربة جيدة وحينما يندفع الوادي بسرعة إلى أسفل، فإن عملية التمديد والتغلغل تبدأ، ومعها كل المتاعب التي تتبعها. يؤمل الآن -وقد تم الاتفاق على خط الحدود أخيراً- ألاّ تقع مثل هذه المتاعب.

يمكن ترك عمود مواضلامة غير الموجود أصلاً، مهما كان الأمر، للأجيال القادمة كتذكار لأزمان المتاعب، وأستطيع أن أرفع قصة الحدود من هذا الموقع وعبر وادي الدحن إلى أقصى حد ممكن في أبحاثي. يمكن رؤية القليل من بين الغابة المتشابه عند قدم ملحمة، غير أن هنالك نقطة في غاية الأهمية فيما يخص المنظر العام، خاصة فيما يتعلق بعملي الجغرافي. كان أقصى موقع وصلته حينما تتبعت الحدود من الاتجاه المعاكس هو قرية العارضة، والتي من عندها اتجهت غرباً على امتداد طريق (أبو عريش). وعليه، فمن الأهمية لمسوحاتي الحالية أن أنهي بعض النقاط بالقرب من العارضة لتكملة الدائرة. كنت سعيداً بالتعرف على قمة بركان ثانوية تابعة لدغم أمامنا، ناحية الشمال الغربي. يتضح الآن أنه لم يبق أمامنا الكثير لنقوم به وبإحساس من القناعة خرجت لزيارة الأعمدة التي لا تزال موجودة.

---

(١) الدريدية: هذا الاسم الصحيح لهذا الموقع، مع أن فيلبي أخطأ في تسميته بـ (دريدبه). انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤٢٤، آل زلفه، المرجع السابق، ص ٢٩٢ . (ابن جريس).

بدا وادي الدحن أمامنا وكـأن لونه أسود بسبب أشجـار الغابات -وهو منظر غير متوقع- واتضح لنا ونحن نقترب من عـمود معقر الصيد[١] (رقم ٢٦أ)، وهو هدفنا المباشر، أن الرقـعة الزراعية لقرية شـرم اليمنية قد امتدت بكرم عـبر الجانب السعـودي للحدود. ربما كـان هذا، هو السبب الرئيس لإزالة عـلامة مواضـلامة الحدودية. يقف عمود مـعقر الصيد الحدودي في قطعة مكشـوفة في الغابة، كانت قد زرعت في وقـت ما في الماضي، وهي الآن مهـجورة. وصلنا فـيما يـليه إلى وادي سلمان وعـبرناه هابطين ناحيـة الدحن، من سفوح كل من خـبتة والملحـمة العليـا، من الجـانب اليمني. تقـع الغابة التي رأيـناها أمامنا بين الجـانب اليـمني والدحن وهي غابة حـقيقـية ذات أشجـار ضخمـة منتشرة من أشـجار أبراه ذات الجذوع السميكة الغليظة والأوراق التي تذكرني بأوراق أشجار كستناء الحصان.

يمر خط الحدود، فيمـا يلي منطقة كثيفة الغـابات، وقبل أن نصل إلى مجرى الدحن، بين سلسلتين منخفـضتين هما أمشاف الغربي وأمـشاف الشرقي في أرض سعودية وأرض يمنية بالتوالي، داخل حدود عمود بين المشافين الحدودي (رقم ٢٥أ) ويمر بينهما. كان هذا المعلم عبارة عن صف من كـوم حجارة بين بعض الشجيرات في الحوض ولم يكن هنالك ما يؤخرنا عن الاستـمرار في اتجاه الشمال لنصل إلى عمود البـحصة الحدودي (رقم ٢٤أ) بالقـرب من قرية يمنية بالاسم نفـسه. وجدنا مزارع قـرية شبـرا، قبل أن نصل إلى العـمود الحدودي هذا، وهي قـرية تقع في منتصف المسـافة إلى تل خبـتة، قد امتـدت داخل الأراضي السعودية على امـتداد الأجزاء السـفلى من مجرى مـسيل حيـوان الذي ينحدر إلى الدحن. كان عـمود

(١) معـقر الصيد: هكذا ذكـرته المراجع والوثائق التي أشارت إلى الحدود بين الـسعودية واليمن، أمـا فيلبي فذكره باسم (معقر أمصيد)، واللفظان صحيحان. (ابن جريس).

البحصة يتكون من حجر واحد ملقى فوق شجرة مظ منخفضة، وقد نمت شجرة صبار من أعلى. كان مجرى الدحن الآن على بعد نصف ميل أمامنا وفيما يليه تقع سلسلة قرنة السودة، على مسافة ميل واحد.

وصلنا في ذلك الاتجاه (شمال غرب) إلى عمود الدريدية الحدودي (رقم ٢٣أ) وبه قسما القرية على يميننا على بعد (٢٠٠) و (١٠٠٠) ياردة بالتتالي، وتمتد مزارعهما إلى الجانب الأيسر للوادي. تقع قرية مطارق السعودية على مسافة نصف ميل على الجانب الأيمن في اتجاه الغرب بينما لا تقع قريتا أضار ومسلح على مسافة بعيدة من الجانب اليمني من الدحن. وصلنا إلى الجانب الأيسر للدحن في أقل من عشر دقائق والشمس تغيب وراء الأفق، ثم عبرنا بطنه العريض الضحل الرملي المزدهر بشجيرات الشار، والذي تتخلله بدائل مؤقتة للمتاريس، مكونة حقولاً مؤقتة في مساحات غطتها السيول الأخيرة. كانت هذه الحقول واضحة في اتجاه أعلى الوادي وعلى جانبه، حيث يبدو أن اليمنيين أكثر شراسة من جيرانهم السعوديين، الذين انصرفوا تماماً عن أي فكرة لمحاولة زراعة المحاصيل في هذا الوادي. وصلنا إلى عمود السودة الحدودي (رقم ٢٢أ) ويقع قريباً من الأكواخ الحجرية التي تكون قرية المطارق، واستقر بنا المقام بجواره لنعسكر هذه الليلة. لم أكن أعلم أننا سنمكث هنا مدة ثلاثة أيام.

أحسست بقدوم هجمة الحمى بمجرد استقرارنا في المعسكر. لقد وصل وفد شيوخ قبيلة العبادل وتقع أرضهم أمامنا، ومعهم هدية لا تقل عن سبع شياه، غير أن الحمى كانت أسرع ولم أستطع أن أقابلهم، وسرعان ما تمكنت مني هجمتها. كنت ضحيتها عديم الحيلة بقية الأيام التالية، وكانت الأحداث التي أعيها هي نقل فراشي في يوم وصولنا من العراء المكشوف إلى ظل شجرتين

كبيرتين من أشجار أبراه عند حافة الأرض الشبيهة بالمنتزة، ثم نقله ثانية من هنا بسبب الأمطار في صباح اليوم التالي، إلى داخل إحدى العشش الصغيرة لما قصد به أن يكون قرية - لا يستطيع رفاقي عمل شيء غير مراقبتي بقلق، وقد أرسل أمير الخوبة مراسله مستعجلاً إلى جازان لطلب أي مساعدة يمكن الحصول عليها. استجابة لهذا، فإن أمير جازان، الذي لم يستطع عمل أي شيء، أطلع الملك باللاسلكي بأنه يبدو أنني أحتضر.

كنت طريح الفراش بلا حراك من الساعة السابعة صباحاً من يوم (٢٧) يناير وحتى الساعة الرابعة مساءً من يوم (٣٠) يناير، (مدة سبع وخمسين ساعة) وأنا لا أحس بما يدور حولي. ولم أتناول طعاماً في اليوم الأول، غير قليل من اللبن وقد تقيأته فوراً، ولم أتناول شيئاً في اليوم الثاني غير قليل من الأرز وحساء الدجاج الحبشي وقد شعرت بالتحسن. كنت مستمتعاً بأول غليون لي حينها، إلاَّ أنني استغرقت سريعاً في إغفاءة الحمى، صحوت في الساعات الباكرة وكأن لم يكن هنالك شيء خطر أصابني.

لم أرغب في إزعاج رفاقي النائمين، ولم أستطع النوم أكثر، وكنت أراقب البعوض والفئران التي شاركتني خلوتي في هذه العشة، كانت دائرية مبنية من الحجارة، ترتفع إلى ستة أقدام، وكذلك كان قطرها، وبها باب شديد الصغر لا يرتفع لأكثر من ثلاثة أقدام. كانت نظيفة جداً ومضادة للماء غير أن بقعاً من المطر عبرت عن طريق منافذ التهوية على جانب البناء، كانت معدة لتكون جافة، وحتى بزوغ الفجر لم يكن لديَّ ما أشغل نفسي به إلاَّ مراجعة الموقف الذي نتج عن هذا الانقطاع السيئ الحظ للبرامج. تفصلنا الآن ثلاثة أسابيع عن موسم الحج والذي عزمت النية على أن أعود من أجله إلى مكة، وكان أمامنا ما لا يقل عن (٣٠٠)

ميلا يجب تغطيتها. كان من الواضح تماماً لي، حتى دون الرجوع إلى رفاقي للتداول، والذين سيعترضون على أي قرار آخر، بأن فحص القسم الصغير المتبقي من الحدود يجب أن يصرف عنه النظر. كان هو القدر، وليس عزيمتي، وهو الذي فرض هذا الحد لجولاتي.

انتظر شيوخ العبادل معنا بإخلاص، وكنت شديد الأسف أن أخذلهم. لم أودعهم إلا بعد ما استخلصت منهم كل المعلومات التي لديهم عن خط الحدود بين هذا الموقع وعمود نيد فضة (رقم ١٩أ) الذي كنت قد حددته في طريقي إلى الأجزاء العليا من وادي جازان قبل أسابيع. كان ذلك يقع داخل أرض قيس التي يفصلنا عنها قسم صغير من الشريط الحدودي، يفصل بين قبيلة العبادل وبين جيرانهم اليمنيين. يشار إلى عمود السودة الحدودي أحياناً باسم المطارق، غير أن شيوخ العبادل يعرفونه فقط باسم جبانة لسبب لم أتأكد منه. تمتد الحدود من هذا الموقع إلى مسافة (٥٠٠) ياردة تجاه الشمال الغربي ناحية النهاية اليسار لسلسلة السودة البازلتية، والتي تنحدر معها سلسلة قرنة إلى أسفل على الجانب البعيد لسهل العارضة.

كانت هذه النقطة وبالاتفاق نقطة تحول في الحدود على الرغم من أنها غير معلمة بعمود، ومنها يمتد الخط إلى موقع يبعد (٨٠٠) ياردة إلى الشمال من معسكرنا على الجانب القريب من قمة قرنة. يقف هنا عمود قمعة أم جريبا (رقم ٢١ أ)، حيث يدور الخط لمجرى الدحن عند قرية غرنوقة[1] السعودية على بعد

---

(١) غرنوقة: الاسم الصحيح لهذا المكان، مع أن فيلبي أورده تحت اسم (غرلوقة)، وهذا غير صحيح. (ابن جريس).

نصف ميل تجاه أعلى الوادي وقليلاً ناحية الشمال الشرقي. لا يوجد عمود هنا ولا في الوادي والذي اتفق على أن يكون خط وسطه مسافة ميل ونصف الميل تجاه أعلى الوادي ناحية الشمال هو الحدود. ثم يدور الوادي والحدود شرقاً إلى موقع دخول شعيب رحب من جانب الأرض اليمنية في ذلك الاتجاه. لا يوجد عمود حدودي حتى هنا، وذلك كما يقول محدثي، إن عبدالله بن شرقة قد أقنع نفسه بتسجيل النقاط المختلفة للشريط دون تعليمها لأجل الأجيال القادمة. يمتد الخط هنا -مهما كان الأمر- شمالاً إلى موقع آخر غير معلّم يسمى دوير أم حريق في مضيق يقع بين قمتي جلحان وحبرا، ومنهما إلى عمود عار أم جميلة (رقم ٢٠أ).

لم أستطع استخلاص أي أخبار صحيحة فيما عدا هذا، فيما يخص الحدود، من العبادل الذين كانت حدود أرضهم -وهي متماشية مع قيس- تعلَّم بهذا العمود الأخير. لم تكشف أبحاثي عن علامات حدودية معترضة بينه وبين عمود نيد فضة الحدودي، ولغرض الترقيم المتسلسل أستطيع فقط افتراض أنه ليست هنالك أعمدة وسطية. وعلى هذا الأساس فإن عمود عار أم جميلة يجب أن يمنح شرف أنه العمود المركزي لكل الشريط الحدودي إذ به (١١٩) علامة رسمية معترف بها على كل من الجانبين، بعدد إجمالي هو (٢٣٩)، منتشرة على مسافة عدد مماثل من الأميال من البداية للنهاية. كانت المسافة من الساحل إلى عار أم جميلة، على الحدود، حوالي (١٠٠) ميل لتصل إلى المستوى الأعلى لوادي جازان نفسه وهو الخط الذي يفصل بين قيس والعبادل.

بكل أسف، ومع تقديم مكافأتي لممثلي العبادل لكرمهم الأميري ولصبرهم خلال الإقامة المؤقتة الجبرية والطويلة والعديمة الفائدة في معسكرنا البائس، ألقيت نظرة وداع على هذا الجوار الوعر وهو أقصى ما تمكنا من الوصول إليه، وأدرت

ظهري إلى الحدود مع الإحساس بأن عملاً عظـيماً قد انتهى. لقد تم وضع الحدود بين العربية السعودية واليمن على الخريطة أخيراً، وفي الساعة (١٠,٤٠) صباحاً، في اليوم الثلاثين من يناير بدأنا رحلة العـودة إلى الوطن. عبرنا وادي الدحن بعد عشر دقائق بعد ذلك، قليلاً أسفل الموقع الذي عبـرناه فيه قبل أيام سابقة. امتدت غابة أشجـار الأبراة على جانبيه وتتخللها مـجموعات كبيـرة من نبات الشار، إلى أسفـل الوادي في اتجاه روابي العـاصم، التي في نهاية الأمـر تنحـرف تجاه وادي دهـوان. مـررنا من حين لآخر بمجـموعـات من الرعاة في هذه الأرض الشـبيـهة بالمتنزه، ومعهم قطعان ضأنهم، وبعد حوالي مـيلين من هذه المسيرة الممتعة خرجنا من منطقة الغابة إلى سـهل عريض لنجد قرية الخشل أمامنا في حـضن الشجيرات العادية، فوق سلسلة عارية من جلاميد بازلتية عظيمة. كنا نسافر في اتجاه الجنوب الآن، ومررنا بمقبرة من قبور صغيرة مغطاة بحجـارة صغيرة سائبة، متجمعة حول ضريح من أبعـاد أكبـر ودائري الشكل بجوار شـجرة على جانب الـطريق، كانت أفرعهـا محملة بالزهور وأعـلام صغيرة بيضـاء ولعله المقر الأخيـر لأحد رجالات الدين.

دخلنا فيمـا يلي هذا إلى أرض واسعة ذات شجيرات، جـرى الطريق خلالها عبـر خطوط متعـرجة عديدة وكـأنها طريق سريع مطـروق - كان هذا هو الطريق الذي يعبره الزوار اليـمنيون إلى الينابيع الحارة وسوق الفواكـه في الخوبة. كان هذا الإقليم الشجيـري الذي يملأ الفراغ بين الدحن ودهوان ويمتد من قـدم الملحمة إلى الخارج حتى جوار العاصم، من أفضل القطع الغـابية التي رأيتها في سهل تهامة، وكان مليئاً بكل أنواع الطيور المألوفة، إلى جـانب هذا، مررنا بمجموعة من النسور وهي ترتاح بعد وجبتـها على جثة حيوان مات على الطريق، بجوار سـمة صخرية

بارزة تعلم الطرف الجنوبي لسلسلة ملحمة. اتصل الطريق المطروق العادي الذي يقبل من ناحية الجابري، قليلاً فيما يلي هذا الموقع، مع طريقنا داخل مساحة مزروعة كبيرة تمتد مسافة ميل واحد من قدم الملحمة وتنتمي إلى آل سريع وهو تحت قسم لقبيلة الكعوب.

وصلنا بعد عشر دقائق على الجانب الأيمن لوادي دهوان وتوقفنا للاستراحة مدة ساعة لطيفة وقد كان بطنه لا يزال محتفظاً بالمياه، فوق رماله وبين جانبيه المعشبين وبعض الجلاميد التي اخترقتها السيول إلى هنا من الجبال. تحتل قرية العبادية في واجهتنا، وعلى مسافة مع اتجاه الوادي إلى أسفل، وتشتمل على عشش مبنية من الأعواد، مسافة مكشوفة في الغابة مع مساحات واسعة للزراعة منتشرة في كل اتجاه. حيَّانا المزارعون هنا، كما يفعل الحرث بصفة عامة، أثناء مرورنا بهم، برفع أيديهم من بعيد، كما في نجد، غير أنهم لم يبدو أي اهتمام بما كنا نفعل. حضر رسول المبتعث من الخوبة ليقابلنا هنا ومعه شحنة كريمة من الباباي، وواصلنا رحلتنا في صحبته. تخففت الغابات الشجيرية شيئاً فشيئاً ونحن نتقدم حتى وصلنا إلى قرية دار النصر حيث كان الناس مشغولين بالحصاد فوق مساحات كبيرة للدخن (الذرة) والتي كان في وسطها بعض مساحات للفاصوليا تزحف فوق سطح الأرض. لاحظت أن أعواد الذرة كانت نحيلة جداً مقارنة مع تلك المحاصيل الغنية في نجران.

وصلنا إلى ذهبان بعد مسيرة أقل من الساعة الواحدة من دهوان، والذي كان في هذا الوقت جافاً على الرغم من أننا كنا نرى مياه الغيل الجارية المتقطعة تواصل انسيابها على بعد (١٠٠) ياردة مع اتجاه الوادي، في بطء مع وجود طبقة زبد على سطحه. تقع إلى القريب من هنا قرية نمير الصغيرة والتي في دائرة غابتها تمكنت

من اصطياد طائر الباز. كانت الجبال العالية مغطاة بالسحب غير أن مسجد النظير الأبيض برز واضحاً، وهو من أفضل العلامات الأرضية في هذا المحيط. كان الاتجاه العام للمجرى إلى أسفل هو ناحية الشمال الغربي، متجهاً إلى هضبة طحنان البارزة، بعد عبورنا للوادي بين المحاصيل الشاسعة لقوىً. بدأ محصول الذرة عند ضواحي هذه المنطقة فقيراً، إلاَّ أنه أصبح أكثر كثافة حينما اقتربنا من مجرى وادي خلب، وكانت أكوازه غنية.

اتصلنا مع المجرى عند منحنى في مجراه على بعد (٢٥٠) ياردة إلى يسارنا في الزاوية الكثيفة الزراعة عند المنحنى. تتماشى حقول قوىً مع الخوبة فوق عرض يصل إلى ميلين يمتد حتى حافة التلال، ولم يمض وقت طويل حتى عبرناها كلها لندخل الخوبة نفسها، حيث كان يوجد زوج من العشش مثبتة بالطين مبنية على قاعدة طينية كان قد تم تخصيصها لإيوائنا.

تقع الخوبة على ارتفاع (١٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، فوق صخرة منخفضة على الجانب الأيمن للوادي، الذي كان ماؤه ينساب في هذا القسم، والذي قد انحدر من سيل عنيف مساء الأمس نتيجة للعاصفة الرعدية التي دفعتني إلى داخل العشة الصغيرة في المطارق. لم يكن السيل ضخماً، على كل حال، ويبدو أنه لم يفعل أكثر من إحياء مياه الغيل التي يعتمد عليها أهل الخوبة للحصول على مياههم. كانوا في معظمهم من قبيلة الحرث، مع عدد كبير من الزنوج، غير أنه توجد عائلتان أو أكثر من الأشراف مستقرون بصفة دائمة هنا. يزعمون أنهم قد هاجروا إلى هنا حينما كانت بلدة وطنهم وادي ضمد، التي هي الآن مدمرة ربما بسبب سيل، غير جاهزة للخدمة الفعلية. قام بزيارتي ثلاثة أشقاء من أسرة واحدة، هم علي وحسين ومحمد، كلهم ذو مظهر مميز مع أجمل شعر

على الرأس رأيته في هذه الأنحاء. كان شَعْراً مجعداً وكانوا لا يضعون غطاءً صناعياً فوق رؤوسهم.

عاد أكبرهم (محمد) من زيارة إلى جازان حين استدعاه الأمير لينضم إلى لجنة الحدود الدولية التي تكونت لمعالجة موضوع نزاع حدود السودة. أخبرني محمد أن القاضي عبدالله بن الوزير قد رجع إلى الحديدة، بعد انتهاء مهمته في جازان وأن جيولجيو شركة النفط (شركة امتياز النفط المحدودة) قد وصلوا إلى جازان في طريقهم إلى جزر فرسان، حيث سيقومون بدراسة احتمالات النفط. أخبرني أيضاً أن الشاحنة التي قمنا بإرسالها من أبي صول، تتوجه بالعودة إلى الخوبة عن طريق صامطة، قد رجعت إلى جازان وتعطلت هناك على أمل رحلة ثانية داخل الصحراء. كان أسوأ أخباره أن سيارتي الخاصة التي أرسلتُ باللاسلكي بطلبها من جازان لهذه الرحلة، قد وصلت هناك من جدة وقد انكسر محورها الخلفي، وتعطل معها بريدي الخاص الذي كنت أتطلع إليه بشغف.

لم يكن أمامنا إلاَّ القبول بفكرة عودتنا إلى جازان على ظهور الحمير. لم تكن فكرة مريحة بعد هجمات الحمى التي أصابتني حديثاً، ولم أنصرف وكأنني معاق عن تناول العشاء، حينما تناول الأمير العشاء معي وجهاً لوجه في عشتي. لم يحضر الأمير الطعام فقط، بل أحضر ثلاث علب كيروسين فاضية لتستخدم كمائدة، وكذلك ملاءة نظيفة بيضاء لتغطيتها. لم يكن يستطيع إحضار المقاعد للجلوس عليها، غير أن هذا لم يحرمني من الاستمتاع من تقديم هذا الطعام على المائدة، الذي يشتمل على لحم الضأن والأرز المتبَّل، والدجاج المنكه بالكاري والبيض بأشكال مختلفة والخضراوات والفاكهة وغير ذلك من الأصناف. كانت كلها جيدة الطبخ ذلك لأن عليّاً قد اختار فتاة زوجاً له من تهامة لتشاركه منفاه.

أخبـرني بأنه وعلى الرغم من أنه من مـواطني شقـراء، إلاَّ أنه لم ير المكان وذلك لأنه -كما كان والده- قد ولد في مكة التي كانت أبداً موطنه.

كان من بين الزوار الآخرين الذين قابلتـهم أثناء النهار، ضابط الدخل المحلي والجمـارك، الذي جلب لي بعض المعلومات المفيـدة حول عمله. كان أكـثر المواد التجارية أهمية، ويعبر خلال هذا المركز هو البن اليمني وقشوره التي يصنعون منها شراباً يسمونه قشـر، وشراباً ممتازاً يسمونه تسين، إذا أضيفت إليـه القرفة. عبرت خلال الشـهر المنصـرم ما يقدر بـ (٣٠٠) قـنطار من البن في طريقهـا إلى جازان ومكة، وكان متـوسط العائد الدخلي للشهر خـلال هذا المركز هو (١٠٠٠) ريال (حوالي (٧٥) جنيهاً استرلينياً). أخبـرني بأن طريق ظهران لم يكن محبوباً للتجار اليمنيين ويفضلون هذا الطريق عبر تهامة، بسبب يعزى جزئياً إلى مشاكل العملة، وثانية إلى أن القافلة العائدة لا تجد بضائع تعود بها. أما في أسواق تهامة وبخاصة في جازان، فـإنه يمكن شراء مـختلف البضـائع، بينما يمكن الحـصول على الريال الضروري للدفع من البيع المحلي لبعض البضائع المستولاة. كانت (صامطة) مركزاً جـمركـياً آخـر أقل أهميـة من الخـوبة التي تضمنت بـالطبع المركز الخـارجي في الجابري. توجد المكاتب الحكومية وثكنات الشرطة في قلعة مهيبة ورثت عن النظام الإدريسي إلا أنها جددت وصينت بدرجة واضحة.

كانت الماليـة في بناء مسـتقل، بينما كـانت المراكز التـجارية وميـدان السوق واسعة دون شيء يميز بينها. كان المسجد الرئيس بناءً بسيطاً، بينما كانت كل المنازل العادية من الطين والعشش. لم أشـاهد مزارع الأندقو (النيلة) أو مصانع الصـبغة، إلاَّ أن الصناعة المزدهرة المحلية كانت عصر الزيوت خاصة السمسم. رأيت معصرة أثناء أدائها العمل عند مدخل المعسكر الذي استضـفت فيه - كان أمراً بدائياً جداً،

يقوم بتشغيلها جمل معصوب العينين يدور داخل دائرة مصغرة تحت غطاء سقف من الأعواد. يربط الجمل إلى عمود يحرك حجر الرحى الذي يدور فوق إناء حجري يستجمع الزيت أثناء سيلانه.

لم تكن الخوبة سوى قرية كبيرة على الرغم من أنها مركز إداري، ويبلغ عدد سكانها (٢٠٠٠) نسمة كما كانت جارتها قوة أيضاً صغيرة، أما بقية القرى في الجوار فهي ذات أهمية ضئيلة. لم يكن هنالك ما يتطلب تأخيرنا في هذه الأجزاء عدا ينابيع الوغرة الحارة، والتي توجهنا نحوها مبكرين في آخر أيام شهر يناير، ممتطين الحمير وتحت سماء بدأت تنذر بالعاصفة من جهة الغرب، على الرغم من أن الجبال العالية كانت مكشوفة من السحب. وصلنا بعد مرورنا بالمقبرة التي تفصل الطريق الرئيس عن قوة، وفي خلال (٢٥) دقيقة إلى الينابيع، وهي آخر أجزاء الممر وتقع داخل أرض ذات شجيرات خفيضة أهمها العرد والترف والسنا والشار المتكبر، مع بعض أشجار الأثل الجيدة النمو. كان الوادي منساباً حين وصولنا بجدول مزدوج يفصل جزئيه شريط عريض جاف.

قادنا الانسياب الثانوي إلى بطن مسطح من ألواح صخرية تعترضها مساحات من بروزات غريبة ذات لون وردي تحف بالجانب الأيمن. ربما كان هذا الصخر من طبقة بركانية، وكان في هذا الترسب أن وجدنا بركة مشهورة قطرها ستة أقدام وعمقها (١٨) بوصة. هنا يسبح الزوار في مائها وقد سجل مقياس الحرارة الذي أحمله معي (١١٥,٧) درجة، ويسيل إلى داخلها عدد من الجداول الضيقة تنبع من العيون الحقيقية.

سجل مقياس الحرارة (٥٠) درجة مئوية (١٢٢ درجة فهرنهايت)، ولكنه لم يستطع التعامل مع هذه العيون. كان الماء يغلي من عند المرجل أسفله، وكانت

شدة الحرارة لم تمكنني من أن أمد يدي فوقه لثوان قليلة، واقتنعت بأن درجة الحرارة لا بد أن تكون في نطاق الغليان. لا أعتقد أن هذه البركة تستحق أن أستحم فيها، واكتفيت بغسل يدي ووجهي وقدمي بمائها الدافئ.

واصلنا مسيرتنا عبر حقول للذرة تمتد من الجانب الأيسر لمجرى الوغرة مسافة معتبرة وتدخل إلى الصحراء النموذجية ذات الشجيرات القصيرة، والتي صنع منها المزارعون طرقاً داخلية متى ما وصل السيل إلى ما يلي حدودهم العادية. لاحظت أن المحاصيل التي تقع إلى البعيد من الجدول قد تم حصادها. يعزى هذا إلى أن الأراضي الجافة ليست واعدة لنضج لاحق، ولذلك تم الحصاد قبل أن تجفف الطبيعة السنابل. دخل الطريق القادم من صامطة، بعد مسيرة (٢٠) دقيقة من الينابيع الحارة، إلى طريق جازان من جهة الجنوب الغربي في وسط غابة طلح كثيفة حيث تسود أشجار الوهط بأشواكها الشرسة.

كانت توجد مساحات زراعية منعزلة حتى في هذا الموقع النائي، بالقرب من قريتي أمزبرة ومشباح الرعيلي على الجانبين ونحن نتقدم في موازاة مع صفحة سلسلة دخان، على بعد ميل واحد على يسارنا. التقى الطريق سريعاً مع مجرى شعيب خمران[١] الكثيف الشجيرات، وهو أحد روافد وادي لية ثم ابتعد سريعاً عنه ليتحاشى أرض صخرية متموجة من الشست والكوارتز تمتد إلى الوراء إلى شريط من تلال تشتمل على كل من دخان والرميح وجحفان. سرنا على امتداد الحافة لهذه الأرض وكانت غابة خبت على يميننا. انكشف أمامنا منظر عظيم لسهول تهامة، عبر الفجوة بين نهاية هذا البهو الطبيعي ومجموعة تلال معكم

(١) شعيب أو وادي (خمران)، هو الاسم الصحيح لهذا المكان، مع أن فيلبي ذكره باسم (ثمران)، وهي تسمية خاطئة. (ابن جريس).

(غراب). كان خلفنا منظر آخر جميل للسهل ذي الغابات السفحية الذي يمتد من الخوبة إلى العارضة من بين هذه التلال الخارجية والجبال العالية ناحية الشرق.

وصلنا إلى قرية أم الدُبا، على بعد مسافة ساعتين على ظهور الحمير (حوالي ١٠ أميال) من الخوبة، حيث كان استقبالنا حاراً من جهة الصديق القديم محمد ابن طراد، في منزله الكبير المبني من الوتل والأعواد. كانت القرية التي تتكون بكاملها من العشش ذات موقع لطيف. داخل انطباق لأرض صعبة وترتفع إلى (٧٠٠) قدم فوق سطح البحر. يمتد من عندها طريق فوق الصخور إلى صامطة، بينما يجري طريق آخر، والذي سلكناه، وهو الطريق الرئيس عبر سوق الأحد إلى جازان. سوق الأحد هذا هو المركز القبلي للمسارحة، الذين يملكون أرضاً واسعة شمال وادي خلب ورئيسهم هو الشيخ موسى السويدي.

واصلنا سيرنا بعد فترة استراحة استغرقت ساعة ونصف الساعة، ومررنا بأرض واسعة من حقول الذرة، جيدة المساطب للإمساك بمياه السيول، تعترضها أجمات هنا وهناك من شجيرات عنيدة مع العديد من أشجار الضبر التي ارتفعت سيقانها الغليظة من (١٢) إلى (١٥) قدماً إلى رؤوسها عديمة القرون. سيطرت الغابة سريعاً على ما يمكن أن يصبح أرضاً زراعية على جانبي وادي خمران، الذي عبرناه في وقت لاحق عند موقع كان بطنه الصخري قد اختنق ببرك الماء. وقف عش ضخم لطائر (أبو منقار) عند تفرع شجرة صغيرة.

واصلنا السير فوق أرض متموجة، تنتشر فيها الشجيرات الشائكة وبعض المساحات الزراعية تابعة لقرية أم الدرق الصغيرة على يميننا وفعلياً على الجانب الأيسر لمجرى رزيع على مسافة نصف ميل على الجانب الآخر من طريقنا. مررنا

في وقت لاحق بقرية معران على يسارنا ثم إلى الوراء وعلى بعد ميل واحد، بقرية مصوّان على الجانب الأيمن لوادي لية، ويقع تل جحفان وراءها مباشرة. كان السطح الذي نسير فوقه متخللاً بكتل من حجارة بازلتية مكونة سلسلة متعارضة على طريقنا. وصلنا بعد ساعة من مغادرتنا أم الدُبا إلى الجانب الأيمن لوادي لية، الذي يجري هنا في وادي كثيف الشجر في اتجاه الجنوب الغربي. سلكناه إلى فترة عبر مزارع كل من مصوّان ومحادف، وهي قرية متعرجة طويله تقع إلى يسارنا. ابتعدنا تدريجياً من المجرى فوق أرض تنتشر فوقها قطع البازلت، وفيها عبرنا بشجرة ذات حجم ضخم وقد انتزعت من جذورها بواسطة رياح شديدة. كانت أغصانها لا تزال خضراء. كما توجد هنا مساحات من مزارع، حتى خروجنا إلى سهل مسطح ينحدر بلطف من الحصى الكوارتزي مع بروزات من البازلت وبعض الشجيرات القليلة الشائكة ومعظمها من الوهط والسلم.

تقع قرية القفل[١] التابعة للأشراف على بعد نصف الميل ناحية الجنوب من موقعنا على الجانب الأيسر للية. إلى جانب قرية تسمى أمقائم الأحمر ناحية الغرب، وقرية ثالثة تسمى منشية على بعد نصف الميل ناحية الشمال الغربي. تقع قرية أخرى من وراء هذه القرى وعلى طريقنا وتسمى أم الكدش، وقرية الوتد على نفس البعد فيما يليها، ثم وصلنا بعد ذلك إلى قرية (أبو حجر) الكبيرة حيث توقفنا مدة نصف الساعة. كان الريف من حولنا ولمساحات الأميال مغطى ببساط أخضر من المحاصيل النامية التي تمتلكها هذه القرى. لم تكن المحاصيل واعدة. تمت زراعتها بعد انحسار مياه السيول على أمل أن يأتي سيل آخر لإنعاشها وإيصالها إلى مرحلة النضج، وإذا لم يحدث ذلك، فإن الدخن ينضج دون امتلاء

(١) قرية القفل: سميت بهذا الاسم نسبة إلى رجل يدعى قفل بن حيدر من الأشراف. (ابن جريس).

وتكون السنابل صغيرة. وجدنا على جانب الطريق في (أبو حجر) أن بعض المحسنين قد أقام سبيلاً للماء من جرة فخار ضخمة لعابري السبيل. كانت هذه القرية واحدة من المراكز الرئيسة لقبيلة بني شبيل والذين تكون حدودهم مع المسارحة في مجرى خلب، بينما ينتشرون جنوباً إلى وادي تعشر المتماشي مع الحرث عند القفل.

حاولنا شراء بعض البيض، ولم نجده وتأكد لي أنه لا يوجد بيض ولا دجاج في القرية. يكره العرب الدواجن ومنتجاتها لكونها في رأيهم لحم رخيص، غير أنه وبصفة عامة، من الممكن الحصول عليها عند الحاجة في الجزيرة العربية بصفة عامة. ولكن في تهامة يبدو الأمر محرّماً، ولعل هذه هي أول مرة أقابل بها هذا الأمر. استعدنا بعض النشاط بوقفتنا القصيرة هذه والتي تناولنا فيها الشاي ثم واصلنا مسيرتنا. وكانت مؤلمة على ظهور الحمير، في مواجهة أشعة الشمس، التي تكون عادة حارة جداً عند الظهر في سهل تهامة. بدأت يداي تتقرح أيضاً بسببها.

تقع قرية أخرى كبيرة من قرى بني شبيل تسمى مرح، على بعد ميل واحد إلى الجنوب الغربي من (أبو حجر)، بالقرب من وادي لية، كما أمكننا رؤية المنجارة على بعد ثلاثة أميال ناحية الشمال الغربي في اتجاه القمم البركانية لقمتين، -وبالفعل- فوق طريق بديل من الخوبة إلى جازان عن طريق تلال عقبة - غراب. كان ارتفاعنا العام في هذا الموقع حوالي (٥٠٠) قدم فوق سطح البحر. لاحظنا أهالي الريف وهم يعودون إلى منازلهم من سوق الأحد، أثناء تقدمنا من هذه القرى وقرى أخرى منتشرة على جانبي وادي حلب، وقد كان اليوم هو يوم الأحد.

مررنا أولاً بقرية رمدة الكبيرة التي تتألف من مجموعات متلاصقة من عشش الوتل وعشش الأعواد، وتنتمي هذه القرية إلى الضوامرة قسم من قبيلة المسارحة، على الرغم من أنهم داخل أراضي قبيلة بني شبيل. تقع هذه القرية على مسافة ميل واحد قبل الوصول إلى وادي خلب، التي يتكون حينما وصلنا إليه، من مجريين رمليين يبلغ عرض كل منهما (١٠٠) ياردة، يفصل بينهما حزام عريض من أشجار الطرفاء. تزرع في كل من المجريين مساحات واسعة من الدخن على جانبي الطريق المائي الضيق، وهو الآن جاف. أزعج دخولنا إلى هذا المكان عدداً من الأرانب البرية -كما تكاثفت أشجار الطرفاء والترف والسنا والكثير من عشبة الثمان. تبدو كل هذه الأرض وكأنها دلتا ضخمة أكثر منها بطن وادٍ، كما يدل المجرى المزدوج على تغلب السيول الأخيرة، ربما هو الحفاظ على ذكرى تاريخ قديم كان وادي خلب ينطلق فيه من هنا إلى البحر.

وصلنا سريعاً إلى رف منخفض، وجدنا أنفسنا عنده على حافة المزارع الواسعة التي تملكها قرية القائم، تسمى عادة قائم الأحد، لتميزها عن قرية بالاسم نفسه بالقرب من الخوبة-. كان أهلها يسحبون الماء من البئر ونحن نعبرها في سرعة لنصل إلى قرية البيطارية الكبيرة حيث قررنا أن نعسكر فيها لقضاء الليلة. وصلنا إلى هناك بعد غروب الشمس بساعة، حوالي الساعة السابعة مساءً. وجدنا أجنحة قد خصصت لنا في فناء واسع ونظيف ومسور بالأعواد إلى ارتفاع الكتف. كان توجد فيها مساحة مربعة عريضة مرتفعة من الطين لعشة على شكل خلية النحل من الوتل والطين. ويكون الطين قاعدة ومثبتاً للجدران الداخلية لارتفاع قامة. كان الوتل منسوجاً من الأعواد على الجانب الخارجي لكي يصبح البناء صامداً للماء وصامداً للشمس. تتدلى من قمة البناء سلسلة من الحبال ممسكة بكل ما يتعلق بالبناء بقوة.

كان الشيخ المحلي وشقيقه يتسوقان في سوق الأحد، على بعد ميل ونصف الميل إلى الجنوب الشرقي من موقعنا وبعيداً عن الطريق الرئيس، إلاَّ أنهما أسرعا بعد عودتهما منه ليقدما لنا طراز كرمهما الواسع في وسع منزلهما العامر. اعتذرت لهما عن قبول عرضهما السخي الحسن النية، بعد أن استرحت في هدوء وكنت أحس بالتعب وبالجوع، وبلا شك فقد استضافانا في هذا البناء الذي لا يقل مكانة عن دار الضيافة المحلية. استغرق وصول العشاء بعض الوقت، وسرني أنه اشتمل أساساً على الدجاج والبيض. كان هذا بالضبط هو ما أحتاج إليه في حالة إرهاقي هذه، وبعد مسيرة طويلة على ظهر حمار والتي كانت مباشرة بعد إصابتي بالحمى.

لقد أصبح معروفاً أنه لا حسن ولا إبراهيم، مضيفى الحاليين، كان هو الرئيس الإسمي للقرية. كان موسى السويدي، الشقيق الأكبر بين الأشقاء الثلاثة غائباً، إذ إنه قد غادر إلى مكة لأجل الحج وفي رفقته (١٠٠) من رجال المسارحة. كما عبرت كتيبة مماثلة من قبيلة بني شبيل من هذا الموقع لنفس الغرض. بدا واضحاً أنه لم يبق لدي كثير وقت. انطبع في ذهني أن حسين، الذي أكرم وفادتنا في غياب شقيقه، أنه متبلد الحس، ووجدت صعوبة شديدة في الحصول على المعلومات الجغرافية منه في صباح اليوم التالي حينما رافقني بلطف في جولة حول القرية. سألته إن كان من الممكن أن أتحصل على ماء أشربه. أعاد حسين كلمة «ماء»[١] بصيغة السؤال. وأجبته بالإثبات أنني أرغب في شرب الماء.

---

(١) أعتقد أن فيلبي لم يفهم ما قال حسين عندما طلب منه شربة ماء، وفي أغلب الظن أن حسين لم يفهم طلب فيلبي فقال: ما هو، أي يستفسر ماذا يريد، وهذه الكلمة (ما هو؟) دارجة عند سكان السهول التهامية وبخاصة منطقة جازان، وأحياناً ربما يذكرها البعض بالإدغام فيقول (ماه) والمقصود بذلك (ما هو؟) (ابن جريس).

وكرر ما قـاله أول مرة «ماء»؟ لا أدري إن كان قد استـوعب طلبي، غير أنني في النهاية ناديت على سعد ليحضر لي الماء.

كـان القرويون فـضـوليين جداً من حـولنا، يتـوافدون فـي تتابع للإحـاطة بمعسكرنا، وكان كل من حسن أو إبراهيم يقـوم بطردهم. وجدت أن جولتي حول مجمـوعة العشش مثيرة لـلاهتمام. كان معظم السكان من أصل أفـريقي وتتحرك النســاء في المعسكر بلا غطاء يعـلو الخصـر. كانت أجـساد بعض الشـابات منهن جميلة جداً غير أنه لم يكن هنالك اتجاه استعراضي بينهن وهن يقفن بجوار أبواب عششهن أو يتحركن في فناء الدار. كن طبيعيات تماماً نصف عاريات بسبب الحرارة الشديدة - حرارة رطبـة وقابضة- وكنّ تماماً لا يشعرن بالخـجل، لأنه لا يوجد ما يدعوهن للخجل.

جذب ضوء مصباحي في أثناء اللـيل آلاف الجراد، غير أن صرصار الليل لم يكن بمثل كثافته في الخوبة. كان ارتفاعنا هنا حوالي (٣٠٠) قدم فوق سطح البحر وكانت درجة الحرارة (٧٧) درجة عند الساعة السـابعة صباحاً. يحصد الدخن مرة واحدة في العام في الأراضي المرتفـعة التي تعتمد كليـة على الأمطار، وبعيدة عن مدى السيـول الموسمية، بينـما في الأراضي التي يصلها السيل، وبناءً علـى نوعية السيول، فـإن زراعة البذور مرة واحـدة ينتج عنها حصاد (٣) أو (٤) مـحاصيل. يقطع كل محصـول إلى ارتفاع بوصات قليلة من سطح التربة، فينمـو بسرعة إلى حجـمه الطبـيعي خلال الحـصاد وهكذا حـتى يمتص آخر محـصول يحـصد كل الرطوبة. تقع كل من قـريتي المنجـارة وسوق الليل -والأخـيرة هذه مـستـعمـرة للإشراف- على الجانب الأيمن لوادي خلب اتجاه أعلى الوادي عند عبورنا.

تقع قرى المسارحة ناحية الغرب من موقعنا، منها قرية العر وقرية طواحرة بينما تقع قرية الدغارير التابعة لبني شبيل على مسافة ثلاثة أميال ناحية الجنوب. ربما يطلق على قرية سوق الأحد اسم الميزاب غير أن الاسم الأول هو الشائع[1]، ولا يعرف الاسم الثاني غير الخبراء. تقع براكين قمتين ناحية الجنوب من موقعنا على بعد (٥) أو (٦) أميال.

بدأنا المسيرة تحت سماء ملبدة بالسحب، بعد أن تناولنا الإفطار المكون من الدجاج والبيض، وقد كان الجزء الأول من رحلتنا على ظهور الحمير لطيفاً وبارداً. يقع ممرنا عبر منطقة مزروعة على أرض أكثر ارتفاعاً عن الوادي، وكانت المحاصيل في معظمها تعيسة، وفي بعض الحالات، جافة تماماً قبل أن تصل إلى مرحلة النضج. توجد المتاريس في هذه المنطقة بصورة أخف، وفي مساحات صغيرة للإمساك بما يهطل من مطر، وكان من الواضح أنها خارج نطاق السيول. تركت بعض الحقول بلا زراعة، وبعضها تم تهيئة سطحه بالمحراث، على أمل هطول أمطار في وقت متأخر من الموسم، الذي يمتد من منتصف أكتوبر إلى نهاية أبريل وهي متقلبة وبلا أمل. مررنا بعد نصف ساعة ببئر الطالبية، على مسافة من الطريق ناحية اليسار، والتي يعتمد عليها أهل العر للحصول على حاجتهم من الماء للشرب. كنا لا نزال على ظهور حميرنا فوق أرض ذات محاصيل ميتة أو تحتضر، والتي أفسحت المجال تدريجياً لأعشاب ميتة وشجيرات خفيضة ميتة أيضاً. أزعجنا بدخولنا إلى قرية السر التابعة للمسارحة أربع غزلان من داخل حزمة من دخن جاف. يمكن رؤية عدد من القرى الصغيرة منتشرة فوق أرض ذات تربة رملية،

(١) نعم أن أحد المسارحة يعرف أيضاً باسم (الميزاب). (ابن جريس).

التي يحاول القرويون زراعتها في جهد عظيم بالدخن، وتتحصل على حاجتها من الرطوبة من الندى الليلي في هذا الموسم.

كانت أكبر هذه القرى هي قرية المجامة على بعد أربعة أميال ناحية الشمال الغربي من السر. وكان من بين القرى الأخرى كل من الغويدية، وبيت ابن جبران، والسويدية أمغفقية، وكانت الأخيرة هذه على طريقنا. توقفنا مدة نصف ساعة تحت ظل مجموعة منعزلة من أشجار الطلح بالقرب من بئرها، وهو صهريج جيد البناء مبطن ببلاط من الحجر. شاركتنا في الظل مستعمرة من الطيور النساجة الصغيرة، بينما كان هنالك فريق من النساء يقمن بسحب المياه لقطعانهن من الضأن والبقر. تقع قريتان صغيرتان على مسافة ليست بالبعيدة عن أمغفقية يسكنهما أسر السيد، ربما بقايا من عصر الإدريسي. يطلق عليهما اسم رعشة وبيت أحمد عبده.

واصلنا سيرنا من البئر وسرعان ما تركنا كل المزارع خلفنا، ودخلنا أرضاً من كثبان رملية متموجة. كنا نسير بقدر المستطاع على حافتها الشمالية، وكان يرافقنا بطن وادي مَسَلَة الضحل الرملي، وهو يمتد موازياً لطريقنا على اليمين. ينبع هذا الوادي من مجموعة تلال مسلة - العقبة، وينحدر ماراً بقرية بيت أحمد عبده يدخل إلى أمواج الرمل التي نمت في وسطها شجرة طلح صغيرة شوكية بما لديها من رطوبة. كانت هنالك مساحات مزروعة على الجانبين على فترات، بعضها كان مزدهراً حول قرية العلولية وقرية الخمسية اللتين تتقاسمان مياه بئر مصنع على الطريق. انخفض ارتفاعنا في هذا الموقع إلى أقل من (٢٠٠) قدم فوق سطح البحر، ولكي يزداد الأمر سوءاً، فقد هب نسيم أثار الرمال فيما يمكن وصفه بأنه تقليد لعاصفة رملية. واصلنا سيرنا جاهدين عبر هذا وخلال شريط منقطع من

أشجار طلح بائسة، التي ربما علّمت المجرى الأصلي للوادي، على الرغم من أن أمواج الرمال قد محت تماماً مجراه. وصلنا بعد قليل إلى مجموعة أكبر من أشجار الطلح وشجيرات الأراك، والتي يجري الطريق خلالها مسافة نصف ميل ليظهر على السهل الرملي فيما يليها. مررنا بمجموعة من قطع الفخار المتناثر التي تشير إلى موقع قرى قد اندثرت، على فترات، على امتداد مجرى هذا الوادي الميت الذي يجري إلى البحر جنوب المضايا.

رحبنا في فرحة وارتياح لرؤية قرية المضايا، عندما عبرنا شريط كثبان الرمل المعترضة، وقد سيطرت مباني الحكومة على القرى الصغيرة المكونة للقرية. مررنا بالقرية الأولى، وتوقفنا عند البوابة الخاصة بالبناء المتطاول الكبير، الذي كان يضج بالنشاط في هذه اللحظة. كان موسم دفع الضرائب، وقد أقبل الرجال والحيوانات من القرى البعيدة والقريبة، وقد أحضروا معهم مستحقات قيصر[١] - جوالات كبيرة منتفخة تحتوي على نصيب العشر الخاص بالحكومة من محصول الدخن. لم يكن من الضرورة أن تضطرب هذه المراسيم، وعليه واصلنا سيرنا إلى الأقسام الرئيسة للقرية لننال بعض الراحة قبل آخر مرحلة لركوب الحمير إلى جازان.

جلست في ظل عشة حين لاحظت وجودي شابة جاءت إلى باب العشة المجاورة. عادت سريعاً إلى العشة، ليس بدافع من الخجل، ولكن لترتدي كل الزينة التي تمتلكها. جاءت بعد ذلك مباشرة ناحيتي وجلست دون أي إحساس بالإحراج تجاذبني الحديث، وقد شاركتها في المحادثة شابة أخرى أصغر منها سناً.

---

(١) إمبراطور روماني عاش في القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الأول الميلادي، ويضرب هذا المثل كناية عن تحصيل مستحقات الدولة. (ابن جريس).

كانتا زوجاً جميلاً واثقاً وقد استمتعت بصحبتهما غير المتوقعة، عندما حضر بعض رجال القرية وعادت الفتاتان إلى منزليهما، ولكنهما بلا شك ستعاقبان على جرأتهما.

سافرنا فوق سهل خبت فيما يلي المضايا وقد غطته أشجار الأراك والعبال (أرطى) ويشبه دلتا وادي المعاين الذي كنت قد زرته خلال رحلتي من العارضة إلى جازان. تواصل سيرنا بعد أن قطعنا حوالي الميل على هذا الطريق، فوق صحراء ذات شجيرات خفيضة وعشب مسافة ثلاثة أميال ونصف الميل إلى حافة السبخة العظيمة التي تغلف جازان على جانب اليابسة.

لقد غربت الشمس قبل نصف ساعة وهبط الظلام علينا. بدت تلك الرحلة على الحمير وكأنها متطاولة بلا نهاية وكان علينا السير الحذر فوق أرض لزجة. انزلق أحد الحمير، لحسن الحظ ليس حماري، وسقط على جانبه، كان هذا هو الحادث الوحيد الذي وقع لنا. احتفظ الرجال الذين يسيرون معنا على الأقدام بمواكبتهم لسير الحمير وبدون صعوبة، علماً بأننا كنا نسرع متى ما كان ذلك ممكنا. كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف حينما ترجلنا عن حميرنا أمام بوابة منزل الأمير. قابلنا محمد بن ماضي بترحاب شديد على الرغم من الساعة الحرجة التي وصلنا فيها، وسرعان ما أعدت لنا زوجته طعام العشاء. كنا نحتاج لذلك بعد مسيرة (١٢) ساعة ولم يمض وقت طويل حتى كنت في فراشي. لقد استغرقت رحلتنا الدائرية (١٩) يوماً.

الفصل الثاني والثلاثون

الطريق الساحلي[1]

منطقة جازان

لا أحتاج لذكر شيء عن جازان أكثر مما قد ورد في فصل سابق. قضيت اليومين التاليين هناك أعد العدة للمرحلة الأخيرة من رحلتنا، وأستوعب الكمية المهولة من البريد التي كانت في انتظاري حين وصلنا. أكد سائق سيارتي الأخبار التي وصلت من الخوبة فيما يخص العطل الذي أصاب سيارتي، وجمّدت الموضوع بأن قمت ببيع السيارة بحالتها الراهنة إلى ضابط الدخل الحكومي المحلي بمبلغ زهيد، إلاَّ أنني اكتشفت في وقت لاحق أنها لم تكن ملكي إطلاقاً، إنما هي سيارة استعيرت بواسطة صديق في جدة لإرجاعي. كان عليَّ الآن أن أعد العدة للسفر بواسطة الحمير والجمال للعودة، غير أن الأمير أشرف على هذا الأمر بكفاءة وكان كل شيء جاهزاً للبداية في الرابع من فبراير، الذي يوافق (٢٢) من ذي القعدة هجري. ويوافق (٩) من ذي الحجة، وهو يوم الحج، (٢٠) فبراير وعليه فبقي لديَّ (١٧) يوماً أقطع فيها مسافة تقارب (٣٠٠) ميل. لقد غطيناها في (١٥) يوماً وذلك بمساعدة سيارة قابلتنا في الليث بأمر من الملك.

كان ممثلا شركة النفط -اللذان ذكرا من قبل- في جازان حين وصلت إليها، وفات عليَّ مقابلتهما وذلك لأنهما انطلقا نحو جزر فرسان في الصباح على ظهر

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن بلاد الساحل من منطقة جازان حتى مكة، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص١٣٧ ــ ٢٦٥ . (ابن جريس).

واحدة من أبراج (عبارة) حكومة الحـجاز التي تعمل بالموتور، ذات القاع المسطح. كانت ملاحة الربان معطوبة وتعطلت الـبرجة بعناد في رمال الشاطئ. دهشت في الصبـاح التالي وأنا أهيئ نفـسي للسبـاحة على امـتداد الحاجـز المائي حين رأيت أوروبيين ينزلان إلى الحاجز المائي من مركب شـراعي عربي. هكذا كانت مقابلتي لكل من السيد بايك (Pike) والسيـد والفورد (Walford)، يستطيع السـيد بايك إصلاح مـسمار التـانجستين لمزواتي التي بـدأت تعمل بصورة طبـيعيـة، كانت كل معلوماتهم عن جيولوجيا البلاد واحتمالات النفط في فرسان -والتي كانت سلبية- ذات فائدة كبيـرة لي، غير أنني كنت قد تناولت ذلك في فصل سـابق فيما يخص جيولوجيـا ملح جازان وترسبات الجبس. كان كلا الرجلين أمـريكيين، عادا حديثاً من أعمال في الأرجنتين وفنزويلا، وقد بدأ عليهما ضغط ظروف الجزيرة العربية. كانا يعملان بنشاط من شروق الشمس إلى غروبها يومياً لبعض الوقت، ولم يهربا من هجمات الملاريا من حين لآخر. انتهزت الفـرصة لمراجعة ساعاتي، إلى جانب التعرف عليهما، مع إشارات الوقت في محطة اللاسلكي. تأخرت أحسب ساعاتي بمقدار (١٢١) ثانية فـي واحد وعشرين يوماً، مـعطية بذلك متوسط ضـياع بمعدل (٥) ثوانٍ فاصل(٧٦) من المائة من الثانيـة في اليوم، وبالطبع، لا يستطيع المرء أن يفـترض أن المعدل سـيظل ثابتـاً ومتناسـقاً. يمكن لملاحظاتي أن توظف في حـالة خطوط العـرض ولـكن ليس بالتـوقـيـت المحلي وخطـوط الطـول فـي الأمـاكـن البعيـدة من البحـر. تقع ميدي، -حسب خارطة الإمارة البحرية- عند خط (٣٤) دقيـقة إلى الجنوب من جازان، أو بالـتقريب (٣٤) مـيلاً. كان هنالك فـارقاً من (١٦) دقيقة لخط الطول، بحيث كانت ميدي هي الأبعد شرقاً لذلك الحد.

رأيت يحيى (أم شريف) منَ بين الأصـدقاء القدامى، وهو الآن في زيارة إلى جازان في أعـمال خاصة ببني مـالك، كما قابلت مـوظفي الحكومة المحليين. لم يكن هنالك وقت كثير لأي شيء آخر غـير الإعداد للرحلة. تناولنا الإفطار صباح اليوم الرابـع من فبراير، مع الأمـير ثم ودعناه عـائدين إلى أجنحة سكنـنا بجوار الحاجز المائي، ثم بدأت قـافلتنا السفر في الساعة (١١,٣٠). خـرجنا سريعاً من المدينة إلى السبخة الضخمة المسطحة والتي صـيرتها الأمطار الأخيرة لزجة ومبتلة. لم يؤثر ذلك على الجمال المحلية، غير أن الحمـير وجدت صعوبة شديدة وتقدمت متعثـرة حتى عراقيبها في الوحل. اسـتغرق عبورنا لها (٤٠) دقيـقة، وبعدها كان كل شيء ميسوراً على الطريق إلى صبيـا، الذي وصفته من قبل. لم يكن حماري متميزاً، غير أننا سلكنا طريقنا في محاذاة خط التلغراف الوحيد إلى صبيا. سرعان ما أدركنا جمال العفش وتقدمنا عليهـا، وكانت قد سبقتنا في البداية بوقت قليل، وبعد ذلك أصبح عـددنا في المقدمة ثلاثة أشخاص - شخـصي والحمار واثنين من العبـيد أرسلهمـا الأمير لمرافـقتنا وحراسـتنا. كانا يسـيران على الأقدام يحـملان بندقيتي، وكيس الزاد والترامس وأشياء أخرى، إلاَّ أنهما حافظا على سرعتهما مع سرعة الحمار، التي قدرتها بأنها حوالي أربعة أميال في الساعة.

توقفـنا عند بئر السـلام، في وسط غابة طلح كـانت تملأ أسفل وادي ضـمد وذلك لمدة (٤٠) دقيقة لتـسمح لجمال العفش أن تتقدمنا مـرة أخرى. شاهدنا قبل الوصول إلى هذا الموقع قطـيعاً ضخـماً جداً من الجـمال ومعهـا أعداد كبـيرة من صغـارها تستمـتع بالغطاء النباتي الطازج للربيع الجـديد. كانت تنتمي إلى قـبيلة الشاجري (أو شواجـرة) الذين كانت لديهم قرية على مسافة من ضـمد تبلغ ميلين ونصف الميل تجاه أعلى الوادي على الطريق الذي سلكناه، والذي كـان في معظمه

يقع إلى الداخل بالنسبة لطريق السيارات، غير أنه يتصل به على فترات. مررنا بفرقة طوارئ شرطة صبيا في الصحراء الرملية فيما يلي دلتا الوادي، وتسمى فقرة، وقد تم تسريح واحد منها وهو يتهيأ للعودة إلى جازان لإحضار احتياجات رحلة العودة إلى مكة. كانت كل الطيور المألوفة متوافرة خاصة في غابة أبي السلام، طيور العوسق تطارد الجراد، إلى جانب نوع أو نوعين غير معروفين للصقور، والعديد من الشقراق الحبشي، وطيور الغداف، وطيور النساج الصغير في أسراب ضخمة، والحمام، والقنابر من أصناف مختلفة، والعديد من طائر الأبلق، والبلابل، والبلاكستارتس، وطيور الصرد، والطيور آكلات النحل، وطيور القليعي المطوق، والعصافير، وغيرها، كانت جنة حقيقة للطيور. وكان العديد منها معشعشاً.

دخلنا إلى حقول الغراء المزروعة في وقت لاحق ومن حولنا منظر رائع للمحيط الشبيه بالمتنزه الذي يطوق صبيا أمامنا. امتدت قمم العشش الشبيهة بالخلايا النحلية من فوق رؤوس أشجار الغابات، ولمحنا هنا وهناك بعض المباني ذات الطلاء الأبيض. كانت الشمس تميل نحو الغروب بسرعة، مسقطة وهجاً وردياً فوق قناعها من السحب، وقد غربت بالفعل قبل عشرين دقيقة من وصولنا إلى بئر في وادي صبيا لنجد حُسن ضيافة عبدالرحمن بن غنيم، الأمير النجدي، وهو رجل قصير جذاب، كان هو وحاشيته يتفقدون الوادي تطلعاً لقدومنا، وقدم لي تلغرافاً وصل الآن من الملك وتم استلامه في جازان. تمت الموافقة على خطتي للعودة إلى مكة لأجل الحج، كما توقعت، وأنهى جلالة الملك تلغرافه بالأمل ألاَّ أكون مريضاً كما تنامت التقارير المحلية إليه.

كان هنالك ندى كثيف في الصباح على سفح الأرض حينما بدأنا الرحلة عند الساعة الثامنة تحت سماء ملبدة بالسحب، وصلنا خلال عشر دقائق إلى مفترق

الطريق، سلكنا جانبه الشمالي بينما يقود الآخر، ناحية البحر إلى قريتي الجاره والجمالة. امتدت الزراعة على جانبنا بعداً وعمقاً، وهي تروى بواسطة السيول من فرع شمالي لوادي صبيا، الذي -مثل كل أودية تهامة هذه- ينتشر فيما يشبه الدلتا. تقف صبيا نفسها فوق مسطبة مرتفعة بين الفرعين الرئيسين للوادي، لمحنا إلى البعيد وعلى يميننا بركاني عكوة، تكسوهما السحب كأنها كرة من الدخان. واصلنا سيرنا خلال محاصيل الدخن وبعضها قد تم ادخاره في حزم عالية تسمى مزوام (جمع مزاويم) وتبدو تماماً مثل العشش الشبيهة بخلايا النحل التي يسكنها القرويون.

تقع قريتا العدايا وحلة العقيبي، بعيداً إلى اليسار من موقعنا فوق أرض مرتفعة قليلاً ومعهما منزل السيد مصطفى ذو القبة البيضاء وهو من الأسرة الإدريسية السابقة. مررنا في وقت لاحق على أرض عارية من الصحراء ذات الشجيرات القصيرة، حيث وصلنا فيها إلى وادي اللخبصية الكثير الشجر وبئره الجميلة التي تسمى أم البزابز في مساحة مكشوفة تحيط بها أشجار الأراك التي نمت فوق ربوات رملية مرتفعة. يعد هذا الوادي امتداداً لدلتا وادي نخلان الذي ينحدر ماراً بالحسينية ويمثله في هذه الأنحاء مجريان مسطحان، رمليان يشقان طريقهما عبر غابة الأراك إلى الداخل حيناً وإلى الخارج حيناً آخر.

كانت البئر عملاً جميلاً بلغت مساحة فمها خمسة أقدام مربعة ومبنية من بازلت جيد يمتد إلى عمق أربعة أقدام، يبدأ من نهاية ذلك صهريج ذو لون وردي - بني يمتد إلى أسفل إلى مستوى الماء على عمق ست قامات. تقع قرى تابعة لقرية اللخبصية بالقرب منها -التي اشتق من اسمها اسم منطقة الدلتا- وهذه القرى هي: حلة الحجازي، والشاخر، وبالبيس، وتبعد الأخيرة هذه على مسافة ميلين ونصف الميل وهي الأبعد تقع مخاريط عكوة البركانية ناحية الشمال الشرقي

من موقعنا وتكون سلسلة جبلين إلى يسارهما. أفادني دليلي الذي تم توظيفه في صبيا باسم القمتين الخاصتين لسلسلة جبلين وهما صنادل[١] وكحل، كما أخبرني عن وادٍ صغير يسمى بزع لينحدر من صنادل، غير أنني اكتشفت في وقت لاحق أن هنالك اختلافاً في الرأي حول هذه الأسماء من قرية إلى أخرى.

واصلنا مسيرتنا ناحية الشمال الغربي عبر غابة الأراك التي تخللتها مساحات عديدة للزراعة، خاصة على جانبي المجرى الشمالي الذي كانت به آثار أمطار حديثة. لقد تكسرت الحواجز التي تحيط ببعض المساحات المزروعة، حقيقة، في أكثر من موقع، ولا تزال الحقول نفسها مبللة. لا بد أن تكون الأمطار التي سقطت عندما كنا في السودة أكثر غزارة إلى الشمال، وسنرى فيما بعد المساحات التي تأثرت بالسيول. يقع طريقنا جزئياً على قمة امتداد حاجز عريض، يبلغ ارتفاعه (١٢) قدماً، وكانت المحاصيل مزدهرة بصورة مدهشة على الجانبين تتخللها برك عديدة كبيرة مملوءة بالمياه.

لم يكن هنالك حد فاصل بين حقول القرى المختلفة من حولنا، ومررنا بلا شعور داخل دلتا وادي وساع ووادي شهدان، حيث توجد مزارع قرية الشاخر وقريتين أخريين صغيرتين، هما أبو السلع ودماري. توقفنا قليلاً في الشاخر، وهي قرية طويلة متعرجة، عششها كأنها خلايا النحل، وذلك لمسح المحيط المجاور. يتقابل الواديان اللذان ورد ذكرهما على مسافة ميلين ونصف الميل تجاه أعلى الوادي عند قرية أبو القعائد إلى الشمال الشرقي، بينما تقع قرية كبيرة أخرى أمامنا ناحية الشمال الغربي وتسمى الملحاء، تابعة لقبيلة الأشراف فرع آل الملحة، الذين

(١) صنادل: هو الاسم الصحيح لهذا المكان، مع أن فيلبي ذكره باسم (سنادر)، وهو اسم غير سليم. (ابن جريس).

يبدو أنهم يكـونون العنصر الرئيس للسكان في كل هذه القـرى. تقع قرية العـشة الصغيرة على بعد ميلين ناحية الغرب، كـما نستطيع رؤية منازل صبيا من بعيد من ورائنا ناحية الجنوب الشرقي. شمخت قمة جبل قورا البارزة في السلسلة الخارجية للتلال. كما بدت الجبال العالية المحيطة بجبل الريث شاحبة، على بعد. كانت كل هذه البلاد ثرية بالغابات كما امتلأت أشجار الطلح بأعشاش الطيور النساجة، وقد بنتها على الورق وليست متدلية كما هي العادة.

وجدنا مجرى شـهدان الرئيس وهو يدور، عندما اقتربنا من الملحـاء من جهة الجنوب، في ذلك الاتجاه بين أجـمات أثل كثيفـة. ينحدر الطريق إلى بطن الوادي العريض، الذي كان مبللاً جـداً، وكان السير فوقه صعباً بسـبب السيول الأخيرة. يسمى هذا الطريق محلياً باسم الفرشـة، وهو اسم شائع في الجزيرة العربية لمناطق معرضة لسيول قوية، ويتصل به من أسفل فرع من وادي بيش ليطوق منطقة القرية داخل حلقة. لا يزال عدد من البرك ممسكاً بمياه السيل التي فيها ومن حولها تشاهد المئات من طيور البلشون البـقرية تستمتع بالحياة. تنتـشر بيوت القرية بلا نظام في مجـموعات عـديدة من المساكن عند قـدم ربوة عاليـة عريضة وعلـى سفوحـها، مسيطرة على الوادي من ارتفاع أربعين قدماً.

توقفنا فوق هذه الهضبة بعـد أن مررنا بالجزء الجنوبي للقرية، لننال ساعة من الراحة. قام بزيارتنا على الفور رئيس القرية الشيخ مكي، من قبيلة الأشراف (أهل الملحاء) التي قـد هاجرت أصـلاً إلى هنا من قرية الدهناء إلى الغـرب. أفادنا بأن السيل الأخيـر لم يكن له مثيل من قبل من حـيث قوته، وأنه لا يذكر مثـيلاً لهذا

السيل طيلة حياته[١]. لقد جرف السيل بعض الرعـاة أعلى الوادي وأغرقهم وكان هنالك خوف شديد على سلامة القرية، إلاَّ أنها لم تصب بأذى. لم تتجاوز سيول كل من شهدان وساع -قرية أبو القعائد- إلاَّ أن وادي بيش حين فيضانه وصل إلى الملحاء بأقصى سرعته ومضى يدوي حتى الفرشة. تمثل الربوة التي نقف عليها الآن بقايا جبل يمتد فوق ما أصبح الآن بطن وادٍ، ويأوي مستوطنة الملحاء الأصلية. لقد تدمرت هذه القرية وجرفها سـيل عام (١٣٣٥) هجري (١٩٢٠ ميلادي) العظيم، والذي كوَّن خلاله وادي بيش المجـرى الذي نراه الآن أسفل منا. كانت هذه الربوة في هذه المناسبـة، هي المتراس للقـرية وقد استـدار السيل من حـولها بدلاً من أن يجرفها. يمكن رؤية الدهناء من هنا وهي فوق أرض مرتفـعة، إلى البعيد، وناحية اليمين بينما إلى ناحية اليمين أكثر، وأكثر بعداً تُشاهَد قريتا قرية السلامة[٢]، وهما عليا وسفلى.

توقفنا هنا لنسـمح لقافلة جمال العـفش أن تصلنا، ولنستمـتع أيضاً بالمنظر. واصلنا سيرنا بمجرد ما لمحنا جمال العفش وهي قادمة نحونا، بدأنا أولاً بجولة في القرية، ثم ضربنا الطريق في اتجاه الشمال الغربي من الطرف الشمالي للقرية. كان موقع (قريـة أبو السلع) أصلاً في هذا الموقع، لتكون جارة قريبـة من الملحاء، إلاَّ أنها جرفت في سيل (١٩٢٠م) وهاجر ساكنوها إلى الموقع الحالي فوق أرض أكثر

---

(١) كان الناس قديماً، ولا زال إلى اليوم بعض كبار السن، يؤرخون لبعض الأحداث بوقوع مرض أفنى كثيراً من الناس، مثل:- الجدري، والطاعـون وغيرهما، أو هطول أمطار غزيرة نـتج عنها دمار وهلاك للناس وأملاكهم، أو قحط وجوع أصاب الناس وأهلك الكثير منهم. (ابن جريس).

(٢) قرية السـلامة: يطلق عليـها أحيـاناً اسم (قرية السـلامتين) أو (السلام العليـا، والسلامـة السفلى) (ابن جريس).

أماناً ناحية الجنوب الشرقي. يعلّم قسم منعزل من الملحاء يقف على مسافة (٥٠٠) ياردة إلى يميننا، الموقع الذي تراجع إليه السكان بعد أن فقدوا منازلهم في ذلك السيل. فضل البعض منهم أن يظلوا هناك بصفة دائمة بدلاً من العودة إلى الملحاء الجديدة. وصل وادي بيش إلى البحر، خلال السيل الحديث، عن طريق هذا المجرى، الذي يقع الآن على يسار طريقنا على شكل حوض عريض وعميق بعض الشيء يبلغ عرضه (٢٠٠) ياردة. انطبع في ذهني لطف الشريف مكي وأهله، لقد كانوا بسطاء يتمتعون بقدر عظيم من الكياسة. لم يكن هنالك أي عنصر كبير أفريقي - يطلق عليهم بصفة عامة لفظ عبيد في هذه الأنحاء، علماً بأنهم ليسوا رقيقاً- داخل سكان الملحاء، إلاَّ أن العرب، كانوا أصلاء النسب أو مختلطي الدماء، يبدون وكأن ليس لهم ولاءات قبلية ما عدا -بالطبع- الأشراف.

يقع طريقنا أولاً خلال منطقة لأشجار الطرفاء والشجيرات الخفيضة مع أشجار الدوم سيئة الحال هنا وهناك، ثم عبر تلال رملية منخفضة عليها شرائط من طين نهري تنمو عليه أشجار الأراك والطرفاء وعشب الثمام بكثافة. مررنا فيما يلي هذا عبر حقول الدخن التابعة لقرية المحلة الصغيرة، التي توقفت بجوارها لحظة لإطلاق رصاصة على صقر يقف فوق شجرة، غير أن بندقيتي لم تعمل أو أن الخرطوش كان معيباً. بدا مظهر كل هذه الأرض وكأنها داخل شريط السيل، برغم أنه لا يوجد مجرى مميز، وكان القرويون دائبي النشاط بتنظيف مساحات وإقامة حواجز في أرض بور للزراعة فوق البلل الذي ظل موجوداً عليها. كانت قطعان ماعزهم من سلالة جيدة، وللذكور قرون طويلة أفقيه ملتوية وتبدو مكتملة الذكورة بصورة واضحة.

وصلنا مجرى سيـل آخر، عريض سببه السيل في وادي بيـش بعد ساعة من مغادرتنا الملحـاء، وهو يمتد من جهة الجنوب الغربي ماراً بقـريتي عاليا ودهناء إلى البحر. كانت لا تزال به آثار السيل الأخير في طينه المبتل في الحفر الجافة التي كان من الواضح أنها قد امـتلأت بالماء حديثاً. كان علينا أن نعـبر حفرة واسعة عـميقة لنصل إلى شاطئه البعيد، والذي فيـما يليه يجري طريقنا فوق أعالي المتاريس التي تقي الحقـول التابعة لقريتي السـلامة وقد ورد ذكرهمـا. رحب بنا عند واحدة من هذه القرى الشيخ المحلي، واسمه محمد بن إبراهيم، غير أننا انتظرنا معه مدة ربع ساعـة لنفحص مـا لا يمكن وصفـه من العشش الشـبيـهة بخلايا النـحل والجامع المخرب الذي كان محـمد فخوراً به. كما لاحظنا قريتي نجمـة وسعدى في الجوار ومررنا بمجـموعـة من أشجار العلب اللـطيفة، عند حـافة غابـة واسعة لأشـجار الأراك، التي كانت بداخلها مساحات نظيفة لزراعة الدخن.

استمرت المزارع مـتقطعة عدداً من الأميال، حـتى وصلنا إلى قرية أم الخشب الكبيرة، والتي يسمونها -عادة- بيش، وهي بالتأكيد أكبر قرية تواجهنا منذ صبيا. كان علينا أن نعـبر مجـرى سيل ضيق وضحل وحـاجز بارز منخفض على جـانبه البعـيد لكي نصـل إلى أم الخشب. دعيـنا إلى مقر الـشريف المحلي- وهو عـشة جمـيلة جـداً على نمط خلية النحل، وقـد طليت الجـدران الداخلية بالطين حـتى القمة. تتدلى كل الأغراض المنزلية من مـشابك على الجدران -حصائر من القصب من أحجـام مختلفـة، وسلال من المادة نفسهـا، وجرار ومقـالي وهكذا. وضعت على أرضية العشة سرائر منخفضة من الحبال للجلوس عليها أو الاضطجاع، وكان كل المكان نظيفاً إلى حد بعيد. كان الشريف الرئيس -واسمه قاسم- غائباً إذ ذهب لأداء الحج في مكة، إلا أن ابنه الجـميل المحيـا (حسن)، اكتـسب شرف المناسـبة

هذه، بمعاونة شقيقه الأكبر الأبله، ويسمى حُسَيْناً. تميز حسين بأن قدم لحماري أعواد الدخن وأدار الحديث بسرد ممل لكراهية زوجته له. بالتأكيد لقد كان كاملاً جميلاً من زوجته، إذا كان حديثه صادقاً جلست خلال كل هذا بصبر، في انتظار الكرم المتوقع من أهل المنزل، وسرعان ما أحسست بأنه لن يكون هنالك ما سيقدم لنا، ولا حتى القهوة. استطعت أن أخرجهما من العشة بحجة أنني أرغب في الراحة، وحينها استمتعت بكوب شاي من ترمسي وقطعة خبز وعلبة شرائح أناناس. لقد أحضر لنا أمير صبيا، بالمناسبة، البرنجال والكوزة- وهي رفاهيات غير عادية- لعشائنا في الليلة الماضية.

دعيت لزيارة السوق بعد أن استرحت وأبديت رغبتي لرؤية البلدة، حيث اشتريت فجلاً أبيض كبير الحجم لوجبتي التالية. يوجد في أم الخشب، كما في غيرها من القرى المجاورة، سوق يومي دائم، يقبل عليه كل الناس من مسافات بعيدة للبيع والشراء. دعاني تاجر يمني اسمه سيد عبدالله، -جاء أصلاً من تعز- للإقامة هنا، لزيارة منزله، وهو بناء حجري تحيط به مجموعة من العشش. اطلعت على منظر شمولي للقرية والجوار من فوق السطح، إلى البعيد حتى قرية مسلية حيث سنقضي الليلة. تقع قريباً منا قرى الزكرية، وشرية، وحلة الجلي. وتقع ناحية الشمال الغربي السلاسل البركانية المنخفضة لكل من صفصاف وآل السّوَدَة، كلاهما يبدو لي من تكوين حديث نسبياً مثلهما مثل قمم عكوة. تقع أم الخشب على مسافة (٤٠٠) قدم فوق سطح البحر، وبها ما يكفيها من المياه، التي يتم سحبها من آبار عديدة مبنية على عمق عشر قامات. كانت قرية كبيرة إلاَّ أنها منتشرة، غير أنني وجدتها مثبطة تماماً برغم كل ما سمعته عنها فيما يخص حجمها وأهميتها. كان كل من حجمها وأهميتها أمراً نسبياً، وقد يصل عدد

سكانها إلى (٥٠٠٠) نسمة. كان سوقها هو مصدر قوتها الرئيس، كما أن بها صناعة أصباغ مزدهرة. يزرع نبات الأندقو هنا بكثافة لأجل صناعة الصبغة، وقد شاهدت في موقع واحد ما لا يقل عن عشر رافودات ممتلئة بالسائل اللزج الأزرق، الذي يقوم العاملون بتحريكه أو جسه بواسطة أعمدة طويلة. يبدو أنهم يقومون بتحضير الصبغة استعداداً لاستلام الأقمشة التي ستعالج، غير أنني لم أر عملية الصبغ نفسها. شاهدت في موقع آخر كومة من نبات الأندقو تجفف تحت الشمس فوق أرض طينية، ربما استعداداً لخطوة تالية في عملية التصنيع.

لمحت جمال عفشنا تعبر خلال القرية أثناء ما كنت منشغلاً بهذه الفحوصات، إلاَّ أنني تمكنت من اللحاق بهم بجوار البئر على جانب الطريق قليلاً فيما يلي العشش. كان العديد من السكان هناك يسحبون الماء لحيواناتهم ولأغراضهم المنزلية وكان جَمْعُهم هذا منظراً يشع بالحياة، وقد استمتع برؤيته رفاقي وهم ينتظرون دورهم في الدلاء. تركتهم هنا وواصلت تقدمي خلال المنطقة المزروعة التي يجري فيها الطريق على امتداد بهو يقع بين متراسين متوازنين. كانت هنالك أسراب ضخمة من طيور الغداف من الصنفين وهي تحلق فوق وتهبط في الحقول مستمتعة بتناول وليمة الحبوب الساقطة. لا يبدو أن أحداً يزعجه ذلك، ولربما كان هنالك ما يكفي لكل قادم جديد، بشري أو من ذوات الريش.

تركنا قطار عفشنا عند البئر وواصلت سيري بأسلوبي يرافقني مرشدي من صبيا والعبدين الاثنين من جازان. اقتربنا خلال (٢٠) دقيقة من شرية، التي تقع إلى الخلف من الطريق، وفي ثلاث مجموعات من العشش، منتشرة على مسافة نصف الميل. انتشر قسم آخر عبر الطريق، بعد مسافة قليلة، حيث كانت هنالك أبقار تتناول شربتها المسائية من البئر، وعدد من الأطفال يحملون جرار الماء المنزلية

التي يقوم بتعبئتها -حسب الدور- زنجي قوي البنية، ويبدو أنه المسؤول عن توزيع الماء. تحمل الجرار بعد ملئها على ظهور الحمير فوق أسرجة بدائية يكون على كل جانب منها جرة واحدة. تأخر الوقت كثيراً عندما عبرنا خلال مزارع القرية، مساحة واسعة من حقول ذات متاريس ويبدو أنها انتفعت من السيول، برغم أنه لا يوجد ما يفيد بوجود مجرى. تسمى هذه الأرض الكدرة وقد امتلكها بالشراء تاجر حضرمي اسمه محمد بن يحيى العوض[(١)]. وهو الذي قام ببناء قرية خاصة به وبأسرته وبعماله اسمها الكدرة أو بيت العوضي[(٢)]، يبدو أن محمد نفسه من ملاك الأراضي الغائبين على الدوام، ويقوم بإدارة اهتماماته وكيله أحمد بهكلي من مواطني صبيا. احتل مستأجر يمني وأسرته قرية أخرى صغيرة تسمى المطعن وتقع في جزء منعزل من هذه المنطقة[(٣)].

تنتهي الأراضي الزراعية فيما يليها وتنتشر غابات الأراك، ويستمر الطريق فوق أرض ثابتة طينية كان ينتشر فوقها عشش يسكنها مستأجرون ورعاة. يفيد تعدد طرق الجمال بوجود طريق سريع ومهم، ربما كان طريقاً مساعداً لطريق الحج الذي يربط منطقة بيش العليا مع طريق الساحل. مررنا في هذا الطريق على القسم الرئيس لقرية المطعن الصغيرة التي لا توجد حولها مزارع. لم يكن الشيخ المحلي واسمه أحمد بن علي الفقيه من الأشراف، ولا من أي قبيلة عربية، بل كان مقيماً عابراً اهتم برعاية الأبقار والماعز في هذه الأراضي الواسعة ذات غابات الأراك.

(١، ٢) يحيى العوض: يطلق عليه بعض سكان منطقة بيش أيضاً اسم (العواض) أو (بيت العواضي). (ابن جريس).

(٣) هناك العديد من الحضارمة الذين نزحوا من بلادهم واستقروا في أجزاء عديدة من المملكة العربية السعودية، وعملوا في مهن عديدها من أهمها التجارة، حتى صار منهم بيوت كبيرة في عمل التجارة مثل: باخشب، باعشن، باوزير، بامخرمة، بامحفوظ وغيرهم. (ابن جريس).

وصلنا فيما يلي هذا الموقع إلى الحقول الخارجية، وكان معظمها بوراً، لقرية مسلية نفسها وقد فصلها طريق الجمال عن الغابة، التي تقع الآن على يميننا وتختفي تدريجياً ونحن نقترب إلى محيط نقطة الوصول. كانت ضواحي مسلية معلمة بظروف شبه المنتزه، بالعديد من أشجار العلب ومساحات متفرقة من أشجار الدوم. كانت الحقول على جانبي الطريق لا تزال بوراً. وقد وضح لي فيما بعد أن السيول الأخيرة لم تصلها مطلقاً. كانت طيور الغداف عائدة إلى أعشاشها في الغابة بأعداد كبيرة في هذا المنتزه بعد غروب الشمس، كان كلا صنفيها ممثلاً هنا، علماً بأنني كنت أعتقد أن مروحية الذيل منها كانت هي السائدة. يوجد شريط عريض من محصول الذرة بين منطقة المنتزه والقرية، وقد ركبت الحمار خلالها مدة عشر دقائق.

دخلنا مسلية من طرفها الغربي من طولها ووقع اختيارنا على موقع مكشوف بين صفين متباعدين من منازلها لإقامة معسكرنا المؤقت. كانت الشمس قد غربت قبل نصف ساعة حينما انتهينا من هذا، وهبط علينا ظلام الليل، ولم يظهر أي صوت أو حس أو علامة لقافلة العفش والجسم الرئيس. سيجدون صعوبة حقيقية في اكتشاف الطريق إن لم يكن معهم مرشد كفء، ذلك لأن مسلية تقع بعيداً عن الطريق الرئيس والذي يمكنهم استمرار السير عليه دون ملاحظة المفترق. أرسلت عَبْدَيْ جازان الاثنين لمساعدتهم وبقيت وحدي ومعي دليلي ولا شيء آخر، ذلك لأن كل العفش كان خلفنا ما عدا السلة التي تحتوي على غذائي اليومي والتي كنت أحملها معي. كنت محظوظاً إذ احتفظت بعباءتي معي تحذراً أن تمطر، وقد لففت السلة بمعطفي الكاكي، الذي خدمني كوسادة وأنا أنتظر. كان انتظاري بلا فائدة. لم أر العبدين بعد ذلك، وذلك لأنه بعد فشلهما في الاستدلال على قافلة العفش

قررا قضاء الليلة في أم الخشب. لم يصل العفش كذلك، وظللت ومرشدي وحيدين، دون أن يشرف على رعايتنا أحدٌ حتى القرويون. يبدو أننا دخلنا إلى أرض لا يعرف أهلها أعراف العرب الخاصة بالكرم، أو أنهم لا يحترمونها، وذلك لأنه لم يبدُ أي أثر للمحاولة من جانب القرية لإمدادنا بالضروريات -ولا حتى قطعة من خبز أو قحف من لبن- لقد نفد مخزوني الخاص من المؤن بسبب عدم الكرم، وكان كل ما معنا هو الفجل الذي حصلت عليه من أم الخشب.

لم يكن هنالك ما أفعله غير أن أنام مبكراً، غير أنه يبدو أن في القرية حفل عرس أو شيئاً من هذا القبيل، وقد ظللنا مستيقظين نستمع إلى الغناء الجذاب الذي يذكرنا بأهل بني مالك، إلى وقت متأخر من الليل. استغرقت بعد ذلك في نوم عميق طويل، على أمل أن استقبال الصباح قد يصحبه حظ أفضل، غير أنه للآن لم يقترب منا أحد. قررت أن أبدأ بالمبادرة فأرسلت دليليَّ إلى القرية لطلب الطعام - خبز، وبيض، ولبن أو أي شيء. استجابة لذلك، عادا ومعهما بيضتان، مؤكدين أنهما لم يجدا غير ذلك، ولم يعرفا كيفية طبخهما، وذلك لأنهما لم يأكلا البيض أو الدجاج مطلقاً. ومن المؤسف أننا لم نستطع طبخهما حيث لم يحضرا معهما الحطب، غير أن سيدة طاعنة في السن، عطوفة، من منزل مجاور، أخذتها الشفقة علينا، وأحضرت معها قدرها المغلق الذي يعمل بالفحم وقدر ماء لنستعملهما. كان الأيسر لنا أن تقوم هي بطبخ البيض لنا في منزلها، وأعتقد أنها لن تقبل أن تفعل ذلك. قد يلي ذلك أكل المادة الممنوعة. لم أر في الجزيرة العربية أن الجائع المحتاج يعامل بمثل هذه المعاملة، وقبل أن أغادرهم انتهزت الفرصة لأخبر القرويين عن رأيي فيهم. صرفتهم بعد أن أسقطت عليهم اللعنة في كل ما

يقومون به من أسلوب مألوف لديهم، ثم شرعت في المغادرة. أرسلوا لي في آخر لحظة مُوفداً يقدم لي قحفة من اللبن وقد رفضتها بكل عجرفة مع تكرار للعنات على القرية، وركبت مطيتي بكل احتمالات أن أظل جوعاناً طيلة بقية اليوم. كانت مسلية قرية منتشرة غير واضحة تمتد مسافة نصف ميل من الطرف إلى الآخر، ويبلغ عرضها (٣٠٠) ياردة، وبها قلعة جذابة غير أنها مخربة، ربما بناها الأدارسة عند طرفها الشرقي. يقام سوقها كل يوم سبت.

نفضنا تراب مسلية عن أقدامنا عند الساعة ٨ صباحاً دون أسف عليها، وتوجهنا إلى الأمام في انطلاقة للمرحلة التالية من الرحلة. ركبت الحمار بينما سار الرجل القادم من صبيا على رجليه. لقد شارف على نهاية نطاقه الجغرافي ويعرف القليل عن البلاد التي تقع أمامنا كما أعرف أنا عنها. كان هدفنا الأول هو العودة إلى الطريق الرئيس وأن نسلكه في اتجاه الشمال، كما كنا نتمنى أن نتصل مع رفاقنا المفقودين. لا ندري إذا كانوا بدورهم يبحثون عنا أو أنهم واصلوا السير على الطريق الذي كانوا عليه في آخر مرة رأيناهم فيها. ضربنا السير غرباً فوق أرض متموجة رملية ذات شجيرات قصيرة على امتداد الحافة الشمالية لدلتا بيش، التي تقع قريباً من يسارنا أول الأمر، ثم تباعدت عنا تدريجياً ناحية الجنوب. لم تكن أرض الشجيرات كثيفة جداً إلا أنها كانت مغطاة بنبات الثمام والحمض وشجيرات قصيرة أخرى، مع بعض مجموعات من المرخ. تكاثف هذا تدريجياً حتى صار غابة كثيفة تشتمل على السرح والطلح والقطف -بأزهاره الصفراء- وكلها سائدة. لقد أفزعت حركتنا أرنباً برياً داخل إحدى الشجيرات، كما أفزعنا غزالاً منعزلاً، كما كنا نعبر بمجموعات صغيرة من الجراد وكانت تتكاثر بوضوح إذ إن معظمها كان في حالة تزاوج.

وصلنا إلى طريق السيارات بعد نصف ساعة من بداية الرحلة إلاَّ أنه كان يتجه غرباً، وقررنا أن نمضي ناحية الشمال الغربي تجاه السلاسل البركانية لأهل السودة. كان هذا يعني السفر بلا رؤيا وذلك لأن الغابة كانت كثيفة جداً، وقد تمت بأكثر جاذبية في القفار، وبدا لنا أننا نمتلكها لمصلحتنا فقط، فيما يخص البشر. كنا نفزع من حين لآخر الغزلان من مراعيها المنعزلة، كما كان طائر الشقراق الحبشي متوافراً وقد لاحظنا الحبارى العربي تتلصص إلى الاختباء. أصبح سطح الأرض صعباً ونحن نقترب لخط وادي سر، وأصبحت البلاد مكسرة برغم أنها جيدة الغابات. رفعت أشجار الدوم من حين لآخر رؤوسها فوق أشجار الغابة. كما بدأنا نلاحظ وجود الضأن وبعض الجمال وهي ترعى، بينما احتمى مالكوها بجوار البرك المائية للمجاري العديدة التي تعترض هذه الأرض. عبرنا واحداً من هذه الأحواض، كان عرضه حوالي (٢٠) ياردة وخرجنا منه إلى حزام حصوي كأنما هو سد نهري قديم، ونزلنا فيما يليه إلى وادي سر نفسه - وهو المجرى الرئيس. كانت أشجار الدوم هنا أكثر انتشاراً ومعها الأراك وعدد من أشجار الطلح والقطف وغيرها. وجدنا رجلاً طاعناً في السن داخل عشة منعزلة سقفها من القصب يقوم بعناية رجل مريض بمساعدة كلب مزمجر لئيم. كانت أغنامهم وماعزهم تستمتع هنا وهناك بالمراعي المزدهرة. يجري بطن السيل في هذا الوادي العريض في أكثر من شريط، تسلقنا فيما يليه السفح المرقط بالشجيرات القصيرة على جانبه الأيمن لنلقي نظرة من القمة على البحر البعيد.

لم يعد هنالك شك حول الأصل البركاني لسلسلتي صفصاف وآل السودة، وليستا بعيدتين، بينما على بعد ناحية الشمال الغربي، وهو الاتجاه العام لمسيرتنا، نستطيع رؤية القمم البارزة غير أنها منخفضة لسلسلة تسمى -كما تأكد لنا فيما

بعد- حرامين[١]. امتدَّ سهل واسع من طرف أرض مرتفعة إلى البعيد وعلى يميننا إلى حد ما قريباً من البحر، تكسوه شجيرات قصيرة وحشائش مع قليل من الأشجار والجنبات الكبيرة من حين لآخر. مررنا في هذا السهل بملاجئ للرعاة، وقد وجدنا رجلاً وثلاثاً من النسوة ومعهم قطيع من الماعز. ارتفع السهل تدريجياً إلى سلسلة منخفضة، هبطنا منها قليلاً لنعبر ثلاثة مجارٍ منفصلة لوادي السودة، وقد نمت على حافاتها أشجار الدوم بغزارة ويستمر على امتداد حافة الأرض البركانية التي انتشرت أمامنا على شكل ربوات خشنة ذات غطاء نباتي شحيح. أدى دخولنا هذا الموقع إلى نفور غزالتين وأرنب بري كما كانت هنالك جمال ترعى في الأودية. كان لكل واحد من هذه الأودية اسمه الخاص به، غير أنني جمعتها كلها معاً بكونها أجزاء من وادي السودة وذلك لأننا لم نجد من الناس من يمكنه إعطاءنا معلومات دقيقة. عبرنا خمسة من هذه المجاري قبل أن ندخل إلى وادي الرضه ذي الشواطئ المنحدرة، العميق والضيق، وقد تحصلنا على اسمه من أحد الرعاة كنا قد ألقينا عليه التحية وسألناه عن الطريق. كما أخبرنا أن مشرب الرضه يقع على مسافة (٥٠٠) ياردة مع اتجاه الوادي عند العبور.

كنا نسير الآن فوق أرض عندها وقفات قصيرة خلال أربع ساعات، كان رفيقي ليس فقط ماشياً على رجليه، وإنما كان يحمل عني ممتلكاتي لأكون متحرر الحركة لأقوم بمسوحاتي - وقد بدا عليه الإرهاق، ولعل هذا سببه الجوع والعطش أكثر منه الجهد المضني، ثم شعر رفيقي بالتحسن بعد دقائق حينما وصلنا إلى الطريق السريع الذي كنا نبحث عنه، وهو يمتد فوق جبهة عريضة في الخطوط

(١) حرامين: ربما أطلق عليه أيضاً اسم (حرمان). (ابن جريس).

المألوفة عبر الحرة المتكسرة والسهل البازلتي. كان هذا واحداً من الطريقين الرئيسين المتجهين من الجنوب إلى الشمال في تهامة، وهو الأكثر قرباً إلى البلاد الداخلية، ذلك لأن الطريق الآخر يحتضن الساحل كثيراً في القطاع. عبر الطريق ثلاثة مجارٍ لست متأكداً من أسمائها -تم تعريفها فيما بعد على أنها درب المعقر-، مررت في واحد منها برجلين واثنتي عشرة امرأة وبعض الجمال، متجهين جنوباً ربما للعمل في الحصاد في وادي بيش. كان أحد الرجال يرتدي ملابسَ مصبوغة بالأخضر. كان سير حماري الآن أفضل على طريق مطروق، وحاول الرجل القادم من صبيا أن يماشي سير الحمار. كان متخلفاً وراءنا إلى البعيد حينما وصلت إلى وادي سمرة، وهو مجرى جذاب جداً ينفرج عبر شريط عريض من بازلت مائل، تنتشر فيه العديد من البرك المائية في تجاويف صخوره. كان أحد الرعاة يقوم بسقي قطعانه هنا إلاَّ أنه نفسه لم يشرب من البرك خوفاً من الحمى. قام بدلاً من ذلك بحفر الرمل، وشرب الماء وهو ينبع من تحت التربة إلى سطحها. عملت مثل ما فعل ووجدت الماء بارداً ومنعشاً. وصل رفيقي أخيراً وهو مرهق واستلقى على يديه وركبتيه وأخذ يلعق الماء كما يفعل الحيوان.

يتجه الطريق فيما يلي هذا المجرى ناحية الشمال الغربي على السهل نفسه ذي الحصى الذي تعترضه خطوط صرف من حين لآخر. كانت أشجار الرنف مزهرة كما تكاثرت أعداد أشجار الدوم. بدأ السطح على بعد ينبسط ويصير أملسَ وقد كساه حصى خفيف ورمل وطمي، وانحدر بلطف إلى وادي بيض المهم، مع مجرى معتبر وبحيرة في موقع عبورنا. كشفت علامة مستوى الماء العالي على الشاطئين عن الإفادة بأنه قد كان هنالك سيل قوي وقع حديثاً، ويعزى وجود مسطح مائي واسع لهذا السبب أيضاً. يكوّن سداً من البازلت عبر الوادي في هذا

الموقع خزاناً طبيعياً لتنظيم مياه السيـول، كما كانت هنالك طبقة سميكة من خليط بركاني تكون جزءاً من الجانب الأيمن. كما يوجـد إلى جانب أشجار الدوم انتشار كبـير لأشجـار البالميـتو (النخيل) على جـانبي الوادي. استـمر السهل الحـصوي المتدحرج فـيما يلي هذه ومـعه غطاؤه النباتي الشحـيح وخطوط الصرف المتكررة. كان واحـدٌ منها فقط، -ولا أعـرف اسمه- يتـمتع بأهميـة خاصة وأخـبروني في الدرب أنه وادي الدبر. ينحـدر مرة أخـرى المجرى عند عـبورنا له فـوق حاجـز بازلتي، على أرض ذات تكوين خليط كحلوى البودنق وقد تخلله بعض الجلاميد، كما تكاثرت أشجار الدوم. مررنا فيه برجلين من الأعراب ومعهما حمل وحماران متجـهين نحو الجنوب بحثـاً عن العمل، لعلَّ الأخبار عـن السيل العظيم هي التي دفعت الناس إلى التـوجه إلى وادي بيش. كـانت طيور الشادي الأورفـيني وطيور العداء القشدية اللون مشاهدة في هذا الجـوار وكذلك سرب صغير من طيور القطاة على الطريق منتظرة فرصة شـربها للماء. كانت الغزلان متكررة الظهـور أيضاً كما كان هديل الحمـام يسمع في كل وادٍ - تحولت البلاد تدريجيـاً وبلا شعور منا إلى أرض غابات وتطورت إلى غابة كـثيفة نسبيـاً في أرض الدلتا لوادي رملان، على مسافة قليلة من سلسلتي حرامين والعكادين.

أدركنا أثناء سيرنا اثنين من الهنود في هذه المنطقـة كان أحدهما من دلهي والآخر من كلكتـا، سائرين على الأقـدام إلى مكة لأداء الحج. نزلا في مـيدي وسـارا على الأقدام من هناك، تحاشيا للرسوم التي يجب دفـعها بواسطة الحجاج الذين يهبطون في جدة وغيـرها من المواني العربية. ويتسللـون عبر الحدود أثناء الليل لتـحاشي ملاحظة الموظفين المحليين. لم يبق أمـامهم إلاً وقت قـليل جداً للوصـول إلى مكة في الوقت المحدد، ولا أدري إن كانا قد نجحا في ذلك أم لا. سنقابلهم مرة أخرى في الطريق.

كان منظر المجرى الرئيس لوادي رمـلان عظيماً، حيث نشاهد أفـضل أشجار الدوم التي رأيناها متباعدة بتفرعات سيقانها في الوادي أعلى وأسفل الطريق. كان بطن المجرى مكسواً بالحصى كأنه ساحل البحـر وكانت الجوانب المنخفضة من مادة مختلطة خشنة كونغلمراتية. كان علينا أن نعبر خطاً آخر لهذا الوادي قبل أن نصل إلى أرض الغابات على الجـانب الآخر والذي يجري عـبره طريق الحاج قـريباً من سلسلتي حرامين والعكـادين وموازياً لهما مكونة جـزءاً من جزيرة بركانيـة تفصل وادي رملان عن الدلتـا العريضـة لوادي عتود. كـانت الشمس معـلقة عند الأفق كأنها برتقالة ضخمة وهي تضئ الصـخور لهذه السلاسل بوهج قرمزي أثناء ما كنا نسرع في سيرنا. كان يحـفنا إحساس بعدم الحقيقة حـول هذا المشهد العام. وكان الصمت محسوساً لم يكن هنالك صوت عدا ضربات حوافر حماري وارتطام أقدام الهنديين، علماً بأننا كنا على عتبة منطقة زراعية واسعة ذات كثافة سكانية.

لم نر قرية رملان وهي قرية كبيرة عند ذيل الوادي وخلف السلسلة البركانية، كما لم نشـاهد درب وما يجاورها وهي تقع إلى الأمام من مـوقعنا هذا. كان وقع اسم العكادين كـوقع الموسيقى في أذنـي. كانت أرضاً لحـادثة مشـهورة في تاريخ الأحداث الحولية في تاريخ الـعصور الوسطى لليمن، ولم يكن موقعـها الصحيح معروفـاً. أكون بذلك قد اكتـشفت وبمحض الصدفـة حقيقة ذات مـغزى تاريخي كبير. غـربت الشمس وأنا على ظهر الحمار أسترجع المـعركة التي وقعت في هذه الغابـة بالذات في أزمان قـديمة لإثراء الدخل الحكومي لمنطقة الدرب، التـي كانت هدفي المبـاشـر. وصلنا إلى أول المجـاري بعـد أن عـبرنا طرف سـلسلة أعكدين وخرجنا إلى دلتا واسعة ممتدة ذات مزارع منتشرة، وذلك خلال خمس عشرة دقيقة قبل هبوط الظلام. وصلنا إلى قرية الدرب نفسهـا بعد ساعة كاملة، بسبب الظلام

الدامس والمتاهة المعقـدة للطرق والحقول والمتاريس، وكان ذلك قبل السـاعة الثامنة مساءً بقليل، بعد مـسيرة شارفت على الاثنتي عشرة سـاعة، ولـم يكن معنا طعام نأكله خلالها عدا البيضتين في مسلية.

تمكنا من التحـرك عبر المتـاهة بمساعدة بعض الناس، خـلال شوارع تصطف على جوانبـها العشش إلى حـيث منزل الشيخ المحلي، حيث قـوبلنا بكرم شديد. أحضرت لنا الـسرائر الخفيفـة مع أغطية أكثر إلى داخل المعـسكر والذي على أحد جوانبه كان منزل الشيخ يشرف على العشـش الشبيهة بخلايا النحل في الجوار التي يسكنهـا وكلاؤه. كـما تم إحـضار مـصبـاح إعصـاري وأشعل ليـضيء الموقع. وأحسست بهمس فهمت أنه يدور حـول الرغبة في ذبح عجل سمين. وهذا يعني انتظاراً طويلاً، وقد كنـت مرهقاً وجائـعاً، وتجرأت بالتـدخل، برغم كل الحديث الذي يدور. شرحت موقفي ووجدت حـالتي تعاطفاً، وقد تخيلت أن تدخلي في تفضـيل شاة على العجل لم يعـجب مضيفنا. اقـترحت أن قليلاً من الخـبز وربما دجاجة وبعض البيض سيكفي لإبعاد جوعي، والذي بعده أحتاج إلى أن أنام. كان هنالك الكثير من الخبز -كما قالوا- واستغربوا طلبي الدجاج والبيض. كان هنالك الكثير من هذا أيضاً، غير أنهم استغربوا أن أقوم بأكل هذه الأشياء - لا يأكل أهل الدرب هذه الأشيـاء - إنها التقـاليد القديمة! تغلبت على ارتيـابهم وانطلق الرسل لجمع الطيور ومنتـجاتها. عادوا خلال دقائق ومـعهم دجاجتان حيـتان ودستة من البيض، واقتـرب المتفرجون ليراقبـوا تقديمها لي كما هي على طبق كـبير. أدركوا تماماً أنني لا أسـتطيع أن أقوم ببلع الطيور وهي حيـة أو أن آكل البيض وهو نيء، أما ما سأفعله بكل منهما، فلا علم لهم به. اسـترجعت صورة السيدة في مسلية، وطلبت إحضار موقد وقدر مـاء للغلي، وسرعان ما أعدوا لي ذلك. شرحت لهم

ما أحتاج إليه فيما يخص الدجاج أثناء ما كان الماء يغلي. إن أعناق الدجاج تقطع تماماً كما يفعلون بالضأن، ثم يزال كل الريش. ثم تنزع الأحشاء. ثم أقوم بتوضيح ما يمكنني أن افعله بعد ذلك[١].

لقد أحدثت فيهم إثارة بلا شك، وكان اهتمامهم قد تضاعف وقد أصبح الماء يغلي وأسقطت من دستة البيض الواحدة تلو الأخرى. انتظاراً لما يلي، طلبت منهم إحضار الخبز وقليلاً من الملح وفعلوا ذلك على الفور، وكان الخبز لا يزال ساخناً من الفرن، انتهت فترة الخمس دقائق التي خصصتها للبيض. لكي أكون على الجانب الآمن إن كان بعضها غير طازج. وبدأت ألتهم أجمل أنواع خبز الدخن مع البيض المسلوق. لم يكن لرفيقي القادم من صبيا أي تقدير ليشاركني في تناول كليهما، وقد أزلنا الجوع عنا، تناول بعد ذلك سريره وذهب بعيداً إلى زاوية هادئة ليطرد متاعبه بالنوم. أحضروا الدجاج في هذه الأثناء، تماماً كما طلبت وأسقطتهما في الماء الذي يغلي والذي كان به البيض. ولما كنت قد تناولت كل ما أمكنني، فقد تركت الدجاجتين تغليان في الماء حتى جاء وقت ذهابي للنوم، حينها أخرجتهما من الوعاء ووضعتهما في مكان آمن لتبردا حتى وقت الفطور.

جلست أحادث رفاقي وهم يتسللون تدريجياً مع تقدم الليل، وقد تمكنت من رد جميل كرمهم إليهم في اللحظة. كان القليل منهم من المدخنين، وقد استطعت أن أهديهم بعض التبغ من مستودعي المستورد ولم يعجبهم بالمرة. أعجبهم الشاي ولهذا قصة. لم يكن معي شاياً حينما وصلت، غير أنه اتضح أن قدومي لم يكن

---

(١) هذه مبالغة، فالطيور مثل: الحمام، والقماري، والدجاج موجودة في معظم بلاد تهامة والسراة، وهذا مما يدل على أنهم يعرفون هذه الأنواع من الطيور، وبالتالي لابد أنهم يعرفون كيف يذبحونها ثم تطبخ أو تشوى بغرض الأكل. (ابن جريس).

غير متوقع. كانت المجموعة الرئيسة لفرقتي، بعد أن فقدوا كل أثر لي خلال الليلة السابقة، ولم يقابلوا رسلي، قد قرروا أن يعسكروا في الطريق وأن يسلكوا الطريق العادي الساحلي أثناء النهار حتى وصلوا إلى ذيل وادي بيض، في موقع ما أسفل مكان عبوري له. عسكروا هناك لقضاء الليلة إلاَّ أنهم أرسلوا رسولاً إلى الدرب في حالة مروري بذلك الطريق، لإخبارهم بأنهم سيتوجهون في اليوم التالي إلى الشقيق، حيث يتلاقى الطريقان، وينتظروني هناك إن لم أكن قد سبقتهم. أرسل سعد ذو التفكير الثاقب مع الرسالة بعضاً من الشاي. لا أذكر إطلاقاً أنني استمتعت بأمسية مثل تلك. لقد نمت نوم العادل بكل تأكيد تحت النجوم، وأفطرت ومعي رفيقي صباح اليوم التالي على الدجاجتين وعدد كبير من البيض والخبز والشاي.

كان مضيفي الشيخ محمد بن هادي الشعبي[1] واحداً من أسمن الرجال الذين قابلتهم، يزن ما لا يقل عن (١٨) حجراً وهو شخص متقدم في السن، لطيف، كثير الكلام، طيب. أخبرني أنه قد ورث الاتجاه نحو البدانة من والدته، وسألني ماذا يفعل بالنسبة لذلك؟ اعتقدت أنني قد تعرفت عليه بما فيه الكفاية في تلك اللحظة لأقترح عليه أن يتجنب لحم الضأن والدهون والسمن، ويعمد إلى تناول الدجاج والبيض وشرب الشاي والقهوة بدون سكر! كان عليَّ أن أمنع الأكل الشره للخبز الحار الذي هو غذاؤهم الرئيس مع اللبن والذي يعدونه في صنفين

(١) وقع فيلبي في خطأ عندما ذكر اسم الشيخ/ محمد بن هادي الشعبي، حيث أورده باسم (المنجحي) بدلاً من (الشعبي). مع أن محمد الشعبي هو شيخ قبائل درب بني شعبه، وهذا ما أثبتناه، كما يوجد في بلاد بني شعبة عشيرة أخرى تسمى المنجحي، وحياتهم تميل إلى حياة البادية، ويقطن أكثرهم في النواحي الواقعة إلى الشمال من بلدة الدرب، التي أصبح يطلق عليها اليوم مع بلدة الشقيق اسم. (محافظة القياس). (ابن جريس).

محلّى وحامض[١]. يخبز كلاهما بنفس الطريقة غير أنه في حالة الخبز الحامض فإنهم يعجنون العجينة ويتركونها مدة (٢٤) ساعة قبل إدخالها الفرن. لم تكن قبيلة المنجحي من أصل الأشراف[٢]، بل من العرب الدنيويين ويزعمون صلة مع بني تغلب وهؤلاء فرع من قحطان. سافر شقيق الشيخ، واسمه حمد، قبل أيام من زيارتي مع مجموعة محلية من ثلاثين حاجاً بما في ذلك أربع من النسوة، ولم تنسهم القرية أثناء غيابهم. وقد ظلت النسوة لعدد من الساعات أثناء الليل يتضرعن إلى الله تعالى في الدعاء لهم[٣]. عبرنا حقول الدرب صباح اليوم التالي، ومررنا بامرأة متقدمة في السن، تنشد في طرب لابنها الذي كان ضمن المجموعة التي ذهبت إلى مكة. يتضح من هذا أن النظام الإدريسي قد طبع في كل هذه البلاد، احتراماً حيوياً للأسس الإسلامية.

كان الشيخ وأبناؤه الثلاثة في وداعي، وكان عليَّ أن أعترض على سلوك الابن الأصغر بسبب تحديقه غير المهذب. كانت المناسبة -عدا ذلك- جيدة كما

---

(١) الاسم الصحيح لهذه الأصناف من الخبز هو (الفطير) و(الخمير)؛ فالفطير: هو ما قصد به فيلبي باسم (المحلي) والخمير (أي الحامض) (ابن جريس).

(٢) إذا كان فيلبي يقصد هنا بالقبيلة التي يتولى شيختها محمد الشعبي، فلا يطلق عليها اسم قبيلة المنجحي، وإنما تسمي قبائل درب بني شعبة. (ابن جريس).

(٣) كان الدعاء للمسافرين قديماً من الأمور الضرورية والهامة، وبخاصة من أسرهم وأهل قراهم ومواطنهم وذلك لما يقابلون في أسفارهم من عقبات لا تعد ولا تحصى، ومن أعظمها السلب والنهب، والقتل، والغدر من قطاع الطرق والقبائل والبلاد التي يمرون عليها، والخوف من مجهول القدر في الأسفار، ومما يقابل المسافرين جعل المسافر يخرج من منزله وفي اعتقاده أنه لا يعود لما يواجه من مخاطر عديدة. (ابن جريس).

كانت الليلة السابقة، غير أن عَيْنَيَّ قد أزعجهما كثرة البصاق الذي يقذفه ماضغو البردقان وكان من بينهم الشيخ نفسه[١].

حضرت مجلس الشيخ بعد الإفطار الذي يستقبل فيه شكاوى والتماسات رعيته، كما يحكم في العديد من الخصومات، ولم يكن مكتبه عاطلاً عن العمل. كان أسلوبه القضائي لطيفاً. ويبدو أن الناس يدركون ما يوَدُّون قوله، وكان يدعهم يدلون بما لديهم قبل أن يصدر الحكم، مختصراً ومحكماً، مع إحساس بأنه نهائي[٢]. كان يستطيع القراءة والكتابة بامتياز على عكس الكثير من العرب الذين من جيله. كان مقر سكنه بسيطاً وجيد البناء، كما لاحظت من فوق سطحه أنه توجد منازل مشابهة له في القرية، كانوا قد أحضروا حجارة بنائها من صخر بني أحمر من أصل بركاني - من مستخرجات الحجارة من ربوة صغيرة تسمى كد على بعد نصف ميل في اتجاه عكادين، والتي قد تُكَوِّن بروزاً خارجياً منعزلاً له. لا بد أن يكون عدد سكان الدرب نفسها مماثلاً لذلك في أم الخشب، وربما تضاعف لنقل (١٠,٠٠٠) نسمة باعتبار كل القرى في دلتا عتود.

ينساب الجانب الرئيس من الوادي ماراً بالجانب الشمالي من القرية فوق بطن عريض حصوي، ويرتفع الجانب الأيمن الصخري إلى (٢٠) قدماً، بينما تجد مساحة القرية المقابلة الحماية من متاريس من الطين تقيها أخطار السيول. ينبع كل من وادي عتود ووادي ضلع من موقع متجاور في جرف جبال السراة بالقرب من

(١) إن استخدام الدقدقة، أو النشقة التي يسميها فيلبي (البرتقال) لا تزال يعمل بها في بعض أجزاء تهامة، وفي أجزاء عديدة من اليمن، وغالباً ما ينتج عن مستخدميها كثرة البصاق أثناء مضغها. (ابن جريس).

(٢) ما ذكره فيلبي هنا كان من مهام الشيوخ والأمراء في معظم شبه الجزيرة العربية، وبخاصة قبل ظهور المؤسسات الإدارية التي تفصل في قضايا الناس. (ابن جريس).

أبها، ثم يتحدان في نهاية الأمر في موقع يسمى المخاضة، حيث يوجد جدول من برك صخرية. إن كلاً من وادي رملان، ووادي حرمان[١]، ومعهما مجاريهما المتعددة، ما هما إلاَّ فروع جانبية من الجدول الرئيس بعد خروجه إلى السهل ليكون الدلتا، غير أنني لم أجد معلومات تؤكد هذه النقطة. نستطيع رؤية جرف جبل الريث وصخوره الخطرة ناحية الشرق من موقعنا على بعد، غير أننا لا نرى العكوتين الآن. نستطيع رؤية مجرى عتود وهو ينحدر من بين قريتي قرار والنغبي على مسافة ميلين، كما يلاحظ على البعد نفسه وجهة الغرب أبو السداد الذي سنعبره بعد قليل. تقع قرية عتود نفسها إلى جهة الشمال الغربي، غير أنها بعيدة وغير مرئية. كما لم يمكننا رؤية رملان -ربما معش رملان- خلف العكادين ناحية الجنوب الشرقي. لا توجد زراعة قمح أو شعير في هذه الدلتا، وهي مشهورة بإنتاج نوعي الدخن، التي تصدر منها كميات كبيرة في السنوات الجيدة، ويزرعون إلى جانب هذه المحاصيل الغذائية، أيضاً السمسم لزيته والأندقو الذي يسمى حواراً. ينتج حوار محاصيل بلا انقطاع طالما وجد الماء، بينما تحصد زراعة الدخن عدة مرات، تصل إلى ثلاث أو أربع كما في بقية أنحاء تهامة.

كان سيل الأسبوع الماضي عالياً في وادي عتود أيضاً، ونفق العديد من الضأن إلاَّ أن آثاره العامة كانت مفيدة إذ ظهر نشاط كبير في الحقول ذات المتاريس ونحن نعبر خلالها مواصلين مسيرتنا في الصباح. كان عمل المتاريس من بين كل العمليات الزراعية في دلتا تهامة هو الأكثر أهمية وهو الأصعب، وتقوم بعمله فرق من الثيران تحفر سطح التربة بمجرفة خشبية واسعة وثقيلة وتجمع التربة التي تم

---

(١) حرمان: والمقصود به (حرامين). (ابن جريس).

حفرها على منحدر. إن عملية الحرث هنا ما هي إلاّ تجريح فقط للسطح وتستخدم الثيران منفردة أو في أزواج لتجر المحراث الخشبي البدائي الخفيف الذي ركبت فيه قطعة محددة من الحديد. كان البذر هو البساطة بعينها، مجرد النثر باليد ويتم الحصاد بواسطة المنجل. تحفر آبار القرية عبر طبقات الطمي المتراكم إلى مستوى الماء، وقد لاحظت بجوار بئر عبرنا بها بعد مغادرتنا للقرية صفاً من الرواقيد الاندقو ممتلئة بالسائل الصبغي.

كانت الزراعة شاسعة في أبو السداد غير أن المحاصيل كانت فقيرة. عبرنا فيما يليها مجرى وادي حطب، وهو بلا شك شريط من الدلتا نفسها، لنصل إلى بئر الحشفة وهي آخر مشرب للماء يقابلنا حتى نصل إلى جوار الشقيق. كانت البلاد فيما يليها عبارة عن سهل قمبورة الطيني، العاري غير قليل من أراك مبعثر وشجيرات طلح ومن حين لآخر أشجار التنضب -يسمى محلياً سداداً-. كانت آثار جمال الحج واضحة وفي عمق على الطريق الصحراوي الذي لم تصله سيول عتود، ويزرع على مساحات خلال المواسم ذات الأمطار الجيدة، على الرغم من أنه ليس من الصعب إدخاله تحت نظام الري إذا أمكن السيطرة على وادي عتود في مجراه الأعلى. كان سفرنا على الدواب لطيفاً في هذا الجو البارد، إلاّ أنه ثقيل، لهذا اليوم الملبد بالسحب - لم يكن هنالك ندى، بالمناسبة، أثناء الليل في الدرب - وقد استغرق وصولنا إلى منخفض (المفش) الكثير الأشجار حوالي الساعة الواحدة. ليس هذا -بدون شك- جزءاً من نظام الدلتا، إنه فقط خط تصريف يبدأ من السلاسل الجبلية البركانية ويجري مباشرة إلى البحر، وهو عبارة عن شريط عريض لغابة مثالية تحفها الصحراء على الجانبين. ويعرف عند أجزائه العليا بوادي بركة وتحفه أشجار الدوم.

أرسل الشيخ محمد أحد عَبيده ليخدمني كمرشد ويرافقني حتى الشقيق، كما أمدنا بالحمير، بينما أنهيت خدمات رفيقي القادم من صبيا بعد تجاربه المرهقة لليوم السابق مع مكافأة مناسبة هي أن يعود راكباً الحمار الذي أحضرني من هناك. كان مثالاً ممتازاً للإنسان عديم العقل، وبلا قدرة على الاحتمال، إلاً أنه كان مخلوقاً ودوداً وأحسست بالأسف كثيراً ناحيته. كان على حافة البكاء خلال المراحل الأخيرة من تلك المسيرة الطويلة. كان لحمير الدرب ميزة خاصة اكتشفتها سريعاً، وهي أنني ورفيقي الجديد كنا نسير بسرعة المسيرات الجنائزية.

واجهتنا بلاد صعبة ذات شجيرات قصيرة بها العديد من العلقاء ونبات الثمام نامية في كتل في الرمال بعد أن تركنا من ورائنا آخر آثار الغطاء النباتي لمفش. كانت قطعان الأغنام والأبقار ترعى من منطقة الشقيق كما مررنا بآثار السيارات هنا وهناك أثناء سيرنا الصعب. ظهر أمامنا على بعد الشريط الأخضر لوادي ريم مع بعض أشجار الدوم المتناثر، وبدأت تظهر قراه الصغيرة القليلة ونحن نقترب أكثر، منها قريتا القاع وحسام على جانبي الوادي ودملاج فيما يليها. ثم وصلنا إلى بئر ليست بالبعيدة من البئر الثانية في هذا الثالوث، حيث وجدنا حاجاً هندياً آخر يرتاح خلال حرارة النهار، جاء من حيدراباد (السند)، وبدأ رحلة حجه مع شقيقه الذي كان مرضه سبباً لموته في ميدي. كان يجهد نفسه في السير الجاد الاضطراري على قدميه، يسافر طول الليل ومعظم النهار ويعتمد على الصدقة ليعيش أثناء الطريق.

أفسحت الصحراء تدريجياً المجال لغابة خفيضة، عبرنا داخلها بقرية صلب التي تم حصاد محصول الدخن فيها للمرة الأولى، وكان في اتجاهه للحصاد الثاني. كانت قنابر الصحراء تغرد بعيداً بمرح، بينما تجمعت مجموعة من النسور

فوق جثة حيوان على جانب الطريق، وتحيط بهذه حلقة خارجية من طيور الغداف تنتظر دورها في الوليمة. استمتعت برؤية زوج من الغداف، في حالة مناسبة، أثناء هذه المسيرة، وهي تهاجم وتطرد نسراً منفرداً اختلفا معه حول الموضوع. كان السطح في الجوار حول صلب ومن ورائها قوز مكسراً بالتلال الرملية ونحن نقترب من مجرى ريم. كان وادي ريم نفسه في هذا الموقع مقسماً إلى مجريين بربوة رملية طويلة منخفضة، وكان هنالك نمو كثيف للطرفاء والأثل على جانبي بطن الوادي الضحل.

تقع الشقيق على مسافة تقل عن نصف ميل فيما يليه وقد وجدناها في زحمة سوق الأحد. كان يوم السوق في الدرب هو الخميس. لقد سرنا الآن بقرب الساحل مرة أخرى، وتقف الشقيق إلى الخلف على بعد ميل واحد منه، على الذيل المنتشر لوادي ريم، وهي واحدة من المواقع التي تم اختيارها بواسطة الحكومة لإنشاء مركز شرطة صغير، الذي جمع بين مهمات الشرطة العادية ووظائف حرس الحدود. ذهبنا ناحية مبنى الشرطة فوق أرض مرتفعة قليلاً، تطل على القرية التي مررنا بها عند الوصول، لنجد الترحيب والضيافة والسكن الذي قدمه لنا علي الشاويش المسؤول، لم يصل بعد قطار عفشنا غير أنه وصل سالماً مع الغروب، وهكذا اجتمع شملنا مرة أخرى في مكان مناسب هو موقع التقاء طريقين مختلفين، كلانا كان يتبع واحداً منهما. سيكون هنالك طريق واحد فقط من هنا إلى الشمال[١].

---

(١) هناك العديد من الطرق التي تربط بين الحجاز واليمن عبر الساحل. للمزيد انظر: غيثان بن جريس. **دراسات في تاريخ تهامة والسراة**، جـ١، ص ٣٥٥ ـ ٣٦٠ . (ابن جريس).

تقع الشقيق في جزأين يفصلهما أحد مجاري دلتا ريم[1]، يقع مركز الشرطة في القسم الجنوبي ويقع السوق في القسم الشمالي. كانت الساعة تشير إلى الرابعة مساءً حينما وصلنا، وذهبت فوراً لتفقد السوق، الذي كان لا يزال يحفل بالمرتادين حتى عند تلك الساعة المتأخرة. كان الشارع الرئيس وأيضاً الوحيد في هذا القسم يتكون من خط مزدوج من المتاجر المبنية من الوتل والأعواد، والتي يدور فيها الكثير من البيع والشراء. إلى جانب أصحاب المتاجر، كان هنالك مدربو الصقور والباعة المتجولون، يحتلون مواقع أمام المتاجر أو في وسط الشارع، بينما كان سوق الحيوانات للأبقار والجمال وما شابه ذلك في أرض واسعة كأرض المعسكر تملأ الفراغ بين السوق والوادي. كان لسكان المكان المظهر المدني ولباس أهل المدن أكثر منه مظهر المزارعين وكانوا -في معظمهم- تجّاراً بأسلوب صغير يستوردون سلعهم من بائعي الجملة في جازان. قابلت وتحادثت مع العديد منهم، بما في ذلك العمدة الشيخ هادي القربي الذي أراني العناصر الرئيسة لمناشطهم التجارية. لربما كان أكثر هذه إثارة هو جماعة من النسوة والفتيات يقمن بعجن كميات ضخمة من جبال الدخن لتقديمها إلى أفران تقف بالجوار لصنع الخبز.

إن الشقيق هي مركز مستعمرة من قرى صغيرة مبعثرة حول دلتا وادي ريم ووادي عرمرم، على بعد ميل واحد أو أكثر ناحية الشمال. لقد ورد ذكر بعض هذه القرى من قبل. كانت قرية الساحل من بين القرى الأخرى، هي الأقرب إلى البحر داخل غابة أثل ونخيل تمور، تمتد حتى حافة مسطح أملح الذي يفصل بين

---

(١) وادي ريم: هو وادي الشقيق الذي يصب بالقرب منه واد يأتي من الجبال القريبة من السراة إلى الشمال من عتود، ويسمى راسه (كيسان). وهو واد كثير القرى والزروع، يدخل في بلاد رجال ألمع، وأسفله لقبائل الشقيق، ووسطه قبائل مخلوطة. (ابن جريس).

الأرض الحقيقية والبحر، وكان البحر يبعد حوالي ميل ونصف الميل عن السوق. تقع قرية أم الشرافاء اتجاه أعلى الوادي على مسافة ميل واحد، بينما تقف قرية حجمير على الشاطئ الأيمن لعرمرم، على بعد ميلين. تقع قرية نحوس على الجانب الأيسر لعرمرم وعلى الطريق الأمامي، بينما تقع الشعوف اتجاه أعلى الوادي ومعها قرية بزاخ وقرية زبارة. كانت قرية أم الدغابس، ومزارعها الواسعة لأشجار النخيل، أقرب إلى البحر وعلى يسار نحوس وبناء على المعلومات المحلية، فإن وادي ريم له مستجمع ماء مشترك مع وادي حليّ (أو وادي البرك)[١] في سلسلة تقف عليها قرية الشعبين المهمة. بلا شك أن الواديين يعودان إلى تاريخ اليمن في العصور الوسطى. يجري ريم من هنا عبر قسمين من رجال ألمع وهي قرية مهمة أخرى داخل حزام التلال[٢]، ليعبر إلى الأرض المرتفعة البركانية الخارجية، ومنها إلى السهل ثم البحر. يجب أن يعد عرمرم في هذه الحالة، مصرف ثانوي للمنطقة البركانية، على الرغم من أننا عندما عبرناه بدأ لنا أكثر مهابة من ريم. لقد ذكرت الأرض البركانية في تعابير عامة وذلك على الرغم من أنها ذات نقاط بارزة، إلا أنها في معظمها مساحة منخفضة غير مميزة، تتقارب تدريجياً إلى طريقنا إلى الشمال وتصل إلى البحر داخل أرض رقبة المهيبة، التي يمكن رؤيتها من عند الشقيق، كما كانت هنالك بعض التلال في جوار البرك. تسمى الأرض الرملية على امتداد ساحل البحر إلى الجنوب من وادي ريم أبو

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن بلاد البرك، انظر: عبدالرحمن بن عبدالرحيم بن عبده. **من تاريخ برك الغماد (بين الماضي والحاضر)** (د.ت/ ١٤٢٠هـ) ص ١٤ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) إذا أردنا ذكر (قرية رجال)، فإنه يكون إيرادها بهذه الطريقة، وليس كما ذكر فيلبي، بـ (قرية رجال ألمع)، أما عموم رجال ألمع فإننا نقول: (بلاد رجال ألمع) وهي أرض واسعة تتكون من عشرات القرى والعشائر. (ابن جريس).

المرو. توجد بها بئر واحدة جيدة، ولا يوجد سكان. لقد انحدر وادي ريم أثناء السيل الكبير الأخير من الجبال وقد هجرت كل العشش التي على مستوى الوادي، غير أنه لم يحدث ضرر كبير.

أكرم العسكري على مجموعتنا بما فيه الكفاية من اللحم والأرز، غير أن طبيخه لم يكن جيداً ولم تكن الوجبة مثيرة للشهية. شاركنا الحاج القادم من حيدراباد في الوقت المناسب لتناول الطعام، وقد ناولته مبلغاً صغيراً يساعده في الطريق، ذلك أنه ينوي السير أثناء الليل على قدميه. لم نر بعد ذلك الهنديين الآخرين ولا بد أنهما قد عبرا إلى ما يلي هذا الموقع. أخذنا زوجاً جديداً من الحمير من هذا المكان ومرشداً جديداً. إلاَّ أن بداية الرحلة قد تأخرت قليلاً بسبب أن حماري له قطعة رفيعة جداً يقولون إنها لجام[١]. رأيت أن هذا ليس بالأمر الآمن ولا اللائق مع كرامتي، ولم يجد ضابط الشرطة الذي يجلب الغم بدأ من إرسال أحد إلى السوق لإحضار قطعة من الحبل تحل مكان اللجام، وكان هذا هو أحسن ما أمكنه عمله. بدأنا السير وسرعان ما كنا نخوض بدلاً من أن نسير فوق غابة طرفاء مبلَّلَةٌ بمياه السيول، استمرت حتى طرف مزارع قرية أم الدغابس. كانت مزارع نخيل التمور ومزرعة منها صغيرة في بئر مقدم جنوب وادي ريم هي أولى المساحات لهذه الشجرة النبيلة التي نراها في كل هذا الجزء الجنوبي من تهامة. كانت مساحتها أكراً واحداً فقط وكانت منتجة، إلاَّ أنها بالمعيار المحلي فإن أجود التمر في كل هذه المنطقة هو ما تنتجه ذهبان، إلى مسافة ناحية الشمال. شاهدنا على طرف القرية وعلى جانب الطريق مشهداً غير عادي لاثنين من مدافع

(١) اللجام: قطعة من الحديد مربوطة بحبل يوضع من خلف رأس الحمار، في حين أن هذه القطعة الحديدية تكون في فم الحمار أثناء ركوبه كي ـــ يُزجر ويحد من الانطلاق وإيذاء راكبه. (ابن جريس).

قديمة كبيرة مفككة، لا يُعْرَف شيء عن تاريخها[١]. ربما كانت بقايا من أزمان نابليون أنزلها هنا الأتراك لحملة ضد الإدريسي أو ضد اليمن. كان نبات الرين الأصفر الأزهار متوافراً في كل هذ المنطقة الغدقة، ويبدو أنه عشب ضار تصعب إزالته ولا فائدة منه لأي أحد أو لأي شيء. كما كان هنالك الكثير من عشب نجيلي قصير يسمى نجمة، وبالطبع كتل من الطرفاء في كل مكان، وبعض العلقى، بينما كان محصول الصيف للدخن الذي يزرع مع السيل الأخير، قد برز إلى السطح في مجموعات خضراء جذابة.

تتابعت مزارع نحوس مع تلك لأم الدغابس ومررنا فوق دلتا عرمرم الذي ينشق مجراه على مسافة ناحية الشمال الشرقي، تاركاً مياه سيوله تنتشر بلا ترشيد وتندمج مع دلتا ريم. تغطي هذه المنطقة كتل ضخمة من نبات السواد الذي يسمونه محلياً «حمض» وهو ضرب من جنس الفربيون يصنعون منه نوعاً بدائياً من مسحوق الصابون. أضافت شجرة الدوم واحدة، وثلاث أو أربع شجرات نخيل التمور تنويعاً إلى المنظر، كما كانت طيور القنابر المتوجة تغني بلا توقف أثناء مرورنا. أكلت الحمير ومضغت نبات السواد وهي تتعثر في جهد حتى عبرنا خارج الدلتا إلى أرض كثبان رملية فوق أرضية طينية، سيطرت الرمال سريعاً على المنظر. تقع أمامنا أرض رقبة ومعها سلسلة محايل عسير[٢] على يمينها والتي عليها يتعرج

---

(١) هذه المدافع من بقايا الأتراك أثناء خروجهم من بلاد عسير عام (١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م). مقابلة مع عبدالرحمن بن عبدالرحيم بن عبده ببلدة البرك في (٢٠ / ١ / ١٤٢٥هـ). (ابن جريس).

(٢) محائل عسير: هو الاسم الصحيح لهذه البلاد التي تبعد عن مدينة أبها ناحية الشمال الغربي بحوالي (٨٠كم)، وهي واحدة من محافظة منطقة عسير الرئيسة. وليس اسمها (حائل) كما ذكر فيلبي. (ابن جريس).

طريق الحاج فوق سهل البرك[1]. تمتد الكثبان الرملية أحياناً في موجات منتظمة ذات ارتفاع، وبصفة عامة فقد كان المنظر غير مثير ومضجر حتى وصلنا إلى مجرى وادي نهب، كان جانباه المسطحان ممتلئين بأشجار البالميتو والشجيرات الصحراوية الخفيفة مع بعض الدوم، بينما لمحنا على مسافة نصف ميل مع اتجاه الوادي، بحيرة تربط المجرى مع البحر، ينطلق هذا المصرف من الأراضي البركانية المرتفعة في جوار سلسلة عبيبة على بعد بعض الأميال ناحية الشمال الشرقي من موقعنا. أشار دليلي عند نقطة قريبة من هذه الأرض المرتفعة والتي تسمى حصن العوادي إلى أطلال لقلعة قديمة، ربما تعود إلى العصر الإدريسي. مرَّ بجوارنا اثنان من الهنود في طريقهما إلى مكة، رجل طاعن في السن يسير على مسافة (٣٠٠) ياردة خلف شاب قوي، والذي ربما كان ابناً له، وكان يحاول جاهداً أن يلحق بخطاه حسب ضروريات الحالة.

عبرنا الامتداد الرملي للوادي بعد وقفة قصيرة لاستيعاب المنظر، أدركتنا خلالها قاطرة عفشنا وتقدمت علينا، لنواصل سيرنا داخل بهو يضيق دائماً بين أرض الحمم البركانية والبحر، مع شريط عريض من أشجار البالميتو على الجانب الأرضي الداخلي للممر، وكثير من نبات الثمام والحلفاء في كل مكان. كانت بلاداً صعبة غير أنه كانت تشاهد فيها آثار لحركة السيارات هنا وهناك حيث يمكن اختراق السطح. لقد كان هو الطريق الوحيد المتوفر لأي نوع من الحركة، وحتى للسير على الأقدام فقد كان طريق الحمم مستحيلاً. لقد طوقتنا الآن ناحية البحر

---

(١) هذه المنطقة التي يذكرها فيلبي في هذه السطور القليلة أصبحت تتبع إدارياً لمنطقة عسير، في حين أنها إلى عام (١٤٢٠هـ) كان الطرف الشمالي منها (بلاد البرك وما حولها) تتبع إدارياً لإمارة مكة، أما طرفها الجنوبي (بلاد الرقبة والقحمة وغيرها) فكانت تتبع إدارياً لمنطقة جازان. (ابن جريس).

في شريط شبه دائري يمتد من هضبة حصن العـوادي، عبر سلاسل خبرية ومحائل إلى الرقبة والذي غسلت أقـدامه الأمواج، ينحدر خلال هذه البلاد الصعـبة مسيل مدع لينتـهي في مسطح سـبخة واسع، والـتي يقال إنه لا يمكن السيـر فيـها تحت ظروف البلل لأي ضرب مـن الحركة، كـان المار يختار طريقـه على حافـة الحمم البركانية، أما السيارات فعليها أن تنتظر حتى يجف المسطح.

يوجد ثقبان مـائيان في زاوية حقل الحمم البركانيـة، حيث يدخل المسيل إلى المسطح، تسميان المعيان في مجموعـة صغيرة من أشجار الدوم والنخيل مع انتشار كبير لأشجار الباليتو. الماء صالح للشرب، بالرغم من أنها تبدو منقرة داخل ثقوب ضيـقة عمقـها حوالي القـدم الواحد، متـماسة مع حافـة الحمم البركـانية، التي اختلطت هنا مع حجر مرجاني مملوء بالحفـريات الإسفنجية. قمت بفحص المنطقة بعناية وتوصلت إلى الاستنتـاج بأن الشعاب المرجانيـة لا بد وأن تكون قد تكوَّنت قبل انفجار البركان، الذي دفع بالحمم البركـانية عبر سطح الشعاب المرجانية والتي قاومت جزئياً تغلغل اختراق الحمم لها وتم رفعها كاملة إلى أعلى. تغطي الشعاب المرجانية في بعض الأجـزاء الحمم البركانية عند ارتفـاع معتبر فـوق سطح البحر. يتضح أن هذا المسطح المحلي كـان جزءاً من أرض انحسر عنهـا البحر إلى مـسافة ميل واحد على الأطراف الحالية لخليج صغير، ينتـهي إلى انبعاج جميل تحفه غابة المانجروف. يطوف ممرنا الخارجي مع الحافة الداخلية لهذا، مـسافة فوق طريق معبّد صناعي من كتل حمم صعـبة. أصبحت الصورة العامة للأرض البركـانية واضحة الآن، وكل النقـاط البارزة المختلفـة كانت مـخاريط بركانـية قديمة بعـضهـا تكسر بعوامل طبيعية. كان هنالك الكثير من نبات خزامى البحر في الخليج الذي يقع بين الحمم البركانيـة وحزام غابة المانجروف، وإلى جانب حشيشـة شائكة خشنة، بينما

كانت غابة المانجروف نفسها والخليج فيما يليها مصدر وجبة سمك لمستعمرات من طيور البلشون، التي طارت حينما مررنا بجوارها. رأيت أيضاً طائر بجع منفرد يخوض في الخليج بعيداً عن مدى بندقيتي.

كانت مسيرتنا صعبة جداً فوق الصخور، ونحن نمر من البهو إلى ساحل تكسوه الحمم البركانية وخليج يمتد إلى (٢٠٠) أو (٣٠٠) ياردة على جانبنا الأيسر، وساحل مرجاني قديم قريب منا على اليمين، وقد ارتفع فوق سطح البحر في مواجهة صخرة من الحمم البركانية تقع خلفه. عبرنا خليجاً كبيراً من السبخة بعد أن ابتعدنا عن الخليج المائي على حافة الحمم البركانية، كانت تنمو عليه أعشاب خزامى البحر وغابة منظمة من المانجروف على جانب البحر.

اتسعت المسافة بين البحر والحمم البركانية في هذا الموقع إلى مدى الميل الواحد، بينما مررنا في أحد المواقع بمساحة معتبرة من مسطح الماء على يميننا، وقد انعزل من الخليج المائي. كان عرض الساحل لا يقل عن الميل الواحد عندما اقتربنا من صعود الحقل الحممي البركاني الحقيقي، وكان طريقنا يقع أولاً فوق الشعاب المرجانية ثم فوق خليط من شعاب مرجانية وحمم بركانية، ثم فوق انتشار خفيف لحمم بركانية مندلقة فوق الحقل الرئيس. وقف مخروط رغبة من فوقنا وينحدر منه مسيل يجري إلى أسفل من الحافة الشرقية المكسرة لفوهة البركان. تجري قاعدة البركان تجاه الجنوب الغربي من الموقع الذي يبدأ فيه الطريق إلى الصعود، وحتى حافة البحر على بعد ثلاثة أرباع الميل، والذي منه تصعد مرة أخرى إلى جدار من الحجارة المتخلفة من رماد البراكين وحمم بركانية على ارتفاع (٥٠٠) قدم. كان طريقنا ضيقاً جداً يخترق برية الجلاميد البركانية، متكومة في أكوام غريبة الشكل الطبقي فوق أرض من الحجارة البركانية، أو ربما شعاب مرجانية وقد حرقها

الانفجـار البركاني، تمتد شـرقاً في حزام عـريض من سفوح رغبـة، والذي تجري قاعـدته في هذا الموقع في اتجاه موازٍ لنـا على مسافـة ثلاثمئة ياردة. كـانت قافلة عفشنـا ترزح مجهدة أمامـنا، وكان خلفها أحـد الأعراب تصحبه امـرأتان وجمل وبعض الأغنام، -أيضـاً مثلهم في الجـهد-. أمكـننا رؤية حاج هندي عند نهـاية الطريق يسيـر وحده، بينما إلى مسـافة من ورائنا، وعلى مستـوى الساحل، يمكن رؤية ثلاثة هنود آخرين وهم مسرعون.

استغرق وصـولنا إلى قمة الطريق حوالي عشرين دقيـقة، ولم تكن بأكثر من مئـتي قدم فوق سطح البـحر، إلاَّ أن الوصول إلى هناك كـان عملية مـرهقة أثناء أدائها. يصعب التصديق بأن السيارات يمكنها أن تقطع هذه المسافة من لسان الحمم البركانية في أي موقع منها، إلاَّ أنه وبلا شك قد تم ذلك في المناطق المكشوفة إلى الداخل والتي لا يعـرف دليلي عنهـا شيـئاً، ولعلهـا تكون على شـريط يربط بين مشرب المعيان ووادي بشير على الجـانب الشمالي للحمم. لاحظت هنا أن الصخر البركاني الأبيض كان مختلطاً مع الأصـداف وسجلت الاستنتاج المبدئي بأنه إما أن يكون قد تم سحقه وتحول إلى مـرجان أو هو خليط من المرجان مع رماد بركاني. كان المنظر من قمة الطريق مؤثراً، وكانت جزيرة كتـمبل هي السمة الأساسية لها- وهي تركيب مخروطـي هرمي من صخر أسود يسبح في البحر كـأنه جبل جليدي ضخم إلى البعيد خارج الساحل.

كانت واحدة من بين العديد من المخاريط البركانية التي تنتشر في المنطقة كلها التي تقع داخل نطاق الرؤيا، إلاَّ أنهـا كانت الوحيـدة التي يمكن ملاحظتـها داخل البحـر بالفعل. كانت رغـبة نفسـها مؤثرة بـاتساعهـا إلاَّ أنها مكسرة على القـمة وأطرافها الداخلـية كذلك، بينما تحتل وسم، وهي عـلامة أرضية مـهمة بارزة في

القحمة، المركز الثاني من الناحية الجمالية بعد كتمبل. تقف وسم على حافة الماء على الجانب البعيد من ميناء القحمة التي تشرف عليها تماماً. يرتفع رقعه -وهو شبيه بالجبل الجليدي أيضاً- على الجانب القريب من وسم، بينما كان المنظر الداخلي من القحمة وجنوباً منقطاً بعدد من المخاريط وكتل بركانية أقل حدة. كان من أبرز هذه كل من الخرمى والحمَّة ومحائل، بينما علّم مجرى وادي الحمضة شريط من الروابي، من أولى هذه إلى البحر أمام القحمة. نستطيع رؤية حصن العوض ناحية الشرق من موقعنا وعلى قمتها القلعة المدمرة. ألقينا نظرة، مباشرة أسفل موقعنا وعند النهاية بطريق سهل يقود إلى أسفل لسهل النميش الذي يكثر فيه شجر الدوم على امتداد مجرى ضحل صرفي، يجري بدوره على امتداد الطريق البعيد لحقل الحمم البركانية تجاه البحر على الجانب الشمالي لرغبة، والذي تغطي كتلتة المرئية لنا حوالي ثلاثين درجة على مسافة ثلاثمئة ياردة من موقعنا.

وصلنا إلى السهل خلال عشر دقائق متجهين ناحية الشمال الغربي، على الجانب الأيمن لخط الصرف، الذي نحفه وتوجد بداخله أشجار طلح بينما اكتسى السهل بينه وبين الساحل بأشجار خفيضة جافة، وحشائش مع بعض شجر التنضب من حين لآخر. كان السير هنا جيداً فوق أرض ثابتة طينية ووصلنا بعد مسيرة نصف ساعة إلى رأس خط الصرف الذي يوجد فيه على مسافة نصف ميل إلى اليمين مجموعة من الثقوب المائية (ملازم) تسمى نميشاً، ينحدر خط الصرف هذا من مخروط وسلسلة محائل التي منها ينحدر مجرى صرف آخر يتجه إلى الشمال مع طريقنا ليتصل مع وادي بشير الضحل أمامنا. وجدنا أحد روافده يتفكك داخل الطريق، إلى رواب رملية ينمو عليها الدوم، وفيما يلي هذه لا يوجد ماء إلاَّ في مواسم جيدة السيول. خرجنا إلى سهل سبخة واسع فيما يلي

هذه المجموعة من أشجار الدوم تكسوه حشائش شحيحة وشجيرات حمض خفيضة، وتحفه على أحد الجانبين سلسلة رملية خفيضة قريبة من الساحل وعلى الآخر كثبان تمتد إلى الخلف إلى حافة حقل الحمم البركانية من حول الخرمى. توجد فجوة واسعة بين هذا القسم لحقل الحمم واندلاقه براكين الحمَّة، ينحدر خلالها وادي بشير الذي يأتي من سلسلة السودة إلى الخلف من بعيد. تقف سلسلة جب المنخفضة التي -كما قيل لي- يوجد فيها بقايا المقبرة الهلالية، ويربطه الأهالي بالأساطير المحلية لقبيلة بني هلال.

ليس لوادي بشير نفسه أهمية كبيرة، فهو منخفض واسع رملي وضحل، وبه العديد من البرك المالحة في مجراه. يمتد الوادي على مسافة نصف ميل مع اتجاه أسفل الوادي من موقع عبورنا على امتداد قدم رقعة على جانبه الجنوبي ليصل إلى البحر، على بعد ميل ونصف الميل، بالقرب من ثقوب ماء الحفائر. تقع هذه داخل مجموعة من التلال الرملية عند حافة الماء، ويقال إن مياهها ممتازة وحلوة.

سرنا فوق أرض رملية فيما يلي وادي بشير مغطاة بكثبان مكسوة بالحشائش تنتهي بجوار البحر في منطقة كثبان سنامية جميلة. قابلنا فيها الحاج الهندي وقد عمد إلى الراحة بعد سيره على الأقدام مسافة طويلة، وكان ينتظر صلاة المغرب، غير أن قافلة عفشنا لم تصل بعد، والتي كانت قد استفادت من توقفي في حقل الحمم البركانية لزيادة سرعتها، لإصرارها على الوصول إلى قدور لحم القمحة لعشاء الليلة. إنه لمن المدهش أن نجد أن الجمال المرهقة يمكن أن تفعل العجائب إذا كان سائقوها بين خيارين إما أن يتناولوا عشاءً فاخراً أو أن يتناولوا عشاء مسافر في الصحراء. بدا لي أن طاقة الجمال في هذه الحالة بالذات قد وضعت في غير مكانها، أخبرتهم بمنتهى الوضوح حينما قابلتهم في اليوم التالي، لأن ذلك قد

تسبب في تورطي في مسيرة مدة ثلاث ساعات في الظلام. فقدت بذلك ملاحظة تفاصيل مساحة صغيرة لهذه البلاد الساحلية، بما أنها لم تكن تستحق ذلك. غطينا فيما تبقى لدينا من ضوء النهار وضوء الشفق منطقة الصحراء، ذات الأشجار الخفيضة فيما يلي وادي بشير، وكذلك حزام سبخي عريض فيما يلي الوادي يمتد من حمم الحمَّة البركانية إلى مسافة ميلين على يميننا، ثم إلى البحر.

دخلنا إلى دلتا وادي حمضة العريضة في وسط كل ذلك، مع انطباق الظلام عند الساعة (٦,٣٠). كنت أتعثر في الظلام ولم أكن قادراً على تسجيل مذكراتي، ولم أصل إلى القمحة حتى الساعة (٩,١٥). وأنا غضبان ومرهق. ضخمّ الظلام - بالطبع- كثافة عرض حزام الغابة التي ملأت الدلتا، غير أنها في بعض الأجزاء بدأت صعبة الاختراق. كان علينا أن نبحث عن المجرى الرئيس في منتصف الطريق عبرها، وكذلك الطريق الصعب لسلسلة حمضة فيما يليها، والغابة الأكثر كثافة فيما بعدها. كنت أود رؤية هذه البلاد نهاراً، ولا بد أنها كانت جنة للطيور، غير أننا لا بد أن نواصل السير جادين لندرك رفاقنا، الذين كان في حوزتهم كل طعامنا وعفشنا. قيل لي إنه في مكان ما في مجرى حمضة توجد قرية بحر[١] بينما تقع قرية الخسعة الصغيرة لصيد الأسماك وبها مرسى صغير لقواربها، على الساحل عند طرف الدلتا على الجانب الشمالي.

خرجنا أخيراً من الغابة إلى سبخة واسعة مسطحة، تعترض طريقنا من حقل الحمم البركانية إلى الساحل وتندمج في نهاية الأمر مع منطقة رملية يصعب وصفها والتي وصلنا فيها إلى أول مجموعة من أشجار النخيل التابعة لجوار القحمة. لا

---

(١) قرية بحر: يطلق عليها أيضاً اسم (بحر أبو سكينة). (ابن جريس).

تتأثر أشجار النخيل بالترب والمياه المالحة، وتتلقى هذه الأشجار ذات التوزيع الخارجي كميات وافرة من كليهما. كانت الأولى منها هي المسبخية مزرعة نخيل وبها عدد قليل من عشش المستأجرين.

يجري طريقنا فيما يلي هذه مدة نصف ساعة خلال مزارع مهملة واسعة، منقطعة، ومتعرجة، تابعة لقرية مغزل. تفصل مسافة بين هذه وبين قرية بريطان، ذات الحمم المتوسطة، تليها مشقور التي تقف فوق تربة أفضل، وتبدو مزدهرة بخطوط أشجار نخيلها العالية الممتدة على جانب الطريق إلى عمق (١٠٠) ياردة على الجانب. لم يبق علينا الكثير لتغطيته، غير أن حماري مشجه الميت قد سقط مرتين في هذه المرحلة الأخيرة، كانت الثانية منهما حينما كنا نعبر الخليج (أو القنال) الضيق. خضت طريقي إلى الساحل وغطيت بقية المسافة مشياً على الأقدام.

أعترف أنني وصلت إلى القحمة وأنا في مزاج متعكر، وسيان لو كنت مخطئاً أو مصيباً، فإنني أعتقد أن الحاكم المحلي لم يكن لبقاً حينما أرسل رسولاً عنه لتحيّتي بدلاً من أن يأتي هو بنفسه. أخبرني الرسول أن الأمير ينتظرني في منزله وذلك لوجود ضيوف معه. كانت إجابتي أنني لن أتحرك من هذا الموقع. ظهر الحاكم بعد ذلك أمام مدخل الجناح المخصص لي ولمجموعتي ومعه كل ضيوفه وكل حاشيته، ودخلنا فوراً في تبادل للاعتذارات وفي هذه الأثناء دارت فناجين القهوة. أدركت في حينها أن عبدالله بن عيسى، حاكم القحمة وهو من مواطني الرسّ في القصيم كان رجلاً ذا جاذبية كبيرة. كان في منتصف العقد الثالث وكان يتأتئ في حديثه. لم ينقصه شيء من النبل المدني الذي يميز أهل المدن في محافظته هذه. كانت الرس، بالرغم من أنها أصغر من بريدة وعنيزة فهي مميزة

مثلهما بوجود الأمراء التجار الذين أضافوا الكثير لقيادة القصيم وللحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية. تحسنت علاقتنا سريعاً، وذلك لأنني كنت أعرف أسرته والعديد من أهل الرس.

كان من بين رفاقه ابن نشوان، ضابط جمارك محلي. أخبرني الحاكم أنه أخذ المبادرة ليدعوني لتناول العشاء، ثم نهض جمعنا كله وتمشينا في الظلام، كلنا في مسيرة جليلة إلى المركز أو المبنى الحكومي. جلسنا عند الساعة الحادية عشرة مساءً حول عشاء ممتاز، عدت بعده إلى عشتي لأنال راحة ضرورية بالمستوى نفسه، ونمت عميقاً لأصحو وقد انتعشت كثيراً. لم تزعجني حتى قطرات المطر القليلة التي تساقطت أثناء الليل، غير أن السماء في الصباح كانت ملبدة بالسحب مع احتمالات لأمطار متوقعة.

كان علينا استبدال جمال العفش التي استأجرناها من صبيا بأخرى تأخذنا من هنا إلى القنفذة[1]. كانت المسيرة من صبيا إلى القحمة على أربع مراحل، وكان الإيجار المتفق عليه هو نصف ريال لكل مرحلة، أي ريالاً واحداً (سدس) لكل جمل لرحلة تستغرق حوالي (٧٠) أو (٨٠) ميلاً. يبدو الأمر رخيصاً جداً، وقد أضفت مكافأة من عندي للرجال الذين اصطحبوا الجمال والذين كانت خدماتهم متضمنة داخل الإيجار بلا مقابل. تركت رفاقي، بعد أن قمت بذلك، لترتيب المواصلات الأخرى وذهبت للقيام برحلة استكشافية، يرافقني الحاكم وضابط الجمارك وحشد من مرافقيهم. تقع القحمة على خط عرض (١٨°) شمالاً، وتعلّم

(١) لمزيد من التفصيلات عن بلاد القنفذه، انظر: عاتق البلادي. **بين مكة واليمن**، ص١٠٧ وما بعدها، شرف البركاتي، **الرحلة اليمانية**، ص ١٣٣ . (ابن جريس).

الحدود الشمالية لمحافظة جازان الإدارية، بالرغم من أن وضعها الطبيعي قد جعلها جزءاً من محافظة القنفـذة ممتدة إلى الشمال[١]. تفصل القنفذة عن جازان بواسطة حاجز الحمـم البركانية الذي يمتد من حافـة البحر في رغبة، وتتمـيز عنه بوضوح بحقيقـة أن نخيلها هو نخيل التمور وليس نخيل الدوم. لا أسـتطيع تفسير لماذا لا تنتج جازان نخيل التمـور -باستثناء مساحات صغـيرة في الشقيق- على الرغم من أنها من أخصب أقسـام تهامة العربية السعـودية، وتستطيع أن تنتج القطن والأندقو والسمسم والدخن وربما القـمح والشعير، وبكميات كـبيرة إذا استخدمت مـياهها بالطريقة الصـحيحـة. لم يكن الأمر متـعلقاً بخطوط العرض، وذلك لأن تهـامة اليمن إلى الجنوب منها، وتهامة السعودية إلى الشمال منها، تنتج التمور. لا بد أن يكون الأمر متعلقاً بالتربة، وهو أمر يستحق الدراسة.

مهما كان الأمر، فإن أشجار نخيل التمور تؤدي دوراً حيوياً في تمييز التركيب الاجتـماعي لقسمين مـتجاورين من تهـامة. يعيش الناس في مـعظم الأجزاء في عشش في القـحمـة مثلاً والدرب في درب، إلاَّ أن العـشش هنا مبنيـة من سعف النخيل وليس من الـوتل والأعواد بينما تسـور الزرائب بحاجز من سـعف النخيل بدلاً من بناء جـدار من الأعواد[٢]. توحي سـعفـات النخيل هذه بعـدم النظام، وبالتأكيد فهي لا تبدو نظيفة، مـثل غيرها، إلاَّ أنها مقاومة لعوامل الطقس وتؤمن خصـوصية كـاملة بينما ينصرف مـواطنو القحمـة لحاجة الحـمام الداخلي. تلحق

---

(١) أصبحت البلاد الممتدة من شمال بلدة الشـقيق إلى قرية الصوالحة جنوب بلدة حلي تتبع إدارياً إلى منطقة عسير بعد أن كانت موزعة على إمارتي مكة المكرمة وجازان. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التوضيحات عن بناء العشش في مناطق تهامة الممتدة من البرك والقحمة شمالاً إلى أقصى بلاد جازان جنوباً، انظر: غيثان بن جريس. **عسير (١١٠٠ ـ ١٤٠٠هـ)**، ص ٤٩ ـ ٥٢ . (ابن جريس).

بالعشة التي أعدت لي، مثلاً عشة صغيرة من المادة نفسها، مجهزة بمرحاض من البازلت المثبت بالجبس والأسمنت، أو أحجار الحمم البركانية موضوعة حول الجزء الأعلى من الحفرة التي تصل إلى المياه المالحة تحت السطحية، والتي تقوم بإتلاف كل شيء يصلها وتقضي بذلك على كل ما تنفر منه الأنف. توجد في القحمة مبان حجرية مبنية بصفة عامة من أحجار الحمم البركانية ومطلية بطبقة من الجبس، غير أن الأمير ورفاقه الضباط يفضلون الحياة في العشش، التي يعدونها أكثر برودة وصحية، لعلهم مصيبون في هذا في مثل هذا الطقس الحار الرطب في الجزء الأوسط من ساحل البحر الأحمر. كان مقر الجمارك بناء من الحجارة يتكون من طابقين كما كانت كذلك أماكن الأعمال الخاصة بالتجار، وقد فضل بعض هؤلاء والنبلاء المحليون البناء الحجري سكناً لهم.

تمكنت من التقاط منظر ممتاز من سطح منزل الجمارك للمدينة وما جاورها، وما يلفت نظر المرء لأول وهلة هو أن القرية ليست قائمة على مجرى وادٍ، ولكنها تنتشر فوق حافة مسطح سبخي يتجه ناحية البحر، يملأ الفراغ من وادي حمضة، وقد ورد ذكره، ووادي نجل إلى الشمال، الذي هو الحدود الفعلية للمحافظة. يمتد لسان من البحر داخل هذا المسطح بين فجوة ضيقة من قرنين من السبخة، لتكوين الميناء، الذي ينقسم إلى قسم شمالي وقسم جنوبي، كل منهما يؤمن مرسى محمياً للمراكب الشراعية التي تزور المكان. يرتفع مخروط وسم فيما يلي القسم الشمالي، وتقريباً ناحية الغرب من منزل الجمارك، على بعد الميل الواحد على لسان من الأرض يبرز إلى داخل البحر ويحمي ذلك الجانب من المرسى.

تنحني الحافـة الداخلية لحزام النخـيل من موقع يقع قريبـاً من القرن الجنوبي للمـيناء، على وتر لطيف يمر على مسـافة ثلاثمـائة ياردة من منزل الجمـارك على الجانب الشرقي، وينتهي على بعد نصف الميل إلى الشمال منه.

يبلغ متوسط عمق هذا الحزام حوالي مـئة ياردة، بينما في صدر الساحل وبين النخيل والميناء تنتشر مناطق السكن الأربع، وهي حـشوة الجربا إلى الجنوب منها، وإلى شرق منزل الجـمارك، عنقة إلى جنوب وغـرب حشوة الجـربا وتكون المركز الإداري والتجاري بمـا في ذلك منزل الجمارك ودعامـة الجسر ومقر سـكن الأمير، وأخيراً العرق وهي مجموعة صغيرة من العشش بها مسجد بارز على لسان الأرض الذي يفصل بين قسمي الميناء، التي يقع مدخلها على مسافة ميل ونصف الميل إلى الجنوب الغربي من منزل الجمارك.

تقع قرية المقشور التي تنفـصل مزارع نخيلها عن تلك التابعة للقحـمة بفجوة مقـدارها ثلاثمائة ياردة، ناحـية الجنوب من مـوقعنا على جـانب البحـر لحزامـها النخيلي على بعد ميل واحد.

تحتل قـرية صيـد صغيـرة تسمى حـرفاً لسانـاً من الشبكة يمتد داخـل القسم الشمالي للميناء إلى مسافة ثلاثة أرباع الميل ناحية الشمال الغربي من موقعنا، بينما تقع قرية الحشافة ومزارع نخيلها ناحية الشمال على امتداد سلسلة قدم على الجانب الأيمن لوادي نجل. يمكن ملاحظة عـدد من المخاريط البركانيـة التي لم تشاهد من قبل -ليس أي منها مـهماً- بينما إلى وراء حقل الحمم البـركانية، تمكنت من رؤية ثلاث قمم للسلسلة الجبلية الرئيسة -لم أجد لها أسماء-.

هكذا كـان ذلك المنظر الذي رأيتـه من سطوح منزل الجـمارك. ينتـمي أهل القحمة إلى قبيلة تسمى المنجحـة، غير أنني لم أستطع الحصول على أي معلومات

حول علاقاتهم القبلية، والتي يبدو أنه قد طواها النسيان منذ زمن بعيد من أذهان القرويين الذين انصرفوا لزراعة نخيلهم وصيدهم وتجارتهم الساحلية الثانوية. لم ينسوا إلى زمن قريب أن مناشطهم التجارية كانت أكثر ازدهاراً مما هي عليه الآن. يقال: إن الطريق من القحمة إلى محايل في التلال، وهو أفضل طريق إلى أبها، هو أيضاً الأقصر والأسهل مقارنة بذلك من القنفذة[١]، ويتعامل الناس هنا بنسبة تجارية عالية مع أبها والمنطقة التابعة لها[٢].

لقد تحسنت ظروفهم كثيراً حينما وسعت الحكومة السعودية مجالات فوائد التطور إلى محافظة القنفذة مع كل الممتلكات للتعريفة المرتفعة والانضباط القوي. أصبحت القنفذة قبلة الأنظار للتجارة مع أبها، غير أن الحكومة قررت، وقبل ستة أشهر من زيارتي، أن تمد منافع الحضارة إلى هذه المنطقة أيضاً. تم تطبيق نظام تعريفة جدة وأنشئ مكتب للجمارك ليتحقق من تسديد كل الرسوم. ولا تستطيع القحمة أن تنافس القنفذة الثرية، وماتت تجارتها لتنكيد الناس[٣].

---

(١) للمزيد عن الطرق التي تربط بلاد الساحل بالمرتفعات الجبلية وبخاصة في منطقة عسير خلال القرن الهجري الماضي. السير كيناهان كورنواليس. Carnwalls. **Asir Befere Warld War** I pp. 107 - 155 (ابن جريس).

(٢) كانت البلاد الممتدة من القحمة جنوباً حتى بلاد القنفذة شمالاً هي المنافذ البحرية الرئيسة لبلاد السروات الممتدة من الباحة شمالاً حتى بلاد قحطان ونجران جنوباً. (ابن جريس).

(٣) من يدرس تاريخ وحضارة القنفذة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (التاسع عشر والعشرين الميلاديين)، فإنه يجدها الميناء الرئيس لبلاد السروات. بل هناك مئات الوثائق الموجودة في تركيا، وفي دارة الملك عبدالعزيز، وفي مكتبة الملك فهد الوطنية، وفي وزارة المالية السعودية، وجميعها تشير إلى الصلات الحضارية (الاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية) التي كانت سائدة بين مواني البحر الأحمر مثل: القنفذة، والبرك، والقحمة وبين حواضر بلاد السراة مثل: أبها والنماص، والباحة وغيرها. (ابن جريس).



الفصل الثالث والثلاثون

الطريق الساحلي (محافظة القنفذة)[١]

كان الوقت متأخراً في الصباح عندما قمنا بزيارة مقر سكن الأمير لتناول طعام الإفطار. غير أن ارتياحي لهذا قد تكافأ مع اكتشافي بأننا لن نكون مستعدين لمواصلة رحلتنا. دار جدل كبير حول مساعي كل من يهمهم الأمر للحصول على الحمير، والجمال والمرشدين.

لعل مضيفينا يرغبون أن نمكث عندهم حتى نتناول وجبة الغداء، غير أنني قاومت كل محاولة تؤدي إلى تأخيرنا، وعند الساعة الحادية عشرة والربع، وبعد أن مثل أمامي المرشدان اللذان أوصى عليهما الأمير نفسه بأنهما كاملا العلم بالمواقع، وبعض الحمير التي يفطّر منظرها القلب إلى درجة بعيدة باعتبار طول الرحلة التي تنتظرها، ركبت على أحد الحمير، وتحركنا وأنا أرفع يدي بالوداع والشكر الجزيل للأمير وحاشيته المجتمعة. سيتبعني الموكب حينما يجهز، كما أن عملي في الطريق سيعطلني بما فيه الكفاية ليجعلهم يلحقون بي ويسبقونني.

اكتشفت سريعاً أن مرشديّ الجديدين العالمين ببواطن الأمور يجهلان كل شيء عن البلاد من حولنا. لقد عرفوا الطريق، هذه حقيقة، غير أن الحمير قد عرفت ذلك أيضاً، ويمكنها أن تقودنا عليه بمجرد أن تلتقط مفهوم السير إلى الأمام بدلاً

(١) لمزيد من الإيضاح عن الطريق الساحلي بين مكة المكرمة وتهامة عسير، انظر: عاتق البلادي، **بين مكة واليمن**، ص٥ ــ ٢٣٥ .(ابن جريس).

من توقف في مراعي بلادها. لقد نثرت أعواد الدخن فوق السبخة المبللة فيما يلي حدود المنطقة لكي يصبح الطريق أقل خطورة للحركة. عبرنا آخر عشة تابعة للقحمة خلال خمس دقائق داخل بهو طوله (٥٠) ياردة من البحر وحزام النخيل، ثم اتجهنا سريعاً ناحية الشمال الغربي من حول طرف الميناء، نسير في اتجاه قمة قرين فيما يلي وادي نجل. عبرنا ذراعين ضحلين ممتدين من البحر إلى الأرض على سهل السبخة وكنا نمر على مسافة (٣٠٠) ياردة من قرية الحرف الصغيرة، وقد امتدا من قاعدة وسم مسافة إلى الداخل في اتجاه مخروطي أسلة ومحرق. كانت وسم تبعد على مسافة ميل ونصف الميل إلى يسارنا مع حزام من المانجروف على الجانب القريب على امتداد الطرف الغربي للميناء. تقع مزارع نخيل الحشافة على بعد ميل واحد إلى يميننا فوق وادي نجل الذي يتوزع مجراه فوق سهل السبخة ولم نعبره بالفعل.

سرنا على حافة حقل الحمم البركانية بعد أن عبرنا السبخة، ويقع البحر وغابات المانجروف على مسافة ميل واحد إلى يسارنا عبر الساحل السبخي. يمتد وادي الشقيق على بعد مسافة قليلة عبر ممر في وادٍ سبخي ضحل واسع حيث أصبحت غابات المانجروف غابات حقيقية تلاحقت مع الطريق، بينما تباعدت الحمم البركانية. انتشرت في وادي الشقيق أشجار الدوم في كلا مجرييه وكنا نستطع رؤية وادي ذهبان قليلاً وراء المجرى الثاني وقراه الصغيرة المبعثرة وأراضيه الغنية بنخيل التمور. كانت بعض مزارع النخيل ممتازة بدرجة باهرة كما لحظتها حينما وصلنا إلى الوادي وتوقفنا لإجراء مسح عام للمنظر بجوار قرية الحباك الصغيرة عند النهاية مع اتجاه الوادي لمزارع النخيل والمحاصيل. تقع قرية طرق الأكبر على مسافة ميل واحد تجاه أعلى الوادي بين مزارع نخيل كثيفة، بينما يمكن

اعتبار مجموعة صغيرة من عشش مبنية من كتل الحمم البركانية عند طرف الحرة على الجانب الأيمن للوادي من ضمن مكونات الواحة. تسمى هذه القرية قرية الشيخ، ولا يبدو أنها مأهولة، ذلك لأنها تستخدم فقط كموقع لنوم المستأجرين أثناء عمليات الزراعة والحصاد الخاصة بالدخن، والذي كانت مساحة زراعته واسعة في كل من المساحات المتناثرة حول الوادي، وخاصة فوق الأراضي المرتفعة على جانبيه حيث تكون الزراعة محمية بالحواجز العالية ضد كل من السيول ومدّ البحر.

لقد أشرت إلى امتياز تمور ذهبان محلياً على امتداد هذا الشريط من الساحل. لا بد أن يكون المحصول السنوي كبيراً نسبياً كما كانت المساحة المخصصة لزراعة الدخن مثيرة للدهشة، بل المدهش فوق كل هذا أن كل الوادي الذي يبدو وكأنه منخفض ضحل بدلاً عن وادٍ وذلك لأنني لم أجد ما يدل على وجود مجرى فعلي. كان الوادي تحت صورة من صور الزراعة. كما كان يحتوي على آبار عديدة، غير أن أشجار النخيل تحتاج للري في حداثتها. حتى إذا ثبتت أشجار النخيل فإن عروقها تضرب إلى الأعماق إلى النطاق المائي الذي يكون عند عمق (١٠) أو (١٢) قدماً تحت السطح في كل هذه المنطقة المزروعة. ربما كان هذا هو سر ازدهار زراعة ذهبان، ذلك لأن السيول نادرة هنا.

يمثل آل ذهبان تجمعات خارجية من آل بني هلال التابعين للبرك، وقد رأينا ربوتهم وقلعتهم ناحية الشمال الغربي من موقعنا قبل أن نخرج من آخر حقول الدخن فيما يلي الوادي. تتمتع كل من البرك وذهبان -بالرغم من أنهما متضمنتين داخل محافظة القنفذة فيما يخص الأغراض الأميرية الخاصة بخزانة الدولة وغيرها- بدرجة من الاستقلالية المحلية كجيب قبلي تحت سيطرة رؤساء بني هلال

في البرك[1]. توجد غابة طرفاء قصيرة النمو وغطاء نباتي آخر في المسافات بين مزارع النخيل، بينما كانت الخلفية العامة للقرية من حقول حمم بركانية كثيبة، تنحدر إلى الخلف إلى مخاريط عديدة وفوهات براكين وتشاهد من ورائها من القحمة الجبال العالية. قيل لي إن أحد هذه الجبال يسمى زرقان. لم أشاهد حتى الآن الطيور النموذجية لجنوب تهامة وكنت أعجب لأننا لم نكن قد خرجنا تماماً من نطاق تواجدها. لقد كانت الإجابة عن هذا السؤال جزئية، إذ ظهر طائر الشقراق الحبشي داخل حقول الدخن، لا بد أن يكون هنالك الكثير منه غير أنني لم أر غيره.

استمر سفرنا، باستثناء التوقفات، حوالي ثلاث ساعات ونصف الساعة، عندما قررنا التوقف لأداء صلاة العصر، والقيام بمسح عام عند الساعة (٤,٢٠) لسهل ناعم من دبال وأصداف إلى مسافة خمسمئة ياردة من ساحل البحر. تقع جزيرة الجبل فيما يلي هذا، وتنفصل عن الأرض الرئيسة بالمجرى الرئيس مسافة ثلاثمئة ياردة، وهي مسطحة النهايتين، وترتفع في الوسط إلى مخروط لطيف يبدو أنه بركاني وكانت بعض نباتات خزامى البحر تتخلل الساحل بينما كانت صفحة الطريق على اليمين عبارة عن حاجز صلب من الحمم البركانية مع العديد من المخاريط التي ترتفع إلى مجال الرؤيا ونحن نسير شمالاً.

دخلنا إلى أرض مسطحة تكسوها جلاميد ضخمة من الكتل البركانية عدا ممر ضيق تم كشفه لحركة السير، وذلك بعد أن طال انتظارنا لقافلة العفش التي لم

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن بلدة البرك وعن رؤوساء بني هلال في هذه المنطقة، انظر: عبدالرحمن بن عبده، **من تاريخ برك الغماد**، ص ٤٢ وما بعدها. (ابن جريس).

تظهر في الأفق، ويسمح الطريق لحركة السيارات أيضاً. عبرنا فيما يلي هذا إلى فم وادي موضّية[١] الذي يُوجد على جانبه البعيد لسان بحري عبرناه ويقع فوق طريق مرتفع من صخور الحمم البركانية. واجهنا على الفور وادي الداهن وفمه الواسع الذي يندمج مع مجرى موضّية ويغطيه أيضاً ذراع من البحر ودرنا حوله بجوار مجموعة صغيرة من أشجار النخيل. لا بد وأن يكون عرض هذا الوادي المزدوج الفم حوالي ميل واحد وكان سراً عليّ أن أدرك أن السيارات قد عبرت هذه المواقع. سارت رحلتنا الآن فوق شريط من السبخة على امتداد حافة رف منخفض من حمم بركانية متشابكة وشعاب مرجانية على يميننا. كانت السبخة لزجة جداً في بعض أجزائها، غير أننا وصلنا إلى فم وادي اللصيب دون حوادث.

لقد سرنا مدة ساعة أخرى وكادت الشمس أن تغرب، ولم نر أثراً لرفاقنا الذين نتوقع لحاقهم بنا. لذا فقد قررت أن نتوقف لقضاء الليلة فوق كتل بجوار مجموعة من أشجار النخيل تسمى «نخل زايد» على الجانب الأيسر للوادي، الذي امتلأ جانبه الأسفل بلسان من البحر. أزعجت حركتنا طائر بجع منعزلاً وهو يصطاد في موقع صيده المسائي، بينما طار من أشجار النخيل زوج من طيور الغداف كانت قد قررت مثلنا أن تقضي الليلة هنا قبل أن نقدم نحن، وقد رافق طيرانها احتجاج بصوت أجش، لتهبط فوق غابة مانجروف على جزيرة أخرى مسطحة وطويلة على بعد ميل ونصف الميل من الساحل. وصل قطار عفشنا أخيراً بعد نصف ساعة من استقرارنا في هذا الموقع، وتناولنا جميعاً وجبة العشاء المكونة من اللحم المقلي مع شرائح أناناس كحلوى. كانت الليلة ذات سحب وكانت

---

(١) فم وادي موضّية: هو مصب وادي الداهن. (ابن جريس).

ممطرة وقد لاحظت للمرة الثانية الغياب التام للحشرات برغم سطوع ضوء مصباحي. لم يكن هنالك ندى خلال الليل غير أن الجو كان رطباً لقرب المكان من البحر. كان المد ممتداً إلى الوادي في المساء، غير أنني لاحظته ينحسر بسرعة، وعند حلول الصباح كان اللسان المائي مكشوفاً، إلاَّ أن الموقع كان مبتلاً يصعب اختراقه إلاَّ بتحول خفيف مع الوادي لاختيار مجراه الحصبائي فيما يلي علامة أقصر موقع له.

أمضينا فقط ساعتين في معسكر البرك وكانت المسيرة إلى هنا فوق طريق يجري على ساحل ضيق وكان البحر يبعد عنا بنفس بعد الحمم البركانية منا. كانت الشعاب المرجانية مختلطة مع الحمم البركانية أو كانت الحمم البركانية تعلوها، وقد عبرنا على فترات أفواه عدد من المسايل الثانوية التي تنحدر من حقل الحمم البركانية.

سرت على قدمي إلى ناحية أول هذه المسايل، ويسمى وادي المطلع وقليلاً إلى ما يليه. كان المسيل التالي يسمى وادي مرة والذي اخترقت طريقنا فيه مزرعة نخيل صغيرة تابعة لقرية مكمان الصغيرة الشبيهة أعشاشها بخلايا النحل، وتقف على الجانب الأيمن بجوار البحر، الذي كان يبعد حوالي خمسمئة ياردة على يسارنا. توجد هنا حقول قليلة لدخن نامٍ حديثاً، والتي فيما يليها يخترق الطريق حافة حقل للحمم البركانية وقد شُقَّ فوقه طريق سيارات يقع بيننا وبين البحر. أوصلنا هذا الطريق إلى مسيل وادي منيخر الضيق الذي كان فمه يبعد عنا مسافة مئتي ياردة إلى يسارنا، وقد سده حزام غابة مانجروف. وصلت الحمم البركانية فيما يلي هذا إلى حافة البحر وبالفعل أصبحت الشعاب المرجانية من فوق ومن تحت الجلاميد البركانية وفي فوضى شديدة، بينما قبل أن نصل إلى البرك كانت

الحمم البركـانية، ممتدة عبـر طريقنا في لسان طويل ضيق يصل إلى البـحر. مررنا بالقرب من هذا الموقع على المقبرة المحلية فوق مساحة أرض رملية على حافة الحمم البركانية، ودخلنا بعد دقيقتين قرية البرك[١].

يتكون جزؤها الرئيس من حـوالي مئة من العشش التي تشـبه خلايا النحل، إلى جانب البناء المركزي للحكومة بلونه الأبيض، ويقع في وسطها عدد من المنازل المبنية البـيضاء من حولها. يقف هذا القـسم من القرية فوق سلسلة حـمم بركانية منخفـضة تطل على البحـر، وعلى حافتهـا حقول قليلة تم إعـدادها للزراعة ولم تزرع حديثـاً. يقع قسم آخر، وهو قرية صـغيرة تشتـمل على بعض المباني المطلاة بالجـبس عند سـفح ربوة على يميننا. كـان هنالك -إلى جـانب هذين القـسمين للقرية- القلعة التي كنا قد رأيناها من ذهبان، تقف بارزة فوق قمة ربوة منخفضة. يقع خليج خور البرك على يسار القرية، وهو مرسى طويل محمي أكثر منه ميناء، وبه سبخة عريضة تنحني على الجانب البعيد ناحية المدخل العريض.

يدخل مجرى وادي حلي إلى هذا الميناء، وقد وردت الإشارة إليه بأنه يشترك في مسـتجمع الماء مع وادي ريم، التـابع للشقيق، وقد اكـتسب اسمـه هذا بسبب احتوائه على كمية وافـرة من المياه العذبة قريباً من السطح[٢]. تحف أشجار النخيل

---

(١) لمزيد من التفـاصيل عن بلاد البرك (جـغرافيتـها وتاريخهـا)، انظر: عبدالرحمن عـبده. **من تاريخ برك الغماد**، ص١٤ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) ولمزيد من التـفاصـيل عن وادي حلي تاريخيـاً وآثارياً وجغـرافيـاً، انظر: أحمـد عمـر الزيلعي «المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي (ق٣ ــ ٩هـ / ٩ ــ ١٥م)» **حوليات كلية الآداب جامعة الكويت**. الرسالة (٣٩) (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) ص ١١ وما بعدها، عبدالرحمن الشريف. **المرجع السابق**، حـ٢، ص ٢٠٨ . (ابن جريس).

هذا المجرى مسافة ستمائة أو سبعمائة ياردة من الميناء، قليلاً إلى الداخل من السور القديم، الذي يعود تاريخه إلى (٢٠٠) أو (٣٠٠) سنة[١]، والذي كان يحمي هذا الموقع المحلي المهم ضد الأعداء. يجري هذا مسافة ألف ياردة ناحية الشرق من الساحل على امتداد الجانب الأيسر لوادي حلي ثم يتجه جنوباً، مع تتابع أبراج على مسافات على امتداد سلسلة منخفضة تعبر من خلف القرية إلى حيث القلعة القديمة ثم إلى أسفل إلى البحر عند الموقع الذي كنا قد عبرناه عند عنق اللسان. وبذلك يؤمن حماية تامة للقرية من جانب اليابسة. يمر الطريق إلى القنفذة خلال هذا الجدار عن طريق ما لابد أن يكون بوابة عظيمة على حافة الوادي، غير أن القليل قد تبقى منها عدا الركام الذي بنيت منه. كانت البرك تزار من حين لآخر بالبواخر الصغيرة التي تتحرك على امتداد الساحل، غير أن مرساها لا يصلح لجعلها ميناءً منتظماً يتجه إليه، كما كانت تجارتها غير مهمة مقارنة مع القحمة قبل تدميرها بالتعريفة الجديدة[٢].

لم يكن مرعي[٣] -شيخ قبيلة بني هلال- موجوداً في مسكنه عندما مررنا بقرية البرك، ذلك لأنه قد قام بإرسال زوجاته الثلاث اللاتي كنَّ يعشن معه في القرية إلى أداء الحج ضمن مجموعة محلية من (٣٢) شخصاً وعدد مماثل من

---

(١) بعض الروايات تذكر أن بناء السور كان خلال عام (٦٢٩هـ / ١٢٣١م)، ثم رمم عام (٧٠٤هـ / ١٣٠٤م). (ابن جريس).

(٢) انظر توضيحات أكثر عن بعض الموانى الرئيسة على ساحل البحر الأحمر. محمد أحمد الرويثي. **التطور المكاني والتاريخي لموانى شبه الجزيرة العربية دراسة تاريخية جغرافية تحليلية**. (القاهرة: مطابع الطوبجي التجارية ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م)، ص١٠١ و ما بعدها. (ابن جريس).

(٣) هو مرعي بن عبده بن إبراهيم آل عبده الهلالي، كان أميراً للبرك من عام (١٣٥٤ ــ ١٣٦٣هـ) (مقابلة مع عبدالرحمن عبدالرحيم بن علي بن عبده في بلدة البرك خلال شهر المحرم عام (١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م). (ابن جريس).

الجمال. ذهب إلى الجبال ليعزي نفسه بغيابهن وذلك بقضاء الفترة مع زوجته الرابعة، وهي شابة تفضل الحياة في الصحراء مع قبيلتها على بهرجة جمال الحضارة. أشرف على الترحيب بنا وكيله[١]، وهو مثال جيد للشاب الغامض، الذي كان يفتقر لكل مقدرة على الحديث ويبدو مندهشاً ناحية كل شخص يقوم بأداء عمل يتطلب جهداً جسدياً.

كنا أحسن حالاً مع ضابط الجمارك المحلي، الشيخ محمد من مواطني الوجه الذي ظل يعمل في الحكومة ويبدو أنه معجب به، غير أنه وبعد قضاء خمسة أشهر في البرك بدأ عليه الملل لعدم مقدرته أداء أي عمل في موقع بهذه الكآبة. يقاسمه في وظيفته العاطلة هذه أدميرال الميناء (أمير البحر) الذي يبدو أن لديه القليل من العمل، ولكل منهما مجموعة موظفين من الكتبة والمساعدين ليعاونوهم على أداء أعمالهم. كانت زيارتنا لهذه القرية الرسمية الصغيرة هدية لهم من السماء، وقد كان الترحيب بنا خلال الساعة التي مكثناها بتقديم البلح المحلي والأناناس المستورد والشاي والقهوة.

وحينما حان وقت سفرنا، وذلك بعد أن تم استبدال المرشدين القادمين من القحمة بثلاثة مرشدين من بني هلال تم إحضارهم من القرية، فإن كل القرية رافقتني وأنا أسير ناحية البوابة القديمة ويبدو أنهم كانوا كارهين رحيلي. رافقتنا بعد أن تحررنا من الحشد شاة وسلّة بيض وبعض الخبز الذي صنع من الدخن، كانت هذه هي هدية الوداع من ضابط البرك.

---

(١) وكيل الأمير آنذاك هو: شامحي بن محمد عبده الهلالي. (ابن جريس).

على الرغم من أن كلاً من البرك وذهبان قد ضمتا الآن إلى محافظة القنفذة في الحجاز، إلاّ أنهما كانتا جزءاً من المخلاف السليماني في الماضي، أيام حكم الإدريسي، الذي كان يضع ضابط الجمارك في البرك ليقوم بجمع الرسوم له. لا بد أن تكون الحدود الجنوبية للحجاز في تلك الأيام، جارية على امتداد وادي عمق، وهو حدود بني هلال، إلى مسافة (٢٠) أو (٢٥) ميلاً إلى الشمال. لقد استغرق وصولنا إلى ذلك الموقع حوالي ست ساعات، وقد نصبنا معسكرنا هناك بعد نصف ساعة من غروب الشمس لقضاء الليلة في الوادي. سار المرشدون الجدد كل الطريق على أقدامهم دون تعب وهم يمضغون البرتقال ويبصقون في الطريق. كانت مسيرة كئيبة وكذلك كان الطريق نفسه إذ إنه يقع على شريط ضيق للساحل بين الحمم البركانية المستديمة أبداً وبين البحر، نادراً ما يصل اتساع الشريط إلى الميل الواحد، وكثيراً ما يكون أقل من ذلك.

كان التغيير الوحيد لكسر رتابة المنظر هو ذيول المسايل التي عبرت طريقنا والمخاريط غير الواضحة المعالم التي تناثرت فوق ساحة الحمم البركانية الواسعة، وبعض القمم العالية أو السلاسل على مسافة إلى الوراء. كان وادي الحشافة[1]، الذي ينحدر من سلسلة العرك، خلال رف من الشعاب المرجانية، هو أول هذه المسايل، إلى جانب وادي الصحين -وتنتشر فوقه صخور الحمم البركانية-، ووادي العرك ووادي مجعرة ويأتيان متتابعين بعد وادي الصحين، وكلها تنحدر من سلسلة العرك التي يسيطر عليها مخروطان على كل طرف منها مخروط واحد. لاحظنا وعلى فترات القليل من طيور الفلامنقو وهي تصطاد داخل مجرى ضيق

(١) هذا الوادي يطلق عليه أيضاً اسم (وادي أبو السَّمر). (ابن جريس).

يحفه المانجروف يتـجه شمالاً لمسافة وموازياً لطريقنا، بـينما وجدنا في أحد المواقع سرباً ضخـماً من طيور النورس والخرشنة يطوف ويغطس داخل المجـرى. أخبرني مرشـديّ الهلاليون أن الجـمال البـائسة في هذه المقاطعـة لا تأنف من أكل أوراق المانجروف طعاماً لها إذا لم يتوافر لها ما تتغذى به على الأرض.

كان لون الماء في هذا المجـرى، أو الخور كما يطـلقون على هذه الألسنة، في زرقة السماء يتـحرك ناحية الساحل بأمواج لطـيفة. يجري داخل نهايتهـا الشمالية مسيل وادي العين الذي يعبر طريقنا من الناحيـة البعيدة لسلسلة العرك بينما يخرج وادي دبسا مباشرة فيما يليه إلى شـريط سبخة واسع ليضيع داخل حزام المانجروف السميك. وعلى الرغم من أن الطريق يحتضن في هذا الموقع حـافة الحمم البركانية مسافة إلى الخلف من البحر، فإن السير كان صـعباً فوق السبخة المبتلة اللزجة التي أدركنا فيـها جمـال العفش وهي تلتـقط خطواتها في صبـر وعناء عبـر المستنقع. أسرعنا ناحية مـخروط منخفض من الحمم البركانية هو جبل الصـاقعة -بارز فوق الطريق- لكي نقوم بمسـح البلاد المجاورة من قمـته. تقع بئر الغـضفاء عند قـدمه وماؤها مالح غير أنه يمـكن شربه، وحوله مجموعة من أشجار النـخيل والتي فيما يليهـا توجد ست عشش مبنيـة من سعف النخل، وتكوِّن قرية الحـشافة الصغـيرة لصيد الأسماك وتقوم فوق ربوة مزدانة بغابة المانجروف. توجد قرية كبيرة تقع على بعد ميل واحـد أو أقل ناحية الشمال الشـرقي، تحتوي على حوالي خمـسين عشة ومساحة لا بأس بها من أشجار النخـيل. هذه هي قرية قامة وهي مشهورة بأحلى مياه في المنطقة كلها. توجد مساحات منعـزلة للنخيل مبعثرة في هذه المنطقة. كان المنظر من فوق قمة جبل الصاقعة واسعاً ولكنه لا يثير إحساساً.

يتكون الزوج التـالي من المسـايل من كل من واديي شربين ووادي برمـة[١]، وهما متقاربان ويخـرجان من خليجين عميقين من الحمم البركـانية، وقد رأيناهما بعد أن عبرنا طريق الشعاب المرجانيـة المطعم بالحمم البركانية. لحقنا في هذا الموقع بمجموعة من الحجاج التكرونيين الأفارقة وهم ثلاثة رجال وامرأة، يضربون الطريق على الأقدام نحو مكة.

تركنا لهم بعض مـا لدينا من خبـز وواصلنا سيرنا فـوق ساحل ضـيق حتى وصلنا إلى لسان عريض من الحمم البركانية يصل إلى حافة الماء. طريق ضيق فوق هذا اللسان، غـير أن النهاية القريبـة منا لهذا الممر كـانت مغلقة في أزمان سـابقة بجدار لا تزال بقـاياه يمكن ملاحظتها خـلال مسافة على الجـانبين. وقف كوم من الحجارة يسـمى المحاجي[٢] وهو يؤرخ بلا شك لمعركـة قبلية طواها النسـيان حول ملكية هذا الطريق السريع الاستراتيجي[٣]. كانت هنالك مجموعة من طيور البجع تستمتع بالهـواء الطلق باسترخاء فوق بعض الصخور إلى البعـيد على يسارنا وقد بدت جادة ومحترمة. وصلنا إلى عمود مطلي بالجبس على مسافة قليلة وراء الحمم البركانية والذي قال عنه مرشدي إنه نصب لتعليم موقع بئر أزعقة، وهي بئر قديمة يوجد مـاؤها عند عمق ثلاث قامـات وتقع على بعد خمـسمئـة ياردة داخل حقل الحمم البركانية، وقد تم حفرها لمنفعة عابري السبيل منذ سنتين.

---

(١) وادي برمة: سماه فيلبي وادي ضربة وهذا غير صحيح. (ابن جريس).

(٢) المحاجي: هو الاسم الصحيح لهذا الكوم، مع أن فيلبي أطلق عليه اسم (القحم)، وهو اسم غير سليم. (ابن جريس).

(٣) هذه الطريق التي سلكها فـيلبي في أوائل النصف الثاني من القرن الهجـري الماضي، كانت إحدى الطرق الرئيسة التي كان يسلكـها التجار والحجاج ما بين اليمن والحـجاز عبر العصور الإسلامـية المختلفة. (ابن جريس).

وصلنا بعد وقت وجيز إلى وادي جيَّة الذي ينحـدر من حقل الحمم البركانية عبر حزام مـن حشائش، ويندفع من الجانب الآخر لطريقنا داخل حـافة مانجروف ويطوق لساناً بحرياً. توجـد عشة واحدة وسط مجموعة مـن أشجار النخيل على الجانب البعيد، ربما كانت محطة مؤقتة لبائع متجول يشتري ويبيع ضروريات الحياة للحجاج أو غيرهم من عابري السبيل. كـانت العشة فارغة ولا أثر لأصاحبها[١]. غابت الشـمس خلف شريط من السحب إلاَّ أننا رحبنا بأولى لمحـات نخيل وادي عمق. واصلـنا بنشاط سيـرنا فوق أرض ذات كـتل من أعشـاب وحشـائش فوق رمال، وهي بلا شك بداية لدلتـا الوادي العريضة، ثم عبرنا بطن مـجرى جاف، ربما مجـرى مساعد للوادي. لنصل إلى المجـرى الرئيس الذي تحفه مـزارع النخيل على الجانبين. وجدنا مجموعة كبيرة من الحجاج التكارنة وقد استقروا في معسكر لهم حول نار لطيـفة عند وصولنا، ربما كانـت المجموعة القليلة العـدد التي مررنا بها، هي المتأخرة عن هذا الجمع الرئيس.

تجولنا في الوادي نبحث عن موقع ملائم لنعـسكر فيه لقضاء الليلة وتمكنا من العثور على مساحة رملية عند الطرف البعيد من النخيل على الجانب الأيمن. يوجد إلى جانب النخـيل الكثيـر من أشجار الدوم ومـجموعـات من البالميتـو المنخفض الارتفاع (حش). كان النطاق المائي لهذا الوادي قـريباً جداً من السطح الذي انتشر فيه عدد من البـرك المائية إلاَّ أن ماءها كان مالحاً. أفـادني مرشدي بأن الماء العذب يوجد على مـسافة بعد مـزارع النخيل، وقد أفـادتنا معلوماتهم هذه، بينمـا اقتنع التكرونيـون أسـفل مـن مـوقـعنا هذا بما لديهم. أزعج وصـولنـا إلى هذا الموقع

---

(١) كانت هذه العشة لمن يقوم بجمع الملح في فصل الصيف، ومرور فيلبي من هذا المكان كان خلال الشتاء، ولهذا فلم يكن بها أحد في أثناء مروره بها. (ابن جريس).

مجموعة من طيور الغداف. كانت تعشعش فوق أشجار النخيل بينما وجدت طيور القطاة متقاربة الشرائط، التي وصلت إلى الماء بعد الشفق كما هي عادتها، إن مأواها المفضل قد وقع في أيدي البشر المتطفلين.

كان استقرارنا في هذا المكان سريعاً لنتناول وجبة من البيض والخبز والشاي، في انتظار قافلة العفش، التي وصلت بعد نصف ساعة. أخبرني مرشدي أن طائرة الاستطلاع التابعة لشركة التعدين السعودية العربية قد حلقت فوق السماء إلى حدود البرك قبل فترة سبقت زيارتي، ولكنها لم تهبط.

تحركت جمال العفش صباح اليوم التالي في وقت مبكر عند الساعة السابعة صباحاً وتخلفت ومعي المرشدون مدة ساعة أخرى لدراسة المنطقة. ينحدر وادي عمق عبر الحرَّة -حقل حمم بركانية- في اتجاه غربي بصفة عامة من كتلة بازلتية عالية أو كتلة شست تسمى حمران على مسافة خمسة عشر ميلاً إلى داخل اليابسة. كان منفذها من عند الحمم البركانية يبعد بحوالي ثلاثة أميال عن البحر، غير أن الحمم البركانية تكوِّن في هذا الموقع خليجاً تقف عند حافته الشمالية ربوتان هما جلا وجليلة، وتقومان بتحويل المجرى الرئيس للوادي المنتشر الآن في اتجاه جنوب شرق ماراً بمعسكرنا إلى البحر. تكوِّن هاتان الربوتان مفصلاً تتحرك فوقه الحمم البركانية إلى البعيد ناحية الشمال الشرقي وتتباعد عن طريقنا تدريجياً وبلطف ناحية أرض منخفضة تسمى حنيناً على بعد عشرة أميال أو أكثر إلى الشرق من حلي، وهي القرية التالية ذات الحجم المعتبر التي تقع على طريقنا وعلى مسافة (١٢) ميلاً إلى الشمال أو الشمال الغربي من موقعنا. لم يكن هنالك ندى أثناء الليل وكانت درجة، الحرارة الدنيا (٦٤) درجة إلاَّ أنه يوجد إحساس بالرطوبة في

الهواء. كانت السماء لا تزال ملبدة بالسحب وكانت الرياح ساكنة ومختنقة على الرغم من أن الجو بدا بارداً.

استغرق خروجنا من الدلتا مدة عشر دقائق مررنا بعدها بمجرى ثالث للوادي، ومررنا فوق حقول ذات متاريس صعبة تابعة لبني هلال، الذين قاموا بزراعة هذه الأراضي بطريقة لا هدف لها. كما لم تكن لهم قرى في الوادي. تبادلت مساحات من عشب الحلفاء مع مساحات من هذه المزارع كما كانت هنالك مجموعات قليلة لأشجار الدوم.

دخلنا فيما يلي حافة الدلتا إلى إقليم قبيلة الصوالحة[١]، الذي يمتد حتى وادي شفقة على بعد (٥) أو (٦) أميال فقط إلى الشمال، والذي تقع فيما يليه أراضي حلي. كان شريط المانجروف، بين الحمم البركانية المتراجعة وساحل البحر، والتي كان الطريق يتبعها عن قرب إلى حلي، يتداخل على أرض عامة من أودية رملية تتبادل الموقع مع شرائط من سبخات حيث يدخل عدد من خطوط الصرف من الحمم البركانية. كان سيرنا من حين لآخر فوق رمل ثقيل وسهل بما فيه الكفاية فوق أرض ميتة يكسوها عشب جاف. عبرنا منخفضات كل من القزيعات وشعب الضبر ووادي الحلفة[٢] في تتابع سريع. كان ساحل البحر مليئاً بالسرطانات، مسرعة إلى أجحارها أو إلى البحر حين اقترابنا إلى أرض استعراضاتها. دخلنا فيما يلي وادي اللهمان -المنخفض التالي- إلى أرض رملية

---

(١) الصوالحة: هي آخر الحدود التهامية لمنطقة عسير من الناحية الشمالية في الوقت الحاضر، وكانت إلى عام ١٤٢٠هـ تتبع إمارة منطقة مكة المكرمة. (ابن جريس).

(٢) وادي الحلفة: ينطق ويكتب أيضاً باسم (وادي الحلفاء). (ابن جريس).

ذات كثبان شبيهة بالأمواج تسمى دقدقة[١]، مررنا بعدها إلى داخل دلتا وادي شفقة الذي يجري من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي عبر طريقنا، وقد غطته غابة طرفاء وأراك، يتخللها نبات الحلفاء وعشب الثمام بمساحات كبيرة، خاصة على الجانب البعيد لمجرى السيل الرملي الضيق. لم تكن الصوالحة مأهولة بالمرة كما لم ألاحظ أي علامات للزراعة في منطقتهم، وكانت من أكثر المناطق التي عبرناها كآبة وبؤساً[٢].

واصلنا سيرنا على شريط من أرض رملية إلى وادي مروان، كان واسعاً ويكسوه الكثير من نباتات الحلفاء والطرفاء. كانت به سيارة مهجورة مدفونة بكاملها تقريباً في الرمال، كما تُوجد في أجزائه السفلى وقريباً من البحر بئر اكتسب الوادي اسمه منها. أمكن رؤية وادي حلي وشريط أشجاره الطويل الكثيف ودلتاه المنتشرة. ينتهي حزام طوله ميلان من أشجار صحراوية خفيضة مع رواب رملية على جانبي الممر، إلى سبخة عريضة تنمو على جانبها البعيد شجيرات السواد التي تتنامى تدريجياً لتصبح غابة كثيفة للنبات ذي المنظر المؤذي. تمت إزالة مساحات من الغابة للزراعة البديلة بينما توجد هنا وهناك مساحات من نبات الحلفا والعديد من شجيرات الشار مع قليل من شجر الأثل الجيد النمو. توقفت للراحة بالقرب من واحدة من هذه الروابي الرملية الجميلة في وسط الغابة إلى جانب عدد قليل من عشش بائسة بجوار مجموعة صغيرة من أشجار النخيل، ولنمنح جمال العفش التي كنا قد مررنا بها في آخر شريط للسبخة، فرصة اللحاق بنا. لقد

(١) وهذه الكثبان الرملية يطلق عليها أيضاً اسم (الجويف). (ابن جريس).

(٢) وهذه المنطقة أرض رملية لا تصلح للزراعة، وهي الآن في طورها للنمو، حيث صارت بها العديد من المؤسسات الإدارية التابعة لبلدة البرك، التي تراجع جميعها أبها كونها حاضرة منطقة عسير. (ابن جريس).

فعلت ذلك خلال ساعة وتقدمت علينا. تحركتُ بعدهم بساعة. كان من المريح جداً الجلوس هنا في الغابة بلا عمل، وبلا شيء يلفت النظر، وذلك لأن الشجيرات كانت عالية بما فيه الكفاية لتحجب الرؤيا من كل الاتجاهات. توصلت إلى الاستنتاج بأن كل هذه الأراضي الغابية وكل ما سبقها بما في ذلك شريط السبخة يكوِّن جزءاً من الدلتا واسعة الفم لوادي حلي. واصلنا سيرنا وعبرنا أول مجرى رملي ضحل، والذي كان بداخله على يسارنا، بئر ماؤها صالح للشرب. بدأت الغابة فيما يلي هذا تختفي ببطء، بينما اتسعت منطقة الزراعة سريعاً ونحن نقترب من قرية حلي نفسها. تتابعت حقول الدخن على جانبي طريقنا مدة (٢٠) دقيقة، مع ظهور عشش مبنية من كتل الحمم البركانية من حين لآخر لإيواء المزارعين أثناء موسم العمل. دخلنا بعد هذه مباشرة إلى القرية وقررنا قضاء الليلة بها، بالرغم من أن الوقت كان مبكراً عند الساعة الرابعة مساء.

كانت كل العيون ترقب السماء من جهة الغرب بحثاً عن الهلال الجديد لشهر الحج. لقد مضى من أيام ذي القعدة تسعة وعشرون يوماً، غير أن رؤية الهلال الجديد -أو الفشل في رؤيته- سيحدد إن كان الغد هو الثلاثين من ذي القعدة أو اليوم الأول من ذي الحجة. بحثنا بلا فائدة وافترضنا أن الشهر قد أرجئ ليوم آخر، وهذا يوفر لنا يوماً إضافياً للوصول إلى مكة. غير أن المفكرة الرسمية، التي كنت قد قمت بإعداد مادتها بنفسي، تشير إلى أن اليوم التالي (١٢ فبراير) هو اليوم الأول من ذي الحجة وباحتمال الخطأ في جانب الاحتراس فقد علّمت ذلك في مفكرتي الخاصة (مع استفهام) تنبيهاً لنا بأنه سيكون تحت تصرفنا فقط ثمانية أيام أخرى. ثبت أن هذا هو الصحيح، وذلك بالرغم من أننا لم نر الهلال في حلي، فقد شوهد في الشمال، وعليه فإن يوم الحج الفعلي، يوم عرفات، قد تم

تثبيته بيوم السبت الموافق عشرين فبراير، وهو اليوم نفسه الذي توفي فيه رئيسي المسن (السير بيرسي كوكس) في حقل صيد في انجلترا، كما علمت في وقت لاحق. وكانت رحلتي هذه التي أكاد أن أنتهي منها قد استغرقت تسعة أشهر، قد أشار إليها السير بيرسي كوكس في خطابه الرئاسي للجمعية الملكية الجغرافية بأنها أعظم عمل ينتظره مكتشفو العالم. لقد علم -على الأقل- قبل وفاته، أنها قد تمت عن طريق الشخص الذي قام هو بنفسه بإرساله إلى الجزيرة العربية قبل عشرين عاماً.

كان أحد أسباب توقفي هنا، هو إحساسي بالتعب الشديد. كان كل هذا الركوب على ظهر الحمار وقد قطعت مسافة لا تقل عن مئتي ميل بهذه الوسيلة، مع فترات راحة قليلة خلال الأسبوعين الماضيين منذ أن هجمت الحمى عليَّ بأقصى حد ممكن لها وقد كادت أن تكسر ظهري. أجد من الصعب على سلسلتي الفقرية أن تقوم بحملي واقفاً. وتضغط على ظهري الذي يؤلمني بحق، وكان الأمر أسوأ من ذلك.

لقد عاودتني الحمى مرة أخرى. لقد رجوت أن أترك وشأني لبعض الراحة بعد أن أحسست بكرم وفادة الشيخ المحلي إبراهيم وعشته الشبيهة بخلية النحل. قدم إبراهيم لي الشاي الذي أعاد إليَّ استقراري شيئاً ما، غير أن الحمى عادت مع غروب الشمس بلا ألم أو أي أعراض، غير ارتفاع طفيف للحرارة -الساعة تلو الساعة- عبر الليل يتبعها تعرّق هادئ. شعرت بالتأكيد بتحسن في الصباح غير أن فراشي وملابسي التي كنت أرتديها أثناء نومي قد تبللت. قمت بتغيير ملابسي كلها وأحسست أنني على أحسن حال، ولكي نغطي ما ضاع من وقت فقد بدأنا الرحلة عند الساعة (٧,٣٠) صباحاً، لم يكن في جوفي من الغذاء غير الشاي،

لقد طلبت بعض اللبن، ولم يكن ذلك لسبب ما متوفراً. وقد أحضروا لي قحفاً من اللبن في اللحظة التي كنا نمتطي فيها الحمير، إلاَّ أنني وقفت إلى جانب كرامتي ورفضت اللبن مع تعليق ساخر على كرم وضيافة أهل القرية.

كانت قرية مخشوش -ويسمونها بصفة عامة حلي[1]، غير أن هذا الاسم منحصر فقط بالنسبة للوادي- قرية كبيرة ذات عدد من العشش المبنية من سعف النخيل وشبيهة بخلايا النحل منتشرة فوق مساحة كبيرة وفي قسمين على جانبي مجرى السيل. يعيش مضيفي إبراهيم، وهو من قبيلة كنانة، في القسم الشمالي، وليس ببعيد من موقع البئر الرئيسة، التي تتمتع بسمعة محلية لما بها من مياه عذبة تضارع كل مياه الآبار، في الجوار لعدة أميال يعيش بنو هذيل والعناصر المتنوعة الأخرى ذات الدرجة المتدنية اجتماعياً في القسم الجنوبي، ويقع مرسى عزب أو الميناء لحلي على بعد ثلاثة أميال ناحية الجنوب الغربي من القرية، وعند فم الوادي الذي تقع فيه على مسافة (٥) أو (٦) أميال قرية منجية وتعد مهمة بما فيه الكفاية بالنسبة لضابط الدخل الحكومي للحكومة السعودية ليكون مركزه فيها. لا يوجد موظفون في مخشوش ويتمتع إبراهيم فيها بمكانة الرجل الرئيس وممثل الحكومة للقرية والميناء. رأيت في المساء أربعةً من طيور اللقلق محلقة فوق الوادي تجاه البحر وفي الصباح عبرت خمسة منها فوق القرية في الاتجاه المعاكس، غير أنني لم أر أثراً لأعشاشها في هذا الجوار. تكثر الزراعة في القسم الشمالي لهذا الوادي كما كانت كثيرة في قسمه الجنوبي وتقع في هذه المساحة قرية جلة على بعد ميل واحد أو أزيد. يمكن الإشارة إلى قرية ساحل بأنها صغيرة -وللصيادين فقط- وتبعد المسافة نفسها في اتجاه الميناء.

---

(١) للمزيد عن بلاد حلي، انظر: أحمد الزيلعي. المرجع السابق، ص ١١ وما بعدها. (ابن جريس).

تُكَوِّن هذه المجموعة الصغيرة من القرى جزءاً مما يسمى حلي. لقد أشرت إلى أن الدلتا تمتد إلى موقع يبعد حوالي ثلاثة أميال أو أكثر إلى الجنوب من مخشوش. وتمتد شمالاً إلى ثلاثة أضعاف تلك المسافة حتى حدود وادي يبه[١]. تخترق الدلتا في هذا الجانب جداول سيول عديدة داخل الوادي، وتغطي المنطقة كلها زراعة متقطعة يقوم بتمويلها عدد من القرى المبعثرة. تعزى شهرة مخشوش إلى شهرة بئرها التي جذبت المقيمين، غير أن قرية كنانة الأصلية، وتسمى حلي قديم، تقع على بعد ميلين ونصف الميل إلى الشمال منها وإلى الشرق من الطريق، بينما تقع سلب، على بعد الميل الواحد أو يزيد فيما يليها على الطريق نفسه وفوق جوار جذاب شبيه بالمتنزه. تقع قرية شيع بين حلي قديم ومخشوش إلى يسار طريقنا داخل حقول واسعة. لم تكن لوادي حلي الذي يأتي من السلاسل المرتفعة لكل من حنين ولني من خلف حقل الحمم البركانية سيول هذا الموسم، غير أن الناس يتحدثون بإعجاب حسود عن السيل العظيم الذي أصاب وادي قنونه حديثاً[٢]، كان هذا هو وادي القنفذة الذي ينحدر من الجرف الرئيس في موقع ما في بلاد ضافر وينحدر ماراً بجبل برق، وقد ذكروا كذلك أن هنالك سيولاً حدثت في الأودية إلى الشمال من ذلك.

يصعب تفسير شح وجود أشجار النخيل في حوض حلي، وتبقى الحقيقة بأن هذه الأشجار لا تكون سمة بارزة، برغم أنه توجد مجموعات مبعثرة منها. لهذا السبب فإن عشش المنطقة تبنى من الحبال التي تتوافر مادتها داخل غابة الطلح في

---

(١) للمزيد عن وادي يبه، انظر: عبدالرحمن الشريف، **المرجع السابق**، جـ٢، ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ . (ابن جريس).

(٢) وادي قنونة، يلفظ ويكتب أيضاً باسم (وادي قنونا)، والاسمان صحيحان. (ابن جريس).

الدلتا، وتبنى المساكن الأقل مكانة من سعف النخيل. كانت عشة إبراهيم الكبيرة مثالاً جيداً لما يمكن أن يكون عليه بناء الوتل. كان كل الداخل الدائري من الطين إلى أقدام قليلة من قمة القبة، وكانت بها فتحة تهوية صغيرة لإخراج الدخان. يتدلى على هذا الجدار الطيني ومن مشابكها الخشبية العديد من الحصائر المصنوعة من أعواد التبن من كل الأحجام ومختلطة الألوان، والسلال، والزجاجات الفارغة، وغيرها من الأواني المنزلية، بينما توزعت سرائر خشبية خالية من المفارش والوسائد، ومصنوعة من الحبال للجلوس عليها أو للنوم فوقها. لا ينام أهل تهامة إطلاقاً على الأرض. انطبع في ذهني أن الناس الذين أراهم فقراء، ينتمون لمجتمع بائس يفتقر إلى الإحساس العربي بالكرم. أمر إبراهيم بالشاي حين وصولنا أول مرة، أو قل شراب القشر، الذي يعد من قشور ثمار البن وهو بديل لطيف للشاي، وعندما أحضره الخادم قام إبراهيم بصب ثلاثة أكواب من السائل متتابعة وقدمها لي وهو يقف بجواري وأنا أشربها، وذلك قبل أن يتقدم بذلك لبقية الضيوف، وبكوب واحد لكل واحد منهم. كان هذا تبايناً خفيفاً للتقليد في حضرموت، حيث يضعون ثلاثة أكواب من الشاي أو القهوة على الأرض أمام الضيف الرئيس قبل القيام بخدمة بقية الضيوف[1].

غادرت حيوانات الأحمال المعسكر قبل ساعة من انطلاقة المسيرة الجديدة، وقد قمت باستبدال المرشدين الهلاليين، مع مكافأة مقابل رفقتهم اللطيفة أكثر منها

---

(١) تشابه العادات في منطقة القنفذه مع بعض عادات وأعراف حضرموت ربما بسبب الهجرة، حيث هاجر العديد من الأسر الحضرمية واستوطنت أرض القنفذة والحجاز عموماً، ولا زالوا يعيشون بها حتى اليوم. (ابن جريس).

مقابل ما أدوه لي من خدمات مفيدة، ووظفت مكانهم رجالاً جداً أحضرهم إبراهيم. كنت أظن أن الحمى ستعاودني ولكني تحسنت وأنا على ظهر الحمار، مع إهمالي لارتفاع طفيف في درجة حرارة جسمي وبعض العرق الذي صاحب ذلك. بدأت الحقول وكأنها لم تنتج محصولاً لبعض الوقت، غير أنه كانت هنالك بعض الأكرات ذات محصول دخن فقير، لاحظت بداخلها مجموعات متكررة من طيور الثرثار، وكذلك لفرحتي طائر آخر من طيور الشقراق الحبشي الذي لاحظت امتداداً متواصلاً لمداه الشمالي. لم تكن الطيور الجنوبية الحقيقية مثل (أبو مطرقة)، والعجلة، ووقواق تهامة، وصائد ذباب الجنة والحمامة الحبشية وغيرها، كثيرة إلى الشمال من وادي بيش. كما لاحظت ثعلباً على الطريق بالقرب من قرية شيع.

عبرنا هذه ومررنا بشريط من أرض تنمو عليه غابة نبات السواد فوق أرض رملية متدحرجة شاهدنا فيما يليها عدداً قليلاً من عشش الوتل وأشجار الجوجوبا (العلب) في حالة حلي القديمة. كان هذا هو الحد الجنوبي للأرض الشبيهة بالمنتزه التي ورد ذكرها، والتي يتعرج فوقها الطريق لمسافات بعيدة تحت ظلال أشجار العلب الكبيرة، وكانت مزرعة هذه الأشجار جميلة بدرجة لم أر مثلها في الجزيرة العربية. كيف قاومت هذه الأشجار اعتداء الإنسان والماعز عليها، لا علم لي بذلك، وذلك لأن أشجار العلب هذه تزدهر في أي موقع آخر كأشجار زينة للمقابر العربية، حيث تكون عليها حماية من جانب الدين أو جانب الخرافة. لا يرفع العربي يده لينال من شجرة العلب فوق قبر لا لأجل حطبها ولا لأجل خشبها.

مررنا بقرية سلب في وسط إحدى المنتزهات هذه، وهي عبارة عن مجموعة من عشش الوتل المتناثرة، لا تزيد المجموعة الواحدة عن (٥) أو (٦) عشش وربما

بلغ العـدد الكلي للقرية (١٠٠) عـشة أو أقل مع مـجموعـات قليلة من أشـجار النخيل. لا بد أن يكون عرض هذا المنتزه في حدود ثلاثة أميال على امتداد الطريق وضعف هذه المسـافة عبـر الطريق ومعظمهـا على الجانب الشرقـي. نستطيع رؤية السلسلة العالية، إلى البعيد ناحية الشمال الشرقي، التي تقع خلف الحمم البركانية وبها قمم كل من بكرتين وثربان، ويـقال إنهما داخل أرض قبيلة حـرب. ومنهما ينحـدر وادي يبة الذي يقع أمـامنا. تعارض شـريط من صحـراء ذات شجـيرات خفيضـة بين أرض المتنزهات وبين حزام عرضه ميل واحد من أشـجار طلح عادية وغابة سواد، وقد رأيت بداخلها زوجاً من طيور الشقراق الحبشي، ووصلنا مباشرة فيما يليهـا إلى بئر ضحلة عذبة المياه تسمى منزانية. وصلنا أخـيراً إلى نهاية الدلتا في حزام شبه سبخي مبرقع بكتل من عشب منخفض كانت لا تزال مبللة السطح، بسبب أمطار حديثة فيما يبدو.

ارتفعنا عند حـافة هذه السبـخة قليلاً إلى خط يفـصل بين دلتا كل من حلي ويبة، وقد ظهرت أمامنا الأشجار التي تكسو المجرى الرئيس. طار زوج من طيور الغداف من فوق شـجرة نخيل منعزلة كانت بجـوار الطريق أثناء مرورنا، ثم مررنا بمسطح طيني يلمع ببلورات الملح وتنـتشر فـيه الحشـائش وخزامى البحـر. كانت السبـخة مـستنقعـية جداً في هذا المـكان وقد ارتفع الطريق تبـعاً لذلك إلى أرض مسطحة رملية تنمو عليـها نباتات الجرم الخفيضة، كمـا توجد شجرتان من النخيل وكان علينا العودة إلى السطح الطيني مرة أخرى بعد أن انتهى هذا المسطح الرملي. شاهدت جمال عـفشنا وهي ترعى خزامى البحر وهي تشق طريقـها عبر نزور لماء أسود ملأ آثار عجلات السيارات.

أدى ظهور شجرة النخيل هنا وهناك إلى كسر رتابة المنظر الكئيب حيث تتبادل فيه الرمال الموقع مع السبخات، وتمتدان مسافة أميال إلى داخل اليابسة ثم البحر الذي يقع الآن على مسافة ميلين إلى يسارنا. جمّلت قرية سجفة المنظر، بما فيها من أشجار نخيل بائسة، إلى اليسار من موقعنا، بينما تفرع طريقنا إلى اليسار من طريق السيارات الذي عبر الوادي الرئيس في موقع أكثر ارتفاعاً من طريقنا. اخترق طريقنا غابة طلح ونحن نقترب من المجرى، كانت كثيفة في بعض أجزائها وقد أزيلت مساحات منها هنا وهناك لمحاولة الزراعة، ووصلنا فيما يليها إلى بئر وإلى قرية دار السودة. كان يستريح هناك حاج حضرمي من حجرين حين وصولنا، ومعه خادمه، وقد توقفت أيضاً لأمنح مرشدي من حلي فرصة لالتقاط الأنفاس لأنهم كانوا مرهقين. كانوا عبيداً لإبراهيم غير أنهم لم يكونوا راضين بالسير بسرعة هذه الحمير البطيئة، كما كان حال المرشدين الهلاليين في البرك، الذين وصلوا معي إلى حلي عصر الأمس وقد أرهقوا تماماً. يجب عليَّ أن أعترف بأنه لم يكن من الضروري من جانبي أن أهتم بجانب هذه المسيرات التي أقطعها مشياً على الأقدام. كان الحضرمي ورفيقه قد سارا على الأقدام كل الطريق من ميدي، حوالي مئتي ميل، ولا يزال الطريق أمامهما طويلاً -كل هذا لأجل توفير جنيهين استرلينيين ذهبيين، بالرغم من أنهما قد سافرا بحراً من المكلا إلى ميدي، وكان بالطبع عليهما دفع أجرة ذلك. كان معظم سيرهم على الأقدام يتم ليلاً، ويرتاحان أثناء فترة حر النهار.

كانت دار السودة واحدة من مجموعة القرى الصغيرة على الحافة الجنوبية لوادي يبة الرئيس وهو وادٍ ضيق جداً وغير ذي أهمية كخط صرف. تتكون بقية القرى الصغيرة من دبه -(٥٠٠) ياردة إلى الغرب- وحويرث -تقع إلى البعيد

ناحيـة الشمـال الشرقي- وقريات القـدَّة -وهذه مجـموعة من سـت عشش على الجانب الأيسر للمجرى-. تسيطر هذه القرى فيما بينها على مساحة حقول كبيرة، غير أن محاصيل الدخن قد فشلت في هذه المنطقة هذا الموسم وكل ما شاهدته كان أعواداً وأكوازاً جافة وميتة.

وصلنا إلى العرجـا فيمـا يلي المجرى، وحـزام سميك من السـواد والطرفاء وبعض الأثل، وهي قـريـة بائسـة من عـشش من الوتل وأعـــواد التبن في وسط محاصـيل دخن محتضرة، كـانت أبقار القرية ترعى داخلها بارتيـاح مع مئات من طيور بلشون البـقر المتفرج. رأيت هنا ثلاثة من طيـور الشقراق الأثيوبي، مضـيفة بذلك أميالاً إضافية للمدى الشمالي لها.

على الرغم من بؤس مظهر عرجة إلاَّ أنها فيما يبـدو تعد عاصمة مقاطعة دلتا يبه، التي ينتمي ساكنوها إلى قبيلة بني يعـلا، التي ربما كانت لها علاقة مع حرب قبيلة البـدو العظيمة، وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من الحصـول على معلومات كثيرة حول هذا الموضوع من الشيخ محمد، الرئيس المحلي، الذي وجدته مشغولاً مع القاضي في إعـداد قائمة جرد مـحلية للكتب القديمة، التي كـان يمتلكها يماني متدين توفي حديثاً في القرية[١].

صدرت الأوامـر بأن ممتلكات المتـوفي يجب إرسالهـا إلى القنفذة للتـخلص منها[٢]. كان الشيخ محمد لطيفاً بأن ينظر في احـتياجاتي أثناء قيامه بهذا العمل،

---

(١) هذا مما يدل على أن هناك نشاطاً علمياً، ونحن لا نستبعد وجود مثل ذلك؛ لأن هذه البلاد دائماً مطروقة بالحجاج والعلماء الذاهبين والآيبين بين الحجاز واليمن. (ابن جريس).

(٢) من المؤسف حقـاً أن كثيـراً من الناس قديماً لا يقدرون أهمـية الكتب والمخطوطات فتـراهم لا يحافظون عليها وسريعاً ما يتخلصون منها بالحريق والإهمال. (ابن جريس).

ونتيجة لـذلك فقد أمكنني أن أواصل رحلتي خلال أقل من ساعة ومـعي مرشدان جديدان محليان، كان أحـدهما يمتلك حماراً ليركبه وكان أصـلاً عازماً على القيام برحلة لأجل المتعة إلى القنفذة. كان أصدقـائي المرشدون القادمون من حلي سعداء جداً بعودتهم إلى أوطانهم وقـد دفعت لهم أجورهم. تقدم الشيخ محمـد بقحفة ماء طلبـتها منه، غيـر أنه لم يبذل أي مجهـود آخر بدافع الضيافـة والكرم، وقد عزيت ذلك للفقر المدقع إذ إنه رجل لطيف محبوب.

تقع معظم الأراضي الخصـبة من العرجا وشمـالاً مسافة ميلين، التـابعة لدلتا يبه، وقد انتشرت في المنطقة الزراعية العديد من القرى الصغيرة الفقيرة، بينما تقع بلدة السوق المحلي على الطريق على بعد نصف ميل من العـاصمة، ويسمى سوق الربوع (سوق الأربعـاء). تقع قرى أم النور وسوَّادة وكـياد[١]، على يسار الطريق من العرجا إلى السوق، الذي يتكون، من ساحة مربعة واسعة وبه أكشاك مستطيلة تعيسـة مسقوفـة بالتبن ولا توجد مساكن. تقع قـرية (أبو قرين) فيمـا يلي مجرى سيل نحيل على يميننا، وتكون قريتا (أبو رخم وأم الصرة) على اليسار.

كانت هذه هي القصة الكامـلة لقرى بني يعلا التابعة ليبا، غـير أن المساحات المزروعة التي تـسيطر عليهـا هذه القرى الصـغيرة تمتـد إلى أكثر مـن الميل الواحد شمالاً من أم الصـرة ويعترضها مـا لا يقل عن ستة جداول لمجـرى السيل. كانت المحاصـيل هنا محـتضرة غـير أنه توجد بعض الحـقول الجـيدة من الذرة والدخن وبعض مـساحـات السمـسم، والمدهش تمامـاً تلك المسـاحات المزدهرة المتـباعـدة

---

(١) أم النور، وسوّادة، وكياد، والفقهاء هذه قرى متـقاربه بعضها مع بعض في منطقة القنفذة، مع أن فيلبي ذكـر بعضـها بصـورة غيـر سليمـة فأورد قـرية أم النور باسم (منصـور)، وسوّادة باسم (سـواد). (ابن جريس).

والمنقطعة للقطن وقد ظهرت أزهاره الصفراء الآن. يسمون النبات عتب ويجنون اللوزات الطازجة في موسم الحصاد بالطريقة العادية للاستخدام المحلي، غير أن النبات معمر ولا يقتلع من جذوره كما يفعلون في مصر. وقد ينمو النبات في بعض المواقع الجيدة حيث توجد طبقات من السلت والطين قريبة من مدى تأثير السيل، إلى حجم الشجرة، وينتج السنة بعد الأخرى منتجات ذات قيمة مع جهد بسيط - عبارة عن عمل حاجز صغير ليحجز الماء وربما أيضاً عمل جداول صغيرة ليجري عليها الماء حين سيلانه. كان لابد أن يكون أهل هذه المنطقة في حالة أحسن ازدهاراً عما يبدون عليها إلاَّ أنهم وبالتأكيد لا يصرفون الكثير من العمل أو المال في تحسين ظروف حياتهم المنزلية.

يجري الطريق إلى مسافة فيما يلي آخر آثار هذه الدلتا المزروعة، فوق كثيب رملي طويل متعارض يمتد إلى مسافة نصف الميل إلى اليمين والى اليسار. توقفت قليلاً فوق قمته لأطل على مباني القنفذة التي لا تزال على البعد ناحية الشمال الغربي عند حافة انبعاج غربي لشريط الساحل. تقع جزيرة صغيرة مسطحة مباشرة إلى القرب من موقعنا وقليلاً إلى خارج الساحل، وكان بقية المنظر هو مساحة الدلتا من حولي وهي تتحلل شمالاً داخل غابة السوَّادة التي تتخللها شرائط من شجيرات صحراوية خفيضة، وتتغلغل فيها تربة سبخية من جهة البحر. يجري في هذا القسم الشمالي ما لا يقل عن أربعة مجاري سيول، كلها ضحلة وضيقة وتعترض طريقنا في اتجاه البحر، الذي يبعد الآن مسافة ميل واحد. تقع مساحة عارية من كثبان رملية فيما يلي آخر هذه المجاري والتي قررت -وقد كادت الشمس أن تغرب- التوقف عندها لقضاء الليلة حتى نكون على درجة من النشاط والحيوية ونحن ندخل في الصباح إلى عاصمة المحافظة، التي تبعد عنا الآن بمسافة (٥) أو

(٦) أميال. كان هذا قراراً جيداً وذلك لأن جمال الأمتعة لم تصل إلاَّ عند الساعة السابعة والنصف مساءً، وقد استلقيت على الرمال الدافئة الناعمة لأرتاح حتى وصولهم، وقد عاودتني الحمى مرة أخرى.

تغلبت على الحمى بالنوم، وصحوت وأنا على أحسن حال وبدأنا الرحلة الساعة السابعة والربع صباحاً فوق أمواج الكثبان الرملية، وكان مجرى السبخة موازياً لطريقنا وعلى يميننا، وبدأت الصحراء ذات الشجيرات الخفيضة فيما يلي السبخة وحتى شريط التلال. كنا مرة أخرى قريبين جداً، ونحن على حافة الانبعاج لشريط الساحل، من البحر نسير فوق رف صعب من الشعاب المرجانية التي يوجد على امتدادها وعلى حافة البحر، خط رفيع من شجر النخيل يسمى القنع ولعله واحة بائسة صغيرة مهملة بلا سكان في ما حولها من الجوار. كانت هنالك حدأة في عشها فوق واحدة من أشجار النخيل، كما كان هنالك بعض طيور الكروان فوق الخليج والمئات من طيور البحر وهي مشغولة بصيد الصباح. كان هنالك الكثير من نبات الحلفاء في مزارع النخيل وعلى امتداد شريط الساحل، كما كانت توجد مجموعة صغيرة من أشجار النخيل على يميننا ونحن ندور لنتجه مباشرة إلى القنفذة فوق الدلتا النموذجية لوادي قنونة وبه خطوط الصرف العادية تسيل إلى أسفل فوق السهل الرملي الذي تكسر هنا وهناك بمساحات من السبخة والبرك العديدة ذات المياه المالحة أو ذات مياه البحر.

عبرنا ما لا يقل عن ستة من هذه المجاري المعترضة قبل أن نصل إلى أولى حقول الدخن، وتقع قرية نسلي الصغيرة خارج الطريق وعلى يميننا. اتسع نطاق الزراعة بعد أن مررنا بقرية القاع وقد عبرنا جدولين للمجرى تفصلهما غابة طرفاء. ضربنا فيما يلي هذا على الطريق المطروق الذي يقود من القنفذة إلى نسلي

مع قوافل ضخمة من الجمال والحمير وهي مقبلة ومدبرة وعليها صفائح الماء الفارغة التي تملأ من أفضل آبار المنطقة في وادي هارون، كما يسمون مجرى السيل الذي يجري ماراً بالقرية. يقود هذا الطريق السريع عبر غابة طرفاء أخرى ثم إلى مساحة واسعة لزراعة الدخن تمتد حتى حدود البلدة. مررنا بقطعان ضخمة -ونحن نسير إلى الداخل- من الجمال والضأن والماعز، متجهة ناحية مراعي الدلتا. عبرنا -أخيراً- مجرى السبخة الضيق لندخل إلى بلدة القنفذة خلال شارع متعرج من العشش.

وصلنا إلى الجبهة البحرية خلال خمس دقائق وسرعان ما ترجلنا عن الدواب عند مداخل منزل الحكومة. كان عبدالله بن مبارك -بعون الله ثم بإذن ابن سعود- أمير القنفذة، يرأس المجلس حين وصولنا، غير أنه أمر بانصراف حشد موكله وخصومه وانصرف لقضاء حاجاتنا وتلبية مطالبنا، وقد نصحه بذلك الملك عن طريق برقية وصلت إليه يوجهه إلى ذلك، مع توجيه بالإسراع لرحلتنا لأقصى حد ممكن. تطلب هذا تدبير المرشدين والمواصلات، غير أنه يوجد الوقت الكافي لهذا كما قررت، علماً بأن الوقت كان العاشرة صباحاً عندما وصلنا، لنتمكن من قضاء بقية اليوم وكذلك الليلة هنا لنرى أكثر ما يمكننا رؤيته من هذا الموقع المهم نسبياً.

أعد منزل لضيافتنا أثناء ما كنا نحتسي القهوة مع الحاكم ونأكل التمر، وجدت نفسي عند الظهر داخل بناء إضافي من الخشب فوق سطح أحد المباني المبنية من الشعاب المرجانية وهو أحد المباني التي تقع على امتداد الجبهة البحرية التي هي متنزه القنفذة، بينما شغل رفاقي الغرف في الطابقين أسفل مني. كان المنزل واحداً من بين العديد التي تكون الجناح الإداري والتجاري ومقر سكن الطبقة الراقية ويقع عند الطرف الشمالي للبلدة، وبخاصة على امتداد الجبهة البحرية، مكشوفة للرياح الشمالية الباردة القادمة من البحر الأحمر.

كان هذا الجناح كثير الشبه مع جدة، ولكن على مقياس صغير، وكانت المنازل مبنية من بلكات شعاب مرجانية مربعة أصغر حجماً من تلك التي تستخدم في جدة. تعرجت البلدة وانتشرت من هذا التحصين من ناحية الشمال واتسعت جنوباً إلى مسافة (٨٠٠) أو (٩٠٠) ياردة في مجموعات من العشش المبنية من الوتل أو من سعف النخيل، مما يوحي بالانطباع بأنها قرية كبيرة غير منتظمة أكثر منها بلدة. كانت عشش القسم الأكثر فقراً من السكان، على ضواحي القرية مهجورة وبائسة بما يفوق الوصف. وعلى عكس هذه فإن أحسن المنازل كانت في الحي التجاري ذات واجهات فخمة مطلية بالجبس، وتدل على درجة عالية من الازدهار والتطور. توجد مساحة كبيرة خارج مباني الرئاسة الحكومية، تؤدي وظيفة المستودع للبضائع التجارية التي تترحل من البحر مع حاجز للماء معوج يمتد من الساحة إلى جزيرة صغيرة تنمو عليها غابة المانجروف لتلقي حماية أكثر للميناء الداخلي للبواخر الشراعية الخفيفة التي تقوم بنقل مثل هذه البضائع من بواخر ترسو بعيداً عن الساحل. يوجد المرسى الواسع على الجانب الجنوبي للنتوء البحري الذي تقف فوقه البلدة، والذي يمكن أن ترسو فيه مراكب الدهو والسنابك في أمان[١].

كان السوق في قمة نشاطه عندما مررنا به ويبدو أنه غني بالبضائع المحلية والمستوردة. يختلط هنا الحرير مع الأناناس الياباني المعلب، مع البضائع التي تباع

---

(١) بلدة القنفذة جمعت بين العمارة المبنية من القش والأشجار، أو الطين والجبس البحري، وكانت خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) في وضع اقتصادي وحضاري جيد مقارنة بالبلاد المجاورة لها من الشمال والجنوب على الشريط الساحلي للبحر الأحمر، والممتد من الليث شمالاً إلى جازان جنوباً. (ابن جريس).

بالقطاعي والمستوردة من مانشستر، والخردوات المستوردة من برمنجهام وشفيلد، دون ذكر شيء عن المنتجات الألمانية والإيطالية وغيرهما من البلاد الأوروبية. كانت تجارة البلدة في أيدي الهنود والحضارمة، وقد قيل لي إن هنالك حوالي ثلاثين أسرة هندية وخمسين أسرة حضرمية مقيمة في البلدة وتعتمد على التجارة. الغريب في الأمر، أنه لا يوجد أثر للإغريق ولا اليهود ولا أي عنصر أوروبي آخر، ويمثل البيوت التجارية الأوروبية القائمة في جدة مندوبون محليون لها هنا. كان بقية السكان من العرب معظمهم مقيمون جاؤوا من قرى مقاطعة وادي قنونة، وبلا شك تتخللهم عناصر من مناطق أبعد من ذلك. تكون قبيلة بني زيد حرب القبيلة الرئيسة في وادي قنونة[١]، وهو شريان الحياة الرئيس في المقاطعة، بينما يتبع وادي لومة إلى الشمال، قبيلة بني زبيد، أيضاً يتبعون حرب.

يقع وادي غمم بين هذين الشريانين، ويتبع قبيلة الزيالعة وهي تحت قسم لبني زيد، بينما يتبع وادي الأحسبة[٢]، إلى الشمال من لومة، أرض شريفان التابعة لقبيلة العبادلة، أشراف. تمد هذه الأودية بلدة القنفذة بكل ما تقوم بتصديره مقابل استيراد كل الكماليات والعديد من ضروريات الحياة، بالاسم، الأصواف والجلود والزبدة، ونوعي الدخن والسمسم. تنقل هذه البضائع بمراكب الدهو الشراعية أو بالباخرة إلى جدة، والحديدة، وعدن، حيث يتداولها تجار أكثر تأثيراً لإرسالها إلى محطات وصول أخرى. أخبرني الأمير أيضاً عن جبل يسمى شضعة في مرتفعات ضافر إلى الشمال من القنفذة عند رأس وادي لومة، حيث توجد

(١، ٢) للمزيد عن وادي قنونا والأحسبة، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص ٢١٠ (ابن جريس).

قرى عديدة تقوم بإنتاج البن والتين والعسل إلى جانب الدخن، ومن غير المحتمل أن ثلاث المواد الأولى تدخل السوق على مستوى تجاري.

يوجد في القنفذة ثلاثة مساجد ولا توجد بها مبانٍ أخرى عامة ذات مغزى، وكان من أبرز قاطنيها في هذا الوقت من حيث الأهمية الدينية في شمال أفريقيا هو الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، رجل دين، لجأ إلى الجزيرة العربية أثناء الحملات الإيطالية في ليبيا وعاش بعض الوقت في مكة. وظف خطبه الدينية هناك على خطوط سياسية ضد الأوروبيين وقد دعاه الملك للحضور والبقاء في القنفذة لتجنيبه تبعات هذا الاتجاه، بصفته ضيفاً محترماً على الحكومة[١]. كان من ضمن الحضور لمجلس الأمير الصباحي، الذي اعترضه وصولنا ولربما كان فض المجلس إذعاناً لرغبته، فإن الأمير، لفت أنظار الحضور إلى الحالة البائسة التي بدت عليها مساجد القنفذة في الأيام الأخيرة وأن الحضور لأداء الصلاة فيها كان غير كاف وأن على الناس أداء الصلاة جماعة.

وصل إلى القنفذة بحراً الفرنسيان اللذان ورد ذكرهما من قبل فيما يتعلق بجازان، وهما (إي كومبس وم. تاميزيه) قادمان من جدة في السابع عشر من فبراير ١٨٣٥م، وقد وجداها مكاناً ذا أهمية ضئيلة، تتاجر فقط مع جدة. كانت

---

(١) الشيخ محمد الأمين الشنقيطي جاء إلى بلدة البرك مع ولديه مصطفى وطه وزوجته قادماً من جازان في عام (١٣٤٣هـ)، وقد نزل في ضيافة أمير البرك، الحسن بن علي بن عبده، ومكث بها حوالي ثمان سنوات يقيم الجمع والجماعات ويعلم الناس أمور دينهم، ثم ذهب إلى جازان مع الأمير ابن زعير أثناء محاصرتها من قبل الإدريسي، وأخيراً عاد إلى منطقة القنفذه ليعمل بها قاضياً في عهد الملك عبدالعزيز حتى توفاه الله، وكان من علماء المالكية. مقابلة مع عبدالرحمن بن عبدالرحيم بن عبده في بلدة البرك خلال شهر المحرم عام (١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م). (ابن جريس).

مياهها جيدة إلى حد ما، غير أن مناخها، خاصة في الشتاء، كان ثقيلاً وغير صحي، يؤدي إلى أوجاع كثيرة منها الحميات، والدستاريا، والأسقربوط وكانت الكوليرا منتشرة في ذلك الوقت. علق تاميزيه فيما سجله عن جدة أنها أفضل موقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وأن القنفذة هي الأسوأ. ويعزى هذا إلى الرياح الجنوبية التي تهب باستمرار. كانت المنازل من الطين وكان يطوق البلدة سوار من الحجر. كانت هنالك حملة عسكرية يعد لها العدة ضد عسير أثناء فترة وصولهما، وقد غطت خيام الجيش مساحة رملية شاسعة مسافة نصف ساعة. تم اختيار محمد باشا للقيادة وكان يتوقع وصوله يومياً، كما اختار نائب الملك المصري إبراهيم باشا، شقيقه، لقيادة الحملة ضد صنعاء بعد انتهاء حملة عسير، وقد كان على رأس قيادة مؤقتة مع العديد من الأوروبيين الذين كانوا في خدمة الجيش على وظائف أطباء وكيميائيين وموجهين. تم تنفيذ الإعدام على جندي مصري هارب تم القبض عليه بجوار المعسكر متهماً بمحاولة الاعتداء على حياة إبراهيم باشا وقد أعدم بواسطة الخازوق، حيث ظل مدة ثلاثة أيام يعاني الآلام الشديدة ويسمع ويرى سخرية الحشد وإهاناته له. غادر المسافران القنفذة في اليوم الثاني من مارس بعد أن أقاما بها مدة أسبوعين.

ارتفع صياح الديوك عند الفجر الذي غمته السحب عندما صحوت من نومي الساعة السادسة صباحاً لأجد رفاقي وهم عاكفون على الإعداد لرحيل حيوانات قافلة العفش. يصحب هذا الاحتفال بالضجيج المعتاد حول الحصول على المرشدين الضروريين وحتى إذا تم الحصول على مرشد مناسب لمرافقتي فإنهم يكتشفون أنه ليس له حمار يركبه ولا بد من إيجاد الحمار. تحركت مجموعتنا في هذه الأثناء، وذهبت إلى الأمير لوداعه وقد دعاني إلى وجبة إفطار دسمة. تحركت عند الساعة

الثامنة صباحاً على ظهر الحمار نشق الطريق عبر ضاحية من الوتل تابعة للقرية تحيط بالجانبين الشمالي والشرقي للبلدة، لأخرج إلى أرض رملية تنتشر فيها شجيرات السواد ومساحات من محاصيل خفيضة. كنت أسافر فوق الطريق الأفضل من بين طريقين يقودان لليث[١]، بينما يخترق الطريق الآخر السبخة الساحلية ويحتضن الساحل. وصلنا إلى المجرى الرئيس لدلتا قنونة بعد أن عبرنا مجرى سيل صغير فيما يلي المساحة الصحراوية، وهي دلتا ذات بطن رملي واسع مزروع بالدخن بكثافة، وقد بدأ المحصول يظهر فوق السطح، بعد السيل الأخير، الذي وصل إلى البحر في هذا المجرى وفي غيره من المجاري الدلتاوية. قابلتنا في طريقنا قوافل منتظمة من الجمال والحمير وهي تحمل الماء من بئر أم الجرم التي وصلناها بعد (٤٠) دقيقة من السير المتواصل. كانت مياهها مشهورة كمياه نسلي إلاَّ أنها أبعد. مررنا بقريتين صغيرتين هما ربيعة ودار الوادي قبل أن نصل إلى البئر، وكانت كلتاهما تقع بالقرب من الطريق في وسط مزارع كثيفة.

تقع مجموعة من القرى فيما يلي البئر، منها قريتا رجبان وفقحه على يميننا ويسكنهما أناس من شمال إفريقيا وقرية سفاسف على الجانب الآخر، ولربما كانت قرية خارجية لبني زبيد. كانت كل هذه البلاد من رمال خفيفة تصلح فقط لزراعة الدخن وتخترقها بعض مساحات من غابة السواد أو مساحات من الصحراء تنمو فوقها نباتات العلقى. يجري الطريق فوق أرض رملية ثابتة، غير أنه يوجد ضباب غباري فوق الأرض وفوق التلال البعيدة التي أصبحت غير واضحة. تكسرت

(١) للمزيد من التفصيلات عن بلاد الليث انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٤٤، ٢٦٥ ـ ٢٧٣. (ابن جريس).

البلاد إلى عدد من الكثبان الرملية فيما يلي آخر جداول وادي قنونة، وحتى هذه الكثبان قد وصلها المحراث وبذر عليها الدخن على أمل هطول أمطار متأخرة لإنضاج الحبوب. حددت سلسلة رملية متعارضة الحدود بين دلتا قنونة ودلتا الغميم. كانت الدلتا الأخيرة هذه صحراء ذات شجيرات خفيضة مع بعض أشجار الطلح المظلية الشكل وشريط مركزي من الدخن حول قرى كل من جدعان ومنزا وآل بخيت وشعال. وتعتمد الزراعة هنا على الأمطار وذلك لعدم وصول السيول إلى هذه المنطقة.

دخلنا إلى دلتا لومة وأرض بني زبيد فيما يلي شعال، كان الجزء الأول منها سهلاً جذاباً معشباً، تكسوه أزهار الربيع الصحراوية بما في ذلك نبات المداد ذو الأزهار البيضاء. رأينا هنا غزالة حمراء اللون شديدة بحمرة مقارنة بغزلان الصحراء وهي أشبه ما تكون بالإيل السمراء. كما كانت هنالك طيور الهدهد تبحث في التربة عن الديدان بينما كانت تشاهد كل من الحمامة الصحراوية وأبي الحناء وأصناف أخرى من القنابر. كانت طيور العوسق متوافرة أيضاً، تبحث عن الجراد، كما شاهدت طائر الشقراق الحبشي مرة ثانية في وادي الأحسبة. كان هذا هو أقصى مدى شمالي –ما عدا وادي دوقة حيث رأيت به زوجاً منها– رأيت فيه هذا الطائر، وهو بلا شك يصل نطاقه إلى وادي الليث وليس فيما يليه، لم أشاهده إطلاقاً حول جدة ومكة. أدركتُ جمال قافلة عفشنا في هذا السهل، وكانت تسير مدة أربع ساعات غطت خلالها مسافة عشرة أميال. غطيت ومرشدي المسافة نفسها في ساعتين وربع الساعة وأعتقد أن حميرنا كانت تسير بسرعة تقل عن خمسة أميال في الساعة.

لم يكن مجرى وادي لومة ولا حتى روافده المساعدة لافتاً للنظر، وذلك لأنه كان مخفياً داخل النموات الكثيفة للطرفاء التي تغطي مركز الدلتا، غير أن الوادي قد فاض وأن المساحات المزروعة فوق هذه المنطقة بدأت أكثر ازدهاراً مقارنة بحقول وادي الغميم. توجد قريتان صغيرتان في هذه المنطقة كلها، هما عبيدة وسليمة. استمرَّ السهل المعشب فيما يلي الوادي ويطلق عليه اسم مثن وينتهي في سلسلة متعارضة منخفضة يعلم حدود دلتا وادي الأحسبة. شاهدت ثعباناً ميتاً على الطريق، لا بد أن يكون قد تم قتله بواسطة أحد عابري السبيل، كما كان السهل مغطى بالجمال الراعية التابعة لبني زبيد[١]. استمرَّ السهل لمسافة فيما يلي السلسلة، وتحول إلى غابة طلح خفيفة تلاها حزام من سواد وطرفاء قريباً من المجرى الفعلي لوادي الأحسبة. تقع قريتان صغيرتان على مسافة ميلين إلى يسار طريقنا هما عقرة وفواز، أولاهما قرية كبيرة بشكل لافت للنظر في مثل هذه الأنحاء، والأخرى تتميز ببناء شبه القلعة لإقامة الشريف الرئيس لقبيلة العبادلة واسمه عبدالمنعم، يبلغ عرض المجرى الرئيس لوادي الأحسبة مئتي ياردة وفي وسطه بطن وادي عرضه عشرين ياردة، وبه جدول جار. يشتمل هذا الوادي على غيل جاري، غير أن ماءه الآن هو ماء السيل وكان بداخله مجموعة من الرجال والنسوة يشرفون على سقي مواشيهم.

(١) نبوزبيد: هم أكثر قبائل حرب في هذه النواحي عدداً، وأكثرهم فروعاً، وكانت فيهم مشيخة كافة حرب إلى القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) ومن فروعهم ما يلي: العصلان، والرواشد، والجدعان، والمزاريع، واللبدة، والكوامل، والمراعية، والزواهر، والأحامدة، والتومان، والملاوحة، والسرحة. (ابن جريس).

تقع قرية ثالثة تسمى الشعيرة[١] إلى الخلف بعيداً عن الطريق، وعلى يسارنا على الجانب البعيد للوادي، ومررنا فيما يليها مباشرة إلى داخل غابة طلح كثيفة ترتفع أشجارها إلى (١٠) أو (١٢) قدماً. تمثل هذه الغابة والسهل المعشب الضيق الذي يليها مقدمة لوادي شغاض، الذي يُكَوِّن مع وادي نصيري الذي يليه مباشرة عدداً قليلاً من المجاري الصرفية، تنحدر فقط من التلال وهي جافة تماماً الآن. كانت هنالك زراعة خفيفة حول قرية الحدبة التابعة للعبادلة وكذلك حول قرية الرواشد التابعة للمحبة على وادي نصيري. يتبع قبيلة الرواشد لبني زبيد ويحتلون الوادي التالي، واسمه وادي نخوان، على بعد الميل الواحد من نصيري، توجد هناك قريتان هما العقدة والخربة على جانب المجرى وبعيداً عنه قليلاً، ينحدر هذا الوادي من سفوح شضعة إلى الخلف ويضارع في أهميته الأودية الكبيرة إلى الجنوب وكذلك مع وادي قرماء[٢] على بعد ميلين ناحية الشمال الذي ينحدر أيضاً من المناطق العالية لسفوح قرماء. يصب في هذا الوادي سيول منتظمة بالتأكيد، وظهر تأثيرها بوجود تلك المساحات الواسعة المزروعة بالقطن حول قرية العقدة إلى جانب محاصيل ممتازة للدخن، دون ذكر شيء عن غابة القضب والطرفاء حول المجاري الفعلية، كانت في أولاها مزارع مزدهرة للذرة وبعض حقول السمسم. يقع المجرى الرئيس بين جانبين على ارتفاع عشرة أقدام من الرمال، غير أن المزارع فيما يليه أصبحت خفيفة حول قرية خربة وأفسحت المجال إلى غابة طلح خفيفة. ظهر القطن مرة أخرى فيما يلي الغابة في مزارع صغيرة جذابة حول قرية عقبين المنتشرة.

---

(١) قرية الشعيرة: تسمى أيضاً (قرية الحرف)، وهي قرية لبني شهاب الشامي لبلدة دوقة. (ابن جريس).

(٢) وادي قرماء: هو واد صغير بالنسبة إلى ما يجاوره من أودية، فهو قصير المدى، تنظر إلى مسائله من الساحل. (ابن جريس).

كنا لا نزال داخل أراضي الرواشد، وكان في إحدى قراها مقر الشيخ الرئيس واسمه عبدالرحمن. كان بحكم المنصب رئيساً للسوق المحلي في المضيلف - وتسمى أيضاً سوق الأحد أو سوق قرماء على اسم الوادي الذي يليها-. كان اليوم هو يوم الأحد، وعليه توقفنا قليلاً هنا لإلقاء التحية على الشيخ ولرؤية السوق إبان نشاطه. لم يكن أياً من التجربتين مبهجاً، وذلك لأن الشيخ كان يحصر في أوقات فراغه أرباحه في المبيعات التي جرت أثناء اليوم، بينما بدأ السوق يضمحل ليسمح للبائعين والمشترين بالعودة إلى قراهم الصغيرة لأداء صلاة المغرب. كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً حينما وصلنا إلى هذا الموقع، ولم يبق في السوق شيء، غير قليل من الضأن ينتظر به لحظة البيع الأخيرة، غير أنني قد علمت أن الدخن بنوعيه قد عرض للبيع في السوق بمقابل (٥,٥) أصْوع للريال الواحد -أي (٤٥) رطلاً مقابل سدس من نقودنا-.

لم يصر الشيخ على بقائنا بعض الوقت ليقوم نحونا بما يمليه عليه الكرم والضيافة، وواصلنا سيرنا إلى المعسكر في وادي قرماء. مررنا بقرى شنانيع المبعثرة وتقع قرية بحرة إلى الخلف على يميننا، وفعلياً داخل الوادي أو على جانبه الأيسر. كانت هنالك حقول عديدة مزدهرة في كل هذه المنطقة مع الكثير من الذرة، وكانت بلاداً لطيفة كما يتمناها المرء. وصلنا وادي قرماء بعد غروب الشمس، لنعسكر فوق حاجز عريض من الرمل يطل على حقل قطن كبير. لم تصل قافلة الأمتعة إلاَّ بعد ساعتين. استرحت في هذه الأثناء وقد هجمت عليَّ فورة من الحمى خفيفة، وقد تخلصت منها عند الساعة التاسعة مساءً بما فيه الكفاية لأستمتع ببعض طعام العشاء، عمدت بعد ذلك لدراسة الفلك، ولبعض القراءة. ثبت لي أن القراءة مستحيلة. لقد أحاطت مئات الحشرات بمصباحي وكان عليَّ أن أقوم

بإطفائه في نهـاية الأمر، لأريح نفسي من هذا الإزعـاج. كانت كل مسـيرتنا من القنفذة ملوثة بأسـراب الذباب الصغير، ومررنا بالتـجربة نفسهـا في اليوم التالي، غير أنها لم تكن ضارة لإنسان أو حيوان، فقط إزعاج ثانوي.

وجدت كل شيء مبتـلاً في الصباح بسبب الندى، كمـا كان اليوم ذا سحب ومملاً، غير أن الرؤية كانت أفضل وقـد تمكنت من رؤية سلسلة الجبال الرئيسة من المعسكر، قـبل بداية السير، وقد بدت أكـثر قرباً لنا مما سـبق. لقد تمكنت من أن أضم إلى خـدمتي خـدمات أحـد المرشدين، وذلك بـاستـغلال مـقابلتي للشـيخ عبدالرحمن في المضيلف[١]، من بين مواطني قبيلة بني زبيد المحليين (الرواشد)[٢] وقد كان أكثر علماً من مرشدي الذي رافقني من القنفذة، الذي أصبح جاهلاً بكل شيء بمجرد أن خـرجنا من منطقة بلاده، لـقد طردته، وقد بذلت قـافلة الأمتـعة جهدها لتـتحرك عند الساعة الرابعـة صباحاً. وقد كـان رفاقي قلقين للوصول إلى مكة في الوقت المناسب للحج. وجـدت علي بن أحمـد ومعـه الحمـير في وادي قرماء ذلك الصباح، وامتطيناها عند الساعة الثـامنة صباحاً وتحركنا في متابعة قافلة الأمتعة. تمكنا من إدراك قـافلة الأمتعة عند الساعة الثانية ظهـراً، وقد كانت تسير في اتزان مدة عـشر ساعـات، وأعتقد أنهم غـطوا مسافة أربعـة وعشرين مـيلاً. استـغرقت المسـافة بالنسـبة لي ولمرشـدي ست ساعـات، بما في ذلك التوقـفات للملاحظات، لنغطي المسافة نـفسها، وهذا يعطي حميرنا سرعـة سير تقدر بـ (٤,٥)

(١) اسم المضيلف: يكتب ويلفظ أحـياناً بهذه الطريقة، وأحيـاناً أخرى يكتب ويلفظ باسم (المظيلف). (ابن جريس).

(٢) الرواشد: ومـفردهم راشدي، وهم فرع من قـبيلة زبيد الحـربية، ويسكنون منطقة ناوان قـرب المضيلف، غرب الطريق الساحلي. (ابن جريس).

أميال ونصف الميل في الساعة. لقد جمعت من علي معلومات مفيدة إلى جانب تسجيل معالم الجوار، وذلك قبل مغادرتنا للمعسكر.

إن قرماء -منبع وادي قرماء- هي كتلة صخرية ضخمة في التلال العالية على الجانب القريب من السلسلة الرئيسة التي يمكن رؤية خطها العام وسماتها البارزة بالرغم من أن عليّاً لم يستطع تعريف هذه السمات، غير أنه أعطاني فكرة جيدة عن المقاطعات القبلية التي تقع فيها. ينتمي الجزء الأسفل (تهامة) من السلسلة الذي يتألف من قرماء عند طرفها الجنوبي، ونخرة عند نهايتها الشمالية، إلى جانب سمات بارزة أخرى مثل مسيلة وربعة في الوسط، بكاملها إلى عناصر متباينة من قبيلة زهران[١]، التي يقع مركزها في السلسلة الرئيسة إلى شمال قبيلتي بللسمر وبللحمر[١].

كنت قد رأيت هذه المقاطعات القبلية الأخيرة وهي تمتد شمالاً من ممر شعار الذي يصعد طريقُه طريقي القنفذة والقحمة اللذين يلتقيان في محايل، إلى الجرف الرئيس في الطريق إلى أبها. تزعم القبيلتان أنهما مستقلتان عن أي قبيلة أخرى، على الرغم من أن احتمال كونهما فرعين ثانويين لقبيلة زهران أمر وارد. إن قرماء نفسها أرض تابعة لقبيلة حرب، وتنتمي إلى بني زبيد، غير أن الدحو، وهي القمة التالية إلى الشمال، تتبع لـ آل فلاح قسم بللسمر[٢]. نجد آل حسن (زهران) إلى

---

(١) هذه المعلومات غير صحيحة؛ لأن بلاد زهران تبعد إلى الشمال من بلاد بللحمر وبللسمر بحوالي (٣٠٠) كيل، وتوجد بينها عدد من القبائل الكبار مثل: (من الشمال إلى الجنوب) غامد، وشمران، وخثعم، وبلقرن، وبنو عمرو، وبنو شهر، وكل واحدة من هذه البائل تساوي قبيلة زهران أو بللحمر أو بللسمر في المساحة وعدد السكان. (ابن جريس).

(٢) آل فلاح: يتبعون لقبائل زهران وليس بللسمر كما ذكر فيلبي. (ابن جريس).

الشمال من الدحو، وداخل المرتفعات السفلى، عند مسيدة ونجد كلاً من آل سويدي وبدين بالتتابع على نخرة وربعة وكلاهما تحت قسم لبني سليم، الذين يكونون قسماً آخر من قبيلة زهران[١]. لا أستطيع تعريف موقع شضعة بالتحديد المؤكد، بالرغم من أنه قد أشير لي ناحيتها أكثر من مرة، وأعتقد أنها تل مزدوج القمة إلى الشمال من قرماء وقريب من السلسلة الرئيسة، إلاً إذا كانت قمة عالية إلى البعيد ناحية الشمال، والتي ذكر لي علي أن اسمها حضا، والتي توجد قرية كبيرة على سفحها تسمى الهجرة. لا بد أن تكون هذه القرية قريبة جداً من السلسلة الرئيسة إن لم تكن كتفاً فعلياً لها.

امتطينا حميرنا، بعد أن قمنا بدراسة الجغرافيا المحلية، وسرنا عبر حقول القطن التي وجدت في بعضها خليطاً مع الذرة. تقع أرض رملية متموجة فيما يلي الحقول مع بعض المساحات للذرة، زرعت على احتمال سقوط المطر وحواجز من حين لآخر من كثبان منخفضة تعترض طريقنا. عبرنا في وسطها -وهي تمتد مسافة ثلاثة أميال شمالاً وجنوباً- منخفضاً يسمى خبت الدوايا وبه انتثرت شجيرات القضب وأشجار العلب، غير أننا لم نجد أثراً لمجرى صرف، حتى وصلنا إلى ربوات لطيفة مكسوة بالعشب تمتد إلى حافة وادي دوقة الجيد الأشجار. مررنا في خبت بثقوب سراجع المائية وسط مجموعة من أشجار الطلح عند موقع يتفرع فيه طريق جانبي شمالاً من الطريق الرئيس ليقود إلى أرض بني صحاف[٢] (بني زبيد)

(١) هنا خلط شديد في تدوين المعلومات، ونسبة بعض القبائل إلى غير أنسابها، ومواطنها الرئيسة، وأعتقد أن فيلبي اعتمد على بعض مشاهداته في تدوين هذه المعلومات، أو أنه أخذها من راوية جاهل لا يدرك ولا يعرف الخطوط الرئيسة لمواقع وأنساب هذه البلاد التي يتحدث عنها فيلبي. (ابن جريس).

(٢) بني صحاف: هم فرع من قبائل بني زبيد، وهذا الاسم الصحيح لهم، مع أن فيلبي ذكرهم باسم (بني صحاب). (ابن جريس).

عند رأس وادي دوقة، الذي ينحدر من ممر داخل الجرف الرئيس يقود إلى مقاطعة ضافر. كان البحر مرئياً لنا على فترات إلى اليسار على مسافة تقدر بميلين، وليست قرية أبو حنش (الرواشد) الصغيرة ببعيدة منه. تقع قرية مشرف الكبيرة إلى الشمال عن فم دوقة ويسكنها آل أمشيخ[١] التابعون لبني صحاف أو على أكثر الاحتمالات فهم فروع من القسم القبلي الرئيس الذي يبدو أنه يمتلك الوادي كله. تفصل سلسلة منخفضة من الروابي أراضي القسمين، بينما يقع فيما يلي سلسلة ثنية المشابهة وادي دوقة نفسه[٢]. احتوت كل هذه البلاد على مساحات تحت الزراعة وتعتمد في ذلك على الأمطار بالرغم من أنها قد تمت زراعتها فوق أرض قد تلقت مياه السيول. لا يحرث مثل هذه المساحات إنما تعزق فقط بعمود طوله ثمانية أقدام أو ستة أقدام، ملحق به لسان ضيق من الحديد.

كانت مياه السيول لا تزال جارية في وادي دوقة على هيئة جدول ضحل عرضه عشر ياردات على امتداد الجانب الرملي الأيسر، وتوقفنا هنا قليلاً لنسمح للحمير المجهدة بالشرب ولنفحص الموقع. يحتضن المجرى الفيضي الثاني الجانب الأيمن للوادي. كان بطنه مبللاً أيضاً إلاّ أن الماء توقف عن الانسياب فوقه، وأصبح على هيئة برك متقطعة عاطلة على امتداد مجراه. تفصل المجريين مسافة رملية عريضة ومقطعة إلى جزر بقوة السيول وتكسوها في بعض الأجزاء أشجار الطرفاء جيدة النمو.

---

(١) آل أمشيخ: يطلق عليه أيضاً اسم (آل الشيخ) وهي أسماء صحيحة. (ابن جريس).

(٢) وادي دوقة: يأخذ مساقط مياهه من سروات بلاد زهران، وترفده العديد من الأودية الصغار، وتقع عليه قرية دوقة، التي أصبحت مشهورة أكثر من الوادي، فالناس هناك لا يقولون (وادي دوقة) وإنما يقولون (دوقة، أو، بلدة دوقة، أو، قرية دوقه) وهكذا. للمزيد، انظر: عاتق البلداي. **بين مكة واليمن**، ص ٦٧ وما بعدها.

تقع قريتا شناصرة وذوي حرض على مسافة نصف ميل مع اتجاه الوادي من موقعنا وعلى الجانبين، بينما تقع بئر حميضة المهمة على مسافة ميلين أمامنا وعلى مسافة إلى الشرق من الطريق، وهي تغذي مساحة كبيرة، إضافة إلى القطعان والأسراب، بالماء في الأوقات العادية. يتخلل حزام من بلاد شبيهة بالمروج ومعشبة حقول الدخن العفوية التي تعترض بين وادي دوقة وأرض واسعة شبيهة بالمتنزه يكسوها الأثل والطرفاء، كل هذا كان فوق منطقة الدلتا ويهيئ مرعى ضخماً لقطيع كبير من الأبقار الصغيرة ذات الظهر المحمر اللون وترافقها طيور بلشون البقر مشرفة عليها. أقام تاجر حضرمي كشكاً على جانب الطريق في وسط مجموعة من أشجار الطرفاء للاستفادة من حركة الحجاج، غير أنه لم يكن في مقره حين مررنا بالكشك وذلك لأنه، قد بقيت أيام قليلة على الحج، فإن مرور الحجاج قد أصبح ضعيفاً. ولمحت امرأة من بين الراعيات وهي تقف محدقة أثناء مرورنا. كانت متنقبة، وكان غطاء رأسها عبارة عن مقلاة حديدية، لا بد أنها كانت تستخدمها لحلب الماشية عندما تحتاج لذلك. كشفت كل هذه البلاد عن آثار سيل حديث، ولقد لاحظنا على المجرى الضيق الذي تعترضه كثرة الأعواد والمخلفات التي حملها السيل وألقاها على الجانبين إلى مسافة معتبرة.

ارتفعنا قليلاً فيما يلي هذه الدلتا إلى سهل رملي يكسوه نبات الطفوان النجيلي وتنتشر فيه بعض أشجار الطلح. اندمج هذا مع ما بدا وكأنه مرعى سهوب ويسمى قرا بني صحاف وهي أرض مراع عظيمة، ذات غابة من الطلح والأراك. أمكننا رؤية جزيرة جبل الملح الكبيرة إلى البعيد على يسارنا -أو جبل المساعيد- ويفصلهما عن الساحل الفعلي مجرى عريض. توقفنا بعد فترة لأجل تناول وجبة الغداء فوق سلسلة متعارضة تفصل قرا بني صحاف عن سهل مماثل

يسمى حيثار ويكوِّن الحدود الإدارية بين محافظتي الليث والقنفذة.

تقع قرية الخيرة الصغيرة على النهاية المواجهة للبحر لهذه السلسلة على بعد ميل ونصف الميل، وهي قرية للصيد ولكنها تقوم أيضاً ببعض الزراعة العفوية في وسط مراعي حيثار، والتي كانت تنتشر فيها معسكرات بائسة لبدو بلا خيام. كانت قطعان الضأن والجمال ترعى في كل مكان. تسقى هذه القطعان عادة من بئر حميضة غير أنها وجدت الماء في كل مكان هذا الموسم بين وادي دوقة والشعب اليماني[١]، وهو الوادي التالي ذو الحجم المعتبر الذي يقع في طريقنا. يقع خطان للصرف بيننا وبين وادي الشعب اليماني ولهما أهمية محلية. يقع أولهما عند نهاية سهل حيثار إلى الشمال ويسمى وادي الأغر ويحتله بنو حسن من قبيلة الأشراف، الذين كنا قد رأينا قطعانهم ترعى في مراعي حيثار. تسيطر هذه القبيلة -بحق- على كل الساحل لمحافظة الليث والأودية التي تخترقه. ينحدر وادي الأعز من سلسلة نخرة والتي عند فحصها عن قرب بدت لي وكأنها من تكوين جرانيتي، وفي هذه الحالة، فمن المحتمل أن الجرانيت يستمر جنوباً إلى كل من مصيدة وقرماء. لم يكن الوادي نفسه سوى منخفض ضحل، تنمو عليه الشجيرات بكثافة غير أنه ليس به مجرى فيض واضح ولا يبدو عليه أنه تلقى أي مياه قريباً، سواء كان سيلاً أو أمطاراً.

---

(١) واديان يسمى أحدهما الشعب اليماني، والآخر الشعب الشامي. وهذا هو الاسم الصحيح لهذين الواديين، مع أن فيلبي ذكرهما باسم (الشقة اليمانية والشقة الشامية) وهذا اسم غير صحيح، لهذا التزمنا في المتن بالاسم الصحيح وبدّلنا ما ذكر فيلبي في هذه الصفحة والصفحات التالية. للمزيد انظر: البلادي. **بين مكة واليمن**، ص ٦٩ . (ابن جريس).

تمتد إلى ما يلي هذه أراضي براري بلا سمات واضحة مكسوة بحشائش صحراوية، إلى حافة أرض مشابهة يخترقها منخفض لسلم الصمدان. بدت الأرض وكأنها حقل شعير ضخم وبلا شك، فهي تمهد لمراعي عظيمة خاصة في المواسم الملائمة مثل موسم هذا الربيع. تلألأت كل البلاد بلمعان اللون الأخضر المصفر، للنباتات التي تتحرك كالأمواج إلى أميال بعيدة مع لمسات خفيفة للهواء، وكانت طيور العوسق وطيور الهار الشاحبة وصقور أخرى في نشاط دائب تطارد فرائسها من جراد وفئران الصحراء وغير ذلك. لا يشتق اسم هذه الأرض الواسعة من اسم لوادٍ – لأنه لا يوجد وادٍ – ولكن من اسم غابة ضخمة للسلم، وهي واحدة من أميز سمتيها البارزتين. كانت السمة الثانية هي أرض السبخة، وتسمى سراجية تُفْتَح على الساحل من جبهة عرضها ميل واحد في مقابل جزيرة كبيرة تسمي جبل الملح وعدد من الجزر الصغيرة إلى الشمال والتي تحمي هذا الجانب من الساحل من أسوأ الطقوس. تقع قرية نخلة الصغيرة على الجانب الجنوبي من السبخة ويسكنها أناس يقومون بصناعة الملح المحلية. ينتج الملح في العديد من الأحواض الضحلة التي تبخر فيها مياه البحر. ويوجد في نخلة مركز خفر سواحل، ربما للتأكد من أن الملح لن يصدر قبل تسديد الرسوم.

وصلنا إلى أرض من كثبان رملية متدحرجة فيما يلي سلم الصمدان، يغطيها نبات العلقاء على السفوح ونبات الثمام في المنخفضات. يتحلل هذا تدريجياً إلى سهل رملي به كتل من نبات الثمام، وقد انتشرت فيه أشجار السلم. كانت هنالك مساحة واسعة تجاه البحر إلاَّ أنها منقطعة، تروى بمياه الأمطار، وتسمى شبرا ولعلها تعلم بداية دلتا الشعب اليماني، التي وصلناها بعد الغروب بقليل، بعد أن مررنا بقرية الحمرة الصغيرة عند طرف المنطقة المزروعة وقريبة جداً من البحر.

عسكرنا لقضاء الليلة، بعد أن عبرنا المجرى إلى الجانب الأيمن، بجوار بئر حمدانة، التي وقفت بجوارها عشتان لتاجر حضرمي آخر يحاول أن يزيد من دخله العادي بالاهتمام بحاجات الحجاج العابرين. كان بدوره غائباً -للأسف- ولعله في إجازة مع أسرته في الليث أو القنفذة، وترك ممتلكاته وراءه تحت عناية المحافظة[١]. سيعود في الوقت المناسب لخدمة الحجاج العائدين بعد أداء الفريضة في خلال عشرة أيام أو قريباً من ذلك. كانت بئر حمدانه، التي تبعد حوالي خمسين ياردة من الطريق، معطلة، حيث طغى عليه الركام والأوساخ التي جلبها السيل ولا علم لي إذا كان حديثاً هذا أم قديماً. كانت الليلة شنيعة للمرة الثانية بسبب أسراب الحشرات التي ربما أدت إلى الظهور المفاجئ لطائر البوم البني الذي لمحته على مدى انتشار ضوء مصباحي. كنت أسمعه ينعب طيلة الليل حتى غلبني النوم، ولعله يعشعش في الجوار.

يكُون كل من الشعب اليماني والشعب الشامي[٢] معاً أرضاً تسمى الشواق. كان كلاهما شريان صرف مهم، يهبطان من جرف الحجاز الرئيس ينحدر أولهما من بلاد زهران والآخر من عند بلاد بني مالك إلى الشمال أكثر. يتباعد مجراهما عند اقترابهما من البحر مسافة ميلين، غير أن منبعيهما يتباعدان مسافة خمسين ميلاً. ينحدر الشعب اليماني عبر سلسلة التلال إلى الشمال من سلسلة نخرة، بينما يمر الشعب الشامي خلال انحداره بنتوء بريم، الذي تقع تحته أو بجواره قرية

---

(١) في القديم يكثر مثل هذا النوع من التجار الذين كانوا يقفون على الطرقات لخدمة الحجاج، أما اليوم فأصبحت معظم الطرقات تشتمل على الخدمات الضرورية للمسافرين بوجه عام. (ابن جريس).

(٢) الشعب اليماني والشعب الشامي اللذان هما عبارة عن واديين حول قرية الشواق، ربما يطلق عليه أيضاً (الشاقتان اليمانية والشامية) وبخاصة إذا قصد بذلك (قرية الشواق) أو (قرية الصهوة) كما كانت تعرف قديماً. انظر: البلادي، **بين مكة واليمن**، ص ٦٥ . (ابن جريس).

ابن عساف وهي مـركز خارجي للأشراف. تقع قـرية الصفصفـة بالقرب من ذيل الشعب اليماني وعلى جانبها الأيمن على مسافة نصف ميل أسفل معسكرنا غير أنه لا يوجد دليل لنشاط غـير الزراعة العفوية في هذه المنطقة. كـان الوادي قد فاض حـديثاً ذلك لأن بطنه الرملي كـان رطبـاً في بعض أجزائه وكـذلك قاع الجـانبين الطمويين المرتفعين إلى خمسة أقدام. يبدو أن مسار السيل الرئيس كان على الجانب الشاطئ الأيمن. ووقف تل جبـل عمر إلى البعيـد ناحية الشمال في بروز، وفـيما عدا ذلك فإن المنظر بصـفة عامة كان مماثلاً لما قد شـاهدناه طيلة اليوم. لم نستطع رؤية البحر، أو جزره الخارجية من المعسكر، غير أن الساحل لم يكن أبعد من ميل واحد.

انبـثق فجـر اليوم الخامـس من ذي الحجـة ونحن في هذا الموقع، وبقى على الحج أربعة أيـام وطريق طويل ينتظرنا أن نقطعه، غـير أن جـمال العفـش المرهقة وصلت متأخرة ليلة أمس، مما يؤكـد عدم احتمال بداية مبكرة للسفـر. تحركنا تبعاً لذلك -كلنا معاً- بعد السـاعة الثامنة صباحاً -بقليل- وسرعـان ما تقدمت ومعي علي على بقية الرفاق. كـانت البلاد فيما يلي الوادي بلاد كثبان رمليـة وبها الكثير من الأراك والتي تجول فيها طريقنا على غير هدى ولم نتـحرك بعيداً حتى اكتشفت أن أعواد الكبريت الـروسية الصنع[1] التي اشتريتهـا في القنفذة أصابها بلل الندى أثناء الليل ولم تعد تشعل غليوني. قـررت تبعاً لهذا أن أتوقف وأن أرسل علي – على وجه السرعة– لإحضار أعـواد الكبريت الجافة. تجولت في هذه الأثناء أراقب الطيـور وقد وجدت قـرية لطيـور الدرسة الأرطولونيـة، ولعلها وصلت للتـو في

(١) لا يستغرب أن تكون أعواد الكبريت الروسية في القنفذة في منتصف القرن الهجري الماضي، بل كان يرد إليها معظم سلع العالم آنذاك؛ لأنها كانت من الموانى الهامة الرئيسة في الجزيرة العربية. (ابن جريس).

هجرتها وهي بين أشجار الأراك. كانت طيور الغداف الصحراوية متوافرة أيضاً، أما غير هذا فلا تبدو للمكان حياة. دخلنا فيما يلي مجرى عميقاً وضيقاً للفيضان إلى أرض النفود النظامية، ذات الكثبان العالية التي تغطيها النباتات الصحراوية ونبات زاحف يشبه نبات الغلفى الطفيلي الذي وجدناه في جنوب تهامة، تسمى هذه المقاطعة الحواتم وتُكَوِّن مدخلاً للشعب الشامي، الذي وصلناه بعد أن عبرنا مسافة نصف ميل من قرية الشرقية على يسارنا.

لم يكن هنالك ما يثير في شقة الشامية والتي تسمى أيضاً وادي الحواتم أو شعب الشراقية. يقع مجراها الرملي الفيضي بين جانبين من الطمي ارتفاعهما خمسة أقدام، ولم أر أثراً لسيل حديث فيه. دخلنا إلى أرض على الجانب البعيد لحقول الدخن، تنتشر فيها نباتات القطن وتمتد حتى قرية عمران الصغيرة التي تقوم مقام العاصمة لهذه المنطقة التي تتكون من حوالي اثنتي عشرة عشة بائسة متناثرة على الجانب الشرقي للطريق، وتقع بئر حشيف على بعد ميل واحد ناحية الشرق. لم يكن هنالك شيء يبرر تأخرنا هنا، وعليه فقد واصلنا سيرنا فوق أرض متدحرجة رملية، كان سير الحمير فوقها صعباً والتي تقع فيها وعلى بعد ميل واحد إلى يميننا قرية أم البساس الصغيرة أو بسيسية. كما تقع على يسارنا قرية مشابهة تسمى حديثة، كما كان علينا عبور مجرى أو مجريين وقد انتشرت حولهما مزارع دخن عشوائية، قبل أن نمر إلى داخل غابة واسعة من شجيرات السواد المنخفضة. استمرت هذه الغابة بعض المسافة، وبها مجارٍ عديدة ثانوية، تعترض طريقنا وبعض المساحات المكشوفة للزراعة على فترات زمنية مختلفة. كان كل هذا جزء من دلتا شقة الشامية المنتشرة، التي كنا قد عبرناها عند بئر قديمة مهجورة بلا اسم وقد وقف إلى جوارها متجر على جانب الطريق، فارغ كما كان حال المتاجر التي مررنا بها من قبل.

دخلنا الآن إلى منطقة تسمى خبت نجيع، تغطي غابة السواد جزءاً منها والجزء الآخر صحراء تنمو فيها كتل من نبات الثمام. سرنا فوق ممر كالبهو عبر الغابة شقة الإنسان، وقد تكاثفت الغـابة أثناء اختراقنا لها. أدى ظهور بعض الكثـبان الرملية إلى تخفـيف كآبة المنظر، غـير أن السفـر كان لطيفـاً وقد هب نسـيم بارد وكانت السماء خفـيفة السحب. ازدادت سرعة النسيم تدريجـياً وبدأ يدفع بالرمال مما أدى إلى تكوين ضباب خفـيف وقد تكاثف ليحجب الرؤيا عند الظهر خـاصة للأشياء البـعيـدة. وصلنا إلى مـا يقدر عـدده بست آبار في نجـيع على حـافة غـابة طلح صغيرة، ووقفنا قليلاً لإلقاء التحية على رجل طاعن في السن، شرس المنظر، وقد كان في صحبتـه امرأة طاعنة في السن، وابنته الجذابة وعمرها ثمانيـة عشر عاماً، يقومون بسقي أبقار أسرتهم، يصل عـمق الماء إلى ثلاث قامات في آبار غير مبطنة تم حفرها عبر الـرمل الطموي إلى طبقة الحصا السفلية، ويغطي فـمه إطار خشبي للوقاية. كـان هؤلاء القوم على الرغم من فقـرهم من الأشراف، من أكثـر الأسر نبلاً في الجزيرة العربية، وكانت السيدات يلبسن ثياباً فضفاضة طويلة، والتي بدت لا تتناسب مع ما يؤدينه من أعمال، إلى جـانب ارتدائهن للخمار. لا يستطع المرء أن يرى منهن غير العيون.

أدركنا ونحن نسير فوق الصحراء المعشبة، وعلى مسافة فيما يلي هذه الآبار، قطعاناً قليلة من الخرفان والتيـوس تقاد في اتجاه مكة لأجل شعائر الحج[1]. كانت عظام الفك والأفخـاذ لأحد الجمال الميتـة تنصب في الطريق كعلامـة تدل الحجاج

---

(١) كانت بلاد تهـامة والسراة الواقـعة إلى جنوب مكة المكرمـة، من أكثر البلدان التـي تصدر إلى أهل مكة المواشي والحبوب بأنواعـها، وقد أكدت على ذلك العديد من المصادر والمراجع المبكرة والمتـأخرة. للمزيد انظر: غيثان بن جريس. **دراسات في تاريخ تهامة السراة**، جـ١، ص ٣٧٥ وما بعدها. (ابن جريس).

على طريقــهم. وذلك على فترات في هذه المـنطقة التي تقوم فــيهــا الرمال بإزالة معالم الطريق. يمكن للمرء أن يرى هذه العظام على بعد تلمع فيه بيضاء مع ضوء الشمس. هبط طـريقنا الآن، ثم صعد، إلى خــارج المنخفض الذي يبـلغ عــرضه ميلاً واحداً والذي يسمى الوسقة[١] وفي مركزه حزام سبخة عريض، والذي يبدو وكأنه بطن خليج صـغير بدلاً من بطن واد، وقـد حفتـه على الجانبين مســاحات مطعمة بشجـيرات الجرم الخفيضة. كـانت توجد فيه أيضاً مجمـوعات من أشجار التنضب، وكان من بين الطيور التي شاهدتها، البلشون وطائر الصرد وطائر الأبلق وطائر الحشنة. كما شاهدت عدداً من الصقور تحلق عالية فوق رؤوسنا في أكثر من موقع كما كانت طيور القطاة المرقطة متوافرة.

واصلت الصحراء امتدادها فيــما يلي المنخفض، وعلى يميننا شريط طويل من كثبان رملية تجري مــوازيةً لطريقنا على امتداد الســاحل على مسافـة ميل ونصف الميل، ويبــدو أنها تفصل الــسبخــة عن الساحل. يســمى هذا القفــر خبت حــبوة وينفصل بواسطة منخفض سبخة غليط العريضــة عن غابة مدرج. يعترض السبخة خط صرف يجــري إلى السلسلة الرملية الساحليــة التي ورد ذكرها وينتشر شــمالاً وجنوباً على امــتداد جانبــها الأرضي الداخلي على هيــئة شريــط طويل عريض. نستطيع رؤية ظلال التلال حــول الليث إلى البعيد فيمــا يلي أرض مدرج الخضراء وعبر الضباب المتــزايد. توجد بركة مياه أمطار كبيرة في حوض الســبخة، غير أننا كنا سعداء جداً بالخــروج من منطقة غليط إلى غابة السواد الكثيــفة التابعة لمدرج.

---

(١) الوسقة: يطلق عليها في العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة اسم (البزواء) وهي التي يقول فيها أبو دهبل الجمحي.

وجازت على البزواء والليل كاسرٌ جناحيه بالبزواء ورداً وأدهما

انظر: البلادي، **بين مكة واليمن**، ص٥٤ . (ابن جريس).

كانت هنالك بعض المساحات العشوائيـة المعدّة لزراعة الدخن غير أن أهم سمة في هذه الأرض هي سلسلة الكثـبان الرمليـة الشبـيهـة بالنفـود التي تنحني في بعض المناطق إلى تجاويف، تذكرني بتكوينات حدوة الحصان[1] في الربع الخالي ومناطق أخرى من صحراء الجزيرة العربية الحقيقية.

لاحظنا أثناء سيرنا باستـعجال سرباً من طائر الزقزاق، أما غيـر هذا فقد كان المنظر العام لغابة السـواد مملاً ما عدا ظهور عشـة من الأعواد من حين لآخر على حافة أرض زراعية غير قائمة. كانت الزراعة بصفة عامة فقيرة على الرغم من أنني قد شاهدت بعض حقول الدخن الجيدة. اختلفت كثافة الغابة من موقع لآخر. إلاّ أن ممرنا قد اخترق مـواقع في الغابة ترتفع أسوارها إلى اثني عشر قـدماً وقد تعرج بداخلها، ولم يكن أمامنا ما يمكن رؤيتـه غير الطريق. وصلنا في أحد المواقع إلى عدد من الثقوب المائية ويطلق عليها اسم رشيف في مساحة مكشوفة داخل الغابة، التي بدأت تخف فيما يلي ذلك في اتجاهها ناحية مجموعة أخرى من الثقوب المائية يطلق عليها اسم حصرة، على بعد نصف ميل إلى يمين الطريق في منطقة مكشوفة بالقـرب من سلسلة رمليـة. يطلق الأهالي المحلـيون اسم حـمض على السـواد. استمرت الغابة في تخـفيف كثافتها إلاّ أننا لا نزال بعيدين تمامـاً عن نهايتها، وقد أصابنا الملل برتابة السفر خلالها، لذلك قـررت أن نتوقف مدة نصف الساعة فوق ربوة رملية تظللها شجـيرة سواد ضخمة عن أشعة شـمس الظهيرة. أزعج وجودنا هنا طائر كروان كما شاهدت عدداً كـبيراً من الحمام طويل الذيل وهو يطوف حول حقـول الدخن المحتضرة لالتـقاط الحبوب السـاقطة. كما أمكننا رؤية البـحر على

(١) حدوة الحصان: أي نعل الحصان التي توضع في رجليه كي تقيه الأذى أثناء السير. (ابن جريس).

مسافة ميل ونصف الميل إلى الجنوب من موقعنا، بينما كان يقع شمالنا نخيل غميقة[1] في المناطق العليا من وادي الليث.

كان سبب توقفنا هو التعب إلى جانب الملل من رتابة السير. لقد كنت مرهقاً بحق، إلاّ أن فترة راحة قصيرة أعادت لي نشاطي لبذل مجهود آخر، وقد لحقت برفاقي عند الساعة الخامسة مساءً، الذين كانوا جادين في سيرهم للوصول إلى الليث نفسها. كانت الغابة أكثر انكشافاً الآن وكان بها الكثير من عشب الثمام وتوزع السواد فوق سطحها الرملي المتموج. كانت هنالك مساحة كبيرة مزروعة بالقطن على يميننا، كما كانت الرمال في بعض الأجزاء مختلطة بالطمي وقد تشبعت الأرض بآثار لمياه السيول. بدأت مساحات من مزارع الدخن تظهر على الجانبين، وكان من الواضح أن الغابة تمر بمرحلة تحوُّل. ينعكس هذا التحول في الاسم المحلي إذ يطلق على هذا الشريط الشمالي للغابة اسم مجيشة، وقد توصلت إلى الاستنتاج في وقت لاحق أن هذه الغابة كانت جزءاً خارجياً ولكن من صميم دلتا الليث، وتنفصل عن بقية الدلتا بحزام من كثبان رملية يكسوها نبات السواد. أدركتنا قافلة العفش في هذا الموقع عند غروب الشمس، ثم أقمنا معسكرنا بعد عشرين دقيقة لاحقه على الجانب البعيد من الرمال فوق ربوة ينمو عليها نبات تباع الشمس البري[2] (أزهاره بيضاء) وتطل على بعض المساحات المزروعة بالدخن حول ثقوب الماء في مجابر والعشش القليلة التي تكون القرية الصغيرة. توجد ربوة أخرى صغيرة على يمين الطريق أمامنا تنمو عليها أجمة كثيفة

---

(١) غميقة: عبارة عن قرية كبيرة على وادي الليث، تكثر فيها ومن حولها أشجار النخيل والآراك، وهذا ما يجعل المكان ذا خضرة دائمة جميلة. (ابن جريس).

(٢) يعرف هذا النبات محلياً بعبّاد الشمس، ولعل الاسم الصحيح هو تبّاع الشمس. (ابن جريس).

لنبات التنضب وتسمى تنضبات القرامطة. يبدو أن هذه الأجمة تعلم الطرف الفعلي لغابة مدرج وملحقها مجيشة، وذلك لأنهما معاً يحتويان على حقول الدخن الواسعة الانتشار في منطقة الدلتا الحقيقية. يقع الميناء البحري للّيث على بعد ميلين أو أكثر ويتميز ببناء الجمرك الأبيض اللون، وهو يقف بارزاً عند طرفها الغربي على لسان يبرز من البحر.

ناقشنا الخطط بعد تناولنا لعشاء اقتصادي. تبعد الليث عنا مسافة خمسة أميال، ومئة ميل عن الطريق إلى جدة، وعلى المسافة نفسها من مكة على طريق الحاج المباشر على وادي يلملم[1]. بقي أمامنا يومان كاملان، ولدى الضرورة، نصف يوم آخر لتغطية هذه المسافة، كما نعرف أنه لا بد لنا من أن نتأخر في الليث للاستمتاع بضيافة الحاكم وللحصول على حيوانات مواصلات جديدة بدلاً من تلك التي أوصلتنا من القنفذة. قررنا أن نسلك الطريق المباشر إلى مكة على أساس القناعة التامة بأننا مع حظ مواتٍ لنا سنغطي المسافة في الوقت المناسب. غطى ضباب رملي كثيف في ساعات الصباح كل المنطقة من حولنا، وبدأنا الرحلة الساعة الثامنة صباحاً. دخلنا المنطقة المزروعة للدلتا خلال عشر دقائق، وجرى طريقنا الواسع خلال حقول دخن متموجة كانت أكوازها قد ارتفعت إلى مستوى رؤوسنا ونحن نقود الحمير عبر الحقول. لا نستطيع إلاَّ رؤية اليسير القصير من الطريق، يحدد ذلك انحناءاته إلى مسافة مئة ياردة في كل مرة. ثم مررنا عبر قرية صغيرة، ثم ظهر أمامنا، بما لا يمكن أن يتصوره المرء من غرابة وما هو غير متوقع

(١) وادي يلملم: واد فحل من أودية الحجاز التهامية، يأخذ أعلى مساقط مياهه من شفاء بني سفيان على مقربة (٣٠) كيلاً جنوب غرب الطائف، ثم يندفع غرباً في انحدار عميق، فيمر بالسعدية ميقات أهل اليمن على الطريق التهامي، ثم يصب في البحر الأحمر جنوب جدة. (ابن جريس).

في مثل هذا الجوار. كانت أمامنا عربة ركاب أجرة ضخمة. كان البساط السحري أقل ترحيباً منها، وفي لحظات كنا نتبادل التحايا والأخبار مع اثنين من راكبيها: السائق ورسول عن أمير الليث. كان هذا بأمر الملك نفسه، أن ترسل إلينا السيارة من جدة لتستقبلنا، حتى نصل في الوقت المناسب للحج.

لم يستغرق نقل عفشي الضروري وقتاً كثيراً إلى جانب شخصي وسعد واثنين من رفاقنا الذين صحبوا قافلة الجمال والحمير للركوب داخل السيارة الواسعة. توقفنا بعد عشر دقائق من قيادة عبر ما لا نهاية له من حقول الدخن، عند بوابة قلعة الليث العظيمة لنتلقى التحية من الأمير نفسه عبدالله الهزاني. لم يترك كرم نجد شيئاً للمرء يتمناه، ووقعت فريسة مطاوعة لهذا الكرم مدة (٤,٥) ساعات ونصف الساعة ما عدا فترة قصيرة تجولت فيها في البلدة وجوارها. انتهت رحلتي بكل أغراضها العلمية، وستحملنا سيارة الأجرة الكبيرة إلى جدة في ثلاث ساعات بإضافة وقت أصرفه في دراسة المنطقة. لم أكن في عجلة من أمري، كما كان عليَّ أن أتأكد من الترتيبات التي تم إعدادها لرفاقي وللعفش الثقيل للتوجه مباشرة، وبأسرع فرصة إلى مكة عن الطريق المباشر، وربما كنت أسبق الأحداث إن قلت إنهم قد يصلون إلى مكة قبلي، وقد اضطروا إلى السفر القهري أثناء الليل.

كانت الليث مثبطة[١]، ما عدا مكتب جماركها الأبيض، الذي ورد ذكره ومسطبة الإنزال (اللاأسلكي) التي يبرز خارج الميناء الضحل والقصر العربي الذي

(١) الليث ليثان، واد وبلدة. فأما الوادي فهو من كبار أودية الحجاز التهامية، يأخذ أعلى مساقط مياهه من السراة الواقعة جنوب الطائف، ثم يسير غرباً حتى يصب في البحر، ويرفده العديد من الأودية الشمالية واليمانية مثل: أودية ذهب، وتانه، وفرضان، ومستنقع، وتثيل، وسلبه، وذرا، والسادة، وقرضان، وعظمان، والمطرق وفلح، ومقسا،ورقية. أما البلدة فتقع في وادي الليث، تبعد عن مكة المكرمة حوالي (١٨٥)كيلاً، وتوجد بها معظم وسائل الحياة المعيشية، بالإضافة إلى أنها ميناء صغير ترد إليه بعض القوارب والسفن الصغيرة، كما أن بها حركة لصيادي الأسماك. لمزيد من الإيضاح، انظر: شرف البركاتي، **الرحلة اليمانية**، ص ٣٧ ــ ٣٨، عاتق البلادي. **بين مكة واليمن**، ص ٣٠ ــ ٣٦ . (ابن جريس).

يرجع تاريخه إلى العصور الوسطى، وكان يستخدم مقراً للرئاسة الإدارية، بالرغم من حجمها الكبير. لم يكن حول الليث سور يطوقها وكانت المنازل مبعثرة، وبنسبة متساوية من الطين وسعف النخيل، كانت المساكن الطينية من طابق واحد، بالرغم من أن هنالك عدداً منها يتكون من طابقين، أما العشش المبنية من أعواد النخيل أو حظائرها فلم يكن هنالك ما يميزها. كان القصر بناءً مربعاً جميلاً من الطين، وكانت جدرانه سميكة ويصل طول الجدار إلى خمسين ياردة من كل جانب، كما كانت عليها حصون منخفضة دائرية.

كان الجانب الداخلي للقصر مرتباً بالأسلوب النجدي، وكانت غرفة الاستقبال الكبيرة مفروشة بالسجاجيد ومؤثثة بالأرائك والوسائد حول جوانبها. كانت وجبة الغداء عظيمة مكونة من عدد من الشياه فوق أكوام الأرز وقد جلسنا أنا ورفاقي مع الأمير وموظفيه الكبار حولها. لم أقم بزيارة الميناء ولا منزل الجمارك، وهما يقعان على مسافة تزيد عن الميل الواحد من القصر، غير أنني جمعت ما أحتاج إليه من معلومات من سطح القصر.

امتلأ الشريط الرئيس لوادي الليث الذي ينحدر من المرتفعات البركانية لحرة الصواملة على الجانب الجنوبي لجبل يلملم، وهو استمرار لبلاد الحمم البركانية التي ترتبت على جانبي طريقنا على امتداد كل الرحلة بحزام عريض من أشجار النخيل يمتد إلى ميلين ويقع على محور الشمال الشرقي – جنوب غرب. تصطدم شجيرات السواد من كل الجهات مع الوادي الفعلي بأعداد كبيرة، بينما تمتد حقول الدخن من جانب إلى آخر على الدلتا على امتداد الطريق وكان عرضها لا يقل عن

خمسة أميال. يقف المسجد الرئيس للبلدة بجوار القصر، وكان من الطين أيضاً، ولا شيء آخر يميزه.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف ظهراً حينما قمنا بوداع الأمير ودخلنا إلى السيارة للمرحلة الأخيرة للرحلة، مررنا خارج آخر حقول الدخن، على مسافة أقل من ميل واحد من القصر، القائم على دلتا الليث، ودخلنا إلى سهل سبخي واسع تنتشر فيه كتل معشبة من الرمل جعلت الحركة فوقها صعبة أول الأمر غير أننا سرعان ما وصلنا إلى أرض ثابتة لسبخة مسطحة ناعمة والتي قاد السائق السيارة فوقها بسرعة جيدة. كان كل هذا لا يزال جزءاً من منطقة دلتا السيول، واضطررنا بعد مسافة قصيرة أن ندور حول لسان للبحر دفعته الرياح الجنوبية السائدة هذه الأيام عبر الطريق.

تقع فيما يلي هذا أرض صحراوية يكسوها نبات الثمام الذي يغطي سطحاً تتبادل فيه الرمال مع الطمي والحصى الخفيف. لمعت تلال بريمة ودبرة على يميننا من خلال الضباب، وأشار دليلي ناحية اليسار من الدبرة إلى موقع بئر الخضراء وهي أول محطة يعسكر فيها الحجاج القادمون من الليث. لا تزيد المسافة بين الموقعين عن خمسة عشر ميلاً، غير أن قوافل الحجاج تسير ببطء، والمهم هو التوقف عند موقع شرب ماء مناسب. كانت المحطة الثانية هي السعدية[1]، علماً بأنه توجد بئر وُسْطى في قرية بئر عيشه ويناسب أولئك الذين لديهم ما يكفي من الوقت لتغطية الرحلة. كانت المحطة الثالثة هي بيضة، وفيما يليها مرحلة واحدة إلى مكة.

---

(١) السعدية: هي ميقات أهل اليمن على الطريق التهامي، وتقع في وادي يلملم، الذي تأتي مصبات مياهه من أعالي السروات جنوب الطائف، وتبعد السعدية عن مكة المكرمة حوالي (١١٠) كم. (ابن جريس).

كانت الرحلة من الليث إلى مكة على أربع مراحل لقوافل الحجاج، غير أن المسافر الأكثر نشاطاً يمكنه أن يغطيها في مرحلتين، وقد غطتها الجمال السريعة في يوم واحد.

يعترض طريق جدة، على مسافة ثلاثة عشر ميلاً من الليث، المجرى الرئيس الضحل لوادي غلا، الذي ينحدر من سلسلة الدبرة، في مكان ما أسفل آبار غمرة والعبدلية. يمتد الوادي هنا في مسطح طيني، غير أنه توجد على يمين طريقنا بعض مزارع الذرة والدخن تابعة لسكان الليث. لحقنا هنا بالفعل بأحد الحجاج الهنود الذين كنا قد قابلناهم على الطريق، وأشار إلينا متفائلاً أن نسمح له بالركوب معنا، غير أننا لم نستجب لطلبه، أولاً لأن السيارة كانت ممتلئة بدرجة غير مريحة، وثانياً أننا سنكون متغاضين عن انتهاكنا للقانون. تواصلت التلال على يميننا فيما يلي الدبرة باتصالها مع تل مرتفع يسمى النقعة، وقمتين بارزتين لرزام، والتي فيما يليها تجري سلسلة طويرف موازية للطريق على بعد ميلين. أسرعنا فوق الطريق الذي يقع بين حافة الصحراء المعشبة التي تفصلنا عن السلسلة وعن جبهة بحرية سبخية تمتد إلى البحر إلى مسافة.

ظهر الآن الرأس المزدوج لقمة السودة إلى يسار رزام، على بعد، بينما وجدنا الطريق وقد تقطع على فترات بواسطة المد العالي الذي دفعته الرياح الجنوبية. يعني هذا العديد من التحولات وأخيراً خرج الطريق من الساحل ليخترق روابي جيعرة الرملية التي تحف الوادي ودلتا وادي السعدية على الجانب الجنوبي. لقد غطينا مسافة خمسين ميلاً من الليث حينما وصلنا إلى الأرض العريضة المسطحة ذات الشجيرات التابعة لوادي السعدية ومشرب الماء الذي يسمى مجيرمة في وسطه.

كان هذا المشرب مهـماً ويعتقد أنه يشتـمل على حوالي ستين ثقباً مائيـاً ذات كمية كافيـة من المياه إلاَّ أنها مـالحة بعض الشيء وعمقـها يصل إلى قامتين فـقط. كان عرض الوادي عند شريـط عبورنا له حوالي أربعة أمـيال وينتشر أكـثر إلى الخارج أثناء اقترابه من السبخة والبحر. اكتـسب وادي السعدية اسمه من بئر بالاسم نفسه -سبق أن أشير إليه- مكوناً محطة للحجاج، وينحدر من سفوح جبل يلملم الذي يفصله عن وادي الليث. يكوّن الموقع السفلي من الوادي نفسه الحدود الإدارية بين محافظتي الليث وجدة[١].

يوجد فـيمـا يلي ذلك وادٍ عريض مـعشب، جـميل المنظر غـير أنه يتـحلل تدريجياً إلى صحراء ذات شجيرات خفيـضة تسمى عيثه. سافرنا فوق هذه الأرض الصحراوية الميل تلو الآخـر حتى أدركنا غروب الشمس، وقد توقفنا لفـترة وجيزة لأداء الصلاة ولتناول الـشاي. كانت البـلاد التي تقع أمامي الآن مـألوفة لديّ من رحلات سابقة من جـدة ومكة، وكنت قد وصلت خلالها إلى حافة صحـراء عيثه هذه. لم يكن هنالك مبـرراً -بناءً على ذلك- للانتظار هنا ليوم الغد، وعليـه فقد قررنا مواصلة السير ليلاً.

كان السائق على معرفة بالطريق، وكنا ننطلق على الطريق الصحراوي الرملي حتى كشفت لنا الأنوار الرئيسة للسـيارة وادي السوادية المشجر المظلم أمامنا. كنت كثيـراً ما أقدم إلى هنا من جدة مع مـجموعات من هواة الصـيد، وكنت أعلم أن بطن هذه السـبخة حـتى أثناء النهـار وحتى في الموسم الجـاف، تحتـاج إلى الحذر لتحاشي حفرها العديدة. لم أكن متوقعاً ومستعداً لما قد حدث الآن.

---

(١) للمزيد عن وادي يلملم، انظر: عاتق البلادي. **بين مكة واليمن**، ص ٢٧ ـــ ٢٩ . (ابن جريس).

لقد فاض وادي السوادية كغيره من أودية تهامة، وقد خلف السيل مساحات مستنقعية قبيحة فوق مجراه العريض. كانت واحدة من هذه المستنقعات تعترض الطريق. وكان يمكن الدوران حولها نهاراً، غير أن السائق وجد نفسه أمامها فجأة وقرر أن يقتحمها بسرعة وكاد أن ينجح في ذلك. غير أن السيارة توقفت، ثم تحركت، ثم توقفت مرة أخرى وتعطلت آخر الأمر. كنا في منتصف الوحل، على بعد ثمانية وأربعين ميلاً من الليث، وخمسين ميلاً من جدة، لم يكن لدينا من التجهيزات ما يسمح لقضاء ليلة في الصحراء، فضلاً عن كونها مستنقعاً، غير أنه لم يكن هنالك بديل. غير أن رفاقي نظروا للأمر من زاوية أخرى واجتهدوا برجولة أن يخرجوا السيارة من هذا الوحل، بينما جلست أنا في تكاسل أطالع الصحف التي بقيت معي من بريدي الأخير، على ضوء الأنوار الرئيسة. تم صرف النظر عند منتصف الليل عن محاولة إخراج السيارة من المستنقع، وتجمعنا كلنا في أكثر المواقع جفافاً في هذا القفر المستنقعي. ولكي يكون الأمر أكثر لطفاً، فقد هطلت أمطار قليلة أثناء الليل.

صحونا عند الفجر نستكشف موقع البلية وبدأنا العمل بلا توقف لقلع الشجيرات الصحراوية لنصنع طريقاً مرصوفاً للسيارة بهذه الشجيرات. كانت العجلات غاطسة تماماً وقد تضررت الشجيرات بضغطها وعندما كان كل شيء جاهزاً، استغل السائق السيارة وتحركت السيارة، وكأنما كانت في حاجة إلى فترة الراحة المسائية التي نالتها. كان كل شيء على ما يرام أخيراً.

ركبنا السيارة كلنا، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت قصور جدة تلمع في الضباب. كنت داخل منزلي في تمام الساعة العاشرة وسافرت عند الظهر إلى مكة.

ذهبت من هناك ظهر اليوم التالي إلى منى مع مجموعة الملك، وأديت حجتي حسب شعائر الحج. كان كل شيئ على مـا يرام حتى اليوم الأخير من عطلة ثلاثة الأيام بمنى، حـينما هاجمـتني الحمى اللـعينة[١] وظللت طريح الفراش في بؤس داخل خيمتي حتى وقت العصر، حينما اسـتجمعت بعض قوتي لقيادة السيارة إلى مكة. كـان انهـيـاري تاماً عندمـا وصلت إلى مـكة وكنت أعـاني من خليط من الأنفلونزا والحمى، اللتين سيطرتا عليَّ تماماً مدة أحد عشـر يوماً - نهاية غير طيبة لأعظم رحلاتي في الجزيرة العربية[٢].

---

(١) من السنة في الإسلام عدم لعن أو سب المرض إذا أصـاب الإنسان؛ لأن الذي أوجده هو الله عز وجل، والذي يشفي المريض منه هو الله عز وجل. (ابن جريس).

(٢) نعم من يستقرئ رحلات فيلبي في الجزيرة العربية على مدار (٤٠) سنة، بل من ينظر إلى جميع دراساته (كتباً ومقالات) سواء ما ترجم منها إلى العربية، وما لا زال بلغته الأصلية (اللغة الإنجليزية) فإنه يجد أن هذه الرحلة التي استـغرق فيهـا حوالي عشرة شهـور من أطول ومن أصعب رحلاته التي قـام بها خلال حياته العلمية. (ابن جريس).

الفهارس

أ - فهرس الأعلام

ب - فهرس القبائل والعشائر والأفخاذ

جـ - فهرس الأماكن

أ - فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(حـ)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(و)

(ي)



ب ـ فهرس القبائل والعشائر والأفخاذ

(ت)

(ج)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)



جـ - فهرس الأماكن

(أ)

(ت)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(ي)

محتويات الكتاب العامة

محتويات الجزأين

● أولاً: محتويات الجزء الأول

تابع محتويات الجزئين

• ثانياً: محتويات الجزء الثاني

تابع محتويات الجزئين



